BOBST LIBRARY
3 1142 01339 9699

New York University
Bobst Library
70 Washington Square South
New York, NY 10012-1091

DUE DATE	DUE DATE	DUE DATE

* ALL LOAN ITEMS ARE SUBJECT TO RECALL *

DUE DATE Bobst Library DUE DATE
Bobst Library
NOV 01 2005 MAR X 2 1999
MAY - 5 1997
BOBST LIBRARY CIRCULATION
CIRCULATION
DEC 23 1998
RETURNED
OCT 25 2001
NOV 14 2001
Bobst Library
Circulation
OCT 15 2003
Bobst Library
Circulation

108385

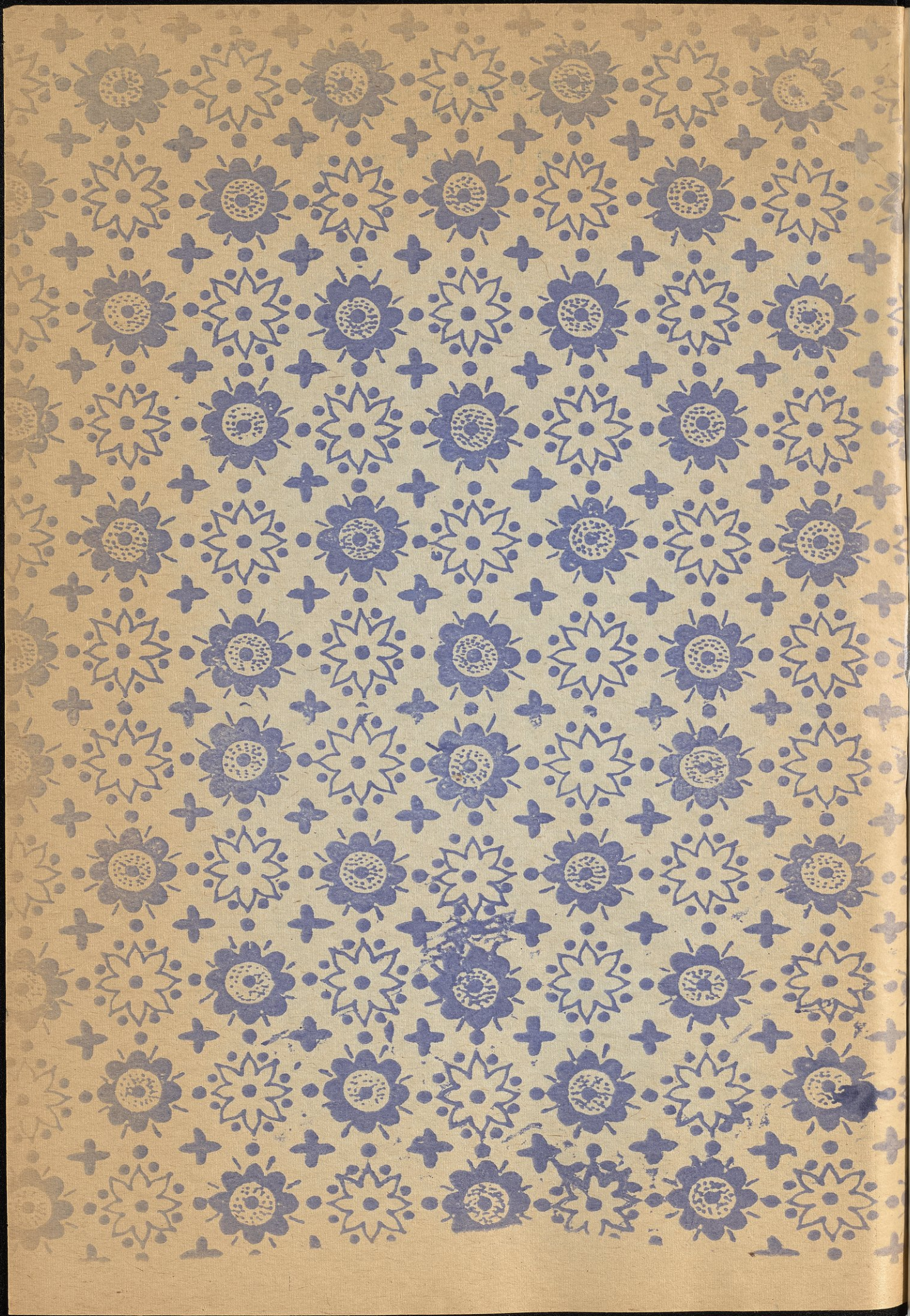

Provided by the Library of Congress
Public Law 480 Program

80-960182

01339-9699

BP
166
.4
.T5
1950z
c.1

al-Thaʿlabī Aḥmad ibn Muḥammad
/Qiṣaṣ al-anbiyāʾ/

قصص الأنبياء

المسمى بالعرائس

تأليف الإمام العالم العلامة ابن اسحق
أحمد بن محمد ابراهيم الثعلبى
تغمده الله برحمته واسكنه فسيح جناته

(وبهامشه كتاب روض الرياحين فى حكايات الصالحين)
(للعلامة اليافعى نفعنا الله به وبعلومه آمين)

(قوبلت وروجعت هذه الطبعة على عدة نسخ صحيحة)

الناشر
مكتبة الجمهورية العربية
لصاحبها: عبد الفتاح عبد الحميد مراد
بشارع الصنادقية بجوار الأزهر - بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حق حمده والصلاة والسلام على محمد وآله (قال) الأستاذ أبو إسحاق أحمد بن محمد بن ابراهيم الثعلبي رحمه الله تعالى هذا كتاب يشتمل على قصص الانبياء المذكورة بالقرآن بالشرح والله المستعان وعليه التكلان (باب فى ذكر بعض وجوه الحكمة فى تقصيصه تعالى أخبار الماضين على سيد المرسلين) قال الله تعالى (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) قالت الحكماء ان الله تعالى قص على المصطفى ﷺ أخبار الماضين من الأنبياء والامم الخالية خمسة أمور أى حكم (الحكمة الأولى) منها أنه إظهار لنبوته ﷺ ودلالة على رسالته وذلك أن النبى ﷺ كان أميا لم يختلف إلى مؤدب ولا إلى معلم ولم يفارق وطنه بمدة يمكنه فيها الانقطاع إلى عالم يأخذ عنه علم الأخبار ولم يعرف له طلب شىء من العلوم إلى أن كان من أمره ما كان فنزل عليه جبريل عليه السلام ولقنه ذلك فأخذ يحدث الناس بأخبار ما مضى من القرون وسير الأنبياء الماضين والملوك المتقدمين فمن كان من قومه عاقلا موفقا صدق بما يوحى الله اليه واخباره إياه بذلك فآمن به وصدقه وكان ذلك معجزة له ودليلا على صحة نبوته ومن كان منهم عدوا معاندا حسده وجحده وأنكر ما جاء به وقال كما أخبر الله تعالى (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا) قال الله تعالى تكذيبا لهم وتصديقا للنبى ﷺ (قل نزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض) (والحكمة الثانية) أنه إنما قص عليه القصص ليكون له أسوة وقدوة بمكارم أخلاق الرسل والأنبياء المتقدمين والأولياء والصالحين فيما أخبر الله تعالى عنهم وأثنى عليهم ولتنتهى امته عن أمور عوقبت أمم الأنبياء بمخالفتها عليها واستوجبوا من الله بذلك العذاب والعقاب فتمم الله له بذلك معالى الأخلاق فلما امتثل أمر الله تعالى واستعمل أدب الأنبياء أثنى الله عليه فقال تعالى (وإنك لعلى خلق عظيم) ولذلك قالت عائشة رضى الله تعالى عنها حين سئلت عن خلق رسول الله ﷺ كان خلقه القرآن (والحكمة الثالثة) أنه إنما قص عليه القصص تثبيتا له وإعلاء بشرفه وشرف أمته وعلو أقدارهم وذلك أنه لما نظر إلى أخبار الأمم قبله علم انه عوفى هو وأمته من كثير مما امتحن الله به الأنبياء والأولياء وخفف عنهم فى الشرائع ودفع عنهم الاثقال والاغلال التى كانت على الأمم الماضية كما قال بعض المتأولين فى تفسير قوله تعالى (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) أن النعمة الظاهرة تخفيف الشرائع والباطنة تضعيف الصنائع قال الله تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقال تعالى (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) وقال تعالى (يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا) فلما قص الله هذه القصص على نبيه رأى فضل نفسه وفضل امته وعلم أن الله خصه هو وأمته بكرامات لم يخص بها أحدا من الأنبياء والامم فوصل قيام ليله بنهاره وصيامه بقيامه لا يفتر عن عبادة ربه أداء لشكره حتى تورمت قدماه فقيل يا رسول الله أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبدا شكورا ثم افتخر عليه السلام فقال بعثت بالحنيفية السمحة (والحكمة الرابعة) انه إنما قص الله تعالى عليه القصص تأديبا وتهذيبا لأمته وذلك أنه ذكر الأنبياء وثوابهم والاعداء وعقابهم ثم ذكر فى غير موضع تحذيره إياهم عن صنع الاعداء وحثهم على صنع الاولياء فقال تعالى (لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين) وقال (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب) وقال (هدى وموعظة للمتقين) ونحوها من الآيات (وكان الشبلى رحمه الله تعالى) يقول فى هذه الآيات اشتغل العام بذكر القصص واشتغل الخاص بالاعتبار من القصص (والحكمة الخامسة) أنه قص عليه أخبار الانبياء الماضين إحياء لذكرهم (وآثارهم ليكون المحسن منهم فى إبقائه ذكره مثيبا له تعجيل جزاء فى الدنيا حتى يبقى لذكره وآثاره

الحسنة

اعاد الله علينا من بركاتهم فى

الحمد لله العظيم المنان الرحيم الرحمن الذى خلق الانسان وزينه بنطق اللسان وتفضل من شاء من عباده وهداه إلى طريق الايمان وشرف بعثه الأمة بالصلاة والصيام وتلاوة القرآن وجعل منهم الأولياء والأصفياء والشهداء والصالحين أهل العرفان وأولى الفضل والإيمان شرح لهم صدورهم وغفر لهم ذنوبهم وهداهم إلى صراط مستقيم صراط الله العزيز المنان أنعم عليه بانعامه وجاد عليهم باكرامه وسقاهم من كؤوس محبته فانتعشت من شراب قربه القلوب والأبدان ووعدهم بالنظر إلى وجهه الكريم فتوجهم بتاج الوقار وألبسهم من حلل رضائه ألوان فسبحان من تفضل عميم وجوده عظيم ولطفه قديم وهو الباقى وكل من عليها فان (أحمده) على طول الازمان وأتوب اليه وأستغفره استغفار أيوب الغفران وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الرحيم الرحمن وأشهد أن سيدنا محمدا ﷺ عبده ورسوله خير الخلائق من انس وجان اللهم صل على هذا النبى الكريم والرسول العظيم صلاة وسلاما دائمين متلازمين على طول الزمان (أما بعد) فهذه فوائد جليلة وطيبة نقلت من كتاب روض الرياحين فى مناقب الصالحين

الحسنة إلى قيام الساعة كما رغب خليل الله إبراهيم عليه السلام فى إبقاء الثناء الحسن فقال (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) والناس أحاديث يقال مامات ميت والذكر يحييه وقيل ما أنفق الملوك والاغنياء الاموال على المصانع والحصون والقصور إلا لبقاء الذكر وأنشدنا ناصر بن محمد المروزى قال أنشدنى الدريدى

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

(مجلس فى صفة خلق الأرض) قال الله تعالى (الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء) الآية ونظائرها كثيرة فى القرآن (واعلم) أن الكلام فى نعت خلق الأرض على سبعة أبواب

(الباب الأول فى بدء خلق الارض وكيفيتها)

روت الرواة بألفاظ مختلفة ومعان متفقة أن الله تعالى لما أراد أن يخلق السموات والأرض خلق جوهرة خضراء أضعاف طباق السموات والأرض ثم نظر اليها نظر هيبة فصارت ماء ثم نظر إلى الماء فغلى وارتفع منه زبد ودخان وبخار وأرعد من خشية الله فمن ذلك اليوم يرعد إلى يوم القيامة وخلق الله من ذلك الدخان السماء فذلك قوله تعالى (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) أى قصد بهمه إلى خلق السماء وهى بخار وخلق من ذلك الزبد الأرض فأول ماظهر من الأرض على وجه الماء مكة فدحا الله الأرض من تحتها فلذلك سميت أم القرى يعنى أصلها وهو قوله تعالى (والأرض بعد ذلك دحاها) ولما خلق الله الأرض كانت طبقا واحداً ففتقها وصيرها سبعا وذلك قوله تعالى (أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما) وثقل الدنيا وما عليها حرفان من كلام الله تعالى قال لها اجبار كونى فكانت فذلك قوله عز وجل (إنما أمرنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) ولذلك قال بعض حكماء الشعراء

لاتخضعن لمخلوق على طمع فان ذلك نقص منك فى الدين
واسترزق الله مما فى خزائنه فان رزقك بين الكاف والنون
واستغن بالله عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

ثم قالوا إن الأرض كانت تتكفأ على الماء كما تتكفأ السفينة على الماء فأرساها الله بالجبال وذلك قوله تعالى (والجبال أرساها) وقوله تعالى (والجبال أوتادا) وقوله تعالى (وألقى فى الارض رواسى أن تميد بكم) يعنى كيلا تتحرك بكم قال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أول ما خلق الله الأرض مجت وقالت يارب تجعل على بنى آدم يعملون على الخطايا ويلقون على الخبائث فاضطربت فأرساها الله تعالى بالجبال فاقرها وخلق الله تعالى جبلا عظيما من زبرجدة خضراء خضرة السماء منه يقال له جبل قاف فأحاط بها كلها وهو الذى أقسم الله به فقال (ق والقرآن المجيد) وروى يزيد بن هارون عن العوام بن حوشب عن سليمان بن أبى سليمان عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال لما خلق الله تعالى الارض جعلت تميد فخلق الجبال وألقاها عليها فاستقامت فتعجبت الملائكة من شدة الجبال فقالت يارب هل من خلقك شىء أشد من الجبال قال نعم الحديد فقالت يارب هل من خلقك شىء أشد من الحديد قال نعم النار فقالت يارب هل من خلقك شىء أشد من النار قال نعم الماء فقالت يارب هل من خلقك شىء أشد من الماء قال نعم الريح فقالت يارب هل من خلقك شىء أشد من الريح قال الإنسان يتصدق بيمينه فيخفيها عن شماله .

(الباب الثانى فى حدود الارض ومساقتها وأطباقها وسكانها)

(وروى) عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال بين كل أرض والتى تليها مسيرة خمسمائة عام وهى سبعة أطباق الارض الاولى هذه فيها سكانها والارض الثانية مسكن الريح ومنها تخرج الرياح المختلفة وفى الارض الثالثة خلق وجوههم مثل وجوه بنى آدم وأفواههم مثل أفواه الكلاب وأيديهم كأيدى الإنس وأرجلهم كأرجل البقر وآذانهم كآذان المعز وأشعارهم كأصواف الضأن لايعصون الله طرفة عين ليس لهم أثواب ليلنا نهارهم ونهارهم ليلنا والارض الرابعة فيها حجارة الكبريت التى أعدها الله

الدارين فبذكرهم تنزل الرحمات وتحل البركات قد أوردت فيها من أخبار السادات ومناقب القادات ومحاسن أهل السعادات بروايات صحيحات لنزول عن مطالعها الهموم والفكر ويطرب سامعها المحاسن تلك السير فسماعها ينعش الابدان ومطالعتها تزيل الاحزان وهذا أوان الشروع فى ذلك ونسأل الله تعالى أن ينفعنا بأوليائه وأن يحشرنا فى زمرة أهل ولائه (فمنها ما حكى عن سيدنا ذى النون المصرى رضى الله عنه) قال ركبت البحر مرة وركب معى شاب صبيح الوجه فلما توسطنا البحر فقد صاحب المركب كيسا فيه مال ففتش كل من كان فى المركب فلما وصل إلى الشاب ليفتشه وثب من المركب حتى جلس فى البحر فقام له الموج على مثال السرير ونحن ننظر إليه من المركب ثم قال ياموالاى إن مؤلاء اتهمونى وأنى أقسم عليك ياحبيب قلبى أن تأمر كل دابة من هذا البحر أن تخرج رأسها وفى فم كل واحدة منهن جوهرة قال ذو النون فما أتم الشاب كلامه حتى رأينا دواب البحر قد أخرجت رءوسها وفى فم كل واحدة منهن جوهرة تتلألأ وتلمع كالبرق ثم وثب الشاب ثانيا من البحر فى الموج وصار يمشى ولم تبتل قدماه وهو يقول إياك نعبد

لأهل النار تسجر بها جهنم قال النبي ﷺ والذي نفسي بيده إن فيها لأودية من كبريت لو أرسلت فيها الجبال الرواسي لانماعت (قال وهب بن منبه) هي مثل الكبريت الاحمر الصخرة منها مثل الجبل العظيم وأخبرنا أبو بكر بن عبدوس المزني قال أخبرنا أبو عبد الله محمد يونس المقرى قال حدثنا محمد بن منصور قال حدثنا أحمد بن الليث قال حدثنا أبو حفص عمر بن حفص الشقيري قال حدثنا علي بن الحسين قال سمعت منصور بن عمار يقول بينما أنا أردت الحج إذ دفعت إلى الكوفة ليلا وكانت ليلة مدلهمة انفردت من اصحابي ثم دنوت إلى زقاق باب دار فسمعت بكاء رجل وهو يقول في بكائه إلهي وعزتك وجلالك ما أردت بمعصيتي مخالفتك ولكني عصيتك إذ عصيتك بجهل وخالفتك لشقوتي فالآن من عذابك من ينقذني وبحبل من اتصل إذا انقطع حبلك عني واذنوباه واغوثاه يا الله قال منصور فابكاني والله فوضعت فمي على شق الباب وقلت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ان الله هو السميع العليم بسم الله الرحمن الرحيم (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة) الآية قال فسمعت عند ذلك اضطرابا شديدا ثم خمد الصوت فوضعت حجرا على الباب لأعرف الموضع فلما أصبحت غدوت اليه فاذا باكفان قد أصلحت وعجوز تدخل الدار باكية فقلت لها يا هذه هذا الميت لك فقالت اليك عني يا عبد الله لا تجدد على أحزاني فقلت اني أريد هذا لوجه الله الكريم لعلك تستودعيني دعوة فاني منصور ابن عمار واعظ أهل العراق قالت هذا ولدي فقلت وما كانت صفته قالت كان من آل رسول الله ﷺ يكتسب ما يكتسب فيجعله اثلاثا ثلثا لي وثلثا للمساكين وثلثا يفطر عليه وكان يصوم النهار ويقوم الليل حتى إذا كان آخر ليلة أخذ في بكائه وتضرعه فمر رجل في هذه الليلة وتلا آية من كتاب الله تعالى فلم يزل حبيبي يضطرب حتى أصبح وقد فارق الدنيا رحمه الله تعالى (وقال) منصور بن عمار ودخلت يوما خربة فوجدت شابا يصلي صلاة الخائفين فقلت: لعله من أولياء الله تعالى فوقفت حتى فرغ من صلاته فلما سلم سلمت عليه فرد علي فقلت له ألم تعلم أن في جهنم واديا يسمى لظى نزاعة للشوى تدعو من ادبر وتولى وجمع فاوعى فشهق شهقة فخر مغشيا عليه فلما أفاق قال زدني فقلت يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة الآية فخر ميتا فلما كشفت ثيابه عن صدره رأيت مكتوبا عليه بقلم القدرة فهو في عيشة راضية في جنة عالية قطوفها دانية فلما كانت الليلة الثانية نمت فرأيته في المنام جالسا على سرير وعلى رأسه تاج فقلت ما فعل الله بك فقال أعطاني ثواب أهل بدر وزادني فقلت له لم قال لأنهم قتلوا بسيف الكفار وأنا قتلت بسيف الملك الجبار (والارض الخامسة) فيها أهل النار كأمثال البغال لها أذناب كأمثال الرماح لكل ذنب منها ثلثمائة وستون فقار في كل فقار ثلثمائة وستون فرقا من السم كل فرق منها ثلثمائة قلة لو وضعت قلة منه على الارض لمات أهل الدنيا من نتنه وفيها أيضا حيات لكل منها ثمانية عشر ألف ناب كل ناب منها كالنخلة الطويلة في أصل كل ناب ثمانية عشر ألف قلة من السم لو أمر الله حية أن تضرب بناب من أنيابها أعظم جبل في الارض لهدته حتى يعود رميما وأنها لتلقي الكافر فتسمه فتقطع مفاصله (والارض السادسة) فيها دواوين أهل النار وأعمالهم وأرواحهم الخبيثة واسمها سجين قال الله تعالى (كلا إن كتاب الفجار لفي سجين) ٥ (والارض السابعة) جعلها مسكنا لإبليس وجنوده وفيها عشه في أحد جانبيه سموم وفي الآخر زمهرير وقد احتوشته جنوده من المردة وعتاة الجن ومنها بيت سراياه وجنوده فأعظمهم عنده منزلة أعظمهم فتنة لبني آدم وروى سلمة بن كهيل عن أبي الزرقاء عن عبد الله قال الجنة اليوم في السماء السابعة فاذا كان غدا جعلها الله حيث يشاء والنار اليوم في الارض السفلى فاذا كان غدا جعلها الله حيث يشاء وأما بعد قعر الارض فكافيك به حديث قارون حيث خسف الله به الارض وبداره وأمواله (وقال النبي ﷺ) بينما رجل يتبختر في برديه وينظر في عطفيه وقد أعجبته نفسه فخسف الله به الارض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .

وإياك نستعين حتى غاب عن بصري قال ذو النون فحملني ذلك على السباحة وتذكرت قول النبي ﷺ لا يزال في أمتي ثلاثون رجلا قلوبهم على قلب إبراهيم خليل الرحمن كلما مات واحد بدل الله مكانه واحدا

(وحكي عن سيدي إبراهيم الخواص رضي الله تعالى عنه) أنه قال طالبتني نفسي في وقت من الاوقات بالخروج إلى بلاد الروم فخوفت نفسي أن تكفيني ذلك فصرت على نفي الخاطر فلم تلتفت إلى ذلك فخرجت أخترق ديارهم وأجول أقطارهم والعناية تكفني والرعاية تحفني لا ألق نصرانيا إلا غض بصره عني وتباعد مني إلى أن أتيت مدينة من المدائن فرأيت على بابها رجالا لابسين السلاح وبأيديهم آلات الكفاح فلما رأوني أتوا إلي وقالوا أطبيب أنت قلت نعم فقالوا احملوه إلى الملك وعرفوه بالشرط قبل الدخول عليها قال إبراهيم فأخبروني وقالوا إن للملك ابنة قد أصابها اعتلال شديد وقد أعيا الاطباء علاجها وما من طبيب دخل عليها وعالجها ولم تبرأ إلا قتله الملك فانظر إلى نفسك قبل الدخول إليها قال إبراهيم فقلت لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ثم قلت إن الملك ساقني اليها فلما وصلت إلى باب القصر إذ هي تنادي من داخل الباب أدنو بالطبيب

(الباب الثالث فى ذكر الايام التى خلق الله تعالى فيها الارض)

قال الله تعالى (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين) الآية قال أبو اسحق قال شبك بيدى أبو بكر محمد بن أحمد القطان قال شبك بيدى احمد بن الحسين بن شاذان قال شبك بيدى إبراهيم بن يحيى قال شبك بيدى صفوان بن سليم قال شبك بيدى أيوب بن خالد الانصارى قال شبك بيدى عبد الله بن أبى رافع قال شبك بيدى أبى هريرة قال شبك بيدى أبو القاسم محمد ﷺ فقال خلق الله الارض يوم السبت والجبال يوم الاحد والاشجار يوم الاثنين والظلمات يوم الثلاثاء والنور يوم الاربعاء والدواب يوم الخميس وآدم يوم الجمعة .

(الباب الرابع فى ذكر أسمائها وألقابها)

(قال) وهب بن منبه الأولى من الارض تسمى أديما والثانية بسيطا والثالثة تقيلا والرابعة بطيحا والخامسة متناقلة والسادسة ماسكة والسابعة ثرى (وأما أسماؤها المذكورة فى القرآن) فهى سبعة أيضا سماها الله فراشا فقال (الذى جعل لكم الارض فراشا) وسماها قرارا فقال (أم من جعل الارض قراراً) وسماها رتقا فقال (أولم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا) وسماها بساطا فقال (والله جعل لكم الارض بساطا) وسماها مهادا فقال (ألم نجعل الارض مهادا) وسماها ذات الصدع يعنى بالنبات فقال (والارض ذات الصدع) وسماها كفاتا فقال (ألم نجعل الارض كفاتا) وقال خالد بن سعيد كنت أمشى مع الشعبى بظهر الكوفة فنظر إلى بيوت الكوفة فقال هذه كفات الاحياء ثم نظر إلى المقبرة فقال هذه كفات الاموات (ويحكى) أن عبد الله بن طاهر لما قدم نيسابور صحبه من أولاد المجوس شاب متطبب يدعى تحقيق الكلام وأظهر مسئلة تحريق الانفس بالنار وكان يزعم أن الجسد كنيف مدنس فى حال الحياة فاذا مات فلا حكمة فى دفنه والتسبب إلى زيادة نتنه وأن الواجب إحراقه واذراء رماده فقيل لبعض الفقهاء إن الناس قد افتتنوا بمقالة هذا المجوسى فكتب الفقيه إلى عبد الله بن طاهر أن اجمع بيننا وبين هذا المجوسى لنسمع منه فاجتمعوا عند عبد الله فلما تكلم المجوسى بمقالته تلك قال له الفقيه أخبرنا عن صبى تدعيه أمه وحملته أيهما أولى به فقال له الام فقال إن هذه الارض هى الام منها خلق الخلق فهى أولى بأولادها أن يردوا اليها فافحم المجوسى وأنشد فى معناه أمية بن أبى الصلت

والارض معقلنا وكانت أمنا ... فيها مقابرنا وفيها نولد

(ومثل) يحيى بن معاذ الرازى إن ابن آدم يدرى أن الدنيا ليست بدار قرار فلم يطمئن اليها قال لانه منها خلق فهى أمه وفيها نشأ فهى عشه ومنها رزق فهى عيشه واليها يعود فهى كفاته وهى ممر الصالحين إلى الجنة

(الباب الخامس فى ذكر مازين الله به الارض)

وهى سبعة أشياء الازمنة وزين الازمنة بأربعة أشهر قال الله تعالى (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والارض منها أربعة حرم) فالاربعة الاشهر الحرم منها ثلاثة سرد وواحدة فردفالثلاثة السرد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم والفرد رجب والامكنة وزينها بأربعة أشياء مكة والمدينة وبيت المقدس ومسجد العشائر وزينها أيضا بالانبياء عليهم السلام وزين الانبياء بأربعة إبراهيم الخليل وموسى الكليم وعيسى الوجيه ومحمد الحبيب صلوات الله عليهم أجمعين وهم أهل الكتب وأصحاب الشرائع وألوا العزم وزينها أيضا بآل محمد ﷺ وزينهم أيضا بأربعة على وفاطمة والحسن والحسين رضى الله عنهم (وروى) يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك قال صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الفجر فلما انتقل من الصلاة أقبل علينا بوجهه الكريم فقال يا معشر المسلمين من افتقد الشمس فليستمسك بالقمر ومن افتقد القمر فليستمسك بالزهرة ومن افتقد الزهرة فليستمسك بالفرقدين فقيل يارسول الله ما الشمس وما القمر وما الزهرة وما الفرقدان فقال أنا الشمس وعلى القمر وفاطمة الزهرة والحسن والحسين الفرقدان فى كتاب الله تعالى لا يفترقان حتى يردا على الحوض وزينها أيضا بالصحابة وزينهم أيضا بأربعة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وهم الخلفاء الراشدون والائمة المرضيون

قلى وله سر عجيب فبينما أنا كذلك إذا شيخ كبير قد فتح الباب مسرعا وقال ادخل فدخلت فاذا بيت مبسوط مفروش بأنواع الفرش وبستر موضوع ومن خلفه أنين ضعيف يخرج من جسد نحيف قال إبراهيم فقعدت من داخل الباب متفكرا وأردت أن أسلم فتذكرت قول النبى ﷺ لاتبدؤا اليهود والنصارى بالسلام فأمسكت عن السلام فنادت من داخل الستر أين سلام التوحيد والاخلاص يا أبا اسحق ياخواص فتعجبت من اجابتها بمخبآت الضمائر ثم قالت يا إبراهيم سألت رب العزة البارحة أن يرسل لى وليا من أوليائه يكون على يديه الخلاص فنوديت سيحضر عندك إبراهيم الخواص (قال إبراهيم) فقلت لها متى خطر عليك هذا الامر فقالت منذ أربع سنين وقد لاح لى الحق المبين فهو المحدث والانيس والمقرب والجليس فلما رأوا حالى رمونى بالعيون ورمونى بالجنون فادخل على طبيب إلا أوحشنى ولا زائر إلا ادهشنى قال إبراهيم فقلت لها وما الذى أوصلك اليه قالت براهينه الواضحة وآياته اللائحة فاذا وضح لك السبيل شاهدت المدلول والدليل (قال إبراهيم) فبينما أنا أكلمها إذ الشيخ الموكل بها قد دخل عليها وقال لها ما فعل فيك

رضى الله عنهم أجمعين (وروى) عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال لا يجتمع حب هؤلاء الأربعة إلا فى قلب مؤمن

(الباب السادس فى عاقبتها ومآلها وآخر حالها)

اعلم أن الله تعالى وعدها بسبعة أشياء أحدها التبديل وهو قوله تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض) وفى الخبر يؤتى بأرض بيضاء من فضة كالخبز النقى الحوارى لم يعص الله عليها قط طرفة عين ولا وصم فيها ولا قصم مستوية كالصلب المهند والثانى الزلزلة قال الله تعالى (إذا زلزلت الأرض زلزالها) الآية وقال رسول الله ﷺ لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم وتكثر الزلازل وتظهر الفتن ويكثر الهرج قيل وما الهرج يا رسول الله قال القتل فاذا أكلت أمتى الربا كانت الزلزلة وإذا جاروا فى الحكم اجترأ عليهم العدو وإذا ظهرت الفاحشة كان الوباء والموت وإذا منعوا الزكاة قحطوا ولولا البهائم لم يمطروا وفى الحديث ان الأرض تزلزلت على عهد عمر رضى الله عنه فأخذ بعضادتى منبر رسول الله ﷺ وقال يا أهل المدينة انكم رجفتم وأن الرجفة من كثرة الربا والزنى ونقصان الثمر من قلة الصدقة وانكم احدثتكم أشياء حتى اعجلتم فهل انتم منتهون أو يفر عمر من بين اظهركم والثالث البروز قال الله تعالى (وترى الأرض بارزة) يعنى لفصل القضاء والرابع الرج قال الله تعالى (إذا رجت الأرض رجا) قال المفسرون كما يرج الصبى فى المهد حتى يتكسر كل شىء عليها فرقا من ربها والخامس الرجف قال الله تعالى (يوم ترجف الأرض والجبال) والسادس المد حتى تتخلى وتلقى ما فى بطنها قال الله تعالى (وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت) والسابع الدك قال تعالى (إذا دكت الأرض دكا دكا) وقال تعالى (فدكتا دكة واحدة) ويحكى أن الربيع ابن خيثم كان إذا قرأ هذه الآية أخذ بجلد ذراعية ويقول يا لحماه ويا دماه اين أنتما يومئذ

(الباب السابع فى وجوه الأرض المذكورة فى القرآن)

وهى سبعة أولها مكة خاصة قال الله تعالى فى الرعد والانبياء (أولم يروا أنا نأت الأرض ننقصها من أطرافها) يعنى أرض مكة والوجه الثانى أرض المدينة قال الله تعالى (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) وقال تعالى (إن أرضى واسعة) وقال تعالى (وإن كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها) والثالث أرض الشام وذلك قوله تعالى (ادخلوا الأرض المقدسة) الآية يعنى بلاد الشام وقال تعالى (ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين) والوجه الرابع أرض مصر قال تعالى (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض) أى أرض مصر وقوله تعالى (اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم) وقوله تعالى (فلن أبرح الأرض) أى أرض مصر وقوله تعالى (إن فرعون علا فى الأرض) وقال (وليستخلفنهم فى الارض) أى أرض مصر والخامس أرض المشرق فذلك قوله تعالى (إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الارض) والسادس فى الارضين كلها وذلك قوله تعالى (وما من دابة على الأرض إلا على الله رزقها) وقوله تعالى (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) فى التسخير وقال تعالى (ولو أن ما فى الارض من شجر أقلام) وقال تعالى (الذى جعل لكم الأرض فراشا) والسابع أرض الجنة فذلك قوله تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) وقوله تعالى (وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين)

(مجلس فى ذكر خلق السموات وما يتصل به)

وترتيب الكلام فى هذا المجلس أيضا على سبعة أبواب لقول وهب بن منبه كادت الاشياء أن تكون سبعا فالسموات سبع والارضون سبع والجبال سبع والبحار سبع وعمر الدنيا سبعة آلاف والأيام سبعة والكواكب سبعة وهى السيارة والطواف بالبيت سبعة أشواط والسعى بين الصفا والمروة سبعة ورمى الجمار سبعة وأبواب جهنم سبعة ودركتها سبعة وامتحان يوسف عليه السلام سبع سنين قال تعالى (فلبث فى السجن بضع سنين) وايتاؤه ملك مصر سبع سنين (وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان) وكرامة الله

عندا قالت عرف العلة وأصاب الدواء وظهر على يديه السرور وقابلنى بالبر (وقال إبراهيم) فسار الشيخ للملك واخبره بمقابلتها فصرت اتردد عليها مدة سبعة أيام فقالت يا أبا إسحاق أريد الهجرة معك إلى بلاد الإسلام فقلت وكيف يكون ذلك ويتجاسر على الخروج من تلك العساكر والجنود فقالت يا إبراهيم لا تخف إن الذى أدخلك على وساقك إلى هو الذى يخرجنى معك ولم يشعر بنا أحد فقلت نعم انه على كل شىء قدير فلما كان الغد خرجنا من باب من الابواب فحجبت عنا العيون بإرادة من يقول للشىء كن فيكون فو الذى وفقها وهداها ما رأيت أصبر منها على الصلاة والقيام وحرمت على عينها لذيذ المنام وجاورت بيت الله الحرام مدة سبعة أعوام ثم قضت نحبها ولحقت بربها وصار بباب المعلى قبرها رحمة الله عليها ونفعنا بها فى الدنيا والآخرة آمين

(وروى) ان غلاما كان لجعفر الصادق رضى الله عنه صب الماء على يد سيده يوما من الايام فسقط الاناء من يده فى الطشت فصار الماء على ثوبه فنظر اليه نظرة منكرة فقال الغلام يا مولاى والكاظمين الغيظ قال جعفر كظمت غيظى فقال الغلام والعافين عن الناس قال جعفر عفوت عنك فقال الغلام والله يحب المحسنين قال جعفر

للمصطفى

ذهب فأنت حر لوجه الله تعالى ولك الف دينار من مالى وهذا من بعض كرامتهم وحسن أخلاقهم رضى الله عنهم

للمصطفى ﷺ سبع قال الله تعالى (ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم) والقرآن سبعة أسباع وتركيب ابن آدم على سبعة أعضاء وخلقه من سبعة أشياء قال تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) إلى قوله (فتبارك الله أحسن الخالقين) ورزق الإنسان وغذاؤه من سبعة أشياء قال الله تعالى (فلينظر الإنسان إلى طعامه) إلى قوله (متاعا لكم ولأنعامكم) وأمر بالسجود على سبعة أعضاء .

(الباب الأول فى بدء خلق السموات)

روى فى الاخبار المشهورة المأثورة أن الله سبحانه وتعالى لما أراد أن يخلق السموات والارض خلق جوهرة مثل السموات السبع والأرضين السبع ثم نظر اليهم نظرة هيبة فصارت ماء ثم نظر إلى الماء فغلا وارتفع وعلا وزبد ودخان فخلق من الزبد الأرض ومن الدخان السماء وذلك قوله تعالى (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) أى قصد ثم فتقها بعد أن كانت طبقة واحدة فصيرها سبع سموات قال الله تعالى (أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما) (الباب الثانى فى جواهرها وأجناسها

قال الربيع بن أنس سماء الدنيا موج مكفوف والثانية من صخرة والثالثة من حديد والرابعة من نحاس والخامسة من فضة والسادسة من ذهب والسابعة من ياقوتة بيضاء .

(الباب الثالث فى هيئتها وحدودها)

قال الله تعالى (ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق) قال ابن عباس رحمه الله تعالى خلق الله السموات مثل القباب فسماء الدنيا قد شدت أقطارها والثانية بالثالثة وكذلك إلى السابعة والسابعة بالعرش فذلك قوله تعالى (بغير عمد ترونها) وعمادها من فوقها (وعن ابى هريرة) رضى الله عنه قال خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يتفكرون فقال فيما أنتم تتفكرون قالوا نتفكر فى الخلق فقال لهم تتفكروا فى الخلق ولا تتفكروا فى الخالق فانه لا تحيط به الفكرة تفكروا فى أن الله خلق السموات سبعا والأرضين سبعا وتحت كل أرض خمسمائة عام وبين السماء والارض خمسمائة عام وتحت كل سماء خمسمائة عام وما بين كل سماءين خمسمائة عام وفى السماء السابعة بحر عمقه مثل ذلك كله وفيه ملك قائم لا يجاوز الماء كعبه

(الباب الرابع فى أسمائها وألقابها)

(قال وهب بن منبه) أولها سماء الدنيا دياناج والثانية ديقاو والثالثة رقيع والرابعة فيلون والخامسة طفطاف والسادسة سمساق والسابعة اسحاقائل وأما أسماءها المذكورة فى القرآن فسبعة أولها البناء قال الله تعالى (والسماء بناء) والسقف قال الله تعالى (وجعلنا السماء سقفا محفوظا) والطرائق قال الله تعالى (وبنينا فوقكم سبع طرائق) والطباق قال الله تعالى (الذى خلق سبع سموات طباقا) والشداد قال الله تعالى (وبنينا فوقكم سبعا شدادا) والرتق والفتق قال الله تعالى (كانتا رتقا ففتقناهما) والدخان قال تعالى (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) (وروى) أن الملائكة قالت يارب لو ان السماء والارض حين أمرتهما عصياك ما كنت صانعا بهما قال كنت آمر دابة من دوابى فتبتلعهما قالت يارب فأين تلك الدابة قال فى مرج من مروجى قالت يارب فأين ذلك المرج قال فى علم من علومى قالت الملائكة سبحان ذى البسط القوى (وقد ورد عن الضحاك بن مزاحم الهلالى) حديث غريب حسن جامع لما تقدم من الابواب فى صفة السموات وحدودها وهيئتها وما فيها وأهلها وسكانها وأسمائها وألقابها وهو ما أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن محمد بن الحسين العدل حدثنا محمد بن جعفر قال أخبرنا الحسن بن علوية قال حدثنا اسمعيل بن عيسى قال حدثنا اسحاق ابن بشر عن جويبر عن الضحاك ومقاتل قالا خلق الله عز وجل سماء الدنيا وزينها وهى ماء ودخان وغلظها مسيرة خمسمائة عام وبينها وبين الأرض مسيرة خمسمائة عام ولونها كلون الحديد المجلى واسمها رقيعا وبينها وبين السماء الثانية مسيرة خمسمائة عام وفيها ملائكة خلقوا من نار وريح وعليها ملك يقال له الرعد وهو ملك موكل بالسحاب والمطر يقول سبحان ذى الملكوت وخلق السماء الثانية على لون النحاس وغلظها

(وحكى عن بعضهم رضوان الله عنه ونفعنا به) رأيت بعض المذنبين فى النوم بعد موته فقلت ما فعل الله بك قال وزنت حسناتى وسيآتى فرجحت سيآتى على حسناتى فصرت أنا متحيرا فبينما أنا كذلك إذ وقعت صرة من السماء فسقطت فى كفة الميزان فرجحت ثم سمعت قائلا يقول وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين قال ثم حللت الصرة فإذا فيها كف من تراب كنت ألقيته فى قبر مسلم ففغر الله لى بذلك وادخلنى الجنة فانظر إلى كرم الله تعالى وحسن لطفه بعباده (وحكى عن بعض الصالحين رضى الله تعالى عنه أن ملكا بنى دارا وأحسن بناءها وزينها وصنع فيها طعاما ودعا الناس اليها وأجلس على بابها العبيد والغلمان يسألون كل من خرج ويقولون هل رأيتم عيبا فيقولون لا وهم لا يمنعون أحدا من الدخول حتى جاء أناس فى آخر الناس عليهم مرقعات فلما دخلوا وأكلوا من تلك الوليمة تلقتهم العبيد والغلمان ثم سألوهم هل رأيتم عيبا فقالوا نعم رأينا عيبين اثنين قال فحبسوهم ورجعوا إلى الملك

فأخبروا بما قال مولاه فقال ما كنت أرضى بعيب واحد فكيف ارضى بعيبين ثم قال ائتوني بهم فاحضروهم بين يديه فسألهم عن العيبين ما هما فقالوا تخرب الدار ويموت صاحبها فقال الملك تعرفون دارا لا تخرب ولا يموت صاحبها قالوا نعم فقال الملك فأين هي فذكروا له الجنة ونعيمها وشوقوه اليها وذكروا النار وخوفوه منها ودعوه إلى عبادة الله تعالى فمالهم إلى ذلك وخرج من ملكه هاربا تائبا إلى الله تعالى فسأله تعالى التوبة والمغفرة

(وحكى عن الإمام أبي القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه انه قال) حججت سنة من السنين إلى بيت الله الحرام وزيارة النبي عليه الصلاة والسلام فبينما أنا في الطريق إذ سمعت صوتا موزونا يخرج من كبد محزون قال الجنيد فبادرت إلى ذلك الصوت حتى اوقفني بغلام كالقمر فلما رآني قال مرحبا بك يا ابا القاسم قال فتعجبت منه عجبا شديدا وقلت له حبيبي ومن أعلمك باسمي ولم ترني قبل ذلك فقال الثقت روحي وروحك في الملكوت فاعلمني بأسمك الحي الذي لا يموت ثم قال بالله عليك يا جنيد إذا أنا مت فغسلني وكفني في ثيابي هذه واطلع على هذه الربوة وناد الصلاة على هذا الغريب يرحمكم الله قال الجنيد ثم ان الشاب عرق منه الجبين

مسيرة خمسمائة عام وبينها وبين السماء الثالثة مسيرة خمسمائة عام وفيها ملائكة على الوان شتى صفوف يقولون سبحان ذي العزة والجبروت واسمها قيدوم وخلق الله فيها ملكا يقال له حبيب نصفه من نار ونصفه من ثلج وبينهما رتق فلا النار تذيب الثلج ولا الثلج يطفىء النار وهو يقول يا من ألف بين الثلج والنار ألف بين قلوب عبادك ومنها إلى السماء الثالثة مسيرة خمسمائة عام ولون السماء الثالثة كلون الشبة وغلظها مسيرة خمسمائة عام واسمها الماعون وفيها ملائكة ذوو أجنحة الملك منهم له جناحان وله أربعة أجنحة وله ستة أجنحة ووجوه شتى رافعون أصواتهم بالتسبيح يقولون سبحان الحي الذي لا يموت أبدا صفوف قيام كأنهم بنيان مرصوص لا يعرف أحد منهم لون صاحبه من خشيته الله تعالى وخلق الله السماء الرابعة وبينها وبين السماء الثالثة مسيرة خمسمائة عام وغلظها خمسمائة عام ولونها كلون الفضة البيضاء واسمها فيلون وفيها ملائكة يضعفون على ملائكة الثالثة وكذلك أهل كل سماء أكثر عددا من السماء التي تليها إلى الضعف وفي السماء الرابعة ملائكة لا يحصى عددهم إلا الله تعالى وهم كل يوم في زيادة وذلك قوله تعالى (وما يعلم جنود ربك إلا هو) قال وهم قيام وركوع وسجود على الوان شتى من العبادة يبعث الله تعالى الملك منهم في أمر من أموره فينطلق الملك ثم ينصرف فلا يعرف صاحبه الذي أتى جانبه من شدة العبادة وهم يقولون سبوح قدوس ربنا الرحمن الذي لا إله إلا هو قال وخلق الله السماء الخامسة وغلظها مسيرة خمسمائة عام ولونها على لون الذهب واسمها اللاحقون ومنها إلى السماء السادسة مسيرة خمسمائة عام وفيها ملائكة يضعفون على ملائكة الأربع سموات وهم ركوع وسجود لم يرفعوا أبصارهم ولا يرفعونها إلى يوم القيامة فاذا كان يوم القيامة قالوا ربنا لم نعبدك حق عبادتك وخلق الله السماء السادسة وغلظها مسيرة خمسمائة عام ومنها إلى السماء السابعة مسيرة خمسمائة عام وفيها جند الله الأعظم الأكبر الكروبيون لا يحصى عددهم إلا الله تعالى وعليهم ملك وجنده سبعون الف ملك منهم جنوده سبعون الف ملك وهم الذين ينعشهم الله في أموره إلى أهل الدنيا رافعون أصواتهم بالتهليل والتسبيح واسمها عاروس وهي من ياقوتة حمراء ثم خلق الله السماء السابعة غلظها مسيرة خمسمائة عام فيها جنود الله تعالى من الملائكة وعليهم ملك وهو على سبعمائة الف ملك كل ملك منهم له من الجنود مثل قطر السماء وتراب الثرى وخلق الله سبحانه وتعالى في كل يوم ما يشاء واسمها الرقيع وهي من درة بيضاء ومن السماء السابعة إلى مكان يقال له مرهوثا مسيرة خمسمائة عام وعليه جنود الله من الملائكة وهم رؤساء الملائكة وهم أعظمهم سوى الروح وحملة العرش الملك منهم له وجوه شتى وأجنحة شتى وأنوار شتى في جسده يشبه بعضهم بعضا رافعون أصواتهم بالتهليل ينظرون إلى العرش لا يفترون لو ان الملك منهم نشر جناحه لطبق الدنيا بريشه من جناحه ولا يعلم عددهم إلا الله تعالى وهو من فوق ذلك غمامة غلظها كغلظ سبع سموات وسبع ارضين ومن السماء السابعة اليها كما بين سبع سموات وسبع ارضين والعرش فوق ذلك في علیين لا يعلم منتهاه إلا الله تعالى

(الباب الخامس في ذكر الأيام التي خلق الله الأشياء فيها)

(روت الرواة) أن الله تعالى ابتدأ خلق الأشياء يوم الأحد إلى يوم الخميس وخلق في يوم الخميس ثلاثة اشياء السموات والملائكة والجنة إلى ثلاث ساعات بقيت من يوم الجمعة فخلق في الساعة الاولى الاوقات والآجال وفي الثانية الارزاق وفي الثالثة آدم عليه الصلاة والسلام وذلك قوله عز وجل (فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها) الآية

(الباب السادس في ذكر مازين الله به السموات)

وهي عشرة اشياء الشمس قال الله تعالى (وجعل الشمس سراجا) وقال الله تعالى (سراجا وهاجا) والقمر قال الله تعالى (وجعل القمر فيهن نورا) والكواكب قال تعالى (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب) وهي على ضربين منها معلق كتعليق القناديل في المساجد ومنها مركب كتركيب الفص في الخاتم وهي مع كثرتها مختلفة

الصوت وما خلق الله تعالى منها كوكباً على مثل كوكب (وفى بعض الأخبار) ما يكون من حيوان فى الأرض ولا دابة تدب دون العرش إلا وفى خلق الكواكب مثلها والعرش قال تعالى (رفيع الدرجات ذو العرش) (روى) جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أنه قال فى العرش تمثال جميع ما خلق الله تعالى فى البر والبحر وقال هذا تأويل قوله تعالى (وإن من شىء إلا عندنا خزائنه) وإن ما بين القائمة من قوائم العرش والقائمة الثانية لخفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام والعرش يكسى كل يوم سبعين ألف لون من النور لا يستطيع أن ينظر إليه خلق من خلق الله تعالى والأشياء كلها فى العرش كحلقة ملقاة فى فلاة وأن لله ملكا يسمى حزقيائيل له ثمانية عشر ألف جناح ما بين الجناح إلى الجناح مسيرة خمسمائة عام فخطر خاطر هل يقدر أن ينظر إلى العرش فزاده الله تعالى فى الأجنحة مثلها فكان له ستة وثلاثون ألف جناح ما بين الجناح إلى الجناح مسيرة خمسمائة عام ثم أوحى الله تعالى إليه أيها الملك طر فطار مقدار عشرين ألف سنة فلم يبلغ قائمة من قوائم العرش ثم ضاعف الله تعالى له فى الأجنحة والقوة وأمره أن يطير فطار مقدار ثلاثين ألف سنة فلم يبلغ رأس قائمة من قوائم العرش فأوحى الله تعالى إليه أيها الملك لو طرت إلى أن ينفخ فى الصور مع أجنحتك وقوتك ما تبلغ ساق عرشى فقال الملك سبحان ربى الأعلى فأنزل الله سبحانه وتعالى (سبح اسم ربك الأعلى) فقال النبى ﷺ اجعلوها فى سجودكم (وروى) عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه عن رسول الله ﷺ أنه قال الكرسى لؤلؤة طولها حيث لا يعلمه العالمون وقد جعل الله آية الكرسى أماناً لأهل الإيمان من الشيطان

(وروى) إسماعيل بن مسلم عن أبى المتوكل الباجى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه كان معه مفتاح بيت الصدقة وكان فيه تمر فذهب يوماً ففتح الباب فإذا الثمر قد أخذ منه ملء الكف ثم دخل يوماً آخر فإذا هو قد أخذ منه مثل ذلك ثم دخل يوماً آخر فإذا هو قد أخذ منه مثل ذلك فذكر ذلك أبو هريرة رضى الله عنه للنبى ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام أيسرك أن تأخذه قال نعم قال إذا فتحت الباب فقل سبحان من سخرك لمحمد فذهب ففتح الباب وقال ذلك فإذا هو قائم بين يديه فقال له يا عدو الله أنت صاحب الفعل قال نعم ثم قال لا أعود وما كنت أخذت منه إلا لأهل بيت فقراء من الجن فتركه ثم عاد فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال أيسرك أن تأخذه قال نعم قال فإذا فتحت الباب فقل مثل ذلك أيضاً ففتح الباب وقال سبحان من سخرك لمحمد فإذا هو قائم بين يديه قال له يا عدو الله ألست قد عاهدتنى أن لا تعود فقال دعنى هذه المرة فإنى لا أعود فتركه ثم عاد فأخذه الثالثة فقال ألست قد عاهدتنى أن لا تعود لا أدعك اليوم حتى أذهب بك إلى النبى ﷺ فقال لا تفعل فإنك إن تدعنى علمتك كلمة إذا قلتها لم يقربك أحد من الجن لا صغير ولا كبير ولا ذكر ولا أنثى قال له لتفعلن إن تركتك قال نعم قال فما هى قال الله لا إله إلا هو الحى القيوم حتى ختمها فتركه فذهب ثم بعد بعد ذلك فذكر ذلك أبو هريرة للنبى ﷺ فقال له أما علمت يا أبا هريرة هذه أنه كذلك صدق الخبيث واللوح والقلم قال الله تعالى وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين وقال تعالى ن والقلم وما يسطرون (وقال) ابن عباس أن مما خلق الله تعالى لوحاً محفوظاً من درة بيضاء دفتاه من ياقوتة حمراء كتابته نور وقلمه نور وعرضه كما بين السماء والأرض ينظر الله تعالى فيه كل يوم ثلثمائة وستين نظرة منها يخلق ويرزق ويحيى ويميت ويفعل ما يشاء فذلك قوله تعالى (كل يوم هو فى شأن) (ويروى) أن أول ما خلق الله القلم فنظر إليه نظرة هيبة وكان طوله كما بين السماء والأرض فانشق نصفين وقال أكتب فقال يا رب وما أكتب قال اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ثم قال بما هو كائن إلى يوم القيامة (ويحكى) أن ابن الزيات دخل على بعض الخلفاء فوجده مغموماً فقال له روح عنى يا ابن الزيات فأنشد يقول :

الهم فضل والقضاء غالب ... وكائن ما خط فى اللوح

فالتمس الروح وأسبابه ... أيأس ما كنت من الروح

والبيت المعمور (وروى) الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ

واسئل عن دب الزعفراني ولسئل عن والدتى وهى ولدى وقل لها إن الغريب يقرئكما السلام ثم شهق شهقة فمات رحمة الله تعالى عليه (قال الجنيد) فتأسفت عليه أسفاً شديداً ثم غسلته وكفنته وطلعت على الرابية كما قال وناديت الصلاة على الغريب يرحمكم الله قال الجنيد وإذا بجماعة قد أقبلوا من كل نهج عميق كأنهم البدور فصليا عليه ودفناه وانصرفت متحسراً عليه فلما قضيت حجى رجعت إلى بغداد ثم سألت عن ذلك الدرب فأرشدت إليه فلما دخلت الدرب نظرت فإذا بصبيان يلعبون فى الزقاق فنهض من بينهم غلام صغير السن حسن الوجه فصيح اللسان فقال يا أبا القاسم لعلك جئت تخبرنى بموت والدى قال فتعجبت من كلام الغلام على صغر سنه ومكاشفته ثم سلم على وأخذ بيدى وأتى إلى باب دار وطرق الباب فخرجت جوار عليها سيما الخير والصلاح فسلمت على وهى باكية العين حزينة القلب ثم قالت يا جنيد أين مات ولدى وقرة عينى فلعله مات بعرفة فقلت لها لا فقالت لعله مات بمنى فقلت لا فقالت لعله مات بالمزدلفة فقلت لها لا فقالت لعله مات بالبادية تحت شجرة

إن فى سماء الدنيا بيتاً يقال له البيت المعمور بحيال الكعبة وأن فى السماء السابعة بحراً من النور يقال له الحيوان يدخل فيه جبريل عليه السلام كل غداة فينغمس فيه انغماسة ثم يخرج فينتفض انتفاضة فيخرج منه سبعون ألف نظرة من نور فيخلق الله تعالى من كل قطرة ملكا فيؤمرون أن يأتوا البيت المعمور فيصلون فيه فيأتونه فيدخلونه ويصلون ثم يخرجون فلا يعودون إليه إلى يوم القيامة وسدرة المنتهى قال الله تعالى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى (قال) كعب وغيره دخل حديث بعضهم فى بعض هى شجرة فى السماء السابعة عما يلى الجنة وعروقها تحت الكرسى وأغصانها تحت العرش إليها ينتهى علم الخلائق كل ورقة منها تظل أمة من الأمم يغشاها ملائكة كأنهم فى فراش من ذهب وعليها ملائكة لا يعلم عددهم إلا الله تعالى ومقام جبريل عليه السلام وسطها والله أعلم (والجنة) قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه سئل رسول الله ﷺ عن الجنة كيف هى قال من يدخل الجنة حى لا يموت ومنعم لا يبأس ولا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه قيل يا رسول الله كيف بناؤها قال لبنة من ذهب ولبنة من فضة بلاطها مسك أذفر وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وترابها الزعفران (وروى) مجاهد عن مسروق عن أبى ذر قال قال رسول الله ﷺ إن السماء أطت وحق لها أن تئط ليس منها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك ساجد أو راكع أو قائم أو قاعد يذكر الله تعالى لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولخرجتم إلى الصحراء تجأرون إلى الله تعالى .

(الباب السابع فى ذكر مآلها وآخر حالها)

اعلم أن الله تعالى وعد السماء بسبعة أشياء أحدها المور قال الله تعالى (يوم تمور السماء موراً) يعنى تدور كدوران الرحا من هول يوم القيامة والثانى أخبر أنها تصير كالمهل فقال تعالى (يوم تكون السماء كالمهل) يعنى دردى الزيت والثالث أخبر أنها تصير وردة كالدهان قال الله تعالى (فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) والرابع الانشقاق قال الله تعالى (إذا السماء انشقت) والخامس الانفطار قال الله تعالى (إذا السماء انفطرت) والسماء منفطر به والانفطار أكثر من الانشقاق والسادس الانفراج قال الله تعالى (وإذا السماء فرجت) والسابع الكشط قال الله تعالى (وإذا السماء كشطت) أى نزعت من مكانها وطويت طياً قال الله تعالى (يوم تطوى السماء كطى السجل للكتب) الآية وأحسن الشاعر حيث قال :

إذا قيل من رب هذى السماء فليس سواه له مضطرب
ولو قيل رب سوى ربنا لقال العباد جميعاً كذب

(مجلس فى ذكر خلق الشمس والقمر وصفته سيرهما وبدأ أمرهما ومعادهما)

(قال ابن عباس) قال ألا أحدثكم بما سمعت من رسول الله ﷺ يقول فى الشمس والقمر وبدء خلقهما ومصير أمرهما قلنا بلى يرحمك الله فقال إن رسول الله ﷺ سئل عن ذلك فقال أن الله تعالى لما أتقن خلقه إحكاماً ولم يبق إلا آدم خلق شمسين من نور عرشه فأما ما كان من سابق علم الله تعالى أن يدعها شمساً فإنه خلقها مثل الدنيا من مشارقها ومغاربها أما ما كان من سابق علم الله أن يطمسها ويحولها قمرا فإنه خلقها دون الشمس فى العظم ولكن إنما يرى من صغرها شدة ارتفاع السماء وبعدها عن الأرض فلو ترك الله تعالى الشمس كما كان فى بدء الأمر لم يعرف الليل من النهار ولا النهار من الليل ولا يدرى الأجير متى يعمل ولا متى يأخذ أجره ولا يدرى الصائم إلى متى يصوم ولا إلى متى يفطر ولا تدرى المرأة كيف تعتد ولا يدرى المسلمون متى وقت صلاتهم ومتى وقت حجهم ولا يدرى المدينون متى يحل دينهم ولا يدرى الناس متى يزرعون ومتى يسكنون راحة لأبدانهم وكأن الله نظر لعباده وارحم بهم فأرسل جبريل عليه السلام فرجناحه على وجه القمر فهو يومئذ مثل الشمس ثلاث مرات فطمس عليه الضوء وبقى فيه النور فذلك قوله تعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة) فالسواد الذى فى جوف القمر مثل الخطوط فيه إنما هو أثر المحو ثم خلق الله تعالى الشمس من ضوء نوره ثم خلق الله تعالى للشمس عجلة فيها ثلثمائة وستون عروة ووكل بالشمس وعجلها ثلثمائة وستين ملكا من الملائكة من أهل سماء الدنيا قد تعلق كل منهم

شهيلان فقلت لها نعم قال شهقة فارقت روحها الدنيا رحمة الله عليها قال يا جنيد فنظر الغلام إلى السماء وقال إلهى وسيدى ومولاى لا مع أبى أخذتنى ولا مع جدتى خلفتنى اللهم بهما ألحقنى ثم شهق شهقة فمات رحمة الله عليهم أجمعين قال الجنيد فأخذ فى غسلهما وتجهيزهما ودفنهما رحمة الله عليهما والمسلمين .

وحكى عن عثمان الجرجانى رضى الله عنه قال خرجت من الكوفة أريد البصرة فرأيت فى الطريق امرأة عجوزاً عليها جبة من صوف وخمار من شعر وهى تمشى وتقول إلهى ما أبعد الطريق على من لم يكن له دليل وما أوحش الطريق على من لم تكن له أنيس قال عثمان فدنوت منها وسلمت عليها فردت على السلام وقالت من أنت يرحمك الله فقلت لها عثمان الجرجانى فقالت حياك الله يا عثمان أين تريد فقلت أريد البصرة لحاجة فقالت يا عثمان هلا أعلمت صاحب الحاجة يوجه بها إليك ولا يتعبك قلت ليس بينى وبينه تلك المعرفة فقالت وما الذى قطعك عن معرفته قلت كثرة الذنوب فقالت والله بئس ما صنعت أما والله لو وصلت حبلك بحبله لتمسكت منه بأقوى سبب وقضى حوائجك من غير تعب قال عثمان فلما سمعت قولها

بعروة من تلك العرا وخلق الله تعالى مشارق ومغارب فى أقطار الأرض وكنفى السماء ثمانين ومائة عين فى المشرق من طينة سوداء وثمانين ومائة عين فى المغرب مثل ذلك من طينة سوداء يفور غلیانها كغلى القدر إذا ما اشتد غلیانها وذلك قوله تعالى (وجدها تغرب فى عين حمئة) ومعنى حمئة سوداء من طين فكل يوم وليلة لها مطلع جديد ومغرب جديد ما بين أولها مطلعاً وأولها مغرباً أطول ما يكون النهار فى الصيف وآخرها مطلعاً مشرقاً وآخرها مغرباً أقصر ما يكون النهار فى الشتاء فذلك قوله تعالى (رب المشرقين ورب المغربين) يعنى آخرها ههنا وأولها ههنا وترك ما بين ذلك من المشارق والمغارب ثم جمعها بعد ذلك فقال (رب المشارق والمغارب) فذلك عدة تلك العيون كلها ثم خلق الله تعالى بحراً دون سماء الدنيا بمقدار ثلاثة فراسخ فهو موج مكفوف قائم فى الهواء بإذن الله تعالى لا يقطر منه قطرة والنجوم كلها ساكنة فى ذلك البحر وهو جار فى سرعة السهم وانطلاقه فهو فى الهواء مستو كأنه جبل ممدود ما بين المشرق والمغرب تجرى الشمس والقمر والخنس فى سرعة دوران الرحى من أهوال يوم القيامة وزلازلها فى ذلك البحر فذلك قوله تعالى (وكل فى فلك يسبحون) والفلك فى دوران العجلة فى لجة غمرة ماء ذلك البحر والذى نفس محمد بيده لو بدت الشمس من دون ذلك البحر لأحرقت كل شىء على وجه الأرض ولو بدا القمر من دون ذلك البحر لافتتن به أهل الأرض حتى يعبدونه من دون الله تعالى إلا ما شاء الله أن يعصمه من أوليائه وأهل طاعته (قال ابن عباس رضى الله عنه) قال على بن أبى طالب رضى الله عنه بأبى أنت وأمى يا رسول الله ذكرت مجرى الخنس مع الشمس والقمر وقد أقسم الله تعالى بالخنس فى القرآن مثل ما كان ذكر اليوم فما الخنس فقال عليه السلام يا على هن الكواكب الخمسة البرجيس وهو المشترى وزحل وعطارد وبهرام والزهرة فهذه الكواكب الخمسة الطالعات والجاريات مع الشمس والقمر فى الفلك وأما سائر الكواكب فكلها معلقات فى السماء كتعليق القناديل فى المساجد وهى تدور مع السماء دوراناً بالتسبيح والتقديس والصلاة لله تعالى ثم قال النبى ﷺ وإن أحببتم أن تستبينوا ذلك فانظروا دوران الفلك مرة من ههنا ومره من ههنا وإن لم تستبينوا الفلك فانظروا بياضها مرة من ههنا ومرة من ههنا فذلك دوران الشمس والقمر دوران الكواكب معاً كلها سوى هذه الخمسة ودورانها كما ترون فذلك صلاتها ودورانها يوم القيامة فى سرعة دوران الرحى من أهوال يوم القيامة فذلك قوله تعالى (يوم تمور السماء موراً) يعنى تدور دوراناً وتسير الجبال سيراً فإذا طلعت الشمس فإنها تطلع من بعض تلك العيون على عجلتها ومعها ثلثمائة وستون ملكاً ناشرى أجنحتهم يجرونها فى الفلك بالتسبيح والتقديس لله تعالى على قدر ساعات النهار والقمر كذلك على قدر ساعات الليل ما بين الطول والقصر فى الشتاء كان ذلك أو فى الصيف وما بينهما من الخريف والربيع فإذا أحب الله أن يبتلى القمر والشمس ويرى العباد آية من الآيات يستتيبهم رجوعاً من معاصيه وإقبالاً على طاعته تحركت الشمس على العجلة وقالت مرة خرت الشمس على العجلة فتقع فى غمرة ماء ذلك البحر وهو الفلك فإذا أراد الله تعالى أن يعظم تلك الآية ليشتد خوف العباد وقعت الشمس كلها فلا يبقى على العجلة شىء منها فذلك حين يظلم النهار وتبدو النجوم وذلك هو المنتهى من كسوفها فإذا أراد الله أن يجعل آية دون آية وقع النصف منها أو الثلث أو الثلثان فى الماء ويبقى سائر ذلك على العجلة وهو كسوف دون كسوف وابتلاء الشمس والقمر وذلك تخويف العباد واستعتاب من الله تعالى فأى ذلك كان صارت الملائكة الموكلة بعجلتها فرقتين فرقة منهم يقبلون على الشمس فيجرونها نحو العجلة والفرقة الأخرى تقبل على العجلة فتجرها إلى الشمس وهم فى ذلك يقودونها فى الفلك على مقادير ساعات النهار أو ساعات الليل ليلا كان أو نهاراً لكيلا يزيد فى طول ساعة وقد ألهمهم الله تعالى علم ذلك وجعل لهم تلك القوة التى ترون من خروج الشمس والقمر بعد الكسوف قليلا قليلا من ذلك السواد الذى يعلوه ثم هو من غمر ذلك البحر وهو خروجهما من ذلك الماء فإذا أخرجوها كلها اجتمعت الملائكة كلها فاحتملوها حتى يضعوها على العجلة وذلك حين تنجلى للعالم حتى يحمد الله تعالى على ما قوام لذلك ويتعلقون بعرى العجلة حتى يجروها بإذن

بكيت وقلت لها أريد منك الدعاء فقالت أعانك الله على طاعته وجنبك معصيته قال فلما عزمت على الإنصراف أخرجت من جيبى دراهم كانت معى فقسمتها بينى وبينها وقلت خذى هذه النفقة لتستعينى بها على حالك فقالت يا عثمان من أين لك هذه الدراهم فقلت لها إنى رجل أصعد إلى الجبل واحتطب منه حطباً واحمله على رأسى وابيعه فى أسواق المسلمين وأنفق ثمنه فقالت نعم الكسب الحلال أحل ما أكل المرء من كسب يمينه ولكن يا عثمان لو صححت معاملة ذى الجلال واتكلت عليه حق الاتكال لكفاك حمل الأحطاب من رؤوس الجبال ثم قالت يا عثمان أريد أن أريك كيف صححت معاملتى مع سيدى وصدق التوكل عليه فقلت بلى فبسطت يديها وهمهمت بشفتيها فإذا يداها مملوءتان دنانير فقالت خذ هذه أنت يا عثمان فوالله ما طمع عليها ملك ولا سلطان واعلم لو أحببت مولاك أغناك عن الخلق وكفاك ثم غابت عنى فلم أرها نفعنا الله تعالى بها آمين.

(وحكى عن بعض الصالحين رضى الله تعالى عنه قال) كنت ملاحا بنيل مصر

أهدى من الجانب الشرقى إلى وجه مشرق قد أقبل على وسلم على وقال تحملنى لله قلت نعم ثم قال ثانيا وتطعمنى لله قلت نعم فطلع الزورق فعدت به إلى الجانب الغربى فكان عليه مرقعة وبيده عصا وركوة فلما نزل قال أريد أن أحملك أمانة قلت وما هى قال إذا كان فى غد عند الظهر تجدنى ميتا تحت تلك الشجرة فغسلنى وكفنى فى الكفن الذى تجده تحت رأسى وصل على وادفنى تحت تلك الشجرة فإن قبرى بها وإذا فرغت من أمرى فخذ هذه المرقعة والركوة والعصا فإذا جاءك من يطلبهم فادفعهم إليه قال فتعجبت منه ثم تركنى ومضى فبقيت تلك الليلة متفكرا فلما أصبحت انتظرت الوقت الذى قال عليه الشيخ فلما جاء وقت الظهر نسيت فما ألهمت إلا قريب العصر فسرت إليه مسرعا فوجدته تحت الشجرة ميتا ووجدت كفنا تحت رأسه تفوح منه رائحة المسك قال فغسلته وكفنته فيه وصليت عليه وحفرت تحت الشجرة فوجدت قبرا مبنيا مرخما فدفنته فيه ثم عدت إلى موضعى ليلا والمرقعة والركوة معى فلما طلع الفجر وبان الجو إذا أنا بشاب قد أقبل فحددت النظر إليه فعرفته وكان من بعض صبيان الملاهى يرقص

الله تعالى فى لجة ذلك البحر حتى إذا بلغوا بها المغرب أدخلوها من بعض تلك العيون فتسقط من أفق السماء فى العين ثم قال ﷺ عجبت من خلق الله وما بين من القدرة فما لم يخلق أعجب منه (ومن ذلك قول جبريل عليه السلام) لسادة أتعجبين من أمر الله وذلك ان الله تعالى خلق مدينتين إحداهما بالمشرق والأخرى بالمغرب على كل مدينة منها عشرة آلاف باب ما بين كل باب إلى الآخر مسيرة فرسخ فأهل المدينة التى بالمشرق من بقايا عاد من نسل مؤمنيهم الذين كانوا آمنوا بهود عليه السلام واسمها بالسريانية برقيشا وبالعبرانية جابلق واسم المدينة التى بالمغرب بالسريانية برجيسا وبالعبرانية جابرسا نيوت على كل باب من هاتين المدينتين كل يوم عشرة آلاف رجل فى الحراسة عليهم بالسلاح إلى يوم ينفخ فى الصور والذى نفس محمد بيده لولا كثرة هؤلاء القوم وضجيج أصواتهم لسمع أهل الدنيا وقع هذه الشمس حين تطلع وحين تغرب من ورائهم ثلاث أمم لا يعلم عددهم إلا الله تعالى وهم منسك وتارس وتأويل ومن ورائهم يأجوج ومأجوج وأن جبريل عليه السلام انطلق بى إليهم ليلة أسرى بى إلى السماء فدعوت يأجوج ومأجوج إلى الله تعالى وإلى دينه وعبادته فأبوا أن يجيبونى فهم فى النار مع من عصى الله من ولد آدم وولد إبليس ثم انطلق بى إلى هاتين المدينتين فدعوتهم إلى الله تعالى وإلى دينه وعبادته فأجابوا وأنابوا فهم إخواننا فى الدين من أحسن منهم فهو مع المحسنين ومن أساء فهو مع المشركين ثم انطلق بى إلى الأمم الثلاث فدعوتهم إلى دين الله وعبادته فأبوا على وكفروا بالله وكذبوا برسله فهم مع يأجوج ومأجوج وسائر من عصى الله تعالى فى النار فإذا ما غربت الشمس رفع بها إلى السماء السابعة فى سرعة طيران الملائكة وتحبس تحت العرش فتستأذن من أين تؤمر بالطلوع من مغربها أم من مطلعها وتكسى ضوءا وإن كان القمر فنورا على قدر ساعات الليل والنهار ثم ينطلق بها إلى ما بين السماء السابعة وما بين أسفل درجات الجنان فى سرعة طيران الملائكة فتنحدر حيال المشرق من سماء إلى سماء فإذا وصلت إلى هذه السماء فذلك حين ينفجر الفجر عن الصبح فإذا انحدرت من بعض تلك العيون فذلك حين يضىء الصبح فإذا وصلت إلى هذا الوجه من السماء فذلك حين يضىء النهار فتلك مطالعها ومغاربها ما بين أولها عينا إلى آخرها عينا فى الطلوع والغروب فذلك تمام ستة أشهر ثم إذا رجعت كذلك من عين إلى عين فى الطلوع والغروب إلى آخرها عينا فذلك تمام السنة فعدة أيامها ولياليها ثلثمائة وستون ليلة وخلق الله عند المشرق حجابا من الظلمة فوضعه على البحر السابع مقداره عدة الليالى فى الدنيا منذ خلقها الله تعالى تنصرم فإذا كان عند غروب الشمس أقبل ملك من الملائكة الذين قد وكلوا بالليل فيقبض قبضة من ظلمة ذلك الحجاب ثم تستقبل المغرب فلا تزال تلك الظلمة تخرج من خلال أصابعه قليلا قليلا وهو يراعى الشفق فإذا غاب الشفق أرسل الظلمة جميعها ثم ينشر جناحيه فيبلغان أقطار الأرض وكنفى السماء ويجاوزان ما شاء الله خارجا فى الهواء فيسوق ظلمة الليل بجناحيه بالتسبيح والتقديس حتى يبلغ المغرب على قدر ساعات الليل فإذا بلغ المغرب أسفر الصبح من المشرق فضم جناحيه ثم يضم الظلمة كلها بعضها إلى بعض فيقبضها بكفيه ثم يقبض عليها بكف واحد نحو قبضته التى تناولها من الحجاب بالمشرق ثم يضعها عند المغرب على البحر السابع فمن هنالك ظلمة الليل إذا ما تثقل ذلك الحجاب إلى المشرق وإلى المغرب فإذا نفخ فى الصور انقضت أيام الدنيا فنور النهار من ضوء الشمس وظلمة الليل من ذلك الحجاب فلا تزال الشمس والقمر كذلك من مطلعهما إلى مغربهما إلى ارتفاعهما من السماء السابعة إلى محبسهما تحت العرش حتى يأتى الوقت الذى وقته الله تعالى لتوبة العباد وتكثر المعاصى فى الأرض ويذهب المعروف ولا يأمر به أحد ويفشوا المنكر فلا ينهى عنه أحد فإذا فعلوا ذلك حبست الشمس بمقدار ليلة تحت العرش وكلما سجدت واستأذنت ربها من أن تطلع فلا يؤذن

ويغشى وعليه ثياب رقاق وهو مخضوب اليدين وظهارة قدميه تحت إبطه فدنا منى وسلم على

لها ولا يرد لها جواب حتى يوافيها القمر فيسجد معها ويستأذن من أين يطلع فلا يؤذن لهما ولا يرد لهما جواب حتى يحبسهما مقدار ثلاث ليال للشمس وليلتين للقمر فلا يعرف طول تلك الليلة إلا المجتهدون فى الأرض وهم يومئذ عصابة قليلة فى الأرض فى كل بلد من بلاد المسلمين فى هوان بين الناس وذلة فى أنفسهم فيقام أحدهم تلك الليلة مقدار ما كان ينام قبلها من الليل ثم يقوم فيتوضأ ويدخل مصلاه فيصلى ورده ولا يصبح نحوما كان يصبح كل ليلة قبل ذلك فينكر ذلك ويخرج فينظر إلى السماء فإذا هو بالليل مكانه والنجوم قد استدارت فى السماء وصارت فى مكانها من أول الليل فينكر ذلك ويظن فيها الظنون ويقول خفت قراءتى أم قصرت صلاتى أم قمت قبل حينى قال ثم يقوم فيعود إلى مصلاه فيصلى نحو صلاته ثم ينظر فلا يرى الصبح فيخرج أيضاً فإذا هو بالليل مكانه فيزيده ذلك إنكاراً ويخالطه الخوف ويظن فى ذلك الظنون من السوء ثم يقول لعلى قصرت صلاتى أو خففت قراءتى أوقمت فى أول الليل ثم يعود وهو وجل خائف مشفق لما يتوقع من هول تلك الليلة فيقوم فيصلى أيضاً مثل ورده كل ليلة قبل ذلك ثم ينام فلا يرى الصبح فيخرج الثالثة فينظر إلى السماء فاذا هو بالنجوم قداستدارت مع السماء فصارت فى أماكنها اول الليل فيشفق عند ذلك شفقة المؤمن العارف لما كان يحذر فيلحقه الخوف وتلحقه الندامة ثم ينادى بعضهم بعضاً وهم قبل ذلك كانوا يتعارفون ويتواصلون فيجتمع المتهجدون من أهل بلده فى تلك الليلة فى مسجد من مساجدهم يجأرون إلى الله تعالى بالبكاء والصراخ بقية تلك الليلة فإذا ماتم لهما مقدار ثلاث ليال أرسل الله تعالى جبريل عليه السلام اليهما فيقول لهما أن الرب تعالى يأمركما أن ترجعا إلى مغربكما فتطلعا منه لاضوء لكما عندنا ولا نور فيبكيان عند ذلك وجلا من الله تعالى وخوف يوم القيامة فترجع الشمس والقمر فيطلعان من مغربهما قال فبينما المجتهدون يكون ويتضرعون إلى الله تعالى والغافلون فى غفلتهم إذ نادى مناد ألا إن الشمس والقمر قد طلعا من مغربهما فينظر الناس فإذا بهما أسودان لاضوء للشمس ولا نور للقمر مثلهما فى كسوفهما قبل ذلك فذلك قوله تعالى (وجمع الشمس والقمر) وقوله تعالى (إذا السماء كورت) فيرتفعان كذلك مثل البعيرين القرنين يتنازع كل منهما صاحبه استبانا ويتصارخ أهل الدنيا وتذهل الامهات عن أولادها والأحبة عن ثمرات فؤادها فتشتغل كل نفس بما كسبت فأما الصالحون والأبرار فإنه ينفعهم بكاؤهم يومئذ يكتب لهم ذلك عبادة وأما الفاسقون والفجار فلا ينفعهم ويكتب عليهم حسرة فإذا ما بلغ الشمس والقمر سرة السماء وهى منتصفها جاء هما جبريل عليه السلام فيأخذ بقرونهما ويردهما إلى المغرب فلا يغربهما من مغربهما من تلك العيون ولكن يغربهما من باب التوبة فقال عمر بأبى أنت وأمى يارسول الله وما باب التوبة فقال عمر خلق الله تعالى بابا التوبة خلف المغرب له مصراعان من ذهب مكللان بالدر والجواهر ما بين المصراع إلى المصراع أربعون سنة للراكب المسرع فذلك الباب مفتوح منذ خلق الله تعالى الدين إلى صبيحة تلك الليلة عند طلوع الشمس والقمر من مغربهما ولم يتب عبدا من عباد الله تعالى توبة نصوحا منذ خلق الدنيا إلى ذلك اليوم إلا ولجت تلك التوبة فى ذلك الباب. ثم ترتفع إلى الله تعالى فقال معاذ بن جبل بأبى أنت وأمى يارسول الله وما التوبة النصوح قال أن يندم العبد على الذنب الذى أصاب فيعتذر إلى الله تعالى ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلى الضرع قال فيغربهما جبريل عليه السلام من ذلك الباب ثم يردا المصراعين ثم يلتئم ما بينهما فيصير كأنه لم يكن فما بينهما صدع قط وإذا أغلق باب التوبة لم يقبل للعبد بعد ذلك توبة ولا تنفعه حسنة يعملها فى الإسلام إلا من كان قبل ذلك محسنا فإنه يجرى عليه ما كان يجرى عليه قبل ذلك اليوم فذلك قوله تعالى

وقال لى أنت فلان بن فلان

قلت نعم فقال هات الأمانة التى عندك وديعة لى فقلت وما هى قال مرقعة وعصا وركوة فقلت ومن أين لك هذا فقال لا ادرى إلا إنى كنت فى عرس فلان بالأمس أنا أرقص وأغنى إلى أن أذن المؤذن فنمت لأستريح فبينما أنا نائم إذا رجل أيقظنى وقال لى قم إن الله سبحانه وتعالى قد قبض روح فلان الولى وجعلك مكانه فسر إلى فلان فإن الشيخ أودع لك عنده وديعة وهى مرقعة وعصا وركوة فأخرجتهم إليه فخلع ثيابه واغتسل فى البحر وتوضأ ولبسها وأعطانى أثوابه وقال تصدق بهذه الثياب ثم ساد وتركنى فلم أدر أين ذهب فما قمت يومى ابكى إلى الليل فلما نمت رأيته رب العزة فى المنام وهو يقول يا فلان أثقيل عليك إن منحت على عبد من عبادى كان عاصيا وقبلته إنما ذلك فضلى أؤتيه من شئت ورحمتى وسعت كل شىء .

(وحكى) عن بعضهم رضى الله تعالى عنه قال كنت ساكنا ببغداد وكانت لى دويرة خراب فاحتجت لبناء حائط سقطت منها خرجت إلى موقف البنائين لأنظر رجلا لبناء الحائط فنظرت إلى شاب نحيف ذى وجه نظيف فجئت إليه ووقفت

بين يديه ثم قلت له حبيبي وما هو قال الأجرة درهم ودانق فقلت نعم قال وإذا أذن المؤذن دعني أصلي مع الجماعة فقلت نعم فسار معي إلى منزلي فخدم خدمة لم أر مثلها ولا أحسن منها فذكرت له الغداء فقال لا فعرفت أنه صائم فلما جاء وقت صلاة الظهر وسمع الأذان قال الشرط يا سيدي فقلت نعم فحل حزامه وتوضأ وضوءا ما رأيت أحسن منه ثم خرج إلى الصلاة مع الجماعة في المسجد ثم عاد إلى خدمته إلى أن سمع أذان العصر فقال الشرط ياسيدي فقلت له نعم فخرج وصلى مع الجماعة وعاد إلى خدمته فأتيت إليه وقلت له حبيبي فإن خدمة البنائين إلى العصر فما تستريح فقال سبحان الله إنما كانت خدمتي إلى الليل فلما جاء الليل أخرجت له درهمين فلما رآهما قال ماهذا قلت والله ياسيدي دما من بعض أجرتك لاجتهادك في خدمتك فرماهما إلي وقال والله لا أزيد على ما بيني وبينك شيئاً فرغبته فلم أقدر عليه فأخذ الدرهم والدانق وتوجه فلما كان الغد اتيت إلى الموقف فلم أجده فسألت عنه فقيل لي إنه لم يأت هنا إلا من السبت إلى السبت فلما جئت إليه فوجدته فلما رآني تبسم فقلت له باسم الله على الشرط الذي تعلمه فقال نعم وصار معي يخدم

أتريد الخدمة فقال نعم فقلت سر على بركة الله تعالى فقال بشرط أشرطه عليك فقلت

(يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً) فقال أبي بن كعب بأبي أنت وأمي يارسول الله فكيف بالشمس والقمر بعد ذلك وكيف بالناس والدنيا فقال يا أبي إن الشمس والقمر يكسيان النور والضوء بعد ذلك فيطلعان ويغربان كما كان قبل ذلك وأما الناس فإنهم مع ما رأوا من فظاعة تلك الآية وعظمتها يلحون على الدنيا ويحرون فيها الأنهار ويغرسون فيها الأشجار ويبنون فيها البنيان وأما الدنيا فلو نتج للرجل منهم فيها مهر لم يركبه حتى تقوم الساعة من لدن طلوع الشمس من مغربها إلى أن ينفخ في الصور فقال حذيفة جعلني فداؤك يارسول الله فكيف بهم عند النفخ في الصور قال ياحذيفة والذي نفسي بيده لينفخن في الصور لتقومن الساعة والرجل قد لاط حوضه فلا يشرع فيه الماء ولتقومن الساعة وقد أخذ ابن لقمته من تحتها فلا يشربه ولتقومن الساعة والثوب بين الرجلين فلا ينشرانه ولا يطويانه وليبيعانه ولتقومن الساعة والرجل قد رفع لقمته إلى فيه فلا يطعمها ثم تلا هذه الآية (ولتأتينهم بغتة وهم لا يشعرون) فإذا قامت الساعة قضى الله تعالى بين أهل الدارين وميز بين الفريقين أهل الجنة والنار وقبل أن يدخلوهما يدعو الله تعالى بالشمس والقمر فإذا كانا حذاء العرش خرا ساجدين لله تعالى ويقولان يا إلهنا قد علمت طاعتنا لك وأدبنا في طاعتك وسرعتنا للمضي في أمرك أيام الدنيا فلا تعذبنا بعبادة المشركين إيانا فقد علمت إنا لن ندعوهم إلى عبادتنا ولم ندخل عن عبادتك فيقول الله تعالى صدقتما وإني قد قضيت على نفسي أن أبدىء وأعيد وإني معيدكما إلى ما بدأتكما منه فارجعا إلى ما خلقتكما منه فيقولان ربنا خلقتنا فيقول خلقتكما من نور عرشي فارجعا إليه فيلتمع من كل واحد منهما برقة نور تخطف الأبصار فيختلطان بنور العرش فذلك قوله تعالى (ويبدىء ويعيد) قال عكرمة فقمت مع النفر الذين حدثوا عن كعب ما حدثوا به من أمر الشمس والقمر حتى أتيناه فأخبرناه بغضب ابن عباس وما وجدوه من حديثه وبما حدثنا عن رسول الله ﷺ فيهما مما بين مبدئهما إلى معادهما فقال كعب الأحبار إني حدثت عن كتاب دارس منسوخ قد تداولته الأيدي وابن عباس حدث عن كتاب حديث العهد بالرحمن جل جلاله ناسخ للكتب وعن سيد الأنبياء والمرسلين خير البشر ثم قام فمشى إلى ابن عباس فقال بلغني ما كان من وجدك من حديثي وما حدثت به من كتاب الله تعالى ومن سنة رسول الله ﷺ ألا وإني أستغفر الله من ذلك مع إني لم أتقوله من تلقاء نفسي ولكن حدثت عن كتاب دارس فلا أدري ما كان فيه من تبديل الكفار واليهود أنت حدثت ماحدثت عن كتاب حديث العهد بالرحمن ناسخ للكتب وعن سيد المرسلين وأنا أحب أن تحدثني بما حدثت به أصحابك من حديث الشمس والقمر فاحفظ عني الحديث فإذا حدثت بشيء من أمر الشمس والقمر فيما بعد هذا اليوم كان هذا الحديث الذي تحدثني به من مكان حديثي الأول قال عكرمة فو الله لقد أعاد عليه ابن عباس هذا الحديث وإني لأستقربه في قلبي باباً باباً فما زاد شيئاً ولا نقص شيئاً ولا قدم ولا أخر فزادني ذلك في ابن عباس رغبة وللحديث حفظاً والله أعلم .

(مجلس في قصة آدم عليه الصلاة والسلام وهو يشتمل على أبواب كثيرة)

(الباب الأول في ذكر وجوه الحكمة وخلق آدم عليه الصلاة والسلام)

قال الحكماء خلق الله الخلق ليظهر وجوده ولو لم يخلق لما عرف أنه موجود ليظهر كمال علمه وقدرته بظهور أفعاله المتقنة المحكمة لأنها لا تتأتى إلا من قادر حكيم وليعبد فإنه يحب عباده العابدين ويثيبهم عليها على قدر فضله لا على قدر أفعالهم وإن كان غنياً عن عبادة خلقه لا تزيد في ملكه طاعة المطيعين ولا ينقص من ملكه معصية العاصين قال الله تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون

إلا ليعبدون) ليظهروا إحسانه لأنه محسن فأوجدهم ليحسن إليهم وليتفضل عليهم فيعامل بعضاً بالعدل وبعضاً بالفضل وخلق المؤمنين خاصة للرحمة كما قال عز وجل (وكان بالمؤمنين رحيما) وقال تعالى (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) قال جعفر الصادق والضحاك ابن مزاحم أي للرحمة خلقهم وليحمدوه لأنه يحب الحمد (ويروى) أن آدم عليه السلام لما خلقه الله تعالى وعرض عليه ذريته وجد فيهم الصحيح والسقيم والحسن والقبيح والأسود والأبيض فقال يارب هلا سويت بينهم فقال الله تعالى إني أحب أن أشكر (قال) أبو الحسن البقال خلق الله تعالى الملائكة للقدرة وخلق الأشياء للعبرة قال الله تعالى (الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم) (قال العلماء) خلقكم لإظهار القدرة ثم رزقكم لإظهار الكرم ثم يميتكم لإظهار القهر والجبروت ثم يحييكم لإظهار العدل والفضل والثواب والعقاب ومنهم من قال الخلق جميعهم لأجل محمد ﷺ عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس قال أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام يا عيسى آمن بمحمد وأمر أمتك أن يؤمنوا به فلولا محمد ما خلقت آدم ولا الجنة ولا النار ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله فسكن وقيل خوفهم لأمر عظيم غيبة عنهم لا يجليه حتى يحل بهم ما خلقهم له قال الله تعالى (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون) وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه (يا أيها الناس اتقوا الله) ما خلق امرؤ عبثاً فيلهو ولا أهمل سدى فيلغوا وقال الأوزاعي بلغني أن في السماء ملكا ينادي كل يوم ألا ليت الخلق لم يخلقوا وليتهم إذ خلقوا عرفوا ما خلقوا له وقال بعضهم إذا أتوا ثم خلقوا عرفوا ما خلقوا له وجلسوا فتذكروا ماذا علموا وكان أبو عبد الرحمن الزاهد يهول في مناجاته إلهي غيبت عني أجلي وأحصيت علي عملي ولا أدري إلى أي الدارين منقلبي لقد أوقفتني وقفة المحزونين أبداً ما أبقيتني وقال بعض الحكماء يا ابن آدم انظر إلى خطر مقامك في الدنيا إن ربك حلف فقال (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وأن إبليس حلف فقال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين وأنت يا مسكين بين الله تعالى وبين إبليس مطروح ساه لاه والله أعلم.

(الباب الثاني في خلق آدم عليه الصلاة والسلام وكيفيته وصفته)

قال المفسرون بألفاظ مختلفة ومعان متفقة أن الله تعالى لما أراد خلق آدم عليه الصلاة والسلام أوحى الله إلى الأرض إني خالق منك خلقاً منهم يطيعني ومنهم من يعصيني فمن أطاعني منهم أدخلته الجنة ومن عصاني أدخلته النار ثم بعث إليها جبريل عليه السلام ليأتيه بقبضة من ترابها فلما أتاها جبريل ليقبض منها القبضة قالت له الأرض إني أعوذ بعزة الله الذي أرسلك أن لا تأخذ مني شيئاً يكون فيه غداً للنار نصيب فرجع جبريل عليه السلام إلى ربه ولم يأخذ منها شيئاً وقال يارب استعاذت بك فكرهت أن أقدم عليها فأمر الله عز وجل ميكائيل عليه السلام فأتى الأرض فاستعاذت بالله أن يأخذ منها شيئاً فرجع إلى ربه ولم يأخذ منها شيئاً فبعث الله تعالى ملك الموت فأتى الأرض فاستعاذت بالله أن يأخذ منها شيئاً فقال ملك الموت وإني أعوذ بالله أن أعصي له أمراً فقبض قبضة من زوايا ها الأربع من أديمها الأعلى ومن سبختها وطينها وأحمرها وأسودها وأبيضها وسهلها وحزنها فكذلك كان في ذرية آدم الطيب والخبيث والصالح والطالح والجميل والقبيح ولذلك اختلفت صورهم وألوانهم قال الله تعالى (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم) ثم صعد بها ملك الموت إلى الله تعالى فأمره أن يجعلها طيناً ويخمرها فعجنها بالماء المر والعذب والملح حتى جعلها طيناً وخمرها فلذلك اختلفت أخلاقهم ثم أمر جبريل عليه السلام أن يأتيه بالقبضة البيضاء التي هي قلب الأرض وبهاؤها ونورها ليخلق منها محمد ﷺ فهبط جبريل عليه السلام في ملائكة الفردوس المقربين الكروبيين وملائكة الصفح الأعلى فقبض قبضة من موضع قبر النبي ﷺ وهي يومئذ بيضاء نقية فعجنت بماء التسليم وعرعرت حتى صارت كالدرة البيضاء ثم غمست في أنهار الجنة كلها فلما أخرجت

الثالث أتيت الموقف فلم أجد فسألت عنه فقيل لي إنه ضيف في خيمة فلانة وكانت امرأة عجوزاً لها خيمة في الجبانة وكانت مشهورة بالصلاح والعبادة قال فسرت إليها فوجدت الشاب بها وهو مضطجع على الأرض وليس تحته شيء وتحت رأسه لبنة ووجهه يتهلل نوراً قال فسلمت عليه فرد علي السلام فقعدت عند رأسه أبكي على صغر سنه وغربته ثم قلت له حبيبي ألك من حاجة قال نعم إذا كان في غد تأتي ههنا عند الضحى تجدني ميتا فغسلني وكفني في هذه الخيمة واحفر قبري بها ولا تعلم بذلك أحداً وافتح جيب هذه الجبة واخرج ما فيها وامسكه عندك فإذا دفنتني وفرغت من أمري تصل إلى هرون الرشيد وادفع له ما تجده في الجيب واقرئه مني السلام قال فلما كان في الغد وصلت إلى تلك الخيمة فوجدته قد مات رحمة الله تعالى عليه قال فتأسفت عليه أسفاً ثم أخذت في غسله وتجهيزه وكفنته وصليت عليه في الخيمة وحفرت قبره بها كما قال ثم فتقت جيبه فرأيت ياقوتة تساوي ألف دينار قال فتعجبت من ذلك وقلت والله لقد زهد في الدنيا كل

من الأنهار نظر الحق سبحانه وتعالى إلى تلك الدرة الطاهرة فانتفضت من خشية الله تعالى فقطر منها مائة ألف قطرة وأربعة وعشرين ألف قطرة فخلق الله سبحانه وتعالى من كل قطرة نبياً فكل الأنبياء صلوات الله على نبينا وعليهم خلقوا من نوره ثم طيف بهائى السموات والأرض فعرفت الملائكة حينئذ محمداً ﷺ قبل أن تعرف آدم ثم عجنها بطينة آدم عليه الصلاة والسلام ثم تركها أربعين سنة حتى صارت طيناً لازباً ليناً ثم تركها أربعين سنة حتى صارت صلصالا كالفخار وهو الطين اليابس الذى إذا ضربته يدك صلصل أى صوت ليعلم أن أمره بالصنع والقدرة لا بالبطش والحيلة فإن الطين اليابس لا ينقاد ولا يتأتى تصويره ثم جعله جسداً وألقاه على طريق الملائكة التى تهبط إلى السماء وتصعد منه أربعين سنة فذلك قوله تعالى (هل أتى على الإنسان حين من الدهر) الآية قال ابن عباس الإنسان آدم والحين أربعون سنة كان آدم جسداً ملقى على باب الجنة وفى صحيح الترمذى بالإسناد عن رسول الله ﷺ فى تفسير أول البقرة أن الله خلق آدم بيده من قبضة قبضها من جميع الأرض من السهل والجبل الأسود والأبيض والأحمر فجاءت الأولاد على ألوان الأرض وسأل عبد الله بن سلام رسول الله ﷺ كيف خلق الله آدم عليه السلام فقال خلق رأس آدم وجبهته من تراب الكعبة وصدره وظهره من بيت المقدس وفخذه من أرض اليمن وساقيه من أرض مصر وقدميه من أرض الحجاز ويده اليمنى من أرض المشرق ويده اليسرى من أرض المغرب ثم ألقاه على باب الجنة فكلما مر عليه ملأ من الملائكة عجبوا من حسن صورته وطول قامته ولم يكونوا قبل ذلك رأوا شيئاً يشبهه من الصورة فمر به إبليس فرآه فقال لأمر ما خلقت ثم ضربه بيده فاذا هو أجوف فدخل فى فيه وخرج من دبره وقال لأصحابه الذين معه من الملائكة هذا خلق أجوف لا يثبت ولا يتماسك ثم قال لهم أرأيتم أن فضل هذا عليكم فما أنتم فاعلون قالوا نطيع ربنا فقال إبليس فى نفسه والله لئن فضل هذا على لأعصينه ولئن فضلت عليه لأهلكنه فذلك قوله تعالى (وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) يعنى ما أظهرت الملائكة من الطاعة وإبليس من المعصية وقوله تعالى (إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) وفى الخبر أن جسد آدم عليه الصلاة والسلام كان ملقى أربعين سنة تمطر عليه مطر الحزن ثم أمطر عليه السرور سنة واحدة فلذلك كثر الهموم فى أولاده وتصير عاقبتها الفرح والراحة. وأنشدنا فى هذا المعنى أبو عوانة المهرجانى.

يقولون إن الدهر يومان كله ... فيوم محبات ويوم مكارة
وما صدقوا فالدهر يوم محبة ... وأيام مكروه كثير البداءة

وأنشدنى ابن الأعرابى فقال:

محن الزمان كثيرة لا تنقضى ... وسروره يأتيك بالفلتات

وأنشد أبو بكر الصولى لابن المعتز:

أى شىء يكون أعجب من ذا ... لو تفكرت فى صروف الزمان
حادثات السرور توزن وزناً ... والبلايا تكال بالقفزان

(الباب الثالث فى صفة نفخ الروح)

قال العلماء فلما أراد الله أن ينفخ فى آدم عليه السلام الروح وأمرها أن تدخل فيه فقالت الروح مدخل بعيد القعر مظلم المدخل فقال للروح ثانية فقالت مثل ذلك وكذلك ثالثة إلى أن قال فى الرابعة ادخلى كرهاً وأخرجى كرهاً فلما أمرها الله تعالى بذلك دخلت فى فيه فأول ما نفخ فيه الروح دخلت من دماغه فاستدارت فيه مقدار مائتى عام ثم نزلت فى عينيه والحكمة فى ذلك أن الله تعالى أراد أن يرى آدم بدء خلقه وأصله حتى إذا تتابعت عليه الكرامات لا يدخله الزهو ولا العجب بنفسه ثم نزلت فى خياشيمه فعطس فحين فراغه من عطاسه نزلت الروح إلى فيه ولسانه فلقنه الله تعالى أن قال الحمد لله رب العالمين فكان ذلك أول ما جرى على

الزهد فلما فرغت من أمره ... وانصرفت من عنده وانتظرت خروج هارون الرشيد فلما خرج فى موكبه تعرضت له فى بعض الطريق ودفعت إليه الياقوتة فلما رآها خر مغشيا عليه فاحتوشتنى الخدمة وداروا بى فلما أفاق قال خلوا عنه ثم أخذ بيدى ومضى بى إلى مجلسه وقال لى يا أخى ما فعل الله بصاحب هذه الياقوتة فقلت له مات إلى رحمة الله تعالى ثم وصفت له كل ما كان منه فجعل الرشيد يبكى ويقول انتفع الولد وخاب الوالد ثم نادى يا فلانة فجاءت امرأة كأنها حورية فلما رأتنى أرادت أن ترجع فقال لها الرشيد ادخلى فدخلت وسلمت فرمى لها الياقوتة فلما رأتها صاحت وغشى عليها فلما أفاقت قالت يا أمير المؤمنين ما فعل بولدى صاحب هذه الياقوتة فقال لى صف لها صفته وقص عليها قصته فقصصت عليها ما كان منه فجعلت تبكى وتقول ما أشوقنى اليك يا قرة عينى يا ليتنى كنت أشفيك إذ لم تجد شافياً وأنيسة إذ لم تجد مؤنساً ثم بكت بكاء شديداً فقال لى أمير المؤمنين يا أخى هذا ولدى وكان معى قبل ولايتى هذا الأمر فكان يتردد على العلماء ويجالس الصلحاء فلما وليت هذا الأمر فقر عنى وتباعد منى فقلت لأمه هذه إن ولدك انقطع إلى عبادة الله سبحانه وتعالى فلا بد أن تصيبه الشدائد ومكابدة

الأحزان فادفعى هذه الياقوتة ليتنفع بها عند الاحتياج إليها فدفعتها له فخرجت عليه أن يمسكها فغاب عنا حديثه إلى أن يرمى لنا دنيانا ولقى الله تعالى تقياً نقياً ثم قال يا أخى أرنى قبره فخرجت به إلى قبره فبكى بكاء طويلا وسألنى الصحبة فقلت له يا أمير المؤمنين أن لى فى ولدك عظة وعبرة ثم مضيت من عنده حزيناً على ذلك الشاب رحمه الله تعالى ورضى الله عنه .

(وحكى عن الأصمعى رضى الله تعالى عنه قال) حججت سنة من السنين إلى بيت الله الحرام وزيارة النبى ﷺ فبينما أنا فى الطريق إذا برجل أعرابى بيده سيف عريض ورمح طويل كان يقطع بهما الطريق لأخذ أسباب المسلمين وأموالهم فلما دنا منى أراد أن يأخذ أسبابى فأسرعت نحوه وسلمت عليه فرد على السلام ثم قال من أين الرجل فقلت له فقير وعابر سبيل فقال ماصناعتك فقلت أقرأ القرآن وأعلمه لأطفال المسلمين فقال وما يكون القرآن فقلت كلام الله عز وجل فقال أو لله كلام فقلت له نعم فقال الأعرابى فأنشدنى من كلامه شيئاً قال الأصمعى فقرأت بسم الله الرحمن الرحيم وفى السماء رزقكم وما توعدون . فرمى الأعرابى سيفه ورمحه وقال :

لسانه فأجابه ربه عز وجل فقال يرحمك ربك يا آدم للرحمة خلقتك قال تعالى سبقت رحمتى غضبى ثم نزلت الروح إلى صدره فأخذ يعالج القيام فلم يمكنه وذلك قوله تعالى (وكان الإنسان عجولا) وقوله تعالى (خلق الإنسان من عجل) فلما وصلت الروح إلى جوفه اشتهى الطعام فهو أول حرص دخل جوف آدم عليه الصلاة والسلام (وفى) بعض الأخبار أن آدم عليه السلام لما قال له ربه يرحمك ربك يا آدم مد يده ووضعها على أم رأسه وقال أوه فقال الله مالك يا آدم فقال إنى أذنبت ذنباً فقال من أين علمت ذلك فقال لأن الرحمة للمذنبين فصارت تلك سنة فى أولاده إذا أصاب أحدهم مصيبة أو محنة وضع يده على رأسه وتأوه ثم انتشرت الروح فى جسده كله فصار لحماً ودماً وعظاماً وعروقاً وعصباً ثم كساه الله تعالى لباساً من ظفر وجعل يزداد كل يوم حسناً فلما قارف الذنب بدل بهذا الجلد وبقيت منه بقية فى أنامله ليتذكر به أول حاله (قال عبد الله بن الحرث) كانت الدواب تتكلم قبل خلق الله تعالى آدم عليه السلام جاء النسر إلى الحوت فقال لقد خلق الله اليوم خلقاً ورأيت شيئاً لينزلنى من وكرى وليخرجنك من البحر فلما أتم الله خلق آدم عليه الصلاة والسلام ونفخ فيه الروح فرظه وشفه وصوره وختمه ومنطقه وألبسه من لباس الجنة وزينه بأنواع الزينة يخرج من ثناياه نور كشعاع الشمس ونور نبينا محمد ﷺ فى جبينه كالقمر ليلة البدر ثم رفعه على سرير وحمله على أكتاف الملائكة وقال لهم طوفوا به فى سمواتى ليرى عجائبها وما فيها فازداد يقيناً فقالت الملائكة لبيك ربنا سمعنا وأطعنا فحملته الملائكة على أعناقها وطافت به السموات مقدار مائة عام حتى وقف على كل شىء معه ومن آياتها وعجائبها ثم خلق الله فرساً من المسك الأذفر يقال له الميمون له جناحان من الدر والجواهر فركبه آدم عليه الصلاة والسلام وجبريل أخذ لجامه وميكائيل عن يمينه وإسرافيل عن شماله فطافوا به السموات كلها وهو يقول السلام عليكم يا ملائكة الله فيقولون وعليك السلام ورحمة الله وبركاته فقال الله تعالى يا آدم هذه تحيتك وتحية المؤمنين من ذريتك فما بينهم إلى يوم القيامة ثم علمه الله تعالى الأسماء كلها (واختلف) العلماء فى هذه الأسماء فقال الربيع بن أنس أسماء الملائكة كلهم وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم أسماء ذريته كما قال الله تعالى (فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) وأكثر العلماء على أن الأمر بالسجود لآدم إنما توجه على الملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصة دون سائر الملائكة وكان ذلك سجود تعظيم وتحية لا سجود صلاة وعبادة فلما أمرهم بالسجود سجدوا إلا أبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين .

(الباب الرابع فى صفة خلق حواء عليها السلام)

قال المفسرون لما أسكن الله تعالى آدم الجنة كان يمشى فيها وحيشا لم يكن له من يجالسه ويؤانسه فألقى الله تعالى عليه النوم فنام فأخذ الله تعالى ضلعاً من أضلاعه من شقه الأيسر يقال له القصيرى فخلق منه حواء من غير أن أحس آدم بذلك ولا وجد له ألماً ولو ألم آدم من ذلك لما عطف رجل على امرأة ثم ألبسها من لباس الجنة وزينها بأنواع الزينة وأجلسها عند رأسه فلما هب آدم من نومه رآها قاعدة عند رأسه فقالت الملائكة لآدم يمتحنون علمه ماهذه يا آدم قال امرأة قالوا وما اسمها قال حواء قالوا صدقت ولم سميت حواء بذلك قال لأنها خلقت من شىء حى قالوا ولماذا خلقها الله تعالى قيل لتسكن إلى وأسكن إليها وذلك قوله تعالى (وهو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها) قال النبى ﷺ خلقت المرأة من ضلع أعوج فإن تقمها تكسرها وإن تتركها تستمتع بها على عوجها (وقيل) الحكمة فى أن الرجال يريدون على مرور الأيام والأعوام حسناً وجمالا لأنهم خلقوا من التراب والطين يزداد كل يوم حسناً وجمالا والنساء يزددن على مرور الأيام قبحاً لأنهن خلقن من اللحم واللحم يزداد على مرور الأيام فساداً وفى بعض الأخبار أن آدم عليه السلام لما رأى حواء مد يده إليها فقالت الملائكة مه يا آدم فقال ولم وقد خلقها الله تعالى لى فقالت الملائكة حتى تؤدى مهرها قال وما مهرها قالوا أن تصلى على محمد ﷺ ثلاث مرات قال ومن محمد فقالوا

آخر الأنبياء من ولدك ولولا محمد ما خلقت وروى سعيد بن جبير عن عبد الله بن عباس قال قال رسول الله ﷺ إذا أراد الله أن يخلق جارية بعث إليها ملكين أصفرين مكللين بالدر والياقوت فيضع أحدهما يده على رأسها ويضع الآخر يده على رجلها ويقولان بسم ربنا وربك الله ضعيفة خلقت من ضعيفة المنفق عليها معان إلى يوم القيامة

(الباب الخامس فى ذكر امتحان الله تعالى آدم عليه الصلاة والسلام وما كان منه فى ذلك)

قال أهل التاريخ لما أسكن الله تعالى آدم وحواء عليهما السلام أباح لهما نعيم الجنة كلها إلا شجرة واحدة وذلك قوله تعالى (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) إلى قوله فتكونا من الظالمين واختلفوا فى هذه الشجرة التى هى شجر المحنة ماهى فقال على رضى الله عنه هى شجرة الكافور وقال قتادة هى شجرة العلم وفيها من كل شىء علامة وقال محمد بن كعب ومقاتل هى السنبلة وقيل هى الحنطة وقيل الكرمة فوسوس لهما الشيطان حتى زين لهما الشجرة فأكلا منها هما ربهما عن أكله من ثمرة تلك الشجرة وحسن لهما معصية الله تعالى فى ذلك حتى أكلا منها وكان وصول عدو الله إبليس إليهما وتزيينه ذلك لهما على ما ذكره أصحاب الأخبار أن إبليس أراد أن يدخل الجنة ليوسوس لآدم وحواء فمنعه الخزنة من ذلك فقال يا ويلاه أنا أعبد الله منذ كذا وكذا ألف سنة ولم يدخلنى الجنة وهذا خلق خلقه الله تعالى الآن فأدخله الجنة فاحتال فى إخراج آدم عليه السلام من الجنة فوقف على باب الجنة وتعبد ثلثمائة سنة هنالك حتى اشتهر بالعبادة وعرفوه بها وهو فى كل ذلك ينتظر خروج خارج من الجنة يتوصل به إلى آدم فمكث على باب الجنة ثلثمائة سنة لا يأذن الله تعالى فى خروج خلق منها فبينما هو كذلك إذ خرج إليه الطاووس وكان سيد طيور الجنة فلما رآه إبليس قال له أيها الخلق الكريم من أنت وما اسمك فما رأيت من خلق الله أحسن منك قال أنا طائر من طيور الجنة إسمى طاووس فبكى إبليس فقال له الطاووس من أنت ومم بكاؤك فقال له إبليس أنا ملك من الملائكة الكروبيين إنما بكيت تأسفاً على ما يفوتك من حسنك وكمال خلقتك فقال له الطاووس أيفوتنى ما أنا فيه قال بلى وإنك تفنى وتبيد وكل الخلائق يبيدون إلا من تناول من شجرة الخلد فإنهم المخلدون من تلك الخلائق فقال الطاووس وأين تلك الشجرة قال إبليس هى فى الجنة قال الطاووس ومن يدلنا بمكانها قال إبليس أنا أدلك عليها إن أدخلتنى الجنة قال الطاووس كيف لى بإدخالك الجنة ولا سبيل إلى ذلك لمكان رضوان فإنه لا يدخل الجنة أحد ولا يخرج منها أحد إلا بإذنه ولكن سأدلك على خلق من خلق الله تعالى يدخلكها فإنه إن قدر على ذلك فهو دون غيره فإنه خادم خليفة الله تعالى آدم قال ومن هو قال الحية قال له إبليس فبادر إليها فإن لنا فيه سعادة الأبد لعلها تقدر على ذلك فجاء الطاووس إلى الحية وأخبرها بمكان إبليس وما سمع منه وقال إنى رأيت بباب الجنة ملكا من الكروبيين من صفته كيت وكيت فهل لك أن تدخليه الجنة ليدلنا على شجرة الخلد فأسرعت الحية نحوه فلما جاءته قال لها إبليس نحوا ما قاله للطاووس فقالت كيف لى بإدخالك الجنة ورضوان إذا رآك لم يمكنك من دخولها فقال لها أتحول ريحاً فتجعلينى بين أنيابك قالت نعم فتحول إبليس لعنه الله ريحاً ودخل فى فم الحية فأدخلته الجنة فما دخل إبليس الجنة أراها الشجرة التى نهى الله تعالى عنها آدم وجاء حتى وقف بين يدى آدم وحواء عليهما السلام وهما لا يعلمان أنه إبليس فناح عليهما نياحة أحزنتهما فبكيا وكان أول من ناح فقال له ما يبكيك فقال أبكى عليكما تموتان فتفارقان ما أنتما فيه من النعيم والكرامة فوقع ذلك فى أنفسهما وانغما لذلك وبكى إبليس ومضى ثم إن إبليس أتاهما بعد ذلك وقد أثر قوله فيهما فقال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى قال نعم قال كل من هذه الشجرة شجرة الخلد فقال نهانى ربى عنها فقال إبليس (ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) فأبى أن يقبل منه فأقسم لهما بالله إنه لهما لمن الناصحين فاغترا بذلك وما كانا يظنان أن أحداً يحلف بالله كاذباً فبادرت حواء إلى أكل الشجرة ثم زينت

لآدم

وبالقاطع الطريق وخائن ما كان فيه قال الأصمعى ففرحت بذلك فرحاً شديداً فما كان العام الثانى خرجت حاجاً إلى بيت الله الحرام فبينما أنا طائف بالبيت إذا رجل عليه سيما الخير والصلاح قد أقبل نحوى وسلم على وقال ألست صاحبى بالعام الماضى فقلت نعم فقال أنشدنى من كلام الله عز وجل شيئاً ثانيا قال الأصمعى فقرأت عليه فورب السماء والأرض أنه لحق مثل ما أنكم تنطقون قال فرفع الأعرابى رأسه وقال يا أصمعى ومن الذى ألجأه على هذا القسم وخر مغشياً عليه فحركته فإذا هو قد مات رحمة الله تعالى عليه ونفعنا به آمين .

(وحكى عن بعضهم رضى الله تعالى عنه) أنه قال فبينما النبى ﷺ فى الطواف إذ سمع أعرابياً يقول يا كريم فقال النبى ﷺ خلفه يا كريم فمضى الأعرابى إلى جهة اليمانى وقال يا كريم فقال النبى ﷺ خلفه يا كريم فمضى الأعرابى إلى جهة الميزاب وقال يا كريم فقال النبى ﷺ خلفه يا كريم فالتفت الأعرابى إلى النبى ﷺ وقال يا صبيح الوجه يا رشيق القد تهزأ بى لكونى أعرابياً والله لولا صباحة وجهك ورشاقة قدك لنكوتك إلى حبيبى محمد ﷺ قال فتبسم

سبيل رزقه فى السماء ويطلبه فى الأرض ثم تاب إلى الله تعالى وعاهده أن لا يعود إلى

لآدم حتى أكلها (روى) محمد بن إسحق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط قال سمعت الحسن بن محمد بن الحسين يقول سمعت أبي يقول سمعت جدي يقول سمعت سعيد بن المسيب يحلف بالله ولا يستثني آدم ما أكل من الشجرة وهو يعقل ولكن حواء سقته الخمر ثم قادته إليها فأكل ولذلك قال رسول الله ﷺ الخمر مجمع الخبائث وأم الذنوب ويقال لما قال الله تعالى لآدم وحواء لا تقربا هذه الشجرة قالا نعم لا نقربها ولا يأكل منها ولم يستثنيا في قولهما بمشيئته تعالى فوكلهما الله تعالى إلى أنفسهما حتى أكلا المنهي عنها (وقال) الشبلي إن آدم لما أكل من الشجرة المنهي عنها ابتلاه الله بعشرة أشياء (الأولى) معاتبته إياهما على ذلك بقوله ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين (والثانية) الفضيحة فإنه لما أصابا الذنب بدت لهما سوآتهما وتهافت عنهما ما كان عليهما من لباس الجنة فتحير آدم وصار هاربا في الجنة فتلقته شجرة العناب فأخذت بناصيته وناداه ربه أفرارا مني يا آدم قال بلى يا رب ولكن حياء منك ولذلك قيل كني بالمقصر حياء يوم القيامة ويروى أن آدم لما بدت سوأته وظهرت عورته طاف بأشجار الجنة يسأل منها ورقة يغطي بها عورته فزجرته أشجار الجنة حتى رحمته شجرة التين فأعطته ورقة فطفقا يعني آدم وحواء يخصفان عليهما من ورق الجنة فكافأ الله التين بأن سوى ظاهره وباطنه في الحلاوة والمنفعة وأعطاه الله ثمرتين في كل عام (والثالثة) أوهن جلده وصيره مظلما بعد أن كان جلده كله كالظفر وألقى عليه من ذلك قدرا يسيرا على أنامله ليتذكر بذلك أول حاله (والرابعة) أخرجه من جواره ونودي أنه لا ينبغي أن يتجاورني من عصاني فذلك قوله تعالى (اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر) الآية يعني آدم وحواء وإبليس والحية والطاووس فهبط آدم بسرنديب من أرض الهند وقيل على جبل من أرض الهند يقال له نود وحواء بجدة بلد من أرض الحجاز وإبليس بالأيلة من أرض العراق وهي بالبصرة وقيل مشان والحية بأصبهان والطاووس بأرض بابل ويقال إن الحكمة في إخراج آدم من الجنة أنه كان في صلبه من لا يستحق الولاية ولا يصلح لحظيرة القدس فإذا أخرجهم الله من صلبه أعاده الله إليها خالدا فيها ويقال إن الله تعالى أخرج آدم من الجنة قبل أن يدخله فيها وذلك قوله تعالى (إني جاعل في الأرض خليفة) ولم يقل في الجنة أخبرني نافل بن أزفر ابن أحمد ياسناده عن عثمان بن علية قال سمعت الوضين بن عطاء يذكر أن آدم قال كنا نسلا من نسل الجنة فسبانا إبليس بالخطيئة إلى الأرض فلا ينبغي لنا الفرح في الدنيا ولكن الحزن والبكاء ما دمنا في دار الفناء حتى نرد إلى الدار التي سبينا منها وقال الشاعر :

يا ناظرا يرنو بعيني راقد ... ومشاهد الأيام غير مشاهد
منتك نفسك وصلة فأبحتها ... سبل الرجاء وهن غير قواصد
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي ... درج الجنان بها وفوز العابد
ونسيت أن الله أخرج آدما ... منها إلى الدنيا بذنب واحد

(والخامسة) الفرقة فرق بينه وبين حواء مائة سنة هذا بالهند وهذه بجدة فجاء كل واحد منهما يطلب صاحبه حتى قرب أحدهما من صاحبه فازلفا فسميت المزدلفة واجتمعا بجمع فسمي جمعا وتعارفا بعرفة في يوم عرفة فسمي الموضع عرفات واليوم عرفة (السادسة) العداوة ألقى بينهم العداوة والبغضاء كما قال الله تعالى (بعضكم لبعض عدو) فالإنسان عدو الحية يشدخ رأسها حيث يراها والطاووس عدو والحية عدوته تلدغه إذا أمكنها وإبليس عدو لهم جميعا وفيه إشارة إلى أن الأحباب إذا اجتمعوا وتعاونوا على معصية أعقبت معصيتهم عداوة كما قال تعالى (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) (والسابعة) النداء عليهم باسم العصيان قال الله تعالى (وعصى آدم ربه فغوى) وروى أن إبراهيم عليه السلام تفكر ذات ليلة من الليالي في أمر آدم فقال يا رب خلقت آدم بيدك ونفخت فيه من روحك وأسجدت له ملائكتك وأسكنته جنتك بلا عمل ثم بذلة واحدة

فما إيمانك به فقال آمنت بنبوته ولم أره وصدقت برسالته ولم ألقه فقال النبي ﷺ يا أعرابي إني نبيك في الدنيا وشفيعك في الآخرة قال فأقبل الأعرابي يقبل قدمي النبي ﷺ فقال ﷺ مه يا أيها العرب لا تفعل بي كما تفعل الأعاجم بملوكها فان الله سبحانه بعثني لا متكبرا ولا متجبرا بل بعثني بالحق بشيرا ونذيرا قال فهبط جبريل على النبي ﷺ وقال له يا محمد السلام يقرؤك السلام ويخصك بالتحية والإكرام ويقول لك قل للأعرابي لا يغرنه كرمنا ولا حلمنا فغدا نحاسبه على القليل والكثير والفتيل والقطمير فقال الأعرابي أو يحاسبنا ربنا يا رسول الله قال نعم يحاسبك إن شاء الله فقال الأعرابي وعزته وجلاله إن حاسبني لأحاسبنه فقال ﷺ وعلى ماذا تحاسب ربك يا أيها العرب فقال الأعرابي إنه حاسبني ربي على ذنبي حاسبته على مغفرته وإن حاسبني على معصيتي حاسبته على عفوه وإن حاسبني على بخلي حاسبته على كرمه قال فبكى النبي ﷺ حتى ابتلت لحيته فهبط جبريل عليه السلام على النبي ﷺ وقال يا محمد السلام يقرئك السلام ويقول لك يا محمد أقلل من بكائك

نادیت علیه بالمعصیة وأخرجته من جوارك من الجنة فأوحى الله تعالى إليه يا إبراهيم أما علمت أن مخالفة الحبيب على الحبيب أمر شديد (والثامنة) تسليط العدو على أولاده وهو قوله تعالى (واجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم) الآية (والتاسعة) جعل الدنيا سجناً له ولأولاده وابتلاه بهواء الدنيا ومقاساة البرد والحر فيها ولم يكن لهما بهما عهد لتعود هواء الجنة وهو كما قال الله تعالى (لا يرون فيها شمساً ولا زمهريرا) قال رسول الله ﷺ الجنة سجسج لا حر فيها ولا قر (العاشرة) التعب والشقاء وذلك قوله تعالى (إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) فهو أول خلق عرق جبينه من التعب والنصب (فصل) وابتليت حواء وبناتها بهذه الخصال وبخمس عشرة خصلة سواهن (الأولى) الحيض يروى أنها لما تناولت الشجرة دميت الشجرة قال الله تعالى إن لك على أن أدميك أنت وبناتك في كل شهر مرة كما أدميت هذه الشجرة قال رسول الله ﷺ في الحيض إن هذا شيء كتبه الله تعالى على بنات آدم (الثانية) ثقل الحمل (الثالثة) الطلق وألم الوضع قال الله تعالى (حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً) وفي الخبر لولا الزلة التي أصابت حواء كان النساء لم يحضن ولكن حليلات وكن يحملن سراً ويضعن سراً (الرابعة) نقصان دينها (الخامسة) نقصان عقلها عن أبي سعيد في حديث ذكره قال رسول الله ﷺ ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من أحدكن فقلنا وما نقصان عقلنا ودينا يا رسول الله أليس شهادة المرأة بنصف شهادة الرجل فذلك نقصان في عقلها وليس إذا حاضت المرأة لم تصل ولم تصم قلن بلى قال فذلك نقصان في دينها (السادسة) إن ميراثها على النصف من ميراث الرجل قال الله تعالى (للذكر مثل حظ الأنثيين) (السابعة) تخصيصهن بالعدة (الثامنة) جعلهن تحت أيدي الرجال كما قال الله تعالى (الرجال قوامون على النساء) وقال عليه الصلاة والسلام استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوج عندكم (التاسعة) ليس لهن من الطلاق شيء ولا يملكن ذلك وإنما هو للرجال (العاشرة) حرمن من الجهاد (الحادية عشر) ليس منهن نبي (الثانية عشر) ليس منهن سلطان ولا حاكم (الثالثة عشر) لا تسافر إحداهن إلا مع ذي رحم محرم (الرابعة عشر) لا تنعقد بهن الجمعة (الخامسة عشر) لا يسلم عليهن وعاقب إبليس لعنه الله تعالى بعشرة أشياء (أولها) عزله من الولاية وكان له ملك الأرض وملك سماء الدنيا وكان خازن الجنة (الثانية) أخرجه من جواره وأهبطه إلى الأرض (الثالثة) مسخ الله صورته فصيره شيطاناً بعد أن كان ملكاً (الرابعة) غير إسمه كان إسمه عزازيل فسماه إبليس لأنه أبلس من رحمة الله تعالى (الخامسة) جعله إمام الأشقياء (السادسة) لعنه الله (السابعة) نزع عنه المعرفة (الثامنة) أغلق عنه باب التوبة (التاسعة) جعله مريد أي محالياً من الخير والرحمة (العاشرة) جعله خطت أهل النار وعاقب الحية بخمسة أشياء قطع قوائمها وأمشاها على بطنها ومسخ صورتها بعد أن كانت أحسن الدواب وجعل غذائها التراب وجعلها تموت كل سنة بالشتاء وجعلها عدو بني آدم وهم أعداؤها حيثما يرونها يقتلونها وأباح رسول الله ﷺ قتلها في الصلاة وفي حال الإحرام عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ ما سلمنا هن منذ حاربناهن من ترك منه فليس مني يعني الحيات قال حدثنا عبد الله بن يونس قال أخبرنا داود عن محمد عن أبي الأعين المعبدي عن أبي الأحوص الحسني قال بينما ابن مسعود يخطب ذات يوم فإذا هو بحية تمشي على الجدار فقطع خطبته ثم ضربها بقضيب حتى قتلها ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول من قتل حية فكأنما قتل رجلا مشركا قد حل دمه .

﴿ الباب السادس في حال آدم بعد هبوطه إلى الأرض وما كان منه ﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما لما هبط آدم إلى الأرض على جبل سرنديب وذكر أن ذريته أقرب من ذرى

عن تسبيحهم قل لأخيك الاعرابي لا يحاسبنا ولا نحاسبه فإنه رفيقك في الجنة (وحكى عن عبد الرحمن بن المهلب رضي الله عنه أنه قال) مررت يوماً بسوق الرقيق فوجدت دلالا على عبد ويقول أبيعه على عيبه فقلت للدلال ما العيب الذي في هذا العبد فقال يا مولاي سله فدنوت من الغلام وقلت له ما العيب الذي فيك فقال يا سيدي عيوبي كثيرة ولا أدري بأيها شهروني فقلت للدلال ما العيب الذي في هذا الغلام فقال به داء الجنون فقلت للغلام كيف يأتيك هذا الصرع كل سنة أم في كل شهر أم في كل جمعة أم في كل يوم فقال يا مولاي إذا استولى داء المحبة على القلب سرى في الأعضاء وإذا استولى على الجوارح نشر خمار المحبة على سائر الجسد فيطيش العقل بذكر الحبيب فيحدث على القلب استغراقاً وعلى البدن سكوناً فيعتقد الجاهل جنوناً قال عبد الرحمن فعلمت أن الغلام من أولياء الله تعالى فقلت للدلال كم ثمن هذا الغلام فقال مائتا درهم فقلت ولك عشرون فوزنت له الثمن وأخذت الغلام وأتيت به إلى الدار ثم أمرته بالدخول فأبى وقال يا سيدي أليك أهل فقلت نعم فقال ومن يستطيع النظر إلى غير محرمه فقلت له قد أبحت

جبال الأرض إلى السماء وكانت رجل آدم على الجبل ورأسه في السماء يسمع دعاء الملائكة وتسبيحهم وكان آدم يأنس بذلك فهانته الملائكة واشتكت إلى ربها فجعلت قامته ستين ذراعا وكان قبل ذلك يمس رأسه السحاب فصلع وأخذ أولاده الصلع فلما انقص من قامته ذلك قال ارب كنت جارك في دارك ليس لدرب سواك ولا رقيب دونك آكل فيها رغدا وأسلك حيث أحببت فأهبطتني إلى هذا الجبل وكنت أسمع أصوات الملائكة وأراهم كيف يحفون بعرشك وأجد ريح الجنة وطيبها ثم أهبطتني إلى الأرض وحططتني إلى ستين ذراعا فقد انقطع عني الصوت والنظر وذهبت عني رائحة الجنة فاجابه الله تعالى بمعصيتك يا آدم فقال آدم ذلك بك يارب (وقال وهب بن منبه) لما اهبط الله آدم من الجنة واستقر جالسا على الأرض عطس عطسة فصار أنفه دما فلما رأى سيلان دم أنفه ولم يكن رأى قبل ذلك هاله ما رأى ولم تشرب الأرض الدم فاسود على وجهها كالحمم ففزع آدم فزعا شديدا فذكر الجنة وما كان من الراحة فخر مغشيا عليه وبكى أربعين عاما فبعث الله إليه ملكا فمسح ظهره وبطنه وجعل يده على فؤاده فذهب عنه الحزن والغشى فاستراح مما كان يصيبه من الغم (وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما) بكى آدم وحواء على ما فاتهما من نعيم الجنة مائتي سنة ولم يأكلا ولم يشربا أربعين سنة ولم يقرب آدم حواء مائة سنة فلما أراد الله تعالى أن يرحم عبده آدم لقنه كلمات كانت سبب قبول توبته كما قال الله تعالى (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) الآية واختلفوا في تلك الكلمات ما هي فقال ابن عباس هي أن آدم عليه السلام قال يارب ألم تخلقني بيدك قال بلى قال ألم تنفخ في من روحك قال بلى قال ألم تسبق لي رحمتك قبل غضبك قال بلى قال ألم تسكني جنتك قال بلى قال فلم أخرجتني قال لشؤم معصيتك قال أي رب أرأيت إن أنا تبت وأصلحت ترجعني إلى الجنة فهي الكلمات وقال عبد الله ابن عمر أن آدم قال يارب أرأيت ما اتيته شيئا ابتدعته من تلقاء نفسي أو شيء قدرته علي قبل أن تخلقني بيدك قال لا بل شيء قدرته عليك قبل أن اخلقك قال يارب فكما قدرته علي فاغفر لي (وقال محمد بن كعب القرظي) هي قول لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسي فتب علي إنك أنت التواب الرحيم لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك رب عملت سوءا وظلمت نفسي فارحمني إنك أنت أرحم الراحمين (وقال سعيد بن جبير) والحسن ومجاهد وعكرمة: أوحى الله تعالى إلى آدم ان لي حرما بحيال عرشي فأته فطف به كما يطاف حول عرشي وصل عنده كما يصلى عند عرشي فهنالك استجيب دعاءك فانطلق آدم من ارض الهند إلى أرض مكة لزيارة البيت وقيض الله له ملكا يرشده فكان كل موضع يضع عليه قدمه عمرانا وما تعداه مفاوز وقفارا فلما وقف بعرفات وكانت حواء طلبته وقصدته من جدة فالتقيا بعرفات يوم عرفة فسمي ذلك الموضع عرفات فلما انصرفا إلى منى قيل لآدم تمن فقال اتمنى المغفرة والرحمة فسمي ذلك الموضع منى وغفر ذنبهما وقبل توبتهما ثم انصرفا إلى أرض الهند قال مجاهد حدثني ابن عباس أن آدم حج من أرض الهند أربعين حجة على رجليه فقيل لمجاهد يا أبا الحجاج ألا كان يركب قال وأي شيء كان يحمله فوالله إن خطواته لمسيرة ثلاثة أيام (وروى) سفيان عن منصور بن معمر عن ربعي بن خراش عن حذيفة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول لما أهبط آدم من الجنة إلى أرض الهند وعليه ذلك الورق الذي كان لباسه من الجنة فيبس وتطاير بأرض الهند فعبق شجر العود والصندل والمسك والعنبر والكافور من ذلك الورق فقالوا يارسول الله المسك هو من الدواب أم من الشجر قال أجل إنما هي دابة تشبه الغزال رعت من ذلك الشجر فصير المسك في سرتها فإذا رعت الربيع جعله الله مسكا وتساقط فينتفع به الآدميون قالوا يارسول الله فأين يقع قال قال لي جبريل في ثلاث كور لا يكون في شيء من الأرض إلا فيها أرض

لك ذلك فقال معاذ الله ولكن مهما كان لك من الحوائج قضيتها وأنا دون الباب قال عبد الرحمن فسكت عنه وتركته ثم أخرجت له الغذاء فقال إني صائم فلما كان الليل أخرجت له العشاء فقال إني طارق فاقام عندي في دهليز الدار فخرجت إليه نصف الليل فوجدته قائما يصلي ولم يشعر بي فلما فرغ من صلاته سجد وبكى بكاء شديدا فسمعته يقول في مناجاته إلهي اغلقت الملوك أبوابها وبابك مفتوح للسائلين إلهي غارت النجوم ونامت العيون وأنت الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم إلهي فرشت العرش وخلا كل حبيب بحبيبه وأنت حبيب المتهجدين وأنيس المستوحشين إلهي إن طردتني عن بابك فالى باب من التجيء إلهي إن قطعتني عن جنابك فالى باب من التجيء إلهي إن عذبتني فاني مستحق العذاب أو إن عفوت عني فأنت أهل الجود والكرم ثم جلس ورفع يديه وبكى وقال سيدي لك أخلص العارفون وبفضلك نجا الصالحون وبرحمتك أناب المقصرون يا جميل العفو أذقني برد عفوك وحلاوة مغفرتك فإن لم اكن أهلا لذلك فانت أهل لذلك يا من أنت أهل التقوى وأهل المغفرة قال عبد الرحمن فدخلت موضعي ولم أشوش عليه فلما أصبح الصباح

خرجت اليه وسلمت عليه وقلت له كيف نمت البارحة فقال يا سيدى أو ينام من يخاف النار والعرض على الملك الجبار والتوبيخ غدا على الذنوب والأوزان ثم بكى بكاء طويلا فقلت له أنت حر لوجه الله تعالى فبكى وقال ياسيدى كان لى اجران أجر العبودية وأجر الخدمة وقد ذهب عنى أحدهما اعتقك الله من حر جهنم قال عبدالرحمن فدفعت اليه نفقة فأبى قبولها وقال إن المتكفل بالارزاق حى لايموت ثم خرج هائما على وجهه لاأدرى اين ذهب رضى الله تعالى عنه واسوقها إلى أرباب القلوب واحسرتا على فوت المطلوب يا محبوسا فى سجن الغفلة واشرفت على وادى الدجى لرأيت خيام القوم مضروبة على شاطىء بحر كانوا قليلا من الليل مايهجعون ولسمعت اطيار اشجانهم على أغصان أحزانهم تترنم بألحان وبالاسحار هم يستغفرون لذلهم السهر وصفا قلبهم من الكدور وخلوا بالمحبوب وفازوا بالمشاهدة والنظر هذا الحبيب مع المحبوب قد حضرا

وسامح الكل عما قد مضى وجرى

وقد ادار على العشاق خمرته صرفا يكاد سناها يخطف البصرا

ياسعد كرر لنا ذكرا الحبيب لقد

الهند وأرض السعدى وأرض التبت قالوا يارسول الله العنبر إنما هى دابة فى البحر قال اجل كانت هذه الدابة بأرض الهند ترعى فى البر فبعث الله إليها جبريل عليه السلام فساقها ومامعها فقذفها فى البحر وهى اعظم ماتكون من الدواب وإنما ترمى به كما ترمى البقر أحشاءها فربما تخرج من جوفها العنبرة وزنها رطل ونحو ذلك ثم إن آدم وجد ضربانا فى رأسه وجسده فشكا ذلك إلى الله تعالى فنزل عليه جبريل بشجرة الزيتون فأمره أن يأخذ ثمرها ويعصره فقال ان فى هذه الشجرة شفاء من كل داء إلا السام وذله جبريل عليه السلام على شجرة الأهليج الابيض والأسود والأصفر فقال له إن ربك يقرئك السلام ويقول لك كل من هذا فإنك ان تتداوى أنت وذريتك بدواء أفضل منها فيها شفاء من كل داء إن بقى فى جوفك لم تخف وإن خرج أخرج الداء كله وأبرأه فأكله آدم فبرىء (قال) أهل الأخبار إن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض وأصاب جسده اذى الهواء وأحس به اشتكى وحشة بجسده وكان قد اعتاد هواء الجنة فشكا ذلك إلى جبريل فقال إنك تشكو العرى فأنزل الله عليه ثمانية أزواج المذكورة فى سورة الأنعام من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين ثم أمره أن يذبح كبشا منها فذبحه ثم أخذ صوفه فغزلته حواء ونسجه آدم فجعل منه جبة لنفسه وجعل لحواء درعا وخمارا فلبساه وبكيا على ماغاتهما من لباس الجنة فحواء أول من غزلت وآدم أول من نسج ولبس الصوف (وعن) ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال يارسول الله ماتقول فى حرفتى فقال رسول الله ﷺ وماحرفتك فقال أنا رجل حائك قال حرفتك حرفة أبينا آدم عليه السلام وكان أول من نسج آدم وكان جبريل يعلمه وآدم تلميذه ثلاثة أيام وان الله عز وجل يحب حرفتك فانها حرفة يحتاج اليها الاحياء والاموات فمن قال منكم القبيح فأبونا آدم خصمه ومن أنف منكم فقد أنف من آدم ومن لعنكم فقد لعن آدم ومن آذاكم فقد أذى آدم وهو خصمهم يوم القيامة فلاتخافوا واشروا فان حرفتكم حرفة مباركة ويكون آدم قائدكم إلى الجنة (وعن أبى أمامة الباهلى) قال قال رسول الله ﷺ عليكم بلباس الصوف تجدون فلة الأكل عليكم بلباس الصوف تعرفون به فى الآخرة وان النظر فى الصوف ليورث القلب التفكر والتفكر يورث الحكمة والحكمة تجرى فى الجوف مجرى الدم فمن كثر تفكره قل طمعه وكل من قل تفكره كثر طمعه وعظم بدنه وقسا قلبه والقلب القاسى بعيد من الله بعيد من الجنة قريب من النار قالوا ثم ان آدم عليه الصلاة والسلام بعد ستر عورته اشتكى فقال له جبريل ما الذى اصابك فقال اجد فى نفسى قلقا واضطرابا لااجد إلى العبادة منه سبيلا وانى أجد بين لحمى وجلدى دبيبا كدبيب النمل فقال له جبريل ذلك يسمى الجوع قال وكيف الخلاص من ذلك قال سوف أهديك إلى ذلك فغاب عنه ثم جاءه بثورين أحمرين والعلاة يعنى السندان والمطرقة والمنفخة والكلبتين ثم جاءه بشرر من جهنم فوقع فى يد آدم فطار منها شرارة فوقعت فى البحر فدخل جبريل إليها وأتى بها فدفعها إلى آدم وطارت منه أيضا حتى فعل ذلك سبع مرات فذلك قول النبى ﷺ ان نار كهذه جزء من سبعين جزء من نار جهنم بعد أن غسلت بالماء سبع مرات فلما جاء بها فى الثامنة نطقت النار فقالت يا آدم إنى لا أطيعك وإنى منتقمة من عصاة أولادك يوم القيامة فقال جبريل يا آدم إنها لن تطيعك ولكنى أسجنها لك ولأولادك ليكون لك ولأولادك فيها المنافع فسجنها فى الحجر والحديد فذلك قوله تعالى (أفرأيتم النار التى تورون أأنتم) الآية ويروى أن آدم لما أخذ النار احترقت يده فخلى عنها فقال لجبريل مالها تحرق يدى ولاتحرق يدك قال لانك عصيت الله وإنى لم أعصه ثم أمره جبريل باتخاذ آلة الحرث فهو أول من عمل الحديد ثم أتاه بصرة من حنطة فيها ثلاث حبات من الحنطة فقال يا آدم لك حبتان ولحواء حبة فلذلك صار للذكر مثل حظ الانثيين فقال آدم ما أصنع بهذا كله فقال يا آدم خذها فإنها سبب سد جوعتك وبها أخرجت من الجنة وبها تحيا فى الدنيا وبها تلقى الفتنة

أنت وأولادك إلى أن تقوم الساعة ثم أمره أن يشد الثورين ويكسر من الخشب ويضعه عليهما ففعل ذلك وجعل يحرث الأرض عليهما فهو أول من حرث الارض وبكى الثوران على مافاتهما من راحات الجنة فنظرت دموعهما على الارض فنبت منها الجاورس وبالا فنبت منه الحمص ورانا فنبت منه العدس ثم كسر جبريل تلك الحبوب حتى كثرها ثم بذرها فنبت من ساعته فقال آدم عليه الصلاة والسلام آكله فقال له اصبر حتى يدرك فلما سنبل وافرك قال آكله قال لا وعلمه الحصاد فلما حصد قال آكله قال لا وعلمه الدياس فلما داس قال آكله قال لا وعلمه التنقية فلما نقاه قال آكله قال لا وجاء بحجرين وعلمه الطحن فلما طحنه قال آكله قال لا وعلمه العجن ويقال آدم عليه الصلاة والسلام لما تحلل دقيقه فأمره جبريل أن يبث النخالة فى الارض المستحصدة فنبت فيها الشعير فلما عجن قال آكله قال لا فأمره ان يحفر حفيرة ويضع الحطب فيها ويوقد عليها نارا ففعل ذلك حتى جعله خزملة ثم وضع عجينة عليه فخبز فهو أول من خبز فلما أخرجه قال آكله قال لا حتى يبرد فلما برد أكله فلما أكله دمعت عينا آدم عليه السلام وقال ماهذا التعب والنصب قال له هذا وعد الله الذى وعدك فذلك قوله تعالى (ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) أما ان لك أن تأكل من كد يمينك وعرق جبينك أنت وذريتك فلما استوفى آدم من الطعام شكا من بطنه ولم يدر ماهو فشكا ذلك إلى جبريل عليه السلام فقال ذلك العطش قال قم أسكنه فغاب عنه ثم عاد إليه ومعه المعول وقال له احفر الارض فمازال يحفر حتى بلغ إلى ركبتيه فنبع الماء من تحت رجليه زلالا ابرد من الثلج وأحلى من العسل وقال يا آدم اشرب منه شربة فشربها فاطمأن ثم انه بعد ذلك وجد تشكيا أشد من الاول والثانى فقال لجبريل ماهذا الذى أجده قال لا أدرى فبعث الله اليه ملكا ففتق قبله ودبره ولم يكن قبل ذلك للطعام مخرج فلما خرج منه ما أذاه ووجد ريحه بكى على ذلك سبعين سنة (قالوا) لما أنزل الله إلى آدم الحديد نظر إلى قضيب من حديد نابت على الجبل فقال ماهذا لجعل يكسر أشجارا قد عتقت ويبست فاوقد على ذلك الحديد حتى ذاب وكان أول شىء ضرب منه مدية فكان يعمل بها ثم ضرب التنور الذى ورثه نوح عليه الصلاة والسلام وهو الذى فار بالعذاب بالهند (قالوا) لما أهبط الله تعالى آدم عليه الصلاة والسلام أخرج معه من الجنة قطعة من ذهب فلذلك يبقى الذهب لا يبلى بالثرى ولا يصدأ من الندى ولا تنقصه الارض ولا تأكله النار لانه من الجنة حمل (وقيل) ان الله تعالى زود آدم حين أهبطه إلى الارض من الثمار ثلاثين نوعا عشرة منها فى القشور وعشرة لها نوى وعشرة لا قشور لها ولا نوى فاما التى هى فى القشور فالجوز واللوز والفستق والبندق والخشخاش والبلوط والشاه بلوط والنارنج والرمان والموز وأما التى لها نوى فالخوخ والمشمش والاجاص والعناب والفرسك والرطب والغبيراء والتين والزعرور والمقل وأما التى لا قشر لها ولا نوى فالتفاح والسفرجل والكمثرى والعنب والتوت والتين والاترج والخرنوب والخيار والبطيخ (وقال) ابن عباس هبط آدم من الجنة بثلاثة أشياء الآسة وهى سيدة رياحين الدنيا وبالسنبلة وهى سيدة طعام أهل الدنيا وبالعجوة وهى سيدة ثمار الدنيا (وقال) ابن عباس لما أهبط آدم إلى الارض كان أول شىء أكله من الثمار التين قال كعب أول من ضرب الدينار والدرهم آدم وقال لا تصح المعيشة إلا بهما وقال وهب بن منبه أن آدم لما أهبط إلى الارض ورأى سعتها ولم ير فيها أحدا غيره فقال يارب أما لأرضك هذه من عامر يسبحك ويحمدك ويقدسك غيرى قال الله تعالى سأجعل فيها من ولدك من يسبحنى ويحمدنى ويقدسنى وسأجعل فيها بيوتا ترفع بذكرى ويسبح فيها خلقى ويذكر فيها اسمى وسأجعل من ولدك يا آدم من يعبدنى حق عبادتى وسأجعل من تلك البيوت بيتا أخصه بكرامتى وأوثره باسمى فأسميه بيتى وأنطقه بعظمتى وعليه وضعت جلالى وأجعل ذلك البيت حرما آمنا يحرم بحرمته ماحوله ومافوقه

بلبلت اسماعنا يا مطرب الفقرا
ومال كوب الحما مالت معاطفه
لاشك ان حبيب القوم قد حضرا
وعند ذا تنظر الاعلام قد رفعت
يؤمهم علم الوصول قد نشرا
فمجلس الانس للمحبوب يجمعه
والكاس قد دار فيما بينهم سحرا
ومن سقاهم تجلى لاشبيه له
حاساه يشبهه شمس ولا قمرا
فمن اتاه فقيرا لامرد له
سواه يكتبه من جملة الفقرا
هذا السماع الذى تشفى الصدور به
هذا الحبيب الذى قد حير الفكرا
صوفية عند ماضاقت صدورهم
أزال عنهم جميع الشك والكدرا

(وحكى عن محمد بن المضلى رضى الله تعالى عنه انه قال) رأيت شابا راقدا على الارض وقد افترش التراب تحته وهو يئن انينا شديدا فقلت لصاحبى اعدل بنا اليه فلعله عليل فقال ماهذا عليل هذا من المحبين فى الظاهر أنه من المجانين فقلبه يحب مولاه مفتون وهو يعرف بذلك المجنون قال فتقربت اليه فاذا هو شاب نحيف الجسم وعليه جبة من صوف ويقول عجبا لمن ذاق حلاوة محبته كيف ينقطع عن خدمته ثم لم يزل يردد القول حتى

غشى عليه قلت لصاحبي والله ما هو بمجنون وإنما المجنون الذى لا يصل إلى هذا المقام فلما أفاق من غشوته قال مالكم تنظرون إلى فقلنا لعل ذواء يشفى من الداء الذى نجده فقال الذى أبلى بالداء عنده الدواء ولكن الذى يتداوى يحتمى فقلنا بماذا يحتمى قال يترك الحرام ويجتنب الآثام ومراقبة الملك العلام والتهجد بالليل والناس نيام ثم بكى بكاء طويلا وبكينا معه وقلنا له نحن أضيافك فادع لنا فقال لست من خيل هذا الميدان فاقسمت عليه فقال جعل الله قراكم المغفرة ومثواكم الجنة وجعل ذكر الموت منى ومنكم على بال قال فانصرفنا عنه وقد عجبنا من استواء لفظه وعاشت قلوبنا بكلامه ووعظه ياهذا هذه حالة المجانين من جنب الحبيب فكيف بك أيها العاقل اللبيب يدعوك مولاك فلا تجيب وبستحضرك فى حضرة قربه وأنت فى المغيب إلى متى تضيع عمرك وما فات منه نصيب اللهم تب علينا ووفقنا لطاعتك يا مجيب

(وحكى عن محمد بن أبى الفرج رضى الله تعالى عنه أنه قال) احتجت فى شهر رمضان إلى جارية تصنع الطعام فرأيت فى السوق جارية ينادى عليها بثمن يسير وهى مصفرة اللون نحيلة الجسم يابسة الجلد فاشتريتها رحمة لها وأتيت بها إلى المنزل فقلت لها خذى

وما تحته فمن حرمه بحرمته استوجب بذلك كرامتى ومن أخاف أهله فقد خفر ذمتى وأباح حرمتى واستوجب بذلك عذابى وعقابى وما جعل هذا البيت أول بيت وضع للناس ببطن مكة مباركا يأتونه شعثا غبرا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق فمن اعتمره لا يريد غيره فقد وفد إلى وزارنى واستضافنى فحق على الكريم أن يكرم وفده وأضيافه وأن يسعف كلا بحاجة آدم تعمره مادمت حيا ثم تعمره الأمم والقرون والانبياء من ولدك أمة بعد أمة وقرن بعد قرن ثم أن الله تعالى مسح على ظهر آدم بيده وأخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة كالذر بنعمان من عرفة قرية مكة ثم أخذ عليهم الميثاق وكلمهم وقال ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين وسئل عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن هذه الآية فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول أن الله خلق آدم ومسح ظهره فاستخرج منه ذرية وقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج ذرية وقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون فقال رجل يارسول الله ففيم العمل فقال إن الله تعالى إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على ذلك فهو من أهل النار (وقال) وهب بن منبه رحمه الله أوحى الله إلى آدم بعد ما تاب عليه يا آدم إنى أجمع لك العلم كله فى أربع كلمات واحدة لى وواحدة لك وواحدة بينى وبينك وواحدة فيما بينك وبين الناس فاما التى لى فتعبدنى لا تشرك بى شيئا وأما التى لك فأجزيك بعملك أحوج ما تكون إليه وأما التى بينى وبينك فمنك الدعاء ومنى الإجابة وأما التى بينك وبين الناس فان ترضى لهم ما ترضى لنفسك فقال آدم يارب شغلت بطلب المعيشة والرزق عن التسبيح والعبادة ولست أعرف ساعات التسبيح فى أيام الدنيا فاهبط الله تعالى اليه ديكا فاسمعه أصوات الملائكة بالتسبيح فهو أول داجن اتخذه آدم من الخلق فكان الديك إذا سمع التسبيح فى السماء سبح فى الارض فيسبح آدم بتسبيحه (ويروى) أن الله تعالى أوحى إلى آدم لما أراد أن يهبطه إلى الارض يا آدم إنى منزل أنت وذريتك دار مبنية على أربع قواعد أما الاولى فانى أقطع ما تصلون وأما الثانية فانى أفرق ما تجمعون وأما الثالثة فانى أخرب ما تبنون وأما الرابعة أميت ما تلدون ولذلك قيل

لدوا للموت وابنوا للخراب ... وكلكموا يصير إلى ذهاب

(الباب السابع فى ذكر هبوط إبليس لعنه الله إلى الارض وحاله فيها بعد اللعنة)

قال الله تعالى (اهبطوا بعضكم لبعض عدو) الآية (قال الشعبى) انزل إبليس من السماء عليه عمامة ليس تحت ذقنه منها شىء أعور فى إحدى رجليه نعل (وروى) ابن المبارك عن خالد عن حميد بن هلال إنما كره ان يتخصر فى الصلاة لان إبليس هبط متخصرا (وروى) حماد عن ثابت وحميد عن عبد الله بن عبيد عن عمير أن ابليس قال يارب اخرجتنى من الجنة من أجل آدم وأنى لا استطيعه إلا بسلطانك قال فانت مسلط عليه قال يارب زدنى قال لا يولد له ولد إلا ولد لك مثلاه قال يارب زدنى قال صدورهم مساكن لك وتجرى منهم مجرى الدم قال يارب زدنى قال اجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الاموال والاولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا قال آدم يارب قد سلطته على وإنى لا امتنع منه إلا بك قال لا يولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظه من قرناء السوء قال يارب زدنى قال الحسنة بعشر أمثالها وازيدها والسيئة بمثلها واحدة وامحوها قال يارب زدنى قال قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله الآية قال يارب زدنى قال التوبة لا انزعها من ولدك ما كان الروح فيهم قال يارب زدنى قال اغفر ولا أبالى قال حسبى (وروى) ان إبليس قال يارب لعنتنى وأخرجتنى من الجنة وجعلتنى شيطانا رجيما مذموما مدحورا وبعثت فى بنى آدم الرسل وانزلت عليهم الكتب فما رسلى قال الكهنة قال فما كتبى قال الوشم قال فما حديثى قال حديثك الكذب

قال فما قراءتى قال قراءتك الشعر قال فما مؤذنى قال مؤذنك المزمار قال فما مسجدى قال مسجدك السوق قال فما بيتى قال بيتك الحمام قال فما طعامى قال طعامك ما لم يذكر اسمى عليه قال فما شرابى قال شرابك كل مسكر قال فما مصايدى قال مصايدك النساء (وروى) مقاتل وجويبر عن الضحاك عن ابن عباس أن إبليس لما خرج من الجنة ألقى الله عليه الحرقة والغلمة فنكح نفسه فباض أربع بيضات فمنها ذريته (وروى) إسحق بن بشر عن محمد بن إسحق قال بلغنى أن إبليس تزوج الحية التى دخل فى فيها حين كلم آدم عليه السلام بعد ما أخرج من الجنة فمنها ذريته .

﴿ الباب الثامن فى ذكر ما روى من الأخبار فيمن ترامى له إبليس عياناً وكلمه شفاهاً ﴾

يروى أن آدم التقى بإبليس فى أرض فلاة فلامه على صنيعه وقال له يا ملعون أى شىء هذا الذى أحللت بى غرورتنى وأخرجتنى من الجنة وفعلت بى ما فعلت قال فبكى إبليس وقال يا آدم إنى فعلت بك ما تقول وأنزلتك هذه المنزلة فمن فعل بى ما أنا فيه وأحلنى هذه المنزلة (ويروى) أن إبليس تصور لفرعون فى صورة الإنس بمصر فى الحمام فأنكره فرعون فقال له إبليس ويحك أما تعرفنى فقال لا قال فكيف وأنت خلقتنى ألست القائل أنا ربكم الأعلى (ويروى) أن سليمان عليه الصلاة والسلام سأل إبليس فقال أى الأعمال أحب إليك وأبغض إلى الله تعالى فقال لولا منزلتك عند الله تعالى ما أخبرتك أنى لست أعلم شيئاً أحب وأبغض إلى الله تعالى من استغناء الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة (ويروى) عن النبى ﷺ أنه قال ما من آدمى إلا وقد عمل خطيئة أو هم بها إلا يحيى بن زكريا فإنه ما عمل خطيئة ولا هم بها ولقد قال رب أرنى إبليس كما هو واعزم عليه أن لا تكتمنى شيئاً سألته عنه فأوحى الله تعالى إلى إبليس أن ائت عبدى يحيى بن زكريا كما هبطت إلى الأرض ولا تكتمه شيئاً يسألك عنه فأتاه وقال يا يحيى أنا إبليس أمرنى ربى أن آتيك كما هبطت إلى الأرض فنظر إليه يحيى فإذا على رأسه خطاطيف تطير وحقواه محفوفتان بأكوار كور ههنا وكور ههنا وفى رجليه خلاخيل فقال ما هذه الخطاطيف التى تطير على رأسك قال بها أخطف عقول بنى آدم قال فما هذه الخلاخيل التى فى رجليك قال أحركها لبنى آدم حتى يغنى أو يغنى له قال فأى ساعة أنت على ابن آدم أقدر قال حين يمتلىء شبعاً ورياً قال فهل وجدت فى نفسى شيئاً قال لا قال ولا على حال قال نعم قدم إليك طعامك ذات ليلة وكنت قد صمت فشهيته إليك حتى أكلت أكثر من عادتك فتثاقلت عن وردك وعادتك فقال يحيى لأجرم لا أشبع أبداً فقال إبليس لاجرم لا أنصح آدمياً أبداً وقيل لما مات رسول الله ﷺ وأخذوا فى جهازه وخرج الناس وخلا الموضع قال ابن عباس قال على بن أبى طالب رضى الله عنه لما وضعته ﷺ على المغتسل إذا بهاتف يهتف من زاوية البيت يا على لا تغسلوا محمداً فإنه طاهر مطهر فوقع فى قلبى شىء وقلت ويلك من أنت فإن النبى ﷺ أمرنا بهذا وهذه سنته وإذا بهاتف آخر يهتف بأعلى صوته غسله يا على فإن الهاتف الأول كان الشيطان حسد محمداً ﷺ أن يدخل قبره مغسلا قال جزاك الله خيراً قد أخبرتنى أن ذلك إبليس فمن أنت قال أنا الخضر حضرت جنازة محمد ﷺ (ويروى) أن رجلا كان يلعن إبليس كل يوم ألف مرة فبينما هو ذات يوم نائم إذ أتاه شخص وأيقظه فقال قم فان الجدار هاهو يسقط فقال له من أنت الذى أشفقت على هذه الشفقة فقال له أنا إبليس فقال كيف هذا وأنا ألعنك كل يوم ألف مرة فقال هذا لما علمت من محل الشهداء عند الله تعالى فخشيت أن تكون منهم فتنال معهم كما ينالون .

﴿ الباب التاسع فى قصة قابيل وهابيل ﴾

قال الله تعالى (واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قرباناً) إلى آخر القصة قال أهل العلم بقصص النبيين وأخبار الماضين أن حواء كانت تلد لآدم توأمين فى كل بطن غلام وجارية إلا شيثاً فإنها ولدته منفرداً وكان جميع من ولدته حواء أربعين ذكراً وأنثى فى عشرين بطناً أولهم قابيل وتوأمته إقليما وآخرهم عبد المغيث وتوأمته أمة المغيث ثم كثر الله فى نسل آدم كما قال (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس

عند قوم كل زمانهم رمضان فعلمت أنها من الصالحات فكانت تقوم الليل كله فى شهر رمضان فلما كانت ليلة العيد قلت لها امضى بنا إلى السوق لنشترى حوائج العيد فقالت يا مولاى أى حوائج العيد تريد حوائج العوام أم يا سيدى حوائج الطعام المعهود فى العيد وحوائج الخواص الاعتزال عن الخلق والتفريد والتفريغ للخدمة والتجريد والتقريب بالطاعة للملك المجيد والتزام ذل العبيد فقلت لها إنما أريد حوائج الطعام فقالت يا سيدى أى طعام تعنى طعام الأجسام أم طعام القلوب فقلت لها صفيهما لى فقالت أما طعام الاجسام فهو القوت المعتاد وأما طعام القلوب فترك الذنوب وإصلاح العيوب والتمتع بمشاهدة المحبوب والرضا بحصول المطلوب وحوائجه الخشوع والتقوى وترك الكبر والدعوى والرجوع إلى المولى والتوكل عليه فى السر والنجوى ثم أنها قامت تصلى فقرأت عليه فى الركعة الأولى سورة البقرة من أولها إلى آخرها ثم شرعت فى آل عمران إلى آخرها فلم تزل تختم سورة بعد سورة حتى وصلت إلى سورة إبراهيم إلى قوله تعالى يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه

واحدة) الآية قال ابن عباس لم يمت آدم حتى رأى من ولده وولد ولده أربعين ألفاً ورأى آدم فيهم وشرب الخمر والفساد واختلف العلماء في وقت مولد قابيل وهابيل فقال بعضهم غشي آدم حواء بعد مهبطهما إلى الأرض بمائة سنة فولدت له قابيل وتوأمته لبودا في بطن واحدة وقال محمد بن إسحق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول أن آدم كان يغشى حواء في الجنة قبل أن تهبط إلى الأرض فحملت له بقابيل وتوأمته فلم تجد عليهما وحماً ولا نصباً ولا طلقاً حين ولدتهما ولم ترمعهما دماً لطهارة لبنه فلما هبطا إلى الأرض واطمئنا بها تغشاها فحملت بهابيل وتوأمته لبودا فوجدت فيهما الوحم والنصب والطلق والدم حتى إذا شب أولاده زوج غلام هذا البطن جارية البطن الآخر وزوج جارية هذا البطن غلام البطن الآخر وكان الرجل منهم يتزوج أي أخواته شاء إلا توأمته التي ولدت معه فإنها لا تحل له وذلك أنه لم يكن نساء يومئذ إلا أخواتهم وأمهم حواء فلما ولد قابيل وتوأمته إقليما في بطن واحد وهابيل وتوأمته لبودا في بطن واحد وكان بينهما سنتان في قول الكلبي وأدركوا أمر الله تعالى آدم أن ينكح لبودا أخت هابيل قابيل وينكح هابيل إقليما أخت قابيل وكانت أخت قابيل من أجمل النساء وأحسنهم خلقاً فذكر ذلك آدم لولده هابيل فرضي وسخط قابيل وقال هي أختي ولدت معي في بطن وهي أحسن من أخت هابيل فأنا أحق بها ونحن من أولاد الجنة وهما من أولاد الأرض فأنا أحق بأختي فقال له أبوه إنها لا تحل لك فأبى أن يقبل ذلك منه وقال إن الله تعالى لم يأمره بذلك وإنما هو من رأيه فقال لهما آدم قربا قرباناً فأيكما يقبل قربانه فهو أحق بها (وقال معاوية بن عمار) سألت جعفر الصادق أكان آدم زوج إبنته من إبنه فقال معاذ الله لو فعل ذلك آدم لما رغب عنه رسول الله ﷺ ولا كان دين آدم إلا دين نبينا محمد ﷺ أن الله تعالى أهبط آدم وحواء إلى الأرض وجمع بينهما ولد له بنت فسماها عناق فبغت وهي أول من بغى في الأرض فسلط الله عليها من قتلها فولد لآدم على أثرها قابيل ثم ولد له هابيل فلما أدرك قابيل أظهر الله تعالى جنية من الجن يقال لها عمالة في صورة إنسية وخلق لها رحماً وأوحى الله إلى آدم أن زوجها من قابيل فزوجها منه فلما أدرك هابيل أهبط الله إلى آدم حوراء في صورة إنسية وخلق الله لها رحماً وكان اسمها تركة فلما نظر إليها هابيل ورمقها أوحى الله إلى آدم أن زوجها من هابيل ففعل فقال يا أبي ألست أكبر من أخي وأحق بما فعلت به منه فقال يا بني ذلك الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء فقال لا ولكنك آثرته علي بهواك فقال له إن كنت تريد أن نعلم ذلك فقربا قرباناً فأيكما يقبل قربانه فهو أولى بهما من صاحبه قالوا وكانت القرابين حينئذ إذا قبلت نزلت نار من السماء فأكلتها وإذا لم تنزل نار لا كلها السباع فخرجا يقربا وكان قابيل صاحب زرع فقرب صبرة من الطعام من أردأ زرعه وأضمر في نفسه ما أبالي أيقبل أم لا لا يتزوج أختي أبداً وكان هابيل راعياً صاحب ماشية فقرب كبشاً سمينا من خيار ماشيته ولبنا وزبدا وأضمر في نفسه الرضا بالله والتسليم لأمره وقال إسماعيل بن رافع أن هابيل نتج له كبش في غنمه فلما كبر لم يكن له مال أحب إليه منه وكان يحمله على ظهره فلما أمر بالقربان قربه قال فوضع قربانهما على الجبل فنزلت نار من السماء فأكلت الكبش والزبد واللبن ولم تأكل من قربان قابيل حبة لأنه لم يكن نزاكي القلب وقبل قربان هابيل لأنه كان زاكي القلب فما زال الكبش يرتع في الجنة حتى فدى به ابن إبراهيم فذلك قوله تعالى (فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر) إلى قوله من المتقين فنزلوا عن الجبل وتفرقوا وقد غضب قابيل لما رد الله قربانه وظهر فيه الحسد والبغي وكان يضمر هما قبل ذلك في نفسه إلى أن أتى آدم مكة ليزور البيت فلما أراد أن يأتي مكة قال السماء احفظي ولدي بالأمانة فأبت فقال ذلك للأرض والجبال فأبين فقال ذلك لقابيل فقال نعم ترجع وتراه كما يسرك فرجع آدم وقد قتل قابيل هابيل فذلك قوله تعالى (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً) يعني قابيل حين حمل أمانة أبيه ثم خانه قالوا فلما غاب آدم أتى قابيل إلى هابيل وهو في غنمه فقال لأقتلنك قال ولم قال لأن الله قبل قربانك ولم يقبل قرباني وتنكح أختي الحسناء وأنكح أختك الدميمة فيتحدث الناس أنك خير

لموت كن على مكان
إلى أن أغمي عليها وسقطت
إلى الأرض فحركتها فإذا هي
ميتة رحمة الله تعالى عليها .

(وحكى) عن الأصمعي رضي الله عنه أنه قال خرجت حاجاً إلى بيت الله الحرام من طريق الشام فبينا نحن سائرون إذ خرج علينا أسد عظيم هائل المنظر فقطع على الركب الطريق فقلت لرجل بجانبي أما في هذا الركب رجل يأخذ سيفاً ويرد عنا هذا الأسد فقال أما رجل فلا أعرف ولكني أعرف امرأة ترده من غير سيف فقلت وأين هي فقام وقمت معه إلى هودج قريب منا فنادى يا بنية انزلي وردي عنا هذا الأسد فقالت يا أبت أيطيب قلبك أن ينظر إلى الأسد وهو ذكر وأنا أنثى ولكن قل له إبنتي فاطمة تقرئك السلام وتقسم عليك الذي لا تأخذه سنة ولا نوم لما عدلت عن طريق القوم قال الأصمعي فوالله ما استتمت كلامها حتى رأيت الأسد ذاهباً أمامنا فنه والله دلائل الصالحين وأمارة العارفين نفعنا الله تعالى بهم آمين .

(روى عن بعض الصالحين رضي الله تعالى عنه) أنه رأى جارية في البادية وهي تمشي وتفرح وليس معها أحد فقال من أين أقبلت فقالت من عند الحبيب فقلت وإلى

وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ قال فلم تزل تكرر هذه الآية وتبكي

منى وأفضل ويفتخر ولدك على ولدى فقال له هابيل وماذنبى إنما يتقبل الله من المتقين لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين قال الله تعالى (فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله) الآية أى طاوعته وساعدته فقتله قال السدى لما قصد قابيل قتل هابيل زاغ هابيل فى رؤوس الجبال ثم أتاه يوماً من الأيام وهو نائم فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فمات وقال ابن جريج لم يدر قابيل كيف يقتل أخاه فتمثل له إبليس وأخذ طيراً فوضع رأسه على حجر ثم شدخه بحجر آخر، وكان لهابيل يوم قتل عشرون سنة واختلفوا فى مصرعه وموضع قتله قال ابن عباس على جبل نود وقال بعضهم على عقبة حراء وحكى محمد بن جرير الطبرى قال جعفر الصادق بالبصرة موضع المسجد الأعظم فلما قتله تركه ولم يدر ما يصنع به لأنه كان أول ميت على وجه الأرض من بنى آدم فقصدته السباع فحمله فى جراب على ظهره سنة حتى تروح وعكفت عليه الطير والسباع ينظرون أين يرمى به فتأكله فبعث الله غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه ثم حفر له بمنقاره ورجليه حتى مكن له فى الأرض ثم ألقاه فى الحفرة ووارى سوأة أخى فأصبح من النادمين يعنى على حمله لا على قتله وروى عن الأوزاعى قال حدثنى المطلب عبدالله بن المخزومى لما قتل ابن آدم أخاه وجفت الأرض بما عليها سبعة أيام ثم شربت الأرض دمه كما تشرب الماء فناداه الله أين أخوك هابيل قال ما أدرى ما كنت عليه رقيباً فقال الله تعالى إن دم أخيك لينادينى من الأرض فلم قتلت أخاك قال فأين دمه إن كنت قتلته فحرم الله على الأرض من يومئذ أن تشرب دماً بعده أبداً (وعن الضحاك) عن ابن عباس لما قتل قابيل هابيل وآدم بمكة اشتاك الشجر وتغيرت الأطعمة وتحمضت الفواكه والماء وأغبرت الأرض فقال آدم قد حدث فى الأرض حدث فأتى الهند فإذا قابيل قد قتل هابيل فأنشأ يقول وهو أول شعر :

تغيرت البلاد ومن عليها ... فوجه الأرض مغبر قبيح
تغير كل ذى طعم ولون ... وقل بشاشة الوجه الصبيح

(وروى) عن ابن عباس أنه قال أن آدم قال الشعر فقد كذب على الله ورسوله وردى آدم بالمآثم وأن محمداً ﷺ والأنبياء كلهم فى النهى عن الشعر سواء قال الله تعالى (وما علمناه الشعر وما ينبغى له) ولكن لما قتل قابيل رثاه آدم وهو سريانى وإنما يقول الشعر من تكلم بالعربية فلما قال آدم مرثيته فى إنه هابيل وهو أول شهيد على وجه الأرض قال آدم لشيث يا بنى أنك وصى فاحفظ هذا الكلام ليتوارثه الناس فلم يزل ينقل حتى وصل إلى يعرب بن قحطان وهو د عليه السلام وكان يتكلم بالسريانية والعربية وهو أول من ركب الخيل وتكلم العربية وقال الشعر فنظر فى المرثية فإذا هو سجع فقال أن هذا ليقوم شعر فرد المقدم إلى المؤخر والمؤخر إلى المقدم فوزنه شعر فما زاد فيه ولا نقص حرفاً من ذلك فقال :

تغيرت البلاد ومن عليها ... فوجه الأرض مغبر قبيح ... تغير كل ذى طعم ولون
وقل بشاشة الوجه الصبيح ... وقابيل أذاق الموت هابيل ... فواحزناً لقد فقد المليح
وما لى لا أجود بسكب دمع ... وهابيل تضمنه الضريح ... وجاءت شعلة ولها رنين
لهابلها وقابلها يصيح ... لقتل ابن النبى بغير جرم ... فقلبى عند قتله جريح

(وقالت حواء)

دع الشكوى فقد هلكا جميعاً ... بموت ليس بالثمن الربيح ... وما يغنى البكاء عن البواكى
إذا ما المرء غيب فى الضريح ... فابك النفس وانزل عن هواها ... فلست مخلداً بعد الذبيح

فأجابها إبليس لعنه الله شامتاً بهما :

تنح عن البلاد وساكنيها ... ففى الجنات ضاق بك الفسيح ... وكنت بها وزوجك فى رخاء
وقلبك من أذى الدنيا مريح ... فما زالت مكايدتى ومكرى ... إلى أن فاتك الثمن الربيح

صوتها ونادت يا علام يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ثم قالت ما بطل من استأنس بالله استوحش بما سواه ومن طلب رضاه صبر على قضاه ثم غابت عنى فلم أرها رضى الله تعالى عنها .

(وحكى عن السرى السقطى رضى الله تعالى عنه أنه قال) أرقت ليلة من الليالى فلم أستطع الغمض فقلت فى نفسى اخرج إلى المقابر لعلى أعتبر برؤية القبور والتفكر فى البعث والنشور فيزول همى وغمى فخرجت إليها فما وجدت قلبى منشرح الديها فقلت ادخل الأسواق لعلى باختلاط الناس يزول عنى البأس ففعلت ذلك فما انشرح قلبى هنالك فقلت أدخل المارستان وأنظر إلى المرضى والمجانين وإلى أفعالهم لعلى أعتبر بأحوالهم فدخلت إليه فوجدت قلبى مقبلا عليه فقلت إلهى وسيدى إلى هنا سيرتنى ولأجله من منامى أيقظتنى فنوديت فى سرى ما أتينا بك هذا المكان إلا ولنا فيه نبأ وشأن قال السرى فتقدمت إلى مكان المجانين فرأيت فيه جارية مصفرة اللون متغيرة ويداها مغلولتان إلى عنقها وهى

فلولا رحمة الجبار أضحى بكفك من حنان الخلد ريح

(وقال) سالم بن أبي الجعد لما قتل قابيل هابيل مكث آدم مائة سنة لا يضحك ثم أتى فقيل له حياك الله وأضحكك ولا أبكاك قال ولما مضى من عمر آدم مائة وثلاثون سنة وذلك بعد ما قتل قابيل هابيل بخمس سنين ولد له شيث تفسيره هبة من الله يعني أنه خلف الله من هابيل وعلمه الله ساعات الليل والنهار وعبادة الخلق في كل ساعة منها وأنزل الله عليه خمسين صحيفة وكان وصي آدم وولي عهده وأما قابيل فقيل له اذهب فذهب طريدا شريدا فزعا مرعوبا لا يأمن من رآه فاخذ بيد أخته إقليما وذهب بها إلى عدن من أرض اليمن فأتى إليه إبليس وقال إنما أكلت النار قربان أخيك لأنه كان قدم النار وعبدها فانصب أيضا أنت نارا تكون لك ولعقبك ففي بيت النار فهو أول من نصب النار وعبدها فازدكان لا يمر بواحد من ولده إلا رماه وكان لقابيل ولد أعمى ومعه ابن له فقال ابن الأعمى لأبيه هذا أبوك قابيل فرمى الأعمى أباه قابيل فقتله قال فقال ابن الأعمى أنه أبوك فرفع يده فلطمه فمات فقال الأعمى ويل لي قتلت أبي برميتي وقتلت إبني بلطمتي قال مجاهد فعلقت إحدى يدي قابيل إلى فخذها وساقها وعلقت من يومئذ إلى يوم القيامة ووجهت إلى الشمس حيثما دارت وعليه في الصيف حظيرة نار وفي الشتاء ثلج قالوا واتخذ أولاد قابيل آلات اللهو من أنواع الطبول والمزامير والطنابير وانهمكوا في اللهو وشرب الخمر والزنا وعبادة النار والأوثان والفواحش حتى أغرقهم الله بالطوفان في زمن نوح عليه السلام وبقي نسل شيث عليه السلام والله أعلم.

(الباب العاشر في وفاة آدم عليه السلام)

ذكر أهل التاريخ وأصحاب الأخبار أن آدم عليه السلام مرض قبل موته أحد عشر يوما وأوصى إلى إبنه شيث وكتب وصيته ودفعها إلى شيث وأمره أن يخفي ذلك من ولده قابيل لأن قابيل قد قتل هابيل حسدا منه له حين خصه آدم بتزويج أخته إقليما فخاف عليه أيضا أن يقتله حين خصه آدم بالعلم فأخفى شيث وولده ما عندهم من الوصية فلم يكن عند قابيل وولده علم ينتفعون به وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال لما أخرج الله ذرية آدم من ظهره فجعل يعرضهم على آدم فإذا قوم عليهم النور فقال يا رب من هؤلاء الذين عليهم النور قال هؤلاء الأنبياء والرسل وإذا فيهم رجل يزهو وهو أضوأهم نورا فقال يا رب من هذا فقال ذلك داود فقال يا رب كم عمره قال ستون سنة قال يا رب زده في عمره قال لا إلا أن تزيده أنت من عمرك فقد جف القلم بأعمار بني آدم وكان عمر آدم ألف سنة فوهب له من عمره أربعين سنة فكتب الله عليه بذلك كتابا وأشهد عليه الملائكة فلما مضى من عمره تسعمائة وستون سنة جاء إليه ملك الموت ليقبضه فقال آدم عجلت علي يا ملك الموت قال ما فعلت بل أنت استوفيت أجلك قال آدم قد بقي من عمري أربعين سنة قال إنك قد وهبتها لابنك داود قال ما فعلت ولا وهبت له شيئا فأنزل الله الكتاب وأقام الملائكة شهودا ثم أن الله أكمل لآدم ألف سنة وأكمل لداود مائة سنة قال رسول الله ﷺ نسي آدم فنسيت ذريته وجحد فجحدت ذريته فأمر الله بالكتاب والشهود من يومئذ (قال) ابن اسحق وغيره ثم أن آدم مات واجتمعت عليه الملائكة لأنه صفي الرحمن فدفنته الملائكة وشيث وأخوته في مشارق الفردوس عند قرية هي أول قرية كانت في الأرض وكسفت عليه الشمس والقمر ستة أيام بلياليهن فلما اجتمعت عليه الملائكة بعث الله إليه بحنوط وكفن من الجنة وولت الملائكة غسله ودفنه فغسلته بالسدر والماء وترا وكفنوه في ثلاث ثياب ثم لحدوا له ودفنوه ثم قالوا هذه سنة ولد آدم من بعده قال ابن عباس فلما مات آدم قال شيث لجبريل صل على آدم فقال له جبريل تقدم أنت فصل على أبيك فصلى عليه وكبر ثلاثين تكبيرة فأما خمس فهي في الصلاة وأما خمس وعشرين فهي تفضيل لآدم وقد اختلف في موضع قبره فقال ابن إسحق في مشارق الفردوس

قال السري فقلت للقيم على المجانين ما شان هذه الجارية اختل عقلها مشغولة بذكر الله تعالى فحبسها مولاها فلما سمعت الجارية كلامه تنهدت وأنشدت تقول هذه الأبيات شعرا:

معشر الناس ما جننت ولكن
أنا سكرانة وقلبي صاحي
قد غللتم يدي ولم آت ذنبا
غير هتكي في حبه وافتضاحي
أنا مفتونة بحب حبيب
لست أبغي به من براح
فصلاحي الذي رأيتم فسادي
وفسادي الذي رأيتم صلاحي

قال السري فلما سمعت كلامها أقلقني وأبكاني وهيج لوعتي وأشجاني فلما رأت دمعي ينحدر على وجهي قالت يا سري ما جهلت منذ عرفت ولا فترت منذ خدمت ولا قطعت منذ وصلت ولا حجبت منذ وقفت وأهل الدرجات يعرف بعضهم بعضا قال السري فقلت لها يا جارية أراك للمحبة تذكرين وللتوحيد تظهرين فلمن تحبين فقالت لمن تعرف علينا بإكرامه وتحبب إلينا بإنعامه وجاد علينا بجزيل عطائه فهو قريب إلى القلوب ومفرج للكروب حليم على من عصاه مجيب لمن دعاه قال السري فقلت من جاء بك إلى هذا المكان فقالت حاسدون مبغضون تعاونوا على ورموني بالجنون وهم أحق بهذا الإسم مني وأنشدت تقول:

يا من رأى وحشتي فأنسى

وقال غيره دفن بمكة وقيل فى غار أبى قبيس وهو غار يقال له الغار الكبير وروى أبو صالح ابن عباس أنه قال مات آدم على جبل نود بالهند وقال ابن عباس لما كان ايام الطوفان حمل نوح تابوت آدم فى السفينة فلما خرج من السفينة دفن آدم ببيت المقدس وكانت وفاة آدم يوم الجمعة وعاشت حواء بعده سنة ثم ماتت فدفنت مع آدم عليهما السلام والله أعلم .

(باب فى الخصائص التى خص الله بها آدم عليه السلام)

قال الأستاذ خلق الله آدم بيده ونفخ فيه من روحه وجعله خاتمة خلقه وخلقه فى أحسن صورة وأقسم عليه فقال عز من قائل (والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) ولقنه الحمد حين عطس ثم قال له يرحمك ربك فسبقت له رحمته غضبه واسكنه بعد خلقه الجنة بلا عمل وأباح له جميع الجنة إلا شجرة واحدة وعلمه الأسماء كلها وأمر ملائكته بالسجود له وأمرهم بالتلقين وجعله أبا البشر وجعله خليفته فى الارض وعرف الملائكة فضله عليها ولعن إبليس من أجله مع كثرة عبادته وعاتب بسببه وهو أول جاحد وأول تائب وأول مجتبى وأول مصطفى وأول خليفة لله فى الارض وهو المميز للأرواح الخبيثة من الطيبة وهو الباعث يوم القيامة فبعث النار من ذريته فهذه ثلاث وعشرون خصلة من خصائصه ﷺ وشرف وكرم والله أعلم

(مجلس فى ذكر النبى إدريس عليه السلام)

قال الله تعالى (واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً) قال أهل العلم بأخبار الماضين وقصص النبيين هو إدريس بن بردوقيل باريد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم واسمه أخنوخ وسمى إدريس لكثرة درسه الكتب وصحف آدم وشيث وأمه اشوث وكان إدريس أول من خط بالقلم وأول من خاط الثياب ولبس المخيط وأول من نظر فى علم النجوم والحساب بعثه الله تعالى إلى ولد قابيل ثم رفعه الله إلى السماء على ما قاله ابن عباس وأكثر الناس أنه سار ذات يوم فأصابه وهج الشمس فقال يارب إنى مشيت فى الشمس يوماً فتأذيت فكيف بمن يحملها خمسمائة عام فى يوم واحد اللهم خفف عنا ثقلها واحمل عنا حرها فلما أصبح وجد من نفسه خفة الشمس وحرها ما لا يعرف فقال يارب خففت عنى حر الشمس فما حال الذى قضيت على فيه فقال تعالى إن عبدى إدريس سالنى أن أخفف عنك ثقلها وحرها فأجبته إلى ذلك فقال يارب اجمع بينى وبينه واجعل بينى وبينه خلة فاذن الله له فكان إدريس يسأله وكان مما سأله أن قال أحببت أنك أكرم الملائكة على ملك الموت وامكنهم عنده فاشفع لى اليه ليؤخر أجلى فأزداد شكراً وعبادة فقال الملك لا يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها قال قد علمت ذلك ولكنه أطيب لنفسى فقال أنا مكانه لك وما كان يستطيع أن يفعل لأحد من بنى آدم فهو فاعله لك ثم حمله الملك على جناحه حتى رفعه إلى السماء ووضعه عند مطلع الشمس ثم أتى إلى ملك الموت فقال له لى اليك حاجة فقال له أفعل لك كل شىء استطيعه فقال لى صديق من بنى آدم تشفع بى اليك لتؤخر أجله فقال ليس ذلك إلى ولكن أحببت أعلمته أجله ومتى يموت فيتقدم فى نفسه فال نعم فنظر فى ديوانه فأجبره باسمه وقال إنك كلمتنى فى إنسان ما أراه يموت أبداً قال وكيف ذلك قال إنى لأجده يموت عند مطلع الشمس قال فانى أتيتك وتركته هناك فقال له انطلق فلا أراك تجده إلا وقد مات والله ما بقى من أجل إدريس شىء فرجع الملك فوجده ميتاً (قال وهب) كان يرفع له كل يوم من العبادة مثل ما يرفع لاهل الأرض جميعهم فى زمانه فعجبت منه الملائكة واشتاق اليه ملك الموت فاستأذن الله فى زيارته فأذن له فأتاه فى صورة منى آدم وكان إدريس يصوم الدهر فلما كان وقت إفطاره دعاه إطعامه فأبى أن يأكل وفعل ذلك ثلاث ليال فأنكره وقال فى الليلة الثالثة إنى أريد أن اعلم من أنت قال أنا ملك الموت استأذنت ربى أن أزورك وأصاحبك فأذن لى فى ذلك فقال إدريس لى اليك حاجة فقال ما هى قال اقبض روحى فأوحى الله تعالى اليه أن اقبض روحه ثم ردها الله تعالى عليه بعد ساعة فقال له ملك الموت فما الفائدة فى سؤالك

بالقرب من صله فانعشنى
ياساكنى لاخلوت من سكنى
دهرى وباعدنى على الزمن
أوحشنى ما فقدت منه فقد
دعا باحسانه يقربنى وحاد
أيضاً على منعطفاً كذاك قد
كنت حين عرفنى حبى من
السكون من شففت بصحبة
مؤنساً ويصحبنى وكنت فى
غفلة فنبهنى وكنت فى رقدة
فأيقظنى قال السرى فقلت لها
ما الإسم فقالت دع الإسم
يكفيك فما سمت يغنيك
فبينما نحن كذلك إذ أقبل
سيدها فقال للموكل عليها
أين بدعة قد دخل عليها
الشيخ السرى فكلمها بكلام
أصغت اليه فدخل سيدها
فرأى السرى عندها فعظمه
وقبل يده وقال ياسيدى لقد
رحمت ببركتك فقال له أى
شىء أنكرت منها فقال
ياسيدى هذه جارية كانت
تضرب بالعود فأعجبتنى
فشريتها بجميع مالى وهو
عشرون ألف درهم لفرط
حسنها وحسن ضربها على
العود وأملت أن أربح فيها
مثل ثمنها فدخلت بعض الأيام
والعود فى حجرها وهى تغنى
وتنشد هذه الابيات :
وحقك ما نقضت الدهر عهدا
ولا كدرت بعض الصفو ودا
ملأت جوانحى والقلب وجدا
فكيف أقر يا سكنى واهدا
فيامن ليس لى مولى سواه
لقد صيرتنى فى الناس عبدا
قال فلما فرغت من غنائها

بكت بكاء طويلا ثم ضربت بالعود فى الأرض فكسرته وجعلت تهيم وتصيح وهى ذاهلة العقل جاءتها بحجة الخلوق ثم كشفت عن حالها فلم أجد لذلك أثر قال السرى فقلت لها يا جارية أهكذا جرى عليك فجاوبته بهذا الكلام تقول شعرا :

جاوبنى الحق من جنانى وكان وعظى على لسانى
قربنى منه بعد بعد وخصنى منه واصطفانى
أجبت لما دعيت طوعا ملبيا للذى دعانى
وخفت لما جننت فيه فما يوقع الحب بالأمانى

قال السرى فقلت لسيدها اطلقها وعلى دفع ثمنها فصاح سيدها وانقراه من أين لك ثمن هذه الجارية قال السرى فقلت لا تعجل وامكث فى هذا المكان حتى آتيك بثمنها قال السرى فمضيت إلى منزلى وعيناى تذرفان بالدموع وقلبى بسبب حبها موجوع وصرت أتضرع إلى الله تعالى وأتوجه إليه وأتوكل عليه فى قضاء حاجتى عليه فبينما أنا كذلك إذ قارع يقرع الباب فقلت من بالباب فقال حبيب من الأحباب فنظرت فإذا هو شاب من أحسن الناس وجها ومعه خادم على رأسه خمس بدر فقلت من أنت يرحمك الله فقال أحمد بن المثنى قد أعطانى الجبار جلا جلاله وتفضل على بعطائه ورزقنى من الأموال

قبض الروح قال لا أذوق كرب الموت وغمه فما كان له أشد استعدادا ثم قال له إلى إليك حاجة أخرى قال وما هى قال ترفعنى إلى السماء لانظر إليها وإلى الجنة فأذن له فى ذلك فلما قرب من النار قال لى إليك حاجة قال وما تريد قال تسأل مالكا يفتح لى أبواب النار حتى أراها ففعل ذلك ثم قال فكما أريتنى النار فأرنى الجنة فذهب به إلى الجنة فاستفتحها ففتحت له أبوابها فدخلها فقال له ملك الملك مالك لا تخرج قال لأن الله تعالى قال كل نفس ذائقة الموت وقد ذقته وقال تعالى وإن منكم إلا واردها وقد وردتها وقال تعالى وما هم منها بمخرجين فلست أخرج فقال الله تعالى للملك الموت دعه فانه بإذنى دخل الجنة وبأمرى لا يخرج فهو حى هناك فتارة يعبد الله فى السماء الرابعة وتارة يتنعم فى الجنة والله أعلم

(قصة هاروت وماروت)

قال الله تعالى (واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان) الآية قال أهل التفسير إن الشياطين كتبوا السحر والنيرنجات على لسان آصف فى مدة زوال ملك سليمان هذا ما أعلم آصف بن برخيا سليمان الملك ثم دفنوها تحت مصلاه ولم يشعر بذلك سليمان فلما مات استخرجوها من تحت مصلاه وقالوا للناس ما ملككم سليمان إلا بهذه قال السدى وذلك أن شيطانا تمثل إنسان فأتى نفرا من بنى إسرائيل فقال هل أدلكم على كنز لا ينفد أبدا قالوا نعم قال فاحفروا تحت كرسى سليمان وذهب معهم فأراهم المكان وقام ناحية فقالوا له اذن فقال لا ولكنى ههنا فان لم تجدوه فاقتلونى وذلك أنه لم يكن أحد من الشياطين يدنو من الكرسى إلا احترق فحفروا فوجدوا تلك الكتب فلما أخرجوها قال الشيطان إن سليمان كان بضبط الجن والإنس والشياطين والطير بهذا ثم طار الشيطان وذهب وأما علماء بنى إسرائيل وصلحاؤهم فقالوا معاذ الله أن يكون هذا علم سليمان فان كان هذا علمه فقد هلك سليمان وأما الجهال والسفلة فأقبلوا على تعلمه ورفضوا كتب أنبيائهم فأنزل الله هذه الآية إظهارا لعذر سليمان وبيانا لبراءته فهذه قصة الآية

(وأما قصة هاروت وماروت)

فقال المفسرون إن الملائكة لما رأوا ما يصعد إلى السماء من أعمال بنى آدم الخبيثة وذنوبهم الكثيرة وذلك فى زمن إدريس النبى عليه السلام غيروهم بذلك وانكروا عليهم وقالوا هؤلاء الذين جعلتهم خلفاء فى الأرض واخترتهم فهم يعصونك فقال تعالى لو أنزلتكم إلى الأرض وركبت فيكم ما ركبت فيهم لفعلتم مثل ما فعلوا قالوا سبحانك ربنا ما كان ينبغى لنا أن نعصيك قال الله تعالى اختاروا ملكين من خياركم أهبطهما إلى الأرض فاختاروا هاروت وماروت وكانا من أصلح الملائكة وأعبدهم وقال الكلبى قال الله تعالى اختاروا ثلاثة منكم فاختاروا عزا وهو هاروت وعزابيا وهو ماروت وعزرائيل وإنما غيرا إسمهما لما اقترفا الذنب كما غير الله إسم إبليس وكان إسمه عزازيل فركب الله تعالى فيهم الشهوة التى ركبها فى بنى آدم وأهبطهم إلى الأرض وأمرهم أن يحكموا بين الناس بالحق وينهاهم عن الشرك والقتل بغير الحق والزنا وشرب الخمر وقاما عزازيل فانه لما وقعت الشهوة فى قلبه استقبل ربه وسأله أن يرفعه إلى السماء فأقاله ورفعه وسجد أربعين سنة ثم رفع رأسه ولم يزل بعد ذلك مطئطئا رأسه حياء من الله تعالى وأما الآخران فإنهما ثبتا على ذلك يقضيان بين الناس يومهما فاذا أمسيا ذكرا اسم الله تعالى الأعظم وصعد إلى السماء قال قتادة فأمر عليهما شهر حتى افتتنا وذلك انه اختصم إليهما ذات يوم الزهرة وكانت من أجمل النساء قال على رضى الله عنه كانت من أهل فارس وكانت ملكة فى بلدها فلما رأياها أخذت بقلوبهما فراوداها عن نفسها فأبت وانصرفت ثم عادت فى اليوم الثانى ففعلا مثل ذلك فقالت لا إلا أن تعبدا ما أعبد وتصليا لهذا الصنم وتقتلا النفس وتشربا الخمر فقالا لا سبيل إلى هذه الأشياء فان الله نهانا عنها فانصرفت ثم عادت فى اليوم الثالث ومعها قدح من خمر وفى نفسها من الميل إليهما ما فيها فراوداها عن نفسها فأبت وعرضت عليهما ما قالت

بالامس فقالا الصلاة لغير الله أمر عظيم وقتل النفس عظيم واهون الثلاثة شرب الخمر فشربا الخمر فانتشيا ووقعا بالمرأة وزنيا بها فرآهما إنسان فقتلاه قال الربيع بن انس وسجد للصنم فمسخ الله الزهرة كوكبا وقال علي رضي الله عنه والسدي والكلبي أنها قالت لا تدركاني حتى تعلماني الذي تصعدان به إلى السماء فقالا لا نصعد إلا باسم الله الأعظم فقالت فما أنتما بمدركي حتى تعلمانيه قال أحدهما لصاحبه علمها فقال إني أخاف الله فقال الآخر فاين رحمة الله تعالى فعلماها ذلك فتكلمت به وصعدت إلى السماء فمسخها الله تعالى كوكبا وكان النبي ﷺ إذا رأى سهيلا قال لعن الله سهيلا إنه كان عشارا باليمن ولعن الله الزهرة فإنها قتلت ملكين هاروت وماروت قال ابن عباس وأنكر الآخرون هذا القول وقالوا الزهرة من الكواكب السبعة السيارة التي جعلها الله تعالى قواما للعباد وأقسم بها فقال تعالى فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس وإنما كانت التي فتنت هاروت وماروت امرأة تسمى زهرة لجمالها فلما زنت مسخها الله شهابا فلما رأى رسول الله ﷺ الزهرة ذكر تلك المرأة الموافقة لهذا الإسم فلعنها وكذلك سهيل العشار كان رجلا فلما رأى رسول الله ﷺ هذا النجم الموافق إسمه لإسم هذا الرجل لعنه يدل عليه ما روى فليس بن عباد عن ابن عباس في هذه القصة قال كانت امرأة فضلت على النساء بالحسن والجمال كما فضلت هذه الزهرة على سائر الكواكب قالوا فلما أمسى هاروت وماروت بعد ما فارقا الذنب هما بالصعود إلى السماء فلم تطعهما أجنحتهما فعلما بما حل بهما فقصدا إلى إدريس عليه السلام فاخبراه بامرهما وسالاه أن يشفع لهما إلى الله تعالى وقالا له إنا رأيناك يصعد لك من العبادة مثل ما يصعد لجميع أهل الارض فاشفع لنا إلى الله تعالى قال ففعل إدريس ذلك فخيرهما الله بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا لانه ينقطع فهما ببابل بعذبان (وروى) أن رجلا قصدهما لتعلم السحر فوجدهما معلقين بارجلهما مزرقة أعينهما مسودة وجوههما ليس بين ألسنتهما وبين الماء إلا أربعة أصابع وهما يعذبان بالعطش فلما رأى ذلك هاله مكانهما فقالا لا إله إلا الله فلما سمعا كلامه قالا لا إله إلا الله من أنت قال رجل من الناس قالا له ومن أي أمة أنت قال من أمة محمد ﷺ قالا أو بعث محمد ﷺ قال نعم فحمدا الله تعالى وأطهرا الاستبشار فقال الرجل ومم استبشار كما قالا إنه نبي الساعة وقد دنا انقضاء عذابنا (وروى) هشام عن عائشة أنها قالت قدمت امرأة من دومة الجندل جاءت تبتغي رسول الله ﷺ بعد موته تسأل عن شيء دخلت فيه من أمر السحر وما تعمل به فقالت عائشة لعروة يا ابن أختي فرأيتها تبكي حين لم تجد رسول الله ﷺ فكانت تبكي حتى رحمتها ثم قالت إني لأخاف أن أكون قد هلكت ثم قالت كان لي زوج غاب عني فدخلت على عجوز فشكوت لها ذلك فقالت إن فعلت ما آمرك به جعلته يأتيك فلما كان الليل جاءني بكلبين أسودين فركبت احدهما وركبت هي الآخر فلم يكن كثير حتى وقفنا ببابل وإذا برجلين معلقين بارجلهما فقالا ما جاء بك فقالت اتعلم السحر فقالا إنما نحن فتنة فلا تكفري فارجعي من حيث أتيت فقلت لا قالا فاذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه فذهبت لابول فيه فزعت لم أفعل فرجعت فقالا فعلت فقلت نعم فقالا هل رأيت شيئا قالا ارجعي إلى بلادك ولا تكفري فابيت فقال اذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه فذهبت فاقشعر جلدي وخفت ثم رجعت إليهما فقلت قد فعلت فقالا ما رأيت فلم أر شيئا قالا كذبتي لم تفعلي بارجعي إلى بلادك ولا تكفري إنك على رأس أمرك فقلت لا فقالا لي اذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه فذهبت إليه فبلت فيه فرأيت فارسا مقنعا بالحديد خرج منه حتى ذهب إلى السماء وغاب حتى ما أراه فجئتهما فقلت قد فعلت قالا فما رأيت قلت رأيت فارسا مقنعا بالحديد خرج مني وذهب في السماء فلم أره قالا صدقت ذلك إيمانك خرج منك فاذهبي فقلت والله ما أعلم شيئا ولا مالي شيئا فقالا لا تريدين شيئا إلا كان خذي هذا القمح فابذريه فبذرته ثم قالت له اطلع فطلع فقلت له أنجصد فحصد فقلت له انفرك ففرك ثم قلت انطحن فطحن ثم قلت اتخبز فخبز فلما رأيت إني لا أريد شيئا إلا كان سقط بين يدي فرجعت وندمت والله يا أم المؤمنين ما فعلت شيئا قط ولا أفعله أبدا (قال) الأوزاعي بلغني أن

من قبل الله عز وجل فقال يا أحمد هل لك في معاملتنا فقلت وقد زال النوم عني ومن أولى بذلك مني فنادى أن أحمل إلى الشيخ السري خمس بدر يعطيها لمولى بدعة ليفك أسرها من الرق ويحظى منها بالعتق فحملنا بها عناية ولطفا ورعاية فحملت إليك هذا المال وأطلعتك على الحال قال السري فسجدت شكرا لله تعالى وأخذت بيد أحمد ومضينا إلى المارستان وإذا بالموكل عليها يلتفت يمينا وشمالا فلما رآني قال مرحبا ادخل عليها فإنها لهفانة ولها عند الله حرمة ومكانة قال فدخلنا عليها فسمعناها تقول شعرا :

قد تصبرت إلى أن
عيل في حبك صبري
وكتمت الوجد لكن
ليس يخفى فيك أمري
إن تكن عني راضي
لا أبالي طول دهري
أنت لي خير أنيس
يا مني مؤلي وذخري
من يرد يعتق رقي
ويفك اليوم أسري
غيرك اللهم ربي
أنت لي كاشف ضري

قال فبينما هي تنشد إذ أقبل مولاها وهو يبكي ويلتحب قال السري فقلت لا بأس عليك قد أتيتك بالذي وزنته في الجارية

ربع خمسة آلاف

جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال يا جبريل صف لي النار فقال إن الله تعالى أمر بها فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة لا يطفأ جمرها ولا يخمد لهبها والذي بعثك بالحق لو أن ثوباً من ثياب أهل النار ظهر لأهل الأرض لماتوا جميعاً ولو أن ذنوباً من شرابها صب في ماء الأرض جميعاً لقتل من ذاقه ولو أن حلقة من السلسلة التي ذكرها الله وضعت على جبال أهل الأرض جميعاً لذابت وما استقلت ولو أن رجلا دخل النار وخرج لمات أهل الأرض من نتن ريحه وتشويه خلقه وعظمه فبكى النبي ﷺ وبكى جبريل لبكائه وقال أتبكي يا محمد وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبداً شكوراً ويكى جبريل فقال يا جبريل أتبكي وأنت الروح الأمين أمين الله على وحيه قال أخاف أن أبتلى بما ابتلي به هاروت وماروت فهذا الذي منعني من اتكالي على منزلتي عند ربي فأكون قد أمنت مكره فلم يزالا يبكيان حتى نودیا من السماء يا جبريل ويا محمد أن الله تعالى قد أمنكما من غضبه فلا بعد بكما وأن فضل محمد ﷺ على سائر الأنبياء كفضل جبريل على سائر الملائكة.

(مجلس في قصة نوح عليه السلام)

قال الله تعالى لنبيه عليه السلام (واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه) الآية وهو نوح بن الملك ابن متوشلخ ابن اخنوخ بن برد بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيث عليه السلام وأمه افينوس بنت راكيل وقيل بنت كابيل بن نخوئيل بن اخنوخ أرسله الله تعالى إلى ولد قابيل ومن تابعهم من ولد شيث (قال) ابن عباس وكان بطنان من ولد آدم أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل وكان في رجال الجبل صباحة وفي نسائهم دمامة وكان في نساء السهل صباحة وفي الرجال دمامة وأن إبليس أتى رجلا من أهل السهل في صورة غلام فأجر نفسه منه وكان يخدمه واتخذ إبليس شيئاً مثل الذي يزمر به الرعاة فجاء منه بصوت لم يسمع الناس مثله فبلغ ذلك من حولهم فأتوه مستمعين إليه واتخذوه عيداً يجتمعون إليه في السنة فتبرج النساء للرجال وأن رجلا من أهل الجبل هجم عليهم وهم في عيدهم فرأى النساء وصباحتهن فجاء إلى أصحابه وأخبرهم بذلك فتحولوا إليهم فنزلوا معهم وظهرت الفاحشة فيهم وهو قوله تعالى (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) وقال ابن عباس، كان آدم أوصى أن لا ينا كح بنو شيث بني قابيل فجعل بنو شيث آدم في مغارة وجعلوا عليه حفاظاً لئلا يقربه أحد من أولاد قابيل وكان الذي يأتونه ويستغفر لهم بني شيث فقال مائة من بني شيث صباح لو نظرنا ما فعل بنو عمنا يعنون بني قابيل فهبطت المائة إلى نساء السهل صباح الوجوه من بني قابيل فاحتبس النساء الرجال ثم مكثوا ما شاء الله فقال مائة أخرى ولو نظرنا ما فعل إخوتنا فهبطوا من الجبل إليهم فاحتبسهم النساء ثم هبط بنو شيث كلهم فظهرت المعصية وتناكحوا واختلطوا وكثر بنو قابيل حتى ملؤا الأرض وأكثروا الفساد فبعث الله إليهم نبيهم نوحاً وهو ابن خمسين سنة فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله تعالى ويخوفهم بأسه ويحذرهم سطوته كما أخبر الله تعالى بقوله (قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهاراً فلم يزدهم دعائي إلا فراراً) وقوله تعالى (وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى) وقال تعالى (وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين) وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال أن نوحا كان يضرب ثم يلف في لبد ثم يلقى في بيته فيرون أنه قد مات ثم يخرج فيدعوهم حتى أيس من إيمان قومه فبعد ذلك جاء رجل ومعه ابنه يتوكأ على عصا فقال يا بني انظر إلى هذا الشيخ إياك أن يغرك فقال يا أبت مكنني من العصى فأعطاه العصا فقال ضعني في الأرض فوضعه فمشى إليه فضربه بالعصا فقال نوح رب قد ترى ما يصنع بي عبادك فإن لم يكن لك في عبادك حاجة فاهدهم وإن لم يكن غير ذلك فصبرني إلى أن تحكم بيني وبينهم وأنت خير الحاكمين فأوحى الله إليه أنه لن يؤمن بك قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون فآيسه من إيمان قومه وأخبره أنه لم يبق في أصلاب الرجال ولا أرحام النساء مؤمن فعند ذلك دعا عليهم

درهم فقال لا والله فقلت ولو أعطيتني الدنيا بما فيها لما قبلت منها شيئاً ولكن هي حرة لوجه الله تعالى قال السري فقلت له أخبرني ما الخبر فقال يا أستاذي أتاني البارحة آت في النوم فوبخني في المنام وأغلظ علي في الكلام وقال تهين ولية لنا يا عدو الله فانتبهت مرعوباً وقد هانت علي الدنيا وخرجت عن جميع ما أملكه لله تعالى وأنا هارب إليه عسى أن يقبلني ثم بكى وخرج على وجهه هائماً قال السري فالتفت إلى أحمد ابن المثنى فوجدته يبكي ويتنحب ودموعه تجري على خده وقد ظهرت آثار القبول عليه فقلت ما يبكيك يا أحمد فقال ما رضيني مولاي إلى ما ندبني إليه ولا وجدت لما لي قبولا بين يديه أشهدك إني قد خرجت عنه وهو صدقة لوجه الله تعالى قال السري فقلت ما كان أعظم بركات بدعة على الجميع ثم قامت بدعة ونزعت جميع ما كان عليها ولبست جبة من صوف وخماراً من شعر وخرجت هائمة على وجهها فخرجت معها وهي تنشد وتقول شعراً :

هربت منه إليه
بكيت منه عليه
وحقه وهو مولى
لا زلت بين يديه

وقال رب إنهم عصونى الآية إلى قوله ولا تذر ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا وهى أسماء أصنام لهم كانوا يعبدونها من دون الله وقوله تعالى (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) وقوله تعالى (ولا تزد الظالمين إلا تبارا) أى هلاكا ودمارا فأجاب الله دعاءه وأمره أن يصنع الفلك كما قال تعالى (واصنع الفلك بأعيننا ووحينا) الآية قال نوح يا رب وما الفلك قال بيت من خشب يجرى على وجه الماء حتى أغرق أهل المعصية وأريح أرضى منهم قال نوح يا رب أين الماء قال يا نوح إنى على ما أشاء قدير قال نوح يا رب فأين الخشب قال اغرس الشجر فغرس الساج وأتى على ذلك أربعون سنة وكف فى تلك المدة عن الدعاء فلم يدعهم فاعقم الله تعالى أرحام نسائهم فلم يولد لهم ولد فلما أدرك الشجر أمره ربه أن يقطع الشجر فقطعه وجففه ثم قال يا رب كيف أتخذ هذا البيت قال اجعله ازورعلى ثلاث صور رأسه كرأس الديك وجوفه كجوف الطير وذنبه كذنب الديك مائلا واجعلها مطبقة واجعل أبوابها فى حقبيها واجعلها ثلاث طبقات واجعل طولها ثمانين ذراعا وعرضها خمسين ذراعا وطولها فى السماء ثلاثين ذراعا والذراع إلى المنكب هذا قول أهل الكتاب ثم بعث الله جبريل يعلم نوحا صنعة الفلك وكان نوح يقطع الخشب ويضرب الحديد ويهيىء عدة الفلك من القار وغيره وكان قومه يمرون عليه وهو فى عمله فيسخرون منه ويقولون يا نوح قد صرت نجارا بعد النبوة ثم يقولون ألا ترون إلى هذا المجنون يتخذ بيتا يسير به فى الماء ويضحكون منه وذلك قوله تعالى (ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) فيقول نوح (إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم) وأوحى الله إلى نوح ان عجل صنعة الفلك فقد اشتد غضبى على من عصانى فاستأجر نوح أجراء يعملون معه وأولاده سام وحام ويافث ينحتون معه السفينة فجعل السفينة طولها ثلثمائة ذراع وعرضها ثلثمائة وثلاثون ذراعا وطولها فى السماء ثلاثة وثلاثون ذراعا هذا قول ابن عباس فى رواية الضحاك وطلاها بالقار داخلها وخارجها وشدها بالأسر وهى مسامير الحديد وذلك قوله تعالى (وحملناه على ذات ألواح ودسر) وفجر الله له عين القار بجنب السفينة تغلى غليانا حتى طلاها فلما فرغ من صنع السفينة أوحى الله إليه أن أحمل فيها من كل زوجين اثنين من أنواع الحيوانات كلها حتى لا ينقطع نسلهم وحشرها الله إليه من البر والبحر والسهل والجبل وقد جعل الله فوران التنور آية بينه وبين نوح وعهد الله إليه فقال إذا رأيت التنور قد فار فاركب أنت ومن معك على الفلك واحمل فيها من كل زوجين اثنين كما قال الله تعالى (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور) أى عذابنا وهو الطوفان قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين الآية (وروى) السدى عن الشعبى أنه كان يحلف بالله ما فار التنور إلا فى ناحية الكوفة وقال اتخذ نوح السفينة فى جوف مسجد الكوفة وكان التنور عن يمين الداخل مما يلى باب كندة وكان فوران الماء علما لنوح ودليلا على هلاك قومه وقال مقاتل ذلك تنور آدم وإنما كان بالشام فى موضع يقال له عين ورد وقال ابن عباس كان التنور بالهند والعوران هو الغليان فلما رآه نوح أيقن بنزول العذاب فحمل من كل زوجين اثنين من أنواع الحيوانات كما أمره الله تعالى (قال) ابن عباس أرسل الله المطر أربعين يوما وليلة فاقبلت الوحوش والطير والدواب إلى نوح حين أصابها المطر وسخرت له فحمل منها من كل زوجين اثنين فكان أول ما حمل نوح فى الفلك من الدواب الدرة وآخر ما حمل الحمار فلما دخل الحمار بصدره تعلق إبليس بذنبه فلم تستقر رجلاه فجعل نوح يقول ادخل فينهض فلا يستطيع حتى قال ويحك ادخل وإن كان الشيطان معك ومعك كلمة زل بها لسانه فلما قالها نوح خلى الشيطان سبيله فدخل ودخل الشيطان معه فقال له نوح ما أدخلك يا عدو الله فقال ألم تقل ادخل ولو كان الشيطان معك قال اخرج يا عدو الله قال ما أخرج وما كان بذلك أن تحملنى معك وكان فيما يزعمون على ظهر الفلك (قال) مالك بن سليمان الهروى إن الحية والعقرب أتيا نوحا فقالا احملنا فقال إنكما سبب الضرر والبلايا فلا أحملكما قالا احملنا

نتبعها حتى خرجت إلى ظاهر المدينة وهى تنشد وتقول هذه الأبيات شعرا :

يا حبيب القلوب أنت حبيبى
يا سرور السرور أنت سرورى . يا حياة النفوس أنت حياتى وأنيسى أنت نورى لنورى قال السرى ثم مضت حتى غابت عن أعيننا ثم أتى مولاها وصحبنى وكذلك أحمد بن المثنى برهة من الزمان إلى أن توفى سيدها وبقيت أنا وأحمد بن المثنى فعزمنا على الحج إلى بيت الله الحرام فبينما نحن نطوف بالكعبة إذا بصوت مقروح يخرج من كبد مجروح وهو ينشد ويقول هذه الأبيات :

قد تهتكت بحبك
كيف لى منى بقربك
فترفق بفؤاد
يشتكى شدة بعدك
حيث يا نفس إذ لا
يغفر ربك ذنبك
فاسألى العفو جهارا
والرضا من عند ربك

قال السرى فاتبعت الصوت فإذا بامرأة كالخيال ذاهلة العقل والبال فلما رأتنى قالت السلام عليك يا سرى فقلت عليك السلام من أنت يرحمك الله فقالت لا إله إلا الله وقع التناكر بعد المعرفة أنت إلى الآن محجوبه وقلبك مسلوب أنا بدعة قال السرى فقلت لها ما الذى أفادك الحق

بعد انفرادك عن الناس فقالت شعراً :

فادنى كل المنى
وخص قلبى بالغنى
وقد أزال سيدى
عن باطنى ثقل العنا
ان لم يدار كنى بما
أرجو وإلا من أنا

قالت فلما فرغت من كلامها بكت وانتحبت وهاجت واضطربت ثم رفعت رأسها ونالت يا سيدى ومولاى فاز أهل التقى ونجا من اتقى وخاب من حظه الطرد والشقا فاسألك باسيدى إلا ماقربت الوصل واللقا وقد توانيت عليك فحذنى إليك فلا حاجة لى فى البقاء ثم صرخت ووقعت إلى الأرض فحركتها فإذا هى ميتة رحمة الله عليها قال فنظر إليها أحمد بن المثنى فطار قلبه وحار لبه ثم بكى وانتحب واهتز واضطرب واجتمد الزفرات وأظهر الحسرات ثم صرخ ووقع على الأرض فحركته فإذا هو قد مات قال السرى فتعجبت من حالها وقسرب آجالها وأخذت فى غسلهما وتجهيزهما ودفنهما رحمة الله تعالى عليهما ونفعنا بهما .

(وحكى عن السرى أيضا رضى الله تعالى عنه) انه قال حججت سنة من السنين إلى بيت الله الحرام وزيارة النبى عليه أفضل الصلاة والسلام فبينما أنا فى الطريق إذا أنا بأمرأة حسناء ذات جمال بديع فقلت لها يا جارية أين تريدين فقالت إلى بيت الحبيب فقلت لها إن

ونحن نضمن لك أن لا تضر أحداً أذكرك فمن قرأ حين يخاف مضرتهما سلام على نوح فى العالمين إنا كذلك نجزى المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين لم يضراه (عن وهب بن منبه) قال لما أمر الله نوحا أن يحمل من كل زوجين اثنين قال كيف أصنع بالأسد والبقر وكيف أصنع بالغناق والذئب وكيف أصنع بالحمام والهر قال الله تعالى له من ألقى بينهم العداوة قال أنت يارب قال فانا أؤلف بينهم حتى يتضاروا فحمل نوح السباع والدواب فى الطبقة الأولى فالقى الله على الأسد الحمى وشغله بنفسه عن الدواب والبقر ولذلك قيل :

وما الكلب محموماً وإن طال عمره ... لعمرك ما المحموم دوما سوى الأسد

وجعل الوحوش فى الطبقة الثانية وركب هو ومن معه من أولاد آدم فى الطبقة العليا وجعل الذرة معه فى الطبقة العليا شفقة عليها لئلا يقتلها شىء ، واختلفوا فى أهل السفينة الذين ذكرهم الله تعالى فى قوله تعالى (وأهلك إلا من سبق عليهم القول منهم) قال الضحاك كان نوح إذا أراد أن ترسو قال بسم الله فرست وإذا أراد أن تجرى قال بسم الله فجرت على الماء فذلك قوله تعالى بسم الله مجريها ومرساها الآية : ومن آمن وما آمن معه إلا قليل منهم وكلهم قال قتادة لم يكن فى السفينة إلا نوح وامرأته وثلاثة من بنيه سام وحام ويافث ونساؤهم فجميعهم ثمانية فاصاب حام امرأته فى السفينة فدعا نوح ربه قال فتغيرت نطفته فجاء بالسودان (قال الكلبى) أمر نوح أن لا يقرب ذكر أنثى مادام فى السفينة فوثب الكلب على الكلبة فدعا عليه نوح فقال نوح اللهم اجعله عسراً وقال الأعمش كانوا سبعة نوح وثلاثة بنين وثلاث كنائن له وقال ابن اسحق كانوا عشرة سوى نسائهم وهم نوح وبنوه سام وحام ويافث وستة أناث ممن كانوا آمنوا معه وأزواجهم جميعا وقال ابن عباس كانوا ثمانين إنسانا وحمل نوح جسد آدم معه وجعله معرضا حاجزا بين الرجال والنساء قالوا فلما ركب نوح الفلك وأدخل معه كل من آمن كان ذلك فى شهر آب بالرومية فلما دخلها وحمل معه من حمل تحركت ينابيع الأرض والغوط الأكبر وأمطرت السماء كأفواه القرب كما قال تعالى (فتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر) يعنى التقى ماء السماء وماء الأرض فجعل الماء ينزل من السماء وينبع من الأرض حتى كثر واشتد وكان بين إرسال الماء واحتمال الماء الفلك أربعين يوماً وليلة ثم احتمل الماء الفلك وكان كنعان بن نوح تخلف عن أبيه قال قتادة لم يركب فى السفينة فناداه نوح وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين نال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم لك اليوم من أمر الله إلا من رحم وكان عهد كنعان الجبال أنها تحصن من المطر فظن ذلك كما كان فقال نوح لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين وكثر الماء فارتفع فوق الجبال قال ابن عباس ارتفع على أعلى جبل فى الأرض خمسة عشر ذراعاً .

(وروت) عائشة رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ قال لو رحم الله أحداً من قوم نوح لرحم المرأة أم الصبى وذلك أنها خشيت عليه من الماء وكانت تحبه حباً شديداً فخرجت به إلى الجبل حتى بلغت قنته فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت على الجبل وحملت الصبى فلما بلغ رقبتها رفعته بيديها حتى ذهب بهما الماء فلو رحم الله أحداً منهم لرحم هذه قالوا ثم طافت السفينة بأهلها الأرض كلها فى ستة أشهر لا تستقر على شىء حتى أتت الحرم فلم تدخله ودارت بالحرم أسبوعاً وقد رفع الله البيت الذى كان بحجه آدم صيانة له من الغرق وهو البيت المعمور وخبأ جبريل الحجر الأسود فى جبل أبى قبيس فلما طافت السفينة بالحرم ذهبت فى الأرض تسير بهم حتى انتهت إلى الجودى وهو جبل حصين من أرض الموصل فاستقرت عليه قال مجاهد تشامخت الجبال وتطاولت لئلا يناله الماء فعلا الماء فوقها خمسة عشر ذراعاً وتواضع لأمر ربه الجودى فلم يغرق فرست السفينة عليه فذلك قوله تعالى واستوت على الجودى (وقال) ابن عباس استوت السفينة على الجودى وقد باد ما على وجه الأرض من الكفار ومن كل شىء فيه الروح والأشجار فلم يبق شىء من الحيوانات إلا نوح ومن معه فى الفلك إلا عوج بن عنق فذلك قوله تعالى وقيل بعداً للقوم الظالمين أى هلاكا قال ابن عباس كان عوج يحتجب بالسحاب ويشرب منه من طوله ويتناول الحوت من قرار البحر فيشويه

بين الشمس يرفعه إليها ثم يأكلها فقال لنوح احملنى معك فقال اخرج ياعدو الله فإنى لم أؤمر بحملك وطبق الله الماء على وجه الأرض والجبال وما بلغ ركبتى عوج بن عنق فلما استوت السفينة على الجودى قيل ياأرض ابلعى ماءك أى انشقى وياسماء اقلعى أى احبسى ماءك وغيض الماء أى ذهب ونقص فصار ما نزل من السماء هذه البحور التى فى الأرض لأنها آخر ما بقى فى الأرض من ماء الطوفان وبقى فى الأرض أربعين سنة ثم ذهب (وروى) عن على بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال قال الحواريون لعيسى ابن مريم عليه السلام لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة يحدثنا عنها فانطلق بهم حتى انتهى بهم إلى كثيب من تراب فأخذ كفا من ذلك التراب فقال أتدرون ما هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا كعب سام بن نوح قال ثم ضرب الكثيب بعصاه وقال له قم بإذن الله فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب فقال له عيسى أهكذا هلكت قال بل مت وأنا شاب ولكن ظننت أنها الساعة فمن ثم شبت فقال له حدثنا عن سفينة نوح قال كان طولها ألف ذراع ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاثة طبقات طبقة فيها الدواب والوحوش وطبقة فيها الإنس وطبقة فيها الطير فلما كثرت أرواث الدواب أوحى الله إلى نوح أن اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث فأكلاه فلما كثرت الفأر فى السفينة وجعل يقرض حبالها وذلك أنه توالد فى السفينة أوحى الله تعالى إلى نوح أن اضرب بين عينى الأسد فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة فأقبلا على الفأر فأكلاه فقال له عيسى كيف علم نوح أن البلاد قد يبست قال بعث نوح غرابا يأتيه بالخبر فوجد جيفة فوقع عليها واشتغل عن الرجوع فدعا عليه نوح بالخوف فلذلك لا يألف البيوت ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجليها فعلم أن البلاد قد جفت قال فطوقها بالخضرة التى فى عنقها ودعالها أن تكون فى أنس وأمان فمن ثم تألف البيوت فقالوا يارسول الله ألا ننطلق به إلى أهلنا فيجلس معنا ويحدثنا قال كيف يتبعكم من لا رزق له ثم قال له عد بإذن الله تعالى فعاد ترابا قال أهل التاريخ أرسل الله الطوفان لثلاثة عشر يوما خلت من آب ومضى ستمائة سنة من عمر نوح ولتتمة ألفى سنة وخمس مائة سنة ومائة وست وخمسين سنة من لدن أهبط آدم إلى الأرض وركب نوح ومن معه فى السفينة لعشر خلون من رجب وخرجوا منها فى العاشر من المحرم فلذلك سمى يوم عاشوراء وأقاموا فى الفلك ستة أشهر فلما هبط نوح ومن معه من الفلك سالمين صام نوح وآمن جميع من معه من الإنس والوحوش والدواب والطير فصاموا شكرا لله تعالى ويقال أن نوحا وقومه كانت قد أظلمت عليهم أعينهم فى السفينة من دوام النظر إلى الماء فأمروا بالاكتحال يوم عاشوراء الذى خرجوا فيه من السفينة (عن ابن عباس) قال قال رسول الله ﷺ من اكتحل بإثمد يوم عاشوراء لم ترمد عينه أبدا وعاش نوح بعد ذلك ثمانمائة وخمسين سنة فكان جميع عمره ألف سنة إلا خمسين عاما ثم قبضه الله تعالى إليه (ويروى) أنه قيل لنوح لما احتضر كيف وجدت الدنيا قال كبيت له بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر ولما حضرته الوفاة أوصى إبنه سام وجعله ولى عهده وكان ولد له سام قبل الطوفان بثمان وسبعين سنة وقيل لما حضرته الوفاة دعا إبنه سام وهو بكره فقال يا بنى أوصيك باثنين وأنهاك عن اثنين فأما اللذان أنهاك عنهما فالإشراك بالله والكبر فإنه لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال حبة من الشرك والكبر وأما اللذان أوصيك بهما فإنى رأيتهما يكثران الولوج إلى الله تعالى قول لا إله إلا الله وسبحان الله فإن قول لا إله إلا الله لو جمعت السموات السبع والأرضون السبع لخرقتهما حتى تبلغا إلى ربها ولو جعلت لا إله إلا الله فى كفة ميزان لرجحت بالسموات السبع والأرضين السبع وما فيهما وأوصيك بسبحان الله فإنها صلاة الخلق وبها يرزقون .

فهى قريبة ثم قالت إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا قال فلما وصلت إلى بيت الله الحرام رأيتها تطوف بالبيت فقالت يا سرى أنا تلك الخادمة لمولاى جئته بضعفى فحملنى بقوته هذه صفات قوم فارقوا ديار اللهو وخلعوا ثياب الزهو آثروا المحبوب بالنفوس والآثار ووقفوا بين يديه فى حلل الانكسار هجروا الراحة فى الأوطان والأوطار فلله درهم خلعوا ثياب الاصطبار ومزقوا ستر الاستتار وأفشوا وجدهم مع كتمان الأسرار ناداهم بالعناية فى الأصلاب والأرحام حرام عليكم أن تنظروا إلى غيرى حرام وجمع لهم مجلس مناجاته وسقاهم لذيذ شراب مصافاته يا هذا هل لك فى هذا المجلس نديم هل لك فى هذا الغرام غريم هل لك فى هذا الربع أنيس هل لك فى هذه الروضة جليس فإذا أردت أيها العبد رضا الرب اللطيف فتقرب إليه بقلب منكسر وجسم نحيف (قيل) أنه لما نزل البلاء على أيوب عليه السلام أتاه طاووس السماء جبريل عليه السلام بأمر الله عز وجل فقال يا أيوب سينزل بك مولاك من البلاء والأهوال ما يعجز عن حمله الجبال فقال أيوب إن دمت على مواصلة الحبيب ساصبر

حتى يقال مجيب فنودى يا أيوب استعد للبلاء على نزول حكمى وقضائى وكان السبب فى ابتلائه أن إبليس اللعين حسده وتحيل عليه بانواع الحيل والمكر فلم يقدر عليه فقال إلهى إنما سبب شكر أيوب لك وطاعته ما وسعت له فى الأموال والأولاد والأرزاق والعافية فلو سلطتنى عليه وسلبته ذلك لما أطاعك طرفة عين فقال الله جل جلاله اذهب فقد سلطتك عليه وأنه لن يغيره ذلك قال فاول يوم ابتلاه باخذ الأولاد فزاد فى الخدمة واجتهد غاية الاجتهاد وفى اليوم الثانى أخذ الأموال فاحرقها ومزقها فقال أيوب العطايا عطاياه إن شاء سلبها وإن شاء أطلقها وفى اليوم الثانى نفخ إبليس فى جسده وهو فى صلاة الفجر فلعب الدود فى جميع بدنه ولم يزل يذكر الله تعالى فى سره وعلانيته وقال الحمد لله الذى اصطفانى لخدمته ومن على بفضله وخيره ولم يشغلنى بغيره قال ولم يزل أيوب ذاكرا لربه حامدا وشاكرا إلى أن تمزق جلده وذاب لحمه ورق عظمه فصار الدود يغدو فى جسده ويروح وهو بالشكوى لا يبوح وكان كلما سقط من جسده دودة إلى الأرض يردها إلى مكانها ويقول لها كلى فهذه مائدة من جسدى ممدودة

(ذكر خصائص نوح عليه السلام)

وهى خمس عشرة خصلة لم يسم أحدا من الأنبياء بإسمى وسمى بذلك لكثرة نوحه على نفسه وكان أول نبى من أنبياء الشريعة وأول داع إلى الله تعالى وأول نذير عن الشرك وأول من عذبته أمته لردهم دعوته وأهلك أهل الأرض كلهم بدعائه ويقال إن الله تعالى أوحى إليه بعد الطوفان إنى خلقت خلقى وأمرتهم بطاعتى فانتهكوا معصيتى فاشتد لذلك غضبى فعذبت بذنوب العاصيين ما لم يعصنى وعذبت بذنوب بنى آدم الجميع فى حلفت أنى لا أعذب بمثل هذا العذاب أحدا من خلقى بعدها ولكن أجعل الدنيا دولا بين عبادى ثم أجزيهم باعمالهم إذا اجتمعوا عندى وكان عليه السلام أطول الأنبياء عمرا وقيل له أكبر الأنبياء وشيخ المرسلين وجعل معجزته فى نفسه لأنه عمر ألف سنة ولم ينقص له سن ولم تنقص له قوة ولم يبالغ أحد من الرسل فى الدعوة مثل ما بالغ وكان يدعو قومه ليلا ونهارا وإعلانا وأسرارا ولم يلق نبى من أمته من الضرب والشتم والاذى والجفاء ما ألقى فلذلك قال الله تعالى (وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين) وجعل ثانى المصطفى ﷺ فى الميثاق والوحى قال الله تعالى (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح) وقال تعالى (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) وفى البعث هو أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة بعد محمد ﷺ وأعطاه الفلك وعلمه صنعته وحفظه بما فيه وأجراه فوق الماء وسماه شكورا فقال تعالى (ذرية من حملنا معه نوح إنه كان عبدا شكورا) وأكرمه بالسلامة والبركة فقال تعالى (يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك) الآية (وروى) عن الحسن عن سمرة بن جندب قال قال رسول الله ﷺ ولد لنوح ثلاثة سام وحام ويافث فسام أبو العرب وفارس الروم وحام أبو السودان ويافث أبو الترك ويأجوج ومأجوج (قال) عطاء ودعا نوح على حام أن لا يعدو شعر ولده آذانهم وحيثما كان ولده يكونون عبيدا لولد سام ويافث فلما هبط نوح وذريته من الفلك قسم الأرض بين ولده أثلاثا فجعل لسام وسط الأرض ففيها بيت المقدس والنيل والفرات ودجلة وسيحون وجيحون وذلك ما بين قيسون إلى شرق النيل وما بين بحرى الجنوب إلى بحرى الشمال وجعل لحام قسمة غربى النيل وما بين بحرى ريح الجنوب وما وراءه إلى سيحون إلى بحرى ريح الدبور وجعل قسم يافث من قيسون فما وراءه إلى بحرى الصبا فذلك قوله تعالى (وجعلنا ذريته هم الباقين وتركنا عليه فى الآخرين سلام على نوح فى العالمين إنا كذلك نجزى المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين) .

(مجلس فى قصة هود عليه السلام)

قال الله تعالى (وإلى عاد أخاهم هودا) إلى تنقون وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح وهو عاد الأولى وكانوا ينزلون اليمن وكانت منازلهم منها بالشجر والأحقاف كما قال الله تعالى (واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر) الآية وهو رمال يتال له رمل عالج وهى ما بين عمان إلى حضر موت وكانوا مع ذلك قد فشوا فى الأرض وكثروا وقهروا أهلها لفضل قوتهم التى أتاهم الله تعالى وكان قد أعطاهم الله من القوة والقامة ما لم يعط غيرهم كما قال الله تعالى (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة) اى عظما وطولا وقوة وشدة وقال محمد بن إسحق بن يسار وهو ابن عابر بن شالح بن ارفخشذ ابن سام بن نوح وولد لشالح عابر بعد أن مضى من عمره ثلاثون سنة فامرهم هود أن يوحدوا الله تعالى ولا يجعلوا معه إلها غيره وأن يكفوا عن ظلم الناس ولم يامرهم فيما يذكر بغير ذلك فابوا ذلك عليه وكذبوه وقالوا من أشد منا قوة وبنوا المصانع وبطشوا فيها بطش الجبارين كما قال تعالى أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين فلما فعلوا ذلك أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين حتى أضر بهم ذلك وكان الناس فى ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء وجهد طلبوا من الله تعالى الفرج وكان طلبهم ذلك من الله تعالى عند بيته الحرام بمكة مسلمهم وكافرهم

وأهل مكة يومئذ العماليق وإنما سموا العماليق لأن أباهم عمليق بن سام بن نوح وكان سيد العماليق إذ ذاك بمكة رجلا يقال له معاوية بن بكر وكانت أم معاوية اسمها ناهدة بنت الخيبري رجل من عاد فلما قحط المطر عن عاد جهدوا وقالوا اجهزوا منكم وفدا إلى مكة فليستسقوا لكم فبعثوا منهم قيل بن عنز والقيم ابن هزال بن هزيل وعميل بن ضد بن عاد الأكبر ومرثد بن سعد بن عفير وكان مسلما كتم إسلامه وجهامة بن الخيبري قال معاوية بن بكر ثم بعثوا أيضا لقمان بن عاد بن ضد بن عاد الأكبر فانطلق كل رجل من هؤلاء القوم ومعه رهط من قومه حتى بلغ عدد وفدهم سبعين رجلا فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارج الحرم فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره فاقاموا عنده شهرا يشربون الخمر وتغنيهم الجراذتان وهما قينتان لمعاوية بن بكر وكان مسيرهم شهرا ومقامهم شهرا فلما رأى معاوية طول مقامهم وقد بعثهم قومهم يستغيثون من البلاء الذى أصابهم شق ذلك عليه وقال هلك أخوالى وأصهارى وهؤلاء مقيمون عندى وهم ضيفى والله ما أدرى كيف أصنع بهم فاستحى أن آمرهم بالخروج إلى ما بعثوا إليه فينظرون إنه ضيق منى بمقامهم عندى وقد هلك من وراءهم قومهم جهدا وعطشا فشكا ذلك من أمرهم إلى قينتيه الجراذتين فقالتا له قل شعرا يغنيهم به ولا يدرون من قاله لعل ذلك يحركهم فقال معاوية بن بكر

ألا ياقيل ويحك قيم فينم ... لعل الله يمنحنا غماما
فنسقى أرض عاد إن عادا ... قد أمسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجو ... به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهمو بخير ... فقد أمسيت نساؤهمو عيامى
وأن الوحش يأتيهم جهارا ... ولا يخشى لعادى سهاما
وأنتم ههنا فيم اشتهيتم ... نهاركمو وليلكمو تماما
فقبح وفدكم من وفد قوم ... ولا لقوا التحية والسلاما

فلما غنتهم الجراذتان بهذا قال بعضهم لبعض ياقوم إنما بعثكم قومكم يستغيثون بكم من هذا البلاء الذى نزل بهم وقد ابطأتم عليهم فادخلوا هذا الحرم فاستسقوا لقومكم فقام مرثد بن سعد وكان قد آمن بهود عليه السلام سرا أنكم والله لا تسقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيكم وأنبتم إلى ربكم سقيتم فأظهر إسلامه عند ذلك قال جهامة بن الخيبرى خال معاوية حين سمع قوله وعرف أنه قد اتبع دين هود عليه السلام

أبا سعد فإنك من قبيل ... ذوى كرم وأمك من ثمود
ولسنا فاعلين لما تريد ... أتأمرنا لنترك دين رفد
ونترك دين آباء كرام ... ذوى رأى ونتبع دين هود

فإنا لا نعطيك ما بقينا ... وعمل وآل ضد والعبود

ثم قال لمعاوية بن بكر وأبيه بكر كان شيخا كبيرا أحبسا عنا مرثد بن سعد حتى لا يفد معنا مكة فإنه قد تبع دين هود وترك ديننا ثم دخلوا إلى مكة يستسقون لعاد بها فلما دخلوا مكة خرج مرثد بن سعد من منزل معاوية حتى أدركهم بمكة قبل أن يدعو الله بشىء مما خرجوا إليه فلما انتهى قام يدعو الله ووفد عاد قد أخذوا يدعون لجعل يقول اللهم اعطى سؤلى أحدى ولا تدخلنى فى شىء مما يدعوا به وفد عاد وكان قيل ابن عنز رأس وفد عاد قد أمرهم أن يؤمنوا عليه فقال وفد عاد اللهم أعط قيلا ما سألك أو اجعل سؤالنا مع سؤاله وكان تخلف عن وفد عاد لقمان بن عاد ولم يدخل فى دعوتهم فقال اللهم إنى جئتك وحدى فى حاجتى فاعطنى سؤلى وقال قيل بن عنز حين دعى واستسقى اللهم لم أجئ لمريض أداويه ولا لأسير أفاديه اللهم اسق عادا ما كنت تسقيهم يا إلهنا إن كان هود صادقا فاسقنا فإنا قد هلكنا فأنشأ الله سحائب ثلاثا واحدة بيضاء وواحدة حمراء وواحدة سوداء ثم ناداه مناد من السحاب ألا ياقيل اختر لنفسك واحدة من هذه السحب الثلاث فقال قيل اخترت السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماء فناداه المنادى يقول اخترت ياقيل رمادا ومددا لم تبق من آل عاد أحدا لا والدا تتركه ولا ولدا إلا جعلتهم رميما همدا إلا بنو الوبدة المهد أو بنو الوبدة رهط من هزال

فسلم عليه ثانيا فرد عليه السلام فسأله عن عدم الرد فى أول مرة فقال يا أخى يا جبريل أن الملك الودود أرسل إلى أضيافا من الدود لاطعمهم من لحمى على مائدة عظمى فكان بعض أضيافى على لسانى فخشيت أن أرد عليك السلام فتسقط من مكانها فأكون سببا فى منع قوتها وأطالب برزقها وأكون عاصيا لربى وربها (وحكى عن الإمام محمد بن إدريس الشافعى رضى الله تعالى عنه) أنه قال رأيت بمكة نصرانيا يدعى بالأسقف وهو يطوف بالكعبة فقلت له ما الذى زهدك عن دين آبائك فقال بدلت خيرا منه فقلت كيف كان ذلك فقال وقع لى حكاية عجيبة ونكتة غريبة وذلك إنى ركبت البحر فى مركب فلما توسطت البحر كسرت بنا المركب فنجوت على لوح منها فما زالت الأمواج تدافعنى حتى رمتنى فى جزيرة من جزائر البحر فرأيت فيها أشجارا كثيرة ولها ثمار أحلى من الشهد وألين من الزبد ورأيت فيها نهرا عذبا فقلت الحمد لله على ذلك فها أنا آكل من تلك الثمار وأشرب من ذلك الماء حتى يأتى الله بالفرج فلما ذهب النهار وجاء الليل خفت على نفسى

ابن هزيل بن بكر وكانوا سكاناً بمكة مع أخوالهم لم يكونوا مع عاد بأرضهم فهم عاد الآخرة فساق الله السحابة السوداء التي اختارها قيل بما فيها من النقمة إلى عاد حتى خرجت عليهم من وادهم يقال له المغيث فلما رأوها استبشروا بها وقالوا هذه العارض ممطرنا فقال الله تعالى بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها أي كل شيء مرت به وكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح مهلكة امرأة من عاد يقال لها مهد فلما تبينت ما فيها من العذاب صاحت ثم صعقت فلما افاقت قالوا ما رأيت قال رأيت ريحاً فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها (أخبرنا) الحسن ابن محمد بن الحسين انبأنا محمد بن جعفر انبأنا الحسن بن علوة انبأنا إسمعيل بن عيسى انبأنا إسحق ابن بشر اخبرني المثنى بن الصباح عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال أوحى الله تعالى إلى الريح العقيم ان تخرج على قوم عاد فتنتقم له منهم فخرجت بلا كيل ولا وزن على قدر منخر ثور حتى رجفت الأرض ما يلي المشرق والمغرب قال فقال الخزان يارب ان يطيقوها ولو خرجت على حالها لأهلكت ما بين مشارق الأرض ومغاربها فأوحى الله إليها أن ارجعي فاخرجي على قدر خرمة الخاتمة وهي الحلقة قال فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً أي دائمة متتابعة فلم تدع أحداً من عاد إلا اهلكته وكان هود ومن معه قد اعتزلوا في حظيرة ما يصيبهم من الريح إلا ما يلين جلودهم وتلذ به الأنفس (قال) ابن بشار لما خرجت الريح على عاد من الوادي قال تسعة رهط منهم أحدهم الحلجان وكان رئيسهم وكبيرهم في ذلك الزمان تعالوا حتى نقوم على رأس الوادي فنردها فجعلت الريح تدخل تحت الواحد منهم فتحمله ثم ترمي به فيندق عنقه وكانت الريح تقلع الشجرة العظيمة بعروقها وتهدم عليهم بيوتهم وتقاعهم فتتركهم كما قال الله تعالى (كأنهم أعجاز نخل خاوية) حتى لم يبق منهم إلا الحلجان فمال إلى الجبل فأخذ بجانب منه فهزه فاهتز في يده ثم انشد يقول:

لم يبق إلا الحلجان نفسه ... يالك من يوم ذهاني أمه
قبات الوطء شديداً بطشه ... لو لم يجيء جثته وحبسته

فقال له هود ويحك يا حلجان اسلم تسلم فقال له مالي عند ربك إذا اسلمت قال الجنة قال فما هؤلاء الذين أراهم في السحاب كأنهم البخت قال هود ذلك الملائكة قال إن اسلمت ايقيدني ربك منهم لقومي قال ويحك هل رأيت ملكاً يقيد من جنوده فقال لو فعل ما رضيت فجاءت الريح فألحقته بأصحابه واهلكته وافنى الله عاد سوى من بقي من قومهم بمكة ونواحيها (أخبرنا) أبي أمامة الباهلي عن رسول الله ﷺ قال يبيت قوم من هذه الأمة على طعام وشراب ولهو فيصبحون قردة وخنازير ويصيبهم خسف وقذف فيقولون لقد خسف الليلة ببني فلان ولير سلن عليهم الريح العقيم التي أهلكت عاداً بشربهم الخمر وأكلهم الربا واتخاذهم القينات ولبسهم الحرير وقطعهم الأرحام قالوا وخرج وفد عاد من مكة حتى مروا بمعاوية بن بكر فنزلوا عليه فبينما هم عنده إذ أقبل رجل على ناقة في ايلة مقمرة من أمصار عاد فأخبرهم بهلاك عاد فقالوا له أين فارقت هود وأصحابه قال فارقتهم بساحل البحر فكأنهم شكوا فيما حدثهم به فقالت هرملة بنت بكر صدق ورب الكعبة ومنصور بن يعفر بن أخي معاوية بن بكر معهم قالوا وقيل قيل لمرثد بن سعد ولقمان بن عاد وقيل بن عنز حين ودعوا بمكة قد أعطيتهم بمناكم فاختاروا لانفسكم فقال مرثد اللهم اعطني براً وصدقاً فأعطي ذلك وقال قيل أختار أن يصيبني ما أصاب قومي فقيل له هلاك فقال لا أبالي لا حاجة لي في البقاء بعد قومي فأصابه الذي أصاب عاداً من العذاب فهلك وقال لقمان يارب اعطني عمراً فقيل له اختر لنفسك بقاء سبع بعرات سمر مواطب عفر لا يمسها القطر أو عمر سبعة أنسر إذا مضى نسر آخر فاستحفر بقاء الأبعار وأختار عمر النسور فعمر عمر سبعة انسر فكان يأخذ الفرخ حين يخرج من بيضته فيأخذه الذكر منها لقوته فيربيه حتى

من الدواب والهوام فلما كان وسط الليل إذا دابة على وجه الماء تسبح الله تعالى بلسان فصيح وتقول لا إله إلا الله العزيز الغفار محمد رسول الله النبي المختار ابو بكر صاحبه في الغار عمر مفتاح الأمصار عثمان القتيل في الدار على سيف الله على الكفار فعلى مبغضهم لعنة الملك الجبار ومأواه النار وبئس القرار فما زالت تقول هذه الكلمات إلى أن طلع الفجر فلما همت بالإنصراف قالت لا إله إلا الله المجيد محمد رسول الله الهادي الرشيد ابو بكر الصديق الصادق الشديد عمر ابن الخطاب سور من حديد عثمان بن عفان القتيل الشهيد علي بن أبي طالب ذو البأس الشديد فعلى مبغضهم لعنة الرب المجيد قال فلما وصلت تلك الدابة إلى البر إذا رأسها رأس نعامة ووجهها وجه إنسان وقوائمها قوائم بعير وذنبها ذنب سمكة فخفت على نفسي منها فالتفتت إلي وقالت قف فوقفت لها وقالت لي ما دينك فقلت لها دين النصرانية فقالت بئس الدين ويحك يا خاسر ارجع إلى دين الحنيفية فإنك قد حللت بفناء قوم من مؤمني الجن ولا ينجو منهم إلا كل مسلم قال فقلت لها وكيف الإسلام فقالت تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

فعلوت شجرة وجلست على غصن من أغصانها فنمت على ذلك الغصن

فقلتها: فقالت كمل إسلامهم بالترضى عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلى فقلت ذلك ثم قلت لها من أخبركم بذلك فقالت قوم حضروا عند رسول الله ﷺ فسمعوه يقول إذا كان يوم القيامة تأتى الجنة فتنادى بلسان طلق اللهم إنك وعدتنى أن تشيد أركانى فيقول لها الجليل جل جلاله قد شيدت أركانك بابى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله تعالى عنهم أجمعين ثم قالت لى الدابة تريد أن تكون عندنا أو الرجوع إلى أهلك فاخترت الرجوع إلى أهلى فقالت امكث مكانك حتى تاتيك مركب قال فمكثت مكانى ونزلت الدابة إلى البحر فما غابت عن عينى غير ساعة واحدة حتى مرت على مركب عظيمة وفيها ركاب فاشرت إليهم فحملونى معهم فنظرت فإذا فى المركب إثنا عشر رجلا كلهم نصارى فاخبرتهم بخبرى وقصصت عليهم قصتى فاسلموا كلهم فعلمت أن لهؤلاء الأقوام سرا عظيما إذ ببركتهم حصل لنا الإسلام ونلنا أعلى مقام ولله الحمد على التوفيق وبلوغ المرام وأنشدت أقول شعرا:

قوم لهم عند رب العرش منزلة
وحرمة وبشارات وإكرام
فازوا بصحبة خير الخلق واتصفوا
بوصفه فهموا للناس اعلام

إذا مات أخذ غيره فلم يزل يفعل مثل ذلك حتى أتى إلى السابع وكان كل نسر يعيش ثمانين سنة فلما لم يبق غير السابع قال ابن أخ لقمان ياعم لم يبق من عمرك إلا هذا النسر فقال لقمان يا ابن أخى هذا البد ولبد بلسانهم الدهر فلما انقضى عمر لبد طارت النسور غداة من رأس الجبل ولم ينهض لبد فيها وكانت نسور لقمان لا تغيب عنه قال فلما رأى لبداً لم ينهض مع النسور وقام إلى الجبل لينظر ما فعل لبد فوجد لقمان فى نفسه وهنا ولم يكن يجده قبل ذلك فلما انتهى إلى الجبل رأى نسره لبداً واقفاً بين النسور فناداه لبد فذهب لينهض فلم يستطع فسقط ومات لقمان معه وفيه جرى المثل إنى أبد على لبد وقال النابغة الذبيانى

أضحت قفار وأضحى أهلها احتملوا أخى أخى عليها الذى أخنى على لبد

وقال محمد بن إسحق قال مرثد بن سعد حين سمع قول الراكب الذى أخبر بهلاك عاد شعر:

عصت عاد رسولهم فأمسوا عطاشاً ما تبلهم السماء وسير وفدهم سهرا ليسقوا
فاردفهم مع العطش العناء بكفرهم بربهم جهارا على آثارهم عاد العفاء
ألا ترع الإله حلوم عاد فان قلوبهم قفر هواء من الرب المهيمن إذا عصوه
وما تغنى النصيحة والشفاء فنفسى وإبنتاى وأم ولدى لنفس نبينا هود فداء
أتانا والقلوب معميات على ظلم وقد ذهب الضياء لنا صنم يقال له صمود
يقابله ضدى والهباء فأبصره الذين له أنابوا وأدرك من يكذبه الشقاء

وإنى سوف الحق آل هود وإخوته إذا جن المساء

ثم أنه لحق بهود ومن آمن معه وبقى هود ما شاء الله ثم مات وعمره مائة وخمسون سنة (اخبرنا) أبو عمر وأحمد بن أبى العراقى أنبانا المغيرة بن عمرو بن الوليد بمكة فى المسجد الحرام بين الركن والمقام أنبأنا الفضل بن يحيى الجندى أنبأنا يونس بن محمد أنبأنا يزيد بن أبى حكيم عن سفيان الثورى عن عطاء عن السائب عن عبد الرحمن بن سابط أنه قال بين الركن والمقام وزمزم قبور تسعة وتسعين نبياً وإن قبر هود وصالح وشعيب وإسمعيل عليهم السلام فى تلك العقبة (وفى رواية أخرى) كان النبى من الأنبياء إذا هلك قومه نجا هو والصالحون معه يأتى مكة هو ومن معه يعبدون الله تعالى حتى يموتوا والله اعلم.

﴿ مجلس فى قصة صالح عليه السلام ﴾

قال الله تعالى (وإلى ثمود أخاهم صالحاً) وهو ثمود بن عامر بن أرم بن سام بن نوح وهو أخو جديس وأراد ههنا القبيلة قال أبو عمر بن العلاء سميت ثمود لقلة مائها والثمد الماء القليل وكانت مساكن ثمود الحجر بين الحجاز والشام وكان من قصتهم على ما ذكر محمد بن إسحق بن يسار الدينى والكلبى ووهب ابن منبه وكعب وغيرهم من أهل الكتب دخل كلام بعضهم فى بعض أن عاداً الأولى لما أهلكهم الله تعالى وانقضى أمرهم عمرت ثمود بعدهم استخلفوا فى الأرض فحلوا فيها وكثروا وعمروا حتى جعل بعضهم يبنى المسكن من الحجر والمدر فينهدم وهو حى فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتاً فنحتوا منها وجابوها وجوفوها وكانوا فى سعة من معايشهم كما قال الله تعالى (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) فخالفوا أمر الله وعبدوا غيره وافسدوا فى الأرض فبعث الله اليهم صالحاً نبياً وهو صالح بن عبيد بن أسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود وكانوا قوماً عرباً وكان صالحاً أوسطهم نسباً وأفضلهم حسباً فبعثه الله تعالى إليهم رسولا فدعاهم إلى الله تعالى وإلى عبادته فلم يتبعه إلا قليل مستضعفون فلما ألح عليهم صالح بالدعاء والتبليغ وأكثر عليهم التخويف والتحذير سألوه أن يريهم آية أن تكون مصداقاً لما يقول فقال اللهم ارهم آية ليعتبروا بها ثم قال لهم أى آية تريدون قالوا تخرج معنا إلى عيد لنا وكان لهم عيد يخرجون إليه بأصنامهم فى يوم معلوم من السنة

فتدعوا إلهك وندعوا آلهتنا فإن استجيب لك اتبعناك وإن استجيب لنا اتبعتنا فقال لهم صالح نعم فخرجوا باثوابهم إلى عيدهم ذلك وخرج صالح معهم فدعوا أوثانهم وسألوها أن لا يستجاب لصالح فى شىء مما يدعوه به ثم قال جندع بن عمرو بن جواس وهو يومئذ سيد ثمود يا صالح أخرج لنا من هذه الصخرة يعنى الصخرة المنفردة عن الجبال فى ناحية الحجر يقال لها الكاثبة ناقة مخترجة جوفاء وبراء عشراء والمخترجة ما شاكلت البخت والإبل فإن فعلت ذلك صدقناك وآمنا بك فاخذ عليهم صالح الميثاق إنه إن فعل ذلك صدقوه وآمنوا به ثم أن صالحاً عليه السلام صلى ودعا الله تعالى بذلك فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها ثم تحركت الهضبة فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما سألوه لا يعلم ما بين جنبيها إلا الله تعالى وعظماؤهم ينظرون ثم نتجت سقبا مثلها فى العظم فآمن به جندع بن عمرو وهط من قومه وأراد أشراف ثمود أن يؤمنوا بصالح ويبايعوه فنهاهم ذؤاب ابن عمرو بن لبيد والحباب صاحبا أوثانهم ورباب بن صمعر وكانوا من أشراف ثمود وكان لجندع بن عمرو ابن عم يقال له شهاب بن خليفة فاراد أن يسلم فنهاه أولئك الرهط فاطاعهم فقال رجل من ثمود :

وكانت عصبة من آل عمرو ... إلى دين النبى دعوا الشهابا
عزيز ثمود كلهم جميعاً ... فهمت أن تجيب ولو أجابا
فأصبح صالح فينا عزيزا ... وما عدلوا بصاحبهم ذؤابا
ولكن الغواة من آل حجر ... تولوا بعد رشدهم ذبابا

فلما خرجت الناقة قال صالح هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم فكشت الناقة ومعها سقياها فى أرض ثمود ترعى الشجر وتشرب الماء فكانت ترد الماء يوماً ولهم يوم فإذا كان يومها وضعت رأسها فى بئر بأرض الحجر يقال لها بئر الناقة فيرتفع الماء إليها فما ترفع رأسها إلا وقد شربت جميع مافيها ولا تدع قطرة ماء فيها فتفجج ثم تروح عليهم فيحلبون من لبنها ماشاء فيشربون ويدخرون ويملؤن أوانيهم لكن تصدر من غير الفج الذى وردت منه لأنها لا تقدر أن تصدر من حيث وردت لأنه يضيق عليها قال أبو موسى الاشعرى أتيت أرض ثمود فذرعت مصدر الناقة فوجدته ستين ذراعاً فإذا كان الغد من يومهم شربوا من الماء وقد أخرجه الله تعالى لهم من البترول وأدخروا ماشاؤا قدر كفايتهم فى يوم الناقة وكانوا مع ذلك فى سعة ودعة وكانت الناقة فى الصيف إذا كان الحر تطلع ظهر الوادى فتهرب منها أغنامهم وبقرهم وإبلهم وتهبط إلى بطن الوادى فى حره وحدته فكانت المواشى تنفر منها إذا رأتها وإذا كان الشتاء سبقت الناقة فى بطن الوادى فتهرب مواشيهم إلى ظهر الوادى فى البرد والجدة فاضر ذلك مواشيهم للبلاء والإختبار فكان مراتعها الجبال فكبر ذلك عليهم حتى حملوا على عقر الناقة فاحتالوا فى عقرها وكانت امرأة من ثمود يقال لها عنيزة بنت غنم بن مخلدة وتكنى أم غنم وهى من بنى عبيد بن المهل وكانت امرأة ذؤاب بن عمرو وكانت عجوز مسنة ولها بنات حسان ومال كثير من الإبل والبقر والغنم وامرأة أخرى يقال لها صدوق بنت المحيا بن مهر وكانت غنية جميلة ذات مواشى كثيرة وكانت هاتان المرأتان من أشد الناس عداوة لصالح وكانتا تحتالان فى عقر الناقة من كفرهما بصالح بما أضرت بمواشيهما وكانت صدوق عند ابن خال لها يقال لها صنيم بن هرواة بن سعد بن الغطريف بن هلال فاسلم وحسن إسلامه وكانت صدوق قد فوضت إليه مالها ينفقه على من أسلم معه من اصحاب صالح ﷺ حتى نفذ المال فاطلعت صدوق على إسلامه فعاتبته على ذلك فاظهر لها دينه ودعاها إلى الله تعالى فابت عليه وأخذت أولادها فغيبتهم فى بنى عمها الذين هى منهم فقال لها زوجها ردى على أولادى فلما ألح عليها قالت حتى أحاكمك إلى بنى عمى وذلك أن بنى عم زوجها كانوا مسلمين فابت أن تحاكمه إليهم فقال لها بنو عمها والله لتعطينه ولده طائعة أو كارهة فلما رأت ذلك أعطته أولاده وكانت من أوفر الناس

بدمه المقتول ظلماً وعدواناً عثمان ﷺ

به تكمل فى الفاروق إسلام
وهكذا البر عثمان الشهيد له
فى الليل وردو بالقرآن قوام
وللإمام على المرتضى منح
له احترام وإعزاز وإكرام
هم الصحابة للمختار قد وضحوا
طارق الهدى وعلى الخيرات قد داموا
عليهم من سلام الله أطيبه
ما أفطر الناس يوم الشك أو صاموا

(وروى) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ أنه قال دخلت الجنة فبينا أنا أطوف برياضها وأنهارها وأشجارها إذ رأيت شجرة فضربت بيدى إلى ثمرة فاخذتها فانفلقت فى يدى عن أربع فخرج من كل قطعة حورية لو أخرجت طرفها لقتلت أهل السموات والأرض وإن أظهرت كفها لغلب ضوء الشمس والقمر ولو تبسمت لملأت ما بين السماء والأرض مسكا فقلت لمن أنت فقالت لأبى بكر الصديق رضى الله عنه فقلت لها امضى إلى قصر بعلك فمضت وقلت للثانية لمن أنت فقالت لعمر بن الخطاب رضى الله عنه فقلت امضى إلى قصر بعلك فمضت ثم قلت للثالثة لمن أنت فقالت للمنتضب

جالا وأكثرهم مالا وأحسنهم كمالا فاجابها إلى ذلك ودعت صنيزة قدار بن سالف أهل قدح واسم أمه قدير وكان رجلا أشقر أزرق قصيرا ويزعمون أنه كان لزنية رجل يقال له صفوان ولم يكن لسالف ولكنه قد ولد على فراشه فقالت له يا قدار أعطيك من بناتي أيما شئت على أن تعقر الناقة وكان قدار عزيزا في قومه وذكره رسول الله ﷺ إذا انبعث أشقاها رجل عزيز في قومه مثل أبي زمعة قالوا فانطلق قدار ومصدع فاستعانوا بمن استعانوا من ثمود فاتبعهم سبعة نفر وكانوا تسعة رهط كما قال الله تعالى (وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون) فلقيهم هديات بن مبلغ خال قدار وكان عزيزا من أهل الحجر ودعر بن غنم بن داعرة أخي مصدع وخمسة لم تذكر أسماؤهم فاجتمعوا على عقر الناقة قال السدي وغيره أوحى الله إلى صالح أن قومك سيعقرون الناقة فقال لهم ذلك فقالوا ما كنا لنفعل ذلك فقال لهم أنه سيولد في شهركم هذا غلام يعقرها ويكون هلاككم على يديه فقالوا لا جرم ولا يولد لنا في هذا الشهر ولدا لا قتلناه فولد لتسعة منهم في ذلك الشهر تسعة بنين فذبحوا أولادهم وولد للعاشر ابن فأبى أن يذبح ابنه وكان يكره لم يولد له قبل ذلك شيء وكان ابن العاشر أزرق أحمر فنبت نباتا سريعا وكان إذا مر بالتسعة ورأوه ندموا على ذبح أولادهم وقالوا لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا فغضب التسعة على صالح لأنه كان سبب قتل أولادهم فتقاسموا بالله لنبيتنه وأهله قالوا نخرج فيرى الناس أنا قد خرجنا لسفر فنأتي الغار فنكمن فيه حتى إذا كان الليل وخرج صالح إلى مسجده أتيناه فنقتله ثم نرجع إلى الغار فنكمن فيه لم ننصرف بعد ذلك إلى رحالنا فنقول ما شهدنا مهلك أهله وأنا لصادقون فيصدقوننا ويظنون أنا قد خرجنا إلى سفر وكان صالح لا ينام الليل معهم في القرية وكان يأوي إلى مسجد يقال له مسجد صالح يبيت فيه بالليل فاذا أصبح أتاهم ووعظهم وذكرهم فاذا أمسى خرج إلى المسجد فبات فيه فلما دخلوا الغار واضمروا انهم يخرجون اليه بالليل فيقتلونه سقطت عليهم صخرة من الغار فقتلتهم فانطلق رجال ممن كان قد أطلع على ذلك إلى الغار فاذا هم رضخ فرجعوا يصيحون في القرية يا عباد الله ما قتل صالح فانظروا في أمرهم بقتل أولادهم حتى قتلهم فاجمع أهل القرية على عقر الناقة (وقال) ابن اسحق إنما كان تقاسم التسعة على تبييت صالح عليه السلام بعد عقرهم الناقة وانذار صالح إياهم بالعذاب وذلك أن التسعة الذين عقروا الناقة قالوا هلم فلنقتل صالحا فان كان صادقا كنا عجلنا قتله وان كان كاذبا كنا قد ألحقناه بناقته فأتوه ليلا ليبيتوه في أهله فرمتهم الملائكة بالحجارة فلما أبطؤا على أصحابهم أتى أصحابهم منزل صالح فوجدوهم مشدوخين قد رضخوا بالحجارة فقالوا لصالح أنت قتلتهم وهموا به فقامت عشيرته دونه وأخذوا السلاح وقالوا لهم والله لا نقتلوه أبدا فقد وعدكم بأن العذاب نازل بكم في ثلاث فان كان صادقا لم تزيدوا ربكم علينا إلا غضبا وان كان كاذبا فانتم من وراء ما تريدون فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك (قال) السدي وغيره فلما ولد ابن العاشر يعني قدار وكان يشب في كل يوم شباب غيره في الجمعة ويشب في الجمعة شباب غيره في الشهر ويشب في الشهر شباب غيره في السنة فلما كبر جلس مع أناس يصيبون من الشراب فارادوا ماء يمزجون به شرابهم وكان ذلك اليوم شرب الناقة فوجدوا الماء قد شربته الناقة فاشتد عليهم ذلك وقالوا ما نصنع باللبن لو كنا نأخذ الماء الذي تشرب به هذه الناقة فنسقيه أنعامنا وحرثنا كان خيرا لنا فقال ابن العاشر هل لكم أن اعقرها قالوا نعم (قال) ابن اسحق وغيره فانطلق قدار ومصدع وأصحابهما السبعة فرصدوا الناقة حتى صدرت عن الماء وقد كمن لها قدار في أصل شجرة على طريقها وكمن لها مصدع في أصل شجرة أخرى فمرت الناقة على مصدع فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقيها وخرجت أم غنم وعنيزة وامرت ابنتها كانت من أحسن الناس وجها فتراءت لقدار واسفرت له عن وجهها وحرضته على عقر الناقة فشد عليها بالسيف فكشف عرقوبها فاردأها وطعن في لبتها ونحرها وخرج أهل البلد واقتسموها واكلوا لحمها وكانت لما عقرها رغت فلما رأى سقيها ذلك انطلق حتى أتى جبلا منيعا يقال له ضوء وقيل إسمه فارودة وروى ذلك مسندا عن رسول الله ﷺ من حديث شهر بن حوشب عن عمرو ابن عفان رضي الله تعالى عنه

فقلت لها امضي إلى قصر بعلك فمضت وقلت للرابعة لمن انت فسكتت ثم قلت يا رسول الله ان الله سبحانه وتعالى خلقني على حسن فاطمة وقد سماني بأسمها وزوجني لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه قبل أن يتزوج بفاطمة الزهراء بألف عام فهم خلفاء النبي ﷺ وانصاره واتباعه وهم حافون به يوم القيامة إلى دار الكرامة رضي الله تعالى عنهم ورضي عنا بهم آمين (وحكى عن رافع بن عبد الله رضي الله عنه انه قال) قال لي هاشم بن يحيى الكناني الا أحدثك حديثا رأيته بعيني وسمعته بأذني وشهدته بنفسي ونفعني الله به فعسى ان ينفعك فقلت حدثني يا أبا الوليد فقال غزونا أرض الروم في سنة ثمان وثمانين وكان معنا رجل يقال له سعيد ابن الحرث وكان ذا حظ من العبادة يصوم النهار ويقوم الليل فان سرنا درس القرآن وان قمنا ذكر الله تعالى فجاءت ليلة خفنا فيها فخرجت أنا وإياه نحرس القوم وكنا محاصرين العدو عند حصن من الحصون صعب علينا أمره فرأيت من سعيد من العبادة في تلك الليلة وصبره على التعب ما تعجبت منه فلما طلع الفجر قلت له يرحمك الله ان لنفسك عليك حقا فلو رحمتها

كان خيرا لك فبكى وقال يا أخى
إنما هى أنفاس تعدو عمر يفنى
وأيام تنقضى وأنا رجل
أرتقب الموت قال فابكانى
ذلك فقلت له أقسمت عليك
بالله ما دخلت الخيام
واسترحت فدخل ونام
قليلا وأنا جالس ظاهر
الخيمة فسمعت كلاما
فى الخيمة ولم يكن فى الخيمة
سواه فتقدمت اليه فاذا هو
يضحك فى نومه ويتكلم
بكلام فحفظت من كلامه
أن قال لا أحب أن أرجع ثم
مد يده اليمنى كأنه يلتمس
شيئا ثم ردها ردا رفيقا وهو
يضحك ثم قال والليلة ثم
وثب من نومه وهو يرتعد
فاحتضنته إلى صدرى مليا
وهو يتلفت يمينا وشمالا
حتى سكن وعاد اليه فهمه
فجعل يهلل ويكبر فقلت
ما الخبر حدثنى فقال نعم
فقلت سمعتك يا أخى تقول
لا أحب أن أرجع ورأيتك
مددت يدك ثم رددتها برفق
فقال لا أخبرك فاقسمت
عليه فقال وتكتم ذلك فقال
نعم يا سيدى فقال رأيت
القيامة قد قامت وخرج
الناس من قبورهم شاخصين
منتظرين أمر ربهم فبينما أنا
كذلك إذ أتانى رجلان لم
أر أحسن منهما فسلما على
فرددت عليهما السلام فقالا
لى يا سعيد أبشر فقد غفر ذنبك
وشكر سعيك وقبل عملك
واستجيب دعاؤك وعجلت
لك البشرى فانطلق معنا حتى

حارجة فاتى صالح عليه السلام فقيل له ادرك ناقتك وقد عقرت فاقبل وخرجوا يلتقونه ويعتذرون اليه
ويقولون يا نبى الله إنما عقرها فلان ولا ذنب لنا فقال لهم صالح انظروا هل تدركون فصيلها فان أدركتموه
فعسى أن يرفع عنكم العذاب فخرجوا يطلبونه فلما رأوه على الجبل ذهبوا ليأخذوه فأوحى الله إلى الجبل
فتطاول فى السماء حتى ما تناله الطير وجاء صالح عليه السلام فلما رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعه ثم رغا
ثلاثا وانفجرت الصخرة فدخلها فقال صالح عليه السلام لكل أمة أجل فتمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ثم
يأتيه العذاب ذلك وعد غير مكذوب وقال محمد بن اسحق بن يسار اتبع الفصيل أربعة نفر من التسعة الذين
عقروا الناقة وهم مصدع وأخوه ذؤاب ولدمهرج فرماه مصدع بسهم فانتظم قلبه ثم جره برجله فانزله
والقوا لحمه مع لحم أمه فقال لهم صالح عليه السلام انتهكتم حرمة الله فابشروا بعذاب الله تعالى ونقمته
فقالوا مستهزئين به ومتى ذلك ياصالح وما آية ذلك وكانوا يسمون الايام الأحد الأول والإثنين
أهون والثلاثاء دبار والأربعاء والخميس مؤنس والجمعة العروبة والسبت شبار وفيه يقول الشاعر

أؤمل أن أعيش وان يومى بأول أو بأهون أو جبار
أو المرىء دبار فان أفته فمؤنس أو عروبة أو شبار

قلوا وكان عقر الناقة يوم الأربعاء فقال لهم صالح عليه السلام حين سالوه عن وقت العذاب وآيته انكم
تصبحون غرة مؤنس ووجوهكم مصفرة ثم تصبحون يوم العروبة ووجوهكم محمرة ثم تصبحوم يوم
شبار ووجوهكم مسودة ثم يصبحكم العذاب يوم الأول فاصبحوا يوم الخميس ووجوههم مصفرة كانما
طليت بالخلوق صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وانثاهم فايقنوا بالعذاب وعرفوا أن صالحا قد صدقهم
فطلبوه ليقتلوه فخرج صالح عليه السلام هاربا منهم حتى لحق إلى بطن من ثمود يقال لهم بنو غنم فنزل على
سيدهم رجل منهم يقال له نفيل ويكنى أبا هدب وهو مشرك فغيبه عنهم فلم يقدروا عليه فغدوا على أصحاب
صالح يعذبونهم ليدلوهم عليه فقال رجل من أصحاب صالح يقال له مبدع بن هرم يا نبى الله إنهم ليعذبوننا
لندلهم عليك افندلهم قال نعم فدلهم عليه مبدع فاتوا أبا هدب فكلموه فى ذلك فقال نعم هو عندى وليس
لكم اليه سبيل فاعرضوا عنه وتركوه وشغلهم ما أنزل الله تعالى بهم من عذابه فجعل بعضهم يخبر بعضا بما
يرون وجوههم فلما أمسوا صاحوا باجمعهم ألا قد مضى يوم من الأجل فلما أصبحوا اليوم الثانى إذا
وجوههم محمرة كانما خضبت بالدم فصاحوا وضجوا وبكوا وعرفوا ان العذاب واقع بهم فلما أمسوا
صاحوا باجمعهم الا قد مضى يوم من الأجل وحضركم العذاب فلما أصبحوا اليوم الثالث إذا وجوههم مسودة
كانما طليت بالقار فصاحوا جميعا الا قد حضركم العذاب فلما كان ليلة الأحد خرج صالح عليه السلام من بين
أظهرهم وخرج معه من آمن حتى جاؤا الشام فنزلوا رملة فلسطين فلما أصبح القوم تكفنوا وتحنطوا وكان
حنوطهم الصبر والمر وكانت أكفانهم الانطاع ثم ألقوا أنفسهم بالأرض فجعلوا يقلبون أبصارهم إلى
السماء مرة وإلى الأرض مرة لا يدرون من أين يأتيهم العذاب فلما اشتد الضحى من يوم الأحد أتتهم
صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شىء له صوت فى الأرض فتقطعت قلوبهم فى صدورهم
فلم يبق فيهم صغير ولا كبير إلا هلك كما قال عز وجل فاصبحوا فى دارهم جاثمين كان لم يغنوا فيها ألا إن
ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود ولم ينج منهم إلا جارية مقعدة يقال لها ذريعة بنت شاف وكانت كافرة شديدة
العداوة لصالح فاطلق الله لها رجليها بعد ما عاينت العذاب أجمع فخرجت كاسرع شىء يكون حتى أتت
قرحاو هو وادى القرى حدما بين الحجاز والشام فاخبرتهم بما عاينت من العذاب وما أصاب ثمود ثم
استسقت من الماء فلما شربت ماتت (وروى) أبو الزبير عن جابر بن عبد الله قال لما مر النبى ﷺ بالحجر
فى غزوة تبوك قال لأصحابه لا يدخلن أحد هذه القرية ولا تشربوا من مائها ولا تتدخلوا على هؤلاء المعذبين
إلا ان تكونوا باكين أن يصيبكم مثل الذى أصابهم ثم قال أما بعد فلا تسالوا رسولكم الآيات هؤلاء
قوم صالح سالوا رسولهم الآية فبعث الله لهم الناقة فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا فتشرب ماءهم

ورودها وأراهم رسول الله ﷺ مرتقى الفصيل حين ارتقى في الغار فعتوا عن أمر ربهم وعقروها فاهلك الله تعالى من تحتهم أديم السماء منهم في مشارق الأرض ومغاربها إلا رجلا واحدا يقال له أبو رغال وهو أبو ثقيف كان في حرم الله تعالى فمنعه حرم الله من عذاب الله تعالى (وقال أهل العلم) توفي صالح عليه السلام بمكة وهو ابن ثمان وخمسين سنة وذلك أنه انتقل من الشام إلى مكة بعد أن أهلك الله تعالى قومه وكان يعبد الله تعالى هناك حتى مات وكان قد أقام في قومه عشرين سنة أخبرنا محمد بن عبد الله بن حمدون قال أخبرنا عبد الله ابن محمد الحسن قال حدثنا عبد الله بن هاشم حدثنا وكيع بن الجراح حدثنا قتيبة أبو عثمان عن أبيه عن الضحاك بن مزاحم قال قال رسول الله ﷺ يا علي أتدري من أشقى الأولين قال قلت الله ورسوله أعلم قال عاقر الناقة قال يا علي أتدري من أشقى الآخرين قال الله ورسوله أعلم قال قاتلك والله أعلم.

(مجلس في قصة إبراهيم عليه السلام والنمروذ)

وهو إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن شاروغ بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالح بن قينان بن أرفخشذ ابن سام بن نوح وكان اسم أبي إبراهيم الذي سماه به أبوه تابخ فلما صار من النمروذ قيما على خزائن آلهته سماه آزر وقال مجاهد إن آزر ليس إسم أبيه وإنما هو إسم صنم وقال ابن إسحق ليس هو إسم بل هو لقب عيب به وهو بمعنى معوج وقيل هو بالقبطية الشيخ الهرم ولد لناحور تارخ بعد ما مضى من عمره سبع وعشرون سنة وهذا المجلس يشتمل على أبواب والله أعلم.

(الباب الأول في مولد إبراهيم عليه السلام)

اختلف العلماء في الموضع الذي ولد فيه فقال بعضهم كان مولده بالسوس من أرض الأهواز وقال بعضهم كان مولده ببابل من أرض السواد بناحية يقال لها كوثا وقال بعضهم كان مولده بالوركاء ناحية في حدود كسكر ثم نقله أبوه إلى الموضع الذي كان به نمروذ من ناحية كوثا وقال بعضهم كان مولده بحران ولكن نقله أبوه إلى أرض بابل وقال عامة السلف من أهل العلم ولد إبراهيم عليه السلام في زمن نمروذ بن كنعان وكان بين الطوفان وبين مولد إبراهيم عليه السلام ألف وماتان وثلاث وستون سنة ونمروذ الذي ولد في ملكه إبراهيم هو نمروذ بن كنعان بن سنجاريب بن كوش بن حام بن نوح (وفي الحديث) ملك الأرض أربعة مؤمنان وكافران فاما المؤمنان فسليمان بن داود وذو القرنين عليهما السلام وأما الكافران فنمروذ وبختنصر وكان نمروذ أول من وضع على رأسه التاج وتجبر في الأرض ودعا الناس إلى عبادته وكان له كهان ومنجمون فقالوا له أنه يولد في بلدك في هذه السنة غلام يغير دين أهل الأرض يكون هلاكك وزوال ملكك على يديه ويقال إنهم وجدوا ذلك في كتب الأنبياء (وقال السدي) رأى النمروذ في منامه كأن كوكبا طلع فذهب بضوء الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء ففزع من ذلك فزعا شديدا ودعا السحرة والكهنة والقافة وهم الذين يخطون في الأرض وسالهم عن ذلك فقالوا هو مولود يولد في ناحيتك هذه السنة يكون هلاكك وهلاك أهل بيتك على يديه قال فامر نمروذ بذبح كل غلام يولد في تلك الناحية تلك السنة وأمر الرجال على النساء وجعل على كل عشرة رجلا رقيبا أمينا فإذا حاضت المرأة خلى بينه وبينها إذا أمن المواقعة فإذا طهرت عزل الرجل عنها فرجع آزر أبو إبراهيم فوجد امرأته قد طهرت من الحيض فوقع عليها في طهرها فحملت بإبراهيم عليه السلام (قال) محمد بن إسحق بعث نمروذ إلى كل امرأة حبلى بقريته فحبسها عنده إلا ما كان من أم إبراهيم فإنه لم يعلم بحبلها وذلك أنها كانت جارية حديثة السن لم تعرف الحبل ولم يبن في بطنها (وقال ابن عباس) لما حملت أم إبراهيم قال الكهان للنمروذ إن الغلام الذي أخبرناك به قد حملت به أمه هذه الليلة فامر نمروذ بذبح الغلمان فلما دنت ولادة إبراهيم وأخذها المخاض خرجت هاربة مخافة أن يطلع عليها ويقتل ولدها فوضعته في نهر يابس ثم لفته في خرقة ووضعته في حلفاء ورجعت وأخبرت زوجها

النعيم فانطلقت معهم حتى أخرجاني من الموقف وإذا أنا بخيل لا تسبقها خيل كأنها البرق الخاطف أو هبوب الريح العاصف فركبتها وسرنا حتى انتهينا إلى قصر شاهق لا يبلغ الطرف منتهاه كأنه صنع من فضة وله نور يتلألأ فلما وصلنا إليه انفتح بابه من قبل أن نستفتح فدخلنا فرأينا شيئاً لا يبلغه الواصفون ولا يخطر على قلب بشر وفيه من الحور والوصائف والولدان بعدد النجوم فلما رأونا أخذوا في أحسن إنعام من القول الحسن مختلف الألحان وهم يقولون هذا ولي الله قد جاء فرحباً به وسهلا فسرنا حتى انتهينا إلى مجالس ذات أسرة من ذهب وهاج مكللة بالجواهر محفوفة بكراسي من اليواقيت وعلى كل سرير جارية أحسن من الشمس والقمر لا يستطيع أحد من الخلق أن يصفها وفي وسطهن واحدة عالية عليهن في طولها وكمالها وجمالها فقال الرجلان هذا منزلك وهؤلاء أهلك وهنا مقيلك ثم انصرفا عني فوثبت الجواري إلي بالترحيب والاستبشار كما يكون من أهل الغائب عند قدومه عليهن ثم حملوني حتى أجلسوني على السرير الأوسط إلى جانب الجارية ثم قلن هذه زوجتك ولك الخيرة مثلها وقد طال انتظارك

يابنيها وأنها قد ولدت وأن الولد فى موضع كذا فانطلق أبوه فأخذه من ذلك المكان وحفر له سردابا عند نهر فوراه وسد عليه بابه بصخرة مخافة السباع وكانت أمه تختلف إليه فترضعه (وقال السدى) لما عظم بطن أم إبراهيم خشى آزر أن تذبح فانطلق بها إلى أرض بين الكوفة والبصرة يقال لها وركاء فأنزلها فى سرب من الأرض وجعل عندها ما يصلحها وجعل يتعهدها ويكتم ذلك من أصحابه فولدت إبراهيم عليه السلام فى ذلك السرب فشب فكان وهو ابن سنة كابن ثلاث سنين وصار من الشباب بحالة أسقطت طمع الذباحين ثم ذكر آزر لأصحابه أن له إبناً كبيراً فانطلق به إليهم (قال ابن إسحق) لما وجدت أم إبراهيم الطلق خرجت ليلة إلى مغارة وكانت قريباً منها فولدت إبراهيم عليه السلام وأصلحت من شأنه ما يصلح بالمولود ثم سدت عليه المغارة ورجعت إلى بيتها ثم كانت تطالعه بالمغارة فتجده حياً يمص إبهامه قال أبو زريق كانت أم إبراهيم كلما دخلت على إبراهيم عليه السلام وجدته يمص إبهامه فقالت ذات يوم لأنظرن إلى أصابعه فوجدته يمص من أصبع ماء ومن أصبع لبناً ومن أصبع عسلا ومن أصبع سمناً (قال ابن إسحق) وقال آزر سأل أم إبراهيم عن حملها ما فعل فقالت ولدت غلاماً فمات فصدقها وسكت عنها وكان اليوم على إبراهيم عليه السلام فى الشباب كالشهر والشهر كالسنة فلم يمكث إبراهيم عليه السلام فى المغارة إلا خمسة عشر يوماً حتى جاء إلى أبيه آزر فأخبره أنه ابنه وأخبرته بما كانت صنعت فى شأنه فسر آزر بذلك وفرح فرحا شديداً

(الباب الثانى فى خروج إبراهيم عليه السلام من السرب ورجوعه إلى قومه)

(ومحاجته إياهم فى الدين وإلقائهم إياه فى النار وما يتعلق بذلك)

(قال أهل العلم بسير الماضين) لما شب إبراهيم عليه السلام وهو فى السرب قال لأمه من ربى قالت أنا قال فمن ربك قالت أبوك قال فمن رب أبى قالت له نمروذ قال فمن رب نمروذ قالت اسكت فسكت ثم رجعت إلى زوجها فقالت أرأيت الغلام الذى يحدث أنه يغير دين أهل الأرض فإنه ابنك ثم أخبرته بما قال لها فأتاه أبوه آزر فقال له إبراهيم عليه السلام يا أبتاه من ربى قال أمك قال فمن رب أبى قال أنا قال فمن ربك قال نمروذ قال فمن رب نمروذ فلطمه لطمة وقال اسكت وذلك قوله عز وجل (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين) ثم قال لأبويه أخرجانى فأخرجاه من السرب فانطلقا به حتى غابت الشمس فنظر إبراهيم عليه السلام إلى الإبل والبقر والغنم والخيل يراح بها فسأل أباه ما هذه قال إبل وخيل وبقر وغنم فقال ما لهذه بد من أن يكون لها رب خالق ثم نظر وتفكر فى خلق السموات والأرض وقال إن الذى خلقنى ورزقنى وأطعمنى وسقانى لربى مالى إله غيره ثم نظر فإذا المشترى قد طلع ويقال الزهرة وكانت تلك الليلة فى آخر شهر فرأى الكوكب قبل القمر فقال هذا ربى فذلك قول الله تعالى (فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر) لأنه رأى ضوءها أعظم (فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) قالوا وكان أبوه يصنع الأصنام فلما ضم إبراهيم إلى نفسه جعل يصنع الأصنام ويعطيها إبراهيم ليبيعها فيذهب بها إبراهيم عليه السلام فينادى من يشترى ما يضر ولا ينفع فلا يشترى أحد منه فإذا بارت عليه ذهب بها إلى نهر فضرب رؤوسها وقال لها اشربى كسدت استهزاء بقومه وبما هم عليه من الضلالة والجهالة حتى فشا عيبه إياها واستهزائى بها فى قومه وأهل قريته فحاجه قومه فى دينه فقال لهم أتحاجونى فى الله وقد هدانى الآيات إلى قوله عز وجل وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم عليه السلام دعا أباه آزر إلى دينه فقال يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً إلى آخر القصة فأبا أبوه الإجابة إلى ما دعاه إليه ثم إن إبراهيم عليه السلام جاهر قومه بالبراءة مما كانوا يعبدون وأظهر دينه فقال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لى إلا رب العالمين قالوا فمن تعبد أنت قال رب العالمين قالوا أتعنى نمروذ فقال إله الذى خلقنى فهو يهدينى إلى آخر القصة ففشا ذلك فى الناس حتى بلغ

إليك فكلمتها وكلمتنى فقلت لها وأين أنا فقلت فى جنة المأوى فقلت من أنت فقالت أنا زوجتك الخالدة فقلت وأين الأخرى فقالت فى قصرك الآخر فقلت لها أقيم اليوم عندك وأتحول فى غد إلى الأخرى ثم مددت يدى إليها فردتها رداً رقيقاً ثم قالت أما اليوم فلا فإنك راجع إلى الدنيا وستقيم ثلاثاً فقلت لا أحب أن أرجع فقالت لا بد من ذلك وستفطر عندنا بعد الثلاثة أيام إن شاء الله ثم نهضت من مجلسها فنهضت أودعها فاستيقظت يا أخى ولا صبر لى عنها قال هشام فقلبنى البكاء وقلت هنيئاً لك يا سعيد جدد لله شكراً فقد كشف الله لك عن ثواب عملك فقال هل رأى أحد غيرك ما رأيت فقلت لا فقال بالله عليك يا أخى اكتم ما سمعت منى ما دمت فى الحياة ثم قام فتطهر وتطيب وأخذ سلاحه وتوجه إلى موضع القتال وهو صائم فقاتل إلى الليل ثم انصرف فتحدث الناس بقتاله وقالوا ما رأينا مثل ما فعل سعيد اليوم حتى أنه كان يطرح نفسه تحت سهام العدو وحجارتهم فكلهم يثنون عليه قال فقلت فى نفسى لو يعلمون فى شأنه لتنافسوا فى مثل عمله ثم مكث قائماً يصلى إلى آخر الليل ثم أصبح صائماً يقاتل أبلغ مما فعل بالأمس قال أبو الوليد فانطلقت معه لأنظر

نمروذ الجبار فدعاه فقال له يا إبراهيم أرأيت إلهك الذى بعثك وتدعو إلى عبادته وتذكر من قدرته التى تعظمه بها على غيره ماهو قال إبراهيم عليه السلام ربى الذى يحيى ويميت قال نمروذ أنا أحيى وأميت قال إبراهيم كيف تحيى وتميت قال آخذ رجلين قد استوجبا القتل فى حكمى فأقتل أحدهما فأكون قد أمته ثم أعفو عن آخر فأتركه فأكون قد أحييته فقال له إبراهيم عند ذلك إن الله يأتى بالشمس من المشرق فات بها من المغرب فبهت عند ذلك نمروذ ولم يرجع إليه شيئا ولزمته الحجة فذلك قوله عز وجل فبهت الذى كفر الآية ثم إن إبراهيم عليه السلام أراد أن يرى قومه ضعف الأوثان التى كانوا يعبدونها من دون الله وعجزها إلزاما للحجة عليهم فجعل ينتهز لذلك فرصة ويحتال فيه إلى أن حضرهم عيدهم قال السدى كان لهم فى كل سنة عيد يخرجون إليه ويجتمعون فيه فكانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها ثم عادوا إلى منازلهم فلما كان ذلك العيد قال أبو إبراهيم يا إبراهيم لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا فخرج معهم إبراهيم عليه السلام فلما كان فى بعض الطريق ألقى نفسه وقال إنى سقيم أشتكى رجلى فتولوا عنه وهو صريع فلما مضوا نادى فى آخرهم وقد بقى ضعفاء الناس وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين فسمعوها منه وقال مجاهد وقتادة فإنما قال إبراهيم عليه السلام هذا سرا من قومه ولم يسمع ذلك إلا رجل واحد منهم وهو الذى أفشاه عليه قالوا ثم رجع إبراهيم عليه السلام من الطريق إلى بيت الآلهة فإذا فى البيت نهر مستقبل باب النهر صنم عظيم يليه أصغر منه إلى باب النهر وإذا هم قد جعلوا طعاما فوضعوه بين يدى الآلهة وقالوا إذا كان حين رجوعنا فرجعنا وقد بارك الآلهة فى طعامنا أكلنا فلما نظر إبراهيم عليه السلام إلى الأصنام وإلى ما بين أيديهم من الطعام قال لهم على طريق الاستهزاء ألا تأكلون فلما لم يجبه قال مالكم لا تنطقون فراغ عليهم ضربا باليمين وجعل يكسرهن بفأس فى يده حتى لم يبق إلا الصنم الأكبر فعلق الفأس فى عنقه ثم خرج فذلك قوله عز وجل (فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون) فلما جاء القوم من عيدهم إلى بيت آلهتهم ورأوها بتلك الحالة قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم الذى نظنه صنع هذا فبلغ ذلك نمروذ الجبار وأشراف قومه فقالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون عليه أنه هو الذى فعل ذلك وكرهوا أن يأخذوه بغير بينة قاله قتادة والسدى وقال الضحاك لعلهم يشهدون بما نصنع به ونعاقبه فلما حضروه قالوا له أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم فقال إبراهيم بل فعله كبيرهم هذا غضب من أن تعبدوا معه هذه الأصنام الصغار وهو أكبر منها فكسرهن فاسألوهم إن كانوا ينطقون قال النبى ﷺ لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات كلها فى الله تعالى قوله إنى سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا وقوله للملك الذى عرض لسارة هى أختى (قيل) إنكم أنتم الظالمون بعبادتكم الأوثان الصغار مع هذا الكبير ثم نكسوا على رؤوسهم متحيرين فى أمره وعلموا أنها لا تنطق ولا تبطش فقالوا لقد علمت ماهؤلاء ينطقون فلما اتجهت الحجة عليهم لإبراهيم عليه السلام قال لهم أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون فلما لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب قالوا احرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين قال ابن إسحق كانوا يجمعون الحطب شهرا حتى إذا كثر الحطب وجمعوا منه ما أرادوا أشعلوا النار فى كل ناحية بالحطب فاشتعلت النار حتى إن كان الطير ليمر بها فيحترق من شدة وهجها ثم عمدوا إلى إبراهيم عليه السلام فرفعوه على رأس البنيان وقيدوه ثم اتخذوا منجنيقا بإشارة إبليس لعنه الله تعالى حيث لم يتمكنوا من إلقائه فى النار من شدة حرها فاتخذوا المنجنيق ووضعوه فيه مقيدا مغلولا صلوات الله عليه فضجت السموات والأرض والجبال ومن فيها من الملائكة وجميع الخلق إلا الثقلين ضجة واحدة وقالوا أى ربنا إبراهيم ليس فى أرضك أحد يعبدك غيره يحرق فى النار فأذن لنا فى نصرته فقال الله تعالى لهم

ماذا يكون منه فلم يزل يلقى نفسه فى المهالك إلى غاية النهار وهو لا يصل إليه شىء مما كانوا يرمونه عليه من الحجارة وغيرها حتى غربت الشمس فجاء سهم فى منخره فخر صريعا وأنا أنظر إليه وهو يضحك فضجت الناس وبادروا إليه فأخذوه وجاؤا به إلى الخيام وقد مات رحمة الله تعالى عليه فقلت له هنيئا لك يا سعيد ماذا تفطر الليلة يا ليتنى كنت معك قال هشام فمض على شفتيه السفلى وضحك فى موته وقال الحمد لله الذى صدقنا وعده قال فصحت يا عباد الله لمثل هذا فليعمل العاملون فاستمعوا أخبركم بأعجب مما رأيتموه من أخيكم هذا فاقبل الناس بأجمعهم فأخبرتهم بحكايته وما كان منه فما رأيت باكيا كاليوم ثم كبرنا تكبيرا اضطرب له العسكر وشاع الحديث وبلغ الخبر إلى مسلمة فجاء وقد وضعناه لنصلى عليه فقلت صل عليه أيها الأمير فقال بل يصلى عليه الذى عرف من أمره ما عرف فصلينا عليه ودفناه فى موضعه وبات الناس يتحدثون به فلما طلع النهار تذاكرنا حديثه وصاح المسلمون صيحة واحدة وحملوا على المشركين وفتح الله تعالى ذلك الحصن فى ذلك اليوم ببركته رحمة الله تعالى عليه ونفعنا به فى الدارين آمين

(تحكى عن ابى يعقوب الطبرى) رضى الله تعالى عنه أنه قال خرجت فى سفر أريد الشام فوقعت فى التيه أياماً حتى أشرفت على الهلاك فبينما أنا كذلك إذ رأيت راهبين سائرين كأنما قد خرجا من مكان واحد يريدان ديراً لهما بالقرب فملت إليهما وقلت لهما أين تريدان فقالا لا ندرى فقلت لهما فمن أين أقبلتما فقالا لا ندرى إلا أننا فى ملكه وبين يديه قال فتعجبت من ذلك وقلت فى نفسى أن هذين الراهبين متحققان التوكل دونك فقلت لهما أتأذنان إلى فى الصحبة معكما فقالا ذلك إليك فسرنا حتى أمسينا قاما إلى صلاتهما وقمت إلى صلاة المغرب فتيممت وصليت فلما نظرا إلى حين تيممت وصليت تعجبا من ذلك فلما فرغا من صلاتهما بحث أحدهما فى الأرض فانفجرت عين ماء وإلى جانبه طعام موضوع فزدت تعجباً من ذلك فقالا لى ادن وكل واشرب قال فأكلنا وشربنا وتوضأت للصلاة ثم غار الماء وذهب الطعام فلما كانت الليلة الثانية فعل الثانى كما فعل الأول فلما كانت الليلة الثالثة قالا لى يا مسلم الليلة نوبتك قال محمد بن يعقوب فاستحييت من قولهما وداخلنى هم شديد وأمر غريب وقلت فى نفسى اللهم إنى أعلم أن ذنوبى لم تدع لى عندك جاهاً ولكن

إن استغاث بشىء منكم أو دعاه فلينصره فقد أذنت لكم فى ذلك وإن لم يدع غيرى فأنا أعلم به وأنا وليه فخلوا بينى وبينه ثم رفع إبراهيم رأسه إلى السماء فقال اللهم أنت الواحد فى السماء وفى الأرض ليس فى الأرض أحد يعبدك غيرى وروى المعتمر عن أبى بن كعب عن أرقم أن إبراهيم عليه السلام قال حين أوثقوه فى النار قال لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك ثم رموا به بالمنجنيق إلى النار فى موضع فاستقبله جبريل عليه السلام فقال يا إبراهيم ألك حاجة قال أما إليك فلا قال جبريل فسل ربك فقال إبراهيم عليه السلام حسبى من سؤالى علمه بحالى حسبى الله ونعم الوكيل وفى الخبر أن إبراهيم عليه السلام إنما نجى بقوله حسبى الله ونعم الوكيل قال الله عز وجل (يا نار كونى بردا وسلاماً على إبراهيم) قال السدى فأخذت الملائكة بضبعى إبراهيم فأقعدته على الأرض فإذا عين ماء وورد أحمر ونرجس قالوا فأقام إبراهيم فى النار سبعة أيام قال المنهال ابن عمرو وقال إبراهيم خليل الله ما كنت أياماً قط أنعم منى عيشاً فى الأيام التى كنت فيها فى النار (قال ابن إسحق) وغيره وبعث الله ملك الظل فى صورة إبراهيم عليه السلام فقعد فيها إلى جنب إبراهيم وهو مؤنسه فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير وقال له يا إبراهيم إن ربك يقول أما علمت أن النار لا تضر أحبابى وألبسه القميص ثم أشرف نمروذ من صرح له عال ونظر إلى إبراهيم عليه السلام وما يشك أنه قد هلك فرآه جالساً فى روضة ورأى الملك قاعداً إلى جنبه وحوله نار تحرق ما جمعوا من الحطب فناداه نمروذ يا إبراهيم كبير إلهك الذى بلغت قدرته أن حال بينك وبين النار حتى لم تضرك يا إبراهيم فهل تستطيع أن تخرج منها قال نعم قال فهل تخشى إن أقمت فيها أن تضرك قال لا قال فقم فاخرج منها فقام إبراهيم عليه السلام يمشى فيها حتى خرج منها فلما خرج منها قال له النمروذ من الرجل الذى رأيت معك فى مثل صورتك قاعداً إلى جنبك قال ملك الظل أرسله إلى وبى ليؤنسنى فيها فقال نمروذ يا إبراهيم إنى مقرب إلى إلهك قرباناً لما رأيت من قدرته وعزمه فيما صنع بك حين أبيت إلا عبادته وتوحيده إنى ذابح له أربعة آلاف بقرة فقال له إبراهيم لا يقبل الله منك شيئاً ما كنت على دينك هذا حتى تفارقه إلى دينى فقال لا أستطيع ترك ملكى ولكن سوف أذبحها له فذبحها وقربها ومنع العذاب عن إبراهيم ثم قال لإبراهيم نعم الرب ربك يا إبراهيم (قال الشعبى) ألقى إبراهيم عليه السلام فى النار وهو ابن ستة عشر سنة وذبح إسحق وهو ابن سبع سنين وولدته سارة رضى الله عنها وهى ابنة تسعين سنة وكان مذبحه من بيت المقدس على ميلين ولما علمت سارة بما أراد بإسحق بقيت يومين وماتت فى اليوم الثالث (قال ابن إسحق) خرج إبراهيم عليه السلام من كوثا من أرض العراق مهاجرا إلى ربه عز وجل وخرج معه لوط وسارة عليهما السلام فاما قال الله تعالى (فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى) فخرج حتى نزل حران فمكث بها ما شاء الله تعالى أن يمكث ثم خرج منها حتى قدم مصر ثم خرج من مصر إلى الشام فنزل السبع من أرض فلسطين وهو برية الشام ونزل لوط بالمؤتفكة وهى السبع على مسيرة يوم وليلة فبعثه الله تعالى نبياً فذلك قوله عز وجل (ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين) يعنى الشام فبركتها أن بعث منها أكثر الأنبياء وهى الأرض المقدسة وأرض المحشر والمنشر وبها ينزل عيسى بن مريم عليه السلام وبها يهلك الله تعالى المسيح الدجال بباب لد وهى أرض خصبة كثيرة الأشجار والأنهار والثمار يطيب فيها العيش للغنى والفقير

(الباب الثالث فى ذكر مولد إسمعيل وإسحق عليهما السلام)

(ونزول إسمعيل وأمه هاجر الحرم وقصة بئر زمزم)

(قال أهل العلم بسير الماضين) لما نجى الله تعالى خليله إبراهيم عليه السلام آمن به من آمن وبايعوه على فراق قومهم وإظهار البراءة منهم فقالوا إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم أيها المبعدون من دون الله وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أيها العابدون حتى تؤمنوا بالله وحده ثم خرج

إبراهيم عليه السلام مهاجراً إلى ربه وخرج معه لوط عليه السلام وتزوج إبراهيم عليه السلام بابنة عمه سارة فخرج بها يلتمس الفرار بدينه والأمان على عبادته لربه حتى نزل حران فمكث بها ما شاء الله أن يمكث ثم خرج منها مهاجراً حتى قدم مصر وبها فرعون من الفراعنة الأول وكانت سارة من أحسن النساء وأجملهن وكانت لا تعصى إبراهيم عليه السلام فى شىء وبذلك أكرمها الله قال فأتى الخبر الجبار أن رجلا معه امرأة من أحسن النساء ووصف له حسنها وجمالها فأرسل الجبار إلى إبراهيم عليه السلام فجاء فقال ما هذه المرأة منك فقال هى أختى وتخوف أن قال هى امرأتى أن يقتله فقال له زينها وأرسلها إلى حتى أنظر إليها فرجع إبراهيم إلى سارة عليها السلام وقال لها أن هذا الجبار قد سألنى عنك فأخبرته أنك أختى فلا تكذبينى عنده فإنك أختى فى كتاب الله عز وجل وأنه ليس فى هذه الأرض مسلم غيرى وغيرك ثم أقبلت سارة إلى الجبار وقام إبراهيم عليه السلام يصلى فلما دخلت عليه ورآها أهوى إليها يتناولها بيده فيبست يده إلى صدره فلما رأى الجبار ذلك أعظم أمرها وقال لها سلى ربك أن يطلق يدى فوالله لا آذيتك فقالت سارة اللهم إن كان صادقاً فأطلق يده فأطلق الله تعالى يده (وفى بعض الأخبار المسندة) أنه فعل ذلك ثلاث مرات يتصد أن يتناولها فتيبس له يده فلما رأى ذلك ردها إلى إبراهيم ووهب لها هاجر وهى جارية قبطية فأقبلت إلى إبراهيم فلما أحس بها إبراهيم انتقل من صلاته قال مهيم فقالت كفى الله كيد الفاجر وأخذ منى هاجر (وفى بعض الأخبار) أن الله تعالى رفع الحجاب بين إبراهيم وسارة حتى كان ينظر إليها من وقت خروجها من عنده إلى وقت انصرافها إليه كرامة لها وتطييباً لقلب إبراهيم عليه السلام قالوا وكانت هاجر جارية ذات هيبة فوهبتها سارة لإبراهيم فقالت إنى أراها امرأة وضيئة فخذها لعل الله تعالى أن يرزقك منها ولداً وكانت سارة قد منعت الولد حتى أسنت فوقع إبراهيم على هاجر فولدت له إسمعيل عليه السلام (وروى) محمد ابن إسحق عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك الأنصارى قال قال رسول الله ﷺ إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمة ورحماً قال ابن إسحق فسألت الزهرى ما الرحم الذى ذكر رسول الله ﷺ فقال كانت هاجر أم إسمعيل منهم خرج إبراهيم من مصر إلى الشام وهاب ذلك الملك الذى كان بها وأشفق من شره فنزل السبع من أرض فلسطين واحتفر بها بئراً واتخذ بها مسجداً وكان ماء تلك البئر معيناً ظاهراً وكانت غنمه تردها فأقام إبراهيم بالسبع مدة ثم أن أهله أذوه فيها بعض الأذى فخرج منها حتى نزل بناحية من أرض فلسطين بين الرملة وإيليا ببلد يقال لها قطة فلما خرج من بين أظهرهم نضب ماء تلك العين وذهب فندم أهل السبع جميعاً على ما صنعوا وقالوا أخرجنا من بين أظهرنا رجلا صالحاً فاتبعوا أثره حتى أدركوه وسألوه أن يرجع فقال ما أنا براجع إلى بلد أخرجت منه قالوا أن الماء الذى كنت تشرب ونشرب معك منه قد نضب وذهب فأعطاهم سبعة أعنز من غنمه وقال اذهبوا بها معكم فإنكم إذا أوردتموها البئر ظهر الماء حتى يكون معيناً ظاهراً كما كان فاشربوا منها ولا تقربنها امرأة حائض فخرجوا بالأعنز قال فلما وقفت على البئر ظهر الماء فكانوا يشربون منها وهى على تلك الحال حتى أتتها امرأة طامث فاغترفت منها فركد ماؤها إلى الذى عليه اليوم فأقام إبراهيم عليه السلام ببلده وكان يضيف من نزل به وقد أوسع الله تعالى عليه وبسط له من الرزق والمال والخدم فلما أراد الله تعالى هلاك قوم لوط عليه السلام بعث إليه رسله يأمرونه بالخروج من بين أظهرهم وأمرهم أن يبدؤا بإبراهيم عليه السلام ويبشروه وسارة بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب فلما نزلوا على إبراهيم عليه السلام وكان الضيف قد حبر عنه خمسة عشر يوماً حتى شق عليه ذلك وكان لا يأكل إلا مع ضيف ما أمكنه فلما رآهم على صورة الرجال سربهم ورأى ضيوفاً لم يضف مثلهم حسناً وجمالا فقال لا يخرج هؤلاء القوم إلا أنا فخرج فجاء بعجل سمين حنيذ وهو المشوى بالحجارة فقربه إليهم فأمسكوا أيديهم

أسألك بجاه نبيك محمد ﷺ
أن لا تفضحنى عندهما ولا
تشمتهما بدين نبيك محمد
ﷺ قال فإذا بغين ماء قد
انفجرت وبطعام كثير إلى
جنبها فأكلنا وشربنا ثم
حمدنا الله تعالى على ذلك
قال فلم نزل على تلك الحالة
حتى بلغت النوبة الثالثة فلما
ظهر الماء والطعام غلبنى
البكاء فلم أستطع رده
فأصابهما مثل ما أصابنى
وارتفعت أصواتنا بالبكاء
فلما فرغنا قالا لى ما يبكيك
فقلت أنى رجل مسرف على
على نفسى وليس لى عند الله
من الجاه والمنزلة ما يلغنى
هذه الكرامة فقالا لى وكيف
ظهر لك فقلت إنما توسلت
إليه بجاه نبيه محمد ﷺ أن
لا يفضحنى معكما فاستجاب
لى فقالا قد عرفنا أن دينه
هو الحق وهو عند الله عظيم
فامدد يديك فإنا نشهد أن
لا إله إلا الله وأن محمدا
رسول الله قال فأسلما
وخرجنا جميعاً إلى مكة
شرفها الله تعالى فأقمنا بها مدة
وخرجنا إلى الشام فتفرقنا
فوالله ما ذكرتهما إلا وهانت
على الدنيا وصغرت فى عينى
(وأنشدت شعراً فى المعنى)

فى القلب زاد بى الفخار
وبقيت فيك تحيرا
والقلب ليس له قرار
فامزج كؤوسى بالرضا
جهرا فما عنها اصطبار
دارت على موسى الكليم

ثم تلاح نحو الطور نار
لطفت فلما ذاقها
الأحباب نحو الحب طاروا
بذلوا إليه نفوسهم
وهلى خيول القوم غاروا
وإليه فى بحر الهوى
ركبوا وبالأرواح سادوا
طلبوه حقاً بالقلوب
وعند ما نظروه حاروا
هاموا به لقد
أنست بقربهم الديار
ورأوا إشارات الهوى
لاحت إليهم فاستناروا
هذان راهبان لاح لهم قدر
خرم إبرة من الإيمان فرأوا
الطريق وسلكوا منهج
التصديق وأنت يا مسكين
عمرك قد انقضى ومضى فى
العصيان وزمانك قد ذهب
فى الخسران وأنت فى بحر
الغفلة غريق وقد هبت نسمات
القبول والتوفيق أنت
سكران بخمر المعاصى ولا
تفيق .

(وعن عبد الله القرشى رحمه الله تعالى أنه قال) كنت أصحب إبراهيم ابن أدهم رحمه الله تعالى وأسرح معه فسرنا يوماً من الأيام نريد الحجاز فمشينا ثلاثة أيام لم نستطعم فيها بطعام ولا شراب فقلت له أتعرف ما بى من الجوع يا سيدى قال فرمق بطرفه إلى السماء بعد أن جلس وجلست بجانبه فإذا رغيف سخن قد سقط فى حجرى فرفع إبراهيم رأسه وقال كل فاكلت نصفه وشبعت ثم سرنا فررنا بقافلة قد حبسها الأسد عن المسير فتقدم إبراهيم إليه فقالوا

عنه فقال لهم ألا تأكلون فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة حيث لم يأكلوا من طعامه فقالوا يا إبراهيم لا نأكل طعاماً إلا بثمن قال فإن لهذا ثمناً قالوا وما ثمنه قال تذكرون اسم الله تعالى على أوله وتحمدونه على آخره فنظر جبريل إلى ميكائيل عليهما السلام وقال يحق لهذا أن يتخذونه خليلا ثم قالوا له لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته سارة قائمة تخدمهم وإبراهيم قاعد معهم فلما أخبروه بما أرسل به وبشروه بإسحق ويعقوب ضحكت سارة واختلف العلماء فى العلة الجالبة لضحكها ما هى فقال السدى إنما ضحكت سارة حيث لم يأكلوا من طعامهم وقالت يا عجباً لأضيافنا هؤلاء إنا نخدمهم بأنفسنا تكرمة لهم وهم لا يأكلون طعامنا قال السدى قالت سارة لجبريل عليه السلام لما بشرها بالولد على حالة الكبر ما آية ذلك فأخذ بيده عوداً يابساً فلواه بين أصابعه فاهتز واخضر فقال إبراهيم هو لله إذا ذبيح وقال مجاهد وعكرمة فضحكت أى حاضت فى الوقت تقول العرب ضحكت الأرنب إذا حاضت وقال السدى وابن يسار وغيرهما من أهل الأخبار فحملت سارة بإسحق وقد كانت حملت هاجر بإسمعيل فوضعتا معاً وشب الغلامان فبينما هما يتناضلان ذات يوم وقد كان إبراهيم عليه السلام سابق بينهما فسبق إسمعيل فأخذه وأجلسه فى حجره وأجلس إسحق إلى جانبه وسارة تنظر إليه فغضبت وقالت عمدت إلى ابن الأمة فأجلسته فى حجرك وعمدت إلى ابنى فأجلسته إلى جنبك وقد جعلت أن لا تضرنى وأن لا تسوءنى وأخذها ما يأخذ النساء من الغيرة فحلفت لتقطعن بضعة منها ولتغيرن خلقها ثم ثاب إليها عقلها فبقيت متحيرة فى ذلك فقال لها إبراهيم عليه السلام اخفضيها وانقى أذنيها ففعلت ذلك فصارت سنة فى النساء ثم أن إسماعيل وإسحق عليهما السلام اقتتلا ذات يوم كما تفعل الصبيان فغضبت سارة على هاجر وقالت لا تسكنينى فى بلد واحد وأمرت إبراهيم عليه السلام أن يعز لها عنها فأوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام أن يأتى بهاجر وابنها مكة فذهب بهما حتى قدم مكة وهى إذ ذاك عضاة وسلم وسمر وا بحواليها خارج مكة ناس يقال لهم العماليق وموضع البيت يومئذ ربوة حمراء فقال إبراهيم عليه السلام ههنا أمرت أن تضعهما قال نعم فعمد بهما إلى موضع الحجر فانزلهما فيه وأمرها جر أم إسماعيل أن تتخذ عريشاً ثم قال ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ثم انصرف فاتبعته هاجر وقالت إلى من تكلنا فجعل لا يرد عليها شيئاً فقالت الله آمرك بهذا قال نعم فقالت إذا لا يضيعنا ثم انصرف راجعاً إلى الشام وكان مع هاجر شنة فيها ماء فنفد الماء فعطشت وعطش الصبى فنظرت أى الجبال أدنى من الأرض فصعدت الصفا وتسمعت هل تسمع صوتاً أو ترى إنسياً فلم تسمع شيئاً ولم تر أحداً ثم إنها سمعت أصوات سباع الوادى نحو إسمعيل فاقبلت إليه بسرعة لتؤنسه ثم سمعت صوتاً نحو المروة فسعت وما تريد السعى كالإنسان المجهود فهى أول من سعى بين الصفا والمروة ثم صعدت إلى المروة فسمعت صوتاً كالإنسان الذى يكذب سمعه حتى استيقنت وجعلت تدعو سمع إيل تعنى يا الله قد أسمعتنى صوتك فاغثنى فقد هلكت وهلك معى فإذا هى بجبريل عليه السلام فقال لها من أنت فقالت سرية إبراهيم عليه السلام تركنى وإبنى ههنا قال وإلى من وكلكما قالت وكلنا إلى الله تعالى قال ولقد وكلكما إلى كريم كاف ثم جاء بهما وقد نفد طعامهما وشرابهما حتى انتهى بهما إلى موضع زمزم فضرب بقدمه ففارت عين فلذلك يقال لزمزم ركضة جبريل عليه السلام فلما نبع الماء أخذت هاجر شنة لها وجعلت تستقى فيها تدخره فقال لها جبريل عليه السلام أنها روى جعلت أم إسمعيل تحبسها حبساً قال رسول الله ﷺ لولا أنها عجلت لكانت زمزم ماء معيناً وقال لها جبريل لا تخافى الظمأ على أهل هذه البلده فإنها عين يشرب منها ضيفان الله تعالى وقال لها أما أن أبا هذا الغلام سيجىء فيبنيان لله تعالى بيتاً هذا موضعه ومرت رفقة من جرهم تريد الشام فرأوا الطير على الجبل

فقالوا

وقال له ياقسورة إن كنت قد أمرت لينا بشيء فامض إلى ما أمرت به وإلا فاذهب

فقالوا إن هذا الطير لعائم على ماء فاشرفوا فإذا هم بالماء فقالوا لهاجر إن شئت كنا معك فآنسناك والماء ماؤك فاذنت لهم فنزلوا معها وهم أول سكان مكة فذلك كانت العرب تقول فى تلبيتها :

لاهم إن جرهما عبادك ... الناس طارف وهم تلادك ، وهم قديماً عمروا بلادك

فكانوا هناك حتى شب إسماعيل وماتت هاجر فتزوج إسمعيل امرأة من جرهم وأخذ لسانهم فتعرب بهم فهم أولاده العرب المتعربة . ثم أن إبراهيم عليه السلام استاذن سارة أن يزور هاجر وإبنها فاذنت له واشترطت عليه أن لاينزل فقدم إبراهيم عليه السلام مكة وقد مات هاجر ويقال أنه قدمها راكباً البراق فلما قدمها ذهب إلى بيت إسمعيل فقال لامرأته أين صاحبك قالت ليس ههنا ذهب يتصيد وكان إسمعيل يخرج من الحرم يتصيد ثم يرجع وكان مولعاً بالصيد فخص بالقنص والفروسية والرمى والصراع فقال لها إبراهيم عليه السلام هل عندك ضيافة هل عندك طعام أو شراب قالت ليس عندى شيء وما عندى أحد فقال لها إبراهيم إذا جاء زوجك فاقرئيه منى السلام وقولى له فليغير عتبة بابه فذهب إبراهيم عليه السلام ودخل إسمعيل فوجد ريح أبيه فقال لامرأته هل جاءك أحد فقالت جاءنى شيخ صفته كذا وكذا كالمستخفة بشانه قال فما قال لك قالت قال اقرئى زوجك السلام وقولى له فليغير عتبة بابه فطلقها وتزوج أخرى فلبث إبراهيم عليه السلام ماشاء الله ثم استاذن سارة أن يزور إسمعيل فاذنت له واشترطت عليه أن لاينزل فجاء إبراهيم عليه السلام حتى انتهى إلى باب إسمعيل فقال لامرأته أين صاحبك قالت ذهب يتصيد وهو يجيء الآن إن شاء الله تعالى فانزل يرحمك الله قال لها هل عندك ضيافة قالت نعم فجاءت باللبن واللحم فدعا لهم بالبركة فلو جاءت يومئذ بخبز أو بر أو شعير أو تمر لكانت مكة أكثر أرض الله براً وشعيراً وتمراً ثم قالت له انزل حتى أغسل رأسك وشعرك فلم ينزل فجاءته بالمقام فوضعته عند شقه الأيمن فوضع قدمه عليه فبقى أثر قدمه فيه فغسلت شق رأسه الأيمن ثم جعلت المقام إلى شقه الأيسر فغسلت شق رأسه الأيسر فقال لها إذا جاء زوجك فاقرئيه السلام وقولى له قد استقامت عتبة بابك فلما جاء إسماعيل وجد ريح أبيه فقال لامرأته هل جاءك أحد قالت جاءنى شيخ أحسن الناس وجها وأطيبهم ريحاً فقال لى كذا وكذا وقلت له كذا وكذا وغسلت له رأسه وهذا موضع قدميه على المقام فقال ذلك إبراهيم عليه الصلاة والسلام (وأخبرنا) محمد بن أحمد بن عبدون قال أخبرنا محمد بن حمدون بن خالد حدثنا محمد بن إبراهيم حدثنا هدبة بن خالد حدثنا أبو يحيى بن جابر بن مسح الجرشى قال سمعت مسافر بن شيبة يقول سمعت عبد الله بن عمر يقول أشهد ثلاث مرات أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة طمس الله نورهما ولولا أن طمس نورهما لأضاء ما بين المشرق والمغرب .

(الباب الرابع فى القول على بقية قصة زمزم)

(روت الرواة) عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال عبد المطلب بن هاشم بينما أنا نائم فى الحجر إذ أتانى آت فقال لى احفر طيبة فذهب عنى ولم يجبنى فلما كانت الليلة الثانية جاءنى فقال احفر درة قلت وما درة فذهب عنى ولم يجبنى فلما كانت الليلة الثالثة أتانى فقال احفر المصونة قلت وما المصونة فذهب عنى فلما كان من الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فجاءنى فقال احفر زمزم فقلت وما زمزم وكانت قد درست وغار ماؤها لما مضت أيام إسماعيل عليه السلام قال بئر يسقى الحجيج منه عند منحر قريش عند نقرة الغراب وقرية النمل فلما تبين له قام فدل على موضعها وعرف أنه قد صدق فغدا بمعوله ومعه الحرث بن عبد المطلب وليس له ولد غيره يومئذ فلما علمت به قريش قاموا إليه فقالوا ياعبد المطلب إنها من آثار أبينا إسماعيل وأن لنا فيها حقاً فاشركنا فيها فقال ما أنا بفاعل إن هذا شيء خصصت به دونكم وأعطيته من بينكم قالوا له فانصفنا فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك قال فاجعلوا بينى وبينكم من شئتم أخاصمكم إليه

فولى الأسد هارباً وسار القوم فقالوا له بالله عليك يا سيدى إلا ما دعوت لنا فنحن نخاف السفر فقال لهم قولوا اللهم احرسنا بعينك التى لا تنام واكنفنا بكنفك الذى لا يرام وارحمنا بقدرتك علينا فلا نهلكنا وأنت رجاؤنا قال عبد الله فلقيت رجلا من أهل القافلة بعد مدة فسالته فقال والله مذ كنا ندعوا بهذا الدعاء الذى علمه لنا الشيخ ما رأينا سبعاً وقال الصائم ركب معنا ذلك الرجل فى مركب فى البحر فعصفت الريح وهاجت الأمواج واضطرب المركب وخفنا من الغرق فخافت الناس وبكوا وضجوا فقال الرجل يا قوم معنا فى السفينة رجل صالح كان من أمره كذا وكذا فاسالوه أن يدعو لكم فاتوا إليه وهو نائم فى ناحية المركب ملفوف رأسه فى الكساء قال فايقظناه وقلنا له يا سيدى ما ترى من حالنا وما نحن فيه من الشدة والغرق فرفع رأسه إلى السماء وقال اللهم أريتنا قوتك وقدرتك فارنا حلمك وعفوك قال فما استتم كلامه حتى سكن الريح وهدأ الموج وسارت السفينة قال عبد الله فلما نزلنا من السفينة سرنا أياماً فهلكت من الجوع وشكوت إليه فاخذ المزود ودق إلى

شجرة البلوط فلا المزود ألذ منه ولا أطيب قال وعطشت معه فى بعض السياحات ليلا فشكوت ذلك إليه فقال لى اشرب فنظرت إلى دلو تدلى فى الهواء وفيه ماء لم أذق أطيب منه طعاما ولا أحسن منه ريحا فشربت منه حتى رويت فكنت بعد ذلك أصوم فى الهواجر فلا أجوع ولا أعطش فهذا كله ببركتك فلله در رجال ما تركوا فى قلوبهم لغير محبوبهم مجالا قد سبلوا العبرات على الوجنات (شعر)

لله در رجال واصلوا السهرا
واستعذبوا الوجد والتبريح والفكرا
فهم نجوم الهدى والليل يعرفهم
إذا نظرتهم هم سادة بررا
كل غدا قلبه بالله مشتغلا
عمن سواه وللذات قد هجرا
يمشى ويصبح فى وجد وفى قلق
مما جناه من العصيان منذعرا
يقول يا سيدى قد جئت معترفا
بالذنب فاغفره لى يا خير من غفرا
حملت ذنبا عظيما لا أطيق له
ولم أطع سيدى فى كل ما أمرا
عصيته وهو يرخى ستره كرما
ياطالما قد عفا عنى وقد سترا
يا طالما كان لى فى نائبة
إذا استغثت به كربة نصرا

من أوراقها ثم أتى به إلى وقال كل فإذا هو رطب جنى ما أكلت

قالوا كاهنة بن سعد بن هذيل قال نعم وكانت من أطراف الشام فركب عبد المطلب ومعه نفر من بنى عبد مناف فركب من كل من قريش نفر قال والأرض إذ ذاك مفاوز فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز نفد ما كان معهم من الماء حتى أيقنوا بالهلكة فاستسقوا من معهم من قبائل قريش فأبوا عليهم وقالوا إنا بمفازة وإنا نخشى على أنفسنا أن يصيبنا مثل ما أصابكم فلما رأى عبد المطلب ما صنع القوم قال لأصحابه ماذا ترون قالوا إنا رأينا تبع لرأيك فأمرنا بما شئت قال فإنى أرى أن يحفر كل رجل منكم لنفسه حفرة بما يجد من القوة فكل من مات دون صاحبه ودفنه فى حفرته قال لحفروا وجلسوا ينتظرون الموت ثم قال عبد المطلب ومالنا لا نضرب فى الأرض فعسى الله أن يرزقنا ماء فارتحلوا ومن معهم من قريش ينظرون إليهم ماهم فاعلون وتقدم عبد المطلب إلى راحلته فركبها فلما أن انبعثت به انفجرت من تحت حوافر دابة عبد المطلب عين ماء عذب فكبر عبد المطلب وكبر أصحابه ثم نزل فشرب منه وشرب أصحابه حتى رووا وملؤا اسقيتهم ثم دعا القبائل من قريش فقال هلموا إلى الماء فقد سقانا الله تعالى وإياكم فشربوا وسقوا ثم قالوا قد والله قضى لك علينا يا عبد المطلب والله لا نخاصمك فى زمزم أبدا إن الله الذى سقاك هذا الماء فى هذه الفلاة فهو ساقيك زمزم فارجع ورجعوا معه حتى وافوا مكة وخلوا بينه وبين زمزم ولما جن الليل رأى عبد المطلب فى منامه كأن قائلا يقول له:

يا أيها المدلج احفر زمزم ... إنك إن حفرتها لم تندم
وهى تراث من أبيك الأعظم ... تسقى الحجيج حافلا لم يتقم

فلما سمعه عبد المطلب قال وأين موضع زمزم قيل له عند قرية النمل حيث ينقر الغراب الأعصم قال فغدا عبد المطلب ومعه إبنه الحرث فوجد قرية النمل ووجد الغراب ينقر عند الوثنين أساف ونائلة اللذين كانت قريش تعبدهما وتنحر عندهما فجاء بالمعول وقام ليحفر حيث أمر إليه فقامت قريش وقالوا والله لا نتركك أن تحفرها ووثنا ومنحرنا عندها وكانت قريش حسدوه على ذلك لأنهم أخبروا أن جرهما لما سكنت مكة أودعت فى زمزم أموالا وأسلحة للمصطفى ﷺ لما أخبرت أن الله تعالى باعث فى هذه القرية نبيا من صفته وحاله كيت وكيت ولم يكونوا عرفوا موضعها فلما أخبر بذلك عبد المطلب نازعوه فى ذلك فقال بعضهم لبعض دعوه يحفر فربما يخطىء الموضع فحفر غير بعيد فظهرت له العلامات فكبروا فعرفوا أنه لم يخطىء فنادى حتى بلغ إلى تمثالين من ذهب وهما الغزالان اللذان دفنتهما جرهم ووجد فيها سيوفا ودروعا فقالت له قريش يا عبد المطلب لنا معك فى هذا شركة قال لا ولكن نضرب بالقداح عليه قالوا وكيف نصنع قال اجعلوا للكعبة قدحين ولى قدحين ولكم قدح فمن خرج قدحاه على شىء كان له ومن تخلف قدحاه فلا شىء له قالوا أنصفت فجعل قدحين أصفرين للكعبة وقدحين أسودين لعبد المطلب وقدحين أبيضين لقريش ثم أعطوه القداح التى تضرب بها هبل وقام عبد المطلب يدعو فخرج السهمان الأصفران على الغزالين للكعبة وخرج الأسودان على الأسياف والأدرع لعبد المطلب وتخلف قدحا قريش قال فعلق عبد المطلب الأسياف والأدرع بباب الكعبة وضرب فى الباب الغزالين الذهب فكان أول ذهب حليت به الكعبة كانت الرياسة والتقدمة لعبد المطلب قبل حفر زمزم فلما حفروها وأخرج منها ما أخرج ازداد بذلك فى قريش عظما وجاها ومنزلة وعافت الحجيج المياه التى كانت بمكة ونواحيها وأقبلوا على زمزم لما كان من عذوبة مائها لكونها من أثر إسماعيل عليه السلام وافتخرت بذلك بنو عبد مناف على قريش وعلى سائر العرب والله أعلم.

(الباب الخامس فى صفة بناء الكعبة وبدء أمرها إلى وقتنا هذا)

أخبرنا أبو عمر بن أبى أحمد القرابى أخبرنا ابن الحسن بن المغيرة بن عمر بن الوليد المغربى بمكة حدثنا أبو سعيد المفضل بن محمد بن إبراهيم بن المفضل حدثنا عبد الله بن أبى غسان اليمانى حدثنا أبو همام حدثنا محمد بن زياد عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال قال اليمانى قال رسول الله ﷺ كان البيت قبل هبوط

آدم عليه السلام ياقوتة من ياقوت الجنة والبيت المعمور الذى فى السماء يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة حذاء الكعبة الحرام وأن الله تعالى أهبط آدم عليه السلام إلى موضع الكعبة وهو مثل الفلك من شدة رعدته وأنزل عليه الحجر الأسود وهو يتلألأ كأنه لؤلؤة بيضاء فأخذه آدم فضمه إليه استئناساً به ثم أخذ الله تعالى من بنى آدم ميثاقهم فجعله فى الحجر ثم أنزل الله تعالى على آدم العصا ثم قال يا آدم تخطى فتخطى فإذا هو بأرض الهند فمكث هناك ماشاء الله أن يمكث ثم استوحش إلى البيت فقيل له حج يا آدم فاقبل يتخطى فصار موضع كل قدم قرية ما بين مفاوز حتى قدم مكة فلقيته الملائكة فقالت برحجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام ثم قال فما كنتم تقولون حوله قالوا كنا نقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فكان آدم إذا طاف بالبيت قال هذه الكلمات وكان آدم يطوف بالبيت سبعة أسابيع خمسة أسابيع بالليل وبالنهار أسبوعان فقال آدم يارب اجعل لهذا البيت عماراً يعمرونه من ذريتى فأوحى الله تعالى إليه إنى معمره بنبى من ذريتك إسمه إبراهيم أتخذه خليلا أقضى على يديه عمارته وأنيط له مسقايته وأورثه حله وحرمه ومواقفه وأعلمه مشاعره ومناسكه فلما فرغ من بنائه نادى يا أيها الناس إن الله تعالى بنى بيتاً فحجوه فأسمع ما بين الخافقين فأقبل من يحج هذا البيت من الناس يقولون لبيك لبيك وقال النبى ﷺ أن آدم عليه السلام سأل ربه عز وجل فقال يارب أسألك لمن مات فى هذا البيت من ذريتى لا يشرك بك شيئاً أن تلحقه بى فى الجنة فقال الله تعالى يا آدم من مات فى الحرم لا يشرك بى شيئاً بعثته آمناً يوم القيامة .

(قال أبو يحيى بائع الفت) قال لى مجاهد لقد حدثنى عبد الله بن عباد أن آدم نزل حين نزل بالهند ولقد حج منها أربعين حجة على رجليه نقلت له يا أبا الحجاج ألا كان يركب قال وأى شىء كان يحمله وأن خطوته مسيرة ثلاثة أيام وقال وهب بن منبه أن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض فرأى سعتها ولم ير فيها أحداً غيره قال يارب أما لهذه الأرض عامر يسبح بحمدك ويقدسك غيرى قال الله تعالى إنى سأجعل فيها من ولدك من يسبح بحمدى ويقدسنى وسأجعل فيها بيوتاً ترفع بذكرى ويسبح فيها خلقى ويذكر فيها اسمى وسأجعل من تلك البيوت بيتاً أخصه بكرامتى وأوثره باسمى وأسميه بيتى وأنطقه بعظمتى وعليه وضعت جلالى ثم أجعل ذلك البيت حرماً آمناً يحرم بحرمته من حوله ومن تحته ومن فوقه فمن حرمه بحرمته استوجب بذلك كرامتى ومن أخاف أهله فقد ضيع دينى وخفر ذمتى وأباح حرمتى وأجعله أول بيت وضع للناس يأتونه شعثاً غبراً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق يضجون بالتلبية ضجيجاً ويثجون بالبكاء بجيجاً ويعجون بالتكبير عجيجاً فمن آثره لا يريد غيره فقد وفد إلى وزارنى وضافنى وحق على الكريم أن يكرم وفده وأضيافه وأن ينعم ويتفضل ويسعف كلا بحاجته تعمره يا آدم ما كنت حياً ثم يعمره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك أمة بعد أمة وقرناً بعد قرن فهكذا كان بدء أمر الكعبة حرسها الله تعالى ثم كانت على ذلك إلى أيام الطوفان فلما كان أيام الطوفان رفعه الله تعالى إلى السماء الرابعة وبعث جبريل عليه السلام حتى خبأ الحجر الأسود فى جبل أبى قبيس صيانة له من الغرق فكان موضع البيت خالياً إلى زمان إبراهيم عليه السلام ثم إن الله تعالى أمر إبراهيم بعد ما ولد له إسماعيل وإسحق عليهما السلام ببناء بيت له يعبد فيه ويذكر إسمه ولم يدر إبراهيم فى أى موضع يبنيه فسأل الله عز وجل أن يبين له ذلك واختلف العلماء فى كيفية بيان ذلك فقال بعضهم إن الذى خرج مع إبراهيم عليه السلام من الشام لدلالته على موضع البيت جبريل عليه السلام وذلك قوله عز وجل وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت الآية قالوا فجعل إبراهيم يبنيه وإسماعيل يناوله الحجارة وكان إبراهيم عبرانيا وإسماعيل عربيا فألهم الله تعالى أحدهما لسان صاحبه فكان إبراهيم عليه السلام يقول هات لى كينا يعنى حجراً فيقول له إسماعيل هاك فخذه فبنيا الكعبة من خمسة أجبل طور سينا وطور زيتا ولبنان والجودى وبنيت قواعده من حراء قال فبقى حجر فذهب إسماعيل يبتغيه ثم رجع

إننى تائب مما جنيت وقد وافيت بابك يا مولاى معتذراً
لعل تقبل عذرى ثم تجبرنى
يوم الحساب إذا قدمت منكسراً وقد أتيت بذلى راجياً كرماً إليك يا سيد السادات مفتقراً
ما قد تشفعت بالهادى النبى ومن
فاق النبيين والأملاك والوزرا
تالله لو لم يكن فى الأرض ما نبتت
زرعاً ولا أنزل البارى لها مطراً
متى أسير إلى ذاك الجناب متى أحظى برؤيته أقضى بها وطرا
صلى عليه إله العرش ما ركضت
نوق وما زمزم الحادى لها وسرى

(وحكى عن أبى سليمان الدارانى رحمه الله تعالى ونفعنا به) أنه كان يقول فى بعض مناجاته سيدى لئن طالبتنى بذنبى لأطالبنك بعفوك ولئن طالبتنى ببخلى لأطالبنك بجودك وكرمك ولئن طالبتنى بإساءتى لأطالبنك بإحسانك ولئن أدخلتنى النار لأخبرن أهلها بمحبتى لك فنودى يا أبا سليمان لا ندخلك النار ولا نعذبك بها أبداً بل ندخلك الجنة لتخبر أهلها بمحبتنا لك ولا تخبر أهل النار بمحبتك لنسا فإن مكان المحبين الجنة ومكان الأعداء النار إخوانى المحبة عروس

فوجده قد ركب حجراً فى مكانه فقال ياأبت من أتاك بهذا الحجر فقال له أتانى به من لم يكلنى إليك ثم قال إبراهيم لإسماعيل ائتنى بحجر حسن أضعه على الركن ليكون علماً للناس فناداه أبو قبيس ياإبراهيم أن لك عندى وديعة فهاك فخذها فأخرج إبراهيم عليه السلام الحجر الأسود من جبل أبى قبيس وركبه فى موضعه فلما فرغ إبراهيم وإسماعيل من بناء البيت وأتماه دعوا ربهما فذلك قوله تعالى (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) إلى قوله (وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم) فأجاب الله تعالى دعائهما وأرسل جبريل عليه السلام إليهما ليعلمهما مناسك الحج فخرج بهما يوم التروية إلى منى فصلى بهما الظهر والعصر والمغرب والعشاء ثم بات بهما حتى أصبح فصلى بهما الصبح ثم غدا بهما إلى عرفة فقام بهما هناك حتى إذا مالت الشمس جمع بين الصلاتين الظهر والعصر ثم راح بهما إلى الموقف من عرفة فوقف بهما على الموضع الذى يقف عليه الناس اليوم فلما غربت الشمس دفع بهما إلى المزدلفة فجمع بين الصلاتين المغرب والعشاء ثم بات بهما حتى طلع الفجر ثم صلى بهما صلاة الغداة فوقف بهما على قزح حتى إذا أسفر الصبح أفاض بهما إلى منى فأراهما كيف يرميان الجمار ثم أمرهما بالذبح وأمرهما بالنحر وامرهما بالحلق ثم أفاض بهما إلى البيت فاوحى الله تعالى إلى نبينا محمد ﷺ أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ثم أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يؤذن فى الناس بالحج فقال يارب وما يبلغ صوتى فقال عليك الأذان وعلى البلاغ فعلا ثبيرا ونادى ياعباد الله إن ربكم قد بنى بيتاً فحجوه وأجيبوا داعى الله فسمعه ما بين السماء والأرض وما بين الأبحر ومن فى أصلاب الرجال وأرحام النساء وأجابه كل من آمن بالله ممن سبق فى علم الله تعالى أن يحج إلى يوم القيامة لبيك اللهم لبيك وقال عبد الله بن الزبير لعبيد بن عمير استقبل إبراهيم عليه السلام اليمن والمشرق والمغرب والشام فدعا إلى الحج فاجيب لبيك اللهم لبيك وذلك قوله عز وجل (وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر ياتين من كل فج عميق) الآيات فلم يزل البيت على ما بناه إبراهيم عليه السلام إلى سنة خمس وثلاثين من مولد نبينا محمد ﷺ وذلك قبل مبعثه بخمس سنين فهدمت قريش الكعبة ثم بنتها . وكان السبب فى ذلك على ما ذكره محمد بن إسحق وغيره من أهل الأخبار أن الكعبة كانت رضمة فوق القامة فارادوا رفعها وتسقيفها وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدة لرجل من تجار الروم فتحطمت فاخذوا خشبها فاعدوه لسقفها وكان بمكة رجل قبطى نجار فهيأ لهم فى أنفسهم بعض ما يصلحها وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التى يطرح فيها ما تهدى لها كل يوم فتشرف على جدار الكعبة وكانوا يهابونها وكانوا لا يدنوا منها أحد إلا كثرت وفتحت فاها فكانوا يهابونها فبينما هى ذات يوم على جدار الكعبة كما كانت تصنع فبعث الله طائراً فاختطفها فذهب بها وقالت قريش إنا لنرجوا أن الله تعالى قد رضى ما أردناه من عمارة بيته وأن عندنا عاملا رقيقاً وخشباً وقد كفانا الله تعالى الحية وذلك بعد حرب الفجار بخمس عشرة سنة فلما أجمعوا أمرهم على هدمها وبنائها قام أبو وهب بن عمرو بن عمير بن عامر بن عمرو بن مخزوم فتناول من الكعبة حجراً فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه فقال يامعشر قريش لا تدخلوا فى بنائها من كسبكم إلا طيباً ولا تدخلوا فيها من مهر بغى ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس ثم أن الناس هابوا هدمها فقال الوليد بن المغيرة أنا أبدأ لكم فى هدمها فاخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول اللهم لا نريد إلا الخير ثم هدم من ناحية الركنين فتربص الناس به تلك الليلة وقالوا ننتظره فإن أصيب لم نهدم منها شيئاً ورددناها كما كانت وإن لم يصبه شىء فقد رضى الله تعالى بما فعلنا فاصبح الوليد من ليلته غادياً على عمله فهدم وهدم الناس معه حتى انتهى الهدم إلى الأساس فافضوا إلى حجارة خضر كأنها أسنمة الإبل آخذ بعضها ببعض فادخل رجل من قريش عتلة بين حجرين منها ليقلع أحدهما فلما تحرك الحجر تحركت مكة باسرها فعلموا أنهم قد انتهوا إلى الأساس وقالوا أن القبائل قد اجتمعت

لبنائها

مهرها النفوس ولها تخضع الرقاب والرؤوس وهى تجلى على أهلها الأسرار وتصفو بها الأكدار وتروق معانى أبكار الأفكار وأى للمعارف نور وللجاهل ناراً إذا مزجت خمرة المحبة على أهل جنة الوصال ينعمون فيها بالغدو والآصال والحبيب يتجلى عليهم بلا حجاب وملائكة السرور يدخلون عليهم من كل باب فالذين يتلون كتاب الله طوبى لهم وحسن مآب متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب .

(وحكى عن يوسف ابن الحسين رحمه الله تعالى) أنه قال سمعت ذا النون المصرى رضى الله عنه يقول بينما أنا فى شوارع مصر إذ رايت جارية مسفرة عن وجهها وهى تمشى من غير خمار فقلت لها يا جارية أما تستحى من الله تعالى فقالت ياذا النون وما يصنع الخمار بوجه علاه الاصفرار قال ذا النون فقلت لها عساك تناولت شيئا من شراب القوم فقالت اسكت يا بطال شربت البارحة بكأس وده مسرورة فأصبحت بحبه مخمورة قال ذا النون فقلت لها يا جارية عسى فائدة منك أو وصية أحفظها عنك فقالت ياذا النون عليك بالكسوة حتى يتهموك أنك مبهوت

لبنائها فجعلت كل قبيلة تجتمع على حدتها ثم بنوا فلما بلغوا فى البنيان إلى موضع الركن اختصموا فيه فكل قبيلة أرادت أن تضعه فى صفة دون الأخرى حتى تجاهدوا وتحالفوا وتواعدوا للقتال فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ثم تعاقدوا هم وبنى عدى بن كعب على الموت وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فسموا لعقة الدم بذلك فمكثوا أربع ليال أو خمس ليال على ذلك ثم أنهم اجتمعوا فى المسجد وتشاوروا وتناصفوا فزعم بعض الرواة أن أبا أمية بن المغيرة كان حينئذ أسن قريش كلها فقال لهم يامعشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل عليكم من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه فرضوا بذلك وتواقفوا عليه فكان أول من دخل عليهم محمد ﷺ فلما رأوه قالوا هذا محمد الأمين قد رضينا به فلما انتهى إليهم وأخبروه بالخبر قال هلموا إلى ثوباً فأتوا به فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ثم قال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً ففعلوا ذلك حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه بيده ثم بنى عليه قالوا فكانت الكعبة كذلك على ما بنته قريش إلى أربع وستين من الهجرة حتى حاصر الحصين بن نمير السكونى عبد الله بن الزبير فقذفوا البيت بالمنجنيق وأخذوا يرتجزون ويقولون :

حظارة مثل الفنيق المزبد ترمى بها عيدان هذا المسجد

وقال آخر منهم :

كيف ترمى صنيع أم فروة تأخذهم من الصفا والمروة

أم فروة اسم منجنيق فمالت حيطان الكعبة مما رميت به من حجارة المنجنيق وإنما مع ذلك احترقت وكان السبب فيه إنهم كانوا يوقدون حولها فأقبلت شرارة هبت بها الريح فاحرقت باب الكعبة واحترق خشب البيت وقال بعضهم كان السبب فى ذلك أن امرأة كانت تبخر البيت فطارت شرارة من النار فاحترق البيت وكان أول ما تكلم الناس فى القدر يومئذ فقال قوم هو من قدرة الله وقال قوم ليس من قدرة الله قالوا فهدم عبد الله بن الزبير الكعبة حتى سواها بالأرض وكان الناس يطوفون بها من وراء الأساس ويصلون إلى موضعها وجعل الحجر الأسود عنده فى تابوت فى خرقة من حرير وجعل ما كان من حلى البيت وما وجد فيه من ثياب وطيب عند الحجبة فى خزانة البيت ثم أعاد بناءه وقال إن أم اسماء بنت أبى بكر حدثتنى أن رسول الله ﷺ قال لعائشة لولا حداثة عهد قومك بالكفر لرددت الكعبة على أساس إبراهيم فأزيل فى الكعبة الحجر وأن قريشاً أعوزتهم النفقة فاخرجوا الحجر من البيت وجعلت لها بابين باباً شرقياً وباباً غربياً فأمر به ابن الزبير فحفر فوجدوا فلاعاً أمثال الإبل فحركوا منها صخرة فبرقت برقة فقال أقروها على أساسها فبناها ابن الزبير وأدخل فيها الحجر وجعل لها بابين يدخل من أحدهما ويخرج من الآخر فكانت الكعبة على ما بناها ابن الزبير إلى سنة أربع وسبعين حتى قتل الحجاج بن يوسف الثقفى عبد الله بن الزبير وولى الحجاز من قبل عبد الملك بن مروان فنقد الحجاج بنيان الكعبة الذى كان بناه الزبير بأمر عبد الملك وأعادها إلى بنائها الأول بمشهد مشايخ من قريش فهى اليوم على ما بناها الحجاج إلا ما كان من قلع القرمطى صاحب البحرين لعنه الله الحجر الأسود عام يوم أوقع بالحجيج بمكة فذهب به مع من أسر من الحجاج إلى البحرين ثم أخذ منه ورد إلى موضعه وذلك على يد شيخنا أبى إسحق إبراهيم بن محمد ابن يحيى البرمكى النيسابورى رحمة الله عليه .

(الباب السادس فى ذكر أمر الله تعالى خليله عليه السلام بذبح ولده)

قال الله تعالى (فما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) واختلف السلف من علماء المسلمين فى الذى أمر إبراهيم عليه السلام بذبحه من إنيه بعد اجتماع أهل الكتاب عن أنه كان إسحق عليه السلام فقال قوم هو إسحق

قيل أوحى الله تعالى إلى نبيه داود عليه السلام يا داود أحبنى وأحب من يحبنى وحببنى إلى عبادى فقال داود يا رب كيف أحبك وأحب من يحبك وأحببك إلى عبادك فقال تذكرنى لهم وتذكر آلائى ونعمائى فإنهم لم يعرفوا منى إلا الجميل والإحسان .

قيل أوحى الله تعالى إلى نبيه الخليل عليه السلام يا إبراهيم إنك لى خليل وأنا لك خليل فاحذر أن اطلع على قلبك فأجده مشغولا بغيرى فينقطع حبك منى إنما أختار لحبى من لو أحرقته بالنار لم يلتفت قلبه عنى ولم يشتغل بغيرى فإذا كان كذلك أسكنت محبتى فى قلبه فتوارت عليه الطافى فقربته منى ووهبته محبتى فأى نعيم يعدل ذلك عندى وأى شرف أشرف منه لدى فوعزتى لأشفين صدره بالنظر إلى وذلك أنى محب لمن أحبنى

(إخوانى) إذا كانت محبته سبقت للعبد بالعناية القديمة كيف لا يسلك العبد الطريق المستقيمة كما قيل أن الله تعالى يقول يا جبريل أتم فلاناً وأيقظ فلاناً فالمحب بين يدى محبوبه قائم ولخدمته ملازم وفى حبه هائم فما عليه من العاذل واللائم (شعر) :

يا عاذل القلب فى صبابته
فالحب معنى ولست تدريه
وفى ضميرى من لا أبوح به
وفى فؤادى من لا أسميه
قد أدهش الطوف فى محاسنه
وحير القلب فى معانيه
محجب والقلوب تشتهاه
مغيب والغرام يبديه
ووجهه حيث كنت واجهنى
لا شىء يخفيه أو يواريه
إن جئته ضارعاً فيا أملى
يقول لبيك فى تعاليه
ها أنا دان ومنك مقترب
فخذ من الوصل ورد صافيه

(وعن ذى النون المصرى) رحمه الله تعالى أنه قال رأيت فى ظاهره الجنون وباطنه الفنون فعلمت أنه محب مولا مفتون فسمعته يبكى ويقول فى مناجاته مولاى قربت المحبين وطردتنى فما ذنبى وخصصتهم بالوصل منك وهجرتنى فواكربى وأيقظتهم للقيام بين يديك وأنمتنى فداندى ولذتهم فى السحر بمناجاتك وما لذذتنى فوا ألمى ثم أخذ فى البكاء والنحيب قال ذو النون فحرك منى ما كان ساكناً وهيج من شوقى ما كان كامناً فقلت له يافتى ماهذا البكاء فقال ياذا النون أخبرنى سواد الثوب يزول بالماء والصابون وسواد القلب يزول بماذا قال ذو النون فقلت أنا والله فى طلب ما أنت فى طلبه وما وقعت منه إلا فى الحيرة والتيه

وإليه ذهب من الصحابة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعلى بن أبى طالب ومن التابعين وأتباعهم كعب الأحبار وسعيد بن جبير والقاسم بن أبى برة ومسروق بن الأجدع وعبد الرحمن بن أبى سابط وأبو المديل والزهرى والسدى . وروى سفيان عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده قال قال موسى عليه السلام يارب يقولون يا إله إبراهيم وإسحق ويعقوب فلم قالوا ذلك فقال أن إبراهيم لم يعدل بى شيئاً قط إلا اختارنى عليه وأن إسحق جاد لى بالذبح فهو بعد ذلك أجود وأن يعقوب كلما زدته بلاء زادنى حسن . وروى حمزة بن الزيات عن أبى إسحق عن أبى ميسرة قال قال يوسف عليه السلام لملك مصر أترغب أن تأكل معى وأنا والله يوسف بن يعقوب نبى الله بن إسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله وقال الآخرون هو إسماعيل وإلى هذا القول ذهب عبد الرحمن بن عمرو وأبو الطفيل عامر بن واثلة وسعيد بن المسيب والشعبى ويوسف بن مهران ومجاهد وكان الشعبى يقول رأيت قرنى الكبش منوطين بالكعبة . وروى محمد بن إسحق عن محمد بن كعب القرظى أنه كان يقول أن الذى أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من إبنيه إسماعيل وإنا لنجد ذلك فى كتاب الله تعالى فى قصة الحق عن إبراهيم عليه السلام وما أمر به من ذبح إبنه أنه إسماعيل وذلك أن الله عز وجل يقول حين فرغ من قصة المذبوح من إبنى إبراهيم وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين وقال تعالى فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب يقول يا إبن وابن ابن فلم يكن يأمره بذبح إسحق وله فيه من الله تعالى من الموعود ماوعده وما الذى أمر بذبحه إلا إسماعيل قال محمد بن كعب القرظى فذكرت ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كنت معه بالشام فقال لى عمر إن هذا الشىء ما كنت أنظر فيه وإنى لأراه كما قلت ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام وكان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه وكان يرى أنه من علماء اليهود فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك وأنا عنده فقال له أى إبنى إبراهيم الذى كان أمر بذبحه فقال إسماعيل ثم قال والله ياأمير المؤمنين أن اليهود لتعلم ذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أبوكم الذى كان أمر الله بذبحه لما فيه من الفضل الذى ذكر أنه كان منه بصبره على ما أمر به فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحق لأن إسحق أبوهم وقد روى عن رسول الله ﷺ كلا القولين ولو كان فيهما قول صح بالإجماع لم يعزه أبو عبد الله إلى غيره فأما الرواة التى روت أن الذبيح إسحق فأخبرنى أبو عبد الله بن الحسين بن محمد عن العباس بن عبد المطلب قال قال رسول الله ﷺ الذى أراد إبراهيم أن يذبحه إسحق وعنه ﷺ الذى فداه الله بذبح عظيم إسحق وأخبرنا أبو عبد الله أحمد ابن حمدان أخبرنا يوسف بن عبد الله بن هامان أخبرنا موسى بن إسماعيل أنبأنا المبارك عن الحسن عن الأحنف بن قيس عن العباس بن عبد المطلب عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ يشفع إسحق بعدى فيقول يارب صدقت نبيك وجدت بنفسى للذبح فلا تدخل النار من لا يشرك بك شيئاً قال فيقول الله وعزتى لا أدخل النار من لا يشرك بى شيئاً وأخبرنا أبو طاهر محمد بن الفضل بن محمد ابن إسحق المزنى قرأت عليه سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة أنبأنا جدى أبو بكر بن محمد بن إسحق ابن خزيمة أمام الأئمة أنبأنا على بن حجر أنبأنا عمر بن حفص عن إبان عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ إن الله خيرنى بين أن يغفر لنصف أمتى وبين أن أختبىء شفاعتى ورجوت أن يكون ذلك أعم لأمتى ولولا الذى سبقنى إليه العبد الصالح لتعجلت منها دعوتى وذلك أن الله تعالى لما فرج عن إسحق كرب الذبح قيل له يا إسحق سل تعط فقال أما والذى نفسى بيده لأتعجلنها قبل نزعة الشيطان اللهم من مات لا يشرك بك شيئاً فاغفر له وأدخله الجنة وأما الرواة التى روت عنه ﷺ أن الذبيح إسماعيل فروى عمر بن عبد الرحمن الخطابى بإسناده عن الصباحى قال كنا عند معاوية ابن أبى سفيان فذكروا أن الذبيح إسمعيل أو إسحق فقال على الخبير سقطتم كنت عند رسول الله ﷺ فجاء رجل فقال يارسول الله أعد على ما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين فقال أن عبد المطلب لما حفر زمزم

نذر لربه إن سهل عليه أمرها ليذبحن أحد ولده فقال نخرج السهم على عبد الله فسمعه أحواله وقالوا له افد ولدك بمائة من الإبل ففداه بمائة من الإبل والثانى إسماعيل فهذا ما ورد من الأخبار وفى القرآن ما يدل على صحة كل واحد من القولين فأما الدليل على أنه إسحق فهو أن الله تعالى أخبر إبراهيم عليه السلام حين فارق قومه مهاجرا إلى الشام مع سارة ولوط وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين أنه دعا فقال رب هب لى من الصالحين يعنى ولدا صالحاً من الصالحين وذلك قبل أن يعرف هاجر وقبل أن تصير له أم إسمعيل ثم اتبع ذلك الخبر عن إجابة دعوته وتبشيره إياه بغلام حليم وعن رؤيا إبراهيم أن يذبح ذلك الغلام الذى بشر به حين بلغ معه السعى وليس فى القرآن أنه بشر بولد ذكر إلا بإسحق وأما الدليل على أنه إسمعيل فما ذكرناه من حديث القرنين وقد صح الخبر أن قرنى الكبش كانا معلقين بالكعبة إلى أن احترق البيت فاحترق القرنان فى أيام ابن الزبير والحجاج وهذا أدل دليل على أن الذبيح إسماعيل .

(وأما قصة الذبح وصفته وفعل إبراهيم بابنه عليهما السلام) قال السدى بإسناده لما فارق إبراهيم الخليل عليه السلام قومه مهاجراً إلى الشام هارباً بدينه كما قال تعالى إنى ذاهب إلى ربى سيهدين دعا الله أن يهب له إبناً صالحاً من سارة فقال رب هب لى من الصالحين فلما نزل به اضيافه من الملائكة المرسلين إلى المؤتفكة بشروه بغلام حليم فقال إبراهيم لما بشر به هو إذا لله ذبيح فلما ولد الغلام وبلغ معه السعى قيل له أوف بنذرك الذى نذرت قرباناً إلى الله تعالى وكان هذا هو السبب فى أمر الله خليله إبراهيم عليه السلام بذبح إبنه فقال إبراهيم عند ذلك لإسحق انطلق نقرب قرباناً إلى الله تعالى وأخذ سكيناً وحبلا ثم انطلق معه حتى ذهب بين الجبال فقال له الغلام يا أبت أين قربانك فقال يا بنى إنى أرى فى المنام إنى أذبحك أى رأيت لفظه مستقبلا ومعناه الماضى فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين قال ابن إسحق كان إبراهيم إذا زار هاجر وإسمعيل حمل على البراق فيغدو من الشام فيقيل بمكة ويرجع من مكة فيبيت عند أهله بالشام حتى إذا بلغ إسماعيل معه السعى وأخذ نفسه ورجاه لما كان يأمل فيه من عبادة ربه وتعظيم حرمانه رأى فى المنام أن يذبحه فلما أمر بذلك قال لإبنه يا بنى خذ الحبل والمدية ثم انطلق إلى هذا الشعب لتحتطب فلما خلا إبراهيم بابنه فى شعب ثبير أخبره بما أمر به وقال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك الآية فقال له إبنه الذى أراد أن يذبحه يا أبت اشدد رباطى حتى لا أضطرب وأكفف عنى ثيابك حتى لا يتنضح عليها دمى فينقص أجرى وتراه أمى فتحزن واشحذ شفرتك واسرع بمر السكين على حلقى ليكون أهون للموت على فإن الموت شديد فإذا أتيت أمى فاقرئها منى السلام فإن رأيت أن ترد قميصى إليها فافعل فإنه عسى أن يكون أسلى لها عنى فقال إبراهيم نعم العون يا بنى أنت على ما أمر الله به ففعل إبراهيم ما أمره إبنه ثم إنه أقبل عليه يقبله وقد ربطه وهو يبكى والإبن يبكى حتى استنبع الدموع تحت خده ثم إنه وضع السكين على حلقه فلم يجزع ولم تعمل السكين شيئاً قال السدى وضرب الله صفيحة من نحاس على حلقه فقال عند ذلك الإبن يا أبت كبنى على وجهى فإنك إذا نظرت إلى وجهى رحمتنى وأدركتك على رقة تحول بينك وبين أمر الله ففعل إبراهيم ذلك فذلك قوله تعالى (فلما أسلما وتله للجبين) ثم إنه وضع السكين على قفاه فانقلبت ونودى يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا الآية هذه ذبيحتك فداء لإبنك فاذبحها دونه فنظر إبراهيم عليه السلام فإذا هو بجبريل عليه السلام ومعه كبش أعين أملح أقرن

وأنشد يقول شعراً :

رأى سوادى فقلت ويلى أشد منه سواد قلبى

طلعت منه لذاك غيلا

فقال ليس لى ذا بصعب

كذاك قلبى به سواد

فازددت كرباً لعظم كربى

(إخوانى) سكنت نار المحبة فى القلوب فاستنارت بأنوار المحبوب قال بعضهم سبعة أشياء لا تتم معرفة الرب إلا بها إخلاص النية لله عز وجل وصدق العزيمة مع الله والصدق فى الله والشوق إلى الله وحسن الظن بالله والخوف من الله فهذه السبعة لا تتم معرفة الله إلا بها كما أن المصباح لا توقد إلا بسبعة أشياء لا بد منها للزناد والحجر والحراق والكبريت والمسرجة والزيت والفتيلة فبدون هذه السبعة أشياء لا سبيل إلى إيقاد المصباح فإذا أردت يا هذا إيقاد مصباح قلبك بمشاهدة ربك فلا بد من زناد المجاهدة وحجر المكابدة وإحراق الأشواق وكبريت المحبة ومسرجة التوكل وزيت الشكر وفتيلة الصبر ثم تعلق المصباح فى سلاسل التضرع إلى ربك فعند ذلك يتوقد نور فى قلبك .

(وحكى عن محمد بن أحمد المقيد رحمه الله تعالى) أنه قال سمعت الجنيد رضى الله تعالى عنه يقول كنت دائماً عند السرى السقطى رضى الله تعالى عنه ليلة من

الليالى فأيقظنى وقال يا جنيد رأيت كأنى وقفت بين يدى الله تعالى فقال يا سرى خلقت الخلق فادعى كلهم محبتى وخلقت الدنيا فهرب منى تسعة أعشارهم وبقى العشر وخلقت الجنة فهرب منى تسعة أعشار العشر وبقى عشر العشر فسلطت عليهم ذرة من البلاء فهرب منى تسعة أعشار عشر العشر وبقى عشر عشر العشر فقلت للباقين لا إلى الدنيا أردتم ولا إلى الجنة طلبتم ولا من البلاء هربتم فما الذى تريدون وما الذى تطلبون فقالوا أنت المراد ولو قطعتنا بالبلاء لم نحل عن المحبة والوداد فقلت لهم إنى مسلط عليكم من البلاء والاموال ما لا تقوم بحمله الجبال أتصبرون على البلاء قالوا بلى إذا كنت أنت المبلى لنا فافعل ماشئت بنا فهؤلاء عبادى حقاً وأحبابى قصداً (إخوانى) البلاء موكل بالمحبين قد أضنى منهم الأجساد ولم تمكن من القلوب فلا يزالون كذلك حتى يصلوا إلى المحبوب وأنشد بعض العارفين يقول شعراً:

بنى الله للأحباب بيتاً سماؤه
هموم وأحزان وحيطانه الضر
وحصباؤه كرب وغم وسقفه
سقام وآلام يضيق بها الصدر
وأدخلهم فيه وأغلق بابه

فكبر الكبش وكبر إبراهيم عليه السلام وكبر إبنه فذلك قوله تعالى (وفديناه بذبح عظيم) قال سعيد بن جبير وغيره عن ابن عباس خرج عليه الكبش من الجنة فرعى فيها أربعين خريفاً وروى عنهما أيضاً أن الكبش الذى فدى به عن إبراهيم عليه السلام هو الكبش الذى قربه هابيل بن آدم فتقبل منه فأرسل إبراهيم إبنه وأخذ الكبش وأتى به المنحر من منى فذبحه فو الذى نفس ابن عباس بيده لقد كان أول الإسلام وأن رأس الكبش لمعلق بقرنيه من ميازيب الكعبة وقد وحش يعنى يبس وروى عمر بن عبيد عن الحسن عن أبيه أنه كان يقول مافدى إسمعيل إلا بكبش من الأروى أهبط عليه بثبير وهى رواية أبى صالح عن ابن عباس قال كلا وعلا (وروى) أبو هريرة عن كعب الأحبار وابن إسحق عن رجال قالوا لما رأى إبراهيم فى المنام أنه يذبح إبنه قال الشيطان والله لئن لم أفتن أنا آل إبراهيم وإلا لم أفتن أحداً منهم أبداً فمثل لهم الشيطان رجلا فأتى أم الغلام فقال لها أتذرين أين ذهب إبراهيم بإبنك قالت ذهب به ليحتطب من هذا الشعب فقال لا والله ماذهب إلا ليذبحه قالت كلا هو أرحم به منى وأشد حياء من ذلك فقال لها إنه يزعم أن الله أمره بذلك فقالت له إن كان أمره بذلك فقد أحسن امتثال طاعة ربه وفى استسلامه لأمر الله تعالى فخرج الشيطان من عندها هاربا حتى أدرك الإبن وهو يمشى على أثر أبيه فقال يا غلام هل تدرى أين يذهب بك أبوك قال يحتطب لأهلنا من هذا الشعب قال لا والله ما يريد إلا ذبحك قال ولما قال يزعم أن الله أمره بذلك قال فليفعل ما أمره الله به فسمعاً وطاعة لأمر الله تعالى فلما امتنع منه الغلام أقبل على إبراهيم فقال له أين تريد أيها الشيخ قال أريد هذا الشعب لحاجة إلى فقال والله إنى لأرى الشيطان قد جاءك فى منامك يأمرك بذبح إبنك هذا فعرفه إبراهيم فقال له إليك عنى ياملعون فوالله لأمضين إلى أمر ربى فرجع إبليس لعنه الله بغيظه لم يصب من إبراهيم وأهله شيئاً مما أراد وقد امتنعوا منه بعون الله وتأييده وروى أبو الطفيل عن ابن عباس رضى الله عنهما أن إبراهيم عليه السلام لما أمر بذلك عرض له إبليس عند المشعر الحرام فسابقه فسبقه إبراهيم عليه السلام ثم ذهب إلى جمرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم أدركه عند الجمرة الكبرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم أدركه عند الجمرة الكبرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم مضى إبراهيم عليه السلام لأمر الله تعالى فهذه قصة الذبح وقال أمية بن أبى الصلت الثقفى فى ذلك شعراً:

ولإبراهيم الوفى بنذره احتسابا وحامد الأجزال يكره لم يكن ليصبر عنه
لو رآه فى معشر اقتتال إبنى إنى نذرتك لله شحيطاً فاصبر فذلك حالى
واشدد العضد عند جبذى للسكين جبذ الأسير للأغلال وله مدية تقابل فى اللحم
غلاماً جبينه كالهلالى بينما يخلع السراويل عنه فكه ربه بكبش حلال

فخذن ذا فدا لإبنك إنى للذى قد فعلتما غير قالى
وبما تجزع النفوس من الأمر له فرجة كحل العقالى

(الباب السادس فى هلاك النمروذ بن كنعان وما أحل الله تعالى به من نقمته وقصة الصرح)

قال الله تعالى (قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون).

(روت الرواة) بأسانيد مختلفة أن أول جبار كان فى الأرض النمروذ بن كنعان وكان الناس يخرجون ويمتارون من عنده الطعام فخرج إليه إبراهيم يمتار مع من يمتار وكان النمروذ إذا مر به الناس قال لهم من ربكم قالوا أنت حتى مر به إبراهيم قال له من ربك قال ربى الذى

محى و يميت قال أنا أحيى و أميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر ورد إبراهيم بغير طعام فرجع إبراهيم إلى أهله فر بكثيب اعفر فقال لآخذن هذا فآتى به اهلى فتطيب به قلوبهم حين أن أدخل عليهم فأخذه إبراهيم منه فأتى به أهله فوضع متاعه ثم نام فقامت امرأته إلى متاعه وفتحته فاذا هو بأجود دقيق رأته فأخذته وصنعت منه طعاما فلما أفاق قدمته اليه وكان عهد أهله أن ليس معهم شىء ولا عندهم طعام فقال لهم من أين هذا فقالت من الطعام الذى جئت به فعلم إبراهيم أن الله رزقه فحمد الله وشكره ثم أن النمروذ الجبار لما حاجه إبراهيم عليه السلام فى ربه قال إن كان ما يقول إبراهيم حقا فلا انتهى حتى أعلم من فى السماء فبنى صرحا عظيما عاليا ببابل ورام منه الصعود إلى السماء لينظر إلى إله إبراهيم فيما يزعم قال ابن عباس ووهب كان طول الصرح من السماء خمسة آلاف ذراع وقال مقاتل وكعب كان طوله فرسخين ثم عمد إلى أربعة أفراخ من النسور فعلفها اللحم والخبز وربّاها حتى شبت واستفحلت ثم قعد فى تابوت ومعه غلام وقد حمل قوسه ونشابه وجعل لذلك التابوت بابا من أعلاه وبابا من أسفله ثم ربط التابوت بأرجل النسور وعلق اللحم على عصا فوق التابوت ثم خلى عن النسور فطارت وصعدت طمعا فى اللحم حتى أبعدت فى الهواء فقال النمروذ لفتاه افتح الباب الأعلى وانظر إلى السماء هل قربنا منها ففتح الباب الأعلى ونظر فاذا السماء على هيئتها ثم قال افتح الباب الأسفل فانظر إلى الأرض كيف تراها ففتح فقال أرى الأرض مثل الحبة البيضاء والجبال كالدخان وطارت النسور وارتفعت حتى حالت الريح بينهما وبين الطيران فقال لغلامه افتح البابين ففتح الأعلى فاذا السماء كهيئتها وفتح الباب الأسفل فاذا الأرض سوداء مظلمة ونودى أيها الطاغى أين تريد قال عكرمة فأمر عند ذلك غلامه فرمى بسهم فعاد اليه السهم ثم أن الله تعالى أرسل ريحا على صرح النمروذ فالقت رأسه فى البحر فخر عليهم الباقى وانقلبت بيوتهم وأخذت النمروذ رعدة وتبلبلت ألسن الناس حين سقط صرح النمروذ من الفزع فتكلموا بثلاث وسبعين لسانا فلذلك سميت بابل لتبلبل الألسنة فيها فلذلك قوله تعالى (فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) وذلك أن الله تعالى بعث إلى النمروذ أن آمن حتى أتركك على ملكك قال فهل رب غيرى فجاءه الثانية والثالثة فأبى عليه فقال له الملك اجمع جموعك إلى ثلاثة أيام فجمع النمروذ جموعه وجنوده فأمر الله تعالى أن يفتح عليه بابا من البعوض ففعل فطلعت الشمس ذلك اليوم فلم يروها من كثرة البعوض فبعثها الله تعالى على النمروذ وقومه فأكلت لحومهم وشربت دماءهم فلم يبق منهم إلا العظام والنمروذ كما هو لم يصبه شىء من ذلك فبعث الله إليه بعوضة فدخلت فى منخره حتى وصلت إلى دماغه فمكث أربعمائة سنة تضرب رأسه بالمطارق فارحم الناس به من جمع يديه ثم يضرب بهما رأسه وكان جبارا أربعمائة سنة فعذبه الله أربعمائة سنة كمدة ملكه ثم أن البعوضة أكلت دماغه وأهلكه الله سبحانه وتعالى وخذله .

(الباب السابع فى ذكر وفاة سارة وهاجر)

(وذكر وفاة أزواج إبراهيم وولده)

قال الله تعالى (أتعجبن من أمر الله رحمة الله وبركاته) الآية قال أهل العلم باخبار الماضين ماتت سارة وهى ابنة مائة وسبع وعشرين سنة بالشام بقرية الجبابرة من أرض كنعان فى حبرون فى مزرعة إشتراها إبراهيم عليه السلام ودفنت بها وكانت هاجر ماتت قبل سارة بمكة فدفنت فى الحجر

(الباب الثامن فى ذكر وفاة إبراهيم عليه السلام)

قال أهل التاريخ والسير لما أراد الله تعالى قبض روح إبراهيم عليه السلام أرسل إليه ملك الموت فى صورة شيخ هرم قال السدى بإسناده وكان إبراهيم كثير الاطعام يطعم الناس ويضيفهم

وقال لهم مفتاح بيتكم الصبى

(وعن إبراهيم الخواص رضى الله تعالى عنه) ونفعنا به أنه قال كان عتبة الغلام من الخواص المعروفين بالإخلاص وكان يزورنى فى بعض الأيام والليالى وكان صائم الدهر قائم الليالى فبات عندى ليلة فقدمت اليه العشاء ليفطر عليه فلم يفطر عندى إلا على الماء فلما صلى العشاء الأخيرة أحرم وقام يصلى إلى السحر فسمعته يقول فى مناجاته سيدى إن تعذبنى فانا لك محب وإن ترحمنى فانا لك محب ثم بكى وشهق شهقة عظيمة وخر مغشيا عليه فلما افاق قلت له ياعتبة كيف كانت ليلتك فصرخ صرخة عظيمة ثم قال يا إبراهيم ذكر العرض على أسرع الحاسبين فقطع أوصال المحبين ثم غشى عليه فلما أفاق رفع رأسه وقال ياسيدى أتراك تعذب من أحبك بالنيران أو تبتلى قلبه بالهجران فسمع هاتفا يقول حاشاه أن يعذب من أحبه واجتباه واختاره واصطفاه وأنشد يقول شعرا

فى وصف حبك مايغنى عن العذل
وفى حديثك مايلهى عن العذل
ملكت كلى فكلى منك مشتمل
فالأمر أمرك ليس الأمر من قبلى

وحق حبك ما قلبي بمنقلب
إلى سواك وما حبي بمرتحل
ولو سفكت دمي عمدا بلا
سبب
لكان عين الرضا حقا بلا
ملل

(وعن أبي بكر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه) أنه قال تهت في بادية العراق أياما فلم أجد أحداً أرافقه فبينما أنا سائر ذات يوم إذ رأيت خيمة من شعر لبعض العرب فقصدتها فاذا على باب تلك الخيمة مترمسيل فسلمت على من في الخيمة فردت على السلام عجوز من داخل الخيمة ثم قالت من أين الرجل قلت من مكة قالت وأين تريد قلت الشام فقالت أرى سبحك سبح البطالين هلا لزمت زاوية تعبد الله فيها ثم قالت هل تحسن شيئا من القرآن قلت نعم فقالت اقرأ على آخر سورة الفرقان قال فقرأتها فصرخت صرخة عظيمة وغشي عليها فلما افاقت قرأت على آيات فاقشعر جسدي لقراءتها ثم قالت اقرأ على ثانيا ما قرأته قال فقرأتها فلم تحقها مثل ما حققتها في المرة الأولى ثم مكثت طويلا فقلت في نفسي أترى ماتت أم لا فرجعت ذاهبا وتركتها مقدار نصف ميل فأشرفت على وادفيه عربان فابتدرني غلامان ومعهما جارية فقال لي أحدهما أنت على

فبينما هو يطعم الناس إذا بشيخ كبير يمشي في الجادة فبعث اليه بحمار فركبه فلما أتاه قدم إليه الطعام فجعل الشيخ يأخذ اللقمة ويريد أن يدخلها فاه فيدخلها في عينه مرة وفي أذنه مرة ثم إذا أدخلها في فيه وحصلت في جوفه خرجت من دبره وكان إبراهيم قد سأل ربه أن لا يقبض روحه حتى يكون هو الذي يسأل الموت فقال للشيخ حين رأى حاله ما بالك ياشيخ تصنع هكذا فقال يا إبراهيم من الكبر قال ابن كم أنت قال كيت وكيت فحسب إبراهيم فوجد عمره يزيد على عمر إبراهيم بسنتين فقال له إبراهيم إنما بيني وبينك سنتان فاذا بلغت عمرك صرت مثلك قال نعم فقال إبراهيم اللهم اقبضني قبل ذلك فقام الشيخ فقبض نفسه وكان الشيخ ملك الموت وكان عمر إبراهيم مائتي سنة وقيل مائة وخمس وتسعون سنة ودفن عند قبر سارة في مزرعة حبرون

(الباب التاسع في ذكر خصائص إبراهيم عليه السلام)

هو إبراهيم خليل الرحمن قال الله تعالى (واتخذ الله إبراهيم خليلا) وهو سيد الفتيان (روى) في الحديث أنه قيل للنبي ﷺ ياسيد البشر قال ذاك إبراهيم وهو أبو الضيفان وكان لا يتغذى ولا يتعشى إلا مع ضيف وربما مشى ميلين أو أكثر حتى يجد ضيفا وضيافته قائمة إلى يوم القيامة زهي الشجرة المباركة التي قال الله تعالى يوقد من شجرة مباركة الآية وصح أنه دعا الله تعالى أن يجعل النبوة في نسله فاستجاب له النبوة في شعبي اسماعيل واسحق عن أنس بن مالك قال رسول الله ﷺ بعثت على ثمانية آلاف نبي أربعة آلاف من بني إسرائيل وهو المجهول له لسان الصدق في الآخرين فليس من نبي تجري ألسنة الخلق كلهم بتصديقه وتفضيله وتبجيله كل أمة غيره وذلك بدعائه عليه السلام وأجعل لي لسان صدق في الآخرين وهو المبتلى بأنواع البلاء والمشهود له بالوفاء قال الله تعالى (وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن) وقال (وإبراهيم الذي وفى) أي بما أمر به وهو الأمة القانت قال الله تعالى (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين) إلى آخر الآية ومعنى الأمة أنه كان معلما للخير وقد اجتمع فيه من خلال الخير وأنواع الفضل ما يجمع في أمة كما قال الشاعر:

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

وهو الذي أوتي رشده من قبل بلوغه وهو أمام الموحدين وجعل له لسان الحجة في التوحيد فدعا الخلق إلى الحق بلسان الحجة من صغره إلى كبره قال الله تعالى (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم) الآية وأول من سماه حنيفا مسلما قال الله تعالى (ولكن كان حنيفا مسلما) وأبرأه من دعاوى اليهود والنصارى وشهد له بالإسلام والاخلاص فقال ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا الآية وهو أول من أختتن (وأخبرنا) الحسين بن محمد بن فتحويه أخبرنا محمد بن مخلد بن جعفر أخبرنا الحسن بن علويه أخبرنا اسماعيل بن عيسى أخبرنا اسحق بن بشر عن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال أن إبراهيم أول من أضاف الضيف وأول من ثرد الثريد وأول من لبس النعلين وأول من قسم الفيء وأول من قاتل بالسيف وأول من اختتن واختتن على رأس مائة وعشرين سنة من ميلاده ختن نفسه في موضع يقال له القدوم بالقدوم وهو الفاس وذلك أنه كان وقع بينه وبين العمالقة وقعة عظيمة فقتل من الفريقين خلق عظيم فلم يعرف إبراهيم أصحابه ليدفنهم فجعل الختان علامة لأهل الإسلام فاختتن يومئذ بالقدوم وهو أول من اتخذ السراويل أخبرنا الحسن الدينوري أخبرنا أحمد بن شداد بن عمر بن أحمد القطان أخبرنا محمد بن اسماعيل بن حسان أخبرنا وكيع أخبرنا جرير بن حازم عن واصل مولى بن عيينة قال أوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه السلام يا إبراهيم إنك أكرم أهل الأرض على فاذا سجدت فلا تر الأرض عورتك فاتخذ السراويل وهو من شاب فلما رآه هاله ذلك فقال يارب ماهذا قال الوقار فقال يارب زدني وقارا وهو أول من قام المناسك وذلك بدعوته حيث قال وأرنا مناسكنا

فاستجيب

فاستجيب له وهو أول من ضحى وهو الذى بوأ الله له مكان البيت وأراه ذلك بعد دروسه حتى بناه قال الله تعالى (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت) الآية وهو أول من ألقى فى النار فجعلت النار عليه برداً وسلاماً وهو أول نبى أحيا الله له الموتى بسؤاله حيث قال رب أرنى كيف تحيى الموتى الآية وهو الذى كان إذا سافر وتمنى سارة واشتاق اليها رفع الله له الحجاب بينه وبينها حتى يراها حيث كان وهو الذى يكسى حلة بيضاء يوم القيامة ويوضع له منبر عن يسار عرش الرحمن قال النبى عليه الصلاة والسلام يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا بهما وأول من يكسى إبراهيم خليل الرحمن وهو الكفيل لأطفال المسلمين والقائد لأهل الجنة وهو أول من قص شاربه وأول من قلم أظافره وأول من استحد وأول من نتف الآبط وأول من استاك وأول من فرق شعره وأول من تمضمض وأول من استنشق وأول من استنجى بالماء وأول من هاجر لله تعالى (فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى) وجعل مقامه قبلة للناس قال الله تعالى (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وجعله إماما للناس قال الله تعالى إنى جاعلك للناس إماما وقال تعالى (قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم) وأن محمداً خير الأنبياء وأمته خير الأمم باتباع ملته قال الله تعالى ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وقال قل بل ملة إبراهيم حنيفا وسماه حليما منيباً أواها قال الله تعالى (إن إبراهيم لحليم أواه منيب) الحليم السيد الذى يملك نفسه عند الغضب والأواه الذى يكثر التأوه عند ذكر الذنوب والمنيب المقبل بقلبه إلى ربه فهذه ستة وأربعون خصلة من خصاله التى أكرمه الله بها (ويروى) أن الله تعالى أوحى إلى إبراهيم يا إبراهيم أنك لما سلمت مالك إلى الضيفان وابنك إلى القربان ونفسك إلى النيران وقلبك إلى الرحمن اتخذناك خليلا (وروى) أبو ادريس الخولانى عن أبى ذر الغفارى قال قلت يارسول الله كم كتابا أنزله الله تعالى قال مائة صحيفة وأربعة كتب أنزل الله تعالى على آدم عشر صحائف وعلى شيث خمسين صحيفة وعلى إدريس ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان قال فقلت يارسول الله فما كانت صحف إبراهيم قال كانت أمثالا كلها أيها الملك المبتلى المسلط المغرور إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولكنى بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم فانى لا أردها ولو كانت من كافر وكان فيها أمثال على العاقل مالم يكن مغلوبا على عقله أن يكون له أربع ساعات ساعة يناجى فيها ربه وساعة يتفكر فيها فى صنع الله تعالى وساعة يحاسب فيها نفسه على ما قدم وأخر وساعة يخلو فيها لحاجته من الحلال والحرام فى المطعم والمشرب وغيرهما وعلى العاقل أن لا يكون ظاعنا إلا فى ثلاث تزود لمعاده ومؤنة لمعاشه ولذة فى غير محرم وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه مقبلا على شأنه حافظا للسانه ومن علم أن كلامه شر من عمله قل كلامه فيما لا يعنيه والله عن كل محذور يغنيه

(مجلس فى ذكر بعض أخبار اسمعيل واسحق ابنى إبراهيم عليهم السلام)

وقد ذكرنا سير ابراهيم الخليل بابنه إسمعيل وهاجر إلى مكة واسكانه إياها ولما كبر إسمعيل وبلغ النكاح تزوج امرأة من جرهم فكان من أمرها ما قدمنا ذكره ثم طلقها بامر أبيه ثم تزوج امرأة أخرى يقال لها السيدة بنت مضاض بن عمر والجرهمى وهى التى قال لها إبراهيم حين قدم مكة إذا جاء زوجك فاقرئيه منى السلام وقولى له قد استقامت عتبة بابك فولدت السيدة لإسمعيل اثنى عشر رجلا نابتا وقيدار وادبل وبسام ومسمع وذوما ومسا وحراه وفيما وبطور ونافس وقيدما ومن نابت وقيدار ابنى إسمعيل نشر الله تعالى العرب ثم نبأ الله تعالى إسمعيل فبعثه إلى العمالق وقبائل اليمن فلما حضرت إسمعيل الوفاة أوصى إلى أخيه إسحق أن يزوج ابنته من عيص بن اسحق وعاش اسمعيل مائة وسبعة وثلاثين سنة ودفن بالحجر عند قبر أمه هاجر (وروى) عمر بن عبد العزيز انه قال شكا اسمعيل إلى ربه تعالى حر مكة فاوحى الله تعالى اليه إنى فاتح لك بابا من الجنة يجرى عليك ريحها إلى يوم القيامة وفى ذلك المكان دفن. وأما حديث اسحق عليه السلام فانه نكح رفقا بنت بتويل فولدت له عيصا ويعقوب بعد ما مضى

الخيمة الشعر التى فى الفلاة قلت نعم قال أيها حس يسمع قلت لا فقال مانت ورب الكعبة فمضيت. مع الغلامين حتى انتهينا إلى الخيمة ودخلت الجارية فكشف عن وجه العجوز فاذا هى ميتة فتعجبت من ذلك ثم قلت للجارية من هذان الغلامان فقالت هما شزبفان جعفريان وهذه أختهما ولها منذ ثلاثين سنة لم تستأنس بكلام أحد من الناس وإذا نزلوا بواد اعتزلت عنهم بعيدا وضربت خيمتها فى الفلاة فكانت تأكل فى كل ثلاثة أيام مرة واحدة رضى الله عنها (إخوانى) إلى متى تشتغلون باللذات الفانيات عن الباقيات الصالحات فبادروا إلى الأوقات واستدركوا الهفوات وكفوا عن الشهوات أما أيقظكم منادى الشتات أما هزكم حديث الصالحين والصالحات إذا جاء النهار قطعوه بمقاطعة اللذات وإذا أقبل الليل ضجوا بحنين الأصوات ليس لهم إلى غير محبوبهم التفات

(شعر)

حياتنا باطل غرور
عمرنا ذاهب قصير
والناس فى غفلة نيام
وقد دعتهم لها القبور
والعمر يمضى وليس ندرى
مثل سنين بنا تدور
يانفس ماسر فهو حزن

من عمره ستون سنة ولها قصة عجيبة على ماذكره السدى قال حملت رفقا فى بطن واحد بغلامين فلما أرادت أن تضع اقتتل الغلامان فى بطنها فأراد يعقوب أن يخرج قبل عيص فقال عيص لئن خرجت قبلى لاعترضن فى بطن أمى فاقتلها فتأخر يعقوب وخرج عيص قبله فسمى عيصا لأنه عصى فخرج قبل يعقوب وسمى الآخر يعقوب لأنه خرج آخرا بعقب عيص وكان يعقوب أكبرهما فى البطن ولكن عيصا خرج قبله فلما كبر الغلامان وكان عيص أحبهما إلى أبيه ويعقوب أحبهما إلى أمه وكان عيص صاحب صيد فلما كبر اسحق وعمى قال لعيص يا بنى أطعمنى لحم صيد واقترب منى ادع لك بدعاء دعانى به أبى وكان عيص رجلا أشعر ويعقوب رجلا أجرد فخرج عيص يطلب الصيد فسمعت أمه الكلام فقالت ليعقوب يا بنى اذهب إلى الغنم فاذبح منها شاة واشوها والبس جلدها ثم قدمها إلى أبيك وقل له أنا ابنك عيص ففعل ذلك وأتى إلى أبيه وقال يا أبتاه كل فقال من أنت قال أنا عيص فمسه وقال المس مس عيص والريح ريح يعقوب فقالت له امرأته هو ابنك عيص فادع له فقال قدم طعامك فقدمه فأكل منه ثم قال له ادن منى فدنا منه فدعا له أن يجعل فى ذريته الأنبياء والملوك ثم قام يعقوب من عنده وجاء عيص بعده فقال يا أبت قد جئتك بالصيد الذى أردته فقال يا بنى قد سبقك أخوك يعقوب فغضب عيص وقال والله لأقتلنه فقال يا بنى قد بقيت لك دعوة فهلم أدع لك بها فتقدم اليه فدعا له فقال أن تكون ذريتك عدد التراب ولا يملكهم أحد غيرهم ثم أن أم يعقوب قالت ليعقوب الحق بخالك فكن عنده خشية عليه أن يقتله عيص فانطلق يعقوب إلى خاله وكان يسير فى الليل ويكمن فى النهار فلذلك سماه الله اسرائيل وهو أول من سرى بالليل فاتى يعقوب إلى خاله وكان اسحق أمره أن لا ينكح امرأة من الكنعانيين وأمره أن ينكح امرأة من بنات خاله ليان بن ناهر وان يعقوب لما مكث عند خاله خطب ابنته راحيل وكان له ابنتان ليا وهى الكبرى وراحيل وهى الصغرى فقال له هل لك مال فازوجك عليه فقال لا لكن أخدمك أجيرا حتى تستوفى صداق ابنتك فقال أن صداقها أن تخدمنى سبع حجج فقال يعقوب تزوجنى راحيل لأنها أصغر ولاجلها أخدمك فقال له خاله ذلك بينى وبينك فرعى له يعقوب سبع سنين فلما وفى له شروطه دفع له ابنته الكبرى ليا وأدخلها عليه ليلا فلما أصبح وجد غير ماشرط فجاءه يعقوب وهو فى نادى قومه فقال له غررتنى وخدعتنى واستحللت عملى سبع سنين ودلست على غير امرأتى فقال له خاله يا ابن أختى أردت أن لا يدخل على فى ذلك العار وألبسه وأنا خالك ووالدك متى رأيت الناس يزوجون الصغرى قبل الكبرى فهلم فاخدمنى سبع سنين أخرى حتى أزوجك الأخرى وكان الناس يومئذ يجمعون بين الأختين إلى أن بعث موسى وأنزلت التوراة فرعى له يعقوب سبع سنين أخرى فدفع اليه راحيل فولدت له ليا أربعة أسباط روبيل وكان أكبرهم وبهوذا وشمعون ولاوى وولدت له راحيل يوسف وبنيامين وهو بالعربية شداد وإنما سمى بنيامين لأن أمه راحيل ماتت فى نفاسها وبنيامين بالعربية الشكل وكان ليان دفع إلى ابنته حين جهزها إلى يعقوب أمتين يقال لأحدهما زلفة والأخرى بلهة فوطىء الامتين يعقوب فولدت كل واحدة منهما ثلاثة اسباط فولدت زلفة ليعقوب ذان ونفتالى وجدو بالون وولدت له بلهة جاذو يشجر وآشر فكان بنو يعقوب اثنى عشر رجلا اثنان من راحيل وأربعة من ليا وثلاثة من زلفة وثلاثة من بلهة وهم الذين سماهم الله تعالى الأسباط وسموا بذلك لأن كل واحد منهم ولد قبيلة والسبط فى كلام العرب الشجرة الملتفة الكثيرة الأغصان فالأسباط من بنى إسرائيل كالشعوب من العجم والقبائل من العرب ثم أن يعقوب فارق خاله ليان وانصرف بولده وامرأتيه وجاريتيه المذكورات إلى منزل أبيه من فلسطين على تخوف شديد من أخيه عيص فلم يزل منه إلا خيرا فازل أخاه وتألفه وتلطفه حتى ترك البلاد وتنقل إلى الشام وصار إلى السواحل ثم عبر إلى الروم فاستوطنها فصار ذلك له ولولده من بعده ٥ وقال ابن اسحق تزوج عيص بن اسحق بنت عمه نسيمة بنت اسماعيل بن إبراهيم فولدت له الروم بن عيص فكل بنى الأصفر من ولده وكان عيص فيما يذكر يسمى

لاتحسبى أنه سرور فاذكرى أنه قال مررت بسكران وهو ملق على الأرض والخمر يطفح من فيه وهو يقول أنا الله الله قال فعجبت من ذلك ورفعت بصرى إلى السماء وقلت إلهى لسان يذكرك لايكون هكذا ثم طلبت ماء فغسلت له فمه وانصرفت فلما أفاق أخبره جماعة من الناس أن السرى السقطى فعل معك كذا وكذا فجهل الرجل واستحى ولام نفسه ووبخها وقال ويحك يا نفسى إذا لم تستحى من الله ومن أوليائه فمن تستحين ؟ ثم ندم وتاب عما كان فيه وأقسم على نفسه أن لا يعود قال السرى فبت تلك الليلة متفكرا فى أمر ذلك الرجل فرأيت رب العزة فى المنام وهو يقول ياسرى أنت طهرت فمه من أجلنا ونحن طهرنا قلبه من أجلك قال السرى فلما أصبحت فرحت بذلك فرحا شديدا ثم سألت عن ذلك الرجل فوجدته فى بعض المساجد وهو قائم يصلى فلما فرغ من صلاته سلم وقال جزاك الله عنى خيرا قال السرى فقلت ماحالك فقال ياسيدى وكيف تسأل عن حالى وقد أخبرك به المولى الكريم حين قال لك وقد

آدم لأدمته ولذلك سمى ولده بنى الأصفر قالوا وعاش اسحق بعد ما ولد له عيص ويعقوب مائة سنة ونوفى وله مائة وسبعون سنة ودفنه أبناؤه عند قبر أبيه إبراهيم عليهما السلام فى مزرعة جبرون والله أعلم

﴿ مجلس فى قصة لوط عليه الصلاة والسلام ﴾

وهو لوط بن هاران بن تارخ بن أخى إبراهيم عليه السلام وإنما سمى لوطا لأن حبه لاط بقلب إبراهيم عليه السلام أى تعلق به ولصق ومنه حديث أبى بكر رضى الله عنه حين ذكر عمر اللهم اغفر لوﻻ ذاك ألوط أى ألصق بالقلب وكان إبراهيم يحبه حباً شديداً وكان من أمر لوط فيما ذكر أهل العلم بأخبار الأنبياء وذكر وهب فى المبتدأ له أنه شخص من أرض بابل مع عمه إبراهيم مؤمنا به متبعا له على دينه مهاجرا معه إلى الشام ومعهما سارة بنت ناحور وشخص معه تارخ أبو إبراهيم مخالفاً لإبراهيم فى دينه ومقيما على كفره إلى أن وصلوا إلى حران ومكثوا بها فمات تارخ وهو آزر أبو إبراهيم بحران على كفره وشخص إبراهيم ولوط وسارة إلى الشام ثم مضوا إلى مصر فوجدوا بها فرعونا من فراعنتها يقال له سنان بن عاران بن عبيد بن عوج بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه الصلاة والسلام فرجعوا عودا إلى أرض الشام فنزل إبراهيم فلسطين وأنزل لوطا الأردن فبعثه الله تعالى إلى أرض سدوم وما يليها وكانوا أهل كفر بالله وركوب فواحش كما أخبر الله عنهم بقوله تعالى (أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون) قال عمرو بن دينار ما كان يرى ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط وقال تعالى (أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر) فكان قطعهم السبيل فيما ذكر أهل التأويل أن إتيانهم الفاحشة مع من ورد بلادهم وإتيانهم المنكر فى ناديهم قال المفسرون هو أنهم كانوا يجلسون فى مجالسهم على الطريق فيحذرون من مر بهم ويتضارطون فى مجالسهم وينكح بعضهم بعضا فى الطريق وقال مجاهد كانوا يجامعون للرجال فى مجالسهم على الطريق . وروى أبو صالح عن أم هانىء قالت سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقال كانوا يجلسون على الطريق فيحذفون من مر بهم ويسخرون به وهو المنكر الذى كانوا يأتونه وكان لوط ينهاهم عن ذلك ويدعوهم إلى عبادة الله تعالى ويتوعدهم على إصرارهم على ما هم عليه ويأمرهم بالتوبة منه ويخوفهم من العذاب الأليم فلا يزجرهم عن ذلك وعده ولا يزيدهم وعظه إلا تماديا وعتوا واستعجالا بعذاب الله تعالى وانكاراً وتكذيبا ويقولون له ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين حتى سأل لوط ربه أن ينصره عليهم فقال رب انصرنى على القوم المفسدين فأجاب الله دعاءه وبعث جبريل وميكائيل واسرافيل عليهم السلام لإهلاكهم وبشارة إبراهيم عليه السلام بالولد فاقبلوا مشاة فى صورة رجال مرد حسان حتى نزلوا على إبراهيم عليه السلام فتضيفوه وبشروه باسحق وقد مضت القصة فلما فرغوا من ذلك واخبروا إبراهيم أن الله تعالى بعثهم لإهلاك قوم لوط ناظرهم إبراهيم وحاجهم فى ذلك كما قال الله تعالى (فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط) وكان جداله إياهم على ما ذكر ابن عباس وغيره أنهم لما قالوا له إنا مهلكو أهل هذه القرية قال لهم أتهلكون قرية فيها أربعمائة مؤمن قالوا لا قال أتهلكون قرية فيها ثلثمائة مؤمن قالوا لا قال أفتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن قالوا لا قال أفتهلكون قرية فيها مائة مؤمن قالوا لا قال أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمنا قالوا لا قال أفتهلكون قرية فيها أربعة عشر مؤمنا قالوا لا وكان إبراهيم يعدهم أربعة عشر بامرأة لوط فسكت عنهم واطمأنت نفسه وروى سعيد عن ابن عباس قال قال الملك لإبراهيم إن كان فيهم خمسة يصلون رفع عنهم العذاب فلما عرف إبراهيم حال قوم لوط قال للرسل ان فيها لوطا قالوا نحن اشفاقا منه عليه فقالت له الرسل نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته قال قتادة فى هذه الآية لا ترى المؤمن الا يحوط المؤمن ثم مضت رسل الله تعالى نحو سدوم فلما انتهوا اليها لقوا لوطا فى أرض له يعمل فيها قال قتادة وذكر لنا أن الله تعالى قال للملائكة لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات

طهرنا قلبه من أجلك قال السرى فتعجبت من ذلك وقلت من أخبرك بذلك فقال الذى طهر قلبى من سواه وجاد على بعفوه ورضاه (وعن السرى أيضا رضى الله تعالى عنه) أنه قال دخلت الجبانة فرأيت بهلول المجنون على قبر متمرغا على التراب فقلت له ما جلوسك هنا فقال عند قوم إذا حضرت عندهم لا يؤذونى وإن غبت عنهم لا يغتابونى فقلت له يا هذا إن الخبز قد غلا فقال والله ما أبالى ولو صارت كل حبة بدينار علينا أن نعبده كما أمرنا وعليه أن يرزقنا كما وعدنا . وقيل أن رابعة العدوية رضى الله عنها مرت برجل وهو يذكر الجنة وما أعده الله فيها لأهلها فقالت له يا هذا إلى متى تشتغل بالأغيار عن الواحد القهار ويحك عليك بالجار ثم الدار فقال لها اذهبى يا مجنونة فقالت لست بمجنونة وإنما المجنون من لم يفهم ما أقول ثم قالت يا مسكين الجنة سجن من لم يكن أنيسه وجليسه الأترى إلى آدم عليه السلام لما كان فى الجنة يرتع فلما تعرض له إبليس للأكل من الشجرة صارت عليه سجنا وإبراهيم الخليل لما حفظ سر مولاه قربه واجتباه ولما طرح فى النار صارت عليه برداً وسلاماً وأنشدت

فاتوه فقالوا انا متضيفوك الليلة فانطلق بهم فلما مشى ساعة التفت لهم وقال أوما بلغكم أمر هذه القرية قالوا وما أمرها قال أشهد بالله أنها لشر قرية فى الأرض وما أعلم على وجه الارض أناسا أخبث منهم قال ذلك أربع مرات فدخلوا معه منزله وعلم لوط أنه سيحتاج إلى المدافعة عن أضيافه وخاف عليهم من قومه فذلك قوله تعالى (ولما جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب) أى شديد (قال أبو حمزة الثمالى) بلغنا أن العلم الذى كان بين امرأة لوط وقومه إذا اتتهم الضيفان يقول رسولها عيونا بذلك ملحا تدعوهم إلى الفاحشة باضياف لوط فبلغنا أن الله تعالى مسخها ملحاً قالوا فلما أخبرت امرأة لوط قومها باضياف زوجها جاءه قومه يهرعون اليه أى يسرعون ويهرولون فلما أتوه قال لهم لوط ياقوم اتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى اليس منكم رجل رشيد وقال لهم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم قالوا أولم ننهك عن العالمين أن تضيف الرجال قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد فلما لم يقبلوا منه ما عرض عليهم قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد قالوا فما بعث الله نبيا بعده إلا فى شرف من قومه ومنه من عشيرته وقال ﷺ لما قرأ هذه الآية رحم الله أخى لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد قال ابن عباس وغيره وغلق لوط بابه والملائكة معه فى الدار وهو يناظرهم ويناشدهم من وراء الباب وهم يعالجون تنور الدار فلما رأت الملائكة ما لقى لوط من الكرب والنصب والتعب بسببهم قالوا يا لوط إن ركنك لشديد وإنهم آتيهم عذاب غير مردود أنا رسل ربك لن يصلوا اليك فاسر بأهلك بقطع من الليل الآية ثم قالوا له افتح الباب ودعنا وإياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل عليه السلام ربه فى عقوبتهم فاذن له فقام فى الصورة التى يكون فيها فنشر جناحيه وله جناحان وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الثنايا أجل الجبين ورأسه حبك مثل المرجان كأنه الثلج بياضا وقدماه إلى الخضرة فضرب بجناحيه وجوههم فطمس أعينهم وأعماهم فلذلك قوله تعالى (ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم) الآية فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون إلى بيوتهم ثم انهم انصرفوا وهم يقولون النجاة النجاة إن فى بيت لوط أسحر قوم فى الأرض وقالوا للوط جئتنا بقوم سحرة سحرنا كن كما كنت حتى نصبح بتوعدونه فلما علم لوط أن أضيافه رسل ربه وإنهم أرسلوا بهلاك قومه قال لهم أهلكوهم الساعة فقال له جبريل إن موعدهم الصبح اليس الصبح بقريب ثم أمره أن يسرى بأهله بقطع من الليل ولا يلتفت منهم أحد إلا امرأته فلما كان السحر خرج لوط وأهل بيته ومعه امرأته فلذلك قوله تعالى (إلا آل لوط نجيناهم بسحر نعمة من عندنا كذلك نجزى من شكر) فلما أصبحوا دخل جبريل جناحه تحت أرضهم فاقتلع قريات قوم لوط الأربع وكان فى كل قرية مائة ألف فرفعهم على جناحه بين السماء والأرض حتى سمع أهل سماء الدنيا صياح دبوكهم ونباح كلابهم ثم كفأها وقلبها فجعل عاليها سافلها كما قال الله تعالى (فجعلنا عاليها سافلها) ثم اتبع شاردهم ومسافرهم بالحجارة فلذلك قوله تعالى (وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد) أى بمن يفعل كفعلهم أخبرنا الحسين بن محمد بن فنحويه أخبرنا مخلد بن جعفر الباقر أخبرنا الحسين بن علوية أخبرنا إسمعيل بن عيسى أخبرنا اسحق بن بشر أخبرنى جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ إنى لأسمع العواصف والقواصف من الرعد فاخشى أنها الحجارة التى أعدت لقوم لوط ومن يفعل بفعلهم وقال تعالى وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل فقبل عبد الملك ذلك منه واستحسنه وكان الرجل منهم يتحدث فى قريته التى يكون فيها فيأتيه الحجر فيقتله قال وسمعت امرأة لوط الهدة فالتفتت وقالت واقوماه فادركها حجر فقتلها فلذلك قوله تعالى إلا امرأته كانت من الغابرين أى الباقين فى العذاب وقال تعالى انه مصيبها ما اصابهم الآية (أخبرنا) الحسين بن محمد بن الحسين أخبرنا موسى بن محمد بن على أخبرنا الحسين بن علوية أخبرنا اسمعيل بن عيسى قال أخبرنا المسيب قال سمعت أبا روق يقول إلا امرأته كانت من الغابرين أى خلفت

تقول شعراً
فروحى وريحانى إذ كنت
حاضراً
وإن غبت فالدنيا على محابس
إذا لم أنافس فى هواك
ولم أغر
عليك فنى من ليت شعرى
أنافس

(وقيل) كان حبيب النجار رحمه الله تعالى من الأولياء الأحيار وكان يقوم الليل ويصوم النهار ويؤثر بطعامه عند الإفطار ويبيت طاويا فى خدمة الملك الغفار فإذا كان وقت الأسحار ناجى ربه بلسان الذل والانكسار وقال إلهى غرقت فى أبحار غفلتى وركبت فى ميدان صبوتى وعثرت فى أذيال ذلتى فى برية شقوتى ومالى غيرك اعتمد عليه ولا أعرف بابا غير بابك التجىء اليه وها أنا عبدك الذليل المذنب قد وقفت ببابك ولذت بجنابك فان لم تغفر لى فواذلى وحسرتى وإن لم تعف عنى فواطول حيرتى ثم يسجد فلا يرفع رأسه حتى يطلع الفجر فاذا صلى وفرغ من صلاته شرع فى قراءة القرآن من أول الختمة إلى آخرها بقية اليوم كله فلما مات كان آخر آية تلاها فى سورة يس قوله تعالى إنى إذا لفى ضلال مبين فلما دفن فى قبره حضر اليه الملكان فقالا له ماربك ومادينك فقال إنى آمنت بربكم

فسخت

فسخت حجراً وكانت تسمى هلسنع وقال غيره اسمها واعلة قالوا وكانت قرى قوم لوط خمسا سدوم وعامورة ودومة وساعورا فأما سدوم فهى القرية العظمى وكان فى هذه القرية أربعة آلاف فاحتملها جبريل على جناحه فقلبها فلذلك سميت المؤتفكات أى المنقلبات وأما القرية الخامسة فانها تسمى صفرة ونجت من العذاب لأن أهلها آمنوا بلوط (وروى) أن النبى ﷺ قال لجبريل عليه السلام أن الله تعالى سماك باسماء ففسرها لى قال وصفك فى قوله تعالى ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين فأخبرنى عن قوتك قال يا محمد رفعت قرى قوم لوط من تخوم الأرض على جناحى فى الهواء حتى سمعت ملائكة سماء الدنيا أصواتهم وأصوات الديكة ثم قلبتها ظهر البطن قال فأخبرنى عن قوله تعالى مطاع قال أن رضوان خازن الجنان ومالك خازن النيران متى قلت لهما أو كلفتهما فتح أبواب الجنان أو النيران فتحاها قال فأخبرنى عن قوله تعالى أمين قال أن الله انزل من السماء مائة وأربعة كتب على انبيائه لم يأتمن عليها غيرى (أخبرنا) ابن فنجويه اخبرنا مخلد بن جعفر أخبرنا الحسين بن علوية اخبرنا إسماعيل بن عيسى أخبرنا إسحق بن بشر حدثنى مقاتل بن سليمان قال قلت لمجاهد يا أبا الحجاج هل بقى من قوم لوط أحد قال لا إلا رجل بقى أربعين يوما وكان بمكة فجاءه حجر ليصيبه فى الحرم فقام اليه ملائكة الحرم فقالوا للحجر ارجع من حيث جئت فان الرجل فى حرم الله فوقف الحجر خارج الحرم أربعين يوما بين السماء والأرض حتى قضى الرجل حاجته فلما خرج اصابه الحجر خارج الحرم فقتله (عن مقاتل) عن أبى نضرة عن أبى سعيد قال ما عمل ذلك قوم لوط إنما كانوا ثلاثين رجلا ونيفا لا يبلغون الأربعون فاهلكهم الله جميعاً وقال رسول الله ﷺ لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو لتعمنكم العقوبة جميعاً .

(مجلس فى قصة يوسف بن يعقوب وإخوته عليهم الصلاة والسلام)

قال الله تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص) الآية قال سعيد بن أبى وقاص وقالت الصحابة لرسول الله ﷺ لو حدثتنا قال فانزل الله تعالى (الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها) الآية فقالوا يا رسول الله لو قصصت علينا فانزل الله تعالى (نحن نقص عليك أحسن القص بما أوحينا إليك هذا القرآن) الآية فدلهم الله تعالى فى هذه الآية على احسن القصص واختلف العلما. فى سبب تسمية الله تعالى قصة يوسف عليه السلام من بين الأقاصيص أحسن القصص فقال بعض أهل المعانى معنى الآية قصة حسنة لفظه لفظ المبالغة وحكمه حكم الصفة كقوله تعالى وهو أهون عليه قال الشاعر :

ان الذى سمك السماء بنى لنا ٭ بيتا دعائمه اعز وأطول

أراد عزيزة طويلة وأجراه الباقون على الظاهر فقالوا هى أحسن القصص ثم اختلفوا فى وجهها فروى مقاتل عن سعيد بن جبير قال اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ إلى سلمان الفارسى فقالوا يا سلمان حدثنا عن التوراة باحسن ما فيها فانزل الله تعالى نحن نقص عليك احسن القصص يعنى ان قصص القرآن أحسن مما فى التوراة وقيل سمى الله هذه القصة احسن القصص لأنها ليست قصة فى القرآن تتضمن من العبر والحكم والعجائب واللطائف ما تضمنت هذه القصة ولذلك قال الله تعالى (لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين) وقال تعالى (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب) وقيل سماها أحسن القصص لحسن مجازات يوسف إخوته وصبره على آذاهم واغضائه عند الالتقاء بهم عند ذكرما فعلوه معه وكرمه فى العفو عنهم حيث قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وقيل لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والجن والإنس والأنعام والطير وسير الملوك والمماليك والعلماء والتجار والعقلاء والجهلاء وحال الرجال والنساء ومكرهن وحيلهن ونبها أيضا ذكر العفة والتوحيد وعلم السيرة وتعبير الرؤيا وآداب السياسة والمعاشرة وتدبير المعاش فصارت أحسن القصص لما فيها من المعانى الجزيلة والفوائد الجليلة التى تصلح للدين والدنيا وتجمع خير الدنيا والعقبى قال أهل الإشارة سماها الله أحسن القصص لما فيها من ذكر المحب والمحبوب

فاسمعونى قيل ادخل الجنة
قال يا ليت قومى يعلمون بما
غفر لى ربى وجعلنى من
المكرمين فلله درهم من
أقوام قاموا يناجون الحبيب
والناس فى غفلتهم نائمون
ويتحملون اثقال الوجد
والغرام ويفرحون بالليل
إذا جن الظلام فهم فى
جنات الخلد يتنعمون وإلى
وجه الحبيب ينظرون ألا
إن أولياء الله لا خوف
عليهم ولا هم يحزنون
لله قوم بذكره اشتغلوا
وفى حمى قربه لقد نزلوا
ليس لهم غير ذكره فرج
فهم حقيقا مرادهم حصلوا
من ذاق وصل الحبيب هام
ولم يكنه منزل ولا طلل
بروحهم فى وصاله سبحوا
وحققوا ربحهم وما جهلوا
قاموا يناجون وقد علموا
انهم للعباد قد عملوا
فاستعذبوا الصعب فى هواه
وقد
لذهم فى رضاه ما حملوا

(قيل) كان ابو يزيد البسطامى رحمه الله تعالى يقول فى مناجاته إلهى لست اعجب من حبى لك وأنا عبد حقير وإنما اعجب من حبك لى وانت ملك قدير (وكان) يحيى بن معاذ الرازى يقول فى مناجاته إلهى ليس العجب من عبد ذليل يحب ربا جليلا بل العجب من رب جليل يحب عبدا ذليلا قال بعض العارفين رضى الله تعالى عنه الحب

خب يزرع فى أرض القلوب ويسقى بماء العقول فينمو إلى قدر طيب الأرض وصفو الماء والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكدا (وعن) أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال ثلاثة من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما وأن يحب المرء أخاه لله تعالى وأن يكره أن يعود للكفر بعد أن أنقذه الله تعالى منه كما يكره أحدكم أن يقذف فى النار (وعن) أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال قال رسول الله ﷺ أن الله تعالى يقول يوم القيامة المتحابون فى جلالى أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى (وقيل) كان لعبد الله بن الحسين جارية عجمية وكانت من أولياء الله تعالى قال فرأيتها فى بعض الليالى وقد قامت من منامها فاحسنت الوضوء وقامت إلى صلاتها فلما فرغت من صلاتها خرت ساجدة لله تعالى وهى تقول سيدى يحبك لى إلا ما غفرت لى قال فقلت لها ويحك لا تقولى هكذا ولكن قولى يحبى لك فقالت اليك عنى يا بطال فلو لا حبه لى ما أنامك وأقامنى وأوقفنى بين يديه ويحبه لى أخرجنى من ديوان المشركين وكتبنى فى ديوان المؤمنين قال عبد الله فقلت لها اذهبى فانت حر لوجه الله تعالى

(الباب الأول فى ذكر نسب يوسف ﷺ)

هو يوسف الصديق بن يعقوب الصفى بن اسحق الذبيح بن إبراهيم الخليل عليهم السلام بذلك سماه رسول الله ﷺ كريما وآباءه كراما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ (ان الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم) صلوات الله عليهم واختلفوا فى معنى اسم يوسف فقال أكثر الفقهاء هو اسم عبرى فلذلك لا يجرى وقال بعضهم هو اسم عربى سمعت الأستاذ أبا القاسم الحبيبى يقول سمعت أبى يقول سمعت أبا الحسن الأقطع وكان حكيما فسئل عن يوسف فقال الاسف فى اللغة الحزن والاسيف العبد واجتمعا فيه فلذلك سمى يوسف

(الباب الثانى فى صفة يوسف ﷺ وحليته ونعت خلقه وصفة صورته)

قال الله تعالى (فلما رأينه أكبرنه) الآية (أخبرنا) أبو عبد الله الثقفى أخبرنا عمر بن أحمد بن عثمان أخبرنا محمد بن محمد بن سليمان أخبرنا محمد بن حميد الرازى أخبرنا سلمة بن الفضل عن محمد بن اسحق عن روح بن القاسم قال حدثنا عمارة عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله ﷺ مررت ليلة أسرى بى إلى السماء فرأيت يوسف فقلت يا جبريل من هذا فقال هذا يوسف قالوا فكيف رأيته يا رسول الله قال كالقمر ليلة البدر وعن أبى اسحق بن عبد الله بن أبى فروة قال كان يوسف إذا سار فى أزقة مصر يرى تلألؤ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس والقمر على الجدران. قال كعب الاحبار ان الله تعالى مثل لآدم ذريته بمنزلة الذر فاراه الأنبياء عليهم السلام نبيا نبيا وأراه فى الطبقة السادسة يوسف متوجا بتاج الوقار متزرا بحلة الشرف مرتديا برداء الكرامة مقمصا بقميص البهاء وفى يده قضيب الملك وعن يمينه سبعون ألف ملك وعن يساره سبعون ألف ملك ومن خلفه أمم الأنبياء لهم زجل بالتسبيح والتقديس وبين يديه شجرة السعادة تزول معه حيثما زال وتحول معه حيثما حال فلما رآه آدم قال إلهى من هذا الكريم الذى أبحت له بحبوحة الكرامة ورفعته الدرجة العالية قال يا آدم هذا ابنك المحسود على ما أتيته يا آدم انحله قال آدم قد انحلته ثلثى حسن ذريتى ثم أن آدم ضم يوسف إلى صدره وقبله بين عينيه وقال يا بنى لا تاسف فانت يوسف فاول من سماه يوسف آدم فقسم الله تعالى ليوسف من الجمال الثلثين وقسم بين العباد الثلث وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله تعالى بيده وصوره ونفخ فيه من روحه قبل أن يصيب المعصية وقد كان الله أعطى آدم الحسن والجمال والبهاء يوم خلقه فلما عصى نزع ذلك منه وأعطاه يوسف عليه السلام ثم لما تاب عليه وهبه ثلث الجمال الذى كان انتزعه منه وذلك أن الله تعالى أحب أن يرى العباد أنه قادر على ما يشاء فاعطى يوسف من الحسن والجمال ما لم يعطه أحدا من الناس ثم أعطاه العلم بتأويل الرؤيا وكان يخبر بالأمر الذى يرى فى المنام أنه سيكون كذا وكذا من قبل أن يكون ذلك الأمر علمه الله ذلك الأمر كما علم الأسماء كلها لآدم فكان حسن يوسف كضوء النهار وكان يوسف أبيض اللون جميل الوجه جعد الشعر ضخم العينين مستوى الخلقة غليظ الساعدين والعضدين والساعد بن خميص البطن أقنى الأنف صغير السرة وكان بخده الايمن خال أسود وكان ذلك الخال يزين وجهه وكان بين عينيه شامة بيضاء كانها القمر ليلة البدر وكانت أهداب عينيه تشبه قوادم النسور وكان إذا تبسم رؤى النور من ضواحكه وإذا تكلم رأيت شعاع النور يشرق من بين ثناياه لا يقدر بنو آدم ولا أحد على وصف يوسف عليه الصلاة والسلام ويقال انه ورث الحسن من جده اسحق بن إبراهيم وكان احسن الناس واسحق هو الضاحك بالعبرانية وهو ورث الحسن من أمه سارة فان الله تعالى صورها على صورة الحور العين ولكن لم يعطها صفاءهن واعطى يوسف من الحسن والجمال وصفاء اللون وبقاء البشرة ما لم يعطه أحدا من العالمين وإنه كان ليا كل البقول والفواكه فترى حين يزدردها فى حلقه وفى صدره حتى تصل إلى بطنه ورئت سارة الحسن من جدتها حواء (وقال وهب) الحسن عشرة اجزاء ليوسف تسعة وواحد بين سائر الناس (وعن) عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ قال هبط جبريل عليه

السلام فقال يا محمد إن الله تعالى يقول لك كسوت حسن يوسف من نور الكرسى وكسوت وجهك من نور عرشى وقيل لبعض الحكماء أيوسف أحسن أم محمد فقال كان يوسف من أحسن الناس ومحمد ﷺ أحسن الناس ويدل على حديث جابر بن عبد الله قال نظرت إلى رسول الله ﷺ وعليه حلة حمراء ونظرت إلى القمر ليلة البدر فهو أحسن فى عينى من القمر

﴿ القول فى القصة ﴾

قال أهل العلم بقصص الأنبياء وأخبار الماضين كان ابتداء أمر يعقوب ويوسف عليهما السلام وبدء محبة يعقوب له وإيثاره على سائر ولده أن الله تعالى أنبت ليعقوب شجرة فى صحن داره فكان كلما ولد له ولد أخرج الله تعالى من تلك الشجرة غصناً فكان كلما كبر الغلام وشب طال ذلك الغصن وغلظ فاذا بلغ ذلك الغلام قطع يعقوب ذلك الغصن ودفعه إليه فولد له عشر بنين فأخرج الله تعالى من تلك الشجرة عشرة قضبان فلما ولد له يوسف لم يخرج الله تعالى من الشجرة شيئاً فلما كبر وشب قال لأبيه يا نبى الله أنه ليس أحد من إخوتى إلا وله غصن إلا أنا فادع الله تعالى أن يخصنى بغصن من الجنة فرفع يعقوب يديه إلى السماء وقال اللهم إنى أسألك أن تهب ليوسف غصناً من الجنة يفتخر به على جميع إخوته فهبط جبريل عليه الصلاة والسلام ومعه قضيب من الجنة من الزبرجد الأخضر فقال ليوسف خذ هذا فكان يوسف يأخذه ويخرج به متع إخوته قال فرأى يوسف فيما يرى النائم وهو إذ ذاك صبى كأن قضيبه غرس فى الأرض فعلق وتدلت اغصانه وأثمرت من كل ثمرة ثم أتى بأغصان إخوته فغرست حوله فلم تعلق ولم تفرع ولم تثمر وإذا بغصن يوسف أكبرها وأصغرها فلم يزل يتعالى فى السماء ويطول حتى طال على أغصان إخوته ثم هبت الريح فاقتلعت أغصان إخوته من أصولها والقتها فى البحر وثبت غصن يوسف فى الأرض قائماً فانتبه فزعاً مرعوباً فقال له أبوه ما الذى دهاك يا بنى فقص عليه رؤياه فبلغ إخوته فقالوا يا بن راحيل لقد رأيت عجباً يوشك تدعى إنك مولانا ونحن عبيدك فشق عليهم رؤياه وحسده بعض الحسد قال وهب رأى يوسف هذه الرؤيا يعنى الغصن وهو ابن سبع سنين ثم إنه رأى وهو ابن اثنى عشرة سنة الرؤيا التى قصها الله علينا فى كتابه إذ قال تعالى (إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً) الآية وكان ينومه إلى جانبه فبينما يوسف نائم عند أبيه ليلة من الليالى إذ رأى الرؤيا التى ذكرها الله تعالى فى كتابه العزيز وكانت ليلة الجمعة فانتبه من منامه فزعاً مرعوباً فالتزمه يعقوب وضمه إلى صدره وقبله بين عينيه وقال ياحبيب أبيه ما الذى أصابك فقال يا أبت رأيت رؤيا أفزعتنى فقال يا بنى اخيراً ما رأيت ما الذى رأيت قال يوسف رأيت كأن أبواب السماء فتحت وقد أشرق منها النور فاستنارت النجوم وأشرقت الجبال وزخرت البحار وعلت أمواجها وسبحت الحيتان بأنواع اللغات ورأيت كأنى ألبست رداء اشرقت الأرض من حسنه ونوره ورأيت كأن مفاتيح خزائن الأرض القيت بين يدى فبينما أنا كذلك إذ رأيت أحد عشر كوكباً انقضت من السماء ومعها الشمس والقمر نحو راى ساجدين فقال يعقوب يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك الآية ثم عبر رؤياه فقال وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث الآية قال فسمعت امرأة يعقوب ما قال يوسف لأبيه فقال لها يعقوب اكتمى ما قال يوسف ولا تخبرى أولادى بذلك فقالت نعم فلما أقبل أولاد يعقوب من مراعيهم أخبرتهم بالرؤيا التى أمرها يعقوب بكتمها فانتفخت أوداجهم واقشعرت جلودهم غضباً على يوسف قالوا وما عنى بالشمس غير أبينا ولا بالقمر غيرك ولا بالكواكب غيرنا ثم قالوا إن ابن راحيل يريد أن يتملك علينا فيقول أنا سيدكم وأنتم عبيدى فحسدوه على ذلك فلذلك قيل فى الحكمة لا تأمن شاباً على امرأة ولا امرأة على سر (وروى) الحكم بن ظهير عن إسمعيل السدى عن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله قال جاء رجل من اليهود يقال له نستار إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله أخبرنى عن النجوم التى رآها يوسف ساجدة له وما اسماؤها

من النار ثم قالت هذا عتق مولاى الأصغر فكيف عتق مولاى الأكبر ثم خرت ساجدة لله تعالى فحركتها فاذا هى ميتة رحمة الله تعالى عليها فقلت هذه والله صفات المحبين المتعلقة قلوبهم بمحبة رب العالمين وأنشدت أقول شعراً :

الحب فيه حلاوة ومرارة
وتنسك وتهتك ببشائر
ما شاء يصنع بالمحب فانما
حكم الهوى بيد الحبيب الآمر
لو كنت أملك فى الهوى أمر الذى
لعوى لكان مؤانسى ومسامرى

(وقيل) لبعض المحبين كيف رأيت المحبة قال وقفت على ساحل بحر زاخر ليس له آخر وقرب منى قارب من تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا فركبت موافقة له واتباعا له فاجابت الروح من دعاها بسم الله مجريها ومرساها فلما توسطت اللجة توعرت سبيل الحجة فما زلت حتى جمعنى فى مجمع بحر يحبهم ويحبونه فانا بين البقاء والفناء حتى وصلت إلى ذلك الفناء والهناء

حروف المحبة ممزوجة
تبشرنا ببلوغ المنى
فيم الممات وحاء الحيات
وباء البلاء وهاء الهناء

وحر الوبال ففيه الهنا
ومت مثل ما مات أهل الهوى

فماتوا اشتياقاً فنالوا المنى
وناظرهم حين ناديتهم على
طود سينا إنى أنا

(وحكى عن أبى يزيد البسطامى رضى الله تعالى عنه) أنه قال كنت يوماً فى سياحتى متلذذاً بخلوتى وراحتى مستغرقاً فى فكرى مستأنساً بذكرى إذ نوديت فى سرى يا أبا يزيد امض إلى دير سمعان واحضر مع الرهبان فى يوم عيدهم والقربان قلنا فى ذلك نبأ وشأن قال فاستعذت بالله من هذا الخاطر وقلت لست أخاطر فلما كان الليل أتانى الهاتف فى المنام وأعاد على ذلك الكلام فانتبهت من منامى مرعوباً وفى هذا الأمر مفكراً مكروباً فتوديت جهاراً يا أبا يزيد لا بأس عليك أنت عندنا من الأولياء ومكتوب فى ديوان الأبرار بالبس زى الرهبان وأشدد من أجلنا الزنار فما عليك فى ذلك جناح ولا إنكار قال ابو يزيد فقمت مسرعا من باكر وامتثلت الأوامر ولبست زى الرهبان وحضرت معهم فى دير سمعان فلما حضر كبيرهم واجتمعوا

فسكت رسول الله ﷺ ولم يجبه بشىء حتى نزل جبريل عليه السلام فأخبره بأسمائها فأرسل إلى اليهودى ودعاه وقال له إن اخبرتك بأسمائها أتسلم قال نعم فقال له جرياذ والطارق والذبال وذو الكتفين والفرغ وروثاب وعمودان وقابس والمصبح والفايق والضروح ورآها يوسف فى أفق السماء ساجدة له فلما قص على أبيه قال أرى شيئاً مشتتاً ويجمعه الله لك فقال اليهودى هذه والله اسماؤها ويقال كان بين رؤيا يوسف فى الغصن ورؤياه فى الكواكب سبع سنين فلما كان من أمر رؤيا يوسف ما كان وانضاف إلى ذلك تخصيص أبيه يعقوب إياه بالمحبة والقربة حسده إخوته وحملهم الحسد على أن تآمروا بينهم فى أن يفرقوا بينه وبين أبيه بضرب من احتيال ويهلكوه فيما بينهم كما اخبر الله عنهم فى قوله تعالى (إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفى ضلال مبين) أى خطأ بين فى إيثاره يوسف وأخاه علينا أقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين أى تائبين فاستعدوا للتوبة قبل وقوع الذنب قال قائل منهم وهو يهوذا وكان افضلهم واعقلهم لا تقتلوا يوسف فان القتل عظيم والقوه فى غيابة الجب وهو البئر غير المطوية يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين قيل للحسن أيحسد المؤمن فقال للسائل ما أنساك بنى يعقوب ولهذا قيل الأب جلاب والأخ سلاب فعند ذلك أجمعوا رأيهم أن يدخلوا على يعقوب ويكلموه فى إرسال يوسف معهم إلى البرية فقال لهم روبيل وهو اكبرولد يعقوب ان اباكم لا يأمنكم على يوسف ولكن انطلقوا بنا إلى يوسف حتى نلعب بين يديه فإذا نظر إلينا كيف نمرح ونلعب اشتاق إلى ذلك فأقبلوا على يوسف وهو قاعد يسبح فجعلوا يتلاعبون ويتضاحكون بين يديه فلما رأى يوسف اشتاق إلى اللعب معهم فقال لهم يا إخوتاه انطلقوا إلى أبى واسألوه أن يرسلنى معكم فأقبلوا إلى يعقوب ووقفوا بين يديه صفاً وكانوا يفعلون هكذا إذا أرادوا أن يسألوه حاجة فلما رآهم بين يديه وقوفاً صفوفاً قال لهم ما حاجتكم قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون نحوطه ونحفظه حتى نرده إليك أرسله معنا غداً نرتع ويلعب فى الصحرا وإنا له لحافظون فقال لهم يعقوب إنه ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون لا تشعرون بذلك قال ابن عباس وغيره وإنما قال ذلك يعقوب لأنه رأى فى منامه كأن يوسف على رأس جبل وكان عشرة من الذئاب قد شدوا عليه ليأكلوه وإذا ذئب منها يحمى عنه وكأن الأرض قد انشقت فدخل فيها يوسف فلم يخرج منها إلا بعد ثلاثة أيام فلما رأى يعقوب هذه الرؤيا خاف على يوسف من الذئب فلذلك قال لهم وأخاف أن يأكله الذئب (أخبرنا) الحسين محمد بن فنحويه أخبرنا عبد الله بن شبة اخبرنا أبو نعيم عن عبد الرحمن بن قريش اخبرنا محمد بن عمرو بن الحكم الهروى اخبرنا مالك بن سليمان القروى اخبرنا عبيد الله بن عمر العمرى عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ لا تلاقوا الناس الكذب فيكذبوا فإن بنى يعقوب لم يعلموا أن الذئب يأكل الإنسان حتى لقنهم أبوهم فلما لقنهم وقال إنى أخاف أن يأكله الذئب قالوا أكله الذئب فقال بئوه لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون عجزه مغلوبون ثم قالوا يا نبى الله كيف يأكله الذئب وفينا شمعون إذا غضب لا يسكن غضبه حتى يصيح فإذا صاح لا تسمعه حامل إلا وضعت ما فى بطنها وفينا يهوذا إذا غضب ثنى السبع نصفين فلما سمع يعقوب منهم ذلك اطمأن إليهم وأفل يوسف حتى وقف بين يدى أبيه ثم قال له يا أبت أرسلنى معهم قال أوتحب ذلك يا بنى قال نعم قال إذا كان غداً أذنت لك فى ذلك فلما أصبح يوسف لبس ثيابه وشد عليه منطقته وأخذ قضيبه وخرج مع إخوته ثم عمد يعقوب إلى السلة التى حمل فيها إبراهيم زاد إسحق فحمل فيها زاداً ليوسف وخرج ليشيعهم فقال يا بنى الله أرجع فقال يعقوب أوصيكم بتقوى الله وبحبيبى يوسف أسالكم بالله إن جاع أطعموه وإن عطش فاسقوه وقوموا عليه ولا تتعبوه ولا تخذلوه وكونوا موالين مراحمين قالوا نعم يا أبانا كلنا لك ولد وهو أخونا كأحدنا بل له الفضل علينا بحبك إياه فقال نعم يا بنى الله خليفتى عليكم معى إنى خائف أن أكون قد

صمتوا ارمج عليه المقام فلم يطق الكلام كان فى قلبه لجام فقال له القسيسون والرهبان ما الذى

سمعته ثم إنه أقبل على يوسف فالتزمه وضمه إلى صدره وقبله بين عينيه ثم قال استودعك الله رب العالمين وانصرف راجعاً (وروى) السدى ورجاه عن ابن مسعود وابن عباس وناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وإسحق بن بشر بن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس ومقاتل عن ابن بحيرة عن كعب الاحبار عن سعيد ابن أبى عروبة عن الحسن دخل كلام بعضهم فى بعض قالوا أرسل يعقوب يوسف مع إخوته فاخرجوه مظهرين له الكرامة فلما برزوا به إلى البرية أظهروا له العداوة وضربوه فجعل يستغيث بهم واحداً بعد واحد وهم يضربونه فلا يرى منهم رحماً وأخذوا ما كان زوده يعقوب وأطعموه الكلاب وضربوه حتى كادوا يقتلونه وعطش عطشاً شديداً فقال لهم اسقونى جرعة من ماء قبل أن تقتلونى فلم يسقوه فعند ذلك بكت الملائكة رحمة ليوسف فلما رأى يوسف أن ليس أحد منهم يعطف عليه جعل يصيح ويقول يا أبتاه يا يعقوب لو تعلم ما يصنع بابنك بنوا الاماء فلما هموا بقتله قال لهم يهوذا أليس إنكم قد أعطيتمونى موثقاً أن لا تقتلوه فعند ذلك أجمعوا على إلقائه فى الجب كما قال الله تعالى (فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب) فانطلقوا به إلى الجب ليطرحوه فيه وكان ذلك الجب فى الاردن بين مدين وبين مصر وقيل بين طبرية والقدس على قارعة الطريق فى واد من أودية على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب وكانت بئراً وحشة مظلمة أسفلها واسع وأعلاها ضيق يهلك من طرح فيها من سعة أسفلها لا يمكنه الصعود وكان ماؤها ملحاً وكان الجب من حفر سام بن نوح وسمى جب الاحزان فلما أرادوا أن يلقوه فيه جعلوا يدلونه فى البئر فيتعلق بشفير البئر فربطوا يديه إلى عنقه ونزعوا قميصه فقال يا إخوتاه ردوا على قميصى أستر به عورتى ويكون لى كفناً بعد مماتى واطلقوا يدى أطرد بهما عنى هوام الجب فقالوا له ادع الشمس والقمر والاحد عشر كوكباً تلبسك وتؤنسك فدلوه فى البئر بحبل فلما بلغ نصفها قطعوا الحبل ليسقط فيموت فيه فأخرج الله تعالى على وجه الماء صخرة ملساء لينة رفعها إلى يوسف فوقف عليها وجعل يوسف يبكى فنادوه فظن أنها رحمة لحقتهم فأجابهم فهموا أن يرضخوه بالحجارة فيقتلوه فمنعهم يهوذا وقال لقد أعطيتمونى موثقاً أن لا تقتلوه قالوا فلما القى يوسف فى الجب أضاء له الجب وعذب ماؤه حتى كان يغنيه عن الطعام والشراب وبعث الله تعالى إليه ملكاً فحل عنه قيده وكان إبراهيم حين القى فى النار جرد من ثيابه وقذف فى النار عرياناً فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه وكان ذلك القميص عند إبراهيم فلما مات إبراهيم ورثه إسحق فلما مات إسحق ورثه يعقوب منه فلما شب يوسف جعل يعقوب ذلك القميص فى تعويذ وعلقه فى عنقه لما كان يخاف عليه من العين وكان لا يفارقه فلما القى فى الجب عرياناً جاء الملك وكان عليه التعويذ فأخرج القميص وألبسه إياه وجعل ؤنسه بالنهار (ويروى) أن الملك أتاه بسفرجلة من الجنة فأطعمه إياها فلما أمسى يوسف نهض الملك ليذهب فقال له يوسف إنك إذا خرجت عنى أستوحش فقال له الملك قل إذا هبت شيئاً يا صريخ المستصرخين يا غياث المستغيثين يا مفرج كرب المكروبين قد ترى مكانى وتعلم حالى ولا يخفى عليك شىء من أمرى فلما دعا يوسف بهذا الدعاء بعث الله إليه سبعين ملكاً فحفوا به وآنسوه فى البئر ثلاثة أيام فلما كان فى اليوم الرابع أتاه جبريل عليه السلام وقال يا غلام من طرحك فى هذا الجب قال إخوتى لأبى قل ولم قال حسدونى على منزلتى من أبى قال أتحب أن تخرج من هذا الجب قال نعم قال قل يا صانع كل مصنوع ويا جابر كل مكسور ويا حاضر كل ملأ ويا شاهد كل نجوى ويا قريباً غير بعيد ويا مؤنس كل وحيد ويا غالباً غير مغلوب ويا علام الغيوب ويا حياً لا يموت ويا محيى الموتى لا إله إلا أنت سبحانك أسألك يا من له الحمد بديع السموات والأرض يا ملك الملك ويا ذا الجلال والإكرام أسألك أن تصلى على محمد وعلى آل محمد وأن تجعل لى من أمرى ومن ضيق فرجاً ومخرجاً وترزقنى من حيث أحتسب ومن حيث لا أحتسب فقالها يوسف فجعل الله له من الجب مخرجاً ومن كيد إخوته فرجاً وأتاه ملك مصر من حيث لا يحتسب وأوحى الله إليه وهو فى البئر لتنبئن إخوتك بما عملوا وهم

يمنعك عن الكلام أيها الرهبان فنحن بقولك نهتدى وبعلمك نقتدى فقال مامنعنى عن أن أتكلم وأبتدى إلا رجل بينكم محمدى وقد جاء لديكم ممتحناً وعليكم معتدى فقالوا أونا إياه لنقتله الآن فقال لا نقتله إلا بدليل وبرهان فقالوا له افعل ماتريد فنحن ما حضرنا إلا للمستفيد قال فقام كبيرهم على قدميه ونادى يا محمدى بحق محمد عليك الا ما نهضت قائماً على قدميك لننظر اليك فقام أبو يزيد ولسانه لا يفتر عن التسبيح والتقديس والتحميد فقال له البطرك يا محمدى أريد أن أسالك عن مسائل فإن أجبت عنها اتبعناك وإن عجزت عنها قتلناك فقال سل عما تريد من المعقول والمنقول والله شاهد على ما نقول قال فاخبرنى عن واحد لا ثانى له وعن إثنين لا ثالث لهما وعن ثلاثة لا رابع لهم وعن أربعة لا خامس لهم وعن خمسة لا سادس لهم وعن ستة لا سابع لهم وعن سبعة لا ثامن لهم وعن ثمانية لا تاسع لهم وعن تسعة لا عاشر لهم وعن عشرة كاملة وعن أحد عشر وعن إثنى عشر وعن ثلاثة عشر

لايعلمون بانك يوسف فذلك قوله تعالى لتنبئنهم بامرهم هذا وهم لايشعرون (وقال مجاهد) خرج يوسف من عند يعقوب وهو ابن ست سنين لم يتغير وجمع الله بينهما وهو ابن أربعين سنة (أخبرنا) أبو عبد الله الدينورى أخبرنا أبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف الصرصرى أخبرنا أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى اخبرنا عمران القزاز أخبرنا عبد الوارث أخبرنا يونس عن الحسن قال ألقى يوسف فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة وكان فى العبودية والملك والسجن ثمانين سنة وعاش بعد ذلك ثمانية وعشرين سنة . رجعنا إلى قصة يوسف عليه السلام وإخوته بعدما القى فى الجب فلما ألقوه فى الجب عمدوا إلى سخلة من الغنم فذبحوها ولطخوا قميص يوسف بدمها وشووها وأكلوا لحمها ثم أنهم رجعوا إلى يعقوب وهو قاعد على قارعة الطريق ينتظرهم متى ياتون بيوسف فلما دنوا منه اصطرخوا صراخ رجل واحد ورفعوا أصواتهم بالبكاء فعلم يعقوب أنهم قد أصيبوا بمصيبة فلما وافوه اجتمعوا وتقدموا بين يديه وشقوا جيوبهم وبكوا نفزع يعقوب وقال مالكم يابنى وأين يوسف قالوا يا أبانا ذهبنا نستبق أى نتنضل وتركنا يوسف عند متاعنا فاكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين وهذا قميصه ملطخ بدمه فذلك قوله تعالى (وجاؤا أباهم عشاء يبكون) وإنما فعلوا ذلك ليكونوا فى الظلمة أجرأ على الاعتذار وتزوير ما مكروا فقد قالوا لاتطلب الحاجة فى الليل فان الحياء فى العينين ولا تعتذر بالنهار من قبح فعلك فتتلجلج فى الاعتذار فلا تقدر على اتمامه (روى) الشعبى قال جاءت امرأة إلى شريح فجعلت تبكى فقال رجل ألا ترى إلى هذه المرأة المسكينة كيف تبكى فقال شريح قد جاء إخوة يوسف عشاء يبكون ثم أنشد فى معناه :

أغرك من شيخ وعلقه ... أم اللحية البيضاء للنتف
فان بنى يعقوب جاءوا أباهم ... عشاء وهم يبكون زوراً ومخرقة

قال فلما قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق أى نتنضل وتركنا يوسف عند متاعنا فاكله الذئب الآية إلى قوله بدم كذب لأنه لم يكن دم يوسف وإنما كان دم شاة وقرأت عائشة بدم كذب بدال غير معجمة أى طرى فلما قالوا ذلك ليعقوب بكى بكاء شديداً وقال لهم أروني قميصه فاروه فقال تالله ما رأيت كاليوم ولا ذئباً احلم من هذا أكل ابنى ولم يشق له جيبا ولا خرق له شقا وصاح صيحة وخر مغشيا عليه فلم يفق إلا بعد ساعة طويلة فلما أفاق بكى بكاء شديداً ثم أخذ القميص وجعل يشمه ويقبله ويضعه على وجهه وعينيه (أخبرنا) ابن المحويه أخبرنا أحمد بن إبراهيم بن شاذان أخبرنا عبيد الله بن ثابت أخبرنا أبو سعيد الأشج أخبرنا ابو أسامة حدثنى زكريا عن سماك عن الشعبى قال كان فى قميص يوسف ثلاث آيات لما جاؤا به إلى أبيه فقالوا أكله الذئب فقال أبوه لئن أكله الذئب ليشقن قميصه وحين سعى نحو الباب فشقت قميصه من خلف فعرف الوزير انه لو كان هو الذى راودها لكان الشق من بين يديه وحين القى على وجهه فارتد بصيراً قالوا فلما أصبح إخوة يوسف من الغد رجعوا إلى مراعيهم فقال بعضهم لبعض قد رأيتم ما كان من تكذيب أبيكم البارحة فان أردتم أن يصدقكم ويخرجكم من الملامة فروا بنا على الجب فنخرج يوسف منه ونفرق بين أضلاعه ولحمه ونجىء به إلى يعقوب فقال لهم يهوذا يا إخوناه أين العهد الذى بينى وبينكم والله لئن فعلتم ما تقولون لأخبرن يعقوب بما كان منكم اليه ثم لأكونن لكم عدواً ما بقيت فتركوه ثم إنهم رجعوا إلى أبيهم عشاء فقال لهم يعقوب إن كنتم صادقين ان الذئب أكله فاين الذئب ائتونى به فعمدوا إلى حبالهم وعصيهم فاخذوها ومضوا إلى الصحراء واصطادوا ذئبا وشدوه وأوثقوه كتافا ثم حملوه إلى يعقوب واوقفوه بين يديه فقال حلوا عنه لعله فحلوه فقال يعقوب أقبل فاقبل الذئب يتخطى القوم حتى وقف بين يدى يعقوب منكسا رأسه فقال له يعقوب أيها الذئب أكلت ولدى وقرة عينى وحبيب قلبى وثمرة فؤادى لقد أوردتنى حزنا طويلا وألما عظيما فاقبل الذئب وقال لا وحق شيبتك يا نبى الله ما أكلت لك ولداً وإن لحومكم ودماءكم معشر الأنبياء لمحرمة علينا وإنى لمظلوم مكذوب على وإنى لذئب غريب

وأدخلوا النار وأخبرنا أين مستقر روحك فى جسدك وعن الحاملات وقراً وعن الجاريات يسراً وعن المقسمات أمراً وأخبرنا عن شىء يتنفس بغير روح وعن قبر مشى بصاحبه وعن ماء لا تزل من سماء ولا نبع من الأرض وعن أربعة لا من الجن ولا من الإنس ولا من الملائكة ولا من ظهر أب ولا من بطن أم وأخبرنا عن أول دم أهريق فى الأرض وعن شىء خلقه الله ثم استعظمه وعن أفضل النساء وعن أفضل البحار وعن أفضل الجبال وعن أفضل الدواب وعن أفضل الشهور وعن افضل الليالى وعن الطامة وعن شجرة لها اثنا عشر غصنا فى كل غصن ثلاثون ورقة فى كل ورقة خمس زهرات اثنان منها فى الشمس وثلاثة فى الظل وعن شىء حج إلى بيت الله الحرام وليس له روح ولا وجبت عليه فريضة وأخبرنا كم نبى خلقه الله وكم مرسل منهم وغير مرسل وعن أربعة أشياء مختلف طعمها ولونها والأصل واحد وأخبرنا عن النقير والقطمير والفتيل وعن السيد واللبد والطم والرم وأخبرنا عما يقول الكلب فى نبيحه وما يقول الحمار فى نهيقه وما يقول الثور فى نعيره وما يقول الفرس فى صهيله وما يقول

من بلاد مصر فقال له يعقوب وما أدخلك أرض كنعان قال جئت لأجل قرابة لى من الذئاب أزورهم وأصلهم فعند ذلك قال يعقوب لأولاده بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل وهو الذى لاجزع فيه ولاشكوى والله المستغان على ما تصفون قال ابن عباس إنما كان سبب بلاء يعقوب انه ذبح شاة وهو صائم فاستطعمه جاره فلم يطعمه فابتلاه الله تعالى بامر يوسف قال فمكث يوسف فى الجب ثلاثة أيام فلما كان اليوم الرابع ودعا بالدعاء الذى علمه جبريل عليه السلام جاءت سيارة أى رفقة مارة من قبل مدين تريد مصر فاخطأوا الطريق وضلوا عنها حتى نزلوا قريبا من الجب قال وكان الجب بعيد من العمران وإنما هو للرعاة والمحتازة وكان ماؤه ملحا فعذب حين التى يوسف فيه فلما نزلت السيارة أرسلوا رجلا من العرب من أهل مدين يقال له مالك بن دعر ليطلب لهم ماء فذلك قوله تعالى (وجاءت سيارة فارسلوا واردهم فادلى دلوه) قالوا والوارد الذى يتقدم الرفقة إلى الماء فيهيىء الارشية والدلاء فوصل الوارد إلى البئر فادلى دلوه أى ارسلها فتعلق يوسف بالحبل فلما وصل إلى فم البئر ورآه مالك بن دعر فرأى أحسن ما يكون من الغلمان فقال مالك يا بشرى هذا غلام يبشر أصحابه أنه اصاب عبداً وأسروه بضاعة قال المفسرون أسر مالك بن دعر وأصحابه أمر يوسف من التجار الذين معهم وقالوا لهم هو بضاعة استبضعناها من بعض الناس إلى مصر خيفة أن يطلبوا منهم فيه الشركة أن علموا حاله قال وكان يهوذا يأتى يوسف بالطعام كل يوم سراً من إخوته فاتاه ذلك اليوم كما كان يفعل فلم يجده فى البئر فنظر فإذا هو بمالك وأصحابه نزولا ويوسف معهم فرجع يهوذا وأخبر إخوته بذلك فاتوا إلى مالك وقالوا له هذا عبدنا أبق منا وكتم يوسف حاله مخافة ان يقتلوه فقال مالك أنا أشتريه منكم فباعوه منه فذلك قوله تعالى (وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين) أى باعوه بثمن ناقص حرام لأن ثمن الحر حرام ثم بين الثمن فقال دراهم معدودة وإنما قال ذلك لأنهم كانوا فى ذلك الزمان لا يزنون ما كان وزنه أقل من أوقية أربعين درهما إنما كانوا يعدونها عداً فاذا بلغ أوقية وزنوه لأن أقل أوزانهم وأصغرها يومئذ أوقية أربعون درهما واختلف العلماء فى عدد الدراهم التى باعوا بها يوسف فقال ابن مسعود وابن عباس وقتادة والسدى عشرون درهما واقتسموها بينهم درهمين درهمين وقال مجاهد اثنان وعشرون درهما وقال عكرمة أربعون درهما وإنما باعوه بهذا القدر لأنهم كانوا من الزاهدين لم يعلموا كرامته على الله ولا منزلته عند الله ويقال السبب فى استرقاق يوسف وبيعهم إياه إن إبراهيم دخل مصر فى بعض الأزمنة فلما خرج منها شيعه زهادهم وعبادهم حفاة مشاة إلى أربعة فراسخ تعظيما لهو إجلالا ولم يترجل لهم إبراهيم فاوحى الله اليه أنك لم تنزل لعبادى وهم يمشون معك حفاة لاعاقبنك بان يباع ولد من أولادك فى هذه المدينة ثم إن مالك بن دعر انطلق وأصحابه بيوسف ومعهم أخوته يتسوقون لهم استوثقوا منه فانه آبق سارق كاذب وقد برئنا اليكم من عيوبه فحمله مالك على باقة له وصاروا إلى مصر وكان طريقهم على قبر أمه فلما رأى قبر أمه لم يتمالك فرمى نفسه من على الناقة إلى القبر وهو يقول يا أمى يا رحيل حلى عنك عقدة الردى وارفعى رأسك من الثرى وانظرى إلى ولدك يوسف وما لقى بعدك من البلاء يا أماه لو رأيتى ذلى وضعفى لرحمتينى يا أماه لو رأيتينى وقد نزعوا قميصى وشدونى وفى الجب القونى وعلى حر وجهى لطموه بالحجارة رجموني وبأيد حمونى وكما تباع العبيد باعونى وكما يحمل الأسير حملونى (قال كعب الاحبار) فسمع يوسف منادياً من خلفه وهو يقول اصبر وما صبرك إلا بالله قال فافتقده مالك عن الناقة التى كان عليها فلم يجده فصاح فى القافلة إلا أن الغلام رجع إلى أهله فطلب القوم يوسف فرأوه فاقبل عليه رجل منهم فقال يا غلام قد أخبرنا مواليك بانك آبق سارق فلن نصدق حتى رايناك تفعل ذلك فقال والله ما أبقت ولكنكم مررتم على قبر أمى فلم اتمالك ان رميت نفسى على قبرها قال فرفع مالك بن دعر يده ولطم حر وجهه وجره

البعير فى رغائه وما يقول الطاووس فى صياحه وما يقول الدراج فى صفيره، وما يقول البلبل فى تغريده وما يقول الضفدع فى تسبيحه وما يقول الناقوس فى نفيره وأخبرنا عن قوم أوحى الله اليهم لامن الجن ولا من الإنس ولا من الملائكة وأخبرنا أين يكون الليل إذا جاء النهار وأين يكون النهار إذا جاء الليل. فقال أبو يزيد هل بقى مسائل غير هذه المسائل فقال لا فقال إن فسرتها لكم وأجبت عنها تؤمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ فقالوا نعم فقال اللهم انت الشاهد على ما يقولون (أما) سؤالكم عن واحد لاثانى له فهو الله عز وجل (وأما) سؤالكم عن اثنين لاثالث لهما فهما الليل والنهار لقوله تعالى وجعلنا الليل والنهار آيتين (واما) سؤالكم عن ثلاثة لارابع لها. فهى العرش والكرسى والقلم (واما) سؤالكم عن اربعة لاخامس لها فهى الكتب المنزلة وهى التوراة والإنجيل والزبور والفرقان (واما) سؤالكم عن خمسة لاسادس لها فهى الصلوات الخمس المفروضات على كل مسلم ومسلمة (واما) سؤالكم عن ستة لاسابع لها فهى الستة ايام التى ذكرها الله فى كتابه العزيز بقوله ولقد

حتى حمله على ناقته ويروى أنهم قيدوه فذهبوا به حتى قدموا مصر قال مالك ما نزلت منزلا ولا ارتحلت إلا استبان لى بركة يوسف وكنت اسمع تسليم الملائكة عليه صباحا ومساء وكنت أنظر إلى غمامة بيضاء تظله وتسير فوق رأسه إذا سار وتقف على رأسه إذا وقف فلما قدموا مصر أمره مالك ابن دعران يغتسل فاغتسل والبسه ثوبا حسناً وعرضه للبيع فاشتراه قطفير بن رحيب وهو العزيز بمصر ونواحيها وكان على خزائن الملك الأعظم وكان الملك يومئذ بمصر وفواحيها الريان بن الوليد بن ثروان ابن أراشة بن فاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام ويروى أن هذا الملك ما مات حتى آمن بيوسف وتبعه على دينه ثم مات ويوسف حى ثم ملك بعده قابوس بن مصعب بن معاوية بن نمير بن السلواس بن فاران بن عمر ابن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام وكان كافرا فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى أن يسلم (وقال وهب بن منبه) قدمت السيارة إلى مصر فدخلوا بيوسف إلى السوق يعرضونه للبيع فترافع الناس فى ثمنه وتزايدوا حتى بلغ ثمنه وزنه مسكا وورقا وحريراً فابتاعاه قطفير بهذا الثمن من مالك فلما اشتراه أتى به منزله وقال لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وإنما راعيل بنت رعيائيل قاله اسحق بن يسار اخبرنى ابن فتحويه اخبرنى ابن أبى شيبة أخبرنا أبو حامد المسلمى أخبرنا أبو هاشم الرفاعى قال اسم امرأة العزيز بكا بنت فيوش قالوا فقال لها أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً نتبناه وقال ابن اسحق كان قطفير لا يأتى النساء وكانت امرأته راعيل حسناء ناعمة فى ملك ودنيا (أخبرنا) أبو بكر الحوزى أخبرنا أبو العباس الدعولى بسرحين أخبرنا على بن الحسين الهلالى أخبرنا أبو نعيم أخبرنا زهير عن ابن اسحق عن أبى عميد عن عبيد عن عبد الله بن مسعود قال أفرس الناس ثلاثة العزيز حين تفرس فى يوسف وقال لامرأته أكرمى مثواه والمرأة التى أتت موسى فقالت لأبيها يا أبت استأجره وأبو بكر حين استخلف عمر قال الله تعالى (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض) يعنى أرض مصر قال أهل الكتاب لما تم يوسف فى الأرض ثلاثون سنة استوزره فرعون مصر وجعله على خزائنه فذلك قوله تعالى (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث) الآية قالوا فلما أتى العزيز بيوسف إلى منزله وقال لامرأته أكرمى مثواه فتأملته امرأة العزيز ورأت حسنه وجماله وقع حبه فى قلبها وعشقته فراودته أى طلبت منه متابعتها على هواها وذلك قوله تعالى (وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك) أى هلم تدعوه إلى نفسها فقال يوسف عند ذلك معاذ الله انه ربى أحسن مثواى يعنى زوجك قطفير سيدى انه احسن مثواى انه لا يفلح الظالمون يعنى ان فعلت هذا الخيانة فى أهله بعد ما أكرمنى وائتمنى فأنا ظالم له ولا يفلح الظالمون قال الله تعالى (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ومعنى الهم بالشىء ما حدث المرء به نفسه ولم يفعل ذلك بعد قال الشاعر:

همت ولم أفعل وكدت وليتنى ٭ تركت على عثمان تبكى حلائله

وأما ما كان من هم يوسف بالمرأة وهمها به فاختلف أهل العلم فى ذلك قال السدى وابن اسحق لما أرادت امرأة العزيز مراودة يوسف عن نفسه وجعلت تذكر له محاسن نفسه وتشوقه إلى نفسها فقالت له يا يوسف ما أحسن شعرك قال هو أول شىء يتناثر من جسدى قالت يا يوسف ما أحسن عينيك قال هما اول ما يسيل فى الأرض من جسدى قالت ما احسن وجهك قال التراب يأكله (أخبرنا) حسن ابن عطية عن إسرائيل بن حضين عن أبى سعيد قال ابن عباس فى قوله تعالى لولا أن رأى برهان ربه قال مثل له يعقوب فضرب بيده على صدره فخرجت شهوته من أنامله وقال الحسن ومجاهد وعكرمة والضحاك انفجرت له سقف البيت فرأى يعقوب عاضاً على أصبعه قال فكل بنى يعقوب ولده إثنا عشر ولداً إلا يوسف فانه ولده أحد عشر ولداً من أجل ما نقص من شهوته حين رأى صورة أبيه فاستحيا منه وقال

قتادة رأى صورة يعقوب فقال له يعقوب يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب فى ديوان الأنبياء وقال السدى نودى يا يوسف لا تواقعها إنما مثلك مالم تواقعها مثل الطير فى جو السماء لا يطاق ومثلك أن واقعتها مثله إذا مات ووقع فى الأرض لا يقدر أن يدفع عن نفسه ومثلك مالم تواقعها مثل الثور الصعب الذى لا يعمل عليه وعن ابن عباس فى قوله تعالى (ولقد همت به وهم بها) فقال جلس سر اويله وقعد منها مقعد الرجل من امرأته فإذا بكف قد بدت فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون فقام هارباً وفاراً فلما ذهب عنهما الروع والرعب عادت وعاد فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته إذا الكف قد بدت بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله الآية فقام هارباً وفاراً فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته إذا الكف قد بدت بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا فقام هارباً وقامت فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته قال الله تعالى لجبريل عليه السلام يا جبريل أدرك عبدى قبل أن يصيب الخطيئة فانحط جبريل عاضاً على أصبعه أو كفه وهو يقول يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب عند الله فى الأنبياء قال تعالى كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين وفى قوله تعالى لولا أن رأى برهان ربه قال قامت امرأة العزيز إلى الصنم فظلت دونه بثوب قال فقال لها يوسف ما هذا قالت أستحى أن يرانا فقال لها يوسف أتستحين ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يفقه ولا أستحى أنا ممن خلق الأشياء كلها وعلمها. قالوا فلما رأى يوسف البرهان قام مبادراً إلى البيت هارباً مما أرادته فاتبعته المرأة فذلك قوله تعالى واستبقا الباب يعنى تبادر يوسف وراعيل إلى الباب أما يوسف ففراراً من ركوب الفاحشة وأما المرأة فطلبا ليوسف ليقضى حاجتها التى راودته عنها فأدركته فتعلقت بقميصه من خلفه فجذبته اليها مانعة له من الخروج فقدت أى خرقت وشقت قميصه من دبر أى من خلفه لأن يوسف كان الهارب والمرأة الطالبة فلما خرجا ألفيا سيدها لدى الباب أى وجدا زوجها قطفير عند الباب جالساً مع ابن عم لراعيل فلما رأته هابته وقالت سابقة بالقول لزوجها ما جزاء من أراد بأهلك سوءا يعنى الزنا إلا ان يسجن أو عذاب أليم يعنى الضرب بالسياط (عن ابن عباس) وهذا كالمثل السائر خذ اللص قبل أن يأخذك فقال يوسف بل هى راودتنى عن نفسى فأبيت وفررت فأدركتنى وشقت قميصى قال نوف الشامى ما كان يوسف يريد أن يذكرها فلما قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا غضب وقال هى راودتنى عن نفسها وشهد شاهد من أهلها واختلفوا فى هذا الشاهد من هو (قال) سعيد بن جبير والضحاك كان صبياً فى المهد أنطقه الله تعالى يدل عليه حديث ابن عباس عن النبى ﷺ قال تكلم أربعة فى المهد وهم صغار ابن ماشطة بنت فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج الراهب وعيسى ابن مريم وقال الحسن وعكرمة وقتادة ما كان صبياً ولكن كان رجلا حكيما وله راى وكان من خاصة الملك وقال السدى هو ابن عم راعيل كان جالساً مع زوجها على الباب فحكم بما أخبر الله تعالى عنه إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين فلما رأى قميصه قد من دبر عرف خيانة امرأته وبراءة يوسف عليه السلام فقال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ثم اقبل على يوسف فقال يا يوسف أعرض عن هذا الحديث لا تذكره لأحد ثم قال لامرأته استغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين اى المذنبين حين راودت شاباً عن نفسه وخنت زوجك فلما استعصم كذبت عليه (قالوا) فشاع أمر يوسف وراعيل وتحدث الناس بذلك وقال نسوة فى المدينة وهن امرأة الساقى وامرأة الخباز وامرأة صاحب الدواة وامرأة صاحب السجن وامرأة الحاجب امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه

عن الذاريات ذروا فهى الرياح الأربع (وأما) سؤالكم عن الحاملات وقرا فهى السحب (وأما) سؤالكم عن الجاريات يسرا فهى السفن الجارية فى البحار (وأما) سؤالكم عن المقسمات أمرا فهم الملائكة الذين يقسمون على الناس أرزاقهم فى ليلة النصف من شعبان (وأما) سؤالكم عن أربعة عشر تكلموا مع رب العالمين فهى السموات السبع والأرضون السبع لقوله تعالى فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين.

(وأما) سؤالكم عن قبر مشى بصاحبه فهو حوت يونس عليه السلام

(وأما) سؤالكم عن شىء تنفس بغير روح فهو الصبح (وأما) سؤالكم عن ماء لا نزل من السماء ولا نبع من الأرض فهو الذى بعثته بلقيس إلى سليمان عليه السلام فى قارورة وكان من عرق الخيل (وأما) سؤالكم عن أربعة لا من الجن ولا من الإنس ولا من الملائكة ولا من ظهر أب ولا من بطن أم فهى كبش إسماعيل وناقة صالح وآدم وحواء (وأما) سؤالكم عن شىء خلقه الله ثم انكره فهو صوت الحمار كما قال الله تعالى إن أنكر الأصوات

أى عبدها الكنعانى قد شغفها حباً أى دخل حبه فى شغاف قلبها وهو حجابه وغلافه إنا لنراها فى ضلال مبين أى خطأ بين حيث تراود عبدها عن نفسه فلما سمعت راعيل بمكرهن أى بقولهن وحديثهن وقال ابن إسحق يعنى بكيدهن وذلك إنما قلنه مكراً بهن لتريهن يوسف لما بلغهن من حسنه وجماله فاتخذت راعيل مائدة ودعت أربعين امرأة منهن هولاء اللواتى عيرنها فذلك قوله تعالى (أرسلت إليهن واعتدت لهن متكأ) اعتدت أى هيأت لهن مجلساً للطعام وما يتكئن عليه من النمارق والوسائد (عن ابن عباس) وسعيد بن جبير وقتادة يعنى هيأت طعاما وقرأ مجاهد متكأ خفيفا غير مهموز وهو كل طعام تحزه بالسكين وقال وهب أعدت لهن أترجا وبطيخا وموزا ورمانا ووردا وأتت كل واحدة منهن سكيناً وقالت أخرج عليهن وكانت قد أجلسته فى مجلس غير المجلس الذى هن فيه جلوس فخرج عليهن يوسف فلما رأينه أكبرنه وهالهن أمره وبهتن وقطعن أيديهن بالسكاكين اللاتى معهن وهن يحسبن أنهن يقطعن الأترج وغيره (وقال وهب) بلغنى أن سبعاً من الأربعين امرأة متن وجداً بيوسف عليه السلام وقلن حاشا لله أى معاذ الله ما هذا بشراً فى حبه وشغفن به ثم إنها أبدت لهن الميل الذى عندها فقالت ولقد راودته عن نفسه فاستعصم أى امتنع واستعصى فقالت النسوة ليوسف أطع مولاتك فقالت راعيل والئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين فاختار يوسف حين عاودته المرأة فى المراودة وتوعدته بالسجن على المخالفة فقال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى اليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب اليهن أى أمل واتابعهن فاستجاب لربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ثم بدا لهم أى العزيز وأصحابه من بعد ما رأوا الآيات الدالة على براءة يوسف وهو قد القميص من دبر وخمش الوجه وقطع النسوة أيديهن ليسجننه حتى حين (قال السدى) وذلك أن المرأة قالت لزوجها أن هذا العبد العبرانى فضحنى فى الناس يعتذر اليهم ويخبرهم أنى راودته عن نفسه ولست أطيق أن اعتذر بعذر فأما أن تأذن لى اخرج فأعتذر وأما تحبسه لما حبستنى فحبسه بعد علمه ببراءته دفعا للتهمة عن امرأته وذلك أن الله تعالى جعل ذلك الحبس تطهيراً ليوسف من همه وتكفيراً لذلته قال ابن عباس عتر يوسف ثلاث عترات حين هم بها فسجن وحين قال اذكرنى عند ربك فلبث فى السجن بضع سنين وحين قال لإخوته إنكم لسارقون قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل. ولما سجن يوسف دخل معه السجن فتيان وهما غلامان كانا للوليد بن الريان ملك مصر الأكبر أحدهما خبازه وصاحب طعامه واسمه مجلب والآخر ساقيه وصاحب شرابه واسمه بيوص غضب عليهما الملك فحبسهما وذلك أنه بلغه عنهما أن خبازه يريد أن يسمه وأن ساقيه وافقه على ذلك وكان السبب فيه أن جماعة من مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله فدسوا إلى هذين الغلامين وضمنوا لهما مالا ليسما الطعام للملك والشراب فأجابهم إلى ذلك ثم أن الساقى تكل عنه والخباز غش الملك وقبل الرشوة فسم الطعام فلما حضر وقته واحضر الطعام قال الساقى أيها الملك لا تأكل فإن الطعام مسموم وقال الخباز لك لا تشرب فإن الشراب مسموم فقال الملك للساقى اشرب فشرب فلم يضره وقال للخباز كل من طعامك فأبى فجرب ذلك الطعام فى دابة من الدواب فأكلته فهلكت فأمر الملك بحبسهما وكان يوسف عليه السلام لما دخل السجن قال لأهله إنى أعبر الأحلام وقال مجاهد لما رأى الفتيان يوسف قالا له والله لقد أحببناك حين رأيناك فقال لهما يوسف أنشدكما الله تعالى لا تحبانى فوالله ما أحبنى أحد قط إلا دخل على من حبه بلاء لقد احبتنى عمتى فدخل على من حبها بلاء ثم احبنى أبى فدخل على من حبه بلاء ثم احبتنى زوجة صاحبى فدخل على من حبها بلاء فلا تحبانى بارك الله فيكما قال فايما الاحبه وألفاه حيث كان وجعل يعجبهما ما يريانه منه من فهمه وعقله وقد كانا رأيا حين دخل السجن رؤيا فاتيا يوسف فقال الساقى أيها العالم إنى رأيت كأنى فى بستان فإذا أنا باصل كرمة عليها ثلاثة عناقيد من عنب فجنيتها وكان كأس الملك بيدى

لصوت الحمير (وأما) سؤالكم عن أول دم أهريق على وجه الأرض فهو دم هابيل لما قتله قابيل

(وأما) سؤالكم عن شىء خلقه الله واستعظمه فهو كيد النساء لقوله تعالى إن كيدكن عظيم

(وأما) سؤالكم عن شىء أوله عود وآخره روح فهى عصا موسى لقوله تعالى وما تلك بيمينك يا موسى الآية

(وأما) سؤالكم عن أفضل النساء فحواء أم البشر وخديجة وعائشة وآسيا ومريم ابنة عمران

(وأما) سؤالكم عن أفضل البحار فسيحون وجيحون والفرات ونيل مصر

(وأما) سؤالكم عن أفضل الجمال فهو الطور

(وأما) سؤالكم عن أفضل الدواب فهو الخيل

(وأما) سؤالكم عن أفضل الشهور فشهر رمضان

(وأما) سؤالكم عن أفضل الليالى فليلة القدر

(وأما) سؤالكم عن الطامة فهى يوم القيامة

(وأما) سؤالكم عن شجرة لها إثنا عشر غصنا فى كل غصن ثلاثون ورقة وفى كل ورقة خمس زهرات إثنان فى الشمس وثلاثة فى الظل فهى السنة والأغصان هى الشهور والأوراق هى الأيام والخمس زهرات هى الخمس صلوات فى اليوم والليلة

(وأما) سؤالكم عن شىء حج إلى البيت الحرام وطاف وليس له روح ولا وجب عليه فريضة فهى سفينة نوح عليه السلام

فعصرتها وسقيت الملك شربة فذلك قوله تعالى (قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً) يعني عنباً بلغة عمان يدل عليه قراءة ابن مسعود أعصر خمراً أي عنباً وقال الخباز (إني رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سلال فيها خبز تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين) كان إحسانه إذا مرض رجل في السجن قام عليه فإذا ضاق عليه وسع له وإن احتاج جمع له وسأل ربه وقال قتادة بلغنا أن إحسانه كان يداوي مريضهم ويعزي حزينهم ويجتهد لربه وقال لما انتهى يوسف إلى السجن وجد فيه قوماً قد انقطع رجاؤهم واشتد بلاؤهم وطال حزنهم فجعل يقول ابشروا واصبروا تؤجروا إن في هذا الأجر ثواباً فقالوا يا فتى بارك الله فيك ما أحسن وجهك وخلقك وحديثك لقد بورك لنا في جوارك إنا لنحب أن تكون في غير هذا المكان منذ رأيناك لما تخبرنا به من الأجر والكفارة والطهارة في ذلك فمن أنت يا فتى قال أنا يوسف بن صفي الله يعقوب بن ذبيح الله إسحق بن خليل الله إبراهيم عليه السلام فقال له عامل السجن والله يا فتى لو استطعت لخليت سبيلك ولكن سأحسن جوارك وأحسن إيثارك فكن في أي بيت شئت قال فكره يوسف أن يعبر لهما ما سألاه لما علم في ذلك من المكروه على أحدهما فأعرض يوسف عن سؤالهما وأخذ في غيره قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما فقالا له هذا فعل الكهنة والسحرة فقال ما أنا بكاهن ولا ساحر ولكن ذلكما مما علمني ربي ثم بين لهما دينه ومذهبه فقال إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب إلى آخر الآية فأراهما يوسف فطنته ودرايته ثم دعاهما إلى الإسلام وأقبل عليهما وعلى أهل السجن وكان بين أيديهم أصنام يعبدونها من دون الله فقال إلزاماً للحجة يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ما تعبدون من دونه الآية ثم فسر رؤيا هما لما أحاله عليه قال يا صاحبي السجن أما أحدكما وهو الساقي فيسقي ربه خمراً يعني الملك ويعود إلى منزلته التي كان عليها وأما العناقيد الثلاثة فإنها ثلاثة أيام يبقى في السجن ثم يخرج وأما الآخر فيصلب والسلال التي رآها في المنام ثلاثة أيام يبقى في السجن ثم يخرج فيصلب فتأكل الطير من رأسه (قال ابن مسعود) ثم لما سمعا قول يوسف عليه السلام قالا ما رأينا شيئاً وإنما كنا نلعب ونجرب علمك هذا فقال يوسف قضي الأمر الذي فيه تستفيان أي فرغ الأمر الذي عنه تسألان وقال ﷺ الرؤيا لأول عابر فقال يوسف عليه السلام عند ذلك للذي علم أنه ناج منهما وهو الساقي اذكرني عند ربك يعني الملك وقل له في السجن غلام محبوس ظلماً فأنساه الشيطان ذكر ربه الآية والبضع ما بين الثلاثة إلى العشرة وأكثر المفسرين على أن البضع في هذه الآية سبع سنين (وقال) وهب بن منبه أصاب أيوب البلاء سبع سنين وعذب يختصر بالمسخ سبع سنين وترك يوسف في السجن سبع سنين (وروى) يونس عن الحسن قال قال رسول الله ﷺ رحم الله أخي يوسف لولا كلمته ما لبث في السجن يعني قوله اذكرني عند ربك ثم بكى وقال الحسن نحن إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى الناس (وقال مالك) بن دينار لما قال يوسف للساقي اذكرني عند ربك فقيل له يا يوسف اتخذت من دوني وكيلا لأطيلن حبسك فبكى يوسف وقال يا رب أنسى قلبي كثرة البلوى فقلت ما قلت فويل لإخوتي ويحكى أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف وهو في السجن فلما رآه يوسف عرفه وقال يا أخا المنذرين مالي أراك بين المخطئين فقال جبريل عليه السلام يا طاهر الطاهرين يقرأ عليك السلام رب العالمين ويقول لك ما استحييت مني إن استشفعت بالآدميين فوعزتي لأطيلن حبسك في السجن بضع سنين قال يوسف يا أخي يا جبريل وهو في ذلك راض عني قال نعم قال إذ لا أبالي (وقال كعب الأحبار) قال جبريل ليوسف إن الله تعالى يقول لك من خلقك قال الله تعالى قال فمن حببك إلى أبيك قال الله تعالى قال فمن آنسك في البئر وألبسك وأنت عريان قال الله تعالى قال فمن نجاك من كرب البئر قال الله تعالى قال فكيف اشتغفت بآدم مثلك قالوا فلما انقضت سبع سنين قال الكلبي وهذه السبع سوى الخمس التي كانت قبلها وذلك أنه حبس خمس سنين قبل أن يستشفع وهو قوله تعالى (ليسجننه حتى

(وأما) سؤالكم عن أربعة تختلف طعمها ولونها والأصل واحد فهي العينان والأذنان والأنف والفم فماء العين مالح وماء الأذنين مر وماء الفم حلو.

(وأما) سؤالكم عن الفتيل والقطمير والنقير والنقرة التي في ظهر النواة والفتيل هو الذي في باطنها والقطمير هو القشر الذي فوقها. (وأما) سؤالكم عن السبد واللبد فهو شعر الضأن والمعز (وأما) سؤالكم عن الطم والرم فهي الأمم الماضية قبل آدم عليه السلام.

(وأما) سؤالكم عما يقول الحمار في نهيقه فإنه يرى الشيطان ويقول لعن الله العشار (وأما) سؤالكم عما يقول الكلب في نبيحه فإنه يقول ويل لأهل النار من غضب الجبار (وأما) سؤالكم عما يقول الفرس في صهيله يقول سبحان حافظي إذا التقت الأبطال واشتغلت الرجال بالرجال (وأما) سؤالكم عما يقول البعير في رغائه فإنه يقول حسبي الله وكفى بالله وكيلا.

(وأما) سؤالكم عما يقول البلبل في تغريده فإنه يقول فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون

(وأما) سؤالكم عما يقول الضفدع في تسبيحه فإنه يقول سبحان المعبود في البراري والقفار سبحان الملك الجبار (وأما) سؤالكم عما يقول الناقوس في قبره فإنه يقول سبحان الله

حتما فظر يا ابن آدم فى هذه الدنيا غربا وشرقا ما ترى فيها أحدا يبقى (وأما) سؤالكم عن قوم أوحى الله إليهم لا من الجن ولا من الإنس ولا من الملائكة فهو النحل لقوله تعالى وأوحى ربك إلى النحل الآية

(وأما) سؤالكم عن الليل أين يكون إذا جاء النهار وعن النهار أين يكون إذا جاء الليل فإنهما يكونان فى غامض علم الله تعالى ثم قال أبو زيد هل بقى معكم مسائل غير ذلك فقالوا لا فقال أخبرونى عن مفتاح الجنة ومفتاح السموات ما هو قال فسكتوا ولم يتكلموا فقال أبو زيد سألتمونى عن مسائل كثيرة فأجبت عنها وقد سألتكم عن مسألة واحدة فلم تجيبوا عنها أعجزتم عنها فقالوا نعم ثم التفتوا إلى كبيرهم وقالوا أو عجزت عن ذلك فقال ما عجزت ولكن أخاف أن لا توافقونى فقالوا بل نوافقك فإنك كبيرنا ومهما قلت لنا سمعناك ووافقناك عليه قال مفتاح الجنة والسموات لا إله إلا الله محمد رسول الله فقالوها وأسلموا عن آخرهم وحسن إسلامهم وخرجوا من الدير وخربوه وبنوه مسجدا وقطعوا زنانيرهم فهنالك نودى أبو يزيد شددت من أجلنا زنارا فقطعنا من أجلك خمسمائة زنار

(إخوانى) انظروا إلى هؤلاء كلهم قد كانوا كفارا فى ظلمات العمى فأنقذهم الله

حين) فلما استشفع بالساقى وقال له أذكرنى عند ربك بقى فى السجن سبع سنين فلما انتهت محنته ودنا فرجه وراحته رأى ملك مصر الأكبر وهو الريان بن الوليد رؤيا عجيبة فهالته وذلك أنه رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان فدخلت فى بطونهن فلم يرمنها شيئا ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وأفرك وسبعا أخر يابسات قد استحصدت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبتها فجمع السحرة والكهنة ومعبريه وقصها عليهم وقال يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون أى تفسرون قالوا أضغاث أحلام مختلطة مشتبهة التأويل أباطيل ومانحن بتأويل الأحلام بعالمين وقال الذى نجا منهما أى من الفتيين وهو الساقى وادكر بعد أمة أى وتذكر حاجة يوسف بعد حين قال ابن عباس بعد أمة أى بعد سنين أنا أنبئكم بتأويله فارسلون أى إلى السجن قال ابن عباس رضى الله عنهما لم يكن فى السجن فى المدينة فبعثوه فاتى ليوسف فقال فقال له أيها الصديق يعنى فسما عبرت لنا من الرؤيا والصديق هو كثير الصدق أفتنا فى سبع بقرات سمان يا كلن سبع عجاف إلى قوله لعلهم يعلمون أى فضلك وعلمك فقال له يوسف تزرعون سبع سنين دأبا إلى قوله وفيه يعصرون فرجع الساقى إلى الملك وأخبره بما أفتاه به يوسف من تاويل رؤياه كالنهار وعرف الملك أن الذى قال كائن فقال الملك ائتونى بالذى عبر رؤياى هذه فلما جاء الرسول إلى يوسف أبى أن يخرج معه حتى يعرف عذره وبراءته ويعرف صحة أمره من قبل النسوة فقال للرسول ارجع إلى ربك أى سيدك الملك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم (قال ابن عباس) لو خرج يوسف يومئذ قبل أن يعلم الملك شانه مازالت فى نفسه منه حاجة يقول هو الذى راود امرأتى قال فرجع الرسول إلى الملك من عند يوسف برسالته فدعا الملك النسوة اللاتى قطعن أيديهن وامرأة العزيز وقال لهن ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاشا لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين فلما سمع يوسف قال ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين فقال له جبريل ولا حين هممت بها يا يوسف فقال يوسف عند ذلك وما أبرئ نفسى الآية فلما تبين للملك عذر يوسف وعرف أمانته وكفايته وديانته وعلمه وعقله قال ائتونى به أستخلصه لنفسى فلما جاء الرسول إلى يوسف قال له أجب الملك الآن فخرج يوسف ودعا لأهل السجن بدعاء يعرف إلى اليوم وذلك أنه قال اللهم عطف عليهم قلوب الأخيار ولا تعم عنهم الأخبار فهم أعلم الناس بالأخبار إلى اليوم فى كل بلدة فلما خرج يوسف من السجن كتب على بابه هذا قبر الأحياء وبيت الأحزان وتجربة الأصدقاء وشماتة الأعداء ثم إنه اغتسل وتنظف من درن السجن ولبس ثيابا جددا حسنا وقصد إلى الملك قال وهب فلما وقف بباب الملك قال حسبى ربى من دنياى حسبى ربى من خلقه عز جاره وجل ثناؤه ولا إله غيره فلما دخل على الملك قال اللهم إنى أسالك بخيرك من خيره وأعوذ بك من شره وشر غيره فلما نظر إليه الملك سلم عليه يوسف بالعربية فقال له ما هذا اللسان قال لسان عمى إسمعيل ثم إنه دعا له بالعبرانية ثانيا فقال له الملك ما هذا اللسان قال لسان أبى يعقوب قال وهب وكان الملك يتكلم بسبعين لسانا فكلما كلم يوسف بلسان أجابه بذلك اللسان فاعجب الملك ما رأى منه وكان يوسف ابن ثلاثين سنة فلما راى الملك حداثة سنه وغزارة علمه قال لمن عنده إن هذا علم تاويل رؤياى ولم تعلمه الكهنة والسحرة ثم أنه أجلسه وقال له إنى أحب أسمع رؤياى منك شفاها فقال يوسف نعم أيها الملك رأيت سبع بقرات سمان شهب حسان غير عجاف كشف لك عنهن نهر النيل فطلعن عليك من شاطئه تشخب أخلافهن لبنا فبينما أنت كذلك تنظر إليهن وقد أعجبك حسنهن إذ نضب النيل فغار ماؤه وندا قعره فخرج من حمئه وحله سبع

ى من الرذى بنور الهدى فكل ذلك ببركة نبينا محمد ﷺ

جاف شعث غير ملصقات البطون وليس لهن ضروع ولا أخلاف ولهن أنياب واضراس وأكف كأكف السكلاب وخراطيم كخراطيم السباع فاختلطن بالسمان وافترسنهن افتراس السباع وأكل لحمهن ومزقن جلودهن وحطمن عظامهن ومششن مخهن فبينما أنت تنظر وتتعجب كيف غلبنهن ومن مهازيل ثم لم يظهر فيهن سمن ولا زيادة بعد أكلهن إذا سبع سنبلات خضر وسبع أخر سود يابسات فى منبت واحد عروقهن فى الثرى والماء فبينما أنت تقول فى نفسك ما هذا هؤلاء خضر مشمرات وهؤلاء سود يابسات والمنبت واحد وأصولهن فى الماء ذاهب ريح فردت أوراق السود اليابسات على الخضر المشمرات فاشتعلت فيهن النار فأحرقتهن وصرن سودا متغيرات هذا آخر ما رأيت من الرؤيا ثم إنك انتبهت مذعوراً فقال له الملك والله ما شأن هذه الرؤيا إن كانت عجباً أعجب مما سمعته منك فما ترى فى رؤياى أيها الصديق فقال يوسف الصديق إنى أرى أيها الملك أن تجمع الطعام وتزرع زرعاً كثيراً فى هذه السنين المخصبة وتبنى الأهرام والخزائن وتجعل الطعام فيها بقصبه وسنبله ليكون أبقى له ويكون قصبه وسنبله علفاً للدواب وتأمر الناس أن يرفعون من طعامهم الخمس فيكفيك الطعام الذى جمعته لأهل مصر ومن حولها ثم تأتيك الخلق من جميع النواحى فيمتارون منك بحكمك فيجتمع عندك من الكنوز ما لا يجتمع لأحد قبلك فقال له الملك ومن لى بهذا ومن يجمعه ويبيعه لى ويكفينى الشغل فيه فقال له يوسف اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم أى كاتب حاسب وقيل حفيظ لما استودعتنى عليم بسنى المجاعة وبلغة من يأتينى فقال الملك ومن أحق به منك وولاه ذلك كله وقال له إنك اليوم لدينا مكين أمين

(وروى) سفيان عن أبى ستان عن عبد الله بن أبى الهذلى قال قال الملك ليوسف إنى أريد أن أشاطنى فى كل شىء غير إنى آنف أن تأكل معى فقال له يوسف إنى أحق أن آنف بذلك منك إنى أنا ابن يعقوب إسرائيل الله ابن إسحق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله فصار بعد ذلك يأكل معه قال ابن عباس فلما انصرفت السنة من يوم سأل الامارة دعاه الملك فتوجه بتاجه وقلده بسيفه وحلاه بخاتمه وأمر له بسرير من الذهب مكلل بالدر والياقوت فضرب عليه قبة من استبرق وكان طول السرير ثلاثين ذراعاً وعرضه عشرة أذرع وعليه ثلاثون فراشاً وستون نمرقة وأمره أن يخرج فخرج متوجاً ولونه كالثلج ووجهه كالقمر يرى فيه من بياض وجهه الناظر بياض لونه ثم انطلق حتى جلس على السرير فدانت له الملوك ولزم الملك وفوض إليه أمر مصر وعزل قطفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه ثم مات قطفير عن قريب فزوج الملك يوسف بامرأة قطفير فلما دخل عليها قال لها أليس هذا خيراً مما كنت تريدين منى قالت له أيها الصديق لا تلمنى فإنى كنت امرأة حسناء ناعمة كما رأيت فى ملك ودنيا وكان صاحبى لا يأتى النساء وكنت كما جعلك الله فى صورتك وهيئتك فغلبتنى نفسى فلما بنى بها يوسف وجدها عذراء فأصابها فولدت له إبنين افرايم ومنشا إبنى يوسف عليه السلام واستوثق ليوسف ملك مصر فأقام فيهم العدل فأحبه الرجال والنساء فذلك قوله تعالى وكذلك نجزى المحسنين وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يعنى أرض مصر يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين والبحترى فى هذا المعنى :

أما فى رسول الله يوسف أسوة ... لمثلك محبوساً على الظلم والإفك
أقام جميل الصبر فى السجن برهة ... فآل به الصبر الجميل إلى الملك

وكتب بعضهم إلى صديق له هذه الأبيات :

وراء يضيق الخوف متسع الأمن ... وأول مخروج به آخر الحزن
فلا تيأسا فالله ملك يوسفاً ... خزائنه بعد الخلاص من السجن

فانظروا إلى كلمة الإخلاص ما أعظم بركاتها وما أنجع حركاتها فرطبوا ألسنتكم بها لتنالوا بركة إحسانها وتظفروا بحلاوة امتنانها وتدخلوا حرم أمانها فإنها حصن منيع ودرع رفيع وقد قال الله تعالى فى كتبه المنزلة أكثروا من قول لا إله إلا الله فهو حصنى ومن دخل حصنى أمن من عذابى وقال بعض الصحابة من قال لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه ومدها بالتعظيم غفر الله تعالى له أربعة آلاف ذنب فإذا لم يكن عليه ذلك يغفر له من ذنوب أهله وجيرانه قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما الليل والنهار أربع وعشرون ساعة وحروف لا إله إلا الله محمد رسول الله أربعة وعشرون حرفاً فمن قال لا إله إلا الله محمد رسول الله كفر الله بكل حرف ذنب ساعة فلا يبقى عليه ذنب فانظروا يا إخوانى كيف خص الله هذه الأمة بهذه الرحمة فاجعلوا استكثاركم شغلكم تفوزوا برضوان ربكم .

(وعن وهب بن منبه) رضى الله تعالى عنه أنه قال لما خلق الله آدم عليه السلام ونفخ فيه من روحه ففتح عينيه فنظر إلى باب الجنة فرأى مكتوب عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله فقال يارب وهل خلقت خلقاً

قال فلما اطمأن يوسف فى ملكه وخلت السنين المخصبة ودخلت المجدبة جاءت بهول لم تر الناس مثله فاصاب الناس الجوع فلما كان بدء القحط نام الملك فبينما هو نائم إذ أصابه الجوع فهتف الملك يا يوسف الجوع الجوع فقال يوسف هذا أول القحط والجوع فلما دخل أول سنى الجدب هلك فيها كل شىء أعدوه من السنين المخصبة فجعل أهل مصر يبتاعون من يوسف الطعام فباعهم أول سنة بالنقود من الذهب والفضة حتى لم يبق فى مصر درهم ولا دينار إلا قبضه وباعهم فى السنة الثانية بالحلى والحلل والجواهر حتى لم يبق فى أيدى الناس منها شىء وباعهم فى السنة الثالثة بالمواشى والدواب حتى احتوى عليها أجمع وباعهم فى السنة الرابعة بالعبيد والإماء حتى لم يبق عبد ولا أمة إلا أخذه وباعهم فى السنة الخامسة بالضياع والعقار والدور حتى احتوى عليها ولم يبق لأحد ملك وباعهم فى السنة السادسة باولادهم فإن الرجل كان يشترى بولده الحنطة والشعير من شدة السنة فلم يبق لأحد ولد ذكر ولا أنثى إلا ما لبث وباعهم فى السنة السابعة برقابهم وأرواحهم حتى لم يبق بمصر حر ولا عبد ولا أمة إلا صار ملكا له فتعجب الناس من أمر يوسف وقالوا تالله ما رأينا ملكا أجل من هذا وأعظم ثم قالوا يوسف للملك كيف رأيت صنع ربى فيما خولنى فما ترى فى هذا فقال له الملك الرأى رأيك وإنما نحن لك تبع فقال يوسف إنى أشهد الله وأشهدك إنى قد أعتقت أهل مصر جميعاً ورددت عليهم عقارهم وعبيدهم وأولادهم وروى أن يوسف كان لا يشبع من الطعام فى تلك الأيام فقيل له أتجوع وبيدك خزائن الأرض فقال إنى أخاف إن شبعت أن أنسى الجائع (ويروى) أن يوسف أمر طباخ الملك أن يجعل غذاؤه نصف النهار مرة واحدة فى اليوم والليلة وأراد بذلك أن يذوق الملك طعم الجوع فلا ينسى الجائع ويحسن إلى المحتاجين ففعل الطباخ ذلك فمن ثم جعل المولى غذاءهم نصف النهار وقصد الناس مصر من كل ناحية يمتارون فجعل يوسف لا يمكن أحداً منهم وإن كان عظيما من أكثر من حمل بعير تقسيطاً بين الناس وتوسيعاً عليهم فتزاحم الناس عليه قالوا وأصاب أرض كنعان وبلاد الشام من القحط والشدة ما أصاب سائر البلاد ونزل بيعقوب من ذلك ما نزل باس فارسل بنيه إلى مصر يطلب الميرة وأمسك عنده بنيامين أخا يوسف لأمه فجاء بنو يعقوب إلى يوسف عليه السلام وكانوا عشرة وكان منزلهم بالقرب من أرض فلسطين من ثغور الشام وكانوا أهل بادية ومواش فلما دخلوا عليه عرفهم وهم له منكرون قالوا فلما نظر إليهم يوسف وكلموه بالعبرانية قال لهم أخبرونى من أنتم وما أمركم فإنى أنكرت شأنكم فقالوا نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار فقال لعلكم عيون جئتم تنظرون عورة بلادى فقالوا لا والله ما نحن بجواسيس وإنما نحن إخوة بنو أب واحد شيخ كبير صديق الله نبى من أنبياء الله تعالى يقال له يعقوب قال فكم أنتم قالوا نحن كنا إثنى عشر فذهب منا أخ إلى البرية فهلك فيها وكان أحب إلى أبينا منا قال كم أنتم هنا قالوا عشرة قال فاين الآخر قالوا عند أبينا لأنه أخو الذى هلك من أمه فابونا يتسلى به قال فمن يعلم أن ما تقولون حق قالوا أيها الملك إنا ببلاد لا نعرف فيها فقال يوسف فاتونى باخيكم الذى من أبيكم إن كنتم صادقين فإنى أرضى بذلك قالوا إنا أبانا يحزن على فراقه وسنراوده عنه قال فضعوا بعضكم عندى رهينة حتى تاتونى باخيكم فاقترعوا بينهم فاصاب القرعة شمعون وكان أبرهم بيوسف فخلفوه عنده فذلك قوله تعالى (ولما جهزهم بجهازهم قال ائتونى باخ لكم من أبيكم) الآية إلى قوله وإنا لفاعلون فقال عند ذلك لفتيانه أى لغلمانه الذين يكيلون الطعام اجعلوا بضاعتهم أى ثمن طعامهم قال ابن عباس كانت بضاعتهم النعال والأدم وقال قتادة كانت ورقاً فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون واختلف العلماء فى السبب الذى فعل ذلك يوسف بهم من أجله فقال الكلبى

أعز عليك منى فقال الجليل والديان فهو خير الأنبياء وأمته خير الأمم قال فلما خلق الله تعالى حواء ركب فيها الشهوة فقال آدم يا رب زوجنى بها فقال الله تعالى هات مهرها فقال يا رب وما مهرها فقال تصلى على صاحب هذا الإسم مائة مرة وأنا أزوجك بها فقال آدم يا رب إن فعلت ذلك تزوجنيها فقال الله عزوجل نعم فصلى آدم عليه السلام مائة مرة على النبى ﷺ فزوجه بها .

(وقال بعض الصوفية رضى الله تعالى عنه) كان لى جار مسرف على نفسه بالمعاصى فلما مات رأيته فى المنام وهو فى دار السلام فقلت له بما نلت هذه المنزلة قال حضرت مجلس الذكر فسمعت المحدث يروى عن رسول الله ﷺ ويقول أنه من صلى على صلاة ورفع بها صوته وجبت له الجنة ثم رفع المحدث صوته بالصلاة ورفعنا أصواتنا وجميع القوم فغفر لنا فى ذلك اليوم

(قال) ورأت امرأة ولدها بعد موته يعذب فحزنت على ذلك وبكت ثم رأته بعد ذلك فى السرور والرحمة قالت فسألته عن ذلك فقال مر بنا رجل فوقف بوسط المقبرة وصلى على النبى ﷺ وأهدى ثواب صلاته لجميع الأموات فحصل نصيبى من ذلك الرحمة

ف يوسف أن لايكون عند أبيه من الورق ما يرجعون إليه مرة أخرى وقيل خشى أن يشق
ذلك منهم على أبيه فإذا كانت السنة سنة جدب وقيل رأى لو ما أخذ ثمن الطعام من أبيه
وته مع احتياجهم إليه فرده عليهم من حيث لايعلمون تكرماً وتفضلا وقيل فعل ذلك لأنه
أن ديانتهم وأمانتهم تحملهم على رد البضاعة ولايستحلون إمساكها فيرجعون إليه لاجلها فلما
وا إلى أبيهم قالوا يا أبانا قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة لوكان رجل من ولد يعقوب
كرمنا كرامته فقال لهم يعقوب إذا أتيتم ملك مصر فاقرؤا عليه منى السلام وقولوا له إن أبانا يصلى
ك ويدعو لك بما أولينتنا ثم إنه قال لهم أين شمعون فقالوا إن الملك ارتهنه لنا تيه ببنيامين ثم أخبروه
صة فقال لهم ولم أخبرتموه بذلك فقالوا له إنه أخذنا وقال إنكم جواسيس حيث كلمناه بلسان
رانية ثم قصوا عليه القصة وقالوا يا أبانا منع منا الكيل فارسل معنا أخانا نكتل يعنى بنيامين
ا له لحافظون فقال لهم يعقوب هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل الآية
(كعب) لما قال يعقوب فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين قال الله تعالى وعزتى وجلالى لاردن
ك كلاهما بعد ما توكلت على قالوا ولما فتحوا متاعهم الذى خلوه من مصر وجدوا بضاعتهم أى
طعامهم ردت إليهم قالوا يا أبانا مانبغى هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد
بعير ذلك كيل يسير فقال لهم يعقوب لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتننى به إلا أن يحاط
أى تهلكوا جميعاً (وروى) جويبر عن الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى لتاتننى به إلا أن يحاط
إلى قوله حتى تؤتون موثقاً من الله ومن قبل حتى تحلفوا إلى بحق محمد خاتم النبيين والمرسلين أن لاتغدروا
يكم ففعلوا ذلك فلما آتوه موثقهم قال يعقوب الله على ما نقول وكيل أى شاهد بالوفاء فلما أرادوا
روج من عنده قال لهم لاتدخلوا مصر من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وذلك أنه خاف
يهم العين لأنهم كانوا ذوى جمال وهيبة وصور حسان وقامت ممتدة وكانوا أولاد رجل واحد فامرهم
يتفرقوا فى دخولهم البلد لئلا يصابوا بالعين ثم قال لهم وما أغنى عنكم من الله من شىء إن الحكم إلا لله
ه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم وكان لمصر أربعة أبواب فدخلوا
أبوابها كلها ما كان يغنى عنهم من الله من شىء صدق الله يعقوب عليه السلام فيما قال إلى قوله تعالى ولكن
كثر الناس لايعلمون ولما دخلوا على يوسف فى الكرة الثانية قالوا يا أيها العزيز هذا أخونا الذى أمرتنا
تيك به قد جئناك به قال لهم أحسنتم وأصبتم وستحمدون على ذلك عندى ثم إنه أنزلهم وأكرمهم
ضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقى بنيامين على مائدة وحده وحيداً فبكى وقال لوكان
ى يوسف حياً لاجلسنى معه قال لهم يوسف لقد بقى أخوكم هذا وحيداً فريداً ثم أجلسه يوسف
ه على مائدته فجعل يؤاكله فلما كان الليل أمر لهم يوسف بمثل ذلك وقال لهم ليبيت كل اثنين منكم
ى فراش واحد فلما بقى بنيامين وحده قال يوسف هذا ينام معى على فراشى فبات معه فجعل يوسف
ضمه إليه ويشم ريحه حتى أصبح فجعل روبيل يقول ما رأينا مثل هذا فلما أصبح قال إنى لأرى هذا
رجل الذى جئتم به ليس له اخ يؤنسه فإن تشاؤا أضمه إلى ليكون منزله معى ثم أن يوسف
لهم منزلا وأجرى عليهم الطعام والشراب وانزل أخاه لأمه معه فذلك قوله تعالى (آوى
ه اخاه) فلما خلا به قال له ما إسمك قال بنيامين قال له وما بنيامين قال المشكل وذلك أنه لما ولد فقد
ه قال وما اسم أمك قال راحيل بنت ليان بن ناحور قال فهل لك من ولد قال نعم قال كم قال عشرة
ين قال فما اسماؤهم قال لقد اشتقت اسماءهم من اسم أخ لى من أمى هلك إسمه يوسف فقال يوسف لقد
نظرك ذلك إلى حزن شديد فما اسماؤهم قال بالعا واخير واشكل واحيا وخير ونعمان ووردو أس
حيم وعيثم قال فما هذه الأسماء قال أما بلعا فإنه اخى ابتلعته الأرض واما اخير فإنه كان بكر أمى وأبى
اما اشكل فإنه كان اخى لأبى وامى ومتى واما احيا فلكونه كان حياً واما اخير فإنه كان خيراً حيث كان

من الليالى العشاء الأخيرة
فلما جلست للتشهد نسيت
الصلاة على النبى ﷺ فرأيته
فى المنام وهو يقول يا هذا
نسيت الصلاة علينا فقلت
يارسول الله اشتغلت بالثناء
على الله فقال أما علمت أن
الله سبحانه وتعالى لا يقبل
الثناء عليه إلا بالصلاة على
اما سمعت قول الله سبحانه
وتعالى فى كتابه العزيز
يا ايها الذين آمنوا صلوا
عليه وسلموا تسليماً فقمت
من نومى وانشدت شعراً :

صلوا على من أتت حقاً بشائره
الهاشمى الذى طابت
عناصره
هو النبى الذى شاعت رسالته
فى الخافقين طرا وقد عمت
مآثره
هو الرسول الذى تسعى
الملوك له
على الرؤوس فتأتيهم مفاخره
هذا الطبيب لهدى الناس
كلهم
يشفى العليل والمكسور
جابره
صلى عليه إله العرش
ما طلعت
شمس وما ناح فوق الغصن
طائره

(وعن سفيان الثورى
رضى الله تعالى عنه) انه قال
بينما أنا اطوف بالبيت إذ
رأيت رجلا لا يرفع قدماً
ولا يضع قدماً إلا وهو
يصلى على النبى ﷺ

وأما نعمان فإنه كان فاصلا بين أبويه وأما ورد فإنه كان بمنزلة الورد في الحسن وأما رأس فإنه كان من بمنزلة الرأس من الجسد وأما حيثم فأعلمني أبي إنه حي وأما عيثم فلو رأيت غرته لقرت عيني وتنا سروري فقال له يوسف أنحب أن أكون أخاك بدل أخيك ذلك أهالك فقال بنيامين أيها الملك ومن يجد أخا مثلك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل قال فبكى يوسف عليه السلام وعانقه وقال إني أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون ولا تعلمهم بشيء من هذا ثم أن يوسف أوفى لإخوته الكيل وحمل لبنيامين بعيراً باسمه (قال كعب) لما قال له إني أنا أخوك قال بنيامين فإني لا أفارقك قال يوسف إني قد علمت باغتمام الوالد فإن حبستك زاد غمه ولا يمكنني حبسك إلا بعد اشتهارك بأمر فظيع فقال لا أبالي افعل ما تريد فقال يوسف إني أدس صاعي هذا في رحلك ثم أنادي عليكم بالسرقة ليتهيأ لي ردك بعد تسريحك قال افعل فذلك قوله تعالى (فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه) وكانت مشربة يشرب بها الملك وكانت كأساً من ذهب مكللا مرصعاً بالجواهر جعلها يوسف مكيالا يكال بها ثم إنهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى ظعنوا ثم أن يوسف أمر بهم فأدركوا وحبسوا عن المسير ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون فوقفوا فلما قرب منهم الرسول قال لهم ألم نحسن منزلتكم وتكرم ضيافتكم ونوف كيلكم وفعلنا لكم ما لم نفعل لغيركم قالوا بلى وماذاك قال سقاية الملك فقدناها ولم نتهم عليها غيركم قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين وإنا منذ قطعنا هذه الطريق لم نر أحداً بسوء أو اسألوا عنا من مررنا به هل أضررنا أحد أو أفسدنا شيئاً وإنا قد رددنا الدراهم لما وجدناها في رحالنا فلو كنا سارقين ما رددناها وفي الحديث أنهم لما دخلوا مصر كمنوا أفواه دوابهم لئلا تتناول من حروث الناس شيئاً فقال الرسول إنه صاع الملك الأكبر الذي يتكهن فيه وإنه ائتمنني عليه فإن لم أجده تحولت أن تسقط منزلتي عنده وافتضح في مصر فمن رده على فله حمل بعير من طعام وأنا به زعيم أي كفيل قالوا معاذ الله أن نسرق فقال المؤذن وأصحابه فما جزاؤه أي جزاء من وجد في رحله إن كنتم كاذبين قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين فقال الرسول عند ذلك لابد من تفتيش أمتعتكم ولستم ببارحين حتى أفتشها ثم إنه انصرف بهم إلى يوسف فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه لإزالة التهمة وكان يفتش أمتعتهم واحداً واحداً (قال قتادة) ذكر لنا أنه كان لا يفتح متاعاً ولا ينظر في وعاء أحد إلا استغفر الله تعالى مما قذفهم به حتى لم يبق إلا الغلام فقال ما أظن أن هذا الغلام أخذ شيئاً فقالت إخوته والله ما نتركك حتى تنظر في رحله فإنه أطيب لنفسك ولأنفسنا فلما فتحوا امتاعه أخرجوا الصاع منه فلما أخرج الصاع من رحل بنيامين نكس إخوته رؤوسهم من الحياء ثم أقبلوا على بنيامين فقالوا إيش الذي صنعت بنا وفضحتنا وسودت وجوهنا يا ابن راحيل لا يزال لنا منكم بلاء أخذت هذا الصاع فقال لهم بنيامين بل بنو راحيل الذين لا يزال لهم منكم بلاء ذهبتم بأخي إلى البرية فأهلكتموه إن الذي وضع الصاع في رحلي هو الذي وضع الدراهم في رحالكم ثم إنهم قالوا ليوسف إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل وهذا هو المثل السائر عذره مر من بمرمه ، واختلف العلماء في السرقة التي وصفوا بها يوسف قال سعيد بن جبير وقتادة السرقة التي وصفوا بها يوسف أنه سرق صنما لجده أبي أمه من ذهب فكسره وألقاه في الطريق وقال ابن جريج أمرته أمه وكانت مسلمة أن يسرق صنما لخاله من ذهب فأخذه وكسره وقال مجاهد جاء سائل يوماً فسرق يوسف بيضة من البيت وأعطاها للسائل وقال ابن عيينة دجاجة فناولها للسائل فعيروه بها وقال وهب كان يخبأ الطعام من المائدة للفقراء وقال الضحاك وغيره كان أول ما دخل على يوسف من البلاء أن عمته بنت إسحق كانت أكبر ولد إسحق وكانت منطقة إسحق عندها وكانوا يتوارثونها بالكبر وكانت راحيل أم يوسف ماتت فحضنته عمته وأحبته حباً شديداً وكانت لا تصبر عنه فلما ترعرع وبلغ سنوات وقع حبه في قلب يعقوب فأتاها وقال يا أختاه سلمي إلي يوسف فوالله ما أصبر عنه ساعة واحدة فقالت له ما أنا بتاركته فلما ألح عليها يعقوب قالت

قلبه يا هذا إنك تركت قال من أنت عافاك الله فقلت سفيان الثوري فقال لولا إنك عارف أهل زمانك لما أطلعتك على حالي وأخبرتك بسري ثم قال خرجت من بلدي أنا ووالدي حاجين إلى بيت الله الحرام وزيارة النبي عليه أفضل الصلاة والسلام فبينما نحن في بعض المنازل إذ مرض والدي مرضا شديداً فمكثت لأعالجه فبينما أنا عند رأسه إذ هو قد مات واسود وجهه قال فحللت إزاري وغطيت به وجهه وحصل عندي غم عظيم وحل بي خطب جسيم حيث مات على تلك الحالة في بلاد الغربة ولا يمكنني إخفاء ذلك الحال عن الناس وصرت مفكراً في أمري لا أدري ما أصنع فبينما أنا كذلك إذ غلبني النوم فنمت فإذا أنا برجل لم أر أحسن منه وجهاً ولا أنظف منه ثياباً ولا أطيب منه رائحة وهو يرفع قدماً ويضع قدماً حتى دنا من والدي ثم كشف الإزار عن وجهه ومر بيده عليه فعاد أبيض يلوح منه نور ثم ولى راجعاً فتعلقت بثوبه وقلت من أنت الذي من الله علي والدي بك في هذه البرية قال فتبسم وقال أنا محمد رسول الله صاحب القرآن كان والدك مسرفاً على نفسه وكان يكثر الصلاة فلما نزل به ما نزل استغاث بي فأغثته

عنده عندى أياماً أنظر إليه لعل ذلك يسلينى عنه ففعل ذلك فلما خرج يعقوب من عندها عمدت إلى منطقة إسحق لحزمت يوسف بها تحت ثيابه ثم أنها قالت فقدت منطقة إسحق فانظروا من أخذها فالتمست لم توجد فلما فتشوا أهل البيت وجدوها مع يوسف فقالت والله أنه ليسلم لى أصنع فيه ماشئت وكان ذلك حكم آل إبراهيم فى السارق فأتاها يعقوب فاخبرته بذلك فقال إن كان هذا فهو مسلم لك لا أستطيع غير ذلك فأمسكته بعلة المنطقة فما قدر عليها يعقوب يأخذه منها حتى ماتت فهو الذى قال إخوته إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فاسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم قال لهم أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون (قال الرواة) لما دخلوا على يوسف واستخرجوا الصواع من رجل بنيامين ودعا يوسف بالصاع فنقره ثم أدناه من أذنه ثم قال إن صاعى هذا ليخبرنى أنكم كنتم إثنى عشر رجلا وأنكم انطلقتم بأخ لكم فبعتموه فلما سمع بنيامين قام يسأل يوسف وقال أيها الملك سل صواعك هذا عن أخى حتى هو فنقره ثم قال له حى وسوف تراه فقال بنيامين إصنع بى ماشئت فإنه أعلم بى سوف يستنقذنى قال فدخل يوسف إلى منزله ثم إنه بكى وتوضأ فقال بنيامين أيها الملك إنى أريد أن تضرب صواعك هذا فيخبرك بالحق من الذى سرقه فجعله فى رحلى فنقره ثم أنه قال إن صواعى غضبان وهو يقول كيف تسألنى عن صاحبى الذى سرقنى وقد رأيت مع من كنت قال وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لم يطاقوا فغضب روبيل وقال أيها الملك والله لئن لم تتركنا وتترك أخانا لأصيحن صيحة لا يبقى فى مصر امرأة حامل إلا ألقت مافى بطنها وقامت كل شعرة فى جسده فخرجت من ثيابه وكان بنو يعقوب إذا غضبوا ومس أحدهم الآخر ذهب غضبه فقال يوسف لابنه قم إلى جنب روبيل ومسه فقام الغلام إلى جنبه فمسه فسكن غضبه فقال روبيل إن فى هذا البيت لشيئاً من ولد يعقوب فغضب روبيل وقال أيها الملك لا تذكر يعقوب فإنه إسرائيل الله بن إسحق ذبيح بن إبراهيم خليل الله قال يوسف أنت إن كنت صادقاً فأصادق لما أراد يوسف أن يحتبس أخاه عنده ويصير بحكمه وإنه أولى به منهم واحتبسه ورأوا أن لا سبيل لهم إلى تخليصه منه سألوه أن يخليه لهم ويعطونه واحداً منهم بدله فقالوا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً كلفاً بحبه فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين قال يوسف معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ولم يقل من سرق تحرزا عن الكذب إنا إذا لظالمون إن أخذنا بريئاً بسقيم فلما استأسوا منه خلصوا نجياً أى خلا بعضهم ببعض متناجين متشاورين فقال كبيرهم يعنى فى العقل وهو شمعون وعن مجاهد وقال قتادة والسدى كبيرهم فى السن وهو روبيل ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله تعالى فى هذا الغلام لتردونه ومن قبل ما فرطتم فى يوسف أى من قبل هذا قصرتم فى شأن يوسف فلن أبرح الأرض يعنى أرض مصر حتى يأذن لى أبى فارجع إلى الملك فلما جزه القتال أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا أى نحن رأينا سرقته معه وما كنا للغيب حافظين حين سألناك أن ترسله معنا ولو علمنا الغيب أنه يسرق ما ذهبنا به معنا واسئل القرية يعنى واسئل أهل القرية عن قومنا التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها يعنى قوماً صحبوهم من أهل كنعان وإنا لصادقون لك فى قولنا فرجعوا إلى يعقوب بذلك القول فقال يعقوب بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل وهو الذى لا جزع فيه عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً يعنى يوسف وبنيامين إنه هو العليم الحكيم وتولى عنهم يعقوب وقال يا أسفاً على يوسف وذلك أنه لما بلغه خبر بنيامين تكامل حزنه وبلغ جهده وهيج حزنه على يوسف فاعرض عنهم وقال يا أسفاً على يوسف والأسف أشد الحزن (وروى) سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ لم تحط أمة من الأمم عند المصيبة إنا لله وإنا إليه راجعون إلا أمة محمد ﷺ ألا ترى إلى يعقوب حين أصابه على ابنه ما أصابه من الحزن لم يسترجع إنما قال يا أسفاً على يوسف (وقال الحسن) كان بين خروج يوسف من عند أبيه إلى

يلوح منه نورا ساطع
إخوتى أكثروا من الصلاة
على هذا النبى الكريم فإن
الصلاة عليه تكفر الذنب
العظيم وتهدى إلى صراط
مستقيم وتقى قائلها من
عذاب الجحيم ويحظى بالجنة
دار النعيم .

(وعن عبد الرحمن بن جعفر)
رحمه الله تعالى أنه قال كنت
بالبصرة أصلى الخمس فى
مسجد بجوارى وكان ذلك
المسجد يعرف بالخشابين
وكان فيه إمام مغربى يدعى
بابى سعيد وكان مشهورا
بالخير والصلاح وكان يتكلم
فى المسجد بعد صلاة الصبح
بكلام لا يفهمه أحد فخرجت
فى بعض السنين حاجاً إلى
بيت الله الحرام وكانت سنة
شديدة الحر فكنت أسبق
الركب حتى يلحقنى رفاقى
فنمت ليلة من الليالى على
عادتى وكنت عادلا عن
الطريق فسار الركب ولم
يشعر بى فصرت نائماً حتى
طلعت الشمس وانتبهت
وأنا لا أدرى كيف الطريق
فرفعت طرفى إلى السماء وقلت
إلهى وسيدى إلى ههنا
حملتنى وعن بيتك قطعتنى
فما يضرك لو وصلتنى ثم
سرت حتى عييت من المسير
وقوى على حر الهجير
فايست من الحياة وانطرحت

على كثيب من رمل أنتظر الموت فبينا أنا كذلك إذ شخص يناديني باسمي فقمت ونظرت

فإذا هو الشيخ أبو سعيد قال فسلمت عليه فرد السلام على ثم ناولني رغيفاً سخناً فأكلته فاشتد رمقي ثم ناولني ركوة فيها ماء أحلى من الشهد وأبرد من الثلج وأبيض من اللبن فشربت منها وغسلت وجهي فعادت روحي ثم قال اتبعني يا عبد الرحمن ففرحت بذلك فقال البث هنا فالركب ياتيك بعد ثلاثة أيام ثم ناولني رغيفاً ومضى فكنت كلما أكلت من ذلك الرغيف لقمة شبعت فاقام الرغيف عندي ثلاثة أيام إلى أن جاء الركب فاجتمعت برفاقي فلما وقفنا بعرفة رأيت الشيخ وهو واقف عند الصخرات مشغول بالدعاء فلما فرغ سلمت عليه فرد على السلام وقال ألك حاجة يا عبد الرحمن فقلت يا سيدي أريد دعاءك فدعا لي ثم نزلنا من الجبل ولم أره بعد ذلك فلما قضيت الحج وسرت إلى البصرة أتيت إلى مسجده لأنظره فلما نظرته قام إلي وسلم على وصافحني وعصر على يدي ففهمت منه أن أكتم سره قال فلما أقيمت الصلاة وفرغنا سألت المؤذن عن غيبة الشيخ في أيام الحج عن المسجد فحلف المؤذن أن الشيخ أبا سعيد لم يكن قطع الصلوات الخمس في

يوم الالقاه معه ثمانون سنة لم تجف عيناه من الدموع وما كان على وجه الأرض أكرم على الله تعالى من يعقوب فلما شكى وبكى قال له ولده ثالثة تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أي مريضاً أذاهب العقل من الهم أو تكون من الهالكين فقال يعقوب لما رأى غلظتهم وجفوتهم إنما أشكوا بثي وحزني إلى الله (وقال) وهب بن منبه أوحى الله تعالى إلى يعقوب أتدري لم عاقبتك وحبست عنك يوسف ثمانين سنة قال يا إلهي لا قال لأنك شويت عناقاً وقمت على جارك وأكلت ولم تطعمه ويقال أن سبب ابتلاء يعقوب بفقد يوسف أنه كان له بقرة ولدها عجل فذبح عجلها بين يديها وكانت تخور فلم يرحمها يعقوب فاخذه الله بذلك فابتلاه بفقد أعز ولده إليه ثم أن يعقوب قال لبنيه يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله الآية قال السدي لما أخبره ولده بخبر العزيز وقوله وفعله أحست نفس يعقوب وطمع وقال لعله يوسف وروي أنه كان رأى ملك الموت في المنام فسأله هل قبضت روح يوسف فقال لا وإنه والله حي يرزق وروي أنه رأى ملك الموت وقد زاره فقال له السلام عليك أيها الكظيم فاقشعر جلده وارتعدت فرائصه ورد عليه السلام ثم قال له من أنت ومن أدخلك هذا البيت وقد أغلقت على نفسي بابي كيلا يدخل على أحد وأشكوا بثي وحزني إلى الله فقال له يا نبي الله أنا الذي أيتم الأولاد وأرمل الأزواج وأفرق بين الجماعات قال فأنت إذا ملك الموت وقال نعم فقال له يا ملك الموت أنشدك الله إلا أخبرتني هل تقبض روح من تاكله السباع قال نعم قال فاخبرني عن الأرواح أتقبضها مجموعة أو متفرقة روحاً روحاً قال أقبضها روحاً روحاً قال فهل مرت بك روح يوسف في الأرواح قال لا قال فحدثني زائراً أم داعياً فقال يا نبي الله ما جئتك إلا مسلماً فإن الله تعالى لا يميتك حتى يجمع بينك وبين يوسف ولو كان في الصخرة التي عليها قرار الأرضين وما أذن الله لي في زيارتك إلا لأبشرك وأجيبك عما تسألني عنه وإن شئت أعلمتك لماذا ابتليت بفقد ولدك قال له فاعلمني يا عزرائيل فقال يا إسرائيل الله هل تذكرت الجارية التي اشتريتها عام كذا في شهر كذا ثم فرقت بينها وبين أبويها قال نعم يا ملك الموت كأنه كان بالأمس فقال له ملك الموت فلأجل ذلك ابتليت بفقد الولد وهل تعلم لماذا ابتليت بفقدك البصر قال لا قال أمرت يوماً بذبح جذعة فذبحتها وشويتها في يوم كذا في شهر كذا فرحيم العابد الصالح بك وهو صائم ما أفطر منذ أسبوع فاشتم قتار الشواء فلم تطعمه شيئاً فعند ذلك أعتق يعقوب ومن كان بحضرته من العبيد والإماء وأمر أن يذبح كل يوم من أغنامه كبشان ويفرق لحمها على الفقراء والمساكين فقبل الله ذلك منه وشكره عليه وأتاه الفرج فعند ذلك قال يعقوب يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه إلى قوله تعالى إلا القوم الكافرون (قال قتادة) ذكر لنا نبي الله يعقوب عليه السلام ما ساء ظنه بالله تعالى في طول بلائه ساعة قط من ليل أو نهار فعند ذلك خرج إخوة يوسف راجعين إلى مصر وهذه كرة ثالثة فدخلوا على يوسف فلما دخلوا عليه قالوا أيها العزيز أي الملك بلغة مصر مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة أي قليلة رديئة لا تنفق في ثمن الطعام إلا بتجاوز من البائع فيها واختلف المفسرون في هذه البضاعة ما هي فقال ابن عباس كانت دراهم رديئة زيوفاً لا تنفق إلا بوضيعة وقال ابن أبي مليكة رضي الله عنه كانت خلقة الغرائر والحبال وثة المتاع وقال عبد الله بن الحرث والحسن كانت أمتعة الأعراب الصوف والسمن وأقط وقال الضحاك كانت النعال الأدم والسويق المقلي فاوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين قال الضحاك لم يقولوا إن الله يجزيك لو تصدقت علينا لأنهم يعلموا إنه مؤمن وقال عبد الجبار بن العلاني سئل سفيان بن عيينة هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء سوى نبينا محمد ﷺ فقال سفيان ألم تسمع قول الله تعالى وتصدق علينا أراهم سفيان أن الصدقة كانت لهم حلالا وإنما حرمت على نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام فقال لهم يوسف مجيباً لهم عند ذلك هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم

أبدا ولا ساعة واحدة قال

جاهلون

جاهلون ، اختلف العلماء فى السبب الذى حمل يوسف على هذا القول الذى كان بدء فرح يعقوب وراحته وآخر بلائه ومحنته فقال محمد بن إسحق ذكر لنا أنهم لما كلموه بهذا الكلام غلبته نفسه وأدركته الرقة فارفض دمعه باكيا ثم باح لهم بالذى كان يكتم فقال هل علمتم ما فعلتم الآن وقال الكلبى إنما قال ذلك حين حكى لإخوته أن مالك بن دعر قال إنى وجدت غلاما فى بئر من حاله كيت وكيت فابتعته من قوم بكذا وكذا درهما فقالوا له أيها الملك نحن بعنا هذا الغلام فاغتاظ يوسف من ذلك وأمر بقتلهم فذهبوا بهم ليقتلوهم فولى يهوذا وهو يقول كان يعقوب يبكى ويحزن لفقد واحد منا حتى كف بصره فكيف إذا أتاه خبر قتل بنيه كلهم ثم إنهم قالوا له إن أنت فعلت بنا ذلك فابعث بأمتعتنا إلى أبينا فإنه يمكان كذا وكذا فذلك الوقت رحمهم وبكى وقال لهم ذلك القول ، وقال بعضهم إنما قال ذلك حين سأل أخاه بنيامين هل لك ولد قال نعم ثلاثة بنين قال فما سميتهم قال سميت الأكبر منهم يوسف قال ولم قال محبة لك ولذكرك قال فما سميت الثانى قال ذئبا قال ولم والذئب سبع عاقر قال لأذكرك به قال فما سميت الثالث قال دما قال ولم قال لأذكرك به فلما سمع يوسف هذه المقالة خنقته العبرة ولم يتمالك أن قال لإخوته هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون قالوا له أئنك لأنت يوسف قال ابن إسحق لما قال يوسف لإخوته هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه وكشف عنه الغطاء ورفع عنه الحجاب فعرفوه فقالوا أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى (قال السدى) فلما عرفهم يوسف بنفسه سألهم عن أبيه قالوا ذهبت عيناه فأعطاهم قميصه (قال الضحاك) كان ذلك القميص من نسج الجنة وكان فيه ريح الجنة لا يقع على مبتلى ولا على سقيم إلا صح وعوفى فأعطاهم يوسف ذلك القميص وهو الذى كان لإبراهيم وقد مضت قصته فقال لهم اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا وائتونى بأهلكم أجمعين فلما فصلت العير من مصر متوجهين إلى كنعان قال أبوهم يعقوب إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون أى تسفهون (ويروى) أن ريح الصبا استأذنت ربها أن تأتى يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير بالقميص فأذن لها فأتته بها قال ابن عباس وجد يعقوب ريح يوسف من مسيرة ثمان ليال وقال مجاهد وذلك أنه هبت ريح فصفقت القميص فاحتملت الصبا ريح القميص إلى يعقوب فوجد ريح الجنة فعلم أنه ليس فى الأرض من رياح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص فمن ثم قال إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون فقال له بنو بنيه تالله إنك لفى ضلالك القديم فلما أن جاء البشير وهو يهوذا بن يعقوب قال ابن مسعود جاء البشير من بين يدى العير وقال السدى قال يهوذا ليوسف أنا ذهبت بالقميص ملطخا بالدم إلى يعقوب فأخبرته أن يوسف أكله الذهب فاعطنى اليوم قميصك لأخبره أنك حى فافرحه كما أحزنته (قال) ابن عباس حمله يهوذا وخرج ماشيا حاسرا حافيا وجعل يعدو حتى أتى أباه وكان معه سبعة أرغفة فلم يستوف أكلها حتى بلغ كنعان وكانت المسافة ثمانين فرسخا فلما أتاه بالقميص ألقاه على وجهه فارتد بصيرا (قال الضحاك) رجع إليه بصره بعد العمى وقوته بعد الضعف وشبابه بعد الهرم وسروره بعد الحزن (عن أبى هريرة) رضى الله تعالى عنه قال كان يعقوب عليه السلام أكرم أهل الأرض على ملك الموت وأن ملك الموت استأذن ربه فى أن يأتى يعقوب فأذن له فجاءه فقال له يعقوب يا ملك الموت أسألك بالذى خلقك هل قبضت نفس يوسف فيمن قبضت من النفوس فقال لا ثم قال له ملك الموت يا يعقوب ألا أعلمك كلمات قال بلى قال قل يا ذا المعروف الذى لا ينقطع أبدا ولا يحصيه أحد غيرك قال فدعا بها يعقوب فى تلك الليلة فلم يطلع الفجر حتى طرح القميص على وجهه فارتد بصيرا فقال لهم عند ذلك ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إن كنا خاطئين قال سوف أستغفر لكم ربى الآية (قال) أكثر المفسرين أخر ذلك إلى السحر من الجمعة فوافق ذلك ليلة عاشوراء وذلك أن الدعاء فى الأسحار لا يحجب عن الله تعالى فلما انتهى يعقوب إلى الوعد قام إلى الصلاة بالسحر فلما فرغ منها رفع يده إلى الله عز وجل وقال اللهم اغفر لى جزعى على يوسف وقلة صبرى عنه واغفر لولدى ما جنوه على أخيهم يوسف فأوحى الله إليه إنى قد غفرت لك ولهم أجمعين وقال وهب كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة فى نيف وعشرين سنة (ويروى) أن يعقوب قال للبشير لما أخبره بحياة يوسف كيف يوسف قال إنه ملك مصر فقال يعقوب ما أصنع بالملك على أى دين تركته قال على دين الإسلام فقال يعقوب الآن

علينا من بركاتهم وصالح دعواتهم فى الدنيا والآخرة آمين .

(وعن عبد الصمد البغدادى رضى الله تعالى عنه) أنه قال كنت أتجر من بغداد إلى بلاد اليمن وأحج فى كل سنة فبينما أنا فى بعض السنين فى الطريق بين منى وعرفة إذ رأيت شابا حسن الشباب نقى الأثواب كان على وجهه قنديلا من نور وهو راقد على الرمل وتحت رأسه حجر وهو يعالج سكرات الموت قال فتقدمت إليه وسلمت عليه فرد على السلام فقلت ألك حاجة أيها الشاب فقال نعم تقيم عندى ساعة حتى أقضى نحبى وألحق بربى فقلت ما الذى تريد قال إذا أنا مت فوارنى فى التراب وخذ هذه المعضدة وروح إلى صنعاء اليمن واسأل عن الدرب الفلانى وقل لأهلى عثمان يقرئكم السلام ثم غاب عن الكلام ساعة طويلة حتى حسبت أنه مات ثم أفاق بعد ذلك وهو يقرأ هذه الآية هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ثم شهق شهقة فارق الدنيا رحمة الله تعالى عليه قال عبد الصمد فغسلته وكفنته ووجهه يضىء ويتلألأ ثم صليت عليه فى جماعة ثم دفناه وأخذت المعضدة معى فلما وصلت إلى صنعاء اليمن سألت عن الدرب فأرشدت

تمت النعمة (وقال الثورى) لما التقى يعقوب ويوسف عليهما السلام عانق كل واحد منهما صاحبه وبكيا فقال يوسف يا أبتى بكيت على حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا قال بلى يا بنى ولكن خشيت أن تسلب دينك فيحال بينى وبينك يوم القيامة قالوا وكان يوسف قد بعث مع البشير جهازا ومائتى راحلة وسأله أن يأتيه بأهله وولده أجمعين فتهيأ يعقوب للخروج إلى مصر فلما دنا يعقوب من مصر كلم يوسف الملك الأكبر الذى فوقه فخرج مع يوسف فى أربعة آلاف من الجند وركب أهل مصر معهما يتلقون يعقوب وكان يعقوب يمشى متوكئا على يهوذا فنظر يعقوب إلى الجند والناس فقال يهوذا هذا فرعون مصر الأكبر فقال لا هذا إبنك فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف يبدؤه بالسلام فمنعه الله من ذلك وكان يعقوب أفضل وأحق بذلك منه فابتدأه يعقوب بالسلام فقال السلام عليك يا مذهب الأحزان فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه ورفعهما على العرش وأبواه يعقوب وخالته ليا فسمى الخالة أما كما سمى العم أبا فى قوله تعالى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق وقال الحسن نشر الله راحيل أم يوسف من قبرها حتى سجدت له تحقيقا للرؤيا فذلك قوله تعالى (وخروا له سجدا) وكانت تحية الناس يومئذ السجود ولم يرد بالسجود وضع الجباه على الأرض فلما رأى يوسف أبويه وإخوته قد خروا له سجدا اقشعر عند ذلك جلده وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا الآية (وروى) صالح المرلى عن يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك قال إن الله تعالى لما جمع ليعقوب شمله خلا ولده تجيا فقال بعضهم ألست قد علمتم ما فعلتم بالشيخ يعقوب وبيوسف قالوا بلى فإن عفوا عنكم فكيف لكم بربكم فاستقام أمرهم على أن يأتوا الشيخ فاتوه وجلسوا بين يديه ويوسف إلى جنب أبيه قاعدا فقالوا يا أبانا أتيناك على أمر لم نأتك بمثله قط ونزل بنا أمر لم ينزل بنا مثله قط والأنبياء أرحم البرية فقال ما بكم يا بنى فقالوا ألست تعلم ما كان منا إليك وإلى أخينا يوسف قال بلى قد علمت قالوا أفلستما قد عفوتما عنا قالا بلى قالوا فان عفو كما لا يغنى عنا شيئا إذا كان الله تعالى لم يعف عنا قال فما تريدون يا بنى قالوا نريد أن تدعو الله لنا فإذا جاءك الوحى من عند الله سله هل عفا الله عنا قال فإن أجابك بانه قد عفا عنا جميعا قرت أعيننا واطمأنت قلوبنا وإلا فلا قرت لنا عين فى الدنيا أبدا فقام الشيخ واستقبل القبلة وقام يوسف خلفه وقاموا كلهم خلفهما أذلة خاشعين فدعا يعقوب وأمن يوسف عليهما السلام فلم يجب فيهم قريبا من عشرين سنة قال صالح المرلى ثم نزل جبريل عليه السلام على يعقوب فقال إن الله تعالى يعثنى إليك أبشرك بانه قد أجاب دعوتك فى ولدك وإنه قد عفا عما صنعوه وإنهم قد انعقدت مواثيقهم بعدك على النبوة قالوا فاقام يعقوب بمصر بعد موافاته باهله وولده أربعة وعشرين سنة بأعيط حال وأهنأ عيش وأتم راحة وادوم سلامة ثم حضرته الوفاة فلما احتضر جمع بنيه وقال ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق ثم قال يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وانتم مسلمون ثم إنه اوصى إلى يوسف أن يجعل جسده إلى الأرض المقدسة حتى يدفنه عند أبيه إسحق وجده إبراهيم ففعل ذلك ونقله إلى بيت المقدس فى تابوت من ساج وخرج معه يوسف فى عسكره وإخوته وعظماء اهل مصر ووافق ذلك يوم وفاة عيص فدفنا فى يوم واحد وكانا عمرهما جميعا مائة سنة وسبعا وأربعين سنة لأنهما ولدا فى بطن واحد وقبرا فى قبر واحد (وروى) ان يوسف لما حضرته الوفاة جمع إليه قومه من بنى إسرائيل وهم ثمانون رجلا وأعلمهم بحضور اجله ونزول أمر الله تعالى به فقالوا يا نبى الله نحب أن تعرفنا كيف تتصرف الأحوال بنا بعد خروجك من أظهرنا وإلى ما يؤول إليه امرفا ودينا وملتنا فقال لهم إن امركم يستقيم على ما انتم عليه وتستقيمون على دينكم إلى ان يبعث رجل جبار عات من القبط يدعى الربوبية فيقهركم ويذبح ابناءكم ويستحيى نساءكم ويسومكم سوء العذاب فتمتدايامه مدة مديدة ثم يخرج من بنى إسرائيل من ولد لاوى بن يعقوب رجل إسمه موسى بن عمران رجل طويل جعد الشعر آدم اللون فينجيكم الله من ايدى القبط على يده قال فجعل كل من بنى إسرائيل

ثم خرجت العجوز مغشيا عليها فلما أفاقت قالت أين صاحب هذه المعضدة فاخبرتها بخبره فقالت هو والله ولدى عثمان وهؤلاء إخواته ترك أهله وحشمه وخدمه وزهد فى الدنيا وخرج سائحا على وجهه لا ندرى أين ذهب فجزاك الله عن ولدى خيرا إلهى إن كنت لا ترحم إلا المجتهدين فمن للمقصرين وإن كنت لا تقبل إلا على المخلصين فمن للمسيئين ولا تقبل إلا الطائعين فمن للعاصين وإن كنت لا ترحم إلا المحسنين فمن للخاطئين أنت أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين .

(وعن أبى الأشهل السائح رحمه الله تعالى ونفعنا به) قال رأيت غلاما بطريق مكة وهو قائم يصلى عند بعض الأميال قد انقطع عن القافلة فوقفت أنظر إليه فاطال صلاته فلما سلم قلت له سلام عليك فقال وعليك السلام فقلت له أنك قد انقطعت عن الركب ألك رفيق يؤنسك حتى تلحقه فبكى وقال نعم فقلت وأين هو فقال أمامى وخلفى وعن يمينى وعن شمالى فقلت إنه عارف فقلت له أمعك زاد فقال نعم فقلت وأين هو فقال فى قلبى إخلاصى لربى فقلت له فهل لك فى مرافقتى فقال الرفيق

سى إبنه عمران ويسمى عمران إبنه موسى ثم مات يوسف عليه السلام وكان قد أوصى إلى أخيه يهوذا استخلفه على بنى إسرائيل فتوفاه الله طيباً طاهراً ودفن فى النيل فى صندوق من رخام وذلك أنه لما مات اح الناس عليه كل يحب أن يدفن فى محلتهم لما يرجون من بركته حتى هموا بالقتال فرأوا أن يدفن فى يل حيث تتفرق المياه بمصر فيعم الماء عليه ثم يصل إلى جميع مصر فيكونون كلهم فيه شرعاً واحداً علوا ذلك وكان قبره فى النيل إلى أن حمله موسى عليه السلام معه حين خرج من مصر ببنى إسرائيل فنقله الشام ودفنه بأرض كنعان من خارج الحصن حيث هو اليوم فلذلك تنقل اليهود موتاهم إلى الشام من ذلك فيهم (وروى) يونس بن عمران عن أبى موسى قال نزل رسول الله ﷺ بأعرابى فأكرمه ل رسول الله ﷺ أكرمتنا فأحسنت سل حاجتك فقال ناقة ترحلها وعنز تحلبها أهلى فقال ﷺ أعجز ا أن يكون مثل عجوز بنى إسرائيل فقالوا يا رسول الله وما عجوز بنى إسرائيل قال إن بنى إسرائيل خرجوا ضلوا الطريق واظلم عليهم الليل فقالوا ما هذا فقال علمائهم أن يوسف لما حضرته الوفاة ذ علينا موثقاً من الله أن لا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا قال موسى فمن يعلم موضع قبره عجوز ببنى إسرائيل فبعث إليها موسى فأتته فقال دلينى على قبر يوسف فقالت له وتعطينى حكمى وما حكمك قالت أن أكون معك فى الجنة فكره أن يعطيها حكمها فأوحى الله إليه أن اعطها حكمها ففعل قال أهل التاريخ) عاش يوسف بعد موت يعقوب عليه السلام ثلاثاً وعشرين سنة ومات وهو ابن ة وعشرين سنة صلوات الله عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين والحمد لله رب العالمين .

﴿ مجلس فى قصة يوسف بن منشا بن يوسف عليه السلام ﴾

وهو موسى الأول وقد ذكرنا فيما مضى أن يوسف عليه السلام له إبنان أحدهما يقال له إفرايم والآخر ا وإبنة يقال لها رحمة وهى امرأة النبى أيوب عليه السلام فولد لافرايم نون وولد لنون يوشع وهو موسى بن عمران وخليفته على بنى إسرائيل وأما منشا فولد له موسى فنبأه الله تعالى فزعم أهل راة أنه صاحب الخضر والعامة من العلماء أن صاحب الخضر موسى بن عمران وكذلك روى عن عباس عن رسول الله ﷺ قال أهل العلم بالتاريخ لما مات يعقوب ويوسف عليهما السلام وآل صر إلى الأسباط كثروا ونموا وظهر فيهم ملوك فغيروا سيرتهم وفسدوا فى الأرض وفشا فيهم السحر كهانة فبعث الله إليهم موسى بن منشا رسولا يدعوهم إلى عبادة الله وأداء أمره وإقامة سننه وذلك ولد موسى بن عمران بمائتى سنة فأطاعه قوم منهم وعصاه آخرون (وقال وهب بن منبه وغيره) ما أوحى الله إليه أن قل لقومك أنى برىء ممن سحر أو سحر له أو تكهن أو تكهن له أو تطير أو تطير من آمن بى صادقاً وتوكل على فإنى كنت له كافياً مشيبا وكفيته هم دينه ودنياه وكنت له خير معين وهاد كنت عند ظنه بى ومن عدل عنى ووثق بغيرى فأنا أغنى الشركاء عن الشرك أكله إلى من وثق به دونى ن وكلته إلى غيرى فليستعد للفتنة والعذاب ومن تباعد عنى كنت عنه أشد تباعداً ومن تقرب الى ت إليه أشد تقرباً منه إلى وقل لعبادى لا تغفلوا عن ذكرى وليكثروا ذكر الموت عند كل رة فإنه يميت الشهوات واللذات كلها قالوا فلبث فيهم ما شاء الله أن يلبث يقيم أمرهم ويصلح والهم ثم مات ﷺ وعلى جميع الأنبياء والمرسلين والله تعالى أعلم .

﴿ مجلس فى ذكر بقية عاد وقصة شديد وشداد وصفة إرم ذات العماد ﴾

قال الله تعالى (ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد) الآية (وروى) سفيان عن منصور عن أبى ل قال إن رجلا يقال له عبدالله بن قلابة خرج فى طلب إبل له قد ضلت أى شردت فبينما هو فى بعض جارى عدن فى تلك الفلوات إذ وقع على مدينة عليها حصن وحول ذلك الحصن قصور عظيمة وأعلام ال فلما دنا منها ظن أن فيها من يسأله عن إبله فلم ير فيها أحداً لا داخلا ولا خارجاً فنزل عن ناقته وعقلها ل سيفه ودخل من باب الحصن فإذا هو ببابين عظيمين لم ير فى الدنيا أعظم منهما ولا أطول وإذا خشبهما

يشغل عن ذكر الله لا أحب أحداً يشغلنى عن ذكر الله تعالى طرفة عين فقلت من اين تأكل فقال الذى غذانى فى ظلمة الأحشاء صغيراً يتكفل برزقى كبيرا فمتى احتجت إلى طعام حضر بين يدى فقلت له هل من حاجة فقال نعم إذ رأيتنى بعد هذا اليوم فلا تكلمنى فقلت أسالك يا سيدى بالله أن تدعو لى فقال حجبك الله عن كل معصية وشغلك بما يقربك إليه فقلت يا سيدى فاين اللقاء بعد ذلك اليوم فقال ما بقى لقاء بعد هذا اليوم فإن كنت من أهل القرب فاطلبنى غدا فى منازل المقربين ثم غاب عن عينى فلم أره رضى الله تعالى عنه ونفعنا به آمين (وعن مالك ابن دينار رضى الله تعالى عنه) أنه قال كان لى جار مسرف على نفسه لا يعرف يومه من أمسه فاجتمعت الجيران إلى يشكونه فاحضرته وقلت له ما هذا قد كثر عصيانك فإما أن تتوب وإما أن تخرج من هذا المحل فقال أنا فى ملكى لا أخرج منه فقلت له نشكوك إلى السلطان فقال أنا من أصحاب السلطان فقلت ندعو الله عليك فقال ربى أرحم منكم ثم نهض من عندى فلما كان الليل رفعت يدى إلى السماء فى وقت الأسحار وأردت أن أدعو عليه فهتف بى هاتف يا مالك لا تدع عليه فإنه من أولياء الله

من أطيب عود وعليهما نجوم من ياقوت أصفر وياقوت أحمر ضوؤها ملأ المكان فلما رأى ذلك أعجبه ففتح أحد البابين فإذا هو بمدينة لم ير الراؤن مثلها قط وإذا هو بقصور معلقة تحتها أعمدة من زبرجد وياقوت وفوق كل قصر منها غرف مبنية بالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت والزبرجد على كل باب من أبواب تلك القصور مصراع مثل مصراع باب تلك المدينة من عود رطب قد نضت عليه الدواقيت وقد فرشت تلك القصور باللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران فلما رأى ذلك ولم ير هناك أحدا أخذه الفزع ثم نظر إلى الأزقة فإذا في كل زقاق منها أشجار قد أثمرت وتحتها أنهار تجرى في قنوات من فضة أشد بياضا من الثلج فقال هذه الجنة التي وصفها الله لعباده في الدنيا والحمد لله الذي أدخلني الجنة ثم أنه حمل من لؤلؤها وبنادق المسك والزعفران ولم يستطع أن يقلع من زبرجدها شيئا ولا من ياقوتها لأنها كانت مثبتة في أبوابها وجدرانها وكان اللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران منثورا بمنزلة الرمل في تلك القصور والغرف فأخذ منها ما أراد وخرج حتى أتى ناقته فركبها ثم أنه صار يقفو أثر ناقته حتى رجع إلى اليمن فأظهر ما كان معه وأعلم الناس بأمره وباع بعض ذلك اللؤلؤ وكان قد اصفر وتغير لونه من طول الزمان الذي مر عليه فقص خبره حتى بلغ معاوية بن أبي سفيان فأرسل رسولا إلى صاحب صنعاء وكتب إليه ياشخاصه فاشخص حتى قدم على معاوية فخلا به ثم سأله عما عاين فقص عليه أمر المدينة وما رأى فيها فاستعظم ذلك ثم قال معاوية كيف أصنع حتى أعرف إسم هذه المدينة ولمن هي ومن بناها والله ما أعطى أحد مثل ما أعطى سليمان بن داود عليه السلام وما أظن أنه كان له مثل هذه المدينة فقال له بعض جلسائه ما كان لسليمان مدينة مثل هذه وما يوجد خبر هذه المدينة في زماننا هذا إلا عند كعب الأحبار فأرسل معاوية إلى كعب الأحبار فلما حضر قال يا إسحق دعوتك لأمر رجوت أن يكون علمه عندك فقال له يا أمير المؤمنين طلبك بجاب سل عما بدا لك فقال له أخبرنا يا أبا إسحق هل بلغك أن في الدنيا مدينة مبنية بالذهب والفضة وعمدها من زبرجد ياقوت وحصى قصورها وغرفها اللؤلؤ وأنهارها في الأزقة تجرى تحت الأشجار فقال كعب والذي نفس كعب بيده لقد ظننت إني سأسأل قبل أن يسألني أحد عن تلك المدينة وما فيها ولكن أخبرك بها يا أمير المؤمنين ولمن هي ومن بناها أما تلك المدينة فهي حق على ما بلغ أمير المؤمنين وعلى ما وصفت له وأما الذي بناها شداد بن عاد وأما المدينة فهي إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد فقال يا أمير المؤمنين والذي نفس كعب بيده ما خلق الله في الأرض شيئا إلا وقد فسره في التوراة لعبده موسى عليه السلام تفسيرا وأن هذا القرآن أشد وعيده وكفى بالله شهيدا ووكيلا

(قال الشعبي) أخبرنا مخفل الشيباني عن رجل من حضر موت يقال له بسطام أنه وقع على حفيرة شداد بن عاد في جبل من جبال حضر موت مطل على البحر قال كنت أسمع في صباي إلى أن اكتهلت بمغارة في جبل من جبالها وأن الناس تهيب دخولها فلم أحفل بما كنت أسمع من ذلك فبينما أنا في نادي قومي إذ أنشدوا حديث تلك المغارة وأطنبوا في ذكرها ووصفوا موضعها فقلت لقومي إني غير منته عن هذه المغارة حتى أدخلها فهل فيكم من يساعدني فمال فتى منهم حديث السن أنا صاحبك فقلت يا ابن أخي أتجسر على ذلك قال عندي ما عندك من شدة البأس وقوة القلب فهيأنا سمعة وحملنا معنا أدوات عظيمة مملوءة ماء وطعاما مقدار ما يقوم بنا ونقدر على حمله ثم مضينا نحو ذلك الجبل الذي فيه المغارة وكان مشرفا على البحر في المكان الذي ركب منه أهل حضر موت البحر فلما انتهينا إلى باب تلك المغارة وجدنا عليها ثيابا وأشعلنا الشمعة ثم ذكرنا الله تعالى ودخلناها ومعنا تلك الأدوات من الماء والطعام فإذا مغارة عظيمة عرضها عشرون ذراعا وطولها علوا نحو خمسين ذراعا فمشينا فيها وهو نا في طريق أملس مستو ثم أفضينا إلى درج عادية عرض الدرجة عشرون ذراعا في سمك عشرة أذرع فحملنا أنفسنا على نزول تلك الدرج فقلت لصاحبي هلم إلى يدك فمكنت أخذ يده حتى ينزل فإذا نزل وقام في الدرجة تعلقت بطرف الدرجة وتشبثت حتى يتناول رجل على منكبه ثم نزل كذلك وذلك دأبنا عامة يومنا حتى نزلنا ما

قال مالك فمكثت من ساعتي وطرقت عليه الباب فخرج وظن أني جئت إليه لأخرجه من محله فخرج وهو يبكي ويعتذر ويقول يا سيدي السمع والطاعة فأنا أخرج من المحل فقلت له لا بأس عليك ما جئتك لهذا وإنما جئت إليك لأخبرك بما كان مني إني رفعت يدي وأردت أن أدعو عليك فهتف بي هاتف يا مالك لا تدع عليه فإنه من أولياءنا قال فبكى الرجل بكاء شديدا وتاب من وقته وساعته فأصبح الناس يزورونه ويتبركون به وكثر الازدحام عليه فخرج حاجا إلى مكة في العام المقابل فبينما أنا في المسجد الحرام وقت الظهيرة مستظل بحائط وإذا بجماعة قد اجتمعوا إلى جانب المسجد وبينهم رجل ملقى على التراب فتأملته فإذا هو صاحبي وهو يعالج سكرات الموت قال مالك فجلست عند رأسه أبكي ففتح عينيه فرآني ثم قال يا مالك أترى مولاي يعفو عن تلك الذنوب والسيئات ويرحم هذه العبرات فقد فارقت أهلي ووطني وخرجت من ذلك المكان حياء منك وأنت مخلوق فكيف أقف غدا بين يدي الخالق جلا وعلا ثم تنفس وشهق شهقة فمات رحمة الله تعالى عليه آمين .

وعن الجنيد رضي الله تعالى عنه أنه قال عزمت على الحج إلى بيت الله الحرام في بعض الأعوام

وكانت مقدار مائة درجة فافضينا إلى أزج عظيم محفور في الجبل في طول مائة ذراع وعرض أربعين ذراعاً وسمكه في السماء قدر مائة ذراع وفي صدره سرير من ذهب منضد بصنوف الجواهر وفوقه رجل عادي عظيم الجسم قد أخذ طول ذلك الأزج وعرضه وهو مضطجع عن ظهره كهيئة النائم وعليه يبعون حلة بقدر طوله وعرضه منسوجة تلك الحلل بقضبان الذهب والفضة وإذا ذلك الأزج يضيء من ثقب عرضه ذراعان وارتفاعه ثلاثة أذرع خارجاً إلى فضاء لم يدر ماهو وإذا على رأس السرير لوح من ذهب عظيم فيه كتابة ما لها مثيل وهي كتابة كاتب عاد كتبها في زمانه محفورة تلك الكتابة في اللوح حفراً فطلعنا ودنونا من ذلك الرجل ومسسنا تلك الحلل فصارت رمما وبقيت رمما وبقيت قضبان الذهب قائمة فجمعناها فكانت مقدار مائة رطل فجعلناها في أزوادنا وأردية وأردنا قلع شيء من تلك الجواهر المنضد بها السرير فلم نقدر عليها لوثاقتها فتركناها وهجم الليل ونحن في ذلك الأزج وعرفنا ذهاب النهار بذهاب ذلك الضوء الذي كان يدخل من ذلك الثقب فبتنا ليلتنا في ذلك الأزج وطفئت الشمعة التي كانت معنا فلما أصبحنا قلت لصاحبي ما ترى قال أما الرجوع من حيث جئنا فلا سبيل إليه لارتفاع هذه الدرج وإنا لا نستطيع صعودها لاسيما والشمعة قد طفئت ولكن هلم بنا نلزم هذا الضوء الذي نراه في هذا الثقب فإني أرجو أن نخرج منه إلى الفضاء إن شاء الله تعالى فقلت له لعمري إن هذا لهو الرأي فنهضنا بما معنا من تلك القضبان التي من الذهب وحملنا معنا ذلك اللوح الذي كان عند رأس السرير وسرنا من ذلك الثقب فلم نزل نمشي في طريق ضيق مقدار مائة ذراع حتى خرجنا منه إلى كهف في ذلك الجبل كهيئة الحائط وقد حف بذلك الكهف البحر فجلسنا على باب ذلك الثقب ثلاثة أيام بلياليها نتمون ببقية الماء والطعام الذي كان معنا فلما كان اليوم الرابع نظرنا إلى مركب قد أقبل في البحر فلوحنا إليه فنظر إلينا أهله فارسلوا لنا القارب فنزلنا من باب الثقب نزولاً شاقاً حتى وثبنا إلى القارب فلما خرجنا من البحر اقتسمنا ذلك الذهب بيننا وصار ذلك اللوح إلى بقسطلي ثم أن أنفسنا دعتنا إلى العودة إلى ذلك السرب مما يلي الثقب فركبنا قاربا وسرنا في البحر نحو المكان الذي خرجنا منه فخفي علينا مكانه فعلمنا أنا لم نرزق منه إلا ما أخذنا فرجعنا وأن اللوح مكث عندي حولا لا أجد أحدا يقرؤه لي حتى أتانا رجل من أهل صنعاء حميري كان يحسن قراءة تلك الكتابة فاخرجنا إليه اللوح فقرأه فإذا مكتوب فيه هذه الأبيات :

اعتبر بي أيها المغرور بالعمر المديد ... أنا شداد بن عاد
صاحب الحصن العميد وأخو القوة والباساء ... والملك الحشيد
دان أهل الأرض طرا لي من خوف وعيد ... وملكت الشرق والغرب
بسلطان شديد وبفضل الملك والعدة فيه والعديد
جاءنا هود وكنا في ضلال قبل هود ... فدعانا لو قبلنا
كان بالأمر الرشيد فعصيناه ونادينا ألا هل من محيد
فاتتنا صيحة تهوى من الأفق البعيد ... فتوفينا كزرع
وسط بيداء حصيد

(قال دغفل) سألت علماء حمير عن شداد وقلت إنه أصيب وقد كان دنا من إرم ذات العماد فكيف وجد في تلك المغارة وهي بحضرموت فقالوا إنه لما هلك هود ومن معه من الصيحة على مرحلة من تلك المدينة ملك بعده مزيد بن شداد وقد كان أبوه خلفه على ملكه بحضرموت فامر بحمل أبيه إلى حضرموت فحمل مطلياً بالصبر والكافور ثم أمر بحفر تلك المغارة فحفرت واستودعه فيها على ذلك السرير الذي من الذهب والله أعلم .

وردته نحو القسطنطينية فرددتها مراراً وهي تعو فقلت في نفسي لله في ذلك سر خفي فاطلقتها وقلت لها وسيدي ومولاي ليس لي حيلة إن كنت تريد أن تردني عن بيتك فالامر اليك قال فجعلت الناقة تسير سيراً جيداً حتى دخلت القسطنطينية فلما دخلت البلد ورأيت الناس في هرج ومرج فسألت عن الخبر فقال بعض الناس إن ابنة الملك قد ذهب عقلها وهم يلتمسون لها طبيباً يداويها فقلت في نفسي وعزة ربي لهذا صرفني عن بيته في هذا العام قال الجنيد فقلت لهم حضر الطبيب فقالوا أنت الطبيب فقلت لهم نعم إن شاء الله تعالى قال فاخذوا بيدي وأتوا بي إلى الملك وأخبروه بما قلت فاشترط علي شروطا فامتثلت واستعنت بالله ثم أدخلت مخدعا فسمعت خشخشة الحديد وقائلا يقول ياجنيد تجذبك الناقة إلينا وأنت تجذبها نحو الكعبة قال الجنيد فطاش عقلي من ذلك الكلام ثم دخلت فرأيت جارية لم ير الراؤن أحسن منها وهي مقيدة بالحديد ومسلسلة فقلت لها ما هذه الحالة فقالت ياطبيب القلوب صف لي صفة أنجو بها من الكروب قال الجنيد فقلت لها قولي

فرفعت صوتها بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله فتساقطت الأغلال والسلاسل

لا إله إلا الله محمد رسول الله عنها فلما رأى أبوها ذلك قال ما أحسنك من طبيب أسألك بالله عليك أن تداويني بما داويت به إبنتي هذه قال الجنيد فقلت لا إله إلا الله محمد رسول الله فقالها وأسلم وحسن إسلامه ثم أتت أمها وأسلمت وأسلم كل من كان في البلد معهم قال الجنيد فعزمت على التوجه فقالت الجارية لا تعجل يا سيدي بالخروج فإني سألت الله أن يتوفاني وأنت حاضر حتى تقف على غسلي وتصلي علي ثم تشهدت وخرت ميتة فغسلناها ودفناها رحمها الله تعالى

(وعن أبي بكر بن الفضيل رضي الله تعالى عنه) أنه قال سألت بعض أصدقائي وكان أصله رومياً عن سبب إسلامه فامتنع أن يحدثني فما زلت أقسم عليه حتى حدثني قال نزل بنا المسلمون لحاصرونا سنة من السنين فخرجنا إليهم وقاتلناهم فقتلوا منا جماعة وقتلنا منهم جماعة وأسروا منا جماعة وأسرنا منهم جماعة كما هي عادة العساكر في القتال فأسرت أنا وحدي من المسلمين عشرة رجال وكان لي في الروم المنزلة فسلمت العشرة إلى غلماني فقيدوهم وحملوهم على البغال حتى تركوهم في السجن عندي فبينما أنا يوماً من الأيام جالس بقصري إذ جاء بعض غلماني وقال

(مجلس في ذكر قصة أصحاب الرس)

قال الله تعالى (وعاداً وثمود وأصحاب الرس) اختلف العلماء أهل التفسير وأصحاب الأقاصيص فيهم فقال سعيد بن جبير والكلبي والخليل بن أحمد دخل كلام بعضهم في بعض وكل أخبر بطائفة من حديث أصحاب الرس إن أصحاب الرس بقية ثمود قوم صالح وهم أصحاب البئر التي ذكرها الله تعالى في كتابه في قوله تعالى وبئر معطلة وقصر مشيد وكانوا بفلج اليمامة نزولا على تلك البئر وكل ركية لم تطو بالحجارة والآجر فهي رس وكان لهم نبي يقال له حنظلة بن صفوان وكان بارضهم جبل يقال له قتم مصعداً في السماء ميلا وكانت العنقاء تبيت به وهي كأعظم ما يكون من الطير وفيها من كل لون وسموها العنقاء لطول عنقها وكانت في ذلك الجبل تنقض على الطير فتأكلها فجاعت ذات يوم وأعوزها الطير فانقضت على صبي فذهبت به فسميت عنقاء مغرب لأنها تغرب بما تأخذه ثم انقضت على جارية حين ترعرعت فأخذتها فضمتها إلى جناحين لها صغيرين سوى الجناحين الكبيرين فشكوا ذلك إلى نبيهم فقال اللهم خذها واقطع نسلها وسلط عليها آية تذهب بها فأصابتها صاعقة فاحترقت فلم يرلها أثر بعد ذلك فضربت بها العرب أمثالا في أشعارها وحكمها وأمثالها ثم أن أصحاب الرس قتلوا نبيهم فأهلكهم الله (وقال بعض العلماء) أنهم قوم كان لهم نهر يدعى الرس ويتسمون إليه وكان فيهم أنبياء كثيرة لا يقوم فيهم نبي إلا قتلوه وذلك النهر بمنقطع أذربيجان بينها وبين أرمينية فإذا قطعته مدبراً دخلت في حد أرمينية وإذا قطعته مقبلا دخلت في حد أذربيجان وكان من حولهم من أهل أرمينية يعبدون الأوثان ومن قدامهم من أهل أذربيجان يعبدون النيران وهم كانوا يعبدون الجواري العذاري فإذا تمت لإحداهن ثلاثون سنة قتلوها واستبدلوا غيرها وكان عرض نهرهم ثلاثة فراسخ وكان يرتفع في كل يوم وليلة حتى بلغ أنصاف الجبال التي حوله وكان لا ينصب في بحر ولا بر فإذا خرج من حدهم يقف ويدور ثم يرجع إليهم فبعث الله تعالى إليهم ثلاثين نبياً في شهر واحد فقتلوهم فبعث الله تعالى إليهم نبياً وأيده بنصره فبعث معه ولياً فجاهدهم في الله حق جهاده ثم بعث إليه ميكائيل حين نابذوه وكان في أوان وقوع الحب في الأرض وكانوا عند ذلك أحوج ما يكونون إلى الماء فحفر نهرا في البحر وانصب ما في أسفله وأتى إلى عيونه من فوق فسدها وبعث الله إليه خمسمائة من الملائكة أعوانه فغرقوا ما بقي في وسط نهرهم ثم أمر الله جبريل فنزل فلم يدع في أرضهم عيناً ولا نهراً إلا يبسه بإذن الله تعالى وأمر ملك الموت فانطلق إلى المواشي فأماتها دفعة واحدة وأمر الرياح الأربع الجنوب والشمال والدبور والصبا فضمت ما كان لهم من متاع وألقى الله تعالى عليهم السبات ثم خففت الرياح الأربع بذلك المتاع أجمع فرمته في رؤوس الجبال وبطون الأودية وأما ما كان من حلي وتبر وآنية فإن الله تعالى أمر الأرض فابتلعته فأصبحوا لا شاة عندهم ولا بقرة ولا مال يعودون إليه ولا ماء يشربون ولا طعاما يأكلون فآمن بالله عند ذلك قليل منهم وهداهم الله إلى غار في جبل له طريق من خلفه فنجوا وكانوا إحدى وعشرين رجلا وأربع نسوة وصبيين وكان عدة الباقي من الرجال والذراري ستمائة ألف ماتوا عطشاً وجوعاً ولم يبق منهم باقية ثم عاد القوم إلى منازلهم فوجدوها قد صار أعلاها أسفلها فدعا القوم عند ذلك مخلصين لله أن يجيشهم بماء وزرع وماشية ويجعله قليلا لئلا يطغوا فأجابهم الله تعالى إلى ذلك لما علم من صدق نياتهم وإخلاصهم وقالوا أنه لا يبعث الله رسولا إلى من يليهم ويقاربهم إلا أعانوه وصدقوه وعضدوه فعلم الله منهم الصدق فأطلق لهم نهرهم وزادهم على ما سألوه فأقام أولئك القوم في طاعة الله ظاهراً وباطناً حتى مضوا وانقرضوا فحدث من بعدهم نسلهم قوم أطاعوا الله في الظاهر ونافقوه في الباطن وأملى الله تعالى لهم وكان عليهم قادراً وكانت معاصيهم أكثر من طاعتهم وخالفوا أولياء الله فبعث الله عليهم من فارقهم وخالفهم فأسرع فيهم القتل

وبقيت منهم شرذمة فسلط الله عليهم الطاعون فلم يبق الله منهم أحد وبقى نهرهم ومنازلهم ماتى عام لايسكنها أحد (وروى) على بن الحسين زين العابدين عن أبيه عن جده عن على بن أبى طالب رضوان الله عليهم أن رجلا من أشراف بنى تميم يقال له عمر أتاه فقال ياأمير المؤمنين أخبرنى عن أصحاب الرس وفى أى عصر كانوا وأين كانت منازلهم ومن كان ملكهم وهل بعث الله إليهم رسولا أم لا وبماذا أهلكوا فإنى أجد فى كتاب الله عز وجل ذكرهم ولاأجد خبرهم فقال له أمير المؤمنين على رضى الله عنه لقد سألتنى عن حديث ما سألنى عنه أحد قبلك ولا يحدثك به أحد بعدى كان من قصتهم يا أخا تميم أنهم كانوا قوم يعبدون شجرة صنوبر يقال لها شاب أدرخت وكان يافث بن نوح غرسها على شفير عين يقال لها درشان كانت نبعت لنوح عليه السلام بعد الطوفان وإنما سموا أصحاب الرس لأنهم رسوا نبيهم فى الأرض وذلك قبل سليمان ابن داود عليه السلام وكان لهم إثنتا عشرة قرية على شاطىء نهر يقال له الرس من بلاد المشرق وبهم سمى ذلك النهر ولم يكن يومئذ فى الأرض نهر أعز منه ولا أعذب منه ولاقرى أكثر سكانا وعمرانا منها وكان أعظم منازلهم إسفنديا وهى التى كانت ينزلها ملكهم وكان يسمى تركون ابن عابور بن نوش بن سارب بن النمروذ بن كنعان فرعون إبراهيم عليه السلام وفيها العين التى يسقون منها الصنوبرة التى كانوا يعبدونها وقد غرسوا فى كل قرية منها حبة من تلك الصنوبرة فنبتت تلك الحبة وتصير شجرة عظيمة ثم حرموا ماء تلك العين والأنهار فلايشربون منها لاهم ولاأنعامهم ومن شرب قتلوه ويقولون هى حيات آلهتنا فلاينبغى لأحد أن ينقص من حياتها ويشربون هم وأنعامهم من نهر الرس الذى عليه قراهم وقد جعلوا فى كل شهر من السنة فى كل قرية عيداً يجتمع إليه أهلها ويضربون على تلك الشجرة مظلة من حرير فيها أصناف الصور ثم يأتون بشياه وبقر فيذبحونها قرباناً للشجرة ويشعلون فيها النيران بالحطب الكثير فإذا سطع دخان تلك الذبائح وقتارها وبخارها فى الهواء وحال بينهم وبين النظر للسماء خروا سجدا شكراً للشجرة يبكون ويتضرعون إليها أن ترضى عنهم وكان الشيطان يجىء فيحرك أغصانها ويصيح فى ساقها صياح الصبى عبادى قدرضيت عنكم فطيبوا نفساً وقروا عيناً ليرفعون عند ذلك رؤسهم ويشربون الخمور ويضربون المعازف فيكونون على ذلك يومهم وليلتهم ثم ينصرفون فلما طال كفرهم بالله تعالى وعبادتهم غيره بعث إليهم نبياً من بنى إسرائيل من ولد يهوذا بن يعقوب فلبث فيهم زماناً طويلا يدعوهم إلى الله تعالى ويعرفهم ربوبيته فلا يتبعونه ولا يسمعون مقالته فلما رأى شدة ما هم فيه من الغى والضلالة وتركهم قبول ما دعاهم إليه من الرشد والصلاح حضر عند قريتهم العظمى وقال يارب عبادك أبوا تصديقى ودعوتى إليهم وماأرادوا إلا تكذيبى والكفر بك ثم غدوا يعبدون شجرة لا تنفع ولا تضر فأيبس شجرهم أجمع وأرهم قدرتك وسلطانك فأصبح القوم وقد يبس شجرهم كله فهالهم ذلك وخضعوا فصاروا فرقتين فرقة قالوا سحر هذا الرجل الذى زعم أنه رسول رب السماء آلهتكم ليصرف وجوهكم عنها إلى إلهه وفرقة قالت غضبت عليكم آلهتكم حين رأت هذا الرجل يعيبها ويقع فيها ويدعوكم إلى عبادة غيرها فحجبت حسنها وجمالها لكى تغضبوا فتنتصروا منه أجمعوا أمرهم على قتله فاتخذوا مثال بيت واتخذوا أنابيب طوالا من رصاص واسعة الأفواه ثم إنهم أرسلوها إلى قرار العين واحدة فوق الأخرى مثل البرزخ ونزحوا ما فيها من الماء ثم حفروا فى قعرها بئرا ضيقة العين عميقة فرسوا فيها نبيهم وألقوا عليه فيها صخرة عظيمة ثم أخرجوا الأنابيب من الماء وقالوا الآن نرجوا أن ترضى علينا آلهتنا إذا رأت إنا قتلنا من كان يقع فيها ويصد

يا سيدى إن أحد الموكلين قد أخذ من أحد المأسورين مالا وتركه يصلى قال فلما سمعت ذلك أحضرت الموكل بهم وقلت له أخبرنى ما الذى أخذته من هذا الأسير حتى تركته يصلى فقال نعم يا سيدى إنه فى كل وقت صلاة يدفع إلى دينارا ذهباً فقلت هل معه شىء من ذلك فقال لا يا سيدى ولكنه إذا فرغ من صلاته يضرب الأرض بيده فيظهر له ذلك الدينار قال فتعجبت من ذلك وأحببت أن أعرف حقيقة هذا الرجل فلما كان من الغد أحضرت الموكل به ولبست ثيابه ووكلت نفسى بذلك فلما جاء وقت الصبح أومأ إلى بانه يريد الصلاة ويدفع الدينار على عادته فاشرت إليه وقلت له ما آخذ إلا دينارين فقال نعم فاطلقته يصلى فلما فرغ من صلاته ضرب الأرض بيده ودفع إلى الدينارين فازددت تعجباً من ذلك فلما جاء وقت صلاة الظهر أومأ إلى كالمرة الأولى فقلت له ما آخذ إلا خمسة دنانير قال نعم فلما فرغ من صلاته دفع إلى خمسة دنانير فلما جاء وقت صلاة العصر أشار إلى كعادته فقلت ما آخذ إلا عشرة دنانير فقال نعم فلما فرغ من صلاته دفع إلى العشرة دنانير فلما جاء وقت المغرب أشار إلى فاشرت إليه لا آخذ إلا خمسة عشر دينارا فقال نعم

فلما فرغ دفع إلى ذلك فلما جاء وقت العشاء الأخيرة أومأ إلى فقلت لا آخذ إلا عشرين ديناراً فقال نعم فصلى وأحسن صلاته ودفع إلى العشرين ديناراً وقال اطلب ما شئت فإن سيدى غنى كريم لا يبخل على بما سالته قال فبت تلك الليلة متفكرا فى أمره متعجباً مما رأيته منه وقد داخلنى منه هيبة وأمر عظيم وعلمت أنه من أولياء الله تعالى فلما أصبحت دعوته للحضور عندى ثم أكرمته وفككت قيوده وألبسته ثوباً حسناً وعظمته وبجلته ثم قلت له ياسيدى هل لك فى الإقامة عندنا فى بلادنا وأنت فى أعز مكان وأكرم محل ونكرمك غاية الإكرام أو الرجوع إلى بلادك فاختار الرجوع إلى بلاده فاحضرت له زاداً وحملته بنفسى على بغل وانفذت معه من أصحابى وغلمانى عشرة رجال وأوصيتهم بإيصاله إلى بلاده معظماً مكرماً وأن لا يعترضه عارض ولا يؤذيه أحد يمتثلوا جميع ما يامرهم به ويفعلوا جميع ما يختاره ثم أحضرت دواية وقرطاساً وجعلت له علامة بينى وبينه وقلت له أنه إذا وصل إلى بلاده سالما يكتب تلك العلامة فى القرطاس خوفاً عليه فى الطريق ثم ودعته وحملته بنفسى فقال لى توفاك الله على أحسن الأديان إليه

عن عبادتها وأنا دفناه تحت كبيرها يتشفى منه فيعود لها نورها ونضرتها فما كان فبقوا على ذلك عامة يومهم ويسمعون أنين نبيهم وهو يقول سيدى ومولاى ترى ضيق مكانى وشدة كربى فارحم ضعف ركنى وقلة حيلتى وعجل قبض روحى ولا تؤخر إجابة دعوتى حتى مات عليه السلام فقال الله تعالى لجبريل عليه السلام أنظر عبادى هؤلاء الذين غرهم حلمى وأمنوا مكرى وعبدوا غيرى وقتلوا رسلى وأنا المنتقم ممن عصانى ولم يخش عقابى وإنى حلفت بعزتى لاجعلنهن عبرة ونكالا للعالمين فبينما هم فى عيدهم إذ غشيهم ريح عاصف حمراء فتحيروا فيها وذعروا منها وتضام بعضهم إلى بعض ثم أن الأرض صارت من تحتهم كحجر كبريت تتوقد وظلتهم سحابة سوداء فالقت عليهم حجراً كالقبة يلتهب فاذاب أبدانهم كما يذوب الرصاص فى النار فنعوذ بالله من غضبه ودرك نقمته أنه هو السميع العليم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا والله أعلم .

﴿ مجلس فى ذكر قصة نبى الله أيوب وبلائه عليه السلام ﴾

قال الله تعالى (واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه الآية وقال تعالى وأيوب إذ نادى ربه إنى مسنى الضر وأنت ارحم الراحمين) قال وهب وكعب وغيرهما من أهل الكتب كان أيوب رجلا من الروم وكان رجلا طويلا عظيم الرأس جعد الشعر حسن العينين والخلق قصير العنق غليظ الساقين والساعدين وكان مكتوبا باعلى جبهته المبتلى الصابر وهو أيوب بن أموص بن تارخ بن روم بن عيص بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام وكانت أمه من ولد لوط بن هاران وكان الله قد اصطفاه ونبأه وبسط عليه الدنيا وكان له الثنية من أرض الشام كلها سهلها وجبلها وما كان فيها وكان له من أصناف المال كله من الإبل والبقر والغنم والخيل والحمير ما لا يكون لرجل أفضل منه فى العدة والكثرة وكان له بها خمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكل عبد امرأة وولد ومال ويحمل آلة كل فدان أتان ولكل أتان ولد من الإثنين إلى فوق الخمسة وكان الله أعطاه أهلا وولداً من رجال ونساء وكان أمره تقياً رحيما بالمساكين يكفل الأرامل والأيتام ويكرم الضيف ويبلغ ابن السبيل وكان شاكرا لأنعم الله تعالى مؤدياً لحقه قد امتنع من عدو الله إبليس أن يصيب منه ما أصاب من أهل الغنى من الغرة والغفلة والتشاغل والسهو عن أمر الله تعالى بما هو فيه من الدنيا وكان معه ثلاثة قد آمنوا به وصدقوه وعرفوا فضله رجل من أهل اليمن يقال له اليفن ورجلان من أهل بلاده يقال لاحدهما مالك والآخر ظافر وكانوا كهولا (قال وهب) أن لجبريل عليه السلام بين يدى الله تعالى مقاماً ليس لاحد من الملائكة مثله فى القربة والفضيلة وأن جبريل هو الذى يتلقى الكلام فإذا ذكر الله تعالى عبداً بخير تلقاه جبريل ثم ميكائيل ثم من حوله من الملائكة المقربين والحافين من حول العرش فإذا شاع ذلك فى الملائكة المقربين صارت الصلاة على ذلك العبد من أهل السموات فإذا صلت عليه ملائكة السموات هبط عليه بالصلاة ملائكة الأرض وكان إبليس لا يحجب عن شىء من السموات وكان يقف فيهن حيثما أراد ومن هناك وصل إلى آدم يخين أخرجه من الجنة فلم يزل على ذلك يصعد إلى السماء حتى رفع الله تعالى عيسى عليه السلام فحجب عن أربع وكان يقعد فى ثلاث فلما بعث الله محمدا ﷺ حجب عن الثلاثة الباقية فهو وجنوده محجوبون عن جميع السموات إلى يوم القيامة إلا من استرق السمع فاتبعه شهاب مبين قال فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب وذلك حين ذكره الله وأثنى عليه فادركه البغى والحسد وصعد سريعاً حتى صعد فى السماء موقفا كان يقفه فقال يا إلهى نظرت فى امر عبدك أيوب فوجدته عبدا أنعمت عليه فشكرك وعافيته فحمدك ثم اختبره لا بشدة ولا

بلاء وانالك زعيم لئن ضربته ببلاء ليكفرن بك وليسبنك فقال الله تعالى انطلق اليه فقد سلطتك على ماله فانتضى عدو الله حتى بلغ الأرض ثم جمع عفاريت الشياطين وعظماءهم فقال لهم ماذا عندكم من القوة والمعرفة فاني قد سلطت على مال أيوب وزوال المال هي المصيبة الفادحة والفتنة التي لا تصبر عليها الرجال فقال عفريت من الشياطين اعطيت من القوة ما لو شئت تحولت اعصاراً من نار فاحرقت كل شيء أتى عليه فلم يزل يحرقها ورعاتها حتى أتى على آخرها فلما فرغ تمثل إبليس على قعود منها في صفة راعيها ثم انطلق يؤم أيوب حتى وجده قائماً يصلي فقال له يا أيوب فقال لبيك فقال هل تدري ما الذي صنع ربك الذي اخترته وعبدته يا بلك ورعاتها فقال أيوب انها ماله أعارنيها وهو أولى بها إن شاء تركها وإن شاء أخذها وقد تحققت وطيبت النفس إني ومالي للفناء والزوال فقال له إبليس فان ربك أرسل اليها ناراً من السماء فاحترقت كلها وبقي الناس مبهوتين وقوفاً عليها يتعجبون منها منهم من يقول ما كان أيوب يعبد شيئاً وما كان إلا في غرور ومنهم من يقول لو كان يقول لو كان إله أيوب يقدر أن يصنع شيئاً لمنع وليه من حريق مواشيه ومنهم من يقول هو الذي فعل ما فعل فشمت به عدو الله وطمع به صديقه فقال أيوب الحمد لله الذي أعطاني وحيث شاء نزع مني عرياناً خرجت من بطن أمي وعرياناً أعود إلى القبر وعرياناً أحشر إلى الحد بي ليس ينبغي لك أن تفرح حين أعارك الله وتجزع حين قبض عاريته فهو أولى بك وبما أعطاك ولو علم الله فيك أيها العبد خيراً لنقل روحك مع تلك الأرواح وصيرك شهيداً مع الشهداء ولكنه علم فيك شراً فأخرك وخلصك في البلاء كما يخلص الزوان من القمح الخالص فرجع إبليس إلى أصحابه غائباً ذليلاً وقال لهم ماذا عندكم من القوة إني لم أكلم قلبه فقال عفريت من عظمائهم عندي من القوة ما لو شئت صحت صوتاً لا يسمعه ذو روح إلا خرجت مهجة نفسه فقال له إبليس فأت الغنم ورعاتها فانطلق يؤم الغنم ورعاتها حتى إذا توسطها صاح صوتاً ماتت منه الغنم جميعاً وماتت رعاتها ثم ان إبليس خرج متمثلاً بقهرمان الرعاة حتى جاء إلى أيوب وهو قائم يصلي فقال له مثل قوله أولاً ورد عليه أيوب مثل ما قال في النوبة الأولى ثم ان إبليس رجع إلى أصحابه فقال ما عندكم من القوة فاني لم أكلم قلب أيوب فقال عفريت من عظمائهم عندي من القوة ما إذا شئت تحولت ريحاً عاصفاً تنشف كل شيء تأتي عليه حتى لا يبقى منه شيء فقال له إبليس فأت الفدادين او الحرث فانطلق يؤمهم حتى قرب من الفدادين فاستوى في الحرث وأولادهم رتوع فلم يشعروا حتى هبت ريح عاصف فنشفت كل شيء من ذلك حتى كأنه لم يكن ثم أن إبليس خرج متمثلاً بقهرمان الحرث حتى جاء إلى أيوب وهو قائم يصلي فقال له مثل قوله الأول فاجابه أيوب بمثل جوابه الأول فجعل إبليس يصيب ماله الأول فالأول حتى أتى على آخره قال وأيوب كلما انتهى اليه هلاك مال من ماله حمد الله وأحسن الثناء عليه ورضي بالقضاء ووطن نفسه بالصبر على البلاء حتى ما بقي له مال فلما رأى إبليس أنه قد أفنى ماله ولم ينل منه شيئاً ولا نجح في شيء من أفعاله شق عليه ذلك وصعد سريعاً ووقف الموقف الذي كان يقفه وقال إلهي ان أيوب يرى أنك مهما متعته من نفسه وولده فانت معطيه المال فهل أنت مسلطي على ولده فانها الفتنة المضلة والمصيبة التي لا تقوم لها قلوب الرجال ولا يقوى عليها صبرهم فقال الله تعالى له انطلق فقد سلطتك على ولده فانتضى عدو الله حتى جاء بني نبي الله أيوب وهم في قصرهم فلم يزل يزلزله حتى تداعى القصر من قواعده ثم جعل يناطح بجدوره بعضها بعضاً فرماهم بالخشب والجندل حتى مثل بهم كل مثلة ثم رفع بهم القصر وقلبه فصاروا منكسين ثم ان إبليس انطلق إلى أيوب متمثلاً بالمعلم الذي كان يعلمهم الحكمة وهو جريح مشدوخ الرأس والوجه يسيل دمه من دماغه فاخبره بذلك وقال له يا أيوب لو رأيت بنيك كيف عذبوا وكيف قلب بهم القصر وكيف نكسوا على رؤسهم تسيل دماؤهم وأدمغتهم من أنوفهم وشفاههم ولو رأيت كيف شقت بطونهم فتناثرت أمعاؤهم لتقطع قلبك فلم يزل يقول هذا ويردد حتى رق أيوب عليه وبكى وقبض

بلدة من بلادنا خمسة أيام ذهاباً وخمسة أيام إياباً كان اليوم السادس قسم على أصحابي وغلماني ومعهم القرطاس بخطه والعلامة التي كانت بيني وبينه فسألتهم عن سرعة مجيئهم فقالوا لما خرجنا من عندك وهو معنا وصلنا إلى بلاده في ساعة واحدة من غير تعب ولا نصب فلما رجعنا صرنا في الطريق خمسة أيام بالجهد والتعب والنصب فقلت عند سماع ذلك منهم أشهد أن لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله وأن دين الإسلام حق ثم خرجت من بلاد الروم إلى بلاد الإسلام وصار أمري إلى ما ترى والحمد لله وحده

(وحكى عن بعضهم عفا الله عنه) انه قال كان في زمن خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنهما امرأة علوية وكان لها ثلاث بنات فضاق الحال عليها واشتد بها الفقر فبكت بناتها يوماً من الأيام من ألم الجوع فقالت المرأة لبناتها اصبرن حتى اطلب لكم شيئاً من عند القاضي من بيت مال المسلمين قال فصبرت بناتها عند سماع ذلك منها إلى الصباح ثم مضت والتهن إلى بيت القاضي فلما وصلت استأذنت في الدخول فدخلت وسلمت على القاضي فرد عليها السلام

ثم قال ما حاجتك ياشريفة فقالت له ياسيدى إن لى ثلاث بنات وقد تركتهن بالجوع وجئت اليك لعلك إن تصدق علينا بشىء من بيت مال المسلمين قال فلما سمع القاضى كلامها قال لها غداً أعطيكى شيئاً قال فخرجت من عنده وجاءت إلى البنات وهن يبكين من شدة الجوع فقالت لهن يا بنات طيبن قلوبكن فقد وعدنا القاضى بأنه فى غد يتصدق علينا وإن شاء الله تعالى غداً ارجع اليه كما قال وآتيكم بشىء من عنده قال فبتن تلك الليلة مستبشرات فلما أصبح الصباح ذهبت والدتهن إلى بيت القاضى فوجدته جالساً على باب داره فسلمت عليه فرد عليها السلام ثم قالت له يا سيدى كنت وعدتنى بالأمس بشىء وقد جئتك طامعة فى طلبه فلما سمع كلامها شتمها ونهرها وقال اذهبى عنى فرجعت المرأة محزونة باكية وجاءت إلى خرابة كانت مجاورة لبيتها فدخلت اليها وبكت بكاء شديداً وقالت إلهى بأى وجه ارجع إلى بناتى وبأى عين أنظر اليهن وبأى لسان أجيبهن وطال بكاؤها وزاد تضرعها وانتحابها قال وكان بالبلد نصرانى يقال له سيدوك وكان ذا مال كثير وغلمان وكان قلبه رقيقاً للإسلام فمضى مارا بتلك الخربة فسمع بكاء المرأة فطاش عقله وقال لبعض غلمانه ائتونى بهذه

قبضة من التراب فوضعها على رأسه فاغتنم إبليس الفرصة منه لذلك فصعد سريعاً بالذى كان من جزع أيوب مسروراً ثم لم يلبث أيوب أن أبصر فاستغفر وشكر فصعد قرناؤه من الملائكة باستغفاره وتوبته فبادروا إبليس وسبقوه إلى الله فأعلم الله بما كان فوقف إبليس خاسئاً ذليلا فقال يا إلهى إنما هون على أيوب خطر المال والولد أنه يرى أنك مهما متعته بنفسه فانت تعيد له المال والولد فهل أنت مسلطى على نفسه وبدنه فانى لك زعيم لئن ابتليته فى جسده لينسيك وليكفرن بك وليجحدن نعمتك فقال الله تعالى انطلق فقد سلطتك على جميع جسده ولكن ليس لك سلطان على لسانه وقلبه ولا على عقله وكان والله أعلم به لم يسلطه عليه إلا رحمة ليعظم له الثواب ويجعله عبرة للصابرين وذكرى للعابدين فى كل بلاء نزل بهم ليتأسوا به فى الصبر ورجاء الثواب فانقض عدو الله سريعاً فوجد أيوب ساجداً فقبل أن يرفع رأسه أتاه من قبل الأرض فى موضع وجهه ونفخ فى منخريه نفخة اشتعل منها جسده فذهل وخرج به من فرقه ثآليل مثل اليات الغنم ووقعت فيه حكة لا يملكها ولا يتماسك عن حكها لحك باظماره حتى سقطت كلها ثم حكها بالمسوح الخشنة حتى قطعها ثم بالفخار والحجارة الخشنة فلم يزل يحكها حتى نزل لحمه وتقطع وتغير وانتن فاخرجته أهل القرية فجعلوه فى كناسة وجعلوا له عريشا فرفضه خلق الله كلهم غير امرأته رحمة بنت افرائيم ابن يوسف بن يعقوب عليهم السلام وكانت تختلف اليه بما يصلحه وتكرمه فلما رأى اصحابه له ثلاثة ما ابتلاه الله به اتهموه ورفضوه من غير أن يتركوا دينه فلما طال به البلاء انطلقوا اليه وهو فى بلائه فبكتوه ولاموه وقالوا له تب إلى الله من الذنب الذى عوقبت به (قال) وكان حضر معهم فتى حديث السن وكان قد آمن به وصدقه فقال انكم تكلمتم أيها الكهول وكنتم احق بالكلام لأسنانكم ولكنكم قد تركتم من القول أحسن من الذى قلتم ومن الرأى أصوب من الذى رأيتم ومن الأمر أجمل من الذى أوتيتم وقد كان لأيوب عليكم من الحق والذمام أفضل من الذى وصفتم فهل تدرون أيها الكهول حق من انتقصتم وحرمة من انتهكتم ومن الرجال الذى عبتم وانتهتم الم تعلموا أن أيوب نبى الله وحبيبه وخيرته وصفوته من أهل الأرض فى يومكم هذا ثم انكم لو تعلموا ولا أطلعكم الله تعالى على انه سخط شيئاً من أمره منذ أتاه ما أتاه إلى يومكم هذا ولا علمتم انه نزع منه شيئاً من الكرامة التى أكرمه الله بها ولا أن أيوب غير الحق فى طول ما صحبتموه إلى يومكم هذا فان كان البلاء الذى أذرى به عندكم ووضعه فى أنفسكم فقد علمتم أن الله تعالى يبتلى النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ثم ان بلاءهم ليس دليلا على سخطه عليهم ولا هوانهم عليه ولكنه كرامة وخيرة لهم ولو كان أيوب ليس هو من الله بهذه المنزلة إلا انكم آخيتموه على وجه الصحبة لكان لا يحمل بالحكيم أن يخذل أخاه عند البلاء ولا يعيره بالمصيبة ولا يعيبه بما لا يعلم وهو مكروب حزين ولكنه يرحمه ويبكى معه ويستغفر الله له ويحزن لحزنه ويدله على رشد أمره وليس بحكيم ولا رشيد من جهل هذا فالله الله أيها الكهول فقد كان لكم فى عظم الله وجلاله وذكر الموت ما يقطع ألسنتكم ويكسر قلوبكم ألم تعلموا ان لله عبادا اسكتتهم خشيته من غير عى ولا بكم وانهم لهم الفصحاء النبلاء البلغاء الألباء العالمون بالله وآياته ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله انقطعت ألسنتهم واقشعرت جلودهم وانكسرت قلوبهم وطاشت عقولهم اعظاما لله تعالى واعزازاً وإجلالا فاذا استفاقوا استبقوا إلى الله تعالى بالأعمال الزاكية الصالحة يعدون أنفسهم مع الخاطئين الظالمين وانهم براء يعدون أنفسهم مع المفرطين المقصرين وانهم لأكياس أقوياء ولكنهم لا يستكثرون لله الكثير ولا يرضون له بالقليل ولا يدلون عليه بالأعمال فهم مراعون مفزعون خاشعون مستكينون فقال أيوب أن الله تعالى يزوع الحكمة بالرحمة فى قلب المؤمن الكبير والصغير فمتى نبتت فى القلب أظهرها الله تعالى على اللسان وليس تكون الحكمة من قبل السن والشيب ولا طول التجربة فاذا جعل الله العبد حكيما فى الصبا لم تسقط منزلته عند الحكماء وهم يرون من الله تعالى عليه نور الكرامة ثم أن أيوب اقبل على الثلاثة وقال أتيتمونى غضابا رهبتم قبل ان ترهبوا أو بكيتم

قبل أن تضربوا كيف بكم لو قلت لكم تصدقوا عنى بأموالكم لعل الله يخلصنى وقربوا عنى قربانا لعل الله يتقبلها ويرضى عنى وانكم قد أعجبتكم أنفسكم وظننتم أنكم قد عوفيتم بإحسانكم فهنيئاً لكم بغيتم وتعززتم ولو نظرتم فيما بينكم وبين ربكم ثم صدقتم لوجدتم لكم عيوباً ستّرها الله عليكم بالعافية التى البسكم إياها وقد كنتم فيما خلا الرجال تو قرونى وأنا مسمرغ كلاى معروف حتى منتصف من خصمى فأصبحت اليوم وليس لى راى ولا كلام معكم فأنتم اليوم أشد على من مصيبتى ثم أنه أعرض عنهم وأقبل على ربه مستغيثاً متضرعاً إليه فقال رب لأى شىء خلقتنى ليتنى إذ كرهتنى ماخلقتنى ياليتنى كنت حيضة القتنى أمى أو ليتنى قد عرفت الذنب الذى أذنبت والعمل الذى عملت فصرفت وجهك الكريم عنى لو كنت أمتنى والحقتنى بآبائى فالموت كان أجمل لى يا إلهى المأكن للغريب داراً وللمسكين قراراً ولليتيم ولياً وللأرملة قيماً أنا عبد ذليل إن أحسنت فالمنة لك وإن أسأت فبيدك عوبتى جعلتنى للبلاء غرضاً وللفتنة نصباً لقد وقع على بلاء لو سلطته على جمل لضعف عن حمله فكيف يحمله ضعفى إلهى تقطعت أصابعى فانى لا ارفع الأكلة من الطعام إلا بيدى جميعاً فما بلغان فى إلا على الجهد منى إلهى تساقطت لهواتى ولحم رأسى فما بين أذنى من سداد بل إحداهما ترى من الآخر وأن دماغى ليسيل من فى إلهى تساقط شعر عينى كأنما أحرق بالنار وجهى وحدقتاى متدليتان على خدى وورم لسانى حتى ملأ فمى فما أدخل فيه طعاماً إلا عصنى وورمت شفتاى حتى غطت العليا أنفى والسفلى ذقنى وتقطعت امعائى فى بطنى وإنى لأدخل الطعام فيخرج كما دخل ما أحسه ولا ينفعنى وذهبت قوة رجلى فكأنهما قد يبستا ولا اطيق حملها وذهب المال فصرت أسأل بكفى ويطعمنى من كنت افعله اللقمة الواحدة فيمن بها على ويعيرنى إلهى هلك أولادى ولو بقى واحد منهم أعاننى على بلائى ونفعنى قد ملنى أهلى وعفنى أرحامى وتنكرت لى معارفى ورغب عنى صديقى وقطعنى أصحابى وجحدت حقوقى ونسيت صنائعى أصرخ فلا يصرخ ونى وأعتذر فلا يعذرونى دعوت غلامى فلم يجبنى وتضرعت لأمتى فلم ترحمنى وأن قضائك هو الذى أذلنى وأدنانى وأهانى وأقامنى وأن سلطانك هو الذى اسقمنى وإلحل جسمى ولو أن دبى نزع الهيبة التى فى صدرى فاطلق لسانى لأتكلم بملء فمى ولو كان ينبغى للعبد أن يحاج عن نفسه لرجوت أن يعافينى عند ذلك عما بى ولكنه ألقانى وتخلى عنى فهو يرانى ولا أراه ويسمعنى ولا أسمعه ولا انظر إلى فرحمنى ولا دنا منى ولا أدنانى فأتكلم ببراءتى وأخاصم عن نفسى فلما قال ذلك أيوب وأصحابه عنده أظلته غمامة حتى ظن اصحابه إنه عذاب ثم نودى يا أيوب إن الله تعالى يقول لك ها أنا قد دنوت منك فلم أزل منك قريباً فهم فادل بعذرك وتكلم ببراءتك وخاصم عن نفسك وأشدد عليك إزرك وقم مقام جبار فانه لا ينبغى أن يخاصمنى إلا جبار مثلى ولا ينبغى أن يخاصمنى إلا من يجعل الزمام فى فم الأسد والسخال فى فم العنقاء واللحم فى فم التنين ويكيل مكيالا من النور ويزن مثقالا من الريح ويصر صرة من الشمس ويرد أمس لقد مننك نفسك أمراً ما يبلغ بمثل قوتك ولو كنت إذ مننك نفسك ذلك ودعتك إليه تذكرت اى مرام رمت بك أردت أن تكاثرنى بضعفك أم أردت أن تخاصمنى بغيك أم أردت أن تحاجينى بخطئك اين كنت منى يوم خلقت الأرض فوضعتها على أساسها هل علمت بأى مقدار قدرتها أم كنت معى تمر بأطرافها أم تعلم ما بعد زواياها أم على أى شىء وضعت أكنافها أبطاعتك حمل الماء الأرض أم بحكمتك كانت الأرض على الماء غطاء أين كنت منى يوم رفعت السماء سقفا فى الهواء لا معاليق تمسكها ولا تحملها دعائم من تحتها هل يبلغ من حكمتك أن تجرى وتسير نجومها أم هل بأمرك يختلف ليلها ونهارها اين كنت منى يوم سجرت البحار وأنبعث الأنهار أقدرتك حبست أمواج البحار على حدودها أم قدرتك فتحت الأرحام حين بلغت مدتها اين أنت منى يوم صببت الماء على التراب ونصبت شوامخ الجبال هل لك أن تطيق حملها أم كنت تدرى كم مثقال مافيها أين الماء

ما يبكيك أيتها الشريفة فقالت أن لى ثلاث بنات وقد تركتهن بالجوع وقصت عليه قصتها فقال سيدوك لغلمانه اعطوها الف دينار وبدلة من القماش قال فأعطوها ثلاث فأخذتهم ودعت له بالإسلام وذهبت إلى بناتها فاشترت لهن بدينار من ألوان الطعام ودخلت اليهن فأكلن وشبعن ثم قالت اللهم أرزقه من نعمائك فى الجنة ثم فصلت لبناتها من ألوان الثياب قال فلما كان الليل رأى القاضى فى منامه كأن القيامة قد قامت ثم أخذ القاضى ومضى به إلى الجنة وجىء به إلى قصر عال البناء وهو من ذهب أحمر شراريفه من الدر الأبيض يضىء بين كل شرافتين جارية من الحور العين اشرق من الشمس وأبهى من القمر فلما رأوه صاحوا فى وجهه وقالوا يا محروم كنا لك كلنا وكان هذا القصر وهذه الجنة بما فيها من النعيم المقيم والآن صرنا لسيدوك النصرانى ثم طردوا القاضى وأخرجوه من الجنة وأروه مقامه فى النار قال فانتبه القاضى فزعاً مرهوباً وهو يقول ياويلتاه على مافرط منى ثم خرج من وقته مسرعاً حتى جاء إلى بيت سيدوك النصرانى

وطرق عليه الباب فخرج له مولاه أن القاضى بالباب فأذن له بالدخول فدخل فلما رآه سيدوك رحب به وأجلسه وقال ما حاجتك فى هذا الليل فقال له القاضى هل عملت من خير فى هذه الليلة فقال سيدوك إنى بت فى هذه الليلة سكران فمن اين لى فعل الخير قال فلم يصدقه القاضى وقال الذى عملته فى هذه الليلة بعنيه بألف دينار فقال سيدوك حرصاً على هذه القضية أخبرنى حتى أبيعك قال فاخبره القاضى بما رآه فى منامه وما وقع من القاضى فلما سمع سيدوك النصرانى الرؤيا وثب قائماً على قدميه واغتسل ولبس ثياباً جديدة وجلس بين يدى القاضى وقال امدد يدك فانى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمداً رسول الله أرسله جاءنا بالهدى ودين الحق قال فخرج القاضى من عنده باكياً حزيناً فانظر يا أخى إلى البخل كيف جعل القاضى من أهل النار لبخله وجعل النصرانى من أهل الجنة لكرمه وختم له بالخير والإسلام ما أعجب هذا وما أحسنه .

(وحكى عن ذى النون المصرى رضى الله عنه) أنه قال بينما أنا أمشى على شاطىء النيل إذ رأيت عقرباً تمشى فاخذت حجراً وأردت

غلام من غلمان سيدوك النصرانى وقال من بالباب فقال القاضى فرجع الغلام وأخبر

الذى أنزلته من السماء هل تدرى كم بلدة أهلكتها وكم من قطرة أحصيتها وقسمت الأرزاق أم قدرتك تسير السحاب تنثر الماء هل تدرى ما أصوات الرعد أم من أى شىء لهب البرق وهل رأيت عمق البحر أم هل تدرى ما بعد الهواء أم هل تدرى اين خزنة النهار بالليل واين طريق النور وبأى لغة تتكلم الأشجار اين خزنة الريح واين جبال البرد أم هل تدرى من جعل العقول فى أجواف الرجال ومن شق الأسماع والأبصار ومن ذلت الملائكة لملكه ومن قهر الجبارين بجبروته وقسم أرزاق الدواب والعباد بحكمته ومن قسم للأسد أرزاقها وعرف الطير معائشها وعطفها على أفراخها ومن اعتق الوحوش من الخدمة وجعل مساكنها البرية لا تأنس بالأصوات ولا تهاب السلاطين أبحكمتك عطفت عليها أمهاتها حتى أخرجت لها طعاماً من أجوافها وآثرتها بالعيش على نفوسها أم بحكمتك يبصر العقاب الصيد البعيد واضحاً فى أماكن الفلا أين أنت يوم خلقت البهموت مكانه فى منقطع التراب واللوتيا يحملان الجبال والقرى والعمران أنيابهما كأنها شجر الصنوبر الطوال ورؤسها كأنها الجبال وعروق أخاذهما كأنهما عمد النحاس أنت ملأت جلودهما لحماً أم أنت ملأت رؤسهما دماً هل لك فى خلقهما من شرك أم لك بالقوة التى غلبتهما يدان أم هل يبلغ من قوتك أن تضع يديك على رؤوسهما أم تقعد على طريق فتحبسهما أو تصدهما عن ثوتهما تبارك الله أحسن الخالقين فقال أيوب عليه السلام قصرت عن هذا الأمر الذى ورد على ليت الأرض انشقت لى فذهبت ولم أتكلم بشىء يسخط ربى حين اجتمع على البلاء إلهى قد جعلتنى لك مثل العدو وقد كنت تعرفنى وتعرف نصحى وقد علمت أن كل الذى ذكرت صنع يديك وتدبير حكمتك واعظم من هذا ولو شئت علمت أن لا يعجزك شىء ولا تخفى عليك خافية ولا تغيب عنك غائبة من هذا الذى يظن أن يستر عنك سراً وأنت تعلم ما يخطر على القلوب وقد علمت منك فى بلائى هذا ما لم أكن أعلم وخفت أن يكون أمر أكثر مما كنت أخاف إنما كنت أسمع بصوتك فأما الآن فهو نظر العين إنما تكلمت لتعذرنى وسكت حين سكت لترحمنى كلمة زلت على لسانى فلن أعود وقد وضعت يدى على فمى وعضضت على لسانى والصقت بالتراب خدى ودسست فيه وجهى لصغارى وسكت حين أسكتتنى خطيئتى فاغفر لى ما قلت فلن أعود لشىء تكرهه منى فقال الله تعالى يا أيوب نفذ فيك حكمى وسبقت رحمتى غضبى إذ أخطأت فقد غفرت لك ما قلت ورحمتك ورددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم لتكون لمن خلفك آية وتكون عبرة لأهل البلاء وعزاء للصابرين فاركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب فيه شفاء وقرب عن أصحابك قرباناً واستغفر لهم فانهم قد عصونى فيك فركض برجله فانفجرت له عين فدخل فيها فاغتسل فاذهب الله تعالى عنه ما كان فيه من البلاء ثم أنه خرج وجلس فاقبلت امرأته فقامت تلتمسه فى مضجعه فلم تجده فقامت متكدرة كالوالهة فرت به فقالت ياعبد الله هل لك علم بالرجل المبتلى الذى كان ههنا فقيل لها وهل تعرفينه إذا رأيتيه فقالت وكيف لا أعرفه فتبسم وقال ها أنا هو فعرفته لما ضحك فاعتنقته قال ابن عباس والذى نفسى بيده ما فارقته من عناقه حتى مر بهما كل ما كان لهما من المال والولد وذلك قوله تعالى وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر الآية حدثنا الإمام أبو الحسين محمد بن على بن سهل إملاء فى شهر ربيع الأول سنة أربع وثمانين وثلثمائة أخبرنا أبو طالب عمر بن الربيع بن سليمان الخشاب بمصر اخبرنا يحيى بن أيوب بن العلاف أخبرنا سعيد بن أبى مريم أخبرنا نافع بن يزيد عن عقيل بن شهاب عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ أن نبى الله أيوب لبث فى بلائه ثمانى عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا يغدوان إليه ويروحان فقال إحداهما لصاحبه والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين فقال له صاحبه وما أدراك قال منذ ثمانى عشرة سنة له فى البلاء لم يرحمه الله ويكشف ما به فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك فقال أيوب ما أدرى ما تقولان

غير أن الله يعلم إني كنت أمر بالرجلين يتنازعان فيذكران الله تعالى فارجع إلى بيتي فانكفىء عنهما كراهة أن يذكرا الله تعالى إلا في حق قال وكان يخرج لحاجته فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ فلما كان ذات يوم أبطأ عليها وذلك أن الله تعالى أوحى إلى أيوب في مكانه أن اركض برجلك الآية فاستبطأته فذهبت لتنظر ما شانه فاقبل عليها وقد أذهب الله تعالى عنه ما أصابه من البلاء وهو أحسن ما كان فلما رأته قالت هل رأيت نبي الله المبتلى فمثل إني أناهو وكان له أندران أندر للقمح وأندر للشعير فبعث الله تعالى سحابتين فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق حتى فاض (وقال الحسن) كان أيوب عليه السلام مطروحا على كناسة في مزبلة لبني إسرائيل سبع سنين وأشهرا تختلف فيه الدواب وقال وهب لم يكن بايوب أكلة وإنما كان يخرج منه مثل ثدي النساء ثم يتفقأ قاله الحسن ولم يبق له مال ولا ولد ولا صديق ولا أحد يقربه غير رحمة امرأته صبرت معه تخدمه وتاتيه بطعام وتحمد الله معه إذا حمده وأيوب على ما به لا يفتر عن ذكر الله تعالى والثناء عليه والصبر على ما ابتلاه فصرخ عدو الله إبليس صرخة جمع بها جنوده من أقطار الأرض جزعا من صبر أيوب فلما اجتمعوا عليه قالوا ما حاجتك قال لهم أعياني هذا العبد سالت ربي أن يسلطني على ماله وولده فلم أدع له مالا ولا ولدا فلم يزده ذلك إلا صبرا وثناء على الله ثم سلطت على جسده فتركته قرحة ملقى على كناسة لا يقربه إلا امرأته وقد افتحضت من ربي فاستعنت بكم لتعينوني عليه فقالوا أين مكرك أين علمك الذي أهلكت به من مضى قال بطل ذلك كله في أيوب فاشيروا علي قالوا نشير عليك بما أتيت به آدم حين أخرجته من الجنة من أين أتيته قال من قبل امرأته قالوا فشأنك بايوب من قبل امرأته فإنه لا يستطيع أن يعصيها وليس أحد يقربه غيرها قال اصبتم فانطلق حتى أتى امرأته وهي تطلب الصدقة فتمثل لها في صورة رجل فقال أين بعلك يا أمة الله قالت هو ذاك يحك قروحه وتتردد الدواب في جسده. فلما سمع منها طمع أن تكون كلمة جزع فوسوس لها وذكرها ما كانت فيه من النعيم والمال وذكرها جمال أيوب وشبابه وما هو فيه اليوم من الضر وأن ذلك لا ينقطع عنه أبدا قال الحسن فصرخت فلما صرخت علم أنها قد جزعت فاتاها بسخلة وقال لها ليذبح أيوب هذه لي وسيبرأ قال فجاءت تصرخ وقالت يا أيوب إلى متى يعذبك ربك ولا يرحمك اين المال اين الماشية اين الولدان اين الصديق اين ثوبك الحسن قد تغير وصار مثل الرماد واين جسمك الحسن قد بلي وهو يتردد فيه الدود اذبح هذه السخلة واسترح فقال لها أيوب أتاك عدو الله فنفخ فيك فاجبته ويلك أرأيت ما تبكين عليه مما كنا فيه من المال والولد والصحة من أنعم بها علينا قالت الله قال فكم متعنا به قالت ثمانين سنة قال فمنذ كم ابتلانا الله بهذا البلاء قالت منذ سبع سنين قال ويلك والله ما عدلت ولا انصفت ربك ألا صبرت في هذا البلاء الذي ابتلانا به وربنا ثمانين سنة كما كنا في الرخاء والله لئن شفاني لاجلدنك مائة جلدة كما أمرتيني أن اذبح لغير الله تعالى وطعامك وشرابك الذي تاتيني به علي حرام لا أذوق مما تاتيني به شيئا بعد أن قلت هذا فاغربي عني لا أراك فطردها فذهبت فلما رأى ايوب امرأته وقد طردها وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق خر لله ساجدا وقال رب مسني الضر ثم ترد الأمر إلى ربه وسلم فقال وأنت أرحم الراحمين فقيل له ارفع رأسك لقد استجيب لك اركض برجلك الآية فركض برجله فنبعت عين ماء فاغتسل فلم يبق من دائه شيء ظاهر إلا سقط أثره واذهب الله منه كل الم وذاء وسقم وعاد اليه شبابه وجماله أحسن مما كان وأفضل مما مضى ثم أنه ضرب برجله فنبعت عين ماء فشرب منها فلم يبق في جوفه داء إلا خرج فقام صحيحا وكسي حلة فجعل يلتفت يمينا وشمالا فلا يرى شيئا مما كان له من أهل وولد ومال إلا وقد ضاعفه الله تعالى فخرج حتى جلس مكانه مشرف ثم أن امرأته قالت أرأيت إن كان قد طردني إلى من أكله حتى ادمه حتى يموت جوعا وعطشا ويضيع فتاكله السباع فوالله لارجعن إليه

فتله فهرب مني مسرعا حتى وقع في البحر فخرجت إليه ضفدعة فوثب العقرب على ظهرها ثم عامت به حتى طلعت إلى الجانب الآخر وأنا انظر اليها فتعجبت من ذلك وتبعته فلما نزل العقرب عن ظهرها سار إلى مكان فيه رجل سكران قد أتى إليه تنين عظيم يريد أن يلدغه فاسرع إليه ذلك العقرب ولدغ التنين فقتله فازددت تعجبا ثم حمدت الله سبحانه وتعالى وجئت إلى ذلك الرجل فايقظته فقام من نومه فزعا مرعوبا فلما رأى الثعبان ولى هاربا فقلت له لا تخف قد كفيت شره ثم قصصت عليه القصة فاطرق رأسه ساعة ثم رفعها وقال يا رب هكذا تفعل بمن عصاك فكيف بمن أطاعك ثم قال وعزتك وجلالك ما عصيتك بعد هذا اليوم أبدا ثم ولى تائبا إلى الله تعالى رحمة الله تعالى عليه

(وحكى ذو النون المصري أيضا رضي الله تعالى عنه) أنه قال بينما أنا طائف بالبيت الحرام سنة من السنين إذ نظرت إلى شاب في الطواف من احسن الناس وجها وعليه مدرعة من صوف وهو يضحك في طوافه ويقول يا مولاي هذه حضرة من يفتخر بعزك ولا يأنس بسواك قال ذو النون فدنوت منه وسلمت عليه وقلت حبيبي ومن الذي تعني بهذا الكلام

فرجعت فلم تر الكناسة ولا الحال التى كانت تعدها وقد تغيرت الأمور فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكى وأيوب ينظرها قال وهابت صاحب الحلة أن تأتيه فتسأله فأرسل إليها أيوب فدعاها وقال لها ما تريدين يا أمة الله فبكت وقالت أريد ذلك المبتلى الذى كان منبوذاً على هذه الكناسة لا أدرى أضاع أم ماذا فعل به قال أيوب عليه السلام ما كان منك فبكت وقالت بعلى فهل رأيته فقال لها وهل تعرفينه إذا رأيتيه قالت وهل يخفى على ثم إنها جعلت تنظر إليه وهى تهابه وقالت ما أشبه خلق الله بك إذ كان صحيحاً قال فانا أيوب أمرتينى أن اذبح لإبليس فانى أطعت الله وعصيت الشيطان فرد على ما تريدين (قال وهب) وقد سمعت أنه قال لها لو أن صاحبك أكل طعاماً لم يسم عليه لعوفى مما هو فيه من البلاء والله أعلم وأراد عدو الله أن يأتيه من قبلها ورأيت فى بعض الكتب أن إبليس قال لرحمة إن شئت اسجدى لى سجدة واحدة حتى أرد عليك الأولاد والمال وأعافى زوجك أيوب فاخبرته بما قال لها وما أراد فقال لقد أراد عدو الله أن يفتنك عن دينك ثم أن ايوب اقسم إن عافاه الله ليضربنها مائة جلدة فقال عند ذلك مسنى الضر من طمع إبليس فى سجود حرمتى له ودعائه إياها وإياى إلى الكفر قالوا ثم إن الله تعالى رحم رحمة امرأة أيوب بصبرها معه على البلاء وخفف عنها وأراد أن يبر يمين أيوب فامره أن ياخذ جماعة من الشجر مبلغ مائة قضيب خفاقاً لطافاً فيضربها ضربة واحدة كما قال تعالى (وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث) الآية وقد كانت امرأة ايوب تتكسب وتعمل للناس وتجيئه بقوته قال فلما طال عليها البلاء وسئمها الناس فلم يستعملها أحد التمست يوماً من الأيام ما تطعمه فما وجدت شيئاً فجزت قرناً من رأسها فباعته برغيف وأتته به فقال وأين قرنك فاخبرته فقال عند ذلك مسنى الضر وقيل إنما قال ذلك حين قصدت الدود قلبه ولسانه فخشيا أن يعيا عن الذكر والفكر وإنما قال ذلك حين وقعت الدودة من لحمه فاخذها وردها إلى موضعها وقال لها كلى فقد جعلنى الله طعامك فعضته عضة زاده ألماً على جميع ما قاسى من عض الديدان وقال عبد الله بن عمر كان لايوب أخوان فأتياه فقاما من بعيد لا يقدران على الدنو منه من نتن ريحه فقال أحدهما لصاحبه لو كان الله اعلم فى أيوب خيراً ما ابتلاه بما ترى قال ما مع ايوب شيئاً أشد عليه من تلك الكلمة وما جزع من شىء أصابه أجزع من تلك الكلمة فعند ذلك قال مسنى الضر ثم قال اللهم إن كنت تعلم إنى لم أبات ليلة شبعاناً قط وأنا اعلم بمكان جائعاً فصدقنى فصدقه وهما يسمعان ثم قال اللهم إن كنت تعلم إنى لم اتخذ قميصاً قط وأنا اعلم بمكان عريانا فصدقنى فصدقه وهما يسمعان ثم خر له ساجداً وقيل معناه مسنى الضر من شماتة الأعداء يدل عليه ما روى أنه قيل له بعد ما عوفى ما كان أشد عليك فى بلائك فقال شماتة الأعداء وأنشد بعضهم فى معناه :

كل المصائب قد تمر على الفتى ... فتهون غير شماتة الحساد
من المصائب تنقضى أيامها ... وشماتة الأعداء بالمرصاد

(وقال الجنيد) فى هذه الآية عرفه فاقة السؤال ليمن عليكم بكرم النوال وذلك قوله تعالى فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله الآية (واختلف العلماء) فى كيفية ذلك فقال قوم لما ابتلى الله ايوب فى الدنيا مثل له اهله فأما الذين هلكوا فإنهم لم يردوا عليه فى الدنيا وإنما وعد الله أيوب أن ياتيه إياهم فى الآخرة وقال وهب كان له سبع بنات وثلاث بنين وقال آخرون بل ردهم الله تعالى باعيانهم واعطاه أهله ومثلهم معهم وهذا قول ابن مسعود وابن عباس وقتادة وكعب قالوا أحياهم الله تعالى وآتاه مثلهم وهذا القول أشبه بظاهر الاية (ذكر) أن عمر أيوب ثلاثا وتسعين سنة وإنه أوصى بعد موته إلى ابنه حوميل ان الله بعث بعده بشر بن أيوب نبياً وسماه ذا الكفل وأمره بالدعاء إلى توحيده وإنه كان مقيما بالشام طول عمره حتى مات وكان مبلغ عمره خمساً وتسعين سنة وأن بشراً اوصى إلى ابنه عبدان وأن الله تعالى بعث بعده شعيباً عليه السلام والله أعلم

(مجلس فى قصة ذى الكفل عليه السلام)

هذا المجلس يأتى بعد آخر الكتاب بعد قصة اليسع وما كتب ههنا زيادة فى المجلس المذكور

وأنه يفتخر فقال ياعم أنظر إلى ويتبختر فى مشيه وأثوابه تجر على الأرض فقلت ياحبيبى ومن يكون هذا الشاب فقال ياعم هذا عبد لأمير مكة يفتخر بكونه عبد لأمير مكة فكيف لا افتخر وأنا عبد الملك المتعال الذى أمير مكة عبده والسلاطين وأهل السموات والأرض تحت قضائه وقدره قال ذو النون فدنوت من الشاب المعجب بنفسه وقلت له يا هذا لم تتبختر وانت عبد لأمير مكة وهذا الشاب متأخر وهو عبد مالك السموات والأرض ويحك تأخر عنه فهو أحق بالتقدم منك فطوبى لك ولو كنت مثله قال فطاف الشاب صاحب المدرعة الصوف وطاف الشاب الآخر وذهب إلى بيته وقد أثرت فيه الموعظة فاشترى نفسه من سيده أمير مكة وتصدق بجميع ما معه وما تملكه يده وليس مثل ما كان على الشاب صاحب المدرعة الصوف وأقبل يطوف بالبيت فى اليوم الثانى قال ذو النون فلما رآنى قال ياسيدى أما تعرفنى فقلت من أنت يرحمك الله قال أنا الذى كنت بالأمس أفتخر بعبودية أمير مكة فأنا اليوم افتخر بعبودية ملك السموات والأرض ثم قال ياسيدى أترى مولاى يقبلنى على ما كان منى من تلك

(روى) الاعمش عن المنهال بن عمرو عن عبد الله بن الحرث أن نبيا من الأنبياء قال من يكفل لى أن يقوم الليل ويصوم النهار ولا يغضب فقام شاب فقال أنا فقال له اجلس ثم انه أعاد مثل قوله الأول فقام ذلك الشاب فقال أنا فقال له اجلس ثم أعاد قوله ثالثا فقام الشاب فقال أنا فقال له تقوم الليل وتصوم النهار ولا تغضب قال نعم فمات ذلك النبى فجلس ذلك الشاب مكانه يقضى بين الناس فكان لا يغضب فجاءه الشيطان فى صورة إنسان ليغضبه وهو صائم أن يفطر فضرب الباب ضربا شديدا فقال من هذا فقال رجل له حاجة فارسل اليه رجلا فقال لا أرضى بهذا الرجل فارسل معه آخر فقال لا أرضى فخرج اليه فاخذه بيده وانطلق معه حتى إذا كان فى السوق خلاه وذهب فسمى ذا الكفل وقال بعضهم ذو الكفل بشر بن أيوب الصابر بعثه الله بعد أبيه رسولا إلى أرض الروم فآمنوا به وصدقوه واتبعوه ثم أن الله تعالى أمرهم بالجهاد فكفوا عن ذلك وضعفوا وقالوا يا بشر إنا قوم نحب الحياة ونكره الممات ومع ذلك نكره أن نعصى الله تعالى ورسوله فلو سالت الله ان يطيل أعمارنا ولا يمتنا إلا إذا شئنا لنعبده ونجاهد أعداءه فقال لهم بشر لقد سالتمونى عظيم وكلفتمونى شططا ثم انه قام وصلى ودعا قال إلهى أمرتنى بتبليغ الرسالة فبلغتها وأمرتنى أن أجاهد أعداءك وأنت تعلم أنى لا أملك إلا نفسى وإن قومى قد سالونى فى ذلك ما أنت اعلم به منى فلا تؤاخذنى بجريرة غيرى فانا أعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك قال فاوحى الله تعالى اليه يا بشر إنى سمعت مقالة قومك وإنى قد أعطيتهم ما سالونى وطولت أعمارهم فلا يموتون إلا إذا شاؤا فكن كفيلا لهم منى بذلك فبلغهم بشر رسالة الله وأخبرهم بما أوحى الله وتكفل لهم بذلك كما أمر الله تعالى فسمى ذا الكفل ثم إنهم توالدوا وكثروا ونموا حتى ضاقت عليهم بلادهم وتنغصت معيشتهم وناذوا بكثرتهم فسالوا بشرا ان يدعو الله أن يردهم إلى ما كانوا عليه فاوحى الله تعالى إلى بشر أما علم قومك أن اختيارى لهم خير من اختيارهم لأنفسهم ثم انهم رجعوا إلى أعمارهم فماتوا بآجالهم قال فذلك كثرت الروم حتى يقال إن الدنيا دراهم خمسة أسداسها للروم وإنما سموا روما لأنهم نسبوا إلى جدهم روم بن عيص بن إسحق بن إبراهيم عليه السلام قال وهب وكان بشر بن أيوب المسمى ذا الكفل مقيما بالشام حتى مات وكان عمره خمسا وتسعين سنة والله أعلم

﴿ مجلس فى ذكر قصة شعيب النبى عليه السلام ﴾

قال الله تعالى (وإلى مدين أخاهم شعيبا) الآية اختلف العلماء فى نسب شعيب فقال أهل التوراة هو شعيب بن صفوان بن عيفا بن نابت بن مدين بن إبراهيم وقال محمد بن إسحق هو شعيب بن ميكائيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم واسمه بالسريانية يترون وأمه ميكيل ابنة لوط كان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه وإن الله تعالى بعثه نبيا إلى أهل مدين وهم أصحاب الأيكة والأيكة الشجر الملتف (وقال قتادة) بعثه الله تعالى إلى أمتين اهل مدين واصحاب الأيكة قالوا وكان قوم شعيب أهل كفر بالله وبخس للناس وتطفيف فى المكاييل والموازين وكان الله قد وسع لهم فى الرزق وبسط لهم فى العيش استدراجا منه لهم فقال لهم شعيب يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان الآية ونظيرها فى الإعراف أوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم الآية (وقال) عبد الله بن زيد كانوا يقطعون الطريق (قال النبى ﷺ رأيت ليلة أسرى بى خشيبة على الطريق لا يمر بها ثوب أحد إلا شقته ولا شىء إلا خرقته فقلت ما هذا يا جبريل فقال هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه ثم تلا ولا تقعدوا بكل صراط توعدون الآية وكان من قول شعيب وجواب قومه إياه ماذكره الله تعالى فى سورة الاعراف وسورة هود وسورة الشعراء (قال المفسرون) وكان مما نهاهم عنه شعيب وعذبوه لاجله قطع الدنانير وذلك أنه تعالى قالوا يا شعيب أصلاتك تامرك أن نترك ما يعبد آباؤنا إلى قوله الحليم الرشيد أى السفيه الغوى وهو على الضد كما يقال للحبشى أبو البيضاء وكقوله تعالى ذق إنك أنت العزيز الكريم

الذنوب قال ذو النون فقلت نعم أبشر فانك اليوم حبيب رب العالمين أما علمت أنه ملك يدعو المدبرين عنه فكيف بالمقبلين عليه فقال الشاب الآن طيبت قلبى بعد ما كان انصدع فجزاك الله عنى خيرا قال ذو النون فلما كان اليوم الثالث طلبته فلم أجده فسالت عنه فقال لى رجل أمضى معى إلى بيته فمضيت معه إلى بيت الشاب فوجدته قد مات فتا سفت عليه اسفا شديدا وسالت عنه فقيل لى انه دخل بيته أمس ولزم محرابه وبكى على نفسه طول ليلته هذا فاصبح كما ترى قال ذو النون وعظناه فاصلحنا أمره ولم يبق أحد بمكة حتى حضر جنازته من الرجال والنساء والولدان بغير داع لهم وخرجوا يشيعون جنازته فلما دفناه وانصرفنا من عنده اخذنى البكاء والنحيب عليه فلما كان الليل رأيته فى المنام وهو فى أحسن صورة وعليه ثياب من السندس والاستبرق فلما رآنى قام إلى واعتنقنى وقال يا سيدى أما تعرفنى قلت بلى ما فعل الله بك قال غفر لى وتجاوز عنى وقال يا عبدى هذه جنتى وقد ابحتها لك فدونك ما شئت فانت اليوم فى مقعد صدق عند مليك مقتدر اللهم نفعنا به وبعبادك الصالحين آمين (وحكى عنه أيضا رضى الله تعالى عنه) انه قال ركبت فى مركب سنة من السنين إلى بيت الله

(قال ابن عباس) رضى الله عنهما كان شعيب كثير الصلاة فلما كثر فسادهم وقل صلاحهم ودعا عليهم فقال ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين فاجاب الله تعالى دعاءه فيهم فاهلكهم بالرجفة وهى الزلزلة (قال) ابن عباس وغيره وهى أن الله تعالى فتح عليهم بابا من أبواب جهنم فارسل عليهم برداً وحراً شديداً فاخذ بانفاسهم فدخلوا فى أجواف البيوت فلم ينفعهم ظل ولا ماء فانضجهم الحر فخرجوا هربا إلى البرية فبعث الله عليهم سحابة فاظلتهم ووجدوا لها بردا وجاءت ريح طيبة فنادى بعضهم بعضاً فلما اجتمعوا تحت السحابة ألهبها الله عليهم ناراً ورجفت الأرض بهم فاحترقوا كما يحترق الجراد فى المقلى فصاروا رماداً وذلك قوله تعالى (فاصبحوا فى دارهم جاثمين لم يغنوا فيها) وقال تعالى (فاخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) (قال ابن عباس) بلغنى أن رجلا من أهل مدين يقال له عمرو بن جلهم لما رأى الظلة فيها العذاب أقشعر جلده وقال:

ياقوم إن شعيباً مرسل فذروا * عنكم شميرا وعمران بن شداد
إنى أرى غيمة ياقوم قد طلعت * تدعو بصوت على حنانة الوادى
فانه ان يرى فيها ضحاء غد * إلا الرقيم يمشى بين أنجاد

وشمير وعمران كاهنان لهم والرقيم كلب لهم قال أبو عبد الله البجلى أبو جادو حطى وهوز وكلمن وسعفص وقرشت أسماء ملوكهم وكان ملكهم يوم الظلة فى زمن شعيب كلمن فقالت اخت كلمن تبكيه حين هلك

كلمن أهدد ركنى * هلكه وسبط المحله * سيد القوم أتاة الحتف ناراً وسط ظله
جعلت نارا عليهم دراهم كالمضمحلة

قال الله تعالى والذين كذبوا شعيباً كان لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين، أى لهم الهلاك فى الدنيا والعذاب فى الآخرة.

﴿ مجلس فى ذكر صفى الله موسى بن عمران عليه السلام وهو يشتمل على أبواب ﴾

(الباب الأول فى ذكر نسب موسى عليه السلام)

قال الله تعالى واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولا نبيا، وهو موسى بن عمران بن يصهر ابن قاهث بن لاو بن يعقوب عليه السلام قال أهل العلم باخبار الأولين وسير الماضين ولد ليعقوب لاو وقد مضى من عمره تسع وثمانون سنة ثم لاوى نكح نابتة بنت ماوى بن يشجب فولدت له غرشون ومردى وقاهث ثم إن قاهث بعد أن مضى له من عمره ست وأربعون سنة نكح فاهى بنت مبين بن تنويل بن إلياس فولدت له يصهر بن قاهث فنكح يصهر بن قاهث سميت بنت يتادم بن بركيا بن بشعان بن إبراهيم فولدت له عمران قد مضى من عمره ستون سنة وكان عمر يصهر مائة وسبعا وأربعين سنة فنكح عمران بن يصهر نجيب بنت سمويل بن بركيا بن بشعان بن إبراهيم فولدت له هرون وموسى واختلف فى اسم أمهما فقال ابن اسحق نجيب وقيل نجاجية وقيل يوخابيل وهو المشهور وكان عمر عمران مائة وسبعا وثلاثين سنة وولد موسى عليه السلام وقد مضى من عمره سبعون سنة والله أعلم

(الباب الثانى فى ذكر مولد موسى عليه السلام)

(قال أهل التاريخ) لما مات الريان بن الوليد فرعون مصر الأول صاحب يوسف عليه السلام وهو الذى ولى يوسف خزائن أرضه واسلم على يده فلما مات ملك بعده قابوس بن مصعب صاحب يوسف الثانى فدعاه يوسف إلى الإسلام فابى وكان جباراً وقبض الله يوسف فى ملكه وطال ملكه ثم هلك وقام بالملك بعده أخوه أبو العباس بن الوليد بن مصعب بن الريان بن أراشة بن ثروان بن عمرو بن فاران بن عملاق بن لاوذ بن سام ابن نوح عليه السلام وكان أعتى من قابوس وأكبر وأفجر وامتدت أيام ملكه واقام بنو إسرائيل بعد وفاة يوسف عليه السلام وانتشروا وكثروا وهم تحت العمالقة وهم بقايا من دينهم مما كان يوسف ويعقوب وإسحق وإبراهيم شرعوا فيه من الإسلام متمسكون به حتى كان فرعون موسى الذى بعثه الله اليه وقد ذكرنا إسمه

الحرام وكانت منى ذوجنى وكانت حاملا فبينما نحن سائرون إذ كسرت بنا المركب فنجوت أنا وزوجتى على لوح من ألواح السفينة فبينما نحن على ذلك اللوح إذا بها قد ولدت غلاما فصاحت يارجل أدركنى فانى عطشانة فقلت أما ترين حالنا وما نحن فيه من الغرق ثم رفعت بصرى إلى السماء وإذا برجل صالح فى الهواء وبيده سلسلة من ذهب فيها ركوة من ياقوتة حمراء فيها ماء أشد بياضا من اللبن وأبرد من الثلج وأحلى من العسل فقال هاك اشرب فاخذتها منه وسقيت المرأة وشربت فإذا هى أطيب رائحة من المسك فقلت له من أنت يرحمك الله فقال عبد من عباد الله تعالى فقلت بم وصلت إلى هذه المرتبة فقال تركت هواى لهواة فاسكننى فى الهواء ثم غاب عن بصرى فلم أره ورضى الله تعالى عنه ونفعنا به آمين (وحكى عن بعضهم رضى الله تعالى عنه) أنه قال كان عندنا رجل حداد كان يدخل يده فى النار ويخرج بها الحديد المحمى ولم تمسه النار فقصده رجل لينظر صدق ذلك الأمر فلما دخل البلد سأل عن الحداد فدل عليه فلما نظر اليه وتامله رآه يصنع كما وصف له فامهله الرجل حتى فرغ من صنعته فاتاه وسلم عليه فرد عليه السلام فقال له الرجل إنى ضيفك فى هذه الليلة فقال له الحداد حبا

ونسمه ولم يكن فيهم فرعون أعتى على الله ولا أعظم قولا ولا أقسى قلبا ولا أطول عمرا فى ملكه ولا أسوأ ملكا لبنى إسرائيل منه وكان يعذبهم ويستعبدهم فجعلهم خدما وخولا وصنفهم فى أعماله فصنف يبنون وصنف يحرثون وصنف يتولون الأعمال القذرة ومن لم يكن أهلا للعمل فعليه الجزية كما قال الله تعالى (يسومونكم سوء العذاب) وقد استنكح فرعون منهم امرأة يقال لها آسية بنت مزاحم رضى الله عنها من خيار النساء المعدودات ويقال هى آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد فرعون يوسف الأول فأسلمت على يد موسى قال مقاتل لم يسلم من أهل مصر إلا ثلاثة آسية وحزقيل ومريم بنت ناموسا التى دلت موسى على قبر يوسف عليه السلام قالوا فعمر فرعون فيهم وهم تحت يده عمرا طويلا قال انه أربعمائة سنة يسومهم سوء العذاب فلما أراد الله تعالى أن يفرج عنهم بعث موسى عليه السلام وكان بدء ذلك على ما ذكره السدى عن رجاله أن فرعون رأى فى منامه كأن نارا أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقتها وأحرقت القبط وتركت بنى إسرائيل فدعا فرعون الكهنة والسحرة والمعبرين والمنجمين فسألهم عن رؤياه فقالوا يولد فى بنى إسرائيل غلام يسلبك الملك ويغلبك على سلطانك ويخرجك وقومك من أرضك ويبدل دينك وقد أظلك زمانه الذى يولد فيه فأمر فرعون بقتل كل غلام يولد فى بنى إسرائيل فجمع القوابل من النساء من أهل مملكته وقال لهن لا يسقط على أيديكن غلام من بنى إسرائيل إلا قتلته ولا جارية إلا تركتها ووكل بهن وكلاء فكن يفعلن ذلك قال مجاهد لقد بلغنى أنه كان يأمر بالقصب فيشق حتى يجعل أمثال الشفار ثم يضف بعضه إلى بعض ثم يؤتى بالحبالى من بنى إسرائيل فيقفن عليه فتجرح أقدامهن حتى ان المرأة منهن لتضع ولدها فيقع من بين رجليها فتظل تطؤه وتتقى به حد القصب عن رجليها لما بلغ من جهدها وكان يقتل الغلمان الذين فى وقته ويقتل من يولد بعدهم ويعذب الحبالى حتى يضعن ما فى بطونهن وأسرع الموت فى مشيخة بنى إسرائيل فدخل رؤس القبط على فرعون وقالوا له أن الموت قد وقع فى مشايخ بنى إسرائيل وأنت تذبح صغارهم وتميت كبارهم فيوشك أن يقع العمل علينا فأمر فرعون بذبح الولدان سنة وتركهم سنة فولد هرون فى السنة التى لا يذبح فيها أحد فترك وولد موسى فى السنة التى يذبحون فيها (قال) فولدت هرون أمه علانية آمنة فلما كان فى العام الذى أمر فيه بقتل الولدان حملت بموسى فلما أرادت وضعه حزنت من شأنه واشتد غمها فأوحى الله تعالى اليه ان أرضعيه فإذا خفت عليه فالقيه فى اليم إلى قوله المرسلين فلما وضعته فى خفية أرضعته ثم أنها اتخذت له تابوتا وجعلت مفتاح التابوت من داخل وجعلته فيه قال مقاتل وكان الذى صنع التابوت حزقيل مؤمن آل فرعون وقيل أنه كان من بردى فاتخذت أم موسى التابوت وجعلت فيه قطنا محلوجا ووضعت فيه موسى وصرت رأسه ثم ألقته فى النيل فلما فعلت ذلك وتوارعنها أتاها الشيطان فوسوس اليها فقالت فى نفسها ماذا صنعت بابنى لو ذبح عندى لو رأيته وكفنته وكان أحب إلى من أن القيه بيدى فى البحر وأدخله إلى دواب البحر ثم عصمها الله تعالى وانطلق الماء بموسى يرفعه الموج مرة ويخفضه مرة أخرى حتى أدخله بين الأشجار عند دار فرعون إلى روضة هى مستقى جوارى فرعون وكان بالقرب منها نهر كبير فى دار فرعون داخل فى بستانه فخرجت جوارى فرعون يغتسلن ويستقين فوجدن التابوت فأخذنه وظن أن فيه مالا فحملنه على حالته حتى ادخلنه إلى آسية فلما أخرجوه من التابوت عمدت بنت فرعون إلى ما كان يسيل من ريقه فلطخت به برصها فبرئت فقبلته وضمته إلى صدرها فقالت الغواة من قوم فرعون أيها الملك انا نظن أن المولود الذى تحذر منه من بنى إسرائيل هو هذا فأرم به فى البحر أو اقتله وهم فرعون بقتله فاستوهبته منه آسية فوهبه لها ثم انه قال سميه فقالت قد سميته موسى لأنه وجد بين الماء والشجر قالوا ثم أن أم موسى قالت لأخته وكانت تسمى مريم قصيه أى اتبعى أثره واطلبيه هل تسمعين له ذكر أحى هو أم قد أهلكته دواب البحر ونسيت وعد الله فبصرت به عن جنب أى عن بعد وهم لا يشعرون أنها أخته وكانت آسية قد أرسلت إلى من حولها من كل أنثى بها لبن لتختار له ظئر تربى موسى فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل ثديها حتى اشفقت آسية أن يمتنع من

وكرامة فمضى به إلى منزله وتمشى معه وبات هو وإياه فلم يزل على فرضه ونام إلى الصبح فقام الرجل فى نفسه لعله استتر منى فى هذه الليلة فبات عنده ثانى ليلة وهو على حاله لا يزيد على الفرض فقال له الرجل يا أخى إنى سمعت ما أكرمك الله به ورأيته بادیا عليك ثم نظرت إلى اجتهادك فما رأيت عليك كثرة عمل ولم تزد على فرضك فمن أين لك هذه المرتبة فقال له الحداد يا أخى إنه كان لى حديث عجيب وأمر غريب وذلك أنه كان لى جارة جميلة وكنت بها مولعا فراودتها عن نفسها مرارا عديده فلم أقدر عليها لاعتصامها بالورع فجاءت سنة قحط وجدب وعدم الطعام وعم الجوع الانام فبينما أنا يوم من الأيام جالس ببيتى وإذا بقارع يقرع الباب فخرجت لانظر اليه فاذا بها واقفة بالباب فقالت يا أخى أصابنى جوع شديد فهل لك أن تطعمنى لله فقلت لها أما تعلمين ما أنا فيه من حبك وما أقاسيه من أجلك فما أطعمك إلا إن مكنتينى من نفسك فقالت الموت ولا معصية الله تعالى ومضت إلى منزلها فلما كان بعد يومين عادت إلى وقالت لى كالمرة الأولى فاجبتها مثل جوابى الأول فدخلت وقعدت فى البيت وقد أشرفت على الهلاك فلما

اللبن فيموت فأحزنها ذلك فأمرت به فأخرج إلى السوق لتجتمع عليه الناس ترجوا أن تصيب له ظئراً يقبلها ويأخذ ثديها ويرضع منها فلم يقبل ثدي امرأة فذلك قوله عز وجل وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت أخت موسى حين أعياهم أمره وأعيا الظئورة هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فأخذوها وقالوا لها وما يدريك نصحهم له ولعلك قد عرفت هذا الغلام فدلينا على أهله فقالت ما أعرفهم وإنما نصحهم له وشفقتهم عليه من أجل رغبتهم في ظؤرة الملك ورجاء منفعته فتركوها فانطلقت إلى أمها فأخبرتها بالخبر فأتت فلما وضعته على ثديها في حجرها نزل اللبن من ثديها حتى ملأ جبينه فانطلق البشير إلى آسية يبشرها أن قد وجد لابنك ظئرا فأرسلت اليها فأتى بها فلما رأت ما يصنع بها قالت لها أمكثي عندي ترضعي إبني هذا فإني لم أحب شيئاً مثل حبه قط فقالت لا أستطيع أن أدع بيتي وولدي فيضيعوا فان طابت نفسك أن تعطينه فاذهب به إلى بيتي وولدي فيكون معي ولا أولى له إلا خيراً فعلت وإلا فإني غير تاركة بيتي وولدي وتذكرت أم موسى ما كان الله وعدها فتعاسرت على امرأة فرعون وأيقنت أن الله سبحانه وتعالى منجز وعده فرجعت بابنها إلى بيتها من وقتها وقيل كانت غيبة موسى عن أمه ثلاثة أيام ثم رده الله اليها وذلك قوله عز وجل (فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن) فلما جاءت أمه إلى بيتها كادت تقول هو إبني فعصمها الله عز وجل فذلك قوله تعالى (إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين) وأنبته الله نباتا حسناً وحفظه فلما ترعرع قالت آسية لأم موسى أحب أن تربني إبني فوعدتها يوماً تريها إياه فيه فقالت آسية لخواصها وقهارمتها لا يبقى منكن واحدة إلا استقبلت إبني بهدية وكرامة فاني بادئة بأمينة تحصي ما تصنع كل قهرمانة منكن فلم تزل الهدايا والتحف تستقبله من وقت أن خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون فلما دخل عليها أكرمته وفرحت به وأعجبها ما رأت من حسن أثرها عليه ثم قالت لها انطلقي به إلى فرعون ليكرمه فلما دخلت به على فرعون أخذه ووضعه في حجره فتناول موسى لحيته حتى جذبها ونتف منها بعض شعرات وكان فرعون طويل اللحية ويقال أنه لطم وجهه (وفي بعض الروايات أنه كان يلعب بين يدي فرعون وبيده قضيب صغير فضرب به على رأس فرعون فغضب غضباً شديداً أو تطير منه وقال هذا عدوي المطلوب فأرسل الذباحين ليذبحوه فبلغ ذلك امرأة فرعون فجاءت تسعى وقالت ما بدا لك في هذا الصبي الذي قد وهبته لي فأخبرها بما فعل موسى فقالت إنما هو صبي لا يعقل وإنما صنع هذا من صباه وأنا اجعل فيه بيني وبينك أمر تعرف به الحق وأضع له حلياً من الذهب والياقوت وأضع له جمراً فإن أخذ الياقوت فهو يعقل فاذبحه وإن أخذ الجمرة علمت أنه صبي ثم أنها وضعت له طشتاً فيه الذهب والياقوت وطشتاً آخر فيه الجمرة فمد موسى يده على أنه يأخذ الجوهرة لقبض عليه فحول جبريل عليه السلام يده إلى الجمر فقبض على جمرة ووضعها في فيه فجاءت على لسانه فاحرقته وذلك الذي قال في قوله تعالى (واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي) فقالت له آسية ألا ترى إلى ما فعله وأنه صبي لا يعقل فكف عن قتله وصرف الله عنه ذلك السوء فلم يزل عزيزاً مكرماً في بيت فرعون وحببه الله اليه وإلى الناس كلهم وكان يحبه كل من يراه (ويروى) أنه سئل إبليس هل أحببت احداً من العالمين قال لا إلا موسى بن عمران عليه السلام فقيل وكيف ذلك فقال لأن الله تعالى قال وألقيت عليك محبة مني فلم أتمالك أن أحببته

(الباب الثالث في ذكر حلية موسى بن عمران وهرون عليهما السلام)

قال كعب الأحبار كان هرون بن عمران نبي الله رجلا فصيح اللسان بين الكلام إذا تكلم تكلم بتؤدة وعلم وكان أطول من موسى وكان على رأسه شامة وعلى طرف لسانه ايضا شامة سوداء وكان موسى بن عمران رجلا ادم اللون جعد طويلا كأنه من رجال أزد شنوأه وكان بلسان موسى عقدة وثقل وشرعة وعجلة وكان أيضا على طرف لسانه شامة سوداء

(الباب الرابع في قصة قتله القبطي وخروجه من مصر وورود مدين)

قال أهل التفسير لما بلغ موسى بن عمران أشده وكان يركب مركب فرعون ويلبس ما يلبس فرعون وكان

جعلت الطعام بين يديها فرفعت عيناها بالدموع ثم قالت هذا لله فقلت لا إلا أن تمكنيني من نفسك فقامت ولم تأكل منه شيئاً وخرجت من عندي إلى منزلها فلما كان بعد يومين إذ بها تقرع الباب فخرجت اليها وهي واقفة بالباب وقد قطع الجوع سوطها وقصم ظهرها فقالت يا اخي أعيتني الحيل ولم أقدر على التوجه لأحد غيرك فهل لك ان تطعمني لله فقلت لا ما لم تمكنيني من نفسك فأطرقت رأسها ساعة ثم دخلت وقعدت في البيت ولم يكن عندي طعام فقمت وأضرمت نار وصنعت لها طعاما فلما تجهز الطعام ووضعته بين يديها تداركني لطف الله تعالى وقلت في نفسي ويحك يا هذا أن هذه امرأة ناقصة عقل ودين تمتنع من طعام لا قدرة لها عليه وهي تترد المرة بعد المرة من ألم الجوع وأنت لا تنتهي عن معصية الله تعالى ثم قلت اللهم إني تائب إليك مما كان مني لا أقربها في معصية أبدا فدخلت اليها وهي تأكل فقلت لها كلي ولا روع عليك فانه لله سبحانه وتعالى فلما سمعت ذلك رفعت رأسها إلى السماء وقالت اللهم إن كان صادقا فحرم عليه النار في الدنيا والآخرة قال فتركتها تأكل وقمت لأزيل النار وكان ذلك في زمن الشتاء فوقعت جمرة على قدمي فلم تحرقني فدخلت اليها وأنا

يدعى موسى بن فرعون وامتنع به عن بنى إسرائيل كثير من الظلم والسخرة التى كانت فيهم ولا يعلم الناس أن ذلك إلا من قبل الرضاعة قالوا فركب فرعون ذات يوم مركباً وليس عنده موسى قيل له أن فرعون قد ركب فركب موسى فى أسره وأدركه المقيل بأرض يقال لها منف فدخلها نصف النهار وقد غلقت أسواقها وليس فى طرقها أحد وهى التى قال تعالى فيها (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها) فبينما هو يمشى فى ناحية المدينة إذ هو برجلين يقتتلان أحدهما من بنى إسرائيل والآخر من آل فرعون كما قال الله تعالى (فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه) الآية والذى من شيعته يقال له السامرى والذى من عدوه رجل من القبط كان خبازاً لفرعون واسمه قاتون وكان قد اشترى حطباً للمطبخ فسخر السامرى ليحمله فامتنع السامرى فلما مر به موسى استغاث السامرى على القبطى فقال موسى للقبطى دعه فقال الخباز لموسى إنما آخذه فى عمل أبيك وأبى أن يخلى سبيله فغضب موسى فبطش به وخلص السامرى من يده فنازعه القبطى فوكزه موسى فقتله وهو لا يريد قتله فذلك قوله تعالى (فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين) ثم قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم (قال وهب) أوحى الله إلى موسى بن عمران وعزتى وجلالى لو كانت النفس التى قتلت أقرت لى طرفة عين إنى إله خالق رازق لأذقتك طعم العذاب وإنما عفوت عنك لأنها لم تقر لى ساعة واحدة إنى إله خالق رازق قالوا لما قتل موسى القبطى لم يرهما إلا الله تعالى والإسرائيلى فلما قتله أصبح فى المدينة خائفاً يترقب الأخبار فأتوا فرعون وقالوا له أن بنى إسرائيل قد قتلوا رجلا من آل فرعون فخذ لنا بحقنا ولا نرخص لهم فى ذلك فقال فرعون ائتونى بقاتله ومن يشهد عليه لأنه لا يستقيم أن يقضى بغير بينة ولا يثبت ملك على الأخذ بالظلم فاطلبوا ذلك فبينما هم يطوفون لا يجدون بينة إذ مر موسى من الغد فرأى ذلك الإسرائيلى يقاتل فرعونياً فاستغاثه الإسرائيلى على قتال الفرعونى فصادف موسى وهو نادم على ما كان منه بالأمس فكره الذى رآه فغضب موسى لديده وهو يريد أن يبطش بالفرعونى وقال للإسرائيلى إنك لغوى مضل مبين ففر الإسرائيلى من موسى وظن أنه يبطش به من أجل أنه اغلظ عليه فى الكلام وكان غضبان فلما أقبل لنصره ومد يده ظن أنه يريد قتله فقال له يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس الآية وإنما قال ذلك مخافة من موسى وظن أن يكون أراده وإنما أراد الفرعونى فتنازعا فذهب الفرعونى فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلى وذكر أن موسى هو الذى قتل الرجل بالأمس وهو المثل السائر العدو العاقل أحرى عليك من الصديق الأحمق وينشد فى معناه :

إن اللبيب إذا تزايد بعضه أحرى عليك من الصديق الأحمق

قال فلما أخبر فرعون بذلك أرسل الذباحين وامرهم بقتل موسى وقال لهم اطلبوه فإنه غلام لا يهتدى إلى الطريق وكان موسى يسلك الطريق الأعظم فجاءه رجل من شيعته من أقصى المدينة يقال له حزقيل وكان على بقية دين إبراهيم وكان أول من صدق بموسى وآمن به (ويروى) عن النبى ﷺ أنه قال سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين حزقيل مؤمن من آل فرعون وحبيب النجار صاحب يس وعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه بالجنة وهو أفضلهم قال فجاء حزقيل مؤمن آل فرعون فأخبر موسى بما أمر به فرعون من قتله واختصر طريقاً قريباً حتى سبق الذباحين فأخبره الخبر فذلك قوله تعالى (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين) فتحير موسى ولم يدر أين يذهب فجاءه ملك على فرس بيده عنزة فقال له اتبعنى فأتبعه فهداه الطريق إلى مدين

(الباب الخامس فى دخول موسى مدين وتزويج شعيب إبنته إياه)

قالت العلماء لما انتهى موسى إلى أرض مدين فى ثمان ليال ونزل فى أصل شجرة وإذا تحتها ثروهى التى قال الله تعالى (ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان) من يديها وسجدت شكراً لله تعالى وقالت اللهم أريتنى مرادى فيه فاقبض روحى هذه الساعة فقبض الله روحها وهى ساجدة رحمة الله تعالى عليها ونفعنا بها وهذا حديثى يا أخى والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

(وحكى عن بعضهم عفا الله تعالى عنه) أنه قال كان فى بنى إسرائيل رجل عابد فى كهف فى الجبل لا يراه أحد من الناس ولا يرى أحداً وعنده عين ماء كان يتوضأ منها ويشرب منها ويقتات من نبات الأرض وكان يصوم النهار ويقوم الليل لا يفتر عن العبادة وعليه أنوار السعادة فسمع به موسى عليه السلام فقصده بالنهار فوجده مشغولا بالصلاة والأذكار ثم قصده بالليل فوجده مشغولا بمناجاة الجليل فسلم عليه موسى عليه السلام وقال له يا هذا أرفق بنفسك فإن المولى كريم فقال يا نبى الله أخاف أن أؤخذ على غفلة فيقضى نحبى فأكون مقصراً بخدمة ربى فقال له موسى عليه السلام هل من حاجة إلى مولاك يا هذا فقال نعم سله أن يعطينى رضاه ولا يشغلنى بأحد سواه حتى يقضى نحبى وألقاه فلما صعد موسى عليه السلام إلى مناجاة ربه واستغرق

في لغة كلام خالقه نبي فقال موسى يا رب أنت أعلم بما قال فقال الله تعالى اذهب إليه وقل له يتعبد ماشاء في الليل والنهار فإنه من أهل النار لما سبق له من الذنوب والأوزار فأتاه موسى عليه السلام وأخبره بما قال له مولاه وما سبق من ذنوبه وخطاياه فقال العابد مرحباً بقضائه وحكمه وكل شيء بعين قدرته ثم بكى وقال يا موسى وعزته وجلاله ما برحت عن بابه ولو طردني ولا حلت عن جنابه ولو أحرقني ومزقني ثم أنشد يقول :

من الذي بيني وقطعني الغرام
إرباً إرباً
ما أزددت إلى لقائك إلا حباً
مازلت به أسير وحدوضني
حتى يقضي على هواه نحبا

قال فلما صعد موسى عليه السلام إلى المناجاة قال إلهي أنت أعلم بما قال عبدك العابد فقال الله عز وجل يا موسى اذهب إليه وبشره إنه من أهل الجنة وقد أدركته الرحمة والمنة وقل له تلقيت قضائي بالصبر والرضى ووضيت مني بأصعب الحكم والقضا فلو ملئت ذنوبك السموات والأرض والقضاء وملأت جميع الأقطار لغفرتها لك وأنا العزيز الغفار قال فسر موسى عليه السلام وأخبره بما قاله العزيز العلام فحمد

أي تحبسان أغنامهما فقال لهما ماخطبكما قالتا لانسقي حتى يصدر الرعاء لأنا امرأتان ضعيفتان لانقدر على مزاحمة الرعاء فإذا سقوا مواشيهم سقينا أغنامنا من فضول حاجتهم وما بقي من حياضهم وأبونا شيخ كبير تعنيان شعيبا وروى حماد بن سلمة عن أبي حمزة عن ابن عباس قال اسم ابي امرأة موسى الذي استأجره ثيرون صاحب مدين ابن أخي شعيب النبي عليه السلام وإسم إحدى الجاريتين ليا ويقال حنونا والأخرى صفورا وهي امرأة موسى عليه السلام فلما قالتا ذلك لموسى رحمهما وكان هناك بئر على رأسها صخرة عظيمة وكان النفر من الرجال يجتمعون إليها حتى يرفعوها عن رأسها وحكى الأستاذ أبو سعيد عبد الملك بن عثمان الواعظ أن تلك البئر غير التي تسقى منها الرعاء قال وقد حضرتها ورأيتها قال فرفع موسى الصخرة عن رأسها وأخذ دلوا هما وقال لهما قدما غنمكما فسقى لهما أغنامهما حتى اروا هما فرجعتا إلى أبيهما سريعا قبل الناس وتولى موسى إلى ظل الشجرة وقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير وما سأل الله تعالى إلا أكلة وقال أبو محمد البافر لقد قالها وإنه لمحتاج إلى شق تمرة قالوا فلما رجعتا إلى أبيهما قال لهما ما أعجلكما وأسرع رواحكما الليلة قالتا وجدنا رجلا صالحاً فرحمنا فسقى لنا أغنامنا فقال لإحداهما إذهبي فادعيه إلي فجاءته إحداهما وهي التي تزوجها موسى وهي تمشي على استحياء فقالت له إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا فقام موسى فتقدمته وهو يليها أي يتبعها فهبت ريح فالصقت ثوب المرأة بردفها فكره موسى أن يرى ذلك منها فقال لها موسى امشي خلفي ودليني على الطريق فإذا اخطأت فارمي قدامي بحصاة حتى أنهج نهجا فإنا بنو يعقوب لا ننظر إلى أعجاز النساء فنعتت له الطريق إلى منزل أبيها ومشيت خلفه حتى دخل على شعيب فسأل شعيب موسى عن حاله وقصته فاخبره بالخبر فقال له لاتخف نجوت من القوم الظالمين فقالت إحداهما وهي التي كانت الرسول إلى موسى يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين (قال) النبي ﷺ أصدق النساء فراسة امرأتان كلتاهما تفرستا في موسى فاصابتا إحداهما امرأة فرعون حين قالت قرة عين لي ولك لا تقتلوه والأخرى بنت شعيب حيث قالت يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين وإنما قالت القوي الأمين لأنه أزال الحجر العظيم الذي لا يرفعه إلا أربعون رجلا فقال لها ابوها هبك أنك عرفت قوته فما أعلمك بأمانته فأخبرته بما أمرها موسى من استدبارها إياه في الطريق فازداد فيه شعيب رغبة فقال له إني أريد أن انكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج إلى قوله من الصالحين أي في حسن الصحبة معك والوفاء بشرطك فقال موسى ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت الآية (وروى) عن رسول الله ﷺ أنه سئل أي الأجلين قضى موسى قال أكملهما وافضلهما (روى) أنه قال قضى أوفاهما وتزوج بصغراهما .

﴿ الباب السادس في ذكر نعت عصا موسى وبدء أمرها ﴾

اختلف العلماء في اسمها والمنافع التي كانت فيها وماظهر من دلالة قدرة الله فيها قالوا نام أن شعيبا أمر ابنته أن تأتيه بعصا ليعطيها موسى فيستعين بها في رعايته فجاءته بعصا وكانت تلك العصا وديعة عنده دفعها إليه ملك على صورة رجل فردها عليها شعيب وأمرها أن تأتيه بعصا أخرى فمازالت ترجع وتأتيه بها يعيشها لأنها كانت كلما ردتها إلى مكانها وأرادت أن تأخذ غيرها سقطت هي في يدها فمازالت كذلك حتى أخذها شعيب واعطاها موسى فلما أعطاها إياها ندم على ذلك لأنها كانت وديعة عنده فقبل له شعيب رد على العصا فابى أن يردها عليه فتنازعا إلى أن شرطا على انفسهما أن يرتضيا حكم أول رجل يدخل عليهما فاتاهما ملك يمشي فتحاكما إليه فمد ان ضعها على الأرض فعالجها الشيخ فلم يطق حملها فأخذها موسى بيده فرفعها فلما رأى شعيب ذلك تركها له وفي رواية أخرى أن موسى لبث عند شعيب ماشاء الله ثم استأذنه في الإنصراف فأذن له وقال له ادخل هذا البيت وخذ عصا من العصي تكون معك تدرأ بها السباع عنك وعن

غنمك وكانت عصا الأنبياء يومئذ عند شعيب فلما دخل موسى البيت ونامت اليه العصا فصارت فى يده فخرج بها فقال لشعيب ردها وخذ غيرها وذلك أن شعيبا كان قد أخبرنا بأمر العصا ولم يدر شعيب أن صاحبها هو موسى فردها موسى إلى البيت فالقاها وذهب ليأخذ غيرها فونبت حتى صارت فى يده فعل ذلك مرارا فقال له شعيب ألم أقل لك خذ غيرها فقال له موسى قد رددتها مرات فكلما فعلت ذلك ونبت حتى تصير فى يدى فعلم شعيب أن ذلك أمر يريده الله تعالى فقال له خذها (قالوا) وزوجه ابنته وعمى له عشر سنين وولد لموسى أولاد من إبنة شعيب (قالوا) لما خرج موسى من مدين ووافى مصر كان شعيب يزوره فى كل سنة فاذا أكل قام موسى على رأسه ثم يكثر له الخبز ويلقيه بين يديه ويقول له كل (قال مقاتل) بل كان جبريل هو الذى دفع العصا إلى موسى وهو متجه إلى مدين بالليل (قال كعب) لما قدم مكة عبد الله بن عمرو بن العاص قلت سلوه عن ثلاث فان أخبركم فانه عالم سلوه عن شىء من الجنة وضعه الله للناس وعن أول شجرة غرست فى الارض فسئل عنها فقال عبد الله أما الشىء الذى وضعته للناس فى الارض من الجنة فهو هذا الركن الأسود وأما أول ما وضع للناس فى الارض فبئر بروت باليمن بردها أرواح الكفار وأما أول شجرة وضعها الله تعالى فى الارض فالعوسجة التى اقتطع منها موسى عصاه فلما بلغ ذلك كعب قال صدق الرجل فعلى هذا القول إنما اقتطع موسى عصاه من تلك الشجرة فاظهر الله فيها قدرته ومعجزة موسى فيها وقال ابن عباس كتب صاحب الروم إلى معاوية يسأله عن أربعة أشياء لم يركضوا فى رحم فلما قرأ معاوية الكتاب قال أخزاه الله وما علمى بها ههنا قيل له اكتب إلى ابن العباس فاسأله عن ذلك فكتب إليه يسأله عنها فكتب اليه ابن عباس فى الجواب أما الاربعة التى لم يركضوا فى رحم فآدم وحواء والكبش الذى فدى به إسمعيل وعصا موسى حيث القاها فصارت ثعبانا (وقال) أكثر العلماء كانت عصا موسى من آس الجنة وكان طولها عشرة أذرع على طول موسى حملها آدم من الجنة إلى الارض فورثها الياس صاغرا عن كابر إلى أن وصلت إلى شعيب فأعطاها موسى واختلف العلماء فى اسمها فقال سعيد بن جبير اسمها ماسا وقال مقاتل بن سليمان اسمها نفعة وقال ابن حبان اسمها غياث وقال آخرون اسمها عليق

(الباب السابع فى صفة المآرب التى كانت فيها لموسى)

قال أهل العلم بأخبار الماضين كان لعصا موسى شعبتان ومحجن فى أسفل الشعبتين وسنان حديد فى أسفلها وكان موسى إذا دخل مفازه ليلا ولم يكن فرتضئا شعبتاها كالشعلتين من نار تضيئان له مد البصر وكان إذا أعوزه الماء دلاها فى البئر فتمتد على قعر البئر ويصير فى رأسها شبه الدلو فيستقى بها وإذا احتاج إلى الطعام نضرب الارض بها فيخرج ما يأكل يومه وكان إذا اشتهى فاكهة من الفواكه غرسها فى الارض فتخرج أغصان تلك الشجرة التى اشتهى موسى فاكهتها وأثمرت له من ساعتها ويقال كانت عصا موسى من اللوز وكان إذا جاع ركزها فى الارض فاورقت وأثمرت واطعمت وكان يأكل منها اللوز وكان إذا قابل بها عدوه يظهر على شعبتيها ثعبانان يقاتلان وكان يضرب بها على الجبل الوعر الصعب المرتقى وعلى الحجر والشوك فتفرج له الطريق وكان إذا أراد عبور نهر من الانهار بلا سفينة ضرب بها عليه فانفلق وبدا له فيه طريق متفرج وكان يشرب من إحدى شعبتيها العسل ومن الاخرى اللبن وكان إذا أعيا فى طريقه ركبها فتحمله إلى أى موضع شاء من غير ركض ولا تحريك وكانت تدله على الطريق وكانت تقاتل أعداءه عنه وكان إذا طلب منها الطيب فاح منها الطيب فيتطيب ويطيب ثوبه وإذا كان فى الطريق لصوص يخاف الناس جانبهم تكلمه العصا فتقول له خذ جانب كذا وكذا ولا تأخذ حيث كذا وكذا وكان يهش بها على غنمه ويدفع بها السباع عنها والحشرات والحيات وإذا سافر وضعها على عاتقه وعلق عليها جهازه ومتاعه ومخلاته ومقلاعه وكساءه وطعامه وشرابه قال ابن حبان قال شعيب لموسى حين زوجته ابنته وسلم إليه أغنامه ارعاها اذهب بهذه الاغنام فاذا بلغت مفرق الطريق فخذ على يسارك ولا تأخذ على يمينك وإن كان الكلأ بها أكثر فان هناك تنينا عظيما أخشى عليك وعلى الاغنام منه فذهب موسى بالاغنام حتى إذا بلغ مفرق الطريق أخذت أغنام ذات

العابد ساجد لله تعالى وحد ربه فما زال فى سجوده حتى قضى نحبه رضى الله تعالى عنه ونفعنا به وعمر لنا وله آمين (وحكى عن الضحاك رضى الله عنه) أنه قال خرجت ليلة جمعة بالكوفة أريد المسجد وكانت ليلة مقمرة فاذا بشاب حسن الثياب نظيف الأثواب فى بعض أرجاء المسجد ساجدا لله تعالى وهو يجود بالبكاء فلم أشك أنه ولى لله تعالى فدنوت منه لاسمع منه ما يقول فاذا هو يقول عليك ياذا الجلال معتمدى طوبى لعبد تكون مولاه طوبى لمن بات خائفا وجلا يشكو إلى ذى الجلال بلواه ومابه علة ولا سقم
أكثر من حبه لمولاه
إذا خلا فى الظلام مبتهلا
أجابه الله ثم لباه
قال ولم يزل يكرر من قوله عليك ياذا الجلال معتمدى وهو يبكى وأنا أبكى شفقة عليه ثم ذكر كلاما معناه انه رأى نورا ساطعا وسمع قائلا يقول هذا الجواب لبيك عبدى فأنت فى كنفى وكل ما قلت قد سمعناه صوتك تشتاقه ملائكتى وذنبك الآن قد غفرناه قال فقلت لعل هذه الرؤيا والسماع المذكورين فى حالة النوم أو فى غيبة فسلمت عليه فرد على السلام فقلت له بارك الله لك فى لبيك وبارك فيك من أنت يرحمك

الله فقال راشد بن سليمان فعرفته لما كنت اسمع من أمره وخبره أو كنت أتمنى لقاءه فلم أقدر على ذلك حتى يسره الله تعالى لى فقلت له هل لك أن تصحبنى فقال هيهات وهل يأنس بالمخلوقين من يتلذذ بمناجاة رب العالمين أما والله لو خرج على عصرنا هذا أحد من أصحاب النيات الصحيحة لقالوا هؤلاء أحزاب لا يؤمنون بيوم الحساب ثم غاب عن بصرى فلم أره فاشتقت مرافقته ثم سألت الله تعالى أن يجمعنى به قبل الموت فلما كان بعض الأعوام خرجت حاجا إلى بيت الله الحرام فإذا به فى ظل الكعبة وإذا بنفر يقرؤن عليه سورة الأنعام فلما نظر إلى تبسم وقال هذا لطف العلماء أو تواضع الأولياء ثم قام إلى واعتنقنى وسلم على وقال هل سألت الله تعالى أن يجمع بيننا قبل الموت قلت نعم فقال الحمد لله على ذلك ثم قلت له يرحمك الله أخبرنى عن مارأيت تلك الليلة وسمعت فشهق شهقة ظننت أنه قد انفتق حجاب قلبه وخر مغشياً عليه ثم تفرق النفر الذين كانوا يقرؤن عليه فلما أفاق قلت يا أخى ماهؤلاء النفر الذين كانوا يقرؤن عليك فقال هم نفر من الجن فهم يقرؤن على القرآن ويحجون معى فى كل عام ثم ودعنى وقال جمع الله بينى وبينك فى الجنة حيث لا فرقة

اليمين فاجتهد موسى أن يصرفها ذات الشمال فلم تطعه فخلاها على ما تريد ثم نام موسى والأغنام ترعى وإذا الثنين قد جاءا فقامت العصا فحاربته فقتلته وأتت فاستلقت إلى جانب موسى وهى دامية فلما استيقظ موسى ورأى العصا دامية والثنين مقتولا فعلم موسى أن فى تلك العصا قدرة وعرف أن لها شأنا فهذه مآرب موسى إذا كانت فى يده وأما إذا ألقاها فيرى أنها كانت تقلب حية كأعظم ما يكون من الثعابين سوداء مدلهمة تدب على أربع قوائم فتصير شعبتاها فما وفيه اثنا عشر نابا وضرساً لها صريف وصرير يخرج منها لهب النار ويصير محجنها عرفا لها كأمثال النار تلتهب وعيناها تلمعان كما يلمع البرق تهب منها رياح السموم فلا تصيب شيئاً إلا أحرقته تمر بالصخرة مثل الناقة الكوماء فتبتلعها حتى أن الصخور فى جوفها لتقعقع وتمر بالشجرة فتقصمها بأنيابها وتحطمها وتبتلعها وجعلت تتلمظ وتتبرم كأنها تطلب شيئاً تأكله وكانت تكون فى عظم الثعبان وفى خفة الجان ولين الحية وذلك موافق لنص القرآن حيث يقول الله تعالى فى موضع فإذا هى ثعبان مبين وفى موضع آخر كأنها جان وفى موضع آخر فإذا هى حية تسعى

(الباب الثامن فى ذكر خروج موسى عليه السلام من مدين وتكليم الله إياه فى الطريق وإرساله إلى فرعون واستعانته بأخيه هارون وكيفية ذهابهما إلى فرعون لتبليغ الرسالة)

قال الله عز وجل (فلما قضى موسى الأجل) الآية قالت العلماء بسير الأنبياء لما ورد موسى أرض مدين وأتى عليه من يوم وروده تسع سنين قال له شعيب إنى وهبت لك كل بلقاء وأبلق من نتائج أغنامى التى تضعها فى هذه السنة يعنى السنة العاشرة أراد بذلك مبرة موسى وصلة إبنته صفورا امرأة موسى قال فأوحى الله إلى موسى ان أضرب بعصاك المياه الذى فى مستق الأغنام ففعل موسى ذلك ثم سقى الأغنام من ذلك الماء فما أخطأت واحدة من تلك الأغنام إلا وضعت حملها مرتين ما بين أبلق وبلقاء فعلم شعيب ان ذلك رزق ساقه الله تعالى إلى موسى وأهله فوفى موسى بشرطه وسلم إليه الأغنام التى وهبها منه وقضى موسى أتم الأجلين وأوفاهما فلما قضى موسى الأجل سار بأهله منفصلا من أرض مدين وكان فى أيام الشتاء ومعه امرأته وأغنامه وهى فى شهرها لا ندرى أتضع ليلا أو نهاراً فانطلق فى برية الشام عادلا على المدائن والعمران مخافة الملوك الذين كانوا بالشام وكان أكبر همه يومئذ طلب أخيه هرون وإخراجه من مصر إن استطاع اليه سبيلا فسار موسى فى البرية غير عارف بطرقها فالجأه المسير إلى جانب الطور الأيمن الغربى فى عشية شاتية شديدة البرد وأظلم عليه الليل وأخذت السماء ترعد وتبرق وتمطر وأخذ امرأته الطلق فعمد موسى إلى زنده فقدحه فلم يور فتحير وقام وقعد إذ لم يكن له عهد بمثل ذلك فى الزند وأخذ يتأمل ما قرب وما بعد تحيراً وضجر ثم أخذ يتسمع طويلا هل يسمع حساً أو حركة فبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور نوراً فحسبه ناراً فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى يعنى من يدلنى على الطريق وكان قد ضل الطريق فلما أتاها رأى نوراً عظيما ممتداً من عنان السماء إلى شجرة عظيمة هناك واختلفوا فى تلك الشجرة ما كانت فقيل العوسجة وقيل العناب فتحير موسى وارتعدت فرائصه حيث رأى ناراً عظيمة ليس لها خمد وهى تلتهب وتشتعل من جوف شجرة خضراء لا تزداد النار إلا عظماً ولا تزداد الشجرة إلا خضرة فلما دنا موسى منها استأخرت عنه فلما رأى ذلك رجع عنها وخاف ثم تذكر حاجته للنار فرجع اليها ودنت منه فنودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى فنظر فلم ير أحداً فنودى إنى أنا الله رب العالمين فلما سمع ذلك علم أنه ربه تعالى فناداه ربه أنى أدن وأقرب فلما قرب سمع النداء ورأى تلك الهيبة خفق قلبه وكل لسانه وضعفت بنيته وصار حيا كميتا إلا أن روح الحياة تتردد فيه من غير حراك وأرسل الله اليه ملكا يشد ظهره ويقوى قلبه فلما ثاب اليه عقله نودى فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى وكان السبب فى أمره بخلع نعليه ما أخبرنا محمد بن عبد الله الاصبهانى قال حدثنا يحيى السدى قال حدثنا أحمد بن بجدة قال حدثنا الجمالى قال حدثنا عيسى بن يونس عن حميد عن عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ

في قوله فاخلع نعليك قال كانتا من جلد حمار ميت وفي بعض الأخبار غير مدبوغ (قالوا) ولما صعد موسى الجبل لمناجاة ربه تعالى صار الجبل عقيقاً فلما نزل موسى عنه عاد إلى حالته الأولى فلما رجع موسى شيعته الملائكة وكان قلب موسى مشغولاً بولده وأراد أن يحثه فأمر الله تعالى ملكاً فديده ولم تزل قدمه عن موضعها حتى جاء به الملك ملفوفاً في خرقة وناوله إلى موسى فأخذ حجر من فلك أحدهما بالآخر حتى حدده كالسكين من الحديد فختن به ابنه ثم أن الملك عالج المقطوع من الختون فتفل فيه فبرأ من ساعته بإذن الله تعالى ثم أن الملك رده إلى موضعه الذي جاء منه ولم يزل أهل موسى مقيمين في ذلك المكان لا يدرون ما فعل موسى حتى مر بهم راع من أهل مدين فعرفهم فاحتملهم وردهم إلى مدين فكانوا عند شعيب حين بلغهم خبر موسى بعد ما فلق البحر وجاوزه ببني إسرائيل وأغرق الله فرعون فبعث بهم شعيب إلى مصر لموسى قالوا وخرج موسى من فوره ذلك لما بعثه الله إلى مصر لا علم له بالطريق وكان الله تعالى يهديه ويدله وليس معه زاد ولا سلاح ولا حولة ولا صاحب له ولا شيء من الأشياء غير العصا ومدرعة صوف وقلنسوة صوف ونعلين وكان يظل صائماً ويبيت قائماً ويستعين بالصيد وبقول الأرض حتى ورد مصر فلما قرب من مصر أوحى الله تعالى إليه لا تخف ولا تجزع ثم أوحى الله تعالى إلى أخيه هرون يبشره بقدوم موسى ويخبره أنه جعله وزيراً له ورسولاً معه إلى فرعون وأمره أن يمر يوم السبت غرة ذي الحجة متنكراً إلى شاطىء النيل ليلتقي بموسى تلك الساعة فخرج هرون واقبل موسى فالتقيا على شاطىء النيل قبل طلوع الشمس واتفق أنه كان في يوم ورود الاسد الماء وكانت لفرعون أسد تحرسه في غيضة محيطة بالمدينة من خوفها وكانت ترد الماء غباً وكان فرعون إذ ذاك في مدينة حصينة عليها سبعون سوراً وكان بين كل سورين بساتين وأنهار ذات مزارع وأرض واسعة في بعض لكل سور سبعون الف مقاتل ومن وراء تلك المدينة غيضة تولى فرعون غرسها بيده وعمل فيها وسقاها بالنيل وأسكنها الاسد فتناسلت وتوالدت حتى كثرت ثم اتخذها جنداً من جنوده تحرسه وجعل خلال تلك الغيضة طرقاً تفضي بمن سلكها إلى أبواب المدينة معلومة ليس لتلك الابواب طرق غيرها فمن أخطأها وقع في تلك الغيضة فتأكله الأسود وكانت الاسود إذا وردت النيل ظلت عليه يومها كله تصدر مع الليل فلما التقى موسى بهارون وكان يوم ورودها فلما رأتهما الاسد مدت أعناقها ورؤسها إليهما وشخصت بأبصارها نحوهما وقذف الله في قلوبهما الرعب فانطلقت نحو الغيضة مسرعة هاربة على وجوهها يطأ بعضها بعضاً حتى اندست في الغيضة وكان لها ساسة يسوسونها وداده يذودونها أي يغرونها ويسلطونها على الناس ثم أن موسى وهرون انطلقا في تلك الغيضة حتى وصلا إلى باب المدينة الأعظم الذي هو أقرب أبوابها إلى منزل فرعون وكان منه يدخل ويخرج وذلك ليلة الإثنين بعد هلال ذي الحجة بيوم فأقاما عليه سبعة أيام فكلمهما واحد من الحراس وقال لهما هل تدريان لمن هذا الباب فقال موسى إن هذا الباب والارض كلها وما فيها لرب العالمين وأهلها عبيده فسمع ذلك الرجل كلاماً لم يسمع مثله قط ولم يظن أحداً من العالمين يفصح بمثله فلما سمع الرجل ما سمع أسرع إلى كبرائه الذين فوقه وقال لهم سمعت اليوم قولاً وعاينت عجباً من رجلين هما عندي أعظم وأشنع وافظع مما أصابنا الاسد وما كانا يقدران أن يقدما على ما قدما عليه إلا بسحر عظيم واخبرهم بالقصة فلم يزل ذلك الخبر يتداول بينهم حتى انتهى إلى فرعون قال السدي بإسناده سار موسى بأهله نحو مصر حتى أتاها ليلاً فتضيف أمه رهي لا تعرفه فأتاها في ليلة كانوا يأكلون فيها الطفيشل فنزل في جانب الدار فجاءها هرون فلما أبصر ضيفه سأل عنه أمه فأخبرته أنه ضيف فدعاه فأكل معه فلما قعدا وتحدثا سأله هرون من أنت فقال موسى فقام كل واحد منهما إلى صاحبه فاعتنقه فلما تعارفا قال له موسى يا هارون انطلق معي إلى فرعون فإن الله تعالى قد أرسلنا إليه فقال له هارون سمعاً وطاعة فقامت أمهما وصاحت وقالت انشدكما الله لا تذهبا إلى فرعون فيقتلكما فابيا عليها ومضيا لامر الله تعالى فانطلقا إليه ليلاً فأتيا

(وحكي عن عبد الله بن الاحنف رضي الله عنه) انه قال خرجت من مصر أريد الرملة لزيارة الشيخ الزيادي رضي الله تعالى عنه فرآني عيسى بن يونس المصري في الطريق فقال هل أدلك على خير لك فقلت نعم فقال عليك بصور فإن فيه شيخاً وشاباً اجتمعا على حال المراقبة فلو نظرت إليهما نظرة لاعنتك باقي عمرك قال فسرت إليها حتى دخلت عليهما وأنا جائع عطشان وليس على ما يسترني من الشمس فوجدتهما مستقبلين القبلة فسلمت عليهما وكلمتهما فلم يكلماني فقلت أقسمت عليكما بالله العظيم إلا ما كلمتماني فرفع الشيخ رأسه وقال يا ابن الاحنف ما أقل سعيك حتى تفرغت إلينا ثم أطرق رأسه وأقمت بين أيديهما حتى صلينا الظهر والعصر فذهب عني الجوع والعطش والتعب فقلت للشاب عظني بشيء يا سيدي انتفع به فقال نحن أهل المصائب ليس لنا لسان العظة فأقمت عندهما ثلاثة أيام بلياليها لم آكل ولم أشرب فلما كان عشية اليوم الرابع قلت في نفسي لابد من سؤالهما عن موعظة انتفع بها فرفع الشاب رأسه وقال عليك بصحبة من يذكرك الله تعالى بنظره ويعظك بلسان فعله لا بلسان قوله

الباب والتمسا الدخول عليه ليلا فقرعا الباب ففزع فرعون وفزع البواب وقال فرعون من هذا الذى يضرب بابى فى هذه الساعة فأشرف عليهما البواب وكلمهما فقال موسى إنى رسول رب العالمين ففزع البواب وأتى فرعون وأخبره بما سمع وقال له إن هذا إنساناً مجنوناً يزعم أنه رسول رب العالمين فقال فرعون ادخلوهما فأدخل موسى ومعه هرون عليهما السلام.

﴿ الباب التاسع فى ذكر دخول موسى وهرون على فرعون ﴾

قال الله تعالى (فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين) وقال تعالى (فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى) وروى عمرو بن عبيد عن الحسن البصرى فى هذه الآية قال قال لهما اعذرا إليه لعله يتذكر أو يخشى فقولا له أن لك رباً ومعاداً وأن بين يديك جنة وناراً لعله عند ذلك يتذكر أو يخشى وعيدنا وهو عندى لا يتذكر ولا يخشى قال لكى لا يقول أهلكته قبل أن أعذر إليه قال قال فلما أذن فرعون لموسى وهرون دخلا عليه فلما وقفا عنده دعا موسى بدعاء وهو لا إله إلا الله الحليم الكريم لا إله إلا الله العلى العظيم سبحان رب السموات السبع وما فيهن وما بينهن ورب العرش العظيم سلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين اللهم أدرأ بك فى نحره وأعوذ من شره واستعين بك عليه فاكفنيه بما شئت قال فتحول ما فى قلب موسى من الخوف أمناً وكذلك كل من دعا بهذا الدعاء وهو خائف أمن الله خوفه ونفس كربته وهون عليه سكرات الموت ثم أن فرعون قال لموسى من أنت قال أنا رسول رب العالمين فتأمله فرعون فعرفه فقال له ألم نربك فينا ولبداً ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين معنا على ديننا هذا الذى هو الآن بعينه قال فعلتها إذا وأنا من الضالين أى من المخطئين ولم أرد بذلك القتل ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين ثم أقبل موسى ينكر عليه ماذكره له من رده عليه فقال وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل أى اتخذتم عبيداً تنتزع أبناءهم من أيديهم فتسترق من شئت وتقتل من شئت أى إنما صيرنى إليك ذلك قال فرعون وما رب العالمين قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين قال فرعون لمن حوله من ملئه ألا تسمعون إنكاراً لما قال موسى قال موسى ربكم ورب آبائكم الأولين قال فرعون إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون يعنى ما هذا بكلام رجل صحيح العقل إذ يزعم أن لكم إلهاً غيرى قال موسى رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ثم قال فرعون لموسى لئن اتخذت إلهاً غيرى لاجعلنك من المسجونين قال أولو جئتك بشىء مبين تعرف به صدقى وكذبك وحقى وباطلك قال فرعون فأت به إن كنت من الصادقين فألقى موسى عصاه فاذا هى ثعبان مبين فاتحة فاها قد ملأت ما بين جانبى القصر واضعة لحيها الأسفل فى الأرض والأعلى على سور القصر حتى رأى بعض من كان خارجاً من مدينة مصر رأسها ثم توجهت لنحو فرعون تأخذه فانفض منها الناس وذعر منها فرعون ووثب عن سريره وأحدث حتى قام من بطنه فى يومه ذلك أربعين مرة وكان فيما يزعمون لا يسعل ولا يتمخط ولا يتصدع رأسه ولا تصيبه آفة مما يصيب الناس وما كان يقوم إلا فى كل أربعين يوماً مرة واحدة وكان أكثر ما يأكل الموز لأنه لا يكون له ثفل فيحتاج إلى القيام وكانت هذه الأشياء مما زين له أن قال ما قال لأنه من ليس له من الناس شبيه (قالوا) فلما قصدته الحية صاح يا موسى أنشدك بالله وحرمة الرضاع إلا ما أخذتها وأمسكتها عنى وأنا أومن بك وأرسل معك بنى إسرائيل فأخذها موسى فعادت عصا كما كانت ثم أن موسى نزع يده من جيبه فأخرجها فقال له فرعون هذه يدك فما فيها فأدخلها موسى فى جيبه ثم أخرجها ولها نور ساطع فى السماء تكل عنه الابصار قد أضاء ما حولها ودخل ضوءها البيوت وروى من الكوى ومن وراء الحجب فلم يستطع فرعون النظر إليها ثم ردها موسى

ثم التفت فلم أرهما فغرثت وحكى عن ذى النون المصرى رضى الله تعالى عنه أنه قال وصف لى رجل من السادة باليمن من الخائفين سمى على المجتهدين وهو بصلاح الناس معروف وباللب والحكمة والخشوع موصوف قال فخرجت حاجا إلى بيت الله الحرام وزيارة النبى عليه الصلاة والسلام فلما قضيت حجى قصدت زيارته لأسمع كلامه وانتفع بموعظته وكان معى جماعة يطلبون كما أطلب من البركة والدعاء وكان فى جملهم شاب عليه سيما الصالحين ومنظر الخائفين مصفر اللون من غير سقم أعمش العينين من غير رمد يحب الخلوة ويأنس بالوحدة كأنه قريب عهد بمصيبة فقيل له اين يرفق بنفسه فلم يجب وأنشد يقول شعراً:

أيها العاذلون فى الحب مهلا
حاش لى عن هواه إنى ابيلا
كيف اسلو وقد تزايد وجدى
وتبدلت بعد عزى ذلا
قيل تبلى فقلت تبلى عظامى
فى هواكم وحبكم ليس يبلى
حبكم قد سرى لوسط فؤادى
من قديم الزمان منذ كنت طفلا

إلى جيبه ثم أخرجها فإذا هي على لونها الأول قالوا فهم فرعون بتصديقه فقام إليه هامان وجلس بين يديه ثم أنه قال له بينما أنت إله تعبد إذا أنت تابع لعبد فقال فرعون لموسى أمهلني اليوم وغداً فأوحى الله لموسى أن قل لفرعون إنك إن آمنت بالله وحدته عمرتك في ملكك ورددتك شاباً طرياً فاستنظره فرعون فلما كان الغد دخل إليه هامان فأخبره فرعون بما وعده موسى من ربه فقال له هامان والله ما يعدل هذا عبادة هؤلاء لك يوماً واحداً ونفخ في منخره ثم قال له هامان أنا أردك شاباً فأتى بالوشم فخضبه به فهو أول من خضب بالسواد فلذلك كرهه ﷺ ونهى عنه فلما دخل عليه موسى ورآه على تلك الحالة هاله ذلك فأوحى الله إليه لا يهولنك ما رأيت فإنه لن يلبث إلا قليلاً حتى يعود إلى حالته الأولى (وفي بعض الروايات) أن موسى وهرون لما انصرفا من عند فرعون أصابهما مطر في الطريق فأتيا على عجوز من أقرباء أمهما وكان فرعون وجه الطلب في أثرهما فلما دخل عليهما الليل ناما في دارها وجاء الطلب إلى الباب والعجوز منتبهة فلما أحست خافت عليهما فخرجت العصا من جانب الباب والعجوز تنظر إليها فقاتلتهم فقتلت منهم سبعة أنفس ثم عادت ودخلت الدار فلما انتبه موسى وهرون أخبرتهما العجوز بقصة الطلب ونكاية العصا فيهم ثم أن العجوز آمنت بهما وصدقتهما .

﴿ الباب العاشر في قصة موسى وهرون مع فرعون والسحرة وخروجهم يوم الزينة إلى القضاء للمغالبة ﴾

قالت العلماء بأخبار الأنبياء أن موسى وهرون عليهما السلام وضع فرعون أمرهما وما أتيا به من سلطان الله تعالى على السحر فقال للملأ حوله إن هذان لساحران علیمان فماذا تأمرون قالوا اقتلهما فقال العبد الصالح حزقيل مؤمن آل فرعون أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله إلى قوله تعالى سبيل الرشاد وقال الملأ من قوم فرعون أرجئه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار علیم وكان لفرعون مدائن فيها سحرة معدة للأمر إذا أحزنه (قال ابن عباس) قال فرعون لما رأى من سلطان الله تعالى في اليد والعصا ما رأى إنا لا نغالب موسى إلا بمن هو مثله فأخذ غلماناً من بني إسرائيل فبعث بهم إلى قرية يقال لها الفرقاء يعلمونهم السحر كما يعلمون الصبيان في الكتاب فعلموهم سحراً كثيراً ثم أن فرعون واعد موسى موعداً ثم بعث إلى السحرة فجيء بهم ومعهم معلمهم فقال له ماذا صنعت فقال له معلمهم قد علمتهم سحراً كبيراً لا تطيقه سحرة الأرض إلا أن يكون أمر من السماء فإنهم لا طاقة لهم به ثم إن فرعون بعث إلى الشرط في مملكته فلم يتركوا في مملكته ساحراً إلا أتوا به واختلفوا في عدة السحرة الذين جمعهم فرعون فقال مقاتل كانوا اثنين وسبعين ساحراً اثنان من القبط وهما رؤساء القوم وسبعون من بني إسرائيل (وقال الكلبي) كانوا سبعين ساحراً غير رؤسائهم وكان ذلك يعلمهم السحر رجلين مجلمين من أهل نينوى (وقال كعب) كانوا اثني عشر ألفاً (وقال السدي) كانوا بضعة وثلاثين ألفاً (وقال عكرمة) سبعين ألفاً (وقال محمد بن المنكدر) ثمانين ألفاً والجامع لهذه الأقاويل ما روي أن فرعون جمع السحرة وهم (سبعون ألفاً) فاختار منهم سبعة آلاف ليس فيهم إلا من هو ساحر ماهر ثم اختار منهم سبعمائة ثم اختار منهم سبعين من كبارهم وعلمائهم قال مقاتل وكان اسم السحرة شمعون وقال ابن جريج يوحنا وقال عطاء كان رأس السحرة بأقصى مدائن الصعيد وكانا أخوين فلما جاءهم رسول فرعون قال لأمهما دلينا على قبر أبينا فدلتهما عليه فأتياه وصاحا باسمه فأجابهما فقالا له ان الملك وجه إلينا رسولا لنقدم عليه لأنه أتاه رجلان ليس معهما سلاح ولا رجال ولهما عز ومنعة وقد ضاق الملك ذرعاً من عزهما ومنعتهما ومعهما عصا إذا ألقياها لا يقوم لها شيء حتى تبلغ الحديد والخشب والحجارة فأجابهما أبوهما وقال انظراهما إذا هما ناما فإذا قدرتما أن تسلا العصا فسلاها فإن الساحر لا يعمل سحره وهو نائم فإن عملت العصا وهما نائمان فذلك أمر رب العالمين لا طاقة لكما به ولا للملك ولا لجميع أهل الدنيا ثم أنهما أتياهما في خفية وهما نائمان ليأخذا العصا فصدتهما العصا قالوا ثم إنه واعد موسى غدوة يوم الزينة وكان يوم سوق لهم (عن سعيد بن جبير عن ابن عباس) قال يوم عاشوراء ووافق ذلك يوم السبت أو يوم من السنة

قال ولم يزل الشاب في جلستنا حتى انتهينا إلى اليمن فسألنا عن منزل الشيخ فأرشدنا إليه فطرقنا عليه الباب فخرج إلينا كأنه قد خرج من القبور فلما جلسنا بين يديه بدأ الشيخ الشاب بالسلام والكلام والمصافحة وأبدى له البشر والترحيب من دوننا فقال الشاب يا سيدي إن الله جعلكم أطباء للقلوب ولأوجاع الذنوب وأن بي جرحاً أغفل وداء تمكن واعضل فإن قدرت أن تتلطف ببعض مراهمك فافعل وأنشد يقول شعرا :

إن داء الذنوب داء عظيم
كيف لي بالخلاص من داء ذنبي

هل طبيب مناصح لي فإني
أعجز الخلق والأطباء طبي

آه واخجلتي وطول حزني
من وقوفي إذا وصلت لربي

وانقطاع الجواب مني ولم لا
وبلائي قد جل عن كل خطب

فقال الشيخ سل عما بدا لك فقال الشاب يا سيدي ما علامة الخوف من الله تعالى فقال أن يؤنسك خوفه من كل خوف قال فخر الفتى مغشياً عليه فلما أفاق قال يرحمك الله متى يتيقن العبد خوفه من الله تعالى فقال إذا أنزل العبد نفسه من الدنيا منزلة العليل فهو يحتمي من الطعام مخافة طول السقام ويصبر على غصص الدواء مخافة طول الضنى

قال فصاح الشاب صيحة وغشى عليه فلما أفاق قال يا سيدى ما علامة المحب لله تعالى فقال الشيخ إن درجة المحبين رفيعة فقال الشاب أحب يا سيدى أن تصفها لى فقال الشيخ إن الله سبحانه وتعالى شق لهم عن قلوبهم فابصروا بنور القلوب إلى جلال عظمة المحبوب فصارت أرواحهم روحانية وقلوبهم نورانية وعقولهم سماوية تسرح بين صفوف الملائكة الكرام وتشاكل الأمور باليقين والأعيان فعبدوه مبلغ استطاعتهم لاطمعاً فى جنته ولا خوفاً من ناره قال فشهق شهقة فمات رحمة الله تعالى عليه ونفعنا به آمين هكذا مصرع الخائفين رضى الله عنهم أجمعين

(وحكى عن أبى القاسم الجنيد رضى الله تعالى عنه) أنه قال كنت فى مسجد لى وإذا برجل قد دخل على وصلى ركعتين ثم امتد فى ناحية من المسجد وأشار إلى فلما جئته قال لى يا أبا القاسم قد آن لقاء الله تعالى فغسلنى وكفنى وصلى على وادفنى فإذا فرغت من أمرى فسيدخل عليك شاب مصرى مغن فاذا حضر إليك فادفع له مرقعتى وعصاى وركوتى هذه قال الجنيد كيف يكون ذلك إلى مغن قال ياجنيد إنه بلغ رتبة القيام بخدمة الله تعالى وأقيم فى مقام قال فلما قضى الرجل نحبه وفرغنا من مواراته فى

وهو يوم النيروز وكان يوم عيدهم تجتمع إليه الناس من جميع الآفاق وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم كان مجمعهم الميقات بالأسكندرية ويقال بلغ ذنب الحية الجزيرة من وراء البحر يومئذ قالوا ثم إن السحرة قالت لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين قال فرعون نعم وإنكم إذاً لمن المقربين يعنى فى المنزلة فلما اجتمع السحرة والناس جاء متكئاً على عصاه ومعه أخوه هرون حتى أتيا المجمع وفرعون فى مجلسه مع أشراف قومه فقال موسى للسحرة حين جاءهم ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى فتنازعى السحرة فيما بينهم فقال بعضهم لبعض ماهذا بقول ساحر فذلك قوله تعالى فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى فقالت السحرة لئن غلبنا اليوم لسحر لم ترمثله وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون وكانوا قد جاؤا بالعصا والحبال يحملها ستون بعيراً فلما ألقوا إلا الإصرار على السحر قالوا لموسى أما أن تلقى وأما أن نكون نحن الملقين قال لهم موسى بل ألقوا أنتم حبالكم وعصيكم فالقوا فإذا هى حيات كامثال الجبال قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضا تسعى وذلك قوله تعالى (يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) إلى قوله تعالى (خيفة موسى) فقال موسى والله إنها كانت لعصيانى أيديهم ولقد عادت حيات وما عصاى هذه فلما حدث نفسه بذلك أوحى الله إليه (لا تخف إنك أنت الأعلى والق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى) ففرح موسى ثم إنه ألقى عصاه من يده فإذا هى ثعبان مبين كاعظم ما يكون من الثعابين أسود مدلهم يدب على أربع قوائم فصار غلاظ شداد وهو أعظم وأطول من بختى عظيم وله ذنب يقوم عليه فيشرف فوق حيطان المدينة برأسه وعنقه وكاهله لا يضرب بذنبه على شىء إلا حطمه وقصمه ويكسر بقوائمه الصخور الصم الصلاب ويطحن كل شىء ويضرم الحيطان والبيوت بنفسه نار وله عينان يلتهبان ناراً ومنخراه ينفخان سموماً وعلى معرفته شعر كامثال الرماح وصارت الشعبتان له فاسعته إثنا عشر ذراعا وفيه أنياب وأضراس لها فجيج وكشيش وصرير فاستعرضت ما ألقت السحرة من حبالهم وعصيهم وهى تخيل فى أعين الناس وعين فرعون أنها تسعى فجعلت تلقفها وتبلعها واحداً واحداً حتى لم ير فى الوادى لا قليلا ولا كثيراً مما ألقوا وانهزم قوم فرعون هاربين منقلبين فتزاحموا وتضاغطوا ووطىء بعضهم بعضا حتى مات منهم يومئذ فى ذلك الزحام خمسة وعشرون ألفا وانهزم فرعون فيمن انهزم متخوفا مرعوبا ذاهبا عقله وقد استطلق عليه بطنه من يومه ذلك أربعمائة مرة فصار يحصل له ذلك أربعين مرة فى كل يوم وليلة على الدوام إلى أن هلك فلما انهزم الناس وعاين السحرة ما عاينوه قالوا لبعضهم لو كان ساحراً ما غلبنا ولا خفى علينا أمره ولو كان سحراً فاين حبالنا وعصينا فالقى السحرة سجداً قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون وكان فيهما إثنان وسبعون شيخاً قد انحنت ظهورهم من الكبر وكانوا علماء رؤساء وكان رؤوس السحرة خمسة نفر سابور وغادر وحفظ وخطط ومصفا وهم الذين آمنوا حين ماراوا ما رأوا من سلطان الله تعالى فلما رأى فرعون ذلك أسف وقال لهم متجلداً آمنتم قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر إلى قوله تعالى أشد عذابا وأبقى قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات الآية فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وصلبهم فى جذوع النخل وهو أول من فعل ذلك فاصبحوا سحرة كفرة وأمسوا شهداء بررة ورجع فرعون مغلوباً مهزوزا مكسوراً حتى دخل موسى عليه السلام عسكر بنى إسرائيل فاخذ برأسها فإذا هى عصا كما كانت أول مرة وشتت الله على فرعون أمره ولم يجد إلى موسى سبيلا واعتزل موسى مدينته ولحق بقومه وعسكره وكانوا مجتمعين إلى أن صاروا ظاهرين .

(الباب الحادى عشر فى قصة حزقيل مؤمن آل فرعون وامرأته ومقتله وأولاده رضى الله عنهما)

قالت الرواة كان حزقيل من أصحاب فرعون نجاراً وهو الذى صنع لأم موسى التابوت حين ولدته وألقته فى البحر وقيل إنه كان خازناً لفرعون قد خزن له مائة سنة وكان مؤمناً مخلصاً يكتم إيمانه إلى أن ظهر

موسى على السحرة فاظهر حزقيل أمره فأخذ يومئذ وقتل مع السحرة صلباً وهو الذى ذكره الله فى القرآن فى قوله تعالى (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه) وقال رسول الله ﷺ سباقى فى الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين حبيب النجار مؤمن آل يس وحزقيل مؤمن آل فرعون وعلى مؤمن آل محمد ﷺ وهو أفضلهم وأما امرأة حزقيل فإنها كانت ماشطة بنات فرعون وكانت مؤمنة من إماء الله الصالحات إلا أنها كانت مع بنات فرعون تخدمهن وكان من قصتها من أخبرنا به الأسانيد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لما أسرى بى مررت برائحة طيبة فقلت لجبريل عليه السلام ماهذه الرائحة قال رائحة ماشطة آل فرعون وأولادها كانت تمشط ذات يوم بنت فرعون فوقع المشط من يدها فقالت بسم الله فقالت فرعون أبى قالت لا بل ربى ورب أبيك فقالت لها لأخبرن بذلك أبى فلما أخبرته دعا بها وبولدها قال لها من ربك فقالت أن ربى وربك الله فأمر بتنور من نحاس فأحمى وأمر بها وبولدها أن يلقوا فيه فقالت له إن لى إليك حاجة قال وما هى قالت تجمع عظامى وعظام ولدى فتدفنها قال ولك ذلك لما لك علينا من الحق ثم أمر باولادها فألقوا واحداً واحداً فى التنور حتى إذا كان آخر أولادها ولداً صبياً رضيعاً فقال اصبرى يا أماه فإنك على الحق فألقيت فى التنور مع ولدها فسئل ابن عباس فيمن تكلم فى المهد قال أربعة عيسى بن مريم وشاهد يوسف وصاحب جريج وهذا الصبى .

(الباب الثانى عشر فى ذكر آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ومقتلها رحمها الله تعالى)

قال الله تعالى (وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون) يقال أن امرأة فرعون آسية كانت من بنى إسرائيل وكانت مؤمنة مخلصة وكانت تعبد الله سراً حتى أنها كانت لتتعلل فى قضاء حاجتها فتبر فتصلى يومها فى منزرها خوفاً من فرعون وكانت على تلك الحالة إلى أن قتل فرعون امرأة حزقيل وكانت آسية متطلعة من كوة فى قصر فرعون تنظر إلى الماشطة امرأة حزقيل كيف تعذب وتقتل فلما قتلت الماشطة عاينت آسية الملائكة وقد عرجت بروحها لما أراد الله تعالى من كراماتها وما أراد لها من الخير فزادت يقيناً بالله وتصديقاً فبينما هى كذلك إذ دخل عليها فرعون وجعل يخبرها بخبر امرأة حزقيل وما صنع بها فقالت له آسية الويل لك يا فرعون ما أجرأك على الله تعالى فقال لها لعلك قد اعتراك الجنون الذى اعترى صاحبتك فقالت ما اعترانى جنون ولكنى آمنت بالله ربى وربك ورب العالمين فدعا فرعون أمها وقال لها أن إبنتك قد أخذها الجنون الذى أخذ الماشطة ثم أنه أقسم لتذوقن الموت أو لتكفرن بإله موسى فخلت بها أمها وسألتها موافقة فرعون فيما أراد فأبت وقالت تريدين أن أكفر بالله فلا والله ما أفعل ذلك أبداً فأمر بها فرعون فمدت بين أربعة أوتاد ثم مازالت تعذب حتى ماتت رحمها الله تعالى وذلك قوله تعالى (وفرعون ذى الأوتاد) عن ابن عباس قال أخذ فرعون امرأته آسية حين ابتدأ بها يعذبها لتدخل فى دينه فمر بها موسى وهو يعذبها فشكت إليه بأصبعها فدعا الله أن يخفف عنها من العذاب فبعد ذلك لم تجد للعذاب ألماً إلى أن ماتت فى عذاب فرعون فقالت وهى فى العذاب رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ونجنى الآية فأوحى الله تعالى إليها أن ارفعى رأسك ففعلت فرأت البيت فى الجنة من در فضحكت فقال فرعون أنظروا إلى الجنون الذى بها تضحك وهى فى العذاب

(الباب الثالث عشر فى بناء الصرح)

قال الله تعالى (وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحاً) الآية قالت العلماء كان الله تعالى قد أملى لفرعون فى كل باب من أبواب التملك والتسلط والثروة والتنعم والترفع والتمتع ماقد استخف به رعيته من أهل مملكته حتى استعبدهم فعبدوه وادعى الربوبية فقبلوه مع ما أوتى من العمر الطويل والقوة والمنعة والسعة والجنود والشوكة والعدة والعدد وكان قد بلغ من صحة جسمه واعتدال طبيعته وخلقته وقوة تركيبه وبنيته أنه ربما لبث أربعين يوماً وليلة لا يخرج منه شىء إلا مرة واحدة وهو مع ذلك يأكل ويشرب ولا يبزق ولا يتمخط ولا يتنحنح ولا يسعل ولا يأخذه وجع فى بطنه ولا ترمد عيناه ولا يمرض ولا تصيبه آفة فى

التراب دخل علينا شاب مصرى وسلم وقال أين الوديعة يا أبا القاسم فقلت له وكيف ذلك أخبرنى أيها الشاب بحالك فقال يا سيدى إنى كنت فى مشربة بنى فلان فهتف بى هاتف أن قم إلى الجنيد واستلم ما عنده من الوديعة التى تركها لك فلان وهى كذا وكذا فإنك قد جعلت مكانه من الأبدال قال الجنيد فدفعت إليه تلك الوديعة فنزع ثيابه واغتسل ولبس المرقعة وتوجه نحو الشام فلم أره رضى الله تعالى عنه ونفعنا به آمين .

(وحكى عنه أيضاً رضى الله تعالى عنه) أنه قال كان لى مسجد وكان بجانبه جار شرطى كنت أعرف منه أخذ أموال المسلمين فلما حضرته الوفاة أتوا به إلى مسجدى لأصلى عليه فامتنعت من الصلاة عليه وقلت خذوه عنى وصلوا عليه فى أى مسجد كان بعيداً عن مسجدى فأخذوه ومضوا به من عندى فلما كان الليل رأيت الشرطى وعليه ثياب خضر وهو يتبختر فى الجنة قال الجنيد فقلت له ألست الذى طردتك بالأمس فقال نعم فقلت له أخبرنى بحالك فقال لما كان من أمرى ما كان وطردتنى وامتنعت من الصلاة على دخل عندى رعب شديد فلما مضوا بى من عندك سمعت قائلا يقول لا تحزن

فإنك قادم على كريم فزال ما كان عندى من الخوف فلما وقفت بين يديه جعلت اعتمادى عليه فقال الله عز وجل يا عبدى ما قال الجنيد فقلت يا سيدى أنت أعلم بمقالته فقال الله عز وجل وعزتى وجلالى إن كان قد طردك الجنيد فقد تبلتك فأنا أقبل المطرودين وأعفو عن المذنبين أمضوا بعبدى إلى الجنة برحمتى وأنا أرحم الراحمين اللهم ارحمنا كما رحمته وارحم جميع المسلمين

(وحكى عن أبى العباس الخضر عليه السلام) أنه قال كنت بصنعاء اليمن فى مسجد عبد الرزاق الواعظ وكان من أكابر العلماء والأولياء أسمع منه ما يقول فنظرت إلى شاب منفرد بناحية من المسجد مختل بنفسه واضع رأسه بين ركبتيه فأتيت إليه ووكزته وقلت يا هذا لم لا تحضر مجلس عبد الرزاق وتسمع ما يقول فقال قد سمعت من الله عز وجل فأدهشنى ذلك فقلت له إن إن كنت صادقاً فمن أنا فقال إن صحت الفراسة فأنت الخضر عليك السلام ثم غاب عن بصرى فلم أره نفعنا الله تعالى به آمين .

(وحكى عن عبد الله التسترى رضى الله عنه) أنه قال غزا والدى سنة من السنين مع المجاهدين فى سبيل الله تعالى فلما كان بين الصفين وقع المهر الذى كان تحته فمات فقال والدى يارب اعرنى إياها حتى أرجع

منها

نفسه ولا كراهة قالوا وبلغ من إملاء الله تعالى له أنه كان يركب كل صعب وذلول من دوابه قال سعيد ابن جبير ملك فرعون أربعمائة سنة لا يرى مكروهاً ولو كان فى تلك المدة أدرك جوع يوم أو حمى ليلة لما ادعى الربوبية وقدم على خطب عظيم وخطر جسيم فلم يمسه سوء ولا مكروه ولا تلقاه إلا محبوب ومرغوب وكان له قصر من قصوره مشرف منيف على ألف درجة وسخر الله دابة من دوابه يركبها فيصعد ذلك القصر عليها وكان يركبها صاعداً ونازلاً مع ما أنعم الله تعالى به عليه استدراجاً منه له فلما عاين من أمر موسى ما عاين لم يزده ذلك إلا عتواً واستكباراً وعلم من قومه الرعب والخوف فخاف عليهم أن يؤمنوا بموسى ويجعلوه مكاناً فاحتال لنفسه وعزم على بناء صرح يقوى به سلطانه ويشيد أركانه فقال لوزيره يا هامان ابن لى صرحاً لعلى ابلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذباً فأمر هامان ببنيانه فجمع له العمال والفعلة ولم يترك أحداً يقدر عليه ممن يعمل البنيان إلا جمعه لبنائه حتى اجتمع خمسون ألف بناء سوى الأتباع والأجراء ممن يطبخ الآجر والجص ويتخذ الخشب والأبواب والمسامير فلم يزل يبنى الصرح ويسر الله تعالى له أمره استدراجاً له منه وآتاه الأمر على ما يريده إلى أن فرغ منه فى مسبع سنين فلما ارتفع ارتفاعاً لم يبلغه بنيان أحد من الخلق منذ خلق السموات والأرض فشق ذلك على موسى فأوحى الله تعالى إليه أن دعه وما يريد فإنى مستدرجه وآخذه بغتة وإنى مبطل كل ما عمله فى ساعة واحدة وكان ذلك الصرح إذا طلعت الشمس ضرب ظله نحو المغرب وإذا غربت ضرب ظله نحو المشرق بحيث لا يعلمه إلا الله تعالى فلما أتم بناءه بعث الله تعالى جبريل عليه السلام فضرب بجناحيه الصرح ضربة فقطعه ثلاث قطع فوقعت قطعة منه فى البحر وقطعة فى المغرب وكان تدمير فرعون من أمر الله تعالى على ذلك كله ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس فلما رأى فرعون ذلك من أمر الله تعالى علم أن حيلته لم تغن عنه شيئاً فعزم على قتال موسى وقومه فأمر أصحابه فنصبوا له الحرب ثم أن عسكر فرعون قالوا لموسى إنك لساحر وأنت عبد من عبيد فرعون أبقت منه وكفرت نعمته وتربيته ونسيت إحسانه إليك ومنته عليك حيث ألقتك أمك فى اليم قبحاً لك وبغضاً لك لما علمت ما أنت صائر إليه من سوء الحال فاستنقذك فرعون من الغرق واستدركك من الموت فآواك وكفلك ورباك واتخذك ولداً ثم فررت منه آبقاً كافراً وجئته عدواً محارباً فلسنا بممتنعين عنك حتى نردك إلى عبادته وخدمته ونذيقك الذل والهوان فلما رأى الله تعالى ذلك وقد علم أنه لا يغنى عنهم ما جاءهم به موسى لما سبق فيهم من مكر الله النافذ وحقت عليهم كلمة العذاب ابتلاهم الله بالعذاب وبالآيات .

(الباب الرابع عشر فى ذكر الآيات التى ابتلى الله بها فرعون وقومه)
(حين دنا هلاكهم إظهاراً لقدرته وإلزاماً لحجته)

قال الله تعالى (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) قال المفسرون هى العصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس وفلق البحر فقال تعالى (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات (قال قتادة) أما السنون فكانت بباديتهم ومواشيهم وأما نقص الثمرات فكان فى أمصارهم قال الله تعالى (فأرسلنا عليهم الطوفان) الآية (واختلف المفسرون) فى ذلك الطوفان ما هو (قال) ابن عباس كان أول الآيات الطوفان هو الماء أرسل عليهم من السماء وقال مقاتل هو الماء طغى فوق حروثهم فأهلكها وقال الضحاك هو الغرق وقيل مجاهد وعطاء هو الموت الذريع الجارف وروى ذلك عن رسول الله ﷺ وقال وهب هو الطاعون بلغة أهل اليمن أرسل الله الطاعون على أبكار آل فرعون فاقتضهن فى ليلة فلم يبق منهن باقية وقال أبو قلابة الطوفان الجدرى فهم أول من عذب به فبقى فى الأرض والجراد والقمل (وروى) معمر عن قتادة قال القمل أولاد الجراد وقال عبد الرحمن بن أسلم هو الراغيث وقال عطاء هو القمل دليله قراءة الحسن والقمل بفتح القاف وجزم الميم وقال أبو عبيدة هو الحمنان وهو ضرب من القردان قال أبو العالية أرسل الله الحمنان على دوابهم فأكلها حتى لم يبق

منها شيء ولم يقدروا على المسير قال أمية بن أبي الصلت الثقفي :

أرسل الذر والجراد عليهم وعذابا فأهلكتم دبورا

﴿ باب في صفة تنزيل هذه الآيات وتفصيلها وكيفيتها ﴾

قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة ومحمد بن إسحق وغيرهم من أصحاب الأخبار دخل حديث بعضهم في حديث بعض لما آمنت السحرة وصلبهم عدو الله فرعون ورجع عدو الله مغلوبا مقهورا انصرف موسى وهرون إلى عسكر بني إسرائيل فأمر فرعون قومه أن يكلفوا بني إسرائيل ما لا يطيقون فكان الرجل من القبط يجيء إلى رجل من بني إسرائيل يقول له انطلق فاكنس معي حشي واعلف دوابي واستق لي وتجيء القبطية إلى الكريمة من بني إسرائيل فتكلفها ما لا تطيق ولا يطعمونهم في كل ذلك خبزا فإذا انتصف النهار يقولون لهم اذهبوا فاكتسبوا لأنفسكم ما تأكلون فشكوا ذلك إلى موسى فقال لهم استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين قالوا يا موسى أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا كنا نطعم إذا استعملونا من قبل أن تأتينا فلما جئتنا استعملونا ولم يطعمونا فقال موسى عسى ربكم أن يهلك عدوكم يعني فرعون والقبط ويستخلفكم في الأرض يعني الشام ومصر فينظر كيف تعملون فلما أبى فرعون وقومه إلا التمادي على الكفر والإقامة على الشر والظلم دعا موسى ربه فقال يا رب إن عبدك فرعون قد طغى في الأرض وبغى وعتا وإن قومه نقضوا عهدك وخلفوا وعدك رب خذهم بعقوبة تجعلها لهم نقمة ولقومي عظة ولمن بعدهم من الأمم اعتبارا فتابع الله عليهم الآيات المفصلات بعضها في أثر بعض بأخذهم بالسنين ونقص من الثمرات ثم بعث الله عليهم الطوفان وهو الماء أرسل عليهم من السماء حتى كادوا يهلكوا وبيوت بني إسرائيل وبيوت القبط مشتبكة مختلطة بعضها في بعض فامتلأت بيوت القبط حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم من جلس منهم غرق ولم يدخل بيوت بني إسرائيل من الماء قطرة واحدة فاض الماء على وجه أراضيهم وركد فلم يقدروا أن يحرثوا ولا يعملون شيئا حتى جهدوا ودام ذلك عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت فقالوا لموسى ادع لنا ربك يكشف عنا العذاب فنؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل فدعا موسى ربه فرفع عنهم الطوفان فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل وعادوا إلى أشر ما كانوا عليه فأنبت الله تعالى لهم في تلك السنة من الكلأ والثمر ما لم ينبت قبل ذلك فأعشبت بلادهم وأخصبت فقالوا هذا ما كنا نتمنى وما كان هذا الماء إلا نعمة لنا وما ضرنا إنا لم نطر فأقاموا شهرا في عافية ثم بعث الله عليهم الجراد فأكل عامة زرعهم وثمارهم وأوراق أشجارهم وزهرها حتى أنها كانت لتأكل الأبواب والثياب والأمتعة وسقوف البيوت والخشب والمسامير من الحديد حتى تساقطت دورهم وابتلى الجراد بالجوع فجعل لا يشبع وكان لا يدخل بيوت بني إسرائيل ولا يصيبهم من ذلك شيء فجعوا وضجوا وقالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل فأعطاه عهد الله وميثاقه فسأل موسى ربه فكشف الله عنهم الجراد بعد ما قام عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت وبقال أن موسى برز إلى الفضاء وأشار إلى المشرق بالعصا فذهب الجراد من حيث جاء كأن لم يكن .

﴿ فصل في بعض ما جرى من الأخبار الغريبة في الجراد ﴾

أخبرني الحسن بن محمد بإسناده عن جابر عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه كان يدعو على الجراد يقول اللهم اقطع الجراد اللهم اقطع دابرهم اللهم اقتل كبارهم واهلك صغارهم وافسد بيضه وخذ بأفواههم عن معايشنا وارزقنا إنك سميع الدعاء (قال ابن علانة) بإسناده عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ في صدر الجراد مكتوب جند الله الأعظم وبإسناده عن جابر بن عبد الله قال عدم الجراد في سنة من سني عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فلم يخبر عنه بشيء فاغتم لذلك أرسل راكبا إلى اليمن وراكبا إلى الشام وراكبا إلى العراق يسألون هل رأوا شيئا من الجراد أم لا فأتاه الراكب الذي دخل اليمن بقبضة من الجراد فألقاه

حيا بإذن الله تعالى نفزا والدي عليه فلما رجع قال يا ولدي خذ السرج عن المهر فقلت يا والدي إنه عرقان حتى يستريح فقال يا ولدي إنه عاريا فلما أخذت السرج عنه وقع المهر في الحال ميتا وهذا من بعض كراماته رضي الله تعالى عنه .

(وحكي عن بعض الصالحين نفعنا الله تعالى بهم) أنه قال كان عندنا رجل نباش كان يسرق الأكفان من القبور فماتت امرأة من المتعبدات فصلى عليها كثير من الناس وصلى النباش معهم وخرجوا إلى قبرها والنباش معهم ليعرف قبرها فلما جن الليل أتى النباش إلى قبرها ونزل إليها فانطقها الله عز وجل وقالت سبحان الله رجل مغفور له يأخذ كفن امرأة مغفور لها فقال النباش أن الله غفر لك فكيف غفر لي فقالت إن الله غفر لي ولمن صلى علي قال فخرج النباش من عندها وتاب إلى الله تعالى وحسنت توبته ببركتها ولزم العبادة حتى مات رحمة الله تعالى عليه وعليها وعلى أموات المسلمين آمين)

وحكي عن عبد الواحد ابن زيد رضي الله تعالى عنه أنه قال بينما نحن جلوس ذات يوم في مجلسنا إذ قد نهيأنا للخروج للغزو

في يده فلما رآه كبر ثلاثاً ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول خلق الله ألف أمة منها ستمائة في البحر وأربعمائة في البر فأول شيء يهلك من هذه الأمم الجراد فإذا هلك الجراد تتابع مثل النظام إذا قطع سلكه وباسناده عن أبي أمامة الباهلي يحدث عن النبي ﷺ أنه قال أن مريم بنت عمران سألت ربها أن يطعمها لحماً لا دم له فأطعمها الجراد فقالت اللهم أعشه من غير رضاع وتابع بينه بغير شباع فقلت يا أبي المضيء ما الشباع قال الصوت وباسناده عن عبد الله بن ضمرة والسلولي قال لما أخرج الله تعالى إبليس من الجنة قال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً قال الله تعالى وأنا متخذ من خلقي جنداً هو الجراد فقال إبليس وأنا جندي النساء هن شبكتي التي لا تخطيء أبداً فأقام قوم فرعون شهراً في عافية ثم بعث الله عليهم القمل وذلك أن موسى أمر أن يمشي إلى كثيب أعفر بقرية من قرى مصر تدعى عين شمس فمشى موسى إلى ذلك الكثيب وكان مهيلاً عظيماً فضربه بعصاه فانهال عليهم القمل فتتبع ما بقي من حروثهم وأشجارهم ونباتهم فأكلها ولحس الأرض كلها وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيعضه وكان يأكل أحدهم الطعام فيمتلىء قملاً حتى أن أحدهم ليبني الاصطوانة بالجص ويزلقها حتى لا يرتقي فوقها شيء ثم يرفع فوقه الطعام فإذا صعد إليه ليأكله وجده ملىء قملاً فلما أصيبوا ببلاء كان أشد عليهم من القمل وأخذ القمل أشعارهم وأبشارهم واشفار عيونهم وحواجبهم ولزمت جلودهم كأنها الجدري عليهم ومنعتهم النوم والقرار ولم يستطيعوا لها حيلة وقال سعيد بن جبير القمل السوس الذي يخرج من الحبوب فكان الرجل يخرج عشرة أقفزة إلى الرحا فلا يرد منها ثلاثة أقفزة فلما رأوا ذلك شكوا إلى موسى وصاحوا وقالوا يا أيها الساحر أي أيها العالم إنا نتوب ولا نعود فادع لنا ربك بما عهد عندك يكشف عنا هذا العذاب فدعا موسى ربه فكشف عنهم القمل فانتشروا في أقطار الأرض واطراف البلاد بعدما أقام عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت ثم نكسوا العهد وعادوا إلى أخبث أعمالهم وقالوا ما كنا قد نحق أن نستيقن أن موسى ساحر لنا إلا اليوم فيجعل الرمل دواب فعلى ماذا نؤمن ونرسل معه بني إسرائيل فقد أهلك زرعنا وحروثنا وأذهب أموالنا فما عسى أن يفعل أكثر مما فعل وعزة فرعون لا نصدق به أبداً ولا نتابعه فدعا عليهم موسى بعدما أقاموا أشهراً في عافية وقيل أربعين يوماً فأوحى الله تعالى إليه وأمره أن يقوم على ضفة النيل فيغرز عصاه فيه ويشير بالعصا إلى أدناه وأقصاه وأعلاه وأسفله ففعل ذلك فتتابعت له الضفادع بالتقيق من كل جانب حتى أعلم بعضها بعضاً وأسمع أدناها وأقصاها ثم أنها خرجت من النيل مثل الليل الدامس سراعاً تؤم نحو باب المدينة فدخلت عليهم في بيوتهم بغتة وامتلأت منهم أفنيتهم وآنيتهم وأبنيتهم وكان أحدهم لا يكشف ثوباً ولا إناء ولا طعاماً ولا شراباً إلا وجد فيه الضفادع وكان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع ويهم أن يتكلم فتثب الضفادع في فيه وكان أحدهم ينام على فراشه وسريره فيستيقظ وقد ركبته الضفادع ذراعاً بعضها فوق بعض وتصير عليه ركاماً حتى لا يستطيع أن ينصرف إلى شقه الأيمن ولا الأيسر وكان أحدهم يفتح فاه لأكله فتسبقه الضفدعة إلى فيه وكانوا لا يجنون شيئاً من العجين إلا انشدخت فيه ولا يطبخون قدراً إلا امتلأت منه وكانت تثب في نيرانهم فتطفئها وفي طعامهم فتفسده فلقوا منها أذى شديداً (روى) عكرمة عن ابن عباس قال كانت الضفادع برية فلما أرسلها الله تعالى على فرعون سمعت وأطاعت فجعلت تقذف أنفسها في القدر وهي تفور في التنانير وهي مسجورة فأتاها الله تعالى بحسن طاعتها برد الماء قال فضجوا إلى فرعون من ذلك وضاق عليهم أمرهم حتى كادوا يهلكون وصارت المدينة وطرقها مملوءة جيفاً من كثرة ما يطؤنها بأقدامهم وأروحت القاع كلها منها فلما رأوا ذلك بكوا وشكوا إلى موسى وقالوا اكشف عنا ذلك البلاء فإنا نتوب هذه المرة لا نعود فأخذ على هذا عهودهم ومواثيقهم ثم أن موسى دعا ربه فكشف عنهم الضفادع وذلك فيما روى أن موسى أمر أن يهتف بعصاه ويميلها ففعل ذلك فانقمع ما كان منها حياً

في سبيل الله تعالى وقد أمرت أصحابي أن يتهيئوا فقرأ رجل منهم في مجلسنا إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة فقلت نعم فقال غلام يا عبد الواحد أشهد إني بعته نفسي ومالي بأن لي الجنة فقلت له يا غلام إن حد السيف أشد من ذلك وأنت صغير السن يخاف عليك أن لا تصبر وتعجز عن ذلك فقال الغلام يا عبد الواحد أبايع الله تعالى بالجنة ثم أعجز أشهد الله أني بعته نفسي ومالي في سبيله قال عبد الواحد فتعجبنا من ذلك وقلنا صبي يعقل ونحن لا نعقل نخرج من عندنا وتصدق بجميع ماله في سبيل الله إلا فرسه وسلاحه ونفقته فلما كان يوم الخروج كان أول من طلع علينا هو فقال السلام عليك يا عبد الواحد فقلت وعليك السلام يا حبيبي ربح البيع ثم سرنا وهو معنا يصوم النهار ويقوم الليل ويخدمنا ويخدم دوابنا ويحرسنا إذا نمنا حتى انتهينا إلى بلاد الروم فبينما نحن جلوس إذ به قد أقبل وهو ينادي واشوقاه إلى العيناء المرضية فقال أصحابي لعل هذا الغلام وسوس واختلط عقله قال عبد الواحد فقلت يا حبيبي وما هذه العيناء المرضية فقال الغلام يا سيدي إني غفوت قليلاً فرأيت في منامي كأني قد أتاني آت فقال إذهب إلى

فلحق بالنيل وأرسل الله على الميتة ريحاً فنحتها عن مدينتهم بعد ما أقامت عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت فأقاموا شهراً فى عافية وقيل أربعين يوماً ثم نقضوا العهد وعادوا إلى كفرهم وتكذيبهم فدعا عليهم موسى فأرسل الله عليهم الدم وذلك أن الله تعالى أمر موسى أن يذهب إلى شاطىء البحر فيضربه بعصاه ففعل ذلك فسال النيل عليهم دما وصارت مياههم كلها دماً وما يسقون من الأنهار والآبار إلا وجدوه دماً أحمر عبيطاً فشكوا ذلك إلى فرعون وقالوا انا قد ابتلينا بهذا الدم وليس لنا شراب غيره فقال لهم أنه قد سحركم موسى فكان يجتمع الرجلان على الإناء الواحد القبطى والإسرائيلى فيكون مايلى الإسرائيلى ماء ومايلى القبطى دماً عبيطاً حتى أن المرأة من آل فرعون تأتى إلى المرأة من بنى إسرائيل حين يجهدها العطش فتقول اسقينى من مائك فتسكب لها من جرتها أو تصب لها من قربتها فتعود فى الإناء دماً حتى أنها تقول لها اجعليه فى فيك ثم مجيه فى فمى فتأخذ فى فيها ماء فإذا مجته صار دماً قالوا والنيل على ذلك يسقى الزرع والشجر فإذا ذهبوا ليستقوا من بين الزرع عاد الماء دماً عبيطاً وإن فرعون اعتراه العطش فى تلك الأيام حتى إنه اضطر إلى مضغ الأشجار الرطبة فإذا مصفها صار ماؤها ملحاً أجاجاً ومراً زعافاً فمكثوا فى ذلك سبعة أيام لا يأكلون ولا يشربون إلا الدم (وقال زيد بن أسلم) كان الدم الذى سلط عليهم الرعاف فلما ضجوا من ذلك قالوا لموسى عليه السلام ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن بك ونرسل معك بنى إسرائيل فدعا موسى ربه فكشف عنهم ذلك وذلك أن موسى أمر أن يضرب النيل بعصاه ضربة أخرى فضربه فتحول صافياً كما كان فلم يؤمنوا ولم يفوا بما عاهدوه عليه وذلك قوله تعالى (فأرسلنا عليهم الطوفان) الآية قال نوف البكالى ابن امرأة كعب الأحبار مكث موسى فى آل فرعون عشرين سنة بعد ما غلب السحرة بريهم الآيات الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم قالوا وكان لفرعون وأصحابه من أثاث الدنيا وزهرتها وزينتها من الذهب والفضة واليواقيت وأنواع الحلى والجواهر مالا يحصيه إلا الله تعالى وكان أصل ذلك المال مما جمعه يوسف عليه السلام فى زمانه أيام القحط فبقى ذلك فى يد القبط فأوحى الله إلى موسى عليه السلام إنى مورث بنى إسرائيل ما فى أيدى آل فرعون من العروض والحلى وجاعله لهم جهازاً وأعياداً إلى الأرض المقدسة فاجعل لذلك عيداً تعتكف عليه أنت وقومك تشكرونى وتعظمونى ذلك اليوم وتعبدونى فيه لما أريكم من الظفر ونجاة الأولياء وهلاك الأعداء واستعيروا لعيدكم من آل فرعون الحلى وأنواع الزينة فإنهم لا يمنعون عنكم للبلا الحال بهم فى ذلك الوقت ولما قذفت فى قلوبهم الرعب ففعل موسى ذلك ما أمره الله تعالى فأمر فرعون بزينة أهله وولده وما كان فى خزائنه من أنواع الحلى فأعيرت لبنى إسرائيل لما أراد الله بذلك أن يفيء على موسى وقومه أفضل أموال أعدائهم بغير قتال ولا إيجاف خيل ولا رجل لطفاً منه بهم وإفضالاً عليهم فلما دعا موسى عليهم مسخ الله الأموال التى بقيت فى أيديهم حجارة كلها حتى المنخل والدقيق (قال) محمد بن كعب القرظى سألنى عمر بن عبد العزيز عن التسع آيات التى أراها الله فرعون وقومه فقلت الطوفان والجراد والقمل والضفادع والعصا واليد البيضاء والطمس وفلق البحر فقال عمر لا يكون الفقه إلا هكذا ثم أنه دعا بخريطة فيها أشياء مما كان أصيب لعبد العزيز بن مروان إذ كان فيها بقايا أموال فرعون فأخرج البيضة مشقوقة نصفين وأنها الحجر والحوزة مشقوقة وإنها الحجر والحمصة والعدسة وقال ابن جريج أرسل فرعون فى أثر موسى وقومه ألف ألف وخمسمائة ألف مالك مسود مع كل ملك ألف رجل ثم خرج فرعون خلفهم فى الدهم وكان فى عسكر فرعون مائة ألف حصان دهم سوى سائر الألوان وذلك حين طلعت الشمس وأشرقت كما قال الله تعالى فاتبعوهم مشرقين فلما تراءى الجمعان ورأت بنو إسرائيل غبار عسكر فرعون قالوا يا موسى اين ما وعدتنا من النصر والظفر هذا

على شاطىء ذلك النهر جواهر عليهن من الحلى والحلل مالا أقدر أن أصفه فلما رأينى استبشرن بى وقلن هذا زوج العيناء المرضية فقلت السلام عليكن أفيكن العيناء المرضية فقلن نحن خدمها وإماؤها امض أمامك فضيت أمامى فإذا بنهر من لبن لم يتغير طعمه فى روضة فيها من كل زينة وجوار حسان رأيتهن فتنت بحسنهن وجمالهن فلما رأينى استبشرن وقلن هذا زوج العيناء المرضية فقلت السلام عليكن أفيكن العيناء المرضية فقلن وعليك السلام يا ولى الله نحن خدمها وإماؤها امض أمامك فضيت أمامى فوصلت إلى خيمة من درة بيضاء وعلى باب تلك الخيمة جارية عليها من الحلى والحلل ما لا أقدر أن أصفه فلما رأتنى استبشرت بى ونادت من فى الخيمة أيتها العيناء المرضية هذا بعلك قد قدم فدنوت من تلك الخيمة ودخلت إليها فإذا هى قاعدة على سرير من ذهب احمر مكلل بالدر والياقوت والجوهر فلما رأيتها افتتنت بها فقالت مرحباً بك يا ولى الله قد دنا لك القدوم علينا قال فقدمت لأعانقها فقالت مهلا فانه لم يؤذن لك أن تعانقنى لأن فيك روح الحياة ولكن أنت تفطر الليلة

عندنا إن شاء الله تعالى فانتبهت من منامي وليس لي صبر يا عبد الواحد عنها قال عبد الواحد فما فرغ من كلامه حتى أقبلت علينا سرية من العدو فحمل الغلام فيهم فعددنا تسعة رجال قتلهم وهو العاشر فجئت إليه وهو يتشحط في دمه وهو يضحك حتى فارق الدنيا رحمة الله تعالى عليه قال عبد الواحد فحزنت عليه وأنشدت :

يا من يعانق دنيا لا بقاء لها
يمسي ويصبح مغروراً وغراراً
هلا تركت الذي الدنيا معانقة
حتى تعانق في الفردوس أبكاراً
إن كنت تبغي جنان الخلد تسكنها
فينبغي لك أن لا تؤمن النارا

(وحكى عبد الواحد رضي الله تعالى عنه) أنه قال أصابتني علة في ساقي سنة من السنين فكنت أتحامل عليها للصلاة فقمت عليها من الليل فأجهدني وجعي منها فجلست ثم لففت إزاري في محرابي ووضعت رأسي عليه ونمت فبينما أنا نائم إذا أنا بجارية تفوق الدنيا حسناً وهي تخطر بين جوار مزينات حتى وقفت على رأسي والجواري من خلفها ثم قالت لبعضهن ارفعنه ولا ترفظنه فأتيني نحوي

البحر قدامنا إن دخلنا غرقنا وفرعون خلفنا إن أدركنا قتلنا ولقد أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا فقال موسى لقومه يا قوم استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين وقال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون

(فصل) لما سار موسى ببني إسرائيل من مصر وأرادوا أن يسيروا ضرب الله عليهم التيه فلم يدروا أين يذهبون فدعا موسى عليه السلام مشايخ بني إسرائيل فسألهم عن ذلك فقالوا له إن يوسف عليه السلام لما مات بمصر أخذ على إخوته عهداً أن لا يخرجوا من مصر حتى يخرجوه معهم فيضعوه في الأرض المقدسة فلذلك نالنا هذا الأمر فسألهم عن موضع قبره فلم يعلموه فقام موسى ينادي أنشد الله كل من يعلم موضع قبر يوسف إلا أخبرني ومن لا يعلم صمت أذناه عن قولي فكان يمر بين رجلين ينادي فلا يسمعان قوله حتى سمعته عجوز منهم فقالت له أرأيتك إن دللتك عليه أتعطيني ما سألتك فأبى عليها وقال حتى أستأذن ربي فأمره ربه أن يعطيها سناها فأعطاها ذلك فقالت له إني أريد أن لا تنزل غرفة من الجنة إلا نزلتها معك قال نعم قالت عجوز كبير لا أستطيع أن أمشي فاحملني فحملها فلما دنت من النيل قالت له إنه في جوف هذا الماء فادع الله أن يحسر عنه الماء فدعا الله فحسره عنه فقالت له احفر هنا ففعل فاستخرجه وهو في صندوق مرمر فحمله معه ودفنه في الأرض المقدسة (أخبرني) الحسن بن محمد باسناده عن ابن أبي موسى الأشعري عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال نزل رسول ﷺ باعرابي فأكرمه فقال له عليه السلام تعاهدنا فأتاه الأعرابي فقال له ﷺ ما حاجتك قال له الأعرابي ناقة يا رسول الله نرحلها واعنز نحلبها أهلي فقال رسول الله ﷺ ثانية ما حاجتك فقال مالي حاجة غيرها فقال ﷺ إن عجوز بني إسرائيل كانت أحسن مسألة من هذا وذكر الحديث الذي في قصة يوسف قال فلما انتهى موسى إلى البحر هاجت الريح وعادت ترمي بموج كالجبال فقال له يوشع بن نون يا كليم الله أين أمرت فقد غشينا فرعون والبحر أمامنا فقال موسى ههنا فخاض يوشع بن نون الماء فجاز البحر ولم يوار حافر دابته الماء وقال الذي يكتم إيمانه وهو حزقيل مؤمن آل فرعون يا كليم الله أين أمرت قال ههنا فكبح فرسه بلجامه حتى طار الزبد من شدقه ثم اقتحم البحر فارتسب الماء فذهب القوم ليصنعوا مثل ذلك فلم يقدروا فجعل موسى لا يدري كيف يصنع فأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك البحر وكان الماء في ذلك الوقت في غاية الزيادة فضرب موسى البحر بعصاه فلم يطعه فأوحى الله إليه أن كنه فضربه ثانيا وقال انفلق يا أبا خالد باذن الله تعالى فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم فلما انفلق البحر فاذا بالرجل الذي أقحم فرسه واقف على فرسه لم يبتل سرجه ولا لبده وظهر في البحر إثنا عشر طريقا لاثنا عشر سبط لكل سبط طريق وأرسل الله تعالى الريح والشمس على قعر البحر حتى صار يبساً كما قال الله تعالى (فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركا ولا تخشى) قال سعيد بن جبير أرسل معاوية إلى ابن عباس يسأله عن مكان لم تطلع فيه الشمس إلا مرة واحدة وأرسل إليه أنه المكان الذي انفلق عند البحر لبني إسرائيل (وروى الأعمش) عن شقيق عن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ ألا أعلمكم الكلمات التي تكلم بها موسى حين جاوز البحر ببني إسرائيل فقلنا بلى يا رسول الله قال قولوا اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم قال عبد الله فما تركتهم منذ سمعتهم من رسول الله ﷺ قال فخاض بنو إسرائيل البحر كل سبط في طريق وعلى جانبه الماء كالجبل العظيم لا يرى بعضهم بعضا فخافوا وقال كل سبط قد قتل إخواننا فأوحى الله إلى الماء أن تشبكي فصار الماء شبكات كهيئات الطاقات فنظر بعضهم بعضا فأخذوا يجوزون البحر وهم يرون بعضهم بعضا حتى عبروا البحر سالمين فذلك قوله تعالى (وإذ فرقنا بكم البحر) أي فلقنا وميزنا لكم الماء يمينا وشمالا (فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون

وأنتم تنظرون) وذلك أنه لما خرجت مساقة عسكر موسى من البحر وصلت مقدمة عسكر فرعون فأراد موسى أن يدعو البحر ليرجع إلى حالته الأولى فأوحى الله إليه أن اترك البحر وهو أى ساكناً على حاله إنهم جند مغرقون فلما وصل جند فرعون إلى البحر رأوه مغلقاً فقال فرعون انظروا إلى البحر كيف انفلق لهيبتى حتى أدرك أعدائى وعبيدى الذين أبقوا منى فادخلوا البحر فهاب قومه أن يدخلوه ولم يكن فى خيل فرعون أنثى وإنما كانت ذكوراً كلها فجاء جبريل عليه السلام على فرس له أنثى وديق مشتهية الفحل وعليه عمامة سوداء فتقدمهم وخاض البحر فظن أصحاب فرعون أن الفارس منهم فلما شمت الخيول ريحها اقتحمت البحر فى أثرها حتى خاضوا كلهم وجاء ميكائيل على فرس خلف القوم يستحثهم ويقول لهم الحقوا بأصحابكم فلما أراد فرعون أن يسلك طريق موسى نهاه وزيره هامان وقال له إنى قد أتيت إلى هذا الموضع مراراً ومالى عهد بهذا الطريق وإنى أخاف ولا آمن أن يكون مكراً من الرجل يكون فيه هلاكنا وهلاك أصحابنا فلم يطعه فرعون وذهب معاجلا على حصانه ليدخل البحر فامتنع الحصان فجاء جبريل على رمكة بيضاء فصهلت فحمحم إليها حصان فرعون فخاض جبريل البحر فتبعها حصان فرعون فأقحمه البحر فلما توفوا فى البحر وهم أولهم أن يخرج من البحر أمر الله تعالى البحر أن يأخذهم فالتطم عليهم فأغرقهم أجمعين وذلك بمرأى من بنى إسرائيل فذلك قوله تعالى (وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون) وفى الحديث أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ ما بغضت أحداً من الخلق مثل ما بغضت رجلين أما أحدهما فمن الجن وهو إبليس عليه لعنة الله حين أبى أن يسجد لآدم والآخر من الإنس وهو فرعون حين قال أنا ربكم الأعلى ولو رأيتنى يا محمد وأنا آخذ من حمأ البحر وأدسه فى فيه مخافة أن يقول كلمة التوحيد فيرحمه الله بها قالوا فلما سمعت بنو إسرائيل صوت التطام البحر قالوا لموسى ما هذه الضوضاء فقال لهم أن الله قد أهلك فرعون وكل من كان معه غرقاً فقالوا لموسى إن فرعون لا يموت ألم تر أنه كان يلبث كذا وكذا يوماً لا يحتاج إلى شىء مما يحتاج إليه الناس فأمر الله تعالى البحر فألقاه على فجوة من الأرض وعليه درعه حتى نظر إليه بنو إسرائيل فذلك قوله تعالى فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية فيقال إنه لو لم يخرجه الله ببدنه لشك فيه بعض الناس فلما جاوز موسى ببنى إسرائيل البحر أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون (أخبرنى) الحسن بن محمد بن قيس قال جاء يهودى إلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه فقال يا أبا الحسن ما صبرتم بعد نبيكم خمساً وعشرين سنة حتى قتل بعضكم بعضاً فقال بلى فكان صبر وخير ولكنكم ما جفت أقدامكم من حمأ البحر حتى قلتم يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة فلما أغرق الله فرعون ومن معه ونجى موسى ومن معه بعث موسى جندين عظيمين من بنى إسرائيل كل جند إثنا عشر ألفاً إلى مدائن فرعون وهى يومئذ خالية من أهلها قد أهلك الله عظماءهم ورؤساءهم وقادتهم ومقاتلهم فلم يبق منهم إلا النساء والصبيان والمرضى والهرمى فأمر على الجند يوشع بن نون وكالب بن يوقنا فدخلوا بلاد فرعون وغنموا ما كان فيها من أموالهم وكنوزهم فحملوا من ذلك ما استقلت به الحمول منها وما لا يطيقوا حمله باعوه من قوم آخرين فذلك قوله تعالى (كم تركوا من جنات وعيون) إلى قوله تعالى فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين إلى آخر القصة ثم أن يوشع بن نون استخلف على قوم فرعون رجلا منهم وعاد إلى موسى بمن معه من المسلمين غانمين شاكرين.

عبد الواحد ففرشن تحتى سبع فرش لم أر لهن فى الدنيا مثلا ووضعن تحتى مرافق خضراً حساناً ثم قالت للتى حملتنى أجعلنه على الفراش رويداً قال فحملت على الفراش وصرت أنظر إليهن متعجباً مما تأمر به من شأنى ثم قالت أين العلة فأشرت إليها فوضعت يدها عليها وقالت قم شفاك الله إلى صلاتك غير مضرور فاستيقظت من منامى كأنى والله قد نشطت من عقال فما شكوت بعد ذلك اليوم بهذه العلة أبداً ولا ذهبت عن قلبى حلاوة منطقها وحسن قولها قم إلى صلاتك غير مضرور وهذا من فضله عفا الله تعالى عنهم ونفعنا ببركاتهم.

(وحكى عنه أيضاً رضى الله تعالى عنه) أنه قال سألت الله تعالى ليلة من الليالى أن يرينى رفيقى فى الجنة فقيل لى يا عبد الواحد رفيقك فى الجنة ميمونة السوداء فقلت وأين هى فقيل لى فى بنى فلان بالكوفة فخرجت إلى زيارتها فلما وصلت الكوفة سألت عنها فقيل لى إنها امرأة عجوز مجنونة ترعى غنمات فقلت أريد أن أراها فقالوا أخرج إلى البساتين فإنك تراها فخرجت فإذا هى قائمة تصلى

وبين يديها عكازة وعليها جبة من صوف مكتوب عليها لا تباع ولا تشترى ورأيت الغنيمات مع الذئاب ترعى الذئاب تأكل الغنم ولا الغنم تخاف من الذئاب فلما رأتنى أوجزت فى صلاتها ثم قالت ارجع يا ابن زيد ليس الموعد هنا فقلت لها يرحمك الله فمن أعلمك باسمى فقالت يا عبد الواحد أما علمت أن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تنكر منها اختلف فقلت لها عظينى فقالت واعجباً لواعظ يوعظ ثم قالت ما من عبد أعطى شيئاً فابتغى إليه ثانيا إلا سلبه الله حب الخلوة معه وبدله بعد القرب وحشة ثم أنشدت تقول :

يا واعظ قم لاحتساب يزجر قوماً عن الذنوب
تنهى وأنت السقيم حقا هذا من المنكر العجيب
لو كنت أصلحت قبل هذا عيبك أو تبت من قريب
تنبى عن الغنى والتهادى وأنت فى الغى كالمريب

قال عبد الواحد فدهشت عند سماع ذلك وقلت لها يا ميمونة إنى أرى هذه الأغنام مع الذئاب ترعى فلا الغنم تخاف من الذئاب ولا الذئاب تأكل الغنم فقالت إليك عنى يا بطال فانى أصلحت ما بينى وبين سيدى فأصلح ما بين الذئاب وغنمى قال فمضيت من عندها وقلت من أطاع الله أطاعه كل شىء

﴿ الباب السادس عشر فى قصة ذهاب موسى إلى الجبل لميقات ربه ﴾

وصفة إيتاء الله تعالى له الألواح وإنزاله التوراة وما يتعلق بذلك

قال الله تعالى (وأوعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر) وقال فى موضع آخر (وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة) قال العلماء بقصص النبيين وسير الماضين أن موسى كان وعد بنى إسرائيل وهو بمصر إذا خرجوا منها وملك عدوهم أن يأتيهم كتاب فيه ما يأتون وما يذرون فلما أهلك الله تعالى فرعون وقومه واستنقذ بنى إسرائيل من أيديهم وأمنهم من عدوهم ويكن لهم كتاب ولا شريعة ينتهون إليها قالوا يا موسى ائتنا بالكتاب الذى وعدتنا به فسأل موسى ربه ذلك فأمره الله أن يصوم ثلاثين يوما ثم يتطهر ويطهر ثيابه و أتى طور سيناء ليكلمه ويعطيه ذلك الكتاب فصام موسى ثلاثين يوماً فلما صعد الجبل أنكر خلوف فيه فتسوك بعود خرنوب (وقال أبو العالية) أخذ من لحاء الشجر فمصه فقالت له الملائكة إنا كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدتها بالسواك فأوحى الله إليه أن صم عشرة أيام أخر وقال له أما علمت خلوف فم الصائم أطيب عندى من رائحة المسك وكانت فتنتهم فى العشرة أيام التى زادها الله تعالى على موسى فذلك قوله وأوعدنا موسى ثلاثين ليلة ذا القعدة وأتممناها بعشر يعنى من ذى الحجة (أخبرنى) الحسن بن محمد باسناده عن أبى هريرة أن جميع الشهور تنقص ما خلا ذا القعدة لقوله تعالى (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر) أى من ذى الحجة فتم ميقات ربه أربعين ليلة فلما مضت أربعون ليلة تطهر موسى وطهر ثيابه لميقات ربه فلما أتى طور سيناء كلمه ربه وناجاه وقربه وأدناه كما قال تعالى وقربناه نجيا (قال وهب) كان بين الله وبين موسى سبعون حجاباً فرفعها الله كلها إلا حجاباً واحداً فتخل موسى لكلام الله واشتاق إلى رؤيته وطمع فيها فقال رب أرنى أنظر إليك (قال السدى) لما كلم الله موسى غاص الخبيث إبليس فى الأرض حتى خرج من بين قدمى موسى فوسوس فى قلبه فقال إن مكلمك الشيطان فعند ذلك سأل الرؤية فقال الله تعالى لن ترانى وليس يطيق البشر النظر فى الدنيا من نظر إلى مات فقال إلهى سمعت كلامك فاشتقت إلى النظر إليك ولأن أنظر إليك ثم أموت أحب إلى من أن أعيش ولا أراك فقال له أنظر إلى الجبل وهو أعظم جبل فى مدين يقال له زبير وذلك أن الجبال لما علمت أن الله يريد أن يتجلى لجبل منها تعاظمت وتشامخت رجاء أن يتجلى الله لها وجعل زبير يتواضع من بينها فلما رأى الله تواضعه رفعه من بينهن وخصه بالتجلى قال الله تعالى (فان استقر مكانه فسوف ترانى) فتجلى الله للجبل (واختلف العلماء) فى معرفة التجلى قال ابن عباس ظهر نوره للجبل وقال الضحاك أظهر الله تعالى من نور الحجب مثل منخر الثور وقال عبد الله بن سلام وكعب ما تجلى من عظمة الله تعالى للجبل إلا كسم الخياط حتى صار دكا دكا وقال السدى ما تجلى إلا قدر الخنصر يدل عليه ما روى ثابت عن أنس عن النبى ﷺ أنه قرأ هذه الآية فقال هكذا ووضع الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر فساخ الجبل يعنى غار وقال الحسن أوحى الله تعالى إلى الجبل وقال هل تطيق رؤيتى فغار الجبل وساخ فى الأرض وموسى ينظر إليه حتى ذهب أجمع وقال أبو بكر بن عمر الوراق حكى لى عن سهل بن سعد الساعدى أن الله تعالى اظهر من بين سبعين الف حجاب نوراً قدر درهم فجعل الجبل دكا قال ابو بكر فعذب إذ ذاك كل ماء وأفاق كل مجنون وبرىء كل مريض وزال الشوك عن الأشجار واخضرت الأرض وازهرت وخمدت نار المجوس وخرت الأصنام لوجوهها وقال السدى ما تجلى للجبل إلا قدر جناح بعوضة فصار الجبل دكا وقال ابن عباس تراباً وقال سفيان ساخ حتى وقع فى البحر قال عطية العوفى صار رملا هائلا وقال الكلبى جعله دكا أى مكسراً جبالا صغاراً وبالإسناد عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ فى قوله تعالى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا صار بعظمته ستة أجبل فوقعت ثلاثة فى المدينة

أحدوروقان ورضوى ووقعت ثلاثة بمكة ثوروثبيروحراء وخرموسى صعقاً قال ابن عباس مغشياً عليه وقال قتادة ميتاً وقال الكلبي خرموسى صعقاً يوم الخميس يوم عرفة وأعطى التوراة يوم الجمعة يوم النحر قال الواقدي لما خرموسى صعقاً قالت الملائكة ما لابن عمران وسؤاله الرؤية (أخبرني) الحسن باسناده عن عروة بن ديلم اللخمي قال كانت الجبال قبل أن يتجلى الله لموسى صماء ملساء فلما تجلى الله للجبل صار الطور دكا وتفطرت الجبال وصار فيها كهوف وسقوف قالوا ثم بعث الله تعالى جبريل عليه السلام إلى جنة عدن فقطع منها شجرة فاتخذ منها تسعة ألواح طوال كل لوح منها عشرة أذرع بذراع موسى وكذلك عرضه وكانت الشجرة التي اتخذ منها الألواح من زمرد أخضر ثم أمر جبريل أن يأتيه بتسعة أغصان من سدرة المنتهى فجاء بها فصارت جميعاً نوراً وصار النور قلما أطول مما بين السماء والأرض وكتب التوراة لموسى بيده وموسى يسمع صرير القلم فكتب الله له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا وذلك يوم الجمعة وأشرقت الأرض بالنور ثم أمر الله موسى أن يأخذها بقوة ويقرئها قومه فوضعت الألواح على السماء فلم تطق حملها لثقل العهود والمواثيق التي فيها فقالت يارب كيف أطيق أن أحمل كتابك الثقيل المبارك وهل خلقت خلقاً يطيق حمل ذلك فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام وأمره أن يحمل الألواح فيبلغها موسى فلم يطق حملها فقال يارب من يطيق حمل هذه الألواح بما فيها من النور والبيان والعهود وهل خلقت خلقاً يطيق حملها فأمده الله بملائكة يحملونها بعدد كل حرف من التوراة فحملوها حتى بلغوها موسى وعرضوا له الألواح على الجبل فانصدع لها الجبل وخشع وقال يارب من يطيق حمل هذه الألواح بما فيها وضرب الله مثلا في القرآن فقال الله تعالى (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) كما أنزل التوراة على الجبل فلم يطق حملها قال فلما وضعوها على الجبل بين يدي موسى وذلك عند صلاة العصر فقبض موسى على الألواح فلم يطق حملها فلم يزل يدعو حتى هون الله عليه حملها فحملها فذلك قوله (يا موسى إني اصطفيتك) الآية وقوله تعالى (وكتبنا له في الألواح) الآية.

﴿ فصل في نسخة العشر الكلمات التي كتبها الله تعالى لموسى نبيه وصفيه ﴾
في الألواح وهي معظم التوراة وعليها مدار كل شريعة

وهي بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من الله الملك الجبار العزيز القهار لعبده ورسوله موسى بن عمران أن سبحني وقدسني لا إله إلا أنا فاعبدني ولا تشرك بي شيئاً واشكرلي ولوالديك إلى المصير أحيك حياة طيبة ولا تقتل النفس التي حرم الله عليك فأضيق عليك السماء بأقطارها والأرض برحبها ولا تحلف باسمي كاذباً فإني لا أطهر ولا أزكي من لا يعظم باسمي ولا تشهد بما لا يعني سمعك ولا تنظره عينك ولا يقف عليك قلبك فإني أوقف أهل الشهادات على شهاداتهم يوم القيامة وأسألهم عنها ولا تحسد الناس على ما آتيتهم من فضلي ورزقي فإن الحاسد عدو نعمتي ساخط لقسمتي ولا تزن ولا تسرق فأحجب عنك وجهي وأغلق دون دعوتك أبواب السموات ولا تذبح لغيري فإنه لا يصعد إلى من قربان أهل الأرض إلا ما ذكر عليها إسمي ولا تفجرن بحليلة جارك فإنه أكبر مقتاً عندي وأحبب للناس ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك فهذه نسخة العشر الكلمات وقد أعطاها الله جميعاً لمحمد ﷺ في ثماني عشر آية وهي قوله تعالى في سورة بني إسرائيل (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) إلى قوله تعالى (ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة) ثم جمعها في ثلاث آيات من سورة الأنعام وهي قوله تعالى (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) إلى قوله تعالى (ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) (أخبرنا) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن نصير المكي قال أخبرنا أبو العباس محمد بن إسحق السراج قال حدثنا قتيبة بن سعيد قال حدثنا سعيد بن عبد الرحمن المعافري عن أبيه ان كعب الأحبار رأى حبراً من اليهود يبكي فقال له ما يبكيك فقال ذكرت بعض الأمر فقال كعب الأحبار أنشدت الله لئن أخبرتك بما أبكاك لتصدقني قال نعم قال

فلعصنا الله تعالى بها وغفر لنا ببركاتهم وأسرارهم ومددهم آمين.

(وحكي عنه أيضاً رضي الله تعالى عنه) أنه قال اشتريت غلاماً للخدمة فلما كان الليل طلبته فلم أجده ورأيت الأبواب مغلقة على حالها فلما أصبحت إذا به قد أعطاني درهماً مكتوباً عليه سورة الإخلاص بقلم القدرة الربانية فقلت له يا غلام من أين لك هذا فقال يا سيدي لك عندي في كل يوم مثل هذا بشرط إنك لا تطلبني في الليل فقلت له نعم فكان يغيب كل ليلة ويأتي بعد صلاة الصبح بذلك الدرهم المكتوب قال فمكثت على ذلك مدة من الزمان فبينما أنا جالس ببيتي إذ جاءني بعض أصحابي وقال يا ابن زيد أما غلامك هذا فإنه نباش القبور قال فغمني ما سمعته منهم وقلت لهم امسكوا فإني أحفظه في هذه الليلة فلما صلينا العشاء قام ليخرج والأبواب مغلقة فأشار بيده فانفتح له كل باب أشار إليه وأنا أنظر إليه فتبعته ومضيت خلفه حتى بلغ أرضاً فلاة فنزع ثيابه ولبس مسحاً وصلى إلى الفجر فلما فرغ من صلاته رفع رأسه نحو السماء وقال يا سيدي الكبير هات أجرة سيدي الصغير فوقع عليه من السماء درهم فأخذه فتحيرت في أمره ودهشت من حاله فقمت وتوضأت وصليت

واستغفرت الله تعالى مما
كلمانى ونويت عتقه ثم طلبته
فلم أجده فانصرفت حزينا
متحيرا وما كنت أعرف
بتلك الأرض فبينما أنا متحير
إذا بفارس قد أقبل على فرس
أشهب فقال يا عبد الواحد
ما سبب جلوسك ههنا
فأخبرته بقصتى فقال لا تعترض
أتدرى كم بينك وبين بلدك
فقلت الله أعلم فقال مسيرة
سنتين للفارس المجد المسرع
فدهشت من ذلك فقال لا تبرح
من هذا المكان حتى يأتيك
غلامك قال عبد الواحد
فمكثت يومى إلى أن جن
الليل فما أفقت إلا وقد أقبل
ومعه سفرة عليها من كل
الطعام فقال لى ياسيدى كل
ولا تعد لمثلها فأكلنا فلما
فرغنا قال سيدى الكبير هات
أجرة سيدى الصغير وإذا
بدرهمين سقطا فى حجره
فأعطانيهما ثم قام فصلى إلى
الفجر ثم أخذ بيدى وخطا
بى خطوات يسيرة فإذا بى
على باب دارى فقال ياسيدى
أنت نويت عتقى فقلت نعم
أنت حر لوجه الله تعالى قال
وكان خلف باب الدار حجر
عظيم كنا نغلق به الباب فقال
ياسيدى خذ هذا ثمنى وأنت
مأجور إن شاء الله تعالى
وإذا بالحجر صار ذهبا
فدهشت من ذلك وأسرعت
نحو أصحابى لأقص عليهم
ما رأيت فطرق الغلام الباب
فخرجت إليه إبنتى الصغيرة
فقالت يا عبد السوء أين

أنشدك الله هل تجد فى كتاب الله المنزل على موسى عليه الصلاة والسلام أن موسى نظر فى التوراة فقال إنى أجد أمة هم خير الأمم أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالكتاب الأول والآخر ويقاتلون أهل الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الدجال فقال موسى رب اجعلهم أمتى قال هم أمة محمد يا موسى قال له الحبر نعم قال كعب أنشدك الله تعالى هل تجد فى كتاب الله المنزل على موسى أن موسى نظر فى التوراة فقال إنى أجد أمة هم الحامدون رعاة الشمس هم المحكمون إذا رأوا أمرا قالوا نفعله إن شاء الله تعالى فقال موسى فاجعلهم أمتى فقال هم أمة محمد يا موسى قال له الحبر نعم قال كعب أنشدك الله هل تجد فى كتاب الله المنزل أن موسى نظر فى التوراة فقال يارب إنى أجد أمة يأكلون كفاراتهم وصدقاتهم وكان الأولون يحرقون صدقاتهم بالنار غير أن موسى كان يجمع صدقات بنى إسرائيل فلا يجد عبدا مملوكا ولا أمة إلا اشتراه من تلك الصدقة وما فضل يحفر له حفرة عميقة القعر وألقاه فيها ثم دفنه كى لا يرجعوا فيه وهم المسبحون المستجيبون المستجاب لهم الشافعون والمشفعون قال موسى يارب اجعلهم أمتى قال هم أمة محمد يا موسى قال الحبر نعم قال كعب أنشدك الله هل تجد فى كتاب الله المنزل أن موسى نظر فى التوراة فقال إنى أجد أمة إذا أشرف أحدهم على شرف كبر الله تعالى وإذا هبط إلى واد حمد الله تعالى الصعيد لهم طهور والأرض لهم مسجدا حيثما كانوا يتطهرون من الجنابة طهورهم بالصعيد كطهورهم حيث لا يجدون الماء غرا محجلين من آثار الوضوء فاجعلهم أمتى قال هم أمة محمد يا موسى قال الحبر نعم قال كعب أنشدك الله هل تجد فى التوراة موسى نظر فيها فقال يارب إنى أجد أمة إذا هم أحدهم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة وإن عملها كتبت له عشرا إلى سبعمائة ضعف وإذا هم بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه وإذا عملها كتبت عليه سيئة مثلها فاجعلها يارب أمتى قال هم أمة محمد يا موسى قال الحبر نعم قال كعب أنشدك الله هل تجد فى كتاب الله المنزل أن موسى نظر فى التوراة فقال يارب إنى أجد أمة محمد مرحومة أصفياء يرثون الكتاب فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فلا أجد أحدا منهم إلا مرحوما فاجعلهم أمتى قال هم أمة محمد يا موسى فقال الحبر نعم قال كعب أنشدك الله هل تجد فى كتاب الله المنزل أن موسى نظر فى التوراة فقال يارب إنى أجد أمة مصاحفهم فى صدورهم يلبسون ألوان ثياب أهل الجنة يصطفون فى صلاتهم صفوفا كصفوف الملائكة أصواتهم فى مساجدهم كدوى النحل لا يدخل النار منهم أحد ومنهم من لا يرى الحساب إلا مثل ما يرى الجمر من وراء الشجرة فاجعلهم أمتى قال هم أمة محمد يا موسى قال الحبر نعم قال فلما عجب موسى من الخير الذى أعطاه الله لأمة محمد ﷺ وعليهم أجمعين قال موسى يا ليتنى من أصحاب محمد؛ أوحى الله تعالى إليه بثلاث آيات يرضيه بهن فقال الله تعالى يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين إلى قوله تعالى دار الفاسقين وقوله تعالى ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون قال فرضى موسى كل الرضا (وقال ابن عباس) لما سار موسى إلى طور سيناء إلى الميقات قال له ربه ما ينبغى قال جئت أبتغى الهدى قال وجدته يا موسى قال موسى يارب أى عبادك أحب إليك قال الذى يذكرنى ولا ينسانى قال فأى عبادك أقضى قال الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى قال أى عبادك أعلم قال الذى يبتغى علم الناس إلى علمه فيسمع الكلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى وقال عبد الله بن مسعود لما قرب الله تعالى موسى إلى طور سيناء رأى عبدا فى ظل العرش جالسا قال يارب من هذا قال عبد لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله بر بوالديه لا يمشى بالنميمة قال موسى يارب اغفر لى ما جرى من ذنبى وما غبر وما بين ذلك وما أنت أعلم به منى أعوذ بك من وسوسة نفسى وأعوذ بك من سوء عملى قال قد كفيت ذلك يا موسى قال موسى يارب أى الأعمال أحب إليك أن أعمل به قال تذكرنى ولا تنسانى قال أى عبادك خير عملا قال من لا يكذب لسانه ولا يفجر قلبه ولا يزنى فرجه مؤمن فى خلق حسن قال فأى عبادك شر عملا قال فاجر فى خلق سيء جيفة بالليل بطال بالنهار قال فلما رجع موسى إلى قومه وقد أتاهم

بالتوراة

النوراة أبوا أن يقبلوها و يعملوا بما فيها من الأنفال و الأغلال التى كانت عليهم فيها وكانت شريعة ثقيلة فامر الله جبريل فقلع جبلا على قدر عسكرهم وكان فرسخاً فى فرسخ فرفعه فوق رؤسهم مثل الظلة مقدار قامة الرجل وقال أبو صالح عن ابن عباس أمر الله تعالى جبلا من جبال فلسطين فانقلع من أصله حتى قام على رؤسهم مثل الظلة فذلك قوله تعالى (وإذ أخذنا ميثاقكم و فعنا فوقكم الطور) وقوله تعالى (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة) وروى قتادة عن الحسن قال مكث موسى بعد ما تغشاه نور رب العالمين و انصرف إلى قومه أربعين ليلة لا يراه أحد إلا مات حتى أنه اتخذ لنفسه برنساً وعليه برقع لا يبدى وجهه لأحد مخافة أن يموت (واخبرنى) أبو عبد الله الحسين بن محمد بن الحسين الثقفى قال حدثنا محمد بن أبى شيبة قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله القزوينى قال حدثنا محمد بن مرزوق النضرى قال حدثنا هانى بن يحيى السلمى قال حدثنا الحسن بن أبى سهل عن جعفر عن قتادة عن يحيى بن وثاب عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ لما كلم الله موسى كان يبصر بعد ذلك دبيب النملة فى الليلة المظلمة على الصفا من مسيرة عشرة فراسخ .

﴿ باب فى ذكر قصة بنى إسرائيل وهرون مع السامرى حين اتخذ لهم العجل ﴾

قال أهل السير وأصحاب التواريخ لما أهلك الله فرعون وقومه قال موسى إنى ذاهب إلى الجبل لميقات ربى وآتيكم بكتاب فيه بيان ما تأتون وما تذرون وواعدهم ثلاثين ليلة واستخلف عليهم أخاه هرون فجاء جبريل عليه السلام على فرس يقال له فرس الحياة وهى بلقاء أنثى لا تصيب شيئاً إلا حيى فلما رآه السامرى على ذلك الفرس عرفه وقال أن لهذه الفرس لشأناً عظيما فأخذ قبضة من تراب حافر فرس جبريل هذا قول السدى (وقال الكلبى) إنما اتخذ السامرى من تراب حافر فرس جبريل العجل حين عبروا البحر وبعث الله تعالى جبريل على فرس بلقاء خطوتها مد البصر عليها تركب الأنبياء كلهم وخاض البحر وشمت خيول قوم فرعون ريحها فخاضت فى أثرها قالوا وإنما عرف السامرى جبريل دون بنى إسرائيل لأن فرعون حين أمر بذبح أولاد بنى إسرائيل جعلت المرأة إذا ولدت الغلام انطلقت به سراً فى جوف الليل إلى صحراء أو واد أو غار فى جبل فأخفته فيقيض الله ملكا من الملائكة يطعمه ويسقيه حتى يختلط بالناس وكان الذى ربى السامرى جبريل عليه السلام فجعل يمص من أحد إبهاميه سمناً وبالآخر عسلا فمن ثم عرفه ومن ذلك الوقت إذا جاع الطفل يمص إبهامه فيروى من المص لأنه جعل له فيه رزقا ويقال أن جبريل عليه السلام وكل بالسامرى وعلا لبوناً يسقيه اللبن بالغداة والعشى حتى كبر واختلط بالناس فلذلك عرفه دون سائر بنى إسرائيل لأنه هو الذى ربّاه وكان أبو عمرو السكندرى يقول دابة موسى وفرعون دابة موسى أز أهل بهشت وفرعون أز أهل دوزخ ودابة السامرى وجبريل دابة جبريل أز أهل بهشت والسامرى أز أهل دوزخ بود قال قتادة والسدى كان عظيم عظماء بنى إسرائيل من قبيلة يقال لها سامرى ولكن عدو الله نافق وقال سعيد بن جبير كان السامرى من أهل كرمان وقال غيرهما كان رجلا صائغاً من أهل باجرمى واسمه منجا وقال ابن عباس اسمه موسى ظفر وكان رجلا منافقاً قد أظهر الإسلام وكان من قوم يعبدون البقر فدخل فى قلبه حب البقر فلما ذهب موسى لميقات ربه وكان قد وعد قومه ثلاثين ليلة وأتمها بعشر حتى صارت أربعين فعد بنو إسرائيل ثلاثين ليلة فلما لم يرجع إليهم افتتنوا وقالوا إن موسى أخلفنا الوعد فاغتنمها السامرى حتى فعل ما فعل وقال قوم إنهم عدوا الليل يوماً والنهار يوماً وكان موسى قد وعدهم أربعين ليلة فلما مضت عشرون يوماً افتتنوا فأتاهم السامرى وقال لهم أن موسى قد احتبس عنكم فينبغى لكم أن تتخذوه إلهاً فإن موسى ليس براجع إليكم وقد تم الميقات فينبغى لكم أن تتخذوا إلهاً وإنما طمع فيهم السامرى لأنهم يوم عبر موسى البحر مروا على قوم من العالقة وهم يعكفون على أصنام لهم فقالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة الآية فاغتنمها السامرى فلما كان ذلك اليوم خرج موسى ومضى من خروجه فلما رجعت إلى المنزل وجدت الغلام على تلك الحالة فعلمت أن ذلك فعل إبنتى الصغيرة فقطعت يديها ثم أخذت فى الاعتذار إليه فأخذ الغلام عينه بيده ووضعها مكانها ورمق بها إلى السماء فإذا هى أحسن ما كانت ثم أخذ بيد إبنتى وتفل عليها فإذا هى كما كانت فلما رأيت ذلك منه قلت هذا نباش القبور لا نباش القبور ثم ذهب الغلام عن بيتى فحزنت على فراقه ولم أدر أين ذهب رضى الله تعالى عنه .

(وحكى عنه رضى الله تعالى عنه) أنه قال ركبت فى مركب سنة من السنين ومعى جماعة من التجار فثارت علينا ريح شديدة حتى طرحتنا إلى جزيرة من جزائر البحر فإذا رجل فيها يعبد صنما فلما رأيناه قلنا له يا رجل ماذا تعبد فأومأ إلى الصنم فقلت له إن إلهك هذا مصنوع وما هو يأله يعبد فقال الرجل وما تعبدون أنتم قلنا نعبد إلها فى السماء عرشه وفى الأرض بطشه وفى الأحياء والأموات قضاؤه وقدره تقدست أسماؤه وجلت عظمته وكبرياؤه فقال من أعلمكم بهذا قلنا وجه إلينا رسولا كريما أخبرنا بذلك فقال وما فعل بالرسول قلنا لما أدى الرسالة قبضه الملك إليه .

عشرون يوماً وكانوا قد استعاروا حلياً كثيراً من آل فرعون حين أرادوا الخروج من مصر بعد العيد وأهلك الله فرعون وقومه وبقى ذلك الحلى بأيدى بنى إسرائيل فلما خرج موسى قال هرون لبنى إسرائيل أن حلى القبط الذى استعرتموه منهم غنيمة ولا يحل لكم فاجمعوه جميعاً واحفروا له حفرة وادفنوه فيها حتى يرجع موسى فيرى فيه رأيه ففعلوا ذلك فجاء السامرى بالقبضة التى أخذها من تحت حافر فرس جبريل عليه السلام فقال لهرون يا نبى الله هل أقذفها فيه فظن هرون أنه من الحلى يريد به ما يريد أصحابه فقال له اقذف فقذفها فى الحفرة على الحلى فصارت عجلا جسداً له خوار (أخبرنى) الحسن باسناده عن راشد بن سعيد قال لما واعد الله موسى أربعين يوماً قال الله تعالى يا موسى أن قومك قد افتتنوا من بعدك قال يارب كيف يفتتنون وقد نجيتهم من فرعون ومن البحر وأنعمت عليهم قال إنهم اتخذوا العجل إلهاً من دونى وهو عجل ذو جسد له خوار قال يارب من نفخ فيه الروح قال أنا قال أنت وعزتك فتنتهم إن هى إلا فتنتك الآية فقال الله تعالى يا موسى يا رأس النبيين يا أبا الأحكام إنى رأيت ذلك فى قلوبهم فيسرته لهم فلما رجع موسى من الميقات إلى قومه وقرب منهم سمع اللغط حول العجل وكانوا يعزفون ويرقصون حوله ولم يخبر موسى أصحابه السبعين بما أخبره به ربه من حديث العجل فقالوا هذا قتال فى المحلة فقال موسى لهم لا ولكنه صوت الفتنة افتتن القوم بعدنا بعبادة غير الله فذلك قوله تعالى ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً فلما رآهم حول العجل وما يصنعون به ألقى الألواح من يده فتكسرت فصعد عامة الكلام الذى كان فيها ولم يبق فيها إلا السدس ثم أعيدت فى لوحين (عن ابن عباس) قال قال رسول الله ﷺ ليس المعاين كالمخبر قال الله تعالى لموسى إن القوم قد فتنوا فلم يلق الألواح فلما عاين ألقى الألواح فكسرها (عن تميم الدارى) قال قلت يارسول الله مررت بمدينة صفتها كيت وكيت قريبة من ساحل البحر فقال عليه الصلاة والسلام تلك أنطاكية أما فى لغاتى من غير أنها رضاضاً من ألواح موسى من سحابة شرقية ولا غربية تمربها إلا ألقت عليها من بركاتها ولن تذهب الأيام والليالى حتى يسكنها رجل من أهل بيتى يملؤها عدلا وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً فلما رأى موسى ما صنع قومه من بعده من عبادة العجل أخذ بشعر رأس أخيه هرون بيمينه ولحيته بشماله وكان هرون قد اعتزلهم فى إثنى عشر ألفاً لم يعبدوا العجل فقال لهرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعنى أفعصيت أمرى هلا قاتلتهم إذ علمت أنى لو كنت فيهم لقاتلتهم على كفرهم فقال هرون يا ابن أم الآية قال المفسرون كان هرون أخا موسى لأبيه وأمه ولكنه أراد بقوله يا ابن أم ترقيقه واستعطافه عليه لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى أى بذوائبى إنى خشيت إن قاتلتهم أن يصيروا حزبين يقتل بعضهم بعضاً فتقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى أى ولم تحفظ وصيتى حين قلت لك اخلفنى فى قومى واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ثم أن موسى أقبل على السامرى وقال له ما خطبك يا سامرى أى ما أمرك وشأنك فقال السامرى بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول يعنى أخذت تراباً من أثر فرس جبريل فنبذتها وطرحتها فى العجل وكذلك سولت نفسى أى زينت لى قال فلما علم بنو إسرائيل أنهم قد أخطؤا وضلوا فى عبادتهم العجل ندموا على ذلك واستغفروا الله تعالى كما قال تعالى ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين فقال لهم موسى يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل قالوا له فأى شىء نصنعه وما الحيلة قال توبوا إلى بارئكم أى ارجعوا إلى خالقكم قالوا فكيف نتوب قال اقتلوا أنفسكم أى ليقتل البرىء المجرم ذلكم يعنى القتل خير لكم عند بارئكم قال ابن عباس أبى الله أن يقبل توبة بنى إسرائيل إلا بالحال الذى كرهوا أن يقاتلوهم حين عبدوا العجل وقال قتادة جعل الله توبة عبدة العجل القتل لأنهم ارتدوا وكفروا والكفر مبيح الدم فلما أمرهم موسى بالقتل أسلموا لأمره وقالوا نصبر لأمر الله فجلسوا فى الأفنية محتبين وأطلت عليهم القوم بالسيوف والخناجر فكان الرجل يرى اخاه

واختار له ما لديه قال وهل ترك الرسول عندكم من علامة للملك قلنا نعم ترك عندنا كتاباً يسمى قرآناً فقال ائتونى بكتاب الملك فإنه ينبغى أن تكون كتب الملوك حساناً قال فأتيناه بالمصحف الشريف فقرأنا عليه سورة فلم يزل يبكى حتى ختمنا السورة ثم قال ينبغى لصاحب السورة هذا الكلام أن لا يعصى ثم أسلم وحسن إسلامه فعلمناه شرائع الإسلام وسورة من القرآن فلما كان بعض الليالى صلينا العشاء وأخذنا مضاجعنا فقال يا قوم هذا الإله الذى دللتمونى عليه إذا جن عليه الليل ينام كما تنامون فقلنا لا يا عبد الله هو حى قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم فقال بئس العبيد أنتم تنامون وموالكم لا ينام قال فأعجبنا كلامه فلما أصبحنا قلت لأصحابى هذا قريب عهد بالإسلام فأجمعوا له دراهم ينفقها فجمعنا له ذلك فلما رآها قال ما هذا قلنا له دراهم تنفقها قال لا إله إلا الله دللتمونى على طريق أسلكها ولم تسلكوها إنى كنت أعبد صنما من دونه ولم يضيعنى وأنا لا أعرفه فكيف يضيعنى الآن وأنا أعرفه فتعجبنا من كلامه قال عبد الواحد فلما كان بعد ثلاثة أيام قيل لى أنه فى سكرات قال فأتيت إليه وقلت له هل من حاجة فقال نعم فقضيت حوائجه

وإبنه وأباه وقريبه وجاره فلم يمكنه إلا إمضاء أمر الله تعالى فقالوا ياموسى كيف نصنع فأرسل الله ضبابة وسحابة سوداء حتى لا يبصر بعضهم بعضا وقيل لهم من حل حبوته أو مد طرفه إلى قاتله أو اتقاه بيده أو رجله فهو ملعون مردودة توبته فكانوا يقتلونهم إلى المساء فلما كثر فيه القتل وبلغ عدد القتلى سبعين ألفا دعا موسى وهرون ربهما وجزعا وتضرعا وقال يارب هلكت بنو إسرائيل البقية الباقية فكشف الله السحابة عنهم وأمرهم أن يرفعوا السلاح ويكفوا القتل عنهم فلما انكشفت السحابة عن القتلى اشتد ذلك على موسى فأوحى الله تعالى إليه أما يرضيك أن أدخل القاتل والمقتول الجنة فكان من قتل منهم شهيداً ومن بقي منهم مكفراً ذنبه فذلك قوله تعالى فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم (وروى) أنه اختار من كل سبط ستة نفر فصاروا إثنين وسبعين رجلا فقال إنما أمرت بسبعين رجلا فليتخلف منكم رجل فتشاحنوا على ذلك فقال موسى أن لمن قعد مثل أجر من خرج فقعد يوشع بن نون وكالب بن يوقنا فأمر موسى السبعين أن يصوموا ويتطهروا ويطهروا ثيابهم ثم خرج بهم إلى الطور لميقات ربه وذلك قوله تعالى واختار موسى من قومه سبعين رجلا لميقاتنا الآية وكان لا يأتيه إلا بإذن منه فلما دنا موسى إلى الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله ودنا موسى ودخل فيه وقال للقوم ادنوا وكان موسى إذا كلمه الله وقع على وجهه نور ساطع لا يستطيع أحد من بني إسرائيل أن ينظر إليه فضرب دونه الحجاب ودنا القوم حتى دخلوا في الغمام وخروا سجداً وسمعوا الله تعالى وهو سبحانه وتعالى يكلم موسى ويأمره وينهاه وأسمعهم الله تعالى (إني أنا الله لا إله إلا أنا) فاعبدوني وابكه أخرجتم من أرض مصر فاعبدوني ولا تعبدوا غيري فلما فرغ موسى من الكلام وانكشفت الغمام أقبل إليهم فقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وهي نار جاءت من السماء فأحرقتهم جميعاً فقال وهب بل أرسل الله عليهم جنداً من السماء فلما سمعوا حسهم ماتوا يوماً وليلة وذلك قوله تعالى (وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون) فلما ماتوا قال موسى رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي لتهلكنا بما فعل السفهاء منا يارب كيف أرجع إلى بني إسرائيل وقد أهلكت خيارهم ولم يزل موسى يناشد ربه حتى أحياهم الله جميعاً رجلا بعد رجل ينظر بعضهم بعضاً كيف يحيون فذلك قوله تعالى (ثم بعثناكم من بعد موتكم الآية) أخبرني الحسن بإسناده عن أنس قال قال رسول الله ﷺ إذا راح منا إلى الجمعة سبعون كانوا كالسبعين الذين وفدوا مع موسى إلى ربهم وأفضل.

﴿ باب في قصة قارون حين عصى ربه موسى واستكبر وأورثه ماله الطغيان والبطر حتى أهلكه الله تعالى ﴾

قال الله تعالى (إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم) الآية قال العلماء بأخبار القدماء قارون كان ابن عم موسى لأبيه قارون بن يصهر بن لاوي بن يعقوب وموسى هو ابن عمران بن قاهث هذا قول أكثر العلماء (وقال) ابن إسحق تزوج يصهر بن قاهث سمين بنت ماويب بن بركيا بن يقشان بن إبراهيم فولدت له عمران بن يصهر وقارون يصهر فنكح عمران يخبث بنت شموبل بن بركيا بن يقشان فولدت هرون وموسى ابني عمران فموسى على قول ابن إسحق ابن أخي قارون وقارون عمه لأبيه وأمه وعلى قول الآخرين ابن عمه وعليه أصحاب التواريخ وكان قارون أعلم بني إسرائيل بعد موسى وهرون وأفضلهم وأجلهم وقال قتادة كان يسمى المنور لحسن صورته ولم يكن في بني إسرائيل أقرأ للتوراة منه ولكن نافق كما نافق السامري فبغى على قومه كما قال تعالى فبغى عليهم واختلفوا في معنى هذا البغي قال ابن عباس رضي الله عنهما كان فرعون قد ملك قارون على بني إسرائيل حين كانوا بمصر (وأخبرني) الحسين بإسناده عن المسيب بن شريك أن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم قال كان عاملا لفرعون على بني إسرائيل وكان يبغي عليهم ويظلمهم وقال عطاء الخرساني وشهر بن حوشب

وقعدت عند رأسه فغلبني النوم فنمت فرأيت روضة خضراء وفيها قبة عظيمة وفي القبة سرير وعلى ذلك السرير جارية حسناء لم أر أحسن منها وهي تقول بالله لما عجلتم به فقد اشتد شوقي إليه فاستيقظت من منامي فوجدت الرجل قد فارق الدنيا رحمة الله عليه فغسلته وكفنته وصلينا عليه ودفناه فلما نمت رأيته في المنام في تلك القبة على السرير والجارية بجانبه وهما يقرآن هذه الآية لمثل هذا فليعمل العاملون رضي الله تعالى عنهم أجمعين ونفعنا بهم آمين

(وحكي عن ذي النون المصري رضي الله تعالى عنه) أنه قال بينما أنا أسير في نواحي الشام إذ وقعت على روضة خضراء وبها شاب يصلي تحت شجرة تفاح فتقدمت إليه وسلمت عليه فلم يرد علي السلام فسلمت عليه ثانيا فأوجز في صلاته وكتب بأصبعه في الأرض هذا الشعر:

منع اللسان من الكلام لآنه
كهف البلاء وجالب الآفات
فاذا نطقت فكن لربك ذاكرا
لا مفسه واحمده في الحالات

قال ذو النون فبكيت بكاء شديدا ثم كتبت بأصبعي في الأرض:

وما من كاتب إلا سيبلى

زاد عليه فى الثياب شبراً وروى شيبان عن قتادة قال قال بغى عليهم بالكبر والبذخ وبكثرة ماله وكان أغنى أهل زمانه وأثراهم كما قال تعالى وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة الآية أى لتثقل وتميل بهم إذا حملوها لثقلها واختلف المفسرون فى عدد العصبة فى هذا الموضع فقال مجاهد ما بين العشرة إلى الأربعين وعن عكرمة منهم من يقول أربعون ومنهم من يقول سبعون وعن الضحاك ما بين الثلاثة إلى العشرة وقيل هم ستون (قال) سعيد بن المسيب كان موسى يعلم الكيمياء فعلم يوشع بن نون ثلث ذلك العلم وعلم كالب بن يوقنا مثله وعلم قارون مثله فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه وفى الخبر أن الله تعالى علم موسى الكيمياء فعلم موسى أخته فعلمته قارون فكان ذلك سبب أمواله فذلك قوله تعالى إنما أوتيته على علم عندى أو بالتصرف فى التجارات والزراعات وسائر أنواع المكاسب والمطالب وقيل فى سبب جمعه تلك الأموال ما أخبرنا الثقفى بإسناده عن ابن الحوارى قال سمعت أبا سليمان الدرانى كان يقول تبدى إبليس لقارون وكان قارون قد أقام على جبل أربعين سنة يتعبد حتى إذا غلب جميع بنى إسرائيل فى العبادة بعث إبليس شياطينه فلم يقدروا عليه فتقدم حوله وجعل يتعبد مع قارون وجعل إبليس يقهره بالعبادة ويفوقه فخضع له قارون وقال له إبليس يا قارون قد رضينا بهذا الذى نحن فيه لا نشهد لبنى إسرائيل جماعة ولا نودلهم مريضا ولا نشهد جنازة قال فأخذوه من الجبل إلى البيعة فكانوا يؤتون بالطعام فقال له إبليس يا قارون قد رضينا أن نكون هكذا كلا على بنى إسرائيل فقال له قارون فأى رأى عندك قال نكتسب يوما فى الجمعة ونتعبد بقية الجمعة ونتعبد بقيتها فقال إبليس قد رضينا أن نكون هكذا قال قارون فأى رأى عندك قال نكتسب يوما ونتعبد يوما فنتصدق ونعطى قال فلما كسبا يوما وتعبدا يوما جلس إبليس وتركه ففتحت على قارون أبواب الدنيا فبلغ ماله ما أخبرنا به ابن فنحويه باسناده عن المسيب بن شريك قال ما أن مفاتحه لتنوء بالعصبة وكانت أربعمائة ألف فى أربعين خزانة فصار فى الثروة وكثرة المال بحيث يضرب به الأمثال أنشدنى أبو العباس سهل بن محمد المروزى عن بعضهم :

وعدتنى وعدك حتى إذا أطعتنى فى كنز قارون
جئت من الليل بغسالة تغسل ما قلت بصابون

فبغى قارون وطغى وتجبر حين استغنى وأثرى حتى هلك فصار عبرة للغابرين وعظة للباقين وكان أول طغيانه وعصيانه أنه تكبر واستطال على الناس بكثرة الأموال فكان يخرج فى زينته وهيئته ويختال كما قال تعالى (فخرج على قومه فى زينته) الآية قال مجاهد خرج على براذين بيض عليهم ما سروج الأرجوان وعليهما المعصفرات وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم خرج فى سبعين ألفا عليهم المعصفرات قال وكان ذلك أول يوم ظهرت المعصفرات فى الأرض فيما كان أبى يذكر لى عن مقاتل إنه خرج على بغلة شهباء عليها سرج من الذهب عليه الأرجوان ومعه ألف فارس عليهم وعلى دوابهم الأرجوان ومعه ستمائة جارية بيض عليهن الحلى والثياب الحمر على البغال الشهب فتمنى أهل الخسارة والجهالة مثل ما أوتيه فقالوا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم فأنكر عليهم أهل العلم بالله وقالوا لهم اتقوا الله واعملوا بما أمركم الله به وانهوا عما نهاكم عنه فان ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون عن لذات الدنيا وشهواتها قال الله تعالى (وما يلقاها إلا الذين صبروا) أى لا يوفق لهذه الكلمة إلا الصابرون على طاعة الله وعن زينة الحياة الدنيا (قالوا) ثم أن الله أوحى إلى نبيه موسى عليه السلام أن يأمر قومه أن يعقلوا فى أرديتهم خيوطا أربعة فى كل طرف خيطا أخضر لونه كلون السماء فقال موسى يا رب لم أمرت بنى إسرائيل بتعليق هذه الخيوط الخضر فى أرديتهم فقال الله تعالى إن بنى إسرائيل فى غفلة وقد أردت أن أجعل لهم علما فى ثيابهم ليذكرونى به إذا نظروا إليه ويذكرون إله السماء ويعلمون أنى أنزل منها كلامى فقال موسى يا رب أفلا تأمرهم أن يجعلوا أرديتهم كلها

ويبقى الدهر ما كتبت بداه
فلم تكتب بخطك غير شىء
يسرك فى القيامة أن تراه قال
فصاح الشاب صيحة فمات
رحمه الله تعالى فقمت لأغسله
فإذا بقائل يقول خل عنه
فإن الله تعالى وعده أن
لا يتولى أمره إلا الملائكة
قال ذا النون رضى الله تعالى
عنه فمات إلى شجرة فركعت
عندها ركعات ثم أتيت
الموضع الذى مات فيه الشاب
فلم أجد له أثراً ولا وقفت
له على خبر رضى الله تعالى
عنه ونفعنا به وبركته آمين

(وعن مالك بن دينار رضى الله تعالى عنه) أنه قال كنت ماشيا فى أزقة البصرة يوما من الأيام فرأيت جارية من جوارى الملوك راكبة ومعها خدم وغلمان فأتيت إليها وقلت أيتها الجارية أيبيعك مولاك فقالت الجارية ولو باعنى مولاى كان مثلك يشترينى فقلت نعم وخير منك قال فضحكت وأمرت بى أن أحمل معها إلى بيت مولاها فحملت معها فلما دخلت إلى مولاها أخبرته بذلك فضحك وأمر أن أدخل فدخلت إليه وسلمت عليه فلما رآنى قال ما حاجتك قلت بغى جاريتك فقال أتطيق أداء ثمنها فقلت نعم قيمتها عندى نوانان مسوستان قال فضحك وقال كيف يكون ثمنها عندك هذا القدر فقلت لكثرة عيوبها فقال وما عيوبها فقلت إن لم

خضراً فإن بنى إسرائيل تحقر هذه الخيوط قال له يا موسى إن الصغير من أمرى ليس بصغير وإن لم يطيعونى فى الأمر الصغير لم يطيعونى فى الأمر الكبير قال فدعا موسى بنى إسرائيل ثم قال لهم إن الله أمركم أن تعلقوا فى أرديتكم خيوطاً خضراً كلون السماء لتذكروا ربكم إذا رأيتموها ففعلت بنو إسرائيل ما أمرهم به موسى واستكبر قارون فلم يطعه وقال ما يفعل هذه إلا الأرباب بعبيدهم لكى يتميزوا عن غيرهم فكان أيضا هذا من بغيه وعصيانه (قالوا) فلما قطع موسى ببنى إسرائيل البحر جعلت الحبارة وهى رياسة المذبحة وبيت القربان لهرون فكانت بنو إسرائيل يأتون بهديهم فيدفعونه إلى هرون فيضعه على المذبح فتنزل نار من السماء فتأكله فوجد قارون فى نفسه من ذلك فأتى موسى وقال يا موسى لك الرياسة والرسالة ولهرون الحبارة ولست أنا فى شىء من ذلك وأنا اقرأ للتوراة منكما ولا صبر لى على هذا فقال موسى والله ما جعلتها أنا فى هرون بل الله جعلها له فقال له قارون والله لا أصدقك فى ذلك حتى ترينى بيانه قال فجمع موسى رؤساء بنى إسرائيل وقال هاتوا عصيكم فمن أصبحت عصاه خضراء فهو أحق بالحبارة فجمع العصى وجاؤا بها وكتب كل واحد اسمه على عصاه فحزمها موسى وألقاها فى القبة التى كان يعبد الله فيها وجعلوا يحرسون عصيهم حتى أصبحوا فأصبحت عصا هرون وقد اهتزت ولها ورق اخضر وكانت من شجر اللوز فقال موسى يا قارون ترى هذا من فعلى فقال قارون والله ما هذا بأعجب مما تصنع السحرة ودهب قارون مغاضباً واعتزل موسى بأتباعه وجعل موسى يداريه للقرابة التى بينهما وهو يؤذيه فى كل وقت ولا يزيده كل يوم إلا عتوا وتجبراً ومخالفة ومعاداة لموسى حتى أنه بنى داراً وجعل بابها من الذهب الأحمر وضرب على جدرانها صفائح من الذهب وكان الملأ من بنى إسرائيل يغدون عليه ويروحون فيطعمهم الطعام ويحدثونه ويضاحكونه قال ابن عباس ثم أن الله أنزل الزكاة على موسى فلما أوجب الله الزكاة عليهم أتا قارون موسى فصالحه عن كل ألف دينار دينار واحد وعن كل ألف درهم درهم واحد وعن كل ألف شاة شاة واحدة وعن كل شىء واحد ثم رجع قارون إلى بيته وحسبه فوجده كثيراً فلم تسمح نفسه بذلك فجمع بنى إسرائيل وقال لهم يا قوم إن موسى قد أمركم بكل شىء فأطعتموه وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا له أنت كبيرنا وسيدنا فمرنا بما شئت فقال آمركم أن تجيئوا ببغلانة البغى فنجعل له جعلا على أن تقذف موسى بنفسها فاذا فعلت ذلك خرجت عليه بنو إسرائيل فرفضوه فاسترضاهم فأتوا بها فجعل لها قارون الف درهم وقيل الف دينار وقيل طستا من ذهب وقيل حكمها وقال لها أنا أمونك وأخلطك بنسائى على أن تقذفى موسى بنفسك غداً إذا حضر بنو إسرائيل فلما كان من الغد جمع قارون بنى إسرائيل ثم أتى موسى فقال إن بنى إسرائيل اجتمعوا ينظرون خروجك لتأمرهم وتنهاهم وتبين لهم أعلام دينهم وأحكام شرعهم فخرج اليهم موسى وهم فى براح من الأرض فقام فيهم خطيباً وعظهم وقال فيما قال يا بنى إسرائيل من سرق قطعنا يده ومن افترى جلدناه ثمانين جلدة ومن زنى وليس له امرأة جلدناه مائة جلدة وإن كان له امرأة رجمناه حتى يموت فقال له قارون وإن كنت أنت قال وإن كنت أنا قال إن بنى إسرائيل يزعمون أنك فجرت ببغلانة قال انا قال نعم قال ادعوها فإن قالت فهو كما قالت فدعوها فلما جاءت قال لها موسى يا بغلانة أنا فعلت بك ما يقول هؤلاء وعظم عليها وسألها بالذى فلق البحر لموسى وبنى إسرائيل وأنزل التوراة على موسى ألا صدقت فلما ناشدها تداركها الله بالتوفيق وقالت فى نفسها لأن أحدث اليوم توبة أفضل من أن أوذى رسول الله فقالت لا بل كذبوا ولكن جعل لى قارون جعلا على ان أقذفك بنفسى فلما تكلمت بهذا الكلام سقط فى يد قارون ونكس رأسه وسكت الملأ وعرف أنه قد وقع فى مهلكة فخر موسى ساجداً لله يبكى ويقول يا رب إن عدوك هذا قد آذانى وأراد فضيحتى وسبنى اللهم إن كنت رسولك فاغضب لى وسلطنى عليه فأوحى الله تعالى اليه أن ارفع رأسك وأمر الأرض بما شئت تطعك فقال موسى يا بنى إسرائيل إن الله قد بعثنى إلى قارون كما بعثنى إلى فرعون فمن كان معه فليلبث مكانه ومن كان معى فليعتزل عنه فاعتزلوا

تتعطر ذفرت وإن لم تمسك
بخرت وإن لم تستنط
وتدهن قملت وإن عمرت
هرمت ذات حيض وبول
وأقذار وحزن وغم وكدار
ولعلك لا تودك إلا لنفسها
ولا تحبك إلا لتنعمها
لا تفى بعهدك ولا تصدق
فى ودك ولا تخلف عليها
أحداً بعدك إلا رأته مثلك
وأنا أجد بدون ما سألت
من الثمن فى جاريتك هذه
جارية خلقت من سلاسل
الكافور ومن المسك
والعنبر والنور ولو مزج
بريقها أجاج لطاب ولو
دعى بكلامها ميت لأجاب
ولو بدأ معصمها للشمس
لأظلمت وكسفت ولو بدا
جبينها فى الظلمات لانارت
واشرقت ولو واجهت
الآفاق بحليها وحللها
لتعطرت وتزخرفت نشأت
بين رياض المسك والزعفران
وقبضان الياقوت والمرجان
وقصرت فى خيام النعيم
وغذيت بماء التنسيم لا تخلف
عهدها ولا تبدل ودها
فانها حينئذ أحق برفع الثمن
من جاريتك هذه فقال
الملك يا أخى فأين التى وصفت
قلت الموجودة الثمن القريبة
الخطب فى كل زمن فقال
ما قيمتها يرحمك الله قلت
اليسير المبذول لنيل
الخطير المأمول وهو أن
تتفرغ ساعة فى ليلك فتصلى
ركعتين تخلصهما لربك وإن
تدع ملعامك فتؤثر جائعك

وأن ترفع عن الطريق حجراً وقذراً وأن تقطع أيامك بقلة البلغة وأن ترفع همك عن دار الغرور والغفلة فتعيش فى الدنيا بعز القناعة وتأتى إلى الموقف آمنا غدا وتنزل فى الجنة دار النعيم فى جوار المولى الكريم مخلدا فقال الملك ياجارية أسمعت ماقال شيخنا هذا فقالت نعم قال أصدق أم كذب فقالت بل صدق ونصح فقال مولاها فأنت حرة لوجه الله تعالى وضيعة كذا وكذا صدقة عليك وأنتم أيها الجوارى والخدم أحرارا لوجه الله تعالى وضيعة كذا وكذا صدقة لكم وهذه الدار ومافيها صدقة وجميع مالى فى سبيل الله ثم مد يده إلى ستر خشن كان على بعض أبوابه فاجتذبه وخلع جميع ماكان عليه من الحرير والديباج فلما رأت الجارية مافعل مولاها قالت لاعيش لى بعدك يامولاى ثم رمت كسوتها و مثل مولاها وخرجت معه فودعهم مالك ودعالهما وأخذ طريقه فتعبدا حتى جاء الموت ولقيهما على حال العبادة عفا الله عنهما ونفعنا الله بهما آمين (وحكى عن جعفر بن سليمان رضى الله تعالى عنه) أنه قال مررت أنا ومالك بن دينار بالبصرة فبينما نحن ندور بها إذ مر بنا بقصر وإذا بشاب جالس مارأيت أحسن منه وجهاً وهو يأمر ببناء القصر ويقول افعلوا وآتاكم

عن قارون ولم يبق منه إلا رجلان ثم قال موسى يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى كعابهم ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى ركبهم ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى جنوبهم ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى أحقابهم ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى أعناقهم وقارون وصاحباه فى كل ذلك يتضرعون إلى موسى ويناشده قارون بالله والرحم حتى روى فى بعض الأخبار أنه ناشده سبعين مرة وموسى فى جميع ذلك لايلتفت اليه لشدة غضبه عليه ثم قال يا أرض خذيهم فانطبقت الأرض عليهم وأوحى الله إلى موسى ياموسى ماأفظعك استغاثوا بك سبعين مرة فلم تغثهم ولم ترحمهم أما وعزتى وجلالى لو اياى دعوا لوجدونى قريباً مجيباً قال قتادة ذكر لنا أن الله تعالى يخسف بهم فى كل يوم قامة وأنه يجلجل بهم فيها فلا يبلغون إلى قعرها إلى يوم القيامة (وأخبرنا) محمد بن عبد الله بن حمدون بقراءتى عليه قال أحمد بن محمد ابن الحسين قال اخبرنا محمد بن يحيى وعبد الرحمن بن بشير واحمد بن يونس قالوا أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر بن راشد عن همام بن منبه قال اخبرنا أبو هريرة قال قال رسول الله ﷺ بينما رجل يتبختر فى برديه وينظر فى عطفيه وقد أعجبته نفسه إذ خسف الله به الأرض وهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة قالوا فلما خسف الله بقارون وصاحبيه الأرض أصبحت بنو إسرائيل يتناجون فيما بينهم أن موسى إنما دعا على قارون ليستبد بداره وأمواله وكنوزه فدعا الله موسى حتى خسف الله بداره وأمواله الأرض وأوحى الله تعالى اليه إنى لاأعيد الارض لأحد بعدك أبدا فذلك قوله تعالى (فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين) فلما حلت نقمة الله بقارون حمد الله تعالى المؤمنون الذين وعظوه وأنذروه بأس الله كما أخبر الله تعالى إذ قال له قومه لاتفرح إن الله لايحب الفرحين أى لاتبطر ولاتأشر وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة الآية وندم الذين كانوا يتمنون مكانه بالأمس وماله وحاله كما قال الله (وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) فنجى الله نبيه موسى صلوات الله على سيدنا محمد وعليه وسلامه والمؤمنين من كل بلاء ومحنة وأهلك أعداءهم فرعون وهامان وقارون كما قال الله تعالى (وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض) الآيات

(باب فى قصة موسى حين لقى الخضر وماجرى بينهما من العجائب إلى أن بلغ أمرهما ما بلغ)

قال الله تعالى (وإذ قال لموسى لفتاه لاأبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا) قال الاستاذ الامام اختلف العلماء فى السبب الذى قصد موسى لأجله الخضر فروى الحسن بن عمارة عن الحكم بن عيينة عن سعيد بن جبير قال جلست عند ابن عباس وعنده نفر من أهل الكتاب فقال بعضهم يا ابن عباس أن نوفا ابن امرأة كعب يزعم عن كعب أن موسى عليه السلام الذى طلب العلم إنما هو موسى بن ميشا قال ابن عباس كذب نوف حدثنى أبى بن كعب رسول الله ﷺ أن موسى نبى بنى إسرائيل سأل ربه فقال يارب إن كان فى عبادك أحد هو أعلم منى فدلنى عليه فقال الله عز وجل نعم فى عبادى من هو أعلم منك ثم نعت له مكان الخضر عليه السلام وأذن له فى لقائه وروى هرون بن عنترة عن أبيه عن ابن عباس قال سأل موسى ربه فقال يارب أى عبادك أحب اليك قال الذى يذكرنى ولاينسانى قال فأى عبادك اقضى قال الذى يقضى بالحق ولايتبع الهوى قال يارب أى عبادك أعلم قال الذى يبتغى علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى قال فهل فى الارض أحد أعلم منى قال نعم قال يارب من هو قال الخضر قال فأين أطلبه قال على الساحل عند الصخرة التى يفلت عندها الحوت وجعل الحوت علما له ودليلا وقال إذا حيى هذا الحوت فإن صاحبك هناك وكان قد تزود سمكا مملحا وروى عطية العوفى عن ابن عباس قال لما ظهر موسى وقومه على مصر واستقرت بهم الدار أنزل الله عليهم المن والسلوى فخطب موسى قومه فذكرهم ما آتاهم الله من الخير والنعمة إذ نجاهم من آل فرعون وأهلك عدوهم واستخلفهم فى الأرض قال وكلم الله نبيكم تكليما واصطفاه لنفسه وألقى عليه محبة منه

وآناكم من كل ما سألتموه فنبيكم أفضل أهل الأرض وأنتم تقرؤون التوراة فهل يترك نعمة أنعمها الله عليهم إلا ذكرها وعرفهم إياها فقال له رجل من بني إسرائيل قد عرفنا الذي تقول فهل على وجه الأرض أحد أعلم منك يا نبي الله قال لا فعتب الله عليه حيث لم يرد العلم اليه فبعث إليه جبريل عليه السلام فقال له يا موسى ما يدريك أين أضع علمي بل أن لي عبداً بمجمع البحرين أعلم منك فسأل موسى ربه أن يريه إياه فأوحى الله اليه أن ائت البحر فانك تجد على شاطئ البحر حوتاً فخذه وادفعه إلى فتاك ثم الزم شاطئ البحر فإذا نسيت الحوت وهرب منك فثم تجد العبد الصالح قال فخرج موسى وفتاه يقصدان مجمع البحرين للقاء الخضر عليه السلام ومعهما حوت مالح فذلك قوله تعالى (وإذ قال موسى) يعني ابن عمران (لفتاه) أي لصاحبه يوشع بن نون بن افرايم بن يوسف عليه السلام (لا أبرح) أي لا أزال أسير (حتى أبلغ مجمع البحرين) يعني بحر فارس والروم مما يلي المشرق قال قتادة قال أبي بن كعب هو أفريقيه وقال محمد بن كعب طنجة (أو أمضي حقباً) دهراً وزماناً طويلا فذهبا ومعهما الخبز والسمك المملوح وصارا حتى انتهيا إلى الصخرة عند مجمع البحرين ليلا قال معقل بن زياد وهي الصخرة التي دون نهر الزيت قال وعندها عين تسمى ماء الحياة ولا يصيب ذلك الماء شيء إلا عاد حياً فلما أصاب السمك روح الماء وبرده اضطرب في المكتل وعاش ودخلت في البحر فذلك قوله تعالى فلما بلغا يعني موسى وفتاه مجمع بينهما يعني البحرين نسيا تركا حوتهما وإنما كان الحوت مع يوشع والذي نسيه يدل عليه قوله تعالى إني نسيت الحوت ولكنه صرف النسيان اليهما والمراد به أحدهما كما قال تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان وإنما يخرجان من الملح دون العذب فاتخذ الحوت سبيله في البحر سرباً أي مذهباً ومسلكاً واختلفوا في كيفية ذلك فروى أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ قال انجاب الماء عن مسلك الحوت فصار كوة فلم يلتئم فدخل موسى الكوة على أثر الحوت فإذا هو بالخضر عليه السلام وقال ابن عباس رأى أثر جناحيه في الطين حين وقع في الماء وجعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا يبس حتى يصير صخرة روى ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ قال لما انتهيا إلى الصخرة وضعا رؤسهما فناما فاضطرب الحوت في المكتل فخرج منه وسقط في البحر هارباً فاتخذ سبيله في البحر سرباً فأمسك الله تعالى عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ موسى عليه السلام نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلق بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه آتنا غداءنا الآية وقال قتادة أرد الله إلى الحوت روحه فسرب حتى أفضى إلى البحر ثم سلك جعل لا يسلك منه موضعاً إلا صار ماءً جامداً طريقاً يبساً وقال الكلبي توضأ يوشع بن نون من عين الحياة فانتضح على الحوت المملح من ذلك الماء وهو في المكتل فعاش ووثب في الماء فجعل يضرب بذنبه الماء فلا يضرب بذنبه شيئاً من الماء وهو ذاهب إلا يبس قال الحكماء كان لموسى عليه السلام خمسة أسفار الأول الهرب وهو قوله تعالى (ففررت منكم لما خفتكم) الآية والثاني سفر الطور وهو قوله (فلما أتاها نودي أن بورك من في النار ومن حولها) الآية وقوله تعالى (فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن) الآية والثالث سفر الطلب وذلك عند خروجه من مصر قال الله تعالى (وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي) الرابع سفر الحرب وهو قوله تعالى أخباراً عن قول قومه (فاذهب أنت وربك فقاتلا) الآية والخامس سفر النصب وهو قوله تعالى (لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً) وذلك أنه لما ألقى على موسى الجوع بعد ما جاوز الصخرة ليتذكر الحوت ويرجع إلى موضع مطلبه فقال له فتاه وتذكر أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت تركته وفقدته وقيل فيه إضمار تقديره فإني نسيت أن أذكر أمر الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً قال عبد الرحمن بن زيد أي شيء أعجب من حوت كان دهراً من الدهور يؤكل منه ثم صار حياً حتى حشر في البحر قال وكان شق حوت وقال وهب بن منبه ظهر في الماء أثر جرى الحوت

كذا واصنعوا كذا قال مالك أما ترى يا جعفر إلى هذا الشاب وحسن وجهه وحرصه على بناء هذا القصر ما أشوقني إلى أن أسأل ربي أن يخلصه فيجعله من شباب الجنة ثم قال يا جعفر ادخل بنا اليه قال فدخلنا اليه وسلمنا عليه فرد علينا السلام وكان لم يعرف مالك ابن دينار فلما عرفه قام اليه وقال هل من حاجة يا مولاي فقال مالك كم نويت أن تنفق على هذا القصر قال مائة الف درهم فقال مالك ألا تعطيني هذا المال فاصرفه لمستحقيه وأضمن لك على الله تعالى قصراً خيراً لك من قصرك هذا بروادانه وخدمه مكللا بالدر والياقوت مرصعاً بالجواهر ترابه الزعفران ملاطه المسك أفسح من قصرك هذا لا يخرب ولا تمسه يدان ولا يبنيه بان قال له الخليل كن فكان فقال له الشاب ياسيدي فامهلني الليلة إلى غد فقال نعم قال جعفر فبات مالك متفكراً في الشاب فلما كان وقت السحر دعا الله تعالى فأكثر من دعائه فلما أصبحنا غدونا اليه فإذا بالشاب جالس فلما عاين مالك بن دينار قال ما تقول بالأمس فقال تفعل قال نعم فاحضر المال لوقته وأحضر دواة وقرطاسا فكتب مالك بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما ضمنه مالك بن دينار لفلان

أخذوا شبه نهر من حيث دخل إلى حيث انتهى فرجع موسى حتى انتهى إلى مجمع البحرين وإذا هو بالخضر فذلك قوله تعالى (قال ذلك ما كنا نبغ) أى نطلب (فارتدا) فارتجعا (على آثارهما) الذى جاء منه (قصصا) أى يقصان الأثر (فوجدا عبداً من عبادنا) يعنى الخضر عليه السلام

(فصل فى ذكر جمل من أخبار الخضر عليه السلام وأحواله)

واسمه بليا بن ملكان بن عامر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح وإنما لقب بالخضر كما أخبرنا به أبو سعيد محمد بن عبدالله بن حمدون بقراءتى عليه قال أخبرنا أبو حامد أحمد بن محمد بن الحسين الشرفى قال حدثنا محمد بن يحيى وعبدالرحمن بن بشر وأحمد بن يوسف قالوا انبأنا عبدالرازق انبأنا عبدالله ابن حامد الوراق قال انبأنا مكى بن عبدان قال انبأنا أبو الازهر قال حدثنا عبدالرزاق قال أنبأنا معمر عن همام بن منبه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فاذا هى تهتز تحته خضراء وأخبرنا أبو نصر محمد بن على بن الفضل الخزاعى قال نبأنا أبو بكر محمد بن الحسن القصار قال أنبأنا أحمد بن يوسف السلمى قال انبأنا محمد بن يوسف الفريابى قال ذكر سفيان عن منصور عن مجاهد قال إنما سمى الخضر لأنه أينما صلى أخضر حوله

(فصل فى بدو أمر الخضر عليه السلام)

يروى أن رسول الله ﷺ لما أسرى به إلى السماء بينما هو على البراق وجبريل يمر به إذ وجد رائحة طيبة فقال يا جبريل ما هذه الرائحة الطيبة قال أنه كان ملك فى الزمان الأول له سيرة حسنة فى أهل مملكته وكان له ابن ولم يكن له ولد غيره قال أصحاب الأخبار وكان أبوه ملكا عظيما فسلمه إلى المؤدب يؤدبه وكان يختلف إليه وكان بين منزله ومؤدبه رجل عابد كان يمر به فأعجبه حاله فألفه وكان يجلس عنده والمعلم يظن أنه فى المنزل وأبوه يظن أنه عند المعلم حتى شب ونشأ وأخذ من العابد سمائله وعبادته فقالوا لأبيه ليس لك غيره يرث ملكك فلو زوجته لعله يرزق أولادا فعرض عليه أبوه التزويج فأبى ثم عاوده فعرض عليه فرضى فزوجه جارية من بنات الملوك فزفت اليه فلما بقيت عنده قال لها أنى مخبرك بأمر إن أنت سمعتيه صرف الله عنك شر الدنيا وعذاب الآخرة وإن افشيت سرى عذبك الله فى الدنيا وفى الآخرة لك وما ذاك قال إنى رجل مسلم لست على دين أبى وليست النساء من حاجتى فان رضيت أن تقيمى معى على ذلك وتتابعينى على دينى فذاك اليك وان أنت أبيت لحقت بأهلك فقالت المرأة بل أقيم معك فلما أتت عليها مدة قالوا لأبيه ما نظن إبنك إلا عاقرا لا يولد له ولد فسأله أبوه فقال ماذا بيدى وإنما ذلك بيد الله يؤتيه من يشاء فدعا المرأة وسألها فردت عليه مثل ما رد عليه الخضر فشك أبوه زمانا ثم دعا إبنه إليه فقال أحب أن تطلق امرأتك هذه وأزوجك امرأة غيرها ولود بما ترزق منها ولدا فأكره ذلك الخضر وألح عليه أبوه حتى فرق بينهما وزوجه امرأة غيرها ولودا نيبا فعرض عليها الخضر ما قاله الأولى فرضيت وقالت اقيم معك فلبثنا زمانا ثم أن أباه استيطأ الولد منه فدعاه وقال ليس بولد لك فقال ليس ذلك بيدى ولكنه بيد الله ثم أنه دعا امرأته وقال لها أنت امرأة شابة ولودة وقد كنت ولدت عند غير ابنى ولست تلدين عند ابنى فقالت ما مسنى منذ صحبته وكذلك المرأة الأولى فدعاها وسألها فقالت مثل ذلك فدعا ابنه وعيره وعنفه ففزع من أبيه ولم يأمن على نفسه منه فخرج من عنده فهام على وجهه ولم يدر أحد من خلق الله تعالى اين توجه فندم أبوه على ما فعل فارسل فى طلبه مائة رجل من طرق شتى مختلفة فانطلقوا فى طلبه فادركه منهم عشرة فى جزيرة من جزائر البحر فقال لهم إنى أقول لكم شيئا فاكتموه عنى فان كتمتموه صرف الله عنكم شر الدنيا وعذاب الآخرة وأن أبيتم ذلك وأفشيتم سرى عذبكم الله فى الدنيا وفى الآخرة قالوا له قل ما شئت قال هل بعث أبى فى طلبى أحداً غيركم قالوا نعم فقال لهم إذا فاكتموا أمرى ولا تخبروا أبى أنكم رأيتمونى وقولوا مثل قول نظرائكم الذين أرسلهم فى طلبى فلم يروني لأنكم لو أخبرتموه بى أو ذهبتم بى اليه قتلنى وصرتم أنتم مؤاخذين بدمى قال فحلفوا له

أبن فلان إنى ضمنت لك على الله قصراً بدل قصرك بصفته كما وصفت والزيادة على الله تعالى واشتريت لك بهذا المال قصراً فى الجنة أفسح من قصرك فى ظل ظليل بقرب العزيز الجليل ثم طوى الكتاب ودفعه إلى الشاب وحملنا المال من عنده فما أمسى مالك حتى لم يبق معه مقدار قوت يوم واحد وما أتى على الشاب أربعون يوما حتى وجد مالك كتابا موضوعا فى محرابه عند ما فرغ من صلاة الغداة فأخذه مالك فاذا فى ظهره مكتوب بلا مداد هذه براءة من الله العزيز الحكيم لمالك بن دينار قد وفينا الشاب القصر الذى ضمنته له وزيادة على ذلك بسبعين ضعفاً قال فتعجبت من ذلك وذهبت وجعفر إلى منزل الشاب فاذا بالباب مسدود والبكاء فى الدار فقلت ما فعل بالشاب فقيل مات الامس فأحضرنا الغاسل وقلنا أنت غسلته فقال نعم فقال مالك فحدثنا كيف صنعت فقال الغاسل ياسيدى أنه احضرنى قبل موته وقال إذا غسلتنى وكفنتنى اجعل هذا الكتاب بين كفنى وبدنى ففعلت ذلك ودفنته معه قال فاخرج مالك الكتاب فقرأه الغاسل وقال له يا سيدى انه هذا الكتاب بعينه قال فكثر البكاء والنحيب ثم قام شاب آخر وقال يا مالك خذ منى

وانصرفوا

انصرفوا فلما دخلوا على أبيه قال تسعة منهم قد وجدناه وقال لنا كيت وكيت فخلينا عنه وقال العاشر مالنا به علم ومالى به خبر والتسعة قالوا بلى قد ظفرنا به وإن شئت أتيناك به فقال لهم ارجعوا فى طلبه واتونى به وأن الخضر خاف أن يظفروا به فانحاز من ذلك الموضع إلى موضع آخر فأتوا إليه فلم يجدوه فرجعوا وقالوا لم نره فقتلهم أبوه قال وإن أباه دعا بالمرأة الثيب وقال لها أنت صنعت هذا بابنى حتى هرب فقتلها وسمعت المرأة الأولى بذلك فهربت مخافة القتل وقال العاشر الذى أنكر رؤيا الخضر ما يؤمننى أن يمتلنى كما قتل التسعة فهرب حتى أتى قرية فاذا المرأة الهاربة أيضا فى تلك القرية وكانت تحتطب فقالت يوما بسم الله فسمعها الرجل الهارب فقال لها من أنت فاخبرته خبرها فقال لها هذه أنا العاشر خرجت خوف القتل فهل لك أن أتزوجك ونعبد الله حتى نموت فقالت نعم ثم أنهما انطلقا حتى أتيا قرية فيها بعض من الفراعنة فاتخذا بيتا من قصب ومكثا فيه ورزقا فيه ثلاثة أولاد فقال لها الرجل إذا أنا مت فادفنينى فى هذا البيت وكذلك كل من مات منكم فانى لا أحب أن تكون قبورنا مع هؤلاء فاذا كان آخرنا موتا فأوصى أن يهدم عليه البيت فمات الرجل فدفنته امرأته ثم أنه بلغ فرعون زمانهم أنهم يوحدون الله ويعبدونه فجىء بالمرأة إلى حضرته فأمرها أن ترجع عن دينها فأبت وأمر بقدر من نحاس فملئت ماء وأعلى غليانا شديدا وأمر بالمرأة وولدها فلما أحضروا قال لها ارجعى عن دينك وإلا ألقيتك أنت وأولادك فى هذا القدر فأبت عليه فأمر بولدها الأكبر فألقى فيه فتفسخ فيه وكذلك الثانى وكان فى حجرها ابن رضيع فأرادوا القاءه فرقت المرأة ونازعتهم فى شأنه فتكلم الغلام الرضيع وقال لها اصبرى فانا جميعا فى الجنة فلما أرادوا أن يلقوها فى القدر قالت لهم لى اليكم حاجة يسيرة قالوا وما هى قالت إذا رميتمونى فى القدر فادفنوها بما فيها من عظامنا فى بيتنا واهدموه علينا ففعلوا ذلك فلما أسرى رسول الله ﷺ وجد رائحة طيبة فقال ما هذه يا جبريل فأخبره بقصتهم وقال هذه رائحتهم ويروى أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ أن قوما من أهل تلك المدينة ركبوا البحر فى تجارتهم فضربتهم الأمواج فتكسرت بهم سفينتهم فانفلت منهم رجلان على لوح من ألواحها فضربتهم الأمواج حتى اسندتها إلى جزيرة من جزائر البحر فخرجا يجولان فى الجزيرة فاذا هما بالخضر عليه السلام وعليه ثياب بيض وهو قائم يصلى فجلسا حتى فرغ من صلاته فالتفت اليهما وقال لهما من أنتما قالا نحن من مدينة كذا وكذا فى هذا البحر لطلب التجارة فانكسرت بنا هذه السفينة ودفنا إلى هذه الجزيرة وقال اختارا إن شئتما أن تقيما فى هذا الموضع تعبدان الله تعالى ونأتيكما أرزاقكما وإن شئتما أردكما إلى منازلكما قالا بل أردنا إلى منازلنا فقال لهما على أن تعطيانى عهد الله وميثاقه على أنكما لا تخبران بشىء مما ترياننا فاعطياه العهد والميثاق وعلى الكتمان فنظر فاذا سحائب تمر فدعاهن وسألهن فقالت كل واحدة منهن أريد بلد كذا وكذا فدعا التى تريد بلادهما فقال لها احملى هذين حتى تضعيهما على سطوحيهما فسقطت السحابة وانشقت لهما ثم رفعتهما ومضت حتى وضعتهما على سطوحيهما فعزم أحدهما على الكتمان ونزل إلى منزله وعزم الآخر على اذاعته فنزل من سطحه وخرج من بابه وانطلق إلى باب المدينة ونادى النصيحة فدخل على الملك فقال نصيحتك فقال رأيت ابنك فى موضع كذا وكذا وصنع بى كذا وكذا فقال له من يعلم ذلك قال فلان كان رفيقى فبعث اليه وسأله عما قال فقال أما ركوب البحر فقد ركبنا جميعا فقد تكسرت بنا السفينة وصرنا على لوح من ألواحها فلم تزل الأمواج تضرب بنا حتى صرنا إلى الساحل فخرجنا من البحر فلم نزل نعيش من الشجر ونبات الأرض والثمر ترفعنا أرض وتضعنا أخرى حتى انتهينا إلى منار لنا فقال له الغادر ابعث معى رسلك حتى أدفعه اليك وتعلم أن هذا قد كذب فأمر بالرجل فحبس وتوعده بالصلب أن وفى صاحبه بما قال وأوعد الغادر بالصلب أن هو كذب ولم يأت به فبعث معه رسلا فركبوا البحر حتى انتهوا إلى الجزيرة فطلبوا الخضر فلم يجدوا شيئا فرجعوا بالرجل إلى الملك وقالوا هذا أكذب خلق الله ما رأينا مما قال شيئا فصلبه وخلى عن الاخر ثم أن أهل تلك

مائتى الف ودرهم وأضمن
لى مثل ما ضمنت للشاب
المتوفى فقال مالك هيهات
كان ما كان وفات ما فات
والله يحكم ما يريد فكان
مالك كلما ذكر الشاب بكى
وقال هنيئا له ودعا له بالرحمة
رحمنا الله بهم أجمعين (وحكى
عن محمد بن السماك رضى الله
عنه) أنه قال كان محمد بن
سليمان بن موسى الهاشمى
من أنعم بنى أمية عيشا
وأكرمهم بالاعطاء نفسا
وكان منهمكا فى شهوات
نفسه من أصناف اللذات
فى المأكل والمشرب والملبس
والطيب والجوارى والغلمان
ليس له فكرة ولا همة إلا فى
الذى هو فيه من ذلك وكان
شابا جميلا وجهه كاستدارة
القمر وكانت نعمة الله سابغة
عليه فكان يستغل كل
حول نحو ثلثمائة ألف
وثلاثة آلاف دينار ذهبا
يصرف كل ذلك فيما هو فيه
من عيشه ولذته وكان له
مستشرف عال يقعد فيه
يشرف على الناس وله أبواب
مشرعة إلى بساتينه وقد
ضرب قبة من عاج مطلية
بالفضة والذهب وهو على
سريره عليه غلالة من قصب
وعلى رأسه عمامة مكللة
باللآلىء ومعه فى تلك
القبة ندماؤه وجلساؤه وقد
أوقف على رأسه الخدم
والغلمان فى مجلس خارج
القبة بحيث يراهم فاذا
اشتهى سماع الغيان نظر نحو

المدينة ولم يزالوا يعملون المعاصى حتى غضب الله عليهم وقال جبريل عليه السلام فبعثنى الله تعالى إليهم فادخلت جناحى من تحتها واقتلعتها فرفعتها حتى سمع أهل سماء الدنيا نباح الكلاب وصياح الديوك ثم أمرنى فقلبتها فجاءت تهوى بمن فيها حتى انتهت إلى وجه الأرض فبقى بيت الرجل الكاتم والمرأة الكاتمة من جانب سالمين ثم انطبقت الأرض بمن فيها فلم ينج منهم غيرهما فجعلا يدوران فى حدود المدينة فلا يلقى كل واحد منهما غير صاحبه فلما أن كثر ذلك قال الرجل أيتها المرأة قد رأيت ما أصاب القوم وإنه لم يفلت غيرى وغيرك فبأى شىء نجونا أخبرينى وأنا أخبرك فعاهد كل واحد منهما صاحبه على الكتمان فتصادقا فإذا قصتهما واحدة نجاهما الكتمان فقال لها هل لك أن تزوجينى نفسك وتخرج إلى مدينة من هذه المدائن فأكتسب عليك وتكتسبين على حتى يقضى الله من أمرنا ما يشاء ففعلت فذهبا إلى مدينة فرعون من الفراعنة فاتخذا لهما بيتاً وولد لهما أولاد وتلطفت المرأة لآل فرعون وصارت ماشة لهم فحظيت عندهم فبينما هى ذات قاعدة تسرح رأس بنت الملك إذ سقط المشط من يدها فقالت بسم الله نعس من كفر بالله ففزعت الجارية من ذلك وقالت لها من الله قالت ربى فقالت لها وأن لك رباً غير أبى فقالت نعم هو ربى ورب أبيك ورب كل شىء فهبطت الجارية ودخلت على أبيها وقالت تعلم أن فلانة تقول قولا عجيبا تقول كذا وكذا فأرسل إليها فحضرت فقال لها ما هذا الذى بلغنى عنك فقالت هو ما بلغك قال فهل احد يقول بقولك قالت نعم بعلى وصبيتى فبعث اليهم وامتحنهم فإذا هم يقولون قولا واحداً فقال لهم أنا لا نقركم على ما أنتم عليه حتى ترجعوا إلى ديننا فقالوا له اصنع ما أردت فأمر بقدر من نحاس عظيمة فملئت ماء ثم أشعل تحتها حتى اضطرب الماء ثم دعا بالصبية فعرض عليهم واحداً واحداً ليكفروا فاخذهم وطرحهم فى القدر ثم أنه دعا بالزوج وعرض عليه الكفر فأبى فألقاه فى القدر ثم دعا بالمرأة وقال لها أن لك علينا حقاً فإن أنت رجعت إلى ديننا وإلا ألقيناك فى القدر فقالت له اصنع ما أنت صانع ثم أنها قالت له اليك حاجة قال وما هى قالت إذا صنعت ما أنت صانع فمر ببيتنا أن يحفر فيه حفرة ثم تأمر بالقدرة فتحمل بما فيها ثم يأتون بها منزلنا فيسكب ما فى القدر فى الحفرة ثم يعاد علينا التراب ثم يهدم علينا البيت ففعل ذلك فهذه الرائحة رائحة المسك تسطع من بيتهم إلى يوم القيامة فهذه قصة الخضر مع أبيه وبدو أمره وكان فى زمن فريدون الملك بن القباد على قول عامة أهل الكتب الأولى وقيل أنه كان على مقدمة ذى القرنين الأكبر الذى كان فى زمن إبراهيم عليه السلام وهو الذى قضى ببئر اليسع وهى بئر كان احتفرها إبراهيم عليه السلام لماشيته فى صحراء الاردن وإن قوماً من أهل الأردن أدعوا الأرض التى احتفرها إبراهيم عليه السلام فحاكمهم إبراهيم عليه السلام إلى ذى القرنين الذى كان الخضر على مقدمته أيام مسيره فى البلاد وانه بلغ مع ذى القرنين نهر الحياة وشرب من مائه وهو لا يعلم به ولا يعلم ذو القرنين ومن معه فى محلته فخلد وهو فى الحياة إلى الآن وقيل أن ذا القرنين الذى كان على عهد إبراهيم عليه السلام وكان الخضر عليه السلام على مقدمته هو فريدون الملك وزعم بعضهم أن الخضر من ولد من كان آمن إبراهيم خليل الرحمن واتبعه على دينه وهاجر معه من أرض بابل (وقد صح الخبر) عن رسول الله ﷺ فى حديث أبى بن كعب أن صاحب موسى بن عمران الذى أمر بطلبه وبالاقتباس منه هو الخضر عليه السلام ورسول الله ﷺ أعلم الخلق بالأمور الماضية والباقية وموسى بن عمران ان انبىء فى عصر منوشهر الملك بعد ملك جده افريدون فدل هذا على خطأ من قال أنه أرميا بن خلفيا لأن أرميا كان فى أيام بختنصر وبين عهد موسى وبختنصر من المدة ما لا يخفى على أهل العلم اللهم الا أن يكون الأمر كما قال من قال انه كان على مقدمة ذى القرنين صاحب إبراهيم عليه السلام فشرب من ماء عين الحياة فخلد ولم يبعث فى أيام إبراهيم ومن بعده إلى أيام ناشئة بن أموص فبعث حينئذ نبياً والله أعلم والصحيح إنه نبى معمر محجوب عن الأبصار (رجعنا إلى حديث موسى وفتاه) قال فانتهى موسى وفتاه إلى الخضر وهو قائم يصلى على طنفسة خضراء على وجه الماء وهو متشح بثوب أخضر فسلم عليه موسى فقال الخضر

وانى

الستارة وإذا أراد سكوتهم أومأ بيده نحو الستارة فهذا كان دأبه إلى أن يذهب الليل فتخرج الندماء ويخلو مع من شاء فإذا أصبح اشتغل بالنظر إلى اللعابين بالشطرنج وغيره لا يذكر بين يديه موت ولا سقم ولا مرض ولا حزن ولا غم ولا هم إلا ذكر الفرح والسرور والنوادر المضحكة وينثر كل يوم من أنواع الطيب والشمامات وما يكون فى أوانه حتى مضت له سبعة وعشرون سنة فبينما هو ذات ليلة من الليالى فى قبته وقد مضى نصف الليل إذ سمع نغمة من صوت شجى بخلاف ما يسمع من مطرباته فأخذت بقلبه وصار ولها عما كان فيه فأومأ إلى جلسائه أن أمسكوا ثم أخرج رأسه من بعض طاقات القصر إلى جهة الخلاء يسمع الذى وقع بقلبه فإذا النغمة ربما سمعها وربما خفيت عليه فصاح بغلمانه أن اطلبوا صاحب هذه النغمة وكان يومئذ قد عمل فيه الشراب فخرج الغلمان يطوفون فإذا هم بشاب نحيف الجسم مصفر اللون قد لصق بطنه بظهره وعليه طمران لا يتوارى بغيرهما حافى القدمين ذابل الشفتين قائم فى المسجد يناجى ربه عز وجل قال فاخرجوه من المسجد وانطلقوا به حتى أوقفوه بين يديه فنظر اليه وقال من هذا فقالوا صاحب النغمة التى سمعتها فقال اين

وإني بأرضك السلام فقال أنا موسى فقال موسى بني إسرائيل قال نعم فقال يا موسى لقد كان لك في بني اسرائيل شغل قال موسى إردني أرسلني اليك لأتبعك وانعلم من علمك ثم جلسا يتحدثان فجاءت خطافة وحملت بمقارها من الماء فقال الخضر يا موسى خطر ببالك أنك أعلم أهل الأرض ما علمك وما علمي وعلم جميع الأولين والآخرين في جنب علم الله تعالى إلا أقل من الماء الذي حملته الخطافة بمقارها فذلك قوله تعالى (فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما) (وقال ابن عباس) كان الخضر يعلم علم الغيب فقال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا قال إنك لن تستطيع معي صبرا لأني أعلم علم الباطن علما علمنيه الله تعالى وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً يعني ما لم تعلمه قال موسى ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمراً قال فان اتبعتني فلا تسألني عن شيء علمته مما تنكره حتى أحدث لك منه ذكرا وأبين لك شأنه فانطلقا يسيران يلتمسان سفينة يركبان فيها فمرت بهما سفينة جديدة وثيقة فركباها فقال أصحاب السفينة هؤلاء لصوص وأخرجوهم منها فقال صاحب السفينة ما هؤلاء بلصوص ولكني أرى وجوههم وجوه الأنبياء وقال أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ انطلقا يمشيان على ساحل البحر إذ مرت بهم سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول فلما زجوا في البحر أخذ الخضر عليه السلام فأساً خرج لوحاً من السفينة حتى دخلها الماء فخشاها موسى بثوبه وقال له أخرقتها لتغرق اهلها وقد حملونا وأحسنوا الينا فصرفت سفينتهم ما هذا جزاؤهم منا لقد جئت شيئاً إمرا أي عجباً منكرا قال الخضر ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا قال موسى لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا يعني لا تكلفني ولا تضيق علي أمري قال ابن عباس لما خرق الخضر السفينة تنحى موسى ناحية وقال في نفسه ما كنت اصنع بمصاحبة هذا الرجل كنت في بني إسرائيل أتلو عليهم كتاب الله غدوة وعشية وآمرهم فيطيعوني فقال له الخضر يا موسى أتريدان اخبرك بما حدثت به نفسك قال نعم قال قلت كذا وكذا قال صدقت فانطلقا يمشيان حتى إذا أتيا أيلة إذا هما بغلمان عشر فيهم غلام هو أظرفهم وأصبحهم وجها قال ابن عباس كان غلاما لم يبلغ الحلم وقال الضحاك كان غلاما يعمل الفساد فتأذى منه أبواه وقال الكلبي كان غلاما يسرق المتاع في الليل فاذا اصبح لجأ إلى ابويه فيحلفان دونه شفقة عليه ويقولان لقد بات عندنا واختلفوا في إسمه فقال الضحاك كان اسمه حسفود وقيل الحسين وقال وهب بن منبه كان اسم أبيه ملاس واسم أمه رحمة قال فاخذه الخضر عليه السلام فقتله واختلفوا في كيفية قتله قال سعيد بن جبير أخذه فاضجعه ثم ذبحه بالسكين وقال الكلبي صرعه ثم نزع رأسه وقال قوم رفسه برجله ففتله وقال آخرون ضرب رأسه بالجدار حتى قتله وفي رواية أخرى أدخل أصبعه في سرة الصبي فاقتلعها فمات فلما قتله قال موسى أقتلت نفساً زكية يعني طاهرة لم تذنب ولم تستوجب القتل بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً أي منكرا قال قتادة المنكر أشد وأعظم من الامر قال فغضب الخضر واقتلع كتف الصبي الأيسر وقشر اللحم عنه فاذا في عظم كتفه مكتوب كافر لا يؤمن بالله أبدا ويدل على صحة هذا القول ما أخبرنا به عبد الله بن حامد أخبرنا أحمد ابن عبد الله أخبرنا محمد بن عبد الله بن سليمان أخبرنا يحيى اخبرنا قيس عن ابي اسحق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي ابن كعب قال سمعت رسول الله ﷺ يقول كان الغلام الذي قتله الخضر طبع كافرا فقال الخضر لموسى ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا قال ان سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا أي في فراقي (اخبرنا) عبد الواحد بن حامد الوزان أخبرنا مكي بن عبدان أخبرنا عبد الرحمن بن بشر أخبرنا حجاج بن محمد أخبرنا حمزة الزيات عن أبي اسحق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي ابن كعب قال كان رسول الله ﷺ إذا ذكر أخا بدأ بنفسه فقال ذات يوم رحمة الله علينا وعلى أخي موسى لو لبث مع صاحبه لابصر العجب العجاب ولكنه قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا فانطلقا يمشيان حتى أتيا أهل قرية واختلفوا في القرية قال ابن عباس

استطعموه فالوا في المسجد قائماً يصلي ويقرأ فقال أيها الشاب ما كنت تقرأ

كلام الله تعالى قال فأسمعني تلك النغمة فقال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم إن الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون تعرف في وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم عيناً يشرب بها المقربون ثم قال أيها المغرور انها خلاف مجلسك ومستشرفك انها أرائك مفروشة بطائنها من إستبرق على رفرف خضر وعبقري حسان سرف ولي الله تعالى منها على جنتين فيهما عينان تجريان فيهما من كل فاكهة زوجان لا مقطوعة ولا ممنوعة في عيشة راضية في جنة عالية لا تسمع فيها لاغية فيها عين جارية فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة في ظلال وعيون وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار نار وأي نار ان المجرمين في عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون في ضلال وسعر يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ

بلبيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التى تؤويه ومن فى الأرض جميعاً ثم ينجيه كلا إنها لظى نزاعه للشوى تدعوا من أدبر وتولى وجمع فأوعى فى جهد جهيد وعذاب شديد ومقت من رب العالمين رماهم منها بمخرجين قال نعام الهاشمى من مجلسه وعانق الشاب وبكى على نفسه وقال لجلسائه انصرفوا عنى وخرج إلى صحن داره وقعد على حصير مع الشاب ينوح على شبابه ويندب نفسه هذا والشاب يعظ إلى أن يصبح وقد عاهد الله تعالى أن لا يعود إلى معصية أبداً فلما أصبح أظهر توبته وأمر بالفضة والذهب والجواهر وأنواع الملابس فباعها كلها وتصدق بها وقطع الأجور عن نفسه ورد الضياع المنقطعة وباع ضياعه وعبيده وجواريه وأعتق من أخيار العتق وتصدق بجميع ماله كله ولبس الصوف الخشن وأكل الشعير بعد التنعم بأفخر المآكل والمشرب ولزم المسجد والعبادة فكان يحيى الليل ويصوم النهار حتى كان يزوره الصالحون والأبرار ويقولون له ارفق بنفسك فإن المولى كريم يشكر اليسير ويعفو عن الكثير فيقول ياقوم دعونى فإنى أعرف بنفسى ان جرمى عظيم عصيت مولاى بالليل والنهار ويبكى ويكثر فى البكاء ثم خرج حاجا على قدميه حافياً ماعليه غير خيشة وما

هى انطاكية وقال محمد بن سيرين هى أيلة وهى أبعد أرض الله من السماء وقيل هى قرية من قرى الروم يقال لها ناصرة واليها ينسب النصارى قالوا فوافيناها قبل غروب الشمس فاستطعمنا أهلها واستضفناهم فأبوا أن يضيفوهما قالوا كانوا أهل قرية لئاما وقال قتادة فى هذه الآية شر القرى التى لا تضيف الضيف ولا تعرف لابن السبيل حقه قالوا فلم يجدوا تلك الليلة فى تلك القرية قرى ولا ماء ولا مأوى وكانت ليلة باردة فالتجؤا إلى حائط على شارع الطريق يريد أن ينقض أى يكاد أن ينهدم ويسقط ولم يمر به أهل القرية ولا غيرهم من الناس إلا على خوف منه وكان قد بناه رجل صالح وفى بعض الأخبار أن سمك ذلك الحائط ثلاثين ذراعاً بذراع ذلك القرن وكان طوله على على وجه الأرض خمسمائة ذراع وعرضه خمسون ذراعا فأقامه الخضر أى سواه وقال ابن عباس هدمه وبناه وقال سعيد بن جبير مسح الجدار وسواه بيده ومنكبيه فاستقام فقال له موسى لو شئت لاتخذت عليه أجراً ليكون لنا قوة وبلغة على سفرنا إذ استضفناهم فلم يضيفونا فقال له الخضر هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً ثم أخذ يفسر له فقال أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر الآية قال كعب وغيره كانت لعشرة إخوة زمنى لم يكن لهم معيشة غيرها ورثوها من أبيهم خمسة منهم يعملون فى السفينة فى البحر وخمسة لا يطيقون العمل فأما العمال منهم فأحدهم كان مجذوماً والثانى أعور والثالث أعرج والرابع آذر والخامس محموم لا تنقطع عنه الحمى الدهر كله وهو أصعرهم والخمسة التى لا يطيقون العمل أعمى وأصم وأخرس ومقعد ومجنون وكان البحر الذى كانوا يعملون فيه ما بين فارس إلى بحر الروم ويروى) عن عكرمة قال قلت لابن عباس فى قوله أما السفينة فكانت لمساكين كانوا مساكين والسفينة تساوى الف دينار فقال إن المسافر مسكين وإن كان معه الف دينار ولهذا قيل إن المسافر وماله على قلة إلا ما وفى الله تعالى فأردت أن أعيبها قطعا بطمع الطامعين فيها ودفعا لشرهم وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً وراءهم أى أمامهم قال الله تعالى من ورائه جهنم ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون أى أمامهم وقيل خلفهم لأنه كان رجوعهم فى طريقهم عليه ولم يكونوا يعلمون خبره فاعلم الله تعالى الخضر خبره وكان يأخذ كل سفينة صالحة غصباً وكذلك كان يقرؤها ابن عباس فخرقتها وعبتها كى لا يتعرض لها ذلك الملك واختلفوا فى اسم ذلك الملك فقال أكثر العلماء اسمه جلندى وكان كافراً وقال ابن اسحق كان إسمه منواه ابن جلندى الأزدى وقال شعيب الجبائى كان إسمه هدد بن بدد وقيل كان لهذا الملك ثلثمائة وستون قصراً فى كل قصر امرأة فقال فاجاز الملك وسد الخضر خرق السفينة ورمها وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يغشاهما طغيانا وكفراً فيهلكهما وقيل خشى أن يدرك فيدعو أبويه إلى الكفر فيجيباه ويدخلوا معه فى دينه لفرط محبتهما له وقيل خشى على الغلام أن يعمل عمل الفساق فيتغافل أبواه فيدخلان النار فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة واصلاحا وأقرب رحما (وأخبرنا) عبد الله بن حامد بن أحمد قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن يحيى بن الحرث أخبرنا عبد الوهاب بن فليح أخبرنا ميمون بن عبد الله القداح عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه فى هذه الآية قال أبدلهما جارية فولدت سبعين نبياً وقال ابن جريج أبدلهما بغلام مسلم وكان المقتول كافراً وقال قتادة فى هذه الآية قد فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل ولو بقى كان فيه هلاكهما فرضا المؤمن بقضاء الله تعالى فيما يكره خير له من رضاه فيما يحبه وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة واسمهما أصرم وصريم وكان تحته كنز لهما واختلفوا فى ذلك الكنز ماهو فقال ابن عباس وسعيد بن جبير كان صحفاً مدفونة تحته فيها علم وقال الحسن وجعفر بن محمد كان لوحا من ذهب مكتوب فيه بسم الله الرحمن الرحيم عجباً لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن وعجباً لمن يوقن بالرزق كيف يتعب وعجباً لمن يوقن بالموت كيف يفرح وعجباً لمن يؤمن بالحساب كيف يجمع وعجباً لمن يعرف الدنيا وتقلبها كيف يطمئن اليها لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ وقال آخرون كان ذلك الكنز مالا يدل عليه ما أخبرنا أبو بكر الخمشاوى المزكى أخبرنا

أبو الحسن احمد بن محمد بن فيدوس الطرائفي اخبرنا عثمان بن سعيد اخبرنا صفوان الدمشقي أخبرنا يزيد بن مسلم الصنعاني عن بزيد بن يزيد عن مكحول عن أبي الدرداء قال قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى وكان تحته كنز لهما قال كان ذهباً وفضة وكان أبوهما اسمه كاشح وكان صالحاً تقياً أميناً فحفظا بصلاح أبيهما ولم يذكر منهما صلاح وكان بينهما وبين الأب الذي حفظا به سبعة آباء (ويحكى) عن بعض العلوية أنه دخل على هرون الرشيد رجل قدم بقتله فلما دخل عليه أكرمه وخلى سبيله فقيل له بم دعوت حتى نجاك الله قال قلت يا من حفظ الكنز على الصبيين لصلاح أبيهما احفظني منه لصلاح آبائي فأراد ربك ان يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما المدفون تحت الجدار وما فعلته عن أمري وإنما فعلته بأمر الله تعالى ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً ويقال لما عاب موسى على الخضر خرق السفينة وقتله الغلام واقامته الجدار محتسباً بجانا قال له يا موسى أتلومني على خرق السفينة مخافة غرق أهلها ونسيت نفسك حين القتك أمك وأنت صغير في اليم ضعيف فحفظك الله وتلومني على قتل الغلام الكافر بلا أمر ونسيت نفسك حين قتلت القبطي بغير أمر وتلومني على ترك أخذ الأجرة في إقامة الجدار ونسيت نفسك حين سقيت غنم شعيب محتسباً لأجل الملك الجبار (قال بعض أهل الأخبار) هذا ما كان من قصة موسى وفتاه وقصدهما الخضر حيث كانوا في التيه فلما فارق موسى الخضر رجع إلى قومه وهم في التيه (ويروى) عن علي بن أبي طالب وغيره أن موسى لما أراد فراق الخضر قال له الخضر استودعتك الله ثم قال له موسى أوصني فقال له الخضر لا تكثر مشاء في غير حاجة وإياك اللجاجة ولا تضحك من غير عجب ولا تعير الخاطئين بخطاياهم وابك على خطيئتك ولا تؤخر عمل اليوم إلى الغد (وروى) أبو أمامة الباهلي عن النبي ﷺ أنه قال ألا أحدثكم عن الخضر قالوا بلى يا رسول الله قال فبينما الخضر يمشي في سوق من أسواق بني إسرائيل إذ لقيه مكاتب فقال له تصدق علي بارك الله لك فقال آمنت بالله وما يقضي الله من أمر سيكون ما معي من شيء أعطيكه فقال له السائل أسألك بالله لما تصدقت علي قال الخضر آمنت بالله ما يقضي الله من أمر سيكون ما معي من شيء أعطيكه إلا أن تأخذ بيدي وتدخلني في السوق فتبيعني قال الرجل وهل يكون مثل هذا قال الخضر أقول انك سألتني بعظيم سألتني بوجه ربي وقد أجبتك فخذ بيدي وأدخلني السوق فبعني فأخذ بيد الخضر فأدخله السوق فباعه بأربعمائة درهم فلبث عند المبتاع أياما لا يستعمله في شيء فقال له الخضر استعملني فقال له إنك شيخ كبير وأكره أن أشق عليك قال لا يشق علي ذلك قال فقم فانقل هذه الحجارة من هنا إلى ههنا وكانت الحجارة لا ينقلها إلا ستة نفر في يوم تام فقام ونقلها في ساعة واحدة وأمده الله تعالى على نقلها بملك من الملائكة فتعجب الرجل منه وقال أحسنت ثم عرض للرجل سفر فقال للخضر إني أراك أميناً صالحاً ناصحاً فاخلفني في أهلي قال نعم إن شاء الله فاستعملني في شيء قال أكره أن أشق عليك قال لا يشق ذلك علي فقال اضرب لي لبناً أريده لقصر لي ووصفه له ثم خرج لسفره فلما قضى حاجته ورجع من سفره إذا هو بالخضر عليه السلام وقد شيد بنيانه على ما أراد فازداد منه تعجباً وقال له من أنت قال أنا المملوك الذي كنت اشتريتني فقال له سألتك بوجه الله تعالى ان تخبرني من أنت فقال الخضر أن هذا القسم هو الذي أوقعني في العبودية أما أنا سأخبرك أنا الخضر سألني سائل بوجه ربي أن أعطيه فامكنته من نفسي حتى باعني وبلغني أن من سئل بوجه الله ورد سائله وهو يقدر على قضاء حاجته وقف يوم القيامة بين يدي ربه وليس على وجهه لحم ولا جلد إلا عظم يتقعقع قال فبكى ذلك الرجل وانكب عليه يقبله ويقول بأبي أنت وأمي شفقت عليك ولم أعرفك فاحكم في مالي وأهلي وإن احببت أن اخلي سبيلك فعلت قال نعم بل أحب أن تخلي سبيلي أعبد ربي وكان الرجل كافراً فأسلم على يديه وأعطاه أربعمائة دينار وخلى سبيله فأوحى الله اليه قد أنجيتك من الرق وأسلم الكافر على يديك وأعطاك مكان كل درهم ديناراً لتعلم أن لا يخسر أحد في معاملتي فهذا آخر قصة الخضر وموسى وفتاه والله أعلم.

قدم مكة وقضى حجة فأقام بها إلى أن توفي إلى رحمة الله تعالى وكان يدخل الحجرة بالليل ويبكي على نفسه ويقول يا سيدي ذهبت شهواتي وبقيت تبعاتي فالويل لي يوم القاك والويل ثم الويل لي من صحيفتي إذا نشرت مملوءة من فضائحي وخطاياي ثم أنشد يقول شعراً:

عصيتك جاهلا ياذا المعالي
ففرج ما ترى من سوء حالي
إلى من يرجع المملوك إلا
إلى مولاه يا مولى الموالي
فإنك أهل مغفرة وعفو
وتواب ومفضال النوال

(وحكى عن عبد الله بن مهران رضي الله تعالى عنه أنه قال) حج هرون الرشيد رحمه الله تعالى سنة من السنين فأتى الكوفة فأقام بها أياماً ثم ضرب بالرحيل فخرج الناس يودعونه وخرج بهلول المجنون رضي الله تعالى عنه فيمن خرج فجلس بالكناسة والصبيان يؤذونه ويولعون به حتى إذا أقبلت هوادج هرون الرشيد كف الصبيان عن أذاه فلما جاء هرون نادى بأعلى صوته يا أمير المؤمنين فكشف هرون الستجاف بيده وقال لبيك يا بهلول لبيك يا بهلول فقال يا أمير المؤمنين حدثنا أيمن بن نائل عن قدامة بن عبد الله العامري انه قال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يرمي على جمل وتحته رجل

(باب فى ذكر عاميل قتيل بنى إسرائيل وقصة البقرة)

قال الله تعالى (وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) قال المفسرون وجد قتيل فى بنى إسرائيل اسمه عاميل لم يدر من قتله واختلفوا فى قتله وسبب قتله فقال عطاء والسدى كان فى بنى إسرائيل رجل كثير المال وله ابن عم مسكين ولا وارث له غيره فلما طالت عليه حياته قتله ليرثه وقال بعضهم كان تحت عاميل ابنة عم له ما لها فى بنى إسرائيل مثل فى الحسن والجمال فخطبها ابن عم له لينكحها فلما قتله حمله من قرية إلى قرية أخرى فألقاه هناك وقال عكرمة كان لبنى إسرائيل مسجد له اثنا عشر بابا لكل سبط منها باب فوجد قتيل على باب سبط جر إلى باب سبط آخر فاختصم فيه السبطان وقال ابن سيرين قتله القاتل ثم احتمله ووضعه على باب رجل منهم ثم أصبح يطلب ثاره ويدعيه عليه وقيل القاه بين القريتين فاختصم أهلهما وجاء أولياؤه إلى موسى وأتوه بناس وادعوا عليهم القتل وسألوه القصاص فسألهم موسى عن ذلك فجحدوا ولم يكن لهم بينة فاشتبه أمر القتيل على موسى ووقع بينهم قتال واختلاف وذلك قبل نزول القسامة فى التوراة فسألوا موسى أن يدعوا الله ليبين لهم أمر القتيل فسأل موسى ربه فأمرهم بذبح البقرة فقال لهم موسى إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا أجئتنا لنسألك عن القتيل فتأمرنا بذبح بقرة وإنما قالوا ذلك لتباعد الأمرين فى الظاهر ولم يدروا وجه الحكمة فيه فقال موسى أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين أى من المستهزئين المؤمنين فلما علم القوم ذبح البقرة أمر من الله تعالى قد لزمهم سألوه الوصف فقالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ولو أنهم عمدوا إلى أدنى بقرة فذبحوها لاجزأت عنهم لكنهم شددوا الأمر على أنفسهم فشدد الله عليهم وإنما كان تشديدهم تقديرا من الله وحكمة وكان السبب فيه على ما ذكره السدى وغيره أن رجلا فى بنى إسرائيل كان بارا بأبيه وبلغ من بره أن رجلا أتاه بلؤلؤة فابتاعها بخمسين ألفا وكان فيها فضل وربح فقال البائع أعطنى ثمن اللؤلؤة فقال ان أبى نائم ومفتاح الصندوق تحت رأسه فأمهلنى حتى يستيقظ وأعطيك الثمن فقال أيقظ اباك واعطنى المال فقال ما كنت لافعل ولكن اريدك عشرة آلاف وانظرنى حتى ينتبه أبى فقال الرجل انا احط عنك عشرة آلاف ان أيقظت أباك وعجلت النقد فقال أنا زائد عشرين ألفا ان انتظرت انتباهه فقال قبلت فقعد ولم يوقظ أباه فلما استيقظ أبوه أخبره بذلك فدعا له وجزاه خيرا وقال احسنت يا بنى وهذه البقرة لك بما صنعت وكانت بقية بقر كانت لهم (وقال ابن عباس ووهب وغيرهم من أهل الكتب) كان فى بنى إسرائيل رجل صالح وله ابن طفل وكان له عجلة فأتى بالعجلة إلى غيضة وقال اللهم إنى استودعتك هذه العجلة لابنى حتى يكبر ثم مات الرجل وشبت العجلة فى الغيضة حتى صارت عوانا وكانت تهرب من كل من رآها فلما كبر الابن وكان بارا بوالدته وكان يقسم الليل ثلاثة أثلاث يصلى ثلثا وينام ثلثا ويجلس عند رأس أمه ثلثا فإذا أصبح انطلق فاحتطب على ظهره فيأتى به السوق فيبيعه بما شاء الله ثم يتصدق بثلثه ويأكل بثلثه ويعطى والدته ثلثه قالت له أمه يوما أن أباك ورثك عجلة وذهب بها إلى غيضة كذا وكذا واستودعها الله تعالى فانطلق اليها وعزم عليها بإله إبراهيم واسمعيل وإسحق أن يردها عليك وعلامتها إنك إذا نظرت اليها يتخيل لك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها وكانت اسمها المذهبة لحسن خلقها وصفاء لونها وصفرتها فأتى الغيضة فرآها وهى ترعى فصاح بها الفتى وقال لها اعزم عليك بإله إبراهيم واسمعيل وإسحق ويعقوب أن ترددى على فأقبلت تسعى حتى قامت بين يديه فقبض على عنقها وقادها بشكلمت البقرة بإذن الله تعالى وقالت أيها الفتى البار بوالدته اركبنى فإن ذلك أهون لك فقال الفتى ان أمى لم تأمرنى بذلك وإنما قالت خذ بعنقها فقالت البقرة وإله بنى إسرائيل لو ركبتنى ما كنت تقدر على أبدا فانطلق لو أشرت إلى الجبل أن ينقلع من أصله وينطلق لفعل لبر بوالدتك فانطلق الفتى بها فاستقبله عدو الله إبليس فى صورة راع فقال له أيها الفتى إنى راع من رعاء البقر اشتقت إلى أهلى فأخذت ثورا من ثيرانى وحملت عليه زادى ومتاعى حتى إذا بلغت شطر هذا الطريق ذهبت لأقضى حاجتى فعدا وسط الجبل وما قدرت

متواضعا فى سفره فتواضع فى سفرك هذا يا أمير المؤمنين خير أمن تكبرك وتجبرك قال فبكى هرون الرشيد حتى تساقط دموعه على الأرض ثم قال زدنا يا بهلول فأنشد فهب ذا إن ملكت الأرض طرا

ودان لك العباد فكان ماذا
أليس ترى مقبلك جوف قبر
ومحثون التراب عليك هذا
قال فبكى هرون ثم قال أحسنت يا بهلول هل غيره فقال نعم يا أمير المؤمنين رجل أتاه الله مالا وجمالا فانفق من ماله وعف فى جماله كتبه الله تعالى فى ديوان الأبرار فقال أحسنت يا بهلول سر مع الجائزة فقال اردد الجائزة على من أخذتها منه فلا حاجة لى بها فقال يا بهلول إن كان عليك دين قضيناه فقال يا أمير المؤمنين لا يقضى دين بدين أردد الحق إلى أهله واقض دين نفسك بنفسك قال يا بهلول اذكر لنا حاجة فنجزى عليك ما يكفيك فرفع البهلول رأسه إلى السماء ثم قال يا أمير المؤمنين أنا وأنت من عباد الله، فمحال أن يذكرك وينسانى فأسبل هرون السجاف ومضى فلما قضى حجه وأتى أوان الحج ثانيا خرج هرون الرشيد حاجا وحلف أن لا يحج إلا ماشيا إلى مكة فنفرش له من جوف العراق إلى اليمن لبود من قراه

عليه وإني لأخشى على نفسي الهلكة فان رأيت أن تحملني على بقرتك هذه وتنجيني من الموت وأعطيك بقرتين مثل بقرتك فلم يفعل الفتى وقال اذهب فتوكل على الله فلو علم الله منك اليقين لبلغك بلا زاد ولا راحلة فقال له إبليس لعنه الله إن شئت فبعنيها بحكمك وإن شئت فاحملني عليها وأعطيك عشرة أمثالها فقال له الفتى إن أمي لم تأمرني بهذا فبينما الفتى كذلك إذ طار طائر من بين يدي البقرة فنفرت البقرة هاربة في الفلاة وغاب الراعي فدعاها الفتى وقال بسم الله إله إبراهيم فرجعت إليه البقرة وقالت أيها الفتى البار بوالدته ألم تر إلى الطائر الذي طار فانه إبليس عدو الله اختلسني أما أنه لو كنني ما قدرت عليه أبداً فلما دعوت بإله إبراهيم جاءني ملك انتزعني من يد إبليس وردني إليك لبر أمك وطاعتك لها فجاء بها الفتى إلى أمه فقالت له إنك فقير لا مال لك ويشق عليك الاحتطاب بالنهار والقيام بالليل فانطلق فبع البقرة وخذ ثمنها فقال بكم أبيعها فقالت بثلاثة دنانير ولا تبعها بغير رضاي ومشورتي وكان ثمن البقرة في ذلك الوقت ثلاثة دنانير فانطلق بها إلى السوق فبعث الله إلى الفتى ملكا ليرى خلقه وقدرته وليختبر الفتى كيف بر بوالدته وكان الله به خبيراً فقال له الملك بكم تبيع هذه البقرة فقال بثلاثة دنانير واشترط عليك رضا والدتي فقال له الملك أنا أعطيك ستة دنانير ولا تستأمر أمك فقال له الفتى لو أعطيتني وزنها ذهباً لم آخذه إلا برضا أمي فردها إلى أمه وأخبرها بالثمن فقالت ارجع فبعها بستة دنانير على رضاي فانطلق الفتى بالبقرة إلى السوق فأتى الملك فقال له الملك استأمرت والدتك قال الفتى نعم امرتني ان لا أنقصها عن ستة دنانير على ان استأمرها فقال له الملك إثني عشر ديناراً على أن لا تستأمرها فأبى الفتى ورجع إلى أمه فاخبرها بذلك فقالت إن ذلك الرجل الذي يأتيك هو ملك من الملائكة يأتيك في صورة آدمي ليختبرك فإذا أتاك فقل له أتأمرني أن أبيع هذه البقرة أم لا ففعل الفتى ذلك فقال له الملك اذهب إلى أمك وقل لها امسكي هذه البقرة فان موسى بن عمران يشتريها منك لقتيل يقتل في بني إسرائيل ولا تبيعها إلا بملء جلدها دنانير فامسكا البقرة وقدر الله على بني إسرائيل ذبح تلك البقرة بعينها مكافأة له على بر والدته فضلا منه ورحمة فذلك قوله تعالى (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي) وما سمتها قال موسى إنه يعني الله يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر أي لا كبيرة ولا صغيرة عوان بين ذلك نصف بين السنين فافعلوا ما تؤمرون من ذبح البقرة ولا تكثروا السؤال قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين اليها وتعجبهم من حسنها وصفائها لأن العين تسر وتولع بالنظر إلى الشيء الحسن قالوا ادع لنا ربك ما هي اسائبة أم عاملة فان البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون إلى وصفها قال رسول الله ﷺ وأيم الله لو لم يستثنوا لما قبلت منهم إلى آخر الأبد قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول مذللة بالعمل تثير الأرض تقلبها للزراعة ولا تسقي الحرث مسلمة بريئة من العيوب لا شية فيها قال عطاء لا عيب فيها وقتادة لا بياض فيها أصلا وقال محمد بن كعب لا لون فيها يخالف معظم لونها قال فلما قال موسى هذا قالوا الآن جئت بالحق أي بالوصف الثابت التام البين فطلبوها فلم يجدوها بكمال وصفها إلا عند الفتى البار بأمه فاشتروها منه بملء جلدها ذهباً وقال السدي اشتروها بوزنها عشر مرات ذهباً فذبحوها وما كادوا يفعلون من غلو ثمنها وقال القرطبي وما كادوا يذبحونها باجتماع أوصافها وذلك قوله تعالى (وإذ قتلتم نفساً) يعني عامدا وهذه الآية أول القصة (فادارأتم فيها) أي فاختلفتم فيها (والله مخرج) أي مظهر (ما كنتم تكتمون) أي تختلفون فقلنا اضربوه يعني القتيل ببعضها أي ببعض البقرة واختلفوا في هذا البعض ما هو قال ابن عباس ضربوه بالعظم الذي يلي الغضروف وهو المقتل وقال الضحاك بلسانها قال حسين بن الفضل وهذا أولى الأقاويل لأن المراد من إحياء القتيل كلامه واللسان وقال سعيد بن جبير بعجب ذنبها قال غياث وهو أولى التأويلات بالصواب لأن عجب الذنب أساس البدن الذي ركب عليه الخلق وهو أول ما يخلق الله وآخر ما يبلى وقال مجاهد بذنبها وقال عكرمة والكلبي بفخذها الأيمن وقال السدي بالبضعة التي بين كتفيها وقيل بأذنيها ففعلوا ذلك فقام القتيل

قاعدتين يوماً إلى ميل وكان قد تعب من المشي فبينما هو كذلك إذا

يسعدون المجنون قد عارضه في الطريق وأنشد يقول :

هب الدنيا تواتيكا ... أليس الموت يأتيكا
فما تصنع بذا الدنيا ... وظل الميل يكفيكا
ألا يا طالب الدنيا ... دع الدنيا لشأنيكا
كما أضحكك الدهر ... وكذاك الدهر يبكيك

قال فشهق هرون الرشيد شهقة وأغشي عليه حتى فاتته ثلاث صلوات فلما افاق طلب سعدون فلم يجده رحمة الله تعالى عليهم أجمعين ونفعنا بهم وببركاتهم آمين .

(وحكي عن نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام أنه قال) بينما أنا جالس على سرير ملكي شاكراً لله على ما أولاني من النعم إذ أوحى إلي أن أخرج إلى ساحل البحر الفلاني تر عجباً من خلق الله تعالى بال سليمان عليه السلام فخرجت ومعي من الإنس والجن والوحوش والطيور وما أشبه ذلك فلما وصلت إلى الساحل نظرت يميناً وشمالا فلم أر شيئاً فقلت لعفريت من الجن غص في هذا البحر وائتني بما تجده فيه فغاص العفريت ورجع بعد ساعة قال يا نبي الله غصت مسيرة كذا وكذا فلم أصل إلى قاعه ولا نظرت فيه شيئاً فقال سليمان عليه

السلام لعفريت آخر غص مثل ما قاله الأول فتعجب سليمان عليه السلام من ذلك فقال العفريت يا نبي الله غصته مثل ما غاصه الأول مرتين فلم أجد شيئاً فقال سليمان عليه السلام لآصف ابن برخيا وزيره امض فى هذا البحر وأتنى بما فيه قال فغاص آصف فى البحر ساعة وآتاه بقبة عظيمة من الكافور والأبيض لها أربعة أبواب باب من الدر وباب من الياقوت وباب من الجواهر وباب من الزبرجد الأخضر والأبواب كلها مفتحة ولم يدخل فيها قطرة من الماء وهى فى مكان عميق فوضعها بين يدى سليمان عليه السلام فنظر فيها فإذا فى وسطها شاب جميل حسن الثياب نظيف الأثواب قائم يصلى فدخل سليمان إليه وسلم عليه وقال ما أنزلك إلى قاع هذا البحر فقال يا نبي الله أحدثك بقصتى قال نعم فقال كان لى أب مقعد ووالدة عمياء فأقمت فى خدمتهما سبعين سنة فلما حضرت وفاة والدتى قالت عند موتها اللهم أطل حياة ولدى فى طاعتك ولما توفى والدى قال عند موته اللهم استخدم ولدى فى مكان لا يكون للشيطان عليه سبيلا فأجاب الله دعاء هما فخرجت يوماً من الأيام أريد النزهة فمشيت إلى ساحل هذا البحر

فى هذا البحر وائتنى بما تجده فغاص العفريت ورجع بعد ساعتين وقال

بإذن الله تعالى وأوداجه تشخب دماً وقال قتلنى فلان ثم سقط ومات مكانه قال الله تعالى (كذلك يحيى الله الموتى) كما احيا عاميل بعد موته يريكم آياته دلائل قدرته وشواهد حكمته لعلكم تعقلون قالوا فلما كان من أمر عاميل ما كان أوحى الله تعالى إلى موسى أن يتوجه إلى الأرض المقدسة ببنى إسرائيل لينظر إلى كل قتيل يوجد بين قريتين أو محلتين فيأخذ أقرب القريتين اليه ويلزمهم الدية فان علموا قاتله سلموه إلى أهله وإن لم يعلموا تخيروا خمسين رجلا من شيوخهم وصلحائهم ثم ليحلفوا بالله العظيم رب السموات والأرض إله بنى إسرائيل وإسحق ويعقوب وإسمعيل إنا ما قتلناه ولا علمنا قاتلاه فاذا حلفوا برئوا من دمه وأدوا ديته إلى أوليائه فلم يزل موسى يقضى بالقسامة بينهم إلى أن مات وكذا بنو إسرائيل حتى جاء الإسلام فقضى رسول الله ﷺ بالقسامة والله أعلم

(باب فى ذكر بناء بيت المقدس والقربان والتابوت والسكينة وصفة النار)

(التى كانت تأكل القربان وما أمر به موسى عليه السلام من ذلك)

قال الله تعالى (الذين قالوا إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار) الآية (أنبأنا) محمد بن حمدويه بإسناده عن وهب بن منبه قال أوحى الله إلى موسى أن يتخذ مسجداً لجماعتهم وبيتاً للتوراة والتابوت والسكينة وقبلة للقرآن وأن يجعل لذلك المسجد سرادقات باطنها وظاهرها من الجلود الملبسة عليها وأن تكون تلك الجلود من جلود ذبائح القربان وحبالها التى تمدها من أصواف تلك الذبائح وعهد إليه أن لا يغزل تلك الحبال حائض ولا يدبغ تلك الجلود جنب وأمره أن ينصب تلك السرادقات على عمد من نحاس طول كل عمود منها أربعون ذراعاً ويجعل فيها إثنى عشر قسماً مسرجافاذا انقضى وصار إثنى عشر جزءاً جعل على كل جزء مما فيه من العمد سبطاً من أسباط بنى إسرائيل وأمره أن يجعل سعة تلك السرادقات ستمائة ذراع وأن ينصب فيه سبعة أبواب ستة منها مشتبكة بقضبان الذهب والفضة كل واحدة منهن منصوبة على عمود من فضة طوله أربعون ذراعاً وعليها أربعة دسوت من ثياب محلاة الباطن الأول سندس أخضر والثانى أرجوان أحمر والثالث ديباج والرابع من جلود القربان وقاية لها من المطر والغبار حبالها التى تمدها من صوف القربان وأن يجعل سعتها أربعين ذراعاً وأن ينصب فى جوفها موائد من فضة مربعة يوضع عليها القربان سعة كل مائدة أربعة أذرع كل مائدة منها على أربع قوائم من فضة كل قائمة ثلاثة أذرع لا ينال الرجل منها إلا قائماً وأمره أن ينصب بيت المقدس على عمود من ذهب طوله سبعون ذراعاً يضعه على سبيكة من ذهب أحمر طولها تسعون ذراعا مرصع بأنواع الجواهر وأن يجعل أسفله مشتبكا بقضبان الذهب والفضة وان يجعل حبالها التى تمدها من أصواف القربان وأن يجعله مصبوغا بألوان من احمر واصفر وأخضر وأن يلبسه سبعة من الجلال محلاة الباطن الأول منها سندس أخضر والثانى أرجوان احمر والثالث من الديباج الأصفر والرابع من الحرير الأصفر وكذلك أثواب نحوها وسائرها من الديباج ولوشى والظاهر له غاشية من جلود القربان وقاية من الأذى والندى وامره ان يجعل سعته سبعين ذراعاً وأن يفرش القباب بالقز الأحمر وأمره أن ينصب فيه تابوتاً من ذهب كتابوت الميثاق مرصع بألوان الجواهر واليواقيت وان يجعل سعته سبعة أذرع فى أربعة أذرع علوه قامة موسى وان يجعل له أربعة أبواب باب تدخل منه الملائكة وباب يدخل منه موسى وباب يدخل منه هرون وباب يدخل منه أولاد هرون وهم سدنة ذلك البيت وخزان التابوت وأمر الله نبيه موسى عليه السلام أن يأخذ من كل محتلم فيهم من بنى إسرائيل مثقالا من ذهب فينفقه على هذا البيت وأن يجعل باقى ذلك المال الذى لا يحتاج اليه من الحلى والحلل التى ورثها الله بنى إسرائيل وموسى واصحابه من فرعون وقومه ففعل أمر بيت المقدس ففعل ذلك فبلغ عدد بنى إسرائيل ستمائة ألف وسبعة وخمسين رجلا فأخذ منهم ذلك المال وأوحى الله اليه أنى منزل عليكم من السماء ناراً لا دخان لها ولا تحرق شيئاً ولا تطفأ ابداً لتأكل القربان المتقبلة وتسرج القناديل التى فى بيت المقدس وهى من ذهب معلقة بسلاسل من

الذهب منظومة من اليواقيت واللآلىء وأنواع الجواهر وأمره أن يصنع في وسط البيت صخرة عظيمة من الرخام وينقر فيها نقرة لتكون كانون في تلك النار التي تنزل من السماء فدعا موسى أخاه هرون وقال له ان الله قد اصطفاني بنار تنزل من السماء تأكل القرابين المتقبلة وتسرج منها القناديل وأوصاني بها وأني قد اصطفيتك بها وأوصيتك بها فدعا هرون ابنيه وقال لهما ان الله تعالى قد اصطفا موسى بأمر وأوصاه به وانه قد اصطفاني له واوصاني به وإني اصطفيتكما له وأوصيتكما به وكان أولاد هرون هم الذين يلون سدنة هذا البيت وأمر القربان والنيران فشربوا ذات ليلة حتى ثملوا ثم دخلوا البيت وأسرجوا القناديل من هذه النار التي في الدنيا فغضب الله عليهم وسلط عليهم تلك النار فاحرقتهما وموسى وهرون يدفعان عنهما النار فلم يغنيا عنهما من أمر الله شيئاً فأوحى الله تعالى إلى موسى هكذا أفعل بمن عصاني ممن يعرفني فكيف أفعل بمن لا يعرفني من أعدائي وهذا آخر القصة والله أعلم

(باب في ذكر مسير بني إسرائيل إلى الشام حتى جاوزوا البحر وصفة حرب الجبارين وقصة التيه وما يتعلق بذلك)

قال الله تعالى (وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا) الآيات اختلفت عبارات المفسرين في الأرض المقدسة ماهي فقال مجاهد هي الطور وما حوله وقال مقاتل هي ايليا وبيت المقدس وقال عبد الله بن عمر الحرم محرم بمقداره من السموات والأرض والبيت المقدس مقدس بمقداره من السموات والأرض وقال عكرمة والسدي هي أريحا وقال الكلبي هي دمشق وفلسطين وبعض الأردن وقال الضحاك هي الرملة والأردن وفلسطين وقال قتادة هي الشام كله

(فصل في فضل الشام وأهله)

قال زيد بن ثابت بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع إذ قال طوبى لأهل الشام قيل يارسول الله ولم ذلك قال ان ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليهم عن عبد الله بن خولة قال كنا عند النبي ﷺ فقال والله لا يزال هذا الأمر فيكم حتى يفتح الله لكم أرض فارس والروم وأرض حمير وحتى تكونوا أجناد ثلاثة جند بالشام وجند بالعراق وجند باليمن فقلت يارسول الله اختر لي إن أدركني ذلك فقال أختار لك الشام فأنها صفوة الله تعالى من بلاده واليها يجتبي صفوته من عباده يا اهل الإسلام عليكم بالشام فان صفوة الله من الأرض وان الله تعالى قد تكفل لي بالشام وأهله وقال عبد الله بن مسعود حدثنا رسول الله ﷺ قال قسم الله الخير عشرة أجزاء فجعل منه تسعة أجزاء في الشام وواحد في العراق وقسم الشر عشرة أجزاء فجعل منه تسعة في العراق وواحد في الشام ودخل الشام عشرة آلاف عين رأت النبي ﷺ ونزل حمص تسعمائة من أصحاب النبي ﷺ فيهم سبعون بدريا وقال الكلبي صعد ابراهيم عليه السلام جبل لبنان وقيل له انظر فما أدركه بصرك فهو مقدس وهو ميراث لذريتك من بعدك فذلك قوله تعالى (ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم) يعني كتب الله في اللوح المحفوظ أنها لكم مساكن وقال ابن اسحق وهبها الله لكم مساكن وقال السدي أمركم ان تدخلوها

(ذكر قصة بلعام بن باعوراء)

قال الله تعالى (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) الآية واختلفوا فيه فقال أكثر المفسرين هو بلعام بن باعوراء بن باعر بن أبذر بن ماريت بن لوط وكان من الكنعانيين من مدينة بلقاء وهي مدينة الجبارين وسميت بلقاء لأن ملكها رجل يقال له بالق بن صافوراء وكان قصة بلعام على ماذكره ابن عباس وابن اسحق والسدي والكلبي وغيرهم أن موسى عليه السلام لما قصد حرب الجبارين ونزل أرض بني كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعام إلى بلعام وكان عنده اسم الله الأعظم فقالوا له ان موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة وإنه قد جاء ليخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بني إسرائيل وانا قومك وبنو عمك وجيرانك وليس لنا منزل وانت رجل مجاب الدعوة فادع الله أن يرد عنا موسى وقومه فقال لهم بلعام

فاحتملها ملك من الملائكة وأنزلها في قاع هذا البحر كما ترى يانبي الله فقال سليمان في أي زمان كان قال في زمن إبراهيم عليه السلام فحسب سليمان عليه السلام التاريخ فوجد له الى سنة وأربعمائة سنة وهو شاب فتعجب سليمان عليه السلام من ذلك وقال له فما طعامك وشرابك في هذا البحر فقال يانبي الله يأتيني طائر أخضر كل يوم في منقاره شيء أصفر مثل رأس الإنسان فآكله فأجد فيه لذة كل نعيم في دار الدنيا فيذهب عني الجوع والعطش والحر والبرد والنوم والوحشة فقال سليمان أتحب أن تكون معنا أو ترجع إلى موضعك فقال ردني إلى موضعي يانبي الله فقال سليمان رده يا آصف إلى مكانه فرده إلى مكانه فقال سليمان انظروا كيف استجاب الله تعالى دعاء والديه فاحذروا عقوق والديكم يرحمكم الله ثم مضى سليمان عليه السلام متعجباً من ذلك والله اعلم (وحكى عن الشيخ عبد العزيز الدريني رضي الله تعالى عنه أنه قال) كنت سائحاً في جماعة من أصحابي فاتتنا إلى قبر في بعض البراري كنت أعرف صاحبه وكان من أولياء الله فجلست عند

فبره ابكى فسألنى بعض عرض لى حاجة فى بعض البلاد فسافرت لها فأدركتنى الصلاة فعدلت عن الطريق إلى المسجد الذى كان يصلى فيه فصليت خلفه فاذا هو يلحن فى قراءته فتشوش بالى من ذلك وقلت فى نفسى أقيم عند هذا الفقير أعلمه وأترك حاجتى فهذا أولى فلما سلمنا من الصلاة التفت إلى وقال ياعبد العزيز ألحق حاجتك التى جئت يطلبها وما عليك من اللحن والتعليم فعجبت من مكاشفته على وخرجت فى الحال مسرعاً إلى حاجتى كما أشار فلما دخلت البلد وجدت صاحبى الذى عنده حاجتى يريد السفر ورحله فى الركاب كما قال فلما رآنى ترحل وترحب بى وقضى حاجتى وسافرت فازددت تعجباً من ذلك فالبث والإهدة يسيرة وتوفى إلى رحمة الله تعالى وهذا قبره رضى الله عنه آمين (وحكى عن الشيخ أبى بكر الشبلى رضى الله تعالى عنه) انه قال خرجت يوما على أصحابى وكانوا إنيفاً وأربعين رجلا فقلت لهم ياقوم ان الله تعالى قد تكفل بأرزاق العباد فقال عز من قائل ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب فتركلوا على الله واعتمدوا ثم تركتهم

ويلكم هذا نبى الله ومعه الملائكة والمؤمنون كيف أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم وإنى إن فعلت ذلك ذهبت دنياى وآخرتى فلم يزالوا به حتى قال اصبروا حتى استأمر ربى وكان لايدعو حتى ينظر مايؤمر به فى المنام فتأمر فى الدعاء عليهم فى المنام فقيل له لاتدع عليهم فقال لقومه إنى قد أمرت ربى فى الدعاء عليكم فنهيت عن ذلك فراجعوه فقال حتى أؤامر ثانياً فلم يجب فقال قد أمرت فلم يجب لى شيأ فقالوا لوكره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما فعل فى المرة الأولى فلم يزالوا يرفقون به ويناشدونه ويتضرعون اليه حتى فتنوه فافتتن فقالوا لبعضهم اهدوا اليه فيقال أنهم أهدوا اليه هدية فقبلها ويقال أن بلعام بن باعوراء لما أبى أن يدعوا على موسى وقومه اجتمع آراء قومه أن يحملوا شيئاً إلى امرأته وقالوا إنها فقيرة وإنه فقير وإنه يصغى إلى رأيها فانطلق عشرة من عظمائهم وحمل كل واحد منهم صحيفة من ذهب مملوءة ورقاً فاهدوها لها فاقبلت على صاحبها وألحت عليه حتى قالت له ارجع إلى ربك فاسأله أن يأذن لك فى مؤازرتهم والدعاء على عدوهم فلم تزل به حتى استجاب فلم يجب اليه بشىء فقالت له انه قد خيرك فى الدعاء عليهم فلو لم يأذن لك لنهاك قالوا فركب أتانا له متوجها إلى جبل يطلعه على عسكر بنى إسرائيل يقال له حسان وكانت مراكب العباد الأولين الاتن فما سار عليها غير بعيد حتى ربضت به فنزل عنها وضربها حتى أذاقها فقامت فركبها فلم تسر به كثيراً حتى ربضت به ففعل بها مثل ذلك فقامت فركبها فلم تسر به كثيراً حتى ربضت به فضربها حتى إذا أذلقها أذن الله تعالى لها فى الكلام حجة عليه فقالت له ويحك يا لمعام أين تذهب الا ترى ان الملائكة أمامى تردنى عن وجهى هذا اتذهب إلى نبى الله والمؤمنين تدعو عليهم فلما سمع ذلك خر ساجداً فلم يزل باكيا متضرعاً حتى غابت عنه الملائكة ثم رفع وجهه فجاء الشيطان وقال امض لوجهك فان ربك يستجيب لك ولو لم يرذلك لما برحت عنك الملائكة ولما خلوا سبيلك فركب اتانه وخلى الله سبيلها فانطلقت به حتى أشرفت على جبل حسبان فجعل لايدعو عليهم بشىء من الشر إلا صرف الله لسانه إلى قومه ولايدعوا لقومه بخير إلا صرف الله به لسانه إلى بنى إسرائيل فقال له قومه اتدرى ما تصنع يا بلعام إنما تدعو لهم وتدعو علينا فقال هذا أمر لا أملك منه شيئاً قد غلبنى الله عليه فانداع لسانه فوقع على صدره فعلم ماحل به فقال لقومه قد ذهبت منى الدنيا والآخرة ولم يبق إلا المكر والحيلة فسآمر لكم واحتال فجلوا النساء وزينوهن وأعطوهن السلع ثم ارسلوهن إلى المعسكر يبعن فيه ويشترين وأمروهن أن لاتمنع امرأة نفسها من رجل أرادها فانهم لو زنى رجل منهم كفيتمونى ففعلوا ذلك فلما دخلت النساء المعسكر مرت امرأة من الكنعانيين اسمها كبشا بنت صور يا برجل من عظماء بنى إسرائيل يقال له زمرى بن سلوم من سبط شمعون بن يعقوب ابن اسحق بن إبراهيم فقام اليها وأخذ بيدها حين أعجبه حسنها وجمالها ثم وقف على موسى وقال إنى ساظنك أن تقول هذه حرام عليك فقال أجل هى حرام عليك لاتقربها قال والله لا أطيعك فى هذا ثم إنه دخل بها فبتنه فواقعها فارسل الله الطاعون على بنى إسرائيل فى الوقت وكان فنحاص بن عيزار بن هرون صاحب موسى رجلا قد اعطى بسطة فى الخلق وقوة فى البطش وكان غائباً حين صنع زمرى بن سلوم ماصنع فجاء والطاعون يحوس فى بنى إسرائيل فاخبره الخبر فأخذ حربته وكانت جديداً كلها ثم دخل عليهما القبة وهما متضاجعان فانتظمهما فى حربته ثم خرج بهما رافعهما بيده إلى السماء والحربة قد أخذها بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة على لحيته وكان بكر العيزار وجعل يقول اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك فرفع الطاعون عنهم فحسب من هلك منهم سبعين الف نفس فى ساعة واحدة فمن هناك يعطى بنو إسرائيل لبنيه من كل ذبيحة ذبحوها الخاصرة والذراع واللحى لاعتماده بالحربة على خاصرته وأخذه إياها بذراعه وإسناده إياها إلى لحيته والبكر من كل أموالهم لأنه كان بكراً لعيزار بن هرون ففى بلعام أنزل الله تعالى (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا) الآية (وقال آخرون) هو نبى من بنى إسرائيل يقال له بلعام أوتى النبوة فرشاه قومه على أن يسكت فنعل وتركهم على ماهم عليه (وقال) عبد الله بن

عمرو زيد بن أسلم وابو روق أنزلت هذه الآية في أمية بن أبي الصلت الثقفي كانت قصته أنه كان في ابتداء أمره قد قرأ الكتب السالفة وعلم أن الله تعالى مرسل رسولا في ذلك الوقت ورجا أن يكون هو ذلك الرسول فلما أرسل محمد ﷺ حسده وكان قصده بعض الملوك فلما رجع من بقتلى بدر سأل عنهم فقيل له قتلهم محمد فقال لو كان نبيا ما قتل أقرباءه فلما مات أمية أتت أخته فارعة رسول الله ﷺ فسألها عن وفاة أخيها فقالت بينما هو راقد إذ أتاه رجلان فكشطا سقف البيت ونزلا فقعدا أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه اوعى قال وعى قال أزكا قال زكا قالت فسألته عن ذلك فقال خبر أريد بي ثم قطرت عينه ثم غشي عليه فلما أفاق قال :

كل عيش وإن تطاول دهراً صائر أمره إلى أن يزولا ليتني كنت قبل ما بدالي
في قلال الجبال أرعى الوعولا إن يوم الحساب يوم عظيم شاب فيه الصغير يوماً ثقيلا

ثم قال لها رسول الله ﷺ ما اطيبه من شعر سألتك بالله ان تنشدي شعر أخيك فأنشدته :

لك الحمد والنعماء والفضل ربنا فلا شيء أعلى منك جداً وامجد
مليك على عرش السماء المهيمن لعزته تعنو الوجوه وتسجد

وهي قصيدة طويلة وانشدته حتى اتت على آخرها ثم انشدته قصيدته التي يقول فيها :

عند ذي العرش يعرضون عليه يعلم الجهر والكلام الخفيا يوم تأتيه وهو رب رحيم
إنه كان وعده مأتيا يوم تأتيه مثل ما قال فردا لم يذد فيه راشد وغويا
أسعيد سعادة أنا أرجو أم مهان بما كسبت شقيا رب إن تعف فالمعافاة ظني
أو تعاقب فلم تعاقب بريا إن أؤاخذ بما اجترمت فاني سوف ألقى من العذاب فريا

فقال ﷺ أمن شعره وكفر قلبه فأنزل الله تعالى فيه (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا) الآية وقال سعيد بن المسيب نزلت في أبي عامر بن النعمان بن صيفي الراهب الذي سماه النبي ﷺ الفاسق فكان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح فقدم المدينة النبي ﷺ ما هذا الذي جئت به قال جئت بالحنيفة دين إبراهيم قال فأنا عليه فقال النبي ﷺ لست عليها ولكنك أدخلت فيها ما ليس منها فقال أبو عامر أمات الله الكاذب منا في مناظرته طريدا فريداً وحيدا فخرج إلى الشام وأرسل إلى المنافقين أعدوا القوة والسلاح وابنوا لي مسجدا فاني ذاهب إلى قيصر وآتي بجند ليخرج محمداً وأصحابه من المدينة فذلك قوله تعالى (وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل) يعني انتظاراً لمجيئه فمات في الشام طريدا وحيدا فريداً ومنهم من قال إنما نزلت في البسوس وكان رجلا قد أعطي ثلاث دعوات مستجابات وكان له امرأة قوله منها واحدة فقالت له اجعل لي منها واحدة فقال لك منها دعوة فماذا تريدين قالت ادع الله أن يجعلني اجمل امرأة في بني إسرائيل فدعا فجعلت أجمل امرأة في بني إسرائيل فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت عنه فتسخط الرجل فدعا عليها فصارت كلبة نباحة فذهب فيها دعوتان فجاء بنوها فقالوا ليس لنا على هذا قرار ولا صبر صارت أمنا كلبة نباحة وأن الناس يعيروننا بها فادع الله أن يردها إلى الحال التي كانت عليها فدعا الله فصارت كما كانت فذهبت فيها الثلاث دعوات كلها .

(باب في ذكر النقباء الذين اختارهم موسى ليكونوا كفلاء على قومهم حين بعثه إياهم إلى أرض كنعان جواسيس له ولقومه)

قال الله تعالى (ولقد أخذ نا ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم إثني عشر نقيباً) الآية وذلك أن الله تعالى وعد موسى أن يورثه وقومه الأرض المقدسة وهي الشام وكان يسكنها الكنعانيون الجبارون وهم العمالقة من ولد عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح ووعده الشام مساكن بني إسرائيل فلما استقرت ببني اسرائيل الدار بمصر أمرهم الله بالمسير إلى أريحاء من أرض الشام وهي الأرض المقدسة فقال يا موسى إني قد كتبتها لكم دارا وقرارا فاخرج إليها وجاهد من فيها من العدو فاني ناصركم عليهم فخذ من قومك إثني عشر رجلا من كل سبط

دخلت عليهم وقلت لهم يا قوم ان الله تعالى قد أباح التسبب للعباد فقال هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه فانظروا إلى أصدقكم نية فليخرج عسى أن يأتيكم بشيء من القوت قال فاختاروا رجلا فقيرا منهم فخرج ومشى في شوارع بغداد فلم يفتح الله عليه بشيء فأخذه الجوع وأعياه العطش فجلس عند دكان طبيب نصراني وعليه من الناس جمع كثير وهو يصف لكل منهم دواء فنظر النصراني إلى الفقير وقال ما بك وما عليك فكره الفقير أن يشكو الجوع إلى النصراني ثم مد يده إليه ليجسها فلما جسها النصراني قال انا أعرف عنك هذه وعندي دواءها ثم التفت إلى غلامه وقال له امض إلى السوق وائتني برطل خبز ورطل شوي ورطل حلوى فمضى الغلام إلى السوق وأتاه بذلك فقال خذ هذا دواء علتك فقال الفقير للنصراني إن كنت صادقاً في حكمك فهذه العلة بأربعين رجلا مثلي فقال النصراني لغلامه امض إلى السوق مسرعا وائتني بأربعين رطلا من ذلك فمضى الغلام إلى السوق وأتى بذلك جميعه

نقيباً يكون كفيلا على قومه بالوفاء بما أمروا به فاختار موسى من كل سبط نقيباً وأمره عليهم وهذه أسماؤهم من كل سبط روبيل بن شموع بن كور ومن سبط شمعون شوقط بن حورى ومن سبط يهوذا كالب بن يوقنا ومن سبط جاد جابذ بن يوسف ومن سبط رياون حدى بن سورى ومن سبط أشير ثابون بن مليقيك ومن سبط بنيامين ناظم بن زقون ثم أنه سار ببنى إسرائيل قاصداً أريحا فبعث موسى إليها هؤلاء النقباء يتجسسون الأخبار له ويعلمون حالها وحال أهلها فلقيهم رجل من الجبارين يقال له عوج بن عنق

(فصل فى ذكر جمل من أخبار عوج بن عنق وأحواله)

قال ابن عمر كان طول عوج ثلاثة وعشرين ألف ذراع وثلثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعا بالذراع الأول وكان عوج يحتجز السحب ويشرب منه الماء ويتناول الحوت من قرار البحر فيشرب بعين الشمس يرفعه اليها ثم يأكله (ويروى) أنه أتى نوحا فى أيام الطوفان فقال له احملنى معك فى سفينتك فقال له اذهب يا عدو الله فانى لم أومر بك فطبق الماء الأرض من سهل ومن جبل وماجاوز ركبتيه وعاش ثلاثة آلاف سنة حتى اهلكه الله على يد موسى وكان لموسى عسكر فرسخ فى فرسخ فجاء عوج ونظر اليهم ثم جاء إلى الجبل وقور منه صخرة على قدر العسكر ثم حملها ليطبقها عليهم فبعث الله عليه الهدهد ومعه الطيور فجعلت تنقر بمناقيرها حتى قورت السخرة وانثقبت فوقعت فى عنق عوج بن عوج فطوقته وصرعته فأقبل موسى وطوله عشرة أذرع وطول عصاه عشرة أذرع وقفز إلى فوق عشرة أذرع فأصاب منه إلا كعبه وهو مصروع فى الأرض فقتله قالوا فاقبل جماعة كثيرة ومعهم الخناجر فجهدوا حتى حزوا رأسه فلما قتل وقع على نيل مصر فحسره سنة قالوا وكانت أمه عنق هى إحدى بنات آدم من صلبه ويقال كانت أول من بغى على وجه الأرض وكان كل أصبع من أصابعها طوله لاثة أذرع فى عرض ذراعين فى كل أصبع ظفران حادان مثل المنجلين وكان موضع مقعدها خربة من الأرض ولما بغت بعث الله إليها أسوداً كالفيل وذئابا ونموراً فقتلوها وأكلوها (قالوا) فما فعلت بنو إسرائيل ما فعلت من معصيتهم نبيهم ومخالفتهم أمر ربهم سوى يوشع وكالب غضب موسى فدعا عليهم وقال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين اى العاصين عجلة عجلها موسى فظهر الغمام على باب قبة موسى وأوحى الله تعالى إلى موسى إلى متى يعصينى هذا الشعب وإلى متى لا يصدقون بهذه الآيات لأهلكنهم جميعاً ولأجعلن لك شعباً أقوى وأكثر منهم فقال موسى إلهى لو أنك قتلت هذا الشعب كلهم رجل واحد لقالت الأمم الذين سمعوا ذلك إنما قتل هذا الشعب من أجل أنه لم يستطع أن يدخلهم الأرض المقدسة فقتلهم فى البرية وإنك طويل صبرك كثير نعمتك وأنت تغفر الذنوب وتحفظ الآباء على الأبناء وأبناء الأبناء فاغفر لهم ولا تؤبقهم فقال الله تعالى يا موسى إنى قد غفرت لهم بكلمتك ولكن بعد باسميتهم فاسقين ودعوت عليهم حلفت بعزتى لاحرمن عليهم دخول الأرض المقدسة غير عبدى يوشع بن نون وكالب ولا تينهم فى هذه البرية أربعين سنة مكان كل يوم من الأيام التى تجسسوا فيها سنة وكانت أربعين يوما وليأتينهم حتفهم فى هذا القفار وأما بنوهم الذين لم يعصونى ولم يعملوا الخير ولا الشر فانهم يدخلون الأرض المقدسة فذلك قوله تعالى (فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض) متحيرين (فلا تأس على القوم الفاسقين) فلبثوا أربعين سنة فى ستة فراسخ وكانوا ستمائة الف مقاتل وكانوا كل يوم يسيرون جادين حتى إذا هم أمسوا فاذا هم بالموضع الذى منه ارتحلوا وشموا الموضع الذى هم فيه فارتحلوا ومات أولئك النقباء العشرة الذين أفشوا الخبر وكل من دخل النيه ممن جاوز عشرين سنة مات فى تلك المدة غير يوشع بن نون وكالب بن يوقنا ولم يدخل أحد أريحا ممن قال إنا لن ندخلها أبدا فلما هلكوا وانقضت أربعون سنة ونشأت النواشى من ذراريهم ساروا إلى حرب الجبارين وفتح الله لهم

﴿ باب فى ذكر النعمة التى أنعم الله بها على بنى إسرائيل وخصهم بذلك ﴾
ورفع عنهم الهلاك كرامة لنبيه وصفيه موسى عليه السلام

قال الله تعالى (يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) الآية كقوله تعالى (وإن تعدوا نعمت الله عليكم لاتحصوها) والعدد لايقع على الواحد التى أنعمت عليكم أى على أجدادكم واسلافكم وذلك أن الله تعالى فلق لهم البحر ونجاهم من آل فرعون وأهلك عدوهم وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم وأنزل عليهم التوراة بيان كل شىء يحتاجون إليه وأعطاهم ما أعطاهم فى التيه وذلك إنهم قالوا لموسى أهلكتنا وأخرجتنا من العمران والبنيان إلى مفازة لاظل فيها فأنزل الله تعالى عليهم غمامة بيضاء رقيقة ليست بغمام المطر بل أرق واطيب وأبرد منه فأظلتهم وكانت تسير بسيرهم إذا ساروا وتدور عليهم من فوقهم إذا نزلوا وذلك قوله تعالى وظللنا عليكم الغمام يعنى فى التيه تقيكم حر الشمس ومنها أنه جعل لهم عمود من نور يضىء لهم بالليل إذ لم يكن ضوء القمر فقالوا هذا الظل والنور قد حصل فأين الطعام فأنزل الله عليهم المن واختلفوا فيه وقال النبى ﷺ الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين قالوا وكان الله ينزل هذا المن كل ليلة يقع على الأشجار مثل الثلج لكل إنسان منهم صاع كل ليلة فقالوا يا موسى قتلنا هذا المن بحلاوته فادع الله ربك لنا يطعمنا اللحم فدعا موسى ربه فأنزل الله عليهم السلوى واختلفوا فيه فقال ابن عباس وأكثر الناس هو طائر يشبه السمانى وقال أبو العالية مقانل هو طير أحمر بعثه الله عليهم فأمطر به السماء فى عرض ميل قدر رمح فى السماء بعضها على بعض وكانت السماء تمطر عليهم ذلك وقيل إنه كان طير مثل فراخ الحمام طيباً سميناً قد تمعطر يشه وزغبه وكانت الريح تأتى به إليهم فيصبحون وهو فى معسكرهم وقيل إنه كان يأتيهم فيسترسل إليهم فيأخذونه بأيديهم وقال عكرمة هو طير يكون بالهند أكبر من العصفور وقال المؤرخ هو العسل بلغة كنانة قال شاعرهم :

وقاسمها بالله جهداً لانتم ألذ من السلوى إذا ما نشورها

فكان الله ينزل عليهم المن والسلوى وكان أحدهم يأخذ ما يكفيه يومه وليلته فإذا كان يوم الجمعة أخذ كل واحد ما يكفيه ليومين لأنه لم يكن ينزل عليهم يوم السبت فذلك قوله تعالى (وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا) أى قلنا لهم كلوا (من طيبات) حلال (مارزقناكم) ولا تدخروا لغد فخبؤا لغد فدود فسد ما أدخروا وقطع الله عنهم ذلك قال الله تعالى (وما ظلمونا) أى أضرونا بالمعصية ومخالفة الأمر (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) باستصحابهم الغذاء وقطع عنهم مادة الرزق الذى كان ينزل عليهم بلا مؤونة ولا مشقة فى الدنيا ولا حساب ولا تبعة فى العقبى أخبرنا شعيب بن محمد قال أخبرنا مكى بن عبدان قال أخبرنا أحمد بن الأزهر قال حدثنا روح بن عبادة قال حدثنا عون بن عبد الله عن جلاس بن عمر عن أبى هريرة قال رسول الله ﷺ لولا بنو إسرائيل لم تخنز اللحم ولم يخبث الطعام ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها ومنها أنهم عطشوا فى التيه فقالوا يا موسى من أين نشرب فاستسقى لهم موسى فأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك الحجر واختلف العلماء فيه فقال وهب كان موسى يقرع لهم أقرب حجر فى أرض الحجارة فينفجر منه عيون لكل سبط منهم عين وكانوا إثنى عشر سبطاً ثم تسيل كل عين فى جدول السبط الذى أمر بسقيهم فقالوا إن فقد موسى عصاه متنا عطشاً فأوحى الله تعالى إليه لاتنقر على الحجارة بالعصا ولكن كلمها تطعك لعلهم يعتبرون وكان يفعل ذلك فقالوا كيف بنا إذا مضينا إلى الرمل وإلى الأرض التى ليس فيها حجارة فأمر موسى أن يحمل معه حجراً أخيث ما نزل ألقاه وقال آخرون كان حجراً مخصوصاً بعينه والدليل عليه قوله تعالى (الحجر) فأدخل الألف واللام للتعريف والتخصيص كقوله رأيت الرجل ثم اختلفوا فى ذلك الحجر ما هو فقال ابن عباس كان حجراً خفيفاً مربعاً مثل رأس الرجل أمر أن يحمله فحمله فكان يضعه فى مخلاته فإذا احتاجوا إلى الماء أخرجه وضربه بعصاه فينفجر عيوناً كما ذكرنا فسقاهم قال أبو روق كالحجر من الكدان وكان فيه إثنتا عشر عيناً أى حفرة ينبع من كل حفرة

فقال الآخر دعه لعل الله

برزقه قال فسرت معهم والأرض تطوى من تحتنا طياً والحب يقول للعشاق هنيأ فلم نزل نسير حتى انتهينا إلى مدينة مبنية بالذهب والفضة وأشجارها متعانقة وأنهارها رائقة وفواكها فائقة قال فدخلناها وأكلنا من ثمرها ثم أخذت معى ثلاث تفاحات فلم يمنعونى من أخذها فسألتهم عند الانصراف عن هذه المدينة فقالوا هذه مدينة الأولياء فإذا أراد الأولياء النزهة ظهرت لهم تلك المدينة أينما كانوا فما دخل فيها أحد قبل الأربعين غيرك قال فلما رجعنا ودخلنا مكة أعطيت الدامغانى تفاحة فقذفها فلامنى أصحابى وقالوا أرد ما أعطيت إلى مكانه فسكت كلما جعت أكلت من تلك التفاحة وهى لا تتغير فرجعت إلى أهلى وقد بقى منها تفاحة واحدة غير التى أدخرتها لنفسى فعانقتنى أختى وقالت أين الذى أتحفتنا به من سفرك فقلت لها وما الذى أتحفكم به وأنا بعيد عن الدنيا وعن الراحة فتغير الحال فقالت أختى فأين التفاحة فقلت وأى تفاحة فقالت يامسكين والله لقد أدخلونى المدينة وأنا بنت عشرين سنة وأما أنت فلم ترها إلا بعد أن طردوك وأنا والله جذبت إليها جذبة وخطوت إليها خطوة قال :

عين ماء عذب فيأخذونه فإذا فرغوا وأراد موسى حمله ضربه بعصاه فيذهب الماء وكان كل يوم يستقى ستمائة ألف من جميع الأجناس وقال سعيد بن جبير هو الحجر الذى وضع موسى عليه ثوبه ليغتسل ففر الحجر بثوبه فلما وقف الحجر أتاه جبريل عليه السلام فقال يا موسى أن الله يقول لك ارفع هذا الحجر فلى فيك قدرة ولك فيه معجزة وهو الذى ذكره الله تعالى فى قوله (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا) الآية وهو ما أخبرنا به الحسن بن أحمد الحدادى باسناده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى سوأة بعض وكان موسى يغتسل وحده فقالوا والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر قال فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر ففر الحجر بثوبه فخرج فى أثره موسى يقول ثوبى يا حجر حتى نظر بنو إسرائيل إلى سوأة موسى فقالوا والله ما بموسى من بأس قال فقام الحجر بعد ما نظر إليه بنو إسرائيل فأخذ ثوبه وطفق بالحجر ضرباً فقال أبو هريرة والله أن أثر ضرب موسى بالحجر ستة أو سبعة قال عبد العزيز الكنانى كان موسى ضرب الحجر إثنى عشر ضربة فكان يظهر فى كل موضع ضربة مثل ثدى المرأة ثم ينفجر بالأنهار المطرودة فذلك قوله تعالى فانفجرت منه إثنتا عشرة عيناً (منها) إنهم قالوا لموسى فى التيه من أين لنا اللباس فخلد الله تعالى ثيابهم التى عليهم حتى لا تزيد على الأيام ومرور الأعوام إلا جدة وظرافة ولا تخلق ولا تبلى وتنموا على صبيانهم كما تنموا فمكثوا على ذلك زماناً طويلا والله أعلم

(باب فتح أريحاء ونزول بنى إسرائيل الشام)

اختلف العلماء فيمن تولى حرب الجبارين وفيمن كان بده الفتح فقال قوم إنما فتح أريحاء موسى ويوشع وكان يوشع على مقدمة فسار موسى إليهم بمن بقى من بنى إسرائيل فى التيه ولم يمت فى التيه فدخلها بهم يوشع وقتل الجبارين الذين كانوا بها فدخلها موسى ببنى إسرائيل فقام فيهم ما شاء الله أن يقيم ثم قبضه الله تعالى ولم يعلم أحد قبره من الناس وهذا أولى الأقاويل بالصدق وأقربها إلى الحق لإجماع العلماء بأخبار الأنبياء أن عوج بن عنق قتله موسى وقال آخرون ما قاتل الجبارين إلا يوشع بن نون ولم يسر إليهم إلا بعد موت موسى وهلاك من كان أبى المسير إليها وقالوا مات موسى وهارون عليهما السلام فى التيه

(قصة وفاة هرون عليه السلام)

قال السدى أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام إنى متوف هرون فأت به جبل كذا وكذا فانطلق موسى وهرون نحو ذلك الجبل وإذا هما بشجرة لم ير مثلها وبيت مبنى وفيه سرير عليه فراش وإذا فيه ريح طيبة فلما نظر هرون إلى ذلك أعجبه وقال يا موسى إنى أحب أن أنام على هذا السرير فقال نم عليه فقال إنى أخاف أن يأتى رب هذا البيت فيغضب على قال موسى لا تخف أنا أكفيك رب هذا البيت فنم فقال يا موسى نم معى فإن جاء رب هذا البيت غضب علينا جميعاً فنام موسى وأخذ هرون الموت فلما وجد حسه قال يا موسى خدعتنى فلما قبض رفع ذلك البيت وذهبت تلك الشجرة ورفع السرير إلى السماء فلما رجع موسى إلى بنى إسرائيل وليس معه هرون قالوا قتل موسى هرون وحسده لحبنا إياه فقال موسى ويحكم أن هرون أخى ووزيرى فكيف أقتله فلما أكثروا عليه قام وصلى ركعتين ثم دعا الله تعالى فنزل السرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض فصدقوه وقال عمر بن ميمون مات موسى وهرون فى التيه ومات هرون قبل موسى ولما خرجا فى التيه إلى بعض الكهوف فمات هرون ودفنه وانصرف إلى بنى إسرائيل فقالوا أين هرون قال مات قالوا كذبت ولكنك قتلته لحبنا إياه وكان محبباً فى بنى إسرائيل فتضرع موسى إلى ربه مما قالوا من بنى إسرائيل فأوحى الله إليه أن انطلق بهم إلى قبره فإنى باعثه حتى يخبرهم إنه مات موتاً ولم تقتله فانطلق بهم إلى قبر هرون فناداه يا هرون فخرج من قبره ينفض التراب عن رأسه فقال له أنا قتلتك قال لا والله ولكنى مت وانصرفوا والله أعلم .

عجبت من كلامها وقلت يا أختى أن البدل الكبير منهم قال لى لم يدخلها أحد قبل الأربعين غيرك قالت نعم يا أخى من المريدين وأما المرادون فيدخلونها ولا يرضون بها ومتى شئت أريتكها فقلت قد شئت فقالت يا مدينة احضرى فوالله لقد رأيت تلك المدينة بعينها وهى تتدلى عليها وتدفع إليها فمدت يدها وقالت أين تفاحك قال فتساقط على من التفاح شىء كثير فضحكت وقالت من عنده هذا البيت محتاج إلى تفاحتك قال فاستحقرت نفسى والله عند ذلك وما كنت أعرف أن أختى من أكابر الأولياء رضى الله عنهم ونفعنا بهم فى الدارين وأمدنا من مددهم وأنفاسهم الطاهرة آمين .

(وحكى عن الشيخ أبى الربيع المالقى أنه قال) سمعت عن امرأة من المتعبدات الصالحات فى بعض القرى اشتهر أمرها وكان من دأبنا أن لا نزور امرأة فدعت الحاجة إلى زيارتها للاطلاع على كرامتها فنزلنا القرية التى هى بها فذكروا لنا أن عندها شاة تحلب لبناً وعسلا فاشترينا قدحا جديداً لم يوضع فيه شىء ثم مضينا إليها وسلمنا عليها وقلنا لها نريد هذه البركة التى ذكرت لنا عنك من هذه الشاة فقالت وكرامة ثم أحضرت لنا الشاة فحلبناها فى ذلك القدح ثم شربنا فوجدنا لبنا وعسلا

(ذكر وفاة موسى عليه السلام)

قال ابن إسحق كان موسى قد كره الموت واستعظمه فلما كرهه أراد الله أن يحبب إليه الموت ويكره إليه الحياة وكان يوشع بن نون يغدو إليه ويروح فيقول له يا موسى يا نبي الله ما أحدث الله إليه فيقول له يوشع يا نبي الله ألم أصحبك كذا وكذا سنة فهل كنت أسألك عن شيء مما أحدث الله إليك حتى تكون أنت الذي تبتدىء به وتذكره ولا يذكر له شيئاً فلما رأى موسى ذلك كره الحياة وأحب الموت (حدثنا) أبو سعيد بن محمد بن عبد الله بن حمدون باسناده عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال جاء ملك الموت إلى موسى فقال له أجب ربك فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها فرجع ملك الموت إلى الله عز وجل فقال يا رب إنك أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت وفقأ عيني فرد الله عليه عينه وقال ارجع إليه وقل له الحياة تريد فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور فما توارت يدك من شعره فإنك تعيش بعدد كل شعرة من ذلك سنة ثم قال ماذا قال ثم تموت قال فالآن من قريب قال يا رب فادنني من الأرض المقدسة رمية قال رسول الله ﷺ لو كنت عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر قال سمعت أبا سعيد بن حمدون يقول سمعت أبا حامد الشرقي يقول سمعت محمد بن يحيى يقول قد صح هذا عن رسول الله ﷺ يعني قصة ملك الموت وموسى عليه السلام ولا يردها إلا كل مبتدع ضال (ويروى) أن موسى لما مات قالت الملائكة بعضهم لبعض مات صفي الله موسى بن عمران فمن الذي يطمع في البقاء وكان عمر موسى مائة وعشرين سنة عشرون منها في ملك افريدون ومائة سنة في ملك منوجهر (قال الأستاذ رجعنا إلى قصة حرب أريحا وخبر الفتح) قال فلما انقضت أربعون سنة ومات موسى بعث الله يوشع بن نون نبياً فأخبرهم أنه نبي الله وأن الله قد أمره بقتال الجبارين فصدقوه وبايعوه فتوجه ببني إسرائيل إلى أريحا ومعه تابوت الميثاق فأحاط بمدينة أريحا ستة أشهر فلما كان في الشهر السابع نفخوا في القرون وصاحوا صيحة واحدة فسقط سور المدينة فدخلوها وقاتلوا الجبارين وهزموهم وهجموا عليهم وجعلوا يقتلونهم وكانت العصابة من بني إسرائيل يجتمعون على عنق الرجل يضربونها لا يقطعونها وكان القتال يوم الجمعة فبقي منهم بقية وكادت الشمس أن تغرب وتدخل ليلة السبت فخشي يوشع أن يعجزوه فقال اللهم اردد الشمس علي أو أنه قال للشمس أنك في طاعة الله وأنا في طاعة الله فسأل الشمس أن تقف والقمر أن يقيم حتى ينتقم من أعداء الله قبل غروب الشمس فردت له الشمس وزيد النهار ساعة واحدة حتى قتلهم اجمعين (أخبرنا أحمد بن عبد الله بن حامد الأصفهاني) باسناده عن عروة بن عبد الله قال دخلت على فاطمة بنت علي رضوان الله عليهما فرأيت في عنقها خرزاً ورأيت في يدها مسكتين غليظتين وهي عجوز كبيرة فقلت لها ما هذا فقالت إنه يكره للمرأة أن تشبه بالرجل ثم حدثتني أن أسماء بنت عميس الخثعمية حدثتها أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان مع نبي الله وقد أوحى الله إليه فجعله بثوبه ولم يزل كذلك حتى أدبرت الشمس تقول غابت أو أرادت أن تغيب ثم أن نبي الله سري عنه فقالت أصليت يا علي قال لا فقال النبي ﷺ اللهم أرد عليه الشمس فرجعت حتى بلغت نصف المسجد . قال ثم أرسل ملوك الأرامنة وكانوا خمسة فأرسل بعضهم إلى بعض فجمعوا كلمتهم على يوشع وقومه فهزمت بنو إسرائيل الملوك حتى أهبطوهم إلى ثنية حوران ورماهم الله بأحجار البرد فكان من قتله البرد أكثر مما قتله بنو إسرائيل بالسيف وهرب الملوك الخمسة واختفوا في غار فأمر بهم يوشع فأخرجهم وصلبهم ثم أنزلهم فطرحهم في ذلك الغار وتتبع ملوك الشام فاستباح منهم أحد أو ثلاثين ملكا حتى غلب على جميع أرض الشام وصار الشام كله لبني إسرائيل وفرق عماله في نواحيها ثم جمع الغنائم ثم نزل النار فأوحى الله تعالى إلى يوشع أن فيها غلولا فأمرهم أن يبايعوك فبايعوه فالتصقت يد رجل بيده فقال له هلم ما عندك فأتاه برأس ثور من ذهب مكلل بالدر والياقوت والجوهر كان قد غله فجعله في القربان وجعل معه فجاءت النار فأكلت الرجل والقربان عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ غزا نبي من الأنبياء فقال للقوم لا يتبعني رجل كان قد ملك بضع امرأة هو يريد أن يبني بها

كما وصف فلما رأينا ذلك سألنا المرأة عن قصة هذه الشاة فقالت نعم اخبركم بها وذلك انه كان لنا شويهة ونحن قوم فقراء ولم يكن عندنا غيرها فقال لي زوجي وكان رجلا صالحاً امضي بنا حتى نذبح هذه الشاة في هذا اليوم وهو يوم العيد فقلت له لا تفعل ذلك فإن الله تعالى قد رخص لنا في الترك والله يعلم حاجتنا إليها فبينما نحن كذلك إذ استضفنا ضيف في ذلك اليوم ولم يكن عندنا ما نقري به هذا الضيف فاحتجنا لذبحها فقلت له يا رجل هذا ضيف وقد امرنا يا كرامه فخذ تلك الشاة واذبحها فقال نخاف ان تبكي عليها صغارنا فقلت له خذها واخرج بها من البيت واذبحها وراء الجدار فأخذها ومضى فلما أراق دمها فرفرت من اعلى الجدار ونزلت إلينا فحسبت انها قد انفلتت منه فخرجت لأنظرها فاذا هو يسلخ فيها فقلت له يا رجل رأيت عجباً وذكرت له قصة هذه الشاة التي نزلت من اعلى الجدار فقال الرجل لعل الله تعالى يبدلنا خيراً منها فكان كذلك فكانت تلك الشاة تحلب لبناً وهذه تحلب لبناً وعسلا وهذا كله ببركة إكرام الضيف قال فتعجبنا من ذلك ثم قالت يا اولادي إن شويهتنا هذه ترعى قلوب المريدين فاذا

طابت قلوبهم طاب لبنها وإذا تغيرت قلوبهم تغير لبنها فطيبوا قلوبكم قلت وقد عنت ذلك بنفسها وزوجها ولكن أطلقت لنا لفظاً ظاهر العموم مع إرادة التخصيص عن تبشراً وتحريضاً للمريدين على تطييب قلوبهم إذ بطيب القلوب يحصل كل طيب محبوب من الأنوار والأسرار ولذة العيش بمنادمة الملك الغفار والمعنى في ذلك لما طابت قلوبنا طاب ما عندنا فطيبوا قلوبكم يطيب ما عندكم رضى الله تعالى عنها آمين.

(وحكى عن بعض أصحاب السرى السقطى رضى الله تعالى عنه) أنه قال كان للسرى السقطى تلميذة وكانت امرأة صالحة وكان لها ولد عند المعلم فبعثه المعلم يوما إلى الدجلة فنزل الصبي في الماء فغرق فخاف المعلم على نفسه وأتى إلى البرى السقطى فأخبره بذلك فاغتم وقال قوموا بنا إلى أمه وكان معهم الجنيد فتكلم السرى السقطى مع أم الصبي في علم الصبر وعلم الرضا فقالت المرأة يا أستاذى وأى شيء تريد بذلك فقال لها السرى إن ولدك قد غرق فقالت إن الله عز وجل لم يفعل ذلك ثم قالت قوموا بنا فقاموا معها حتى انتهوا إلى النهر فقالت المرأة أين غرق ولدى فقال المعلم هنا فصاحت به إبنى محمد فأجابها من النهر لبيك

والآخر قد بنى له بيتاً ولم يرفع سقفه والآخر قد اشترى غنما أو خلفات وهو ينتظر أولادها قال فدنا من القوم صلاة العصر أو قريباً من ذلك فقال للشمس أنت مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها على ساعة حتى فتح الله عليه قال ثم وضعت الغنيمة فجاءت النار فلم تأكلها فقال أن فيكم غلولا فليبايعني من كل قبيلة منكم رجل فبايعوه فالتصقت يد رجل بيده فقال فيكم الغلول أنتم غللتم قال فأخرجوا مثل رأس البقر من ذهب فألقوه في الغنيمة وهي الصعيد فجاءت النار فأكلتها قال النبي ﷺ لم تحل الغنائم لأحد قبلنا وذلك أن الله تعالى رأى عجزنا وضعفنا فوهبها لنا قالوا ثم امرهم الله تعالى أن يدخلوا أريحاء متواضعين مستغفرين خافضين رؤسهم وذلك قوله تعالى (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة) وكان لهم سبعة أبواب سجداً أى منحنين متواضعين وقولوا حطة أى حط عنا خطايانا قال وهب أنهم أذنبوا بآبائهم وكان توبتهم إذا أذنبوا دخول أريحاء فلما فصلوا من التيه احب الله أن يستنقذهم من الخطيئة قال ابن عباس حطة قول لا إله إلا الله سميت بذلك لأنها تحط الذنوب فغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم وذلك أنهم لما دخلوا متزحفين على أستاههم قالوا هطا سمقايا يعنى حنطة حمراء استخفافاً بأمر الله تعالى فأنزل الله على الذين ظلموا رجزاً من السماء أى عذاباً من السماء بما كانوا يفسقون وذلك أن الله تعالى أرسل عليهم طاعوناً وظلمة فهلك منهم سبعون ألفاً ثم رفعه عنهم ورحمهم قالوا فلما استقرت بنو إسرائيل بالشام وصفت لهم توفى الله نبيه يوشع ودفن في جبل افرائيم وكان عمره مائة وعشرين سنة وتدبيره أمر بنى إسرائيل بعد موت موسى سبعاً وعشرين سنة

(مجلس في ذكر الأنبياء والملوك الذين قاموا بأمور بنى إسرائيل بعد يوشع وقصة كالب عليه السلام)

قالت العلماء بأخبار الماضين وأمور الأمم السالفين لما حضرت الوفاة يوشع بن نون استخلف على بنى إسرائيل كالب بن يوقنا ختن موسى عليه السلام وهو أحد الرجلين الذين أنعم الله عليهما قال الله تعالى قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما فاحسن الخلافة حتى قبضه الله عز وجل واستخلف على بنى إسرائيل إبنه يوسا قوس وكان فيما ذكر يشبه يوسف عليه السلام في الحسن والجمال والبهاء وكانوا يفتتنون به وكانوا من شغفهم به يأتونه وينظرون إليه ويقولون له أيها العبد الصالح جئنا لنسلم عليك وهو يستحى أن يردهم فلما كثروا وخاف الفتنة فسأل الله أن يغير صورته مع سلامة حواسه وجوارحه فأصابه بالجدرى فصار مجدوراً ملوجاً فلبث فيهم مائة وأربعين سنة ثم قبضه الله إليه والله أعلم.

(ذكر خبر حزقيل عليه السلام)

قالت العلماء بأخبار الأنبياء عليهم السلام لما قبض الله كالب وإبنه بعث الله تعالى حزقيل بن بورى ويلقب بابن العجوز وإنما لقب بابن العجوز لأن أمه سألت الله تعالى الولد وهى عجوز وقد كبرت وعقمت عن الولد فوهبه الله تعالى لها وهو الذى أحيا الله تعالى به القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فأحياهم الله تعالى بعد موتهم بدعوته في قوله تعالى (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت) الآية (قال أكثر المفسرين) كانت قرية يقال لها دوردان قرية قبل واسط وقع بها الطاعون فخرج منهم طائفة هاربين من الطاعون وبقيت طائفة فهلك أكثر من بقى في القرية وسلم الذين خرجوا فلما ارتفع الطاعون ورجعوا سالمين فقال الذين بقوا أن أصحابنا كانوا أحزم منا لو صنعنا كما صنعوا لبقينا ولئن وقع بها الطاعون ثانية لنخرجن إلى الأرض التي لا وباء فيها فوقع الطاعون من قابل فهرب عامة أهلها وخرجوا حتى نزلوا واديا أفيح لما نزلوا المكان الذى يبتغون فيه النجاة والحياة إذا هم بملك من أسفل الوادى وآخر من أعلاه يناديهم كل واحد منهما ان موتوا فماتوا جميعاً (وعن محمد بن ذكريا) قال سمعت الأصمعى يقول وقع الطاعون بالبصرة خرج رجل من اهلها عنها على حماره ومعه ولده وخلفه عبد حبشى يسوق الحمار فطفق العبد يرتكز ويقول:

لن يسبق الله على حمار * ولا على ذى مبتعة خطار * قد أصبح الله امام السارى

فرجع الرجل لما سمع من قوله بعياله (وروى) عبد الرحمن بن عوف عن رسول الله ﷺ أنه قال إذا سمعتم بالوباء فى بلدة لا تقدموا عليه وإذا وقع وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه قال مقاتل والكلبى كانوا ثمانية آلاف وقال أبو ورق عشرة آلاف وقال أبو مالك ثلاثين ألفا وقال السدى بضع وثلاثين ألفا وقال ابن جريج أربعين ألفا وقال عطاء بن ابى رباح سبعين ألفا قال فأتى على ذلك مدة وقد بليت أجسادهم وعريت عظامهم وتقطعت أوصالهم فمر عليهم النبى عليه الصلاة والسلام فوقف متفكرا متعجبا فأوحى الله تعالى إليه يا حزقيل تريد أن أريك كيف أحيى الموتى قال نعم يارب فاحياهم الله جميعا هذا قول السدى وجماعة من المفسرين وقال مقاتل والكلبى بل كانوا قوم حزقيل فلما أصابهم ذلك بكى حزقيل وقال يارب كنت فى قوم يعبدونك ويذكرونك فبقيت وحيدا الا قوم لى فلو شئت أحييت هؤلاء فيعمرون بلادك ويعبدونك قال الله تعالى أو تحب أن أفعل ذلك قال نعم يارب قال الله تعالى قد جعلت حياتهم إليك فقال لهم حزقيل أحيوا بإذن الله تعالى فعاشوا وقال وهب أصابهم بلاء وشدة من الزمان فشكوا ما أصابهم وقالوا يا ليتنا قد متنا واسترحنا مما نحن فيه فأوحى الله إلى حزقيل أن قومك قد ضجوا من البلاء وزعموا أنهم ودوا لو ماتوا استراحوا وأى راحة لهم فى الموت ايظنون إنى لا أقدر أبعثهم بعد الموت فانطلق إلى جبانة كذا فإن فيها أقواما ماتوا فأتاهم فأوحى الله تعالى إليه يا حزقيل قم فنادهم وكانت أجسامهم وعظامهم قد تفرقت ومزقتها الطير والسباع فنادى حزقيل أيتها العظام إن الله يأمرك أن تعودى وتكتسى اللحم فاكتست جميعا اللحم وبعد اللحم جلودا ودما وعصبا وعروقا فكانت أجسادا فنادى أيتها الأرواح أن الله تعالى يأمرك أن تعودى إلى اجسادك فقاموا جميعا عليهم ثيابهم التى ماتوا فيها وكبروا تكبيرة واحدة (وروى) منصور ابن المعتمر عن مجاهد أنهم قالوا حين أحيوا سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لا إله إلا أنت فرجعوا إلى قومهم وتناسلوا بعد ما أحياهم الله وعاشوا دهرا يعرفون أنهم كانوا موتى سجنة الموت على وجوههم لا يلبسون ثوبا إلا عاد ومما مثل الكفن حتى ماتوا لآجالهم التى كتب الله لهم ، قال ابن عباس فإنه ليوجد فى ذلك السبط من اليهود تلك الريح قال قتادة مقتهم الله على فرارهم من الموت وتقصيرهم فى الجهاد فأماتهم الله عقوبة لهم ثم بعثهم لبقية آجالهم ليوفوها ولو كانت آجال القوم قد جاءت ما بعثوا بعد موتهم فلما أحياهم الله تعالى أمرهم بالجهاد قال وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم .

(باقى قصة إلياس عليه السلام)

قال تعالى (وإن إلياس لمن المرسلين) إلى آخر القصة قال ابن إسحق والعلماء من أصحاب الأخبار لما قبض الله تعالى حزقيل عليه السلام عظمت الأحداث فى بنى إسرائيل وظهر فيهم الفساد ونسوا عهد الله الذى عهد إليهم فى التوراة حتى نصبوا الأوثان وعبدوها من دون الله عز وجل فبعث الله تعالى إليهم إلياس نبيا وهو إلياس بن يس بن فنحاص بن غيزار بن هرون بن عمران وإنما كانت الأنبياء بعد موسى يبعثون إليهم بتجديد ما نسوا وضيعوا من أحكام التوراة وبنو إسرائيل يومئذ متفرقون فى أرض الشام وفيهم ملوك كثيرة وكان سبب ذلك أن يوشع بن نون لما فتح أرض الشام وملكها بوأها بنى إسرائيل وقسمها بينهم فأخذ سبط منها بلعبك ونواحيها وهم سبط إلياس فبعث الله تعالى إليهم نبيا وعليهم يومئذ ملك يقال له لاجب قد ضل وأضل قومه وجبرهم على عبادة الأصنام وكان هو وقومه يعبدون صنما يقال له بعل وكان طوله عشرين ذراعا وكان له أربعة وجوه وقال ابن إسحق قد سمعت بعض أهل العلم يقولون ما كان البعل إلا امرأة كانوا يعبدونها من دون الله تعالى فذلك قوله تعالى (إذ قال لقومه ألا تتقون أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين) قال فجعل إلياس يدعوهم إلى الله تعالى ولا يطيعونه ولا يجيبونه إلى ذلك إلا ما كان من أمر لاجب الملك الذى كان ببعلبك فإنه آمن به وصدقه وكان إلياس يقوم أمره ويسدده ويرشده وكان للاجب امرأة يقال لها رو بيل وكان يستخلفها على رعيته إذا غاب عنهم فى غزاة أو غيرها فكانت تبرز بين الناس كما يبرز زوجها وتركب كما يركب وتجلس كما يجلس فى مجلس القضاء وتقضى بين الناس وكانت قتالة للانبياء وكان لها كاتب

يا أماه فنزلت وأخذت بيده ومضت به إلى منزلها فالتفت السرى إلى الجنيد وقال أى شىء هذا فقال الجنيد أقول أن هذه المرأة مراعية لله عز وجل عليها وهذا حكم من كان مراعيا لله عز وجل فلهذا لا تحدث حادثة حتى تعلم بها فلما كان دأبها ذلك لم تكن حادثة إلا علمتها أنكرت ذلك وقالت إن ربى لم يفعل ذلك وهذا من صدقها مع مولاها رضى الله تعالى عنها ونفعنا بها فى الدنيا والآخرة وأمدنا من مصدرها آمين .

(وحكى عن مالك بن دينار عفا الله عنه أنه قال) خرجت حاجا إلى بيت الله الحرام من السنين فبينما أنا فى الطريق وإذا بشاب يمشى بلا زاد ولا راحلة فسلمت عليه فرد على السلام فقلت أيها الشاب ومن أين أنت قال من عند فقلت وإلى أين قال إلى بيت فقلت وأين الزاد والراحلة فقال عليه فقلت له إن الطريق لا تقطع إلا بالمأكل والمشرب فهل معك شىء قال نعم قد تزودت عند خروجى من بلدى بخمسة أحرف فقلت وما هى فقال قوله تعالى كهيعص فقلت ما معنى كهيعص فقال أما قوله كاف فهو الكافى وأما الهاء فهو الهادى وأما الياء فهو الذى يأوى وأما العين فهو العالم وأما الصاد فهو الصادق فمن صحب كافيا وهاديا ومؤويا وعالما وصادقا

فلا يضيع ولا يخشى ولا يحتاج
إلى الزاد والراحلة قال مالك
فلما سمعت منه هذا الكلام
نزعت قميصي لا لبسه له فأبى
أن يقبله وقال يا شيخ العرى
خير من ثياب الغنى حلالها
حساب وحرامها عقاب فكان
إذا جن الليل يرفع وجهه
نحو السماء ويقول يا من
لا تنفعه الطاعات ولا تضره
المعاصي هب لي ما لا ينفعك
واغفر لي ما لا يضرك فلما
أحرم الناس واليواقيت له لم
لا تلبي فقال يا شيخ أخاف
أن أقول لبيك فيقول لا لبيك
ولا سعديك لا أسمع كلامك
ولا أنظر إليك ثم مضى وغاب
عن بصري فما رأيته إلا بمنى
وهو يبكي ويقول :

إن الحبيب الذي يرضيه
سفك دمي
دمي حلال له في الحل والحرم
والله لو علمت روحي من
عشقت
قامت على رأسها فصلا عن
القدم
يا لائمي لا تلمني في هواه
فلو عاينت منه الذي عاينت
لم تلم يطوف بالبيت قوم
لو بجارحة
قد طافوا لأغناهم عن
الحرم
ضحى الحبيب بنفسي يوم
عيدهم
والناس ضحوا بمثل الشاة
والغنم
للناس حج ولاحج إلى سكني
تهدى إلى ضاحي واهدى
روحي ومهجتي ودمي

رجل مؤمن حكيم يكتم إيمانه وكان قد خلص من بين يديها ثلثمائة نبي كانت تريد قتل كل واحد منهم إذا بعث سوى الذين قتلهم وكانت في نفسها غير محصنة ولم يكن على وجه الأرض أفحش منها ومع ذلك قد تزوجت سبعة ملوك من ملوك بني إسرائيل وقتلهم كلهم بالاغتيال وكانت معمرة ويقال إنها ولدت سبعين ولداً وكان للاجب هذا جار من بني إسرائيل رجل صالح يقول له مزدكي وكانت له جنينة يعيش منها ويقبل على عمارتها ويزينها وكانت الجنينة إلى جانب قصر الملك وامرأته وكانا يشرفان على تلك الجنينة يتنزهان فيها ويأكلان ويشربان ويقيلان فيها حيناً وكان لاجب مع ذلك يحسن جوار صاحبها مزدكي وامرأته أربيل تحسده على ذلك لأجل تلك الجنينة وتحتال على غصبها لما سمعت أن الناس يذكرون الجنينة من حسنها ويقولون ما أحرى أن تكون هذه الجنينة لأهل هذا القصر ويتعجبون من أمر الملك وامرأته كيف لم يغصباها فلم تزل امرأة الملك تحتال على العبد الصالح مزدكي في أن تقتله وتأخذ جنينته والملك ينهاها عن ذلك فلا تجد إليه سبيلا ثم اتفق خروج الملك إلى سفر بعيد فلما طالت غيبته فاغتنمت امرأته أربيل أن تتم لها الحيلة على العبد الصالح مزدكي في أن تقتله وتأخذ جنينته وهو غافل عما تريد به على عبادة ربه وإصلاح معيشته فجمعت أربيل جمعاً من الناس وأمرتهم أن يشهدوا على مزدكي بالزور أنه يسب لاجب الملك فأجابوها إلى مسألتها من الشهادة بالزور وكان حكمهم في ذلك الزمان على من يسب الملك القتل إن قامت البينة فأحضرت مزدكي وقالت له بلغنا عنك أنك شتمت الملك واغتبته فأنكر مزدكي ذلك فأقامت البينة وشهدوا بالزور عليه بحضرة الناس فأمر بقتله فقتل وأخذت جنينته غصباً فغضب الله عليهم بقتل العبد الصالح فلما قدم الملك من السفر أخبرته الخبر فقال لها ما أصبت خيراً ولا وفقت لأرانا نفلح بعدها أبداً وإنا كنا عن جنينته لأغنياء وقد كنا نتنزه فيها وقد جاورنا وتحرم بنا منذ زمان طويل فاحسنا جواره وكففنا عنه الأذى الوجوب حقه علينا فقبحت بنا الجوار وما حملك على اجترائك عليه إلا سفهك وسوء رأيك وقلة تفكرك في العواقب فقالت إنما غضبت لك وحكمت بحكمك فقال لها ما كان يسع حلمك وعظيم خطرك العفو عن رجل واحد فتحفظين جواره فقالت قد كان ما كان فبعث الله تعالى إلياس عليه السلام إلى لاجب وقومه وأمره أن يخبرهم أن الله تعالى قد غضب عليهم لوليه حين قتلوه بين أظهرهم ظلماً وقد آل على نفسه أنهما إن لم يتوبا من صنعهما ويردا الجنينة على ورثة مزدكي وإلا يهلكهما يعني لاجب وامرأته في جوف الجنينة أشر ما يكون بسفك دمهما ثم يدعهما جيفتين ملقاتين فيها حتى تتعرى عظامهما عن لحومهما ولا يمتعان بها إلا قليلا قال فجاء إلياس وأخبر الملك بما أوحى الله في أمره وامرأته أو الجنينة فلما سمع الملك ذلك اشتد غضبه ثم قال يا إلياس والله ما أرى ما تدعونا إليه إلا باطلا والله ما أرى فلاناً وفلاناً وسمى ملوكاً منهم عبدوا الأوثان إلا على مثل ما نحن عليه يأكلون ويشربون ويتمتعون بملكهم ما ينقص من دنياهم ولا من أمرهم الذي تزعم أنه باطل شيء وما نرى لكم علينا من فضل قال ثم هم بتعذيب إلياس وقتله قال فلما سمع إلياس ذلك وأحس بالشر رفضه وخرج عنه فلحق بشواهق الجبال وعاد الملك إلى عبادة بعل فارتقى إلياس إلى أصعب جبل وأشمخه فدخل مغاراً فيقال أنه بقي فيه سبع سنين شريداً وحيداً فريداً خائفاً يأوي إلى الشعاب والكهوف ويأكل من نبات الأرض وثمار الشجر وهم في طلبه وقد وضعوا عليه العيون يتوقعون أخباره ويجتهدون في أخذه والله تعالى يستره ويحفظه ويدفع عنه البلاء فلما تمت له سبع سنين أذن الله تعالى في إظهاره عليهم وشفاء غيظه منهم فامرض الله تعالى ابن الملك لاجب وكان أحب أولاده إليه واعزهم عليه واشبههم فيه فادنف حتى يئس منه فصدعه بعلا وكانوا قد فتنوا ببعل فعظموه حتى انهم سموا مدينتهم به فقالوا لها بلعبك وجعلوا له أربعمائة سادن فوكلوهم به وجعلوهم أمناءه وجعل الشيطان يدخل في جوف الصنم فيكلمهم بانواع الكلام والاربعمائة يصغون بآذانهم إلى ما يقول الشيطان ويوسوس لهم شريعة من الضلال فيكتبونها للناس ويعلمون بها ويسمونهم الأنبياء فلما اشتد مرض ابن الملك طلب الملك ان يشفعوا له إلى بعل ويطلبوا منه لابنه الشفاء والعافية فدعوه فلم يجبهم ومنع الله تعالى بقدرته

الشيطان عن صنمهم فلم يمكنه الولوج فى جوفه ولا الكلام وهم مجتهدون فى التضرع إليه والمريض لا يزداد بذلك إلا ألما وجهدا فلما طال عليهم ذلك قالوا للاجب أيها الملك أن فى ناحية الشام آلهة أخرى وهى فى العظم مثل إلهك فابعث إليها الأنبياء يشفعون لك إليها فلعلها أن تشفع لك إلى بعل فإنه غضبان عليك ولولا غضبه عليك لكان قد أجابك وشفى مرض إبنك فقال لاجب لأى شىء غضب على وأنا أطيعه وأطلب رضاه ولم أسخط ساعة قط قالوا من أجل إنك لم تقتل إلياس وفرطت فيه حتى نجا سالما وهو كافر بإلهك يعبد غيره فذلك الذى أغضبه عليك قال لاجب وكيف أن أقتله فى يومى هذا وأنا مشغول عن طلبه بوجع إبنى وليس لإلياس مطلب ولا يعرف له موضع فيقصد فلوعوفى إبنى تفرغت لطلبه ولم يكن لى هم ولا شغل غيره حتى آخذه وأقتله وأريح إلهى منه وأرضيه قال ثم إنه بعث الأربعمائة نبى ليشفعوا إلى الآلهة بالشام ويسألوها أن تشفع إلى صنم الملك ليشفى إبنه فانطلقوا إلى الأصنام وكلموها فمنع الله عز وجل الشياطين الولوج فى الأصنام ولم تكلمهم فرجعوا إلى الملك وأخبروه بذلك فقال الملك وكيف لى أن أقتل إلياس فى هذا اليوم قال فخرج أربعمائة حتى إذا كانوا بحيال الجبل الذى فيه إلياس أوحى الله إليه أن يهبط من الجبل ويعارضهم ويستوقفهم ويكلمهم وقال له لا تخف فإنى سأصرف عنك شرهم فاستوقفنا فلما وقفنا صار معنا فقذف له فى قلوبنا الرعب والهيبة وتقطعت ألسنتنا ونحن فى هذا العدد الكثير وهو واحد فلم نقدر أن نكلمه ونراجعه ونملأ أعيننا منه حتى رجعنا إليك ثم إنهم قصوا عليه كلام إلياس فقال لاجب إذا ما نطيق إلياس إلا بالمكر والخديعة فقيض له خمسين رجلا من قومه من ذوى القوة والبأس وعهد إليهم عهد وأمرهم بالاحتيال عليه وأن يطمعوه بأنهم قد آمنوا به هم ومن وراءهم ليطمئن إليهم ويغتر بهم ويمكنهم من نفسه فيأتون به ملكهم فانطلقوا حتى ارتقوا ذلك الجبل الذى فيه إلياس عليه السلام ثم إنهم تفرقوا فيه وهم ينادون بأعلى أصواتهم ويقولون يا نبى الله ابرز لنا واشرف علينا بنفسك فآمنا بك وصدقناك وملكنا لاجب وكذلك جميع قومنا مقرون بذلك ويقرؤن عليك السلام ويقولون قد بلغتنا رسالتك وعرفنا ما قلت وآمنا بك وأجبناك إلى ما دعوتنا إليه فهلم إلينا فأنت نبينا ورسول ربنا فأقم بين أظهرنا واحكم بيننا فإننا ننقاد إلى ما أمرتنا وننتهى عما نهيتنا وليس يسعك أن تختلف عنا بعد إيماننا بك وطاعتنا لك فتدار كنا وارجع إلينا وكل هذا كان مكرا منهم وخديعة فلما سمع إلياس مقالتهم وقع فى قلبه إيمانهم وخاف الله وأشفق من سخطه إن هو لم يظهر لهم ولم يجبهم بعد الذى سمع منهم فلما صمم على البروز إليهم رجع إلى نفسه وقال إلى نفسه وقال لو إنى دعوت الله تعالى فسألته أن يعلمنى ما فى نفوسهم يطلعنى على حقيقة أمرهم وكان ذلك إلهاما من الله تعالى وتوفيقا له فقال اللهم إن كانوا صادقين فيما يقولون فأذن لى فى البروز إليهم وإن كانوا كاذبين فاكفنيهم وارمهم بنار تحرقهم جميعا فما استتم قوله حتى حصبوا بالنار من فوقهم فأحرقوا أجمعين قال وبلغ لاجب قومه الخبر فلم يرتدع عن ضمير السوء واحتال ثانيا فى أمر إلياس فقيض له فئة أخرى مثل عدد أولئك وأقوى منهم وأمكن فى الحيلة والرأى فأقبلوا حتى وافوا ذلك الجبل وارتقوا متفرقين وجعلوا ينادون يا نبى الله إنا نعوذ بالله وبك من غضب الله وسطوته إنا لسنا كالذين أتوك قبلنا أولئك فرقة نافقوا وعاندوا فصاروا إليك ليمكروا بك من غير رأينا ولا علمنا بهم ولو علمنا لقتلناهم والآن قد كفاك الله أمرهم وأهلكهم بسوء نياتهم وانتقم لنا ولك منهم فلما سمع إلياس مقالتهم دعا الله بدعوته الأولى فأمطر عليهم نارا فأحرقوا جميعا عن آخرهم كل ذلك وابن الملك فى البلاء الشديد من وجعه كما وعده الله تعالى على لسان نبيه إلياس لا يقضى عليه فيموت ولا يخفف عنه من عذابه فلما سمع الملك بهلاك أصحابه ثانيا ازداد غيظا إلى غيظه وأراد أن يخرج فى طلب إلياس بنفسه إلا أنه شغله عن ذلك مرض إبنه فوجد نحو إلياس الكاتب المؤمن الذى هو كاتب امرأته وجاء أن يأنس إليه فينزل معه واظهر للكاتب أنه لا يريد بإلياس سوء ولا مكروها وإنما أظهر له ذلك لما اطلع عليه من إيمانه وكان ذلك مع اطلاعه على إيمانه مضطرا عنه لما هو عليه من الكفاية والأمانة والحكمة وسداد الرأى والبصارة بالأمور فلما وجهه نحوه أرسل معه فئة من أصحابه

ثم قال اللهم إن الناس يذبحون ويتقربون إليك بضحاياهم وهديهم وليس لى شىء أتقرب به إليك سوى نفسى فتقبلها منى ثم شهق شهقة فخر ميتا رحمة الله تعالى عليه وإذا بقائل يقول هذا حبيب الله هذا قتيل الله قتل بسيف الله قال فجهزته ووريته بالتراب ثم بت تلك الليلة متفكرا فى أمره فرأيته فى النوم وعليه ثياب من السندس والاستبرق فقلت له ما فعل الله بك فقال فعل بى كما فعل بالشهداء يوم بدر فهم قتلوا بسيف الكفار وأنا قتلت بمحبتى الملك العزيز الجبار قال فتعجبت منه رضى الله تعالى عنه (وحكى) عن البهلول رضى الله عنه أنه قال بينما أنا فى يوم من الأيام مار فى شوارع البصرة فإذا بصبيان يلعبون بالمرو والجوز وإذا بصبى ينظر إليهم وهو يبكى فقلت فى نفسى هذا الصبى يبكى تحسرا على ما فى أيدى هؤلاء الصبيان ولا شىء معه فتقدمت إليه وقلت له يا ولدى ما يبكيك اشترى لك من ذلك ما تلعب به مع الصبيان قال فرفع الصبى رأسه وقال يا قليل العقل ما للعب خلقنا فقلت له يا ولدى فلماذا خلقنا قال للعلم والعبادة فقلت له من أين لك هذا بارك الله فيك فقال من قوله تعالى أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون قال البهلول

فتعجبت من كلام الصبي على صغر سنه فقلت له يا ولدى أراك حكيما فعظنى فأنشد يقول شعراً :

أرى الدنيا تجهز بانطلاق مشمرة
على قدم وساق فلا الدنيا ببـاقية
بحى ولاحى على الدنيا بباق
كأن الموت والحدثان فيها
إلى نفس الفتى فرساً سباق
فيا مغرور بالدنيا رويداً
فمنها خذ لنفسك بالوثاق
قال ثم رمق بطرفه إلى السماء وأشار إليه بكفه ودموعه تجرى على خده وخر مغشياً عليه فرفعت رأسه إلى الحجر ومسحت التراب عن وجهه فلما أفاق قلت ياولدى ما نزل وأنت صبى صغير ولم يكن عليك ذنب فقال إليك عنى يابهلول فإنى رأيت أمى توقد النار فى صغار الحطب قبل الكبار قمت لها لما توقدين النار فى الكبار فقط فقالت يا ولدى لا توقد الكبار إلا بالصغار وإنى أخشى أن أكون من صغار حطب جهنم قال البهلول فغشى على ساعة وانصرف الغلام من بين يدى فلما أفقت نظرت إلى الصبيان فلم أرى الصبى بينهم فسألتهم من يكون ذلك الصبى فقالوا أو ما تعرفه فقلت لا فقالوا هذا من أولاد الحسين بن على ابن أبى طالب رضوان الله عليهم

وعهد إليهم دون الكاتب أن يوثقوا إلياس ويأتوه به إن أراد التخلف عنهم وإن جاء معهم آنسا بالكاتب ووانقا بمكانته لم يوحشوه ولم يروعوه ثم إنه أظهر للكاتب الإنابة فقال له إنه قد آن لى أن أتوب وأتعظ إنا قد تبنا وأنبنا وإنه لا يصلحنا فى توبتنا وما نريد من رضا ربنا وخلع أصنامنا إلا أن يكون إلياس بين أظهرنا يأمرنا وينهانا ويخبرنا بما يرضى بنا قال ثم إنه أمر قومه أن يعتزلوا الأصنام وقال له اخبر إلياس بأننا قد خلعنا آلهتنا التى كنا نعبد وقد أهلنا أمرها حتى ينزل إلينا قال فأوحى الله تعالى إلى إلياس أن كل ما جاءك منهم مكر وكذب ليظفروا بك وأن لا تجب وإن أخبرته رسله إنك قد لقيت هذا الرجل ولم يأت بك إليه فإنه يتهمه ويعرف أنه قد داهن فى أمرك ولم يأمن من أن يقتله فانطلق معه فإن انطلاقك معه عذره وبراءة عند لاجب وإنى سأشغله عنكما وأضاعف على إبنه البلاء حتى لا يكون له هم غيره ثم أميته على شر حال فإذا مات هو فارجع أنت ولا تقم عنده فانطلق إلياس معهم حتى قدموا على لاجب فلما دخلوا عليه شدد الله على إبنه الوجع وأخذ الموت يكظمه فشغل الله بذلك لاجب وأصحابه عن إلياس ورجع إلياس سالما إلى مكانه فلما مات ابن لاجب رفرغوا من أمره وقرجزعه انتبه لإلياس وسأل عنه الكاتب المؤمن الذى جاء به فقال له ليس لى به علم وذلك إنه قد شغلنى عنه موت إبنك والجزع عليه ولم أكن أحسبك إلا قد استوثقت منه فأطرق عنه لاجب وترك لما كان به من الحزن على إبنه فلما طال الأمر حتى نزل بامرأة من بنى إسرائيل وهى أم يونس بن متى ذى النون فاستخفى عندها ستة أشهر ويونس إبنها يومئذ مولود رضيع وكانت أم يونس تخدمه بنفسها وتواسيه بذات يدها ولا تدخر عنه كرامة تقدر عليها قال ثم أن إلياس عليه السلام سئم ضيق البيوت بعد قعوده فى الجبال ودوحها فأحب اللحوق بالجبال فعاد إلى مكانه فى الجبال فجزعت أم يونس لفراقه وأوحشها فقده ثم لم يلبث إلا قليلا حتى مات إبنها يونس حين فطمته فعظمت مصيبتها به فخرجت فى طلب إلياس فلم تزل فى الجبال تطوف فيها حتى عثرت عليه ووجدته فسلمت عليه وقالت له إنى فجعت بعدك بموت إبنى وعظمت به مصيبتى واشتد لفقده بلائى وليس لى ولد غيره فادع ربك تعالى أن يحيى لى إبنى ويجبر مصيبتى فإنى قد تركته مسجى لم أدفنه وقد أخفيت مكانه فقال لها إلياس عليه السلام ليس هذا مما أمرت به وإنما أنا عبد مأمور أعمل بما أمرنى به ولم يأمرنى بهذا فجزعت المرأة وتضرعت فعطف الله قلب إلياس عليها فقال لها ومتى مات ابنك فقالت منذ سبعة أيام فانطلق إلياس عليه السلام معها وسار سبعة أيام حتى أتى إلى منزلها فوجد إبنها يونس ميتا منذ أربعة عشر يوما فتوضأ وصلى ودعا فأحيا الله يونس بن متى فلما عاش وجلس وثب إلياس وانصرف وتركه وعاد إلى موضعه قال فلما طال عصيان قومه ضاق إلياس بذلك ذرعا وأجهده البلاء فأوحى الله إليه بعد سبع سنين وهو خائف مذعور مجهود يا إلياس ما هذا الحزن والجزع الذى أنت فيه ألست أمينى على وحيى وحجتى فى أرضى وصفوتى من خلقى فاسألنى أعطك بأنى ذو الرحمة الواسعة والفضل العظيم قال إلياس عليه السلام تميتنى وتلحقنى بآبائى فإنى قد مللت بنى إسرائيل وملونى وأبغضتهم وأبغضونى فأوحى الله إليه يا إلياس ما هذا اليوم الذى أعرى منك الأرض وأهلها وإنما قوامها وصلاحها بك وأشباهك ولكن سلنى أعطك قال إلياس فإن لم تمتنى يا إلهى فاعطنى ثأرى من بنى إسرائيل فأوحى الله تعالى إليه فأى شىء تريد أن أعطيك يا إلياس قال تمسكتنى من خزائن السماء سبع سنين فلا تنشىء عليهم سحابة إلا بدعوتى ولا تمطر عليهم سبع سنين قطرة إلا بشفاعتى فإنهم لا يذلهم لا ذلك قال الله تعالى يا إلياس أنا أرحم بعبادى من ذلك وإن كانوا ظالمين قال فلست سنين قال أنا أرحم بخلقى من ذلك وإن كانوا ظالمين قال فخمس سنين قال أنا أرحم بخلقى من ذلك وإن كانوا ظالمين قال فاربع سنين قال أنا أرحم بخلقى من ذلك وإن كانوا ظالمين ولكنى أعطيك ثأرك منهم ثلاث سنين أجعل خزائن المطر بيدك ولا أنشر عليهم سحابة إلا بدعوتك ولا أنزل عليهم قطرة إلا بشفاعتك قال إلياس فبأى شىء أعيش قال أسخر لك جيشا من الطير تنقل إليك طعامك وشرابك من الريف والأرض التى لم تقحط قال إلياس قد رضيت فامسك الله المطر عنهم

ثلاث سنين حتى هلكت المواشي والدواب والهوام والشجر وجهد الناس جهداً شديداً والياس على حاله مختف من قومه بموضع ينساق له فيه الرزق ويأتيه حيثما كان وقد عرفه بذلك قومه فكانوا اذا وجدوا ريح الخير في بيت قالوا لقد دخل الياس في هذا المكان فيطلبونه ويلقى منهم أهل ذلك المكان شراً قال ابن عباس أصاب بنى اسرائيل القحط ثلاث سنين متواليات فر الياس بعجوز فقال لها هل عندك طعام فقالت نعم شيء من دقيق وزيت قليل فجاءته بشيء من الدقيق والزيت فدعا فيهما بالبركة ومسهما فبارك الله في ذلك حتى ملأت جرابها دقيقاً وملأت خوابيها زيتاً فلما رأى بنى اسرائيل ذلك عندها قالوا لها من أين لك هذا قالت مر بى رجل من حاله كذا وكذا ووصفته بصفته فعرفوه وقالوا لها ذلك الياس ثم انهم طلبوه فوجدوه فهرب منهم الى الجبال والله أعلم .

(قصة اليسع عليه السلام)

ثم أن الياس أتى الى بيت امرأة من بنى اسرائيل لها ابن يسمى اليسع بن خطوب وكان به ضر فآوته وأخفت أمره فدعا له فعوفى من الضر الذى كان به واتبع اليسع الياس وآمن به وصدقه ولزمه فكان يذهب معه حيثما ذهب وكان إلياس قد أسن وكبر ودان اليسع غلاماً شاباً ثم أن الله تعالى أوحى إلى الياس عليه السلام انك قد أهلكت كثيراً من الخلق ممن لم يعصونى سوى بنى اسرائيل من البهائم والدواب والهوام والشجر والنبات بحبس المطر عن بنى اسرائيل فيزعمون والله أعلم أن الياس قال رب دعنى أكون الذى أدعو الهم وآتيهم بالفرج مما هم فيه من البلاء الذى أصابهم لعلهم يرجعون عما هم عليه من عبادة غيرك فقيل له نعم فجاء الياس الى بنى اسرائيل وقال لهم انكم قد اهلكتم جوعا وجهدا وقد هلكت البهائم والدواب والطير والشجر والنبات بحبس المطر عنكم بخطاياكم وانكم على باطل وغرور فإن كنتم تحبون أن تعلموا أن أصنامكم التى تدعون لها من دون الله لن تغنى عنكم شيئا فاخرجوا باصنامكم هذه فإن استجاب لكم فذلك كما تقولون وإن هى لم تفعل علمتم أنكم على باطل وغرور فنزعتم عنها ودعوت الله تعالى لكم أن يفرج عنكم ما أنتم فيه من البلاء قالوا أنصفت فخرجوا ومعهم أوثانهم فدعوها فلم تستجب لهم ولم تفرج عنهم ما كانوا فيه من البلاء فقالوا يا الياس انا قد هلكنا فادع الله لنا فدعا الله الياس ومعه اليسع عليهما السلام بالفرج مما هم فيه وأن يسقوا فخرجت سحابة مثل الترس على ظهر البحر وهم ينظرون اليها فاقبلت نحوهم وطبقت عليهم الأفق ثم أرسل الله عليهم المطر فأغاثهم وأحيت بلادهم قال فشكوا الى الياس هدم الجدران وعدم البذور وقالوا ليست لنا حبوب فاوحى الله تعالى اليهم يامرهم بان يبذروا الملح فى الأرض ففعلوا فانبت الله منه الحمص وأمرهم أن يبذروا الرمل فأنبت الله لهم منه الدخن فلما كشف الله تعالى عنهم الضر نقضوا العهد ولم ينزعوا عن كفرهم ولم يقلعوا عن ضلالتهم وأقاموا على أخبث ما كانوا عليه فلما رأى إلياس ذلك دعا ربه أن يريحه منهم فقيل له انتظر يوم كذا وكذا فاخرج إلى موضع كذا وكذا فاذا جاءك شيء فاركبه ولا تهبه فخرج إلياس ومعه اليسع بن أخطوب حتى إذا كان بالموضع الذى أمر بالخروج إليه فاقبل فرس من نار حتى وقف بين يديه فوثب عليه فانطلق به الفرس فناداه اليسع يا إلياس ما تأمرنى به فقذف إليه كساءه من الجو الأعلى فكان ذلك علامة على استخلافه إياه على بنى إسرائيل فكان ذلك آخر العهد به ورفع الله إلياس من بين أظهرهم وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وكساه الريش وكان إنسيا ملكيا سماويا أرضيا وسلط الله تعالى على لاجب الملك وامرأته عدواً لهم فقصدهم من حيث لا يشعرون به حتى دهمهم فقتل لاجب الملك وامرأته فى بستان مزدكى فلم تزل جيفتاهما ملقاتين فى تلك الجنينة حتى باليت لحومهما ورمت عظامهما ونبا الله تعالى بفضله اليسع عليه السلام وبعثه نبياً ورسولا الى بنى إسرائيل وأوحى الله تعالى إليه وأيده بمثل ما أيد به عبده إلياس فآمنت بنو اسرائيل وكانوا يعظمونه وينتهون الى رأيه وأمره وحكم الله تعالى فيهم قائم الى أن فارقهم اليسع (أخبرنا) أبو عبد الله الحسن بن محمد الحافظ عن عبد العزيز بن أبى داود قال أن الخضر والياس يصومان شهر رمضان ببيت المقدس أجمعين ونفعنا بهم وبأنفاسهم الطاهرة .

(وحكى عن حبيب العجمى رضى الله تعالى عنه) أنه قال كان لى زوجة سيئة الخلق كنت أخشاها لسوء خلقها فقالت لى يوماً من الأيام إذا لم يفتح عليك فلا تدخل إلينا ولا ترينا وجهك قال فخرجت من عندها إلى الجبانة مهموماً فصرت أصلى العشاء ثم أتيت إلى البيت خجلا من توبيخها مشغول القلب من شرها فلما دخلت البيت قامت على وقالت أين أجرتك التى أتيت بها فقلت لها أن الذى استأجرنى كريم واستحييت أن أستعجله فى الأجرة قال فسكتت عنى فمكثت على ذلك الحال أياماً وأنا أذهب إلى الجبانة وأصلى إلى الليل وأرجع فلما طال علينا الحال قامت إلى وقالت اطلب أجرتك منه أو أجر نفسك لغيره فعسر على ذلك ووعدتها بان أفعل ذلك ثم خرجت إلى عادتى فلما جاء الليل رجعت إلى منزلى خائفاً منها فلما وصلت البيت رأيت دخاناً وماندة منصوبة وزوجتى فرحة مسرورة فتعجبت من ذلك فلما دخلت البيت إلى زوجتى وقالت إن الذى استأجرك بعث إلينا ما تبعث الكرماء إلى الفقراء وقال رسوله الذى جاء بهذا قولى لحبيب يجد فى العمل فان مستأجره لا يؤخر الأجرة بخلا ولا عدما فيقر

ويوافيان الموسم فى كل عام (وأخبرنى) ابن فتحوية عن رجل من أهل عسقلان أنه كان يمشى بالأردن عند نصف النهار فرأى رجلا فقال ياعبدالله من أنت فقال أنا إلياس قال فوقعت على رعدة شديدة فقلت له ادع الله أن يرفع عنى ما أجد حتى أفهم حديثك وأعقل عنك قال فدعا لى بثمان دعوات وهن يا بر يا رحيم يا حنان يا منان يا حى يا قيوم ودعوتين بالسريانية لم أفهمهما وقيل هما ياهيا شراهيا فرفع الله عنى ما كنت أجد ووضع كفه بين كتفى فوجدت بردها بين يدى فقلت له أيوحى إليك اليوم فقال منذ بعث الله محمد صلى الله عليه وسلم رسولا فإنه لا يوحى إلى قال فقلت له فكم من الأنبياء اليوم أحياء قال أربعة إثنان فى الأرض وإثنان فى السماء أما اللذان فى السماء فعيسى وإدريس عليهما السلام وأما اللذان فى الأرض فإلياس والخضر عليهما السلام قلت كم الأبدال قال ستون رجلا خمسون منهم من لدن عريش مصر إلى شاطىء الفرات ورجلان بالمصيصة ورجلان بعسقلان وسبعة فى سائر البلدان كلما أذهب الله واحدا منهم جاء آخر مكانه وبهم يدفع الله عن الناس البلاء وبهم يمطرون قلت فالخضر أين يكون قال فى جزائر البحر فقلت له هل تلقاه قال نعم قلت أين قال بالموسم قلت فما يكون حديثكما قال يأخذ من شعرى وآخذ من شعره قال وكان ذلك حين جرى بين مروان بن الحكم وبين أهل الشام القتال قلت لهما فما تقول فى مروان بن الحكم قال رجل جبار عات على الله تعالى والقاتل والمقتول والشاهد فى النار قلت فإنى قد شهدت ولم أطعن برمح ولا رميت بسهم ولم أضرب بسيف وأنا أستغفر الله من ذلك المقام أن أعود إلى مثله أبدا قال أحسنت فهكذا كن قال فبينما أنا وإياه قاعدان إذ وضع بين يديه رغيفان أشد بياضا من الثلج فأكلت أنا وهو رغيفا وبعض الآخر ثم رفعت رأسى وقد وقع باقى الرغيف الآخر فما رأيت أحدا وضعه ولا رأيت أحدا رفعه قال وله ناقة ترعى فى وادى الأردن فرفع رأسه إليها فلما دعاها جاءت وبركت بين يديه فركبها فقلت له إنى أريد أن أصحبك قال إنك لا تقدر على صحبتى قال فقلت له إنى خلو لا زوجة لى ولا عيال قال تزوج وإياك والنساء الأربع الناشزة والمختلعة والملاعنة والبرهة وتزوج ما بدا لك من النساء قال فقلت إنى أحب أن ألقاك قال إذ رأيتنى فقد لقيتنى إنى أعتكف فى بيت المقدس فى شهر رمضان ثم حالت بينى وبينه شجرة فوالله ما أدرى كيف ذهب وهذا آخر القصة .

(مجلس فى قصة ذى الكفل عليه السلام)

قال تعالى (وإسمعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين) قال مجاهد لما كبر اليسع قال لو إنى استخلفت رجلا من على الناس يعمل عليهم فى حياتى حتى أنظر كيف يعمل فجمع الناس ثم قال من يتكفل لى بثلاث استخلفته يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب فقام إليه رجل شاب تزدريه العيون فقال أنا فرده ذلك اليوم وقال مثلها فى اليوم الثانى فسكت الناس فقام ذلك الرجل وقال أنا أعمل ذلك فاستخلفته قال فلما رأى إبليس ذلك جعل يقول للشياطين عليكم بفلان وأعيام فقال دعونى وإياه فأتاه بصورة شيخ كبير فقير حين أخذ مضجعه للقائه وكان لا ينام الليل والنهار إلا تلك النومة فدق إبليس الباب فقال من هذا فقال شيخ كبير مظلوم ففتح الباب فجعل يقص عليه القصة ويقول إن بينى وبين قومى خصومة وإنهم ظلمونى وفعلوا وفعلوا وجعل يطول عليه حتى حضر وقت الرواح وذهبت القائلة فقال له إذا رحت فإنى آخذ لك بحقك فانطلق وراح إلى مجلسه فلما جلس جعل ينظر ليرى الشيخ فلم يره وقام يتبعه فلما كان الغد جعل يقضى بين الناس وينتظره فلما رجع إلى القائلة وأخذ مضجعه وأتاه فقال من هذا فقال أنا الشيخ المظلوم ففتح له وقال له ألم أقل لك إذا قعدت فأتنى فقال إنهم أخبث قوم إذا عرفوا أنك قاعد يقولون نحن نعطيك حقك وإذا قمت جحدونى قال فانطلق فإذا رحت فأتنى وفاتته القائلة فراح وأقبل وجعل ينظره فلا يراه فشق عليه النوم فقال لبعض أهله لا تدعن أحدا يقرب هذا الباب حتى أقوم فإنه قد شق على عدم النوم فلما كانت تلك الساعة جاء فلم يأذن له أحد فلما أعياه نظر فإذا كوة فى البيت فتسور منها فإذا هو فى البيت وإذا به يدق الباب من داخل فاستيقظ الرجل وقال يا فلان ألم آمرك أن لا تأذن لأحد على فقال أما من قبلى فما أتى فانظر

عينا وطيب نفسا ثم ذهبت إلى بيت آخر فى الدار وأحضرت منه أكياسا مملوءة ذهبا أحمر قال حبيب فبكيت عند ذلك وقلت لها أندرين من بعث إلينا ذلك فقالت الذى استأجرك قلت لها والله هذه الأجرة من كريم بيده خزائن السموات والأرض قالت فلما سمعت ذلك تغير لونها وارتعدت وتابت إلى الله تعالى عما كان منها وأقسمت أن لا تعود إلى ذلك أبدا رحمة الله تعالى عليها ونفعنا بهم آمين

(وحكى عن عطاء بن الأزرق رضى الله تعالى عنه أنه قال) دفعت إلى زوجتى درهمين لأشترى بهما دقيقا ولم يكن عندنا شىء نقتات به فى ذلك اليوم فخرجت إلى السوق لشراء الدقيق فرأيت مملوكا فى السوق يبكى فقلت له ما يبكيك فقال يا سيدى أن مولاى دفع لى درهمين لأشترى له بهما شيئا فسقطا من يدى وأخاف أن يرجع له غائبا فيضربنى قال عطاء فحزنت عليه ودفعت له الدرهمين فأخذهما ومضى إلى حاله ثم توجهت إلى المسجد فصرت أصلى إلى وقت المغرب وانتظرت شيئا فلم يفتح على بشىء فخرجت من المسجد عند الغروب وجلست فى السوق على دكان صديق لى وكان نجارا فلما رأى الجراب معى قال خذ هذه النجارة فى جرابك لتحمى بها التنور قال فأخذت منه شيئا من

من قبل من أتى فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه وإذا بالشيخ معه فى البيت فقال له أتنام والخصوم ببابك فعرفه فقال له يا عدو الله ما أجاك على هذه الفعال فقال له إنك أعييتنى فى كل شىء اردت بك نفعلت معك ماترى لاغضبك فعصمك الله منى فسمى ذا الكفل لأنه تكفل بأمر فوفى به والله أعلم بالصواب

(مجلس فى قصة عيلى وشمويل وهو إسمعيل بالعبرانية وقصة التابوت وخبر طالوت وجالوت)

(وهذه قصة كبيرة تشتمل على أبواب كثيرة)

قال الله تعالى (ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل) الآية .

(فصل فى سياق الآية ومقدمة القصة)

قال وهب بن منبه لما نبأ الله تعالى اليسع بعد إلياس عليهما السلام واستخلفه على بنى إسرائيل وكان فيهم ماشاء الله أن يكون ثم قبضه الله تعالى وخلف فيهم الخلوف وعظمت فيهم الخطايا وكان عندهم التابوت يتوارثونه كابراً عن كابر فيه السكينة وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون وكانوا الايلقاهم عدو فيقدموا التابوت ويرجعون به معهم إلا هزم الله تعالى ذلك العدو وكان الله تعالى قد بارك لهم فى أرزاقهم فكان أحدهم فيما يذكرون يجمع التراب فى صخرة ثم يبذر فيه الحب فيخرج الله له مايأكله منه هو وعياله ويكون لأحدهم الزيتونة فيعصر منها مايأكل هو وعياله سنة فلما كثرت أحداثهم وعظمت ذنوبهم وتركوا ماعهد الله إليهم سلط الله عليهم العمالقة وهم قوم كانوا يسكنون غزة وعسقلان وساحل البحر مابين مصر وفلسطين وكان جالوت الملك فيهم فظهروا على بنى إسرائيل وغلبوهم على كثير من أراضيهم وسبوا كثيراً من ذراريهم وأسروا من أبناء ملوكهم أربعمائة وأربعين غلاماً وضربوا عليهم الجزية وأخذوا توراتهم وبقوا على اضطراب شديد من أمرهم واختلاف من حالهم يتمادون أحياناً فى غيهم وضلالتهم فسلط الله تعالى عليهم من ينتقم له منهم ليرجعوا إلى التوبة أحياناً ويكفيهم الله شر من بغى عليهم حتى بعث الله فيهم طالوت ملكاً وردعليهم توراتهم فانتظم أمرهم واستوثق ملكهم وكان مدة مابين وفاة يوشع بن نون الى آل أمر بنى إسرائيل فى بعضها إلى غيرهم ممن يقهرهم ويتملك عليهم إلى أن ثبت الملك فيهم ورجعت النبوة إليهم بشمويل النبى عليه السلام أربعمائة ستة وستين سنة وكان آخر من ملكهم فى هذه المدة رجل يقال له إيلاف وكان يدبر أمرهم فى ملكه شيخ كبير يقال له عيل الكاهن كان خيرهم وصاحب قربانهم وكانوا ينتهون إلى رأيه فلما مضى من وقت قيامه بأمرهم مدة بعث الله شمويل نبياً .

(القول فى بدء أمر شمويل وصفة نبوته صلى الله عليه وسلم)

قال وهب بن منبه كان لأبى شمويل امرأتان إحداهما عجوز عاقر لم تلد له ولداً وهى أم شمويل والأخرى قد ولدت له عشرة أولاد قال وكان لبنى إسرائيل عيد من أعيادهم أقاموا فيه شرائطه وقربوا القرابين فحضر أبو شمويل وامرأتاه وأولاده العشرة ذلك العيد فلما قربوا قربانهم أخذ كل واحد منهم نصيباً وكان لأم الأولاد عشرة أنصباء وللعجوز نصيب واحد فعمل الشيطان مايعمل بين الضرائر من الحسد والبغى فقالت أم الأولاد للعجوز الحمد لله الذى كثرنى بولدى وقللك فوجمت العجوز وجوماً شديداً فلما كان عند السحر عمدت إلى متعبدها فقالت اللهم بعلمك وسمعك كانت مقالة صاحبتى واستطالتها على بنعمتك التى أنعمتها عليها وأنت ابتدأتها بالنعمة والإحسان فارحم ضعفى وارزقنى ولداً نقياً رضياً واجعله لك ذخراً فى مسجد من مساجدك يعبدك ولايكفرك ويطيعك ولايجحدك فإذا رحمت ضعفى ومسكنتى وأجبت دعوتى فاجعل لى علامة أعرف بها قبول دعائى فلما أصبحت حاضت وكانت قبل ذلك قد يئست من الحيض فجعله الله علامة لما سألته فأتاها زوجها فحملت وكتمت أمرها ولقى بنو إسرائيل فى ذلك الوقت من عدوهم بلاء وشدة ولم يكن لهم نبى يدبر أمرهم فكانوا يسألون الله تعالى أن يبعث لهم نبياً يشير عليهم ويجاهدون عدوهم معه وكان سبط النبوة قد هلك ولم يبق منه إلا تلك المرأة الحبلى فلما علموا بحبلها تعجبوا من أمرها وقالوا ماحملت هذه إلا بنبى لأن اليائسات لايحملن إلا بالأنبياء

الشارة فى الجراب وذهبت إلى البيت خائفاً من شعرها فطرحت الجراب فى البيت ورجعت مسرعاً إلى صلاة العشاء ثم جلست فى المسجد حتى مضى نصف الليل خوفاً منها ثم جئت إلى البيت ونظرت من وراء الحائط فوجدتها تخبز خبزاً فاذا رائحة مفرحة فتعجبت من ذلك وقلت من أين أتاهم هذا الدقيق ثم دخلت وأنا متعجب ثم قلت أين لكم هذا الخبز فقالوا من الدقيق الذى فى الجراب ثم قالت لى زوجتى من هذا اليوم لا تشترى إلا منه لأنه دقيق طيب قال فحمدت الله تعالى على لطفه بعباده وكرمه وفضله .

(وحكى عن شقيق البلخى رضى الله عنه) أنه قال خرجت حاجاً إلى بيت الله الحرام سنة تسع واربعين ومائة فنزلت القادسية فبينما أنا أنظر إلى الناس وزينتهم وكثرتهم إذ نظرت إلى فتى من أحسن الناس وجهاً وهو متوشح بثوب من صوف فوق ثيابه مشتمل بشملة وفى رجليه نعلان من خوص قد جلس منفرداً عن الناس فقلت فى نفسى هذا الفتى من الصوفية يريد أن يكون كلا على الناس فى طريقهم والله لأمضين إليه ولأمتحنه ولأوبخه فدنوت منه فلما رآنى قال يا شقيق إن الله تعالى قال فى كتابه العزيز يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا

كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ثم تركني ومضى فقلت في نفسي إن هذا الامر عظيم قد تكلم على ما في نفسي ونطق باسمي ما هذا إلا عبد صالح والله لألحقنه واستحله مما كان مني وأسرعت نحوه فلم ألحقه وغاب عن عيني فلما نزلنا وأقضت إذا به قائم يصلي وأعضاؤه تضرب ودموعه تجري فقلت هذا صاحبي فمضيت إليه وصبرت حتى فرغ من صلاته وأقبلت نحوه فلما رآني مقبلا قال ياشقيق اقرأ قوله تعالى وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ثم تركني ومضى فقلت إن هذا الفتى لمن الأبدال قد تكلم على ما في سري مرتين فلما نزلنا إلى منى إذا بالفتى وقف على البئر وبيده ركوة يريد أن يستقي بها فسقطت الركوة من يده في البئر وأنا أنظر إليه فرمق بطرفه إلى السماء وقال: أنت ربي إذا ظمئت من الماء وقوتي إذا عدمت الطعاما ثم قال اللهم مالي سواها فلا تعدمني إياها قال شقيق فوالله لقد رأيت البئر قد ارتفع ماؤها فمد الفتى يده وأخذ الركوة وملأها وتوضأ وصلى أربع ركعات ومال إلى كثيب رمل فصار يقبض بيده من ذلك الرمل ويطرحه في الركوة ويحركه ويشربه قال شقيق فأقبلت نحوه وسلمت عليه فرد علي السلام

كسارة امرأة إبراهيم عليه السلام حملت باسحاق وإيشاع امرأة زكريا حملت بيحيى عليه السلام فأخذوها وحبسوها في بيت رهبة تلد جارية فتبدلها بغلام لما ترى من بني إسرائيل في ولدها فجعلت المرأة تدعو الله تعالى أن يرزقها ولداً ذكراً فولدت غلاماً وسمته شمويل تقول سمع الله دعائي فلما شب الغلام أسلمته لتعلم التوراة فكفله عيلي وتبناه فلما بلغ الغلام الوقت الذي يبعثه الله فيه نبياً أتاه جبريل عليه السلام وهو نائم إلى جانب الشيخ عيلي الكاهن وكان لا يأمن عليه أحداً فدعاه جبريل بلحن الشيخ ياشمويل فقام الغلام فزعاً مرعوباً إلى الشيخ وقال يا أبتاه أدعوتني فكره الشيخ أن يقول لا فيفزع الغلام فقال يابني ارجع فنم فرجع الغلام فنام ثم دعاه جبريل ثانياً فانتبه الغلام وقال أدعوتني يا أباه فقال الشيخ ماشأنك قال أما دعوتني قال لا فقال شمويل فاني سمعت صوتاً في البيت وليس فيه غيرنا فقال له الشيخ ارجع فتوضأ وصل فانك إن دعيت باسمك فاجب وقل لبيك أنا طوعك فأمرني بما شئت أفعل ما تأمرني به ففعل ذلك الغلام فنودي ثالثة فقال لبيك أنا طوعك فأمرني أفعل ما تامرني به فظهر له جبريل عليه السلام فقال له اذهب إلى قومك فبلغهم رسالة ربك فان الله سبحانه عز وجل قد بعثك فيهم نبياً وأن الله قد ذرأك يوم ذرأك للنبوة ورحم وحدة أمك ذلك اليوم الذي تاهت عليها ضرتها فيه فلا أحد اليوم أشد منها عضداً ولا ملاذاً فانطلق إلى عيلي فقل له إنك خليفة الله على عباده ودينه فقمت زماناً بأمره حاكماً بكتابه محافظاً على حدوده فلما امتدت مدتك ودق عظمك وذهبت قوتك وفنى عمرك وقرب أجلك وصرت أفقر ما يكون إلى الله تعالى ولم تزل فقيراً إليه عطلت الحدود وجرت بين الخصوم وعملت بالرشا والمصانعات وأضعفت حكم الحق حتى عز الباطل وأهله وذل الحق وحزبه وظهر المنكر وخفي المعروف وفشا الكذب وقل الصدق وما كان الله عاهدك على هذا ولا عليه استخلفك فبئسما احتمت به عملك والله لا يحب الخائنين بلغه هذه الرسالة وقم بعده بالخلافة فلما بلغه شمويل هذه الرسالة فزع وجزع وسار إليهم عدوهم ومن حولهم فأمرت عيلي ابنيه أن يخرجا بالناس فيقاتلا ذلك العدو فخرجا وأخرجا معهما التابوت فلما تأهبوا للقتال جعل عيلي يتوقع ما صنع القوم فجاء رجل وهو قاعد على كرسيه فأخبره أن الناس انهزموا وأن إبنيك قد قتلا قال فما فعل بالتابوت قال ذهب به العدو وقال فشهق ووقع على قفاه من كرسيه فمات فلما بلغ ملكهم إيلاف الخبر أن التابوت قد سلب وأن عيلي قد مات فمات كمداً فلما مات الأمير والوزير وأخذ التابوت مرج أمر بني اسرائيل واختل واجترأ عليهم عدوهم فقالوا لشمويل ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله وذلك بعد ما دبر شمويل أمرهم عشرين سنين فلما نالهم الذل والهوان والقتل والسبي من عدوهم بشؤم معصيتهم سألوا نبيهم شمويل أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله وانما كان قوام أمر بني اسرائيل الاجتماع على الملك واطاعة الملك للأنبياء فلما أخذ شمويل عليهم الميثاق على الطاعة والجماعة والجهاد سأل الله تعالى أن يبعث لهم ملكاً.

﴿ ذكر قصة الملك طالوت وإتيان التابوت وخرب جالوت وما يتعلق به ﴾

قال الله تعالى (وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً) الآية قال المفسرون أن شمويل لما قالوا له ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله تعالى سأل الله تعالى أن يبعث لهم ملكاً فأتي بعصى وقرن فيه دهن القدس وقيل له أن صاحبكم الذي يكون ملكاً طوله طول هذه العصا وانظر الى القرن الذي فيه الدهن فاذا دخل عليك رجل ففتش الدهن الذي في القرن فهو ملك بني اسرائيل فادهن به رأسه وملكه عليهم انهم قاسوا أنفسهم بالعصا فلم يكونوا مثلها وكان طالوت بطولها واسمه بالسريانية سادل وبالعبرانية شاول بن قيش بن اقيل بن صاو بن تحورت بن افيح بن انيس بن بنيامين بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليه السلام وكان رجلا دباغاً يعمل الأدم (وقال وهب بن منبه) كان يدبغ الجلود وعكرمة والسدي يقولان كان سقاء يسقي على حمار له من النيل فضل حماره فخرج في طلبه وقال وهب بن منبه بل ضاعت حمر لأبي طالوت فأرسله وغلاماً له يطلبانها فمر ببيت شمويل عليه السلام فقال الغلام لطالوت

لو دخلنا

لو دخلنا على هذا النبي فسألناه في أمر الحمير ليرشدنا ويدعو لنا فيها بخير فقال له نعم فدخلا عليه فبينما هما عنده يذكران له خبر الحمر إذ نش الدهن في القرن فقام شمويل وقاس طالوت بالعصا فكانت على طوله فقال شمويل قرب رأسك إلى فدهنه بدهن القدس ثم إنه قال أنت ملك بني إسرائيل وقد أمرني ربي أن أملكك عليهم فقال طالوت أنا فقال نعم قال أوما علمت أن سبطي أدنى أسباط بني إسرائيل قال بلى قال فبأي آية قال بآية إنك ترجع وقد وجد أبوك الحمر فكان كذلك ثم أن شمويل قال لبني إسرائيل إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قال مجاهد أميراً على الجيش فقالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال وإنما قالوا ذلك لأنه كان في بني إسرائيل سبطان سبط نبوة وسبط مملكة وكان سبط النبوة سبط لاوى بن يعقوب ومنهم موسى وهرون وسبط المملكة سبط يهوذا بن يعقوب ومنهم داود وسليمان عليهما السلام ولم يكن طالوت من سبط النبوة ولا من سبط المملكة وإنما كان من سبط بنيامين بن يعقوب ومنهم داود وسليمان عليهما السلام ولم يكن طالوت من سبط النبوة ولا من سبط المملكة وإنما كان من سبط بنيامين بن يعقوب وكانوا عملوا ذنباً عظيماً كانوا ينكحون النساء على ظهر الطريق نهاراً فغضب الله عليهم ونزع النبوة والملك منهم فلما قال لهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا أنكروا ذلك لأنه كان من ذلك السبط فقالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال فقال لهم شمويل إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم بالحرب والجسم يعني بالطول في قومه والقوة وإنما سمي طالوت لطوله ولذلك كان يفوق الناس برأسه ومنكبيه وقال ابن كيسان بالجمال وكان طالوت أجمل رجل في بني إسرائيل وأعلمهم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم قالوا فما آية ذلك قال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت الآية .

(قصة التابوت وصفته وابتداء أمره إلى انتهائه)

قال أهل التفسير وأصحاب الأخبار أن الله أهبط تابوتاً على آدم عليه السلام من الجنة حين أهبط إلى الأرض فيه صور الأنبياء من أولاده وفيه بيوت بعدد الرسل منهم وآخر البيوت بيت محمد ﷺ من ياقوتة حمراء وإذ هو قائم يصلي وعن يمينه الكهل المطيع مكتوب على جبينه هذا أول من يتبعه من أمته أبو بكر الصديق رضي الله عنه وعن يساره الفاروق وعلى جبهته مكتوب قرن من حديد لا تأخذه في الله لومة لائم ومن ورائه ذو النورين آخذ بحجرته مكتوب على جبهته بار من البررة ومن بين يديه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه شاهر سيفه على عاتقه ومكتوب على جبهته هذا أخوه وابن عمه المؤيد بالنصر من عند الله وحوله عمومته والخلفاء والنقباء والكبكبة الخضراء أنصار الله وأنصار رسوله نور حوافر دوابهم يوم القيامة مثل نور الشمس في دار الدنيا وكان التابوت نحواً من ثلاثة أذرع في ذراعين وكان من عود الشمشاذ الذي يتخذ منه الأمشاط مموه بالذهب وكان عند آدم عليه السلام إلى أن مات ثم عند شيث إلى أن مات ثم توارثه أولاد آدم إلى أن بلغ إبراهيم عليه السلام فلما مات كان عند إسماعيل لأنه كان أكبر ولده فلما مات إسماعيل كان عند ولد قيذار فنازعه فيه ولد إسحق وقالوا له أن النبوة صرفت عنكم وليس لكم إلا هذا النور الواحد يعني نور محمد ﷺ فأعطنا التابوت فكان يمتنع عليهم ويقول أنه وصية أبي ولا أعطيه لأحد من العالمين قال فذهب ذات يوم ليفتح ذلك التابوت فعسر عليه فتحه فناداه مناد من السماء مهلا يا قيذار فليس لك إلى فتح هذا التابوت سبيل إنه وصية نبي ولا يفتحه إلا نبي فادفعه إلى ابن عمك يعقوب إسرائيل الله فحمل قيذار التابوت على عنقه وخرج يريد أرض كنعان وكان بها يعقوب عليه السلام قال فلما قرب قيذار صر التابوت صرة سمعها يعقوب عليه السلام فقال لبنيه أقسم بالله لقد جاءكم قيذار بالتابوت فقوموا نحوه فقام يعقوب وأولاده جميعاً فلما نظر يعقوب إلى قيذار مشى إليه باكياً وقال له يا قيذار ما الذي أرى لونك متغيراً وقوتك ضعيفة أرهقك عدو أم أتيت بمعصية بعد أبيك إسماعيل قال ما أرهقني عدو ولا أتيت معصية ولكن أثقل ظهري نور محمد ﷺ فذلك

فقلت يا أخي الحسني من فضل ما أنعم الله عليك فقال ياشقيق كم ترى نعمة الله علينا ظاهرة وباطنة فأحسن ظنك بربك ثم ناولني الركوة فشربت منها فإذا هو سويق وسكر فوالله ما شربت ألذ منه ولا أطيب رائحة فشبعت وردويت وأقمت أياماً لم أشته طعاماً ولا شراباً ثم مضى فلم أره حتى دخلنا مكة فرأيته ليلة من الليالي وهو في جنب قبة الشراب وهو قائم يصلي بخشوع وأنين وبكاء ولم يزل كذلك حتى ذهب الليل فلما رأى الفجر جلس في مصلاه يسبح الله تعالى ثم قام يصلي صلاة الصبح فلما سلم من الصلاة طاف سبعاً ثم خرج فتبعته فإذا له حاشية وموال وهو على خلاف ما رأيته في الطريق ودار به الناس من حوله وهم يسلمون عليه فقلت لبعض من كان بالقرب منه من هذا الفتى فقال موسى ابن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم ونفعنا في الدنيا والآخرة آمين .

(وحكى عن أبي عبد الله الجوهري رضي الله تعالى عنه) أنه قال كنت سنة من السنين في عرفات فلما جن الليل نمت فرأيت ملكين نزلا من السماء فقال أحدهما لصاحبه كم وقف على هذا الجبل في هذه السنة من الحاج

قال ستمائة ألف نفس قلم
تقبل الله تعالى منهم غير ستة
أنفس فهممت أن ألطم
وجهي وأنوح على نفسي
فقال له ما فعل الله بباقي الجمع
قال نظر إليهم حتى لا يخيب
سعيهم فوهب لكل واحد من
الستمائة ألف فغفر الله بستة
أنفس لستمائة ألف نفس
وذلك فضل الله يؤتيه من
يشاء والله ذو الفضل العظيم
قال عبد الله فحمدت الله تعالى
وزال ما كان عندي .

(وحكى عن الشيخ أبي
الفوارس شاه بن الشجاع
الكرماني عفا الله عنه) أنه
قال خرجت يوماً للصيد
والنزهة وكنت يومئذ ملك
كرمان فأمعنت نظري في
صيد رأيته وسرت في طلبه
حتى وقعت في برية مقفرة
ولم يكن عندي من عسكري
أحد فبينما أنا كذلك إذا
بشاب جميل الخلقة راكب
على سبع وحوله سباع كثيرة
فلما رآني السباع انتدرت
إلى فزجرها الشاب فتأخرت
عني فسلم علي وقال يا شاه
ما هذه الغفلة عن الله تعالى
اشتغلت بدنياك عن أخراك
وبلذتك عن خدمة مولاك
إنما أعطاك الدنيا فتستعين
بها على خدمته جعلها ذريعة
إلى الاشتغال عنه فلما سمعت
ذلك منه طاش عقلي ودهشت
في نفسي فبينما هو يحدثني
إذ خرجت عجوز بيدها كوز
فيه ماء فتناول الشاب وشرب
ودفع الباقي إلي فشربته فما رأيت ألذ من ذلك

تغيرلوني وضعف ركني قال يعقوب أفي بنات إسحق قال لا ولكن في العربية الجرهمية وهي العامرية
فقال يعقوب بخ بخ شر فأحمد ﷺ لم يكن الله ليخرجه إلا في العربيات الطاهرات يا قيذار وأنا مبشرك
ببشارة قال وما هي قال اعلم أن العامرية قد ولدت لك البارحة غلاماً قال قيذار وما أعلمك يا ابن عمي
وأنت بأرض الشام وهي بأرض الحرم قال يعقوب قد علمت ذلك لأني رأيت أبواب السماء قد فتحت
ورأيت نوراً كالقمر المدور بين السماء والأرض ورأيت الملائكة ينزلون من السماء بالبركات والرحمة
فعلمت أن ذلك من أجل محمد ﷺ ثم أن قيذار دفع التابوت إلى ابن عمه يعقوب ورجع إلى أهله فوجدها
قد ولدت غلاماً فسماه خملا وفيه نور محمد ﷺ قالوا وكان التابوت في بني إسرائيل إلى أن وصل إلى موسى
وكان يوضع فيه التوراة ومتاعاً من متاعه وكان عنده إلى أن مات ثم تداولته أنبياء بني إسرائيل إلى
وقت شمويل عليه السلام (وكانت قصة ذلك التابوت) أن القوم الذين سبوا التابوت أتوا به قرية من
قرى فلسطين يقال لها أردن وجعلوه في بيت صنم لهم ووضعوه تحت الصنم الأعظم فأصبحوا من الغد
وإذا الصنم تحته فأخذوه وجعلوه فوقه وسمروا قدمي الصنم على التابوت فأصبحوا من الغد وقد قطعت
يد الصنم ورجلاه وأصبح ملقى تحت التابوت فأصبحت الأصنام كلها منكبة فأخرجوه من بيت
الأصنام ووضعوه في ناحية من مدينتهم فأخذ أهل تلك الناحية وجع في أعناقهم حتى أهلك أكثرهم
فقال بعضهم لبعض أليس قد علمتم أن إله بني إسرائيل لا يقوم له شيء فأخرجوه من مدينتكم قال
فأخرجوه إلى قرية أخرى فبعث الله على أهل تلك القرية فأراً يبيت الرجل صحيحاً فيعرض له الفأر
فيصبح ميتاً وقد أكلت ما في جوفه فأخرجوه منها إلى الصحراء ودفنوه في مجرى لهم فكان كل من تبرز
هناك أخذه الباسور والقولنج فأخرجوه ووضعوه في بيت فمكث فيهم عشر سنين وسبعة أشهر
لا يدنو أحد منه إلا احترق وأصابهم في المدينة الآفات والعاهات وفي مواشيهم الموت وفي نسائهم
الطاعون فتحيروا وكانت عندهم امرأة من نساء بني إسرائيل من أولاد الأنبياء فقالت لا تزالون
ترون ما تنكرهون ما دام هذا التابوت فيكم فأخرجوه عنكم فأتوه بعجلة بإشارة تلك المرأة فحملوا
عليها التابوت ثم علقوها على ثورين وضربوا جنوبهما فأقبل الثوران يسيران ووكل الله بهما أربعة من
الملائكة يسوقونهما فلم يمر التابوت بأرض إلا كانت مقدسة فاقبلا حتى وقفا على أرض فيها حصاد لبني
اسرائيل فكسروا قرنهما وقطع حبالهما ووضع التابوت فيها ورجع الثوران إلى أرضهما فلم تدر بنو إسرائيل
إلا والتابوت عندهم فكبروا وحمدوا الله تعالى واجتمعوا على طالوت فذلك قوله تعالى (تحمله الملائكة)
أي تسوقه الملائكة (وقال ابن عباس) جاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض وهم ينظرون
إليه حتى وضعته في دار طالوت فأقروا بملكه قال الله تعالى (إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين) قال ابن
عباس إن التابوت وعصا موسى في بحيرة طبرية وإنهما يخرجان قبل يوم القيامة والله أعلم .

(باب في قصة شمويل حين أوحى الله إليه أن يأمر طالوت بالمسير إلى قتال جالوت)
مع بني إسرائيل وصفة نهر الابتلاء

قال الله تعالى (فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر) الآية فلما أوحى الله إلى شمويل
عليه السلام أن يأمر طالوت بالمسير إلى جالوت من بيت المقدس بالجنود لم يتخلف عنه إلا كبير لهرمه
أو مريض لمرضه أو ضرير لضره أو معذور لعذره وذلك إنهم لما رأوا التابوت قالوا قد أتانا التابوت
وهو النصر لا شك فيه فسارعوا إلى الجهاد فقال طالوت لا حاجة لي فيما أرى لا يخرج معي رجل من
بنى بناء لم يفرغ منه ولا صاحب تجارة مشتغل بها ولا رجل عليه دين ولا رجل تزوج بامرأة ولم يدخل
بها ولا يتبعني إلا الشاب النشيط الفارغ فاجتمع ثمانون ألفاً على شرطه فخرج بهم وكان في حر شديد
فشكوا قلة الماء بينهم وبين عدوهم وقالوا إن المياه لا تحملنا فادعوا الله تعالى أن يجري لنا نهراً فقال
لهم طالوت بأمر شمويل عليه السلام إن الله مبتليكم بنهر مختبركم ليرى طاعتكم وهو أعلم بكم وهو نهر بين

الأردن وبين فلسطين عذب يقال له آدمى فمن شرب منه فليس منى أى من أهل دينى وطاعتى ومن لم يطعمه ولم يشربه فإنه منى ثم استثنى فقال إلا من اغترف غرفة بيده وهو ملء الكف ومن فتح الغين أراد المرة الواحدة فشربوا منه إلا قليلا منهم (قال السدى) كانوا أربعة آلاف وقال غيره كانوا ثلثمائة وبضعة عشر رجلا وهو الصحيح فدل عليه حديث البراء بن عازب قال لنا رسول الله ﷺ يوم بدر أنتم اليوم على عدة أصحاب طالوت حين عبروا النهر وما جاوز معه إلا مؤمن قال وكانوا يومئذ ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا فمن اغترف غرفة بيده كما أمر الله تعالى قوى قلبه وصح ورجع إيمانه وعبر النهر سالما وكفته تلك الغرفة الواحدة لشربه وحمله ودوابه والذين شربوا وخالفوا أمر الله تعالى اسودت شفاههم فلما جاوز النهر مع طالوت القليل الذين ثبتوا معه وقال الذين شربوا وخالفوا أمر الله تعالى لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده وانصرفوا عن طالوت ولم يشهدوا قتال جالوت وقال الذين يظنون أى يعلموا ويوقنون أنهم ملاقوا الله وهم القليل الذين ثبتوا مع طالوت كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله الآية ومروا قاصدين الجهاد .

(باب فى ذكر أمر داود عليه السلام وخبر جالوت وصفة قتله)

قال الله تعالى (لما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا) إلى قوله تعالى (وقتل داود جالوت) قال المفسرون والمخبرون بألفاظ مختلفة ومعان متفقة عبر النهر مع طالوت فيمن عبر إيشا بن داود ومعه ثلاثة عشر إبنا له وكان داود أصغرهم وأحقرهم فأتى ذات يوم أباه فقال له يا أبتاه ما قذفت بمقلاعى هذه شيء إلا أصبته وصرعته فقال أبشر يا بنى فإن الله قد جعل رزقك فى قذافتك يعنى فى مقلاعك ثم أتاه يوما آخر فقال يا أبتاه لقد دخلت بين الجبال فرأيت أسدا رابضا فركبته وقبضت بأذنيه فلم يهمنى فقبضت على فكيه ففرطهما برأسه وعنقه إلى لبته بيدى من غير سكين ولا ضرب بحديدة وتراه هناك مقتولا فقال له أبوه أبشر يا بنى فإن هذا خيرا أعطاكه الله ثم أتاه يوما آخر وقال يا أبتاه إنى لأمشى بين الجبال فأسبح فما يبقى جبل إلا سبح معى قال أبشر يا بنى فإن هذا خيرا أعطاكه الله وسيكون لك شأن عظيم قال فلما وصلت غزاة بنى إسرائيل مع طالوت إلى عسكر جالوت أرسل جالوت إلى طالوت أن ابرز إلى أو ابرز إلى من يقاتلنى فإن قتلنى فلكم ملكى وإن قتلته فلى ملككم فشق ذلك على طالوت فنادى فى عسكره من قتل طالوت زوجته إبنتى وناصفته مملكتى فهاب الناس قتال جالوت فلم يجبه أحد فسأل طالوت نبيهم شمويل عليه السلام فدعا الله تعالى فى ذلك فأتى بقرن فيه دهن القدس وشبه تنور من حديد وقيل له إن الذى يقتل جالوت هو الذى يوضع القرن على رأسه فيغلى الدهن حتى يدهن منه رأسه ولا يسيل على وجهه بل يكون على رأسه كهيئة الإكليل ويدخل فى هذا التنور فيملؤه فدعاه طالوت فوضع القرن على رأسه فقاض وأجلسه فى التنور فملأه فلما رأى طالوت ذلك قال له هل لك أن تقتل جالوت وأزوجك إبنتى وأجرى حكمك فى مملكتى قال نعم فهل لقيت من نفسك شيئا تتقوى به على قتله قال نعم أنا راعى الغنم فيجيء الأسد والنمر والذئب ليأخذ شيئا فأقوم إليه وأقبضه وأفتح لحييه عنها وأخرقهما إلى قفاه فلما سمع طالوت منه ذلك أراده إلى عسكره فمر داود عليه السلام فى الطريق بحجر فناداه يا داود أحملنى فإنى حجر هارون الذى قتل به ملك كذا وكذا فحمله فى مخلاته ثم مر بحجر آخر فناداه يا داود احملنى فإنى حجر موسى عليه السلام الذى قتل به ملك كذا وكذا فحمله فى مخلاته ثم مر بحجر آخر فقال أحملنى فإنى حجرك الذى تقتل به جالوت وقد خبأنى الله لك فوضعه فى مخلاته فلما تصافوا للقتال برز جالوت وسأل المبارزة فانتدب له داود وكان طالوت أعطاه فرسا ودرعا وسلاحا فركب الفرس ولبس السلاح وسار قليلا فوجد فى نفسه زهوا فانصرف وعاد سريعا إلى الملك فقال من حوله جن الغلام لجاء حتى وقف على الملك فقال له ما شأنك فقال له داود أن الله تعالى إن لم ينصرنى فما يغنى عنى هذا السلاح شيئا فدعنى أقاتل كما أريد فقال طالوت افعل ما تريد فأخذ داود عليه السلام مخلاته فتقلدها

ولا أحلى منه ثم غابت العجوز عن عينى فتعجبت من ذلك وقلت للشاب من أين هذه العجوز فقال يا شاه هذه الدنيا وقد وكلها الله تعالى تخدمنى فكلما احتجت إلى شيء حضرت لى به حين يخطر ببالى ثم قال يا شاه أما بلغك أن الله تعالى لما خلق الدنيا قال لها يا دنيا من خدمنى فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه فلما رأيت ذلك وسمعته منه تركت الدنيا وتنزهت عن الملك وتبت إلى الله من وقتى واشتغلت بخدمة مولاى وخالقى ولله الحمد على ذلك اللهم إنا نسألك التوبة والتوفيق آمين

(وحكى عن بعض الأكراد) ممن كان يقطع الطرق وينهب الأموال أنه بينما أنا وأصحابى قد خرجنا لقطع الطريق وأخذ أسباب الناس إذ انتهينا إلى مكان فيه ثلاث نخلات واحدة منها ليس عليها تمر والنخلتان عليهما التمر فنظرت عصفور يحمل رطبا من النخلة التى ليس عليها تمر ففعل ذلك عشر مرات فتعجبت منه ثم قمت بنفسى لأن أنظر ذلك فقمت وصعدت على النخلة ونظرت فإذا بحية عمياء فاتحة فاها والعصفور يضع ذلك التمر فى فيها فلما رأيت ذلك بكيت وقلت هذه حية أمر نبينا بقتلها فلما أعماها الله تعالى سخر لها عصفورا يقوم لها بالقوت

وأخذ المقلاع ومضى نحو جالوت وكان جالوت من اشد الناس وأقواهم وكان يهزم الجيوش وحده وكان له بيضة وزنها ثلثمائة رطل حديد وكان له أفرس أبلق مثله فى الشدة والقوة وعظم الخلق فلما برز جالوت إلى داود ألقى الله تعالى فى قلبه الرعب فقال له أنت تبرز إلى قال نعم وكان جالوت راكباً على فرس أبلق وعليه السلاح التام فقال له يا بنى تأتينى بالحجر والمقلاع كما يؤتى الكلب بالحجر قال نعم أنت أشر من الكلب قال لاجرم لأقسمن لحمك بين سباع الأرض وطير السماء فقال داود بسم الله ويقسم لحمك السباع وطير السماء وأخذ حجراً منها وقال بسم الله إله إبراهيم ووضعه فى مقلاعه وأخذ حجراً ثانياً وقال بسم الله إله إسحق ووضعه فى مقلاعه ثم أخرج ثالثاً فقال بسم الله إله يعقوب ووضعه فى مقلاعه قال فصارت الأحجار الثلاثة كلها حجراً واحدا وأدار المقلاع ورمى به فسخر الله له الريح حتى أصاب الحجر أنف البيضة فخالط دماغه وخرج من قفاه وقتل من وراءه ثلاثين رجلا ومثل ذلك صار كرامة للنبى ﷺ يوم بدر حين حثا الحثوة من التراب فانهزم الجيش وخر جالوت قتيلا وأسرع داود عليه السلام إليه فحز رأسه وانتزع من يده خاتمه وأقبل برأسه يجره حتى ألقاه بين يدى طالوت ففرح المسلمون فرحاً شديدا وانصرفوا إلى مدينتهم سالمين غانمين بحمد الله رب العالمين .

(ذكر بقية قصة طالوت وما كان منه إلى داود عليه السلام بعد قتل جالوت)

قالوا لما قتل داود جالوت ذكر الناس داود وعظم فى أنفسهم فجاء داود إلى طالوت وقال له انجز إلى ما وعدتنى واعطنى امرأتى فقال له طالوت أتريد إبنة الملك بغير صداق على صداق إبنتى وشأنك بها فقال داود لطالوت ما شرطت على صداقاً وليس لى شىء فتحكم فى الصداق بما تريد واقرضنى مهرها وعلى الأداء والوفاء لك به فقال طالوت أصدقها نصيبك من الملك فقالت له بنو إسرائيل لا تظلمه وأنجز له ما وعدته فلما رأى طالوت ميل بنى إسرائيل إلى داود أحسن ثناءه عليه وقال لا حاجة لإبنتى فى المال ولا أكلفك ما لا تطيق أنت رجل جرىء وفى جبالنا أعداء من المشركين فانطلق فجاهدهم فإذا قتلت منهم مائتى رجل وجئتنى برؤسهم زوجتك إبنتى فأتاهم داود عليه السلام وجعل كلما قتل منهم رجل احتز رأسه ونظمه فى خيط حتى نظم رؤسهم ثم جاء بهم إلى طالوت وألقاهم بين يديه وقال له ادفع إلى امرأتى فزوجه امرأته وأجرى خاتمه فى ملكه فمال الناس إلى داود عليه السلام وأحبه بنو إسرائيل وأكثروا من ذكره فوجد طالوت من ذلك نفسه فاراد قتله (قال وهب بن منبه) كانت الأنبياء والملوك يومئذ يتوكؤن على العصى ويغرزون فى أطراف العصى أزجة من حديد وكان داود عليه السلام جالساً فى ناحية البيت فدخل طالوت فرماه بالعصا بغتة ليقتله بها حسداً فلما أحس داود بذلك حاد عن رميته وأمال نفسه من غير أن يبرح من مكانه فارتكزت العكازة فى الجدار فقال له داود أردت قتلى قال له طالوت لا بل أردت أن أقف عن ثباتك عند الطعان وربط جأشك للأقران فقال له داود عليه السلام أفلقيته على ما قدرته فى قال نعم ولكنك لعلك فزعت قال معاذ الله أن اخاف إلا الله ولا ألجأ إلا إليه ولا يدفع الشر إلا هو ثم أن داود انتزعها من الجدار وهزها هزة منكرة قال له اثبت لى كما ثبت لك فأيقن طالوت بالهلاك فقال له أنشدك بالله وبحرمة المصاهرة التى بينى وبينك وما كان هذا القول من داود عن قتل طالوت ولكن كان مقال تخويف وتحذير فقال داود لطالوت إن الله قد كتب فى التوراة جزاء سيئة سيئة مثلها واحدة والبادى أظلم قال طالوت أفلا تقول قول هابيل لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين فقال داود إنى قد عفوت عنك لوجه الله تعالى فلبث طالوت زماناً يريد قتل داود عليه السلام فعزم على أن يأتيه ويقتله فى داره فأخبرت بذلك بنت طالوت زوجة داود أخبرها رجل يقال له ذو العينين فقالت لداود أنك لمقتول الليلة قال ومن يقتلنى قالت أبى قال وهل أجرمت جرماً قالت حدثنى من لا يكذب ولا عليك بأس ان تغيب الليلة حتى تنظر مصداق ذلك فقال إن كان أرا ذلك لا أستطيع خروجا ولكن ائتنى بزق من خمر فاتته به فوضعه فى مضجعه على السرير

وسجاه

وأنا عبداً من عباده أقامنى لقطع الطريق وصيانة السبيل ثم قلت اللهم إنى تائب إليك مما كان منى ولا أعود أبداً ثم كسرت سيفى ووضعت التراب على رأسى وناديت الإقالة الإقالة فسمعت قائلا يقول قد أقلناك فأتيت رفاقى فلما رأونى قالوا ما بالك بتلك الحالة فقلت لهم إنى كنت مهجوراً وصولحت ثم قصصت عليهم ما رأيت فلما سمعوا ذلك قالوا فنحن نصالح كما صالحت فرموا أسلحتهم جميعاً وتابوا إلى الله تعالى ثم أحرمنا وقصدنا مكة شرفها الله تعالى ومشينا ثلاثة أيام حتى انتهينا إلى قرية فيها امرأة عجوز عمياء وكانت من الصالحات فخرجت إلينا وقالت أفيكم فلان الكردى فقلنا نعم فأخرجت ثياباً وقالت إن ولدى مات عن قريب وخلف هذه الثياب فجاءنى النبى ﷺ فى المنام وقال لى اعطى هذه الثياب لفلان الكردى هو وأصحابه قال فأخذنا الثياب وسرنا من عندها حتى دخلنا مكة والحمد لله على ذلك .

وحكى عن الإمام أبى القاسم الجنيد رضى الله تعالى عنه أنه قال كنت جالساً ببغداد أنتظر جنازة لأصلى عليها وأهل بغداد فى طرقاتهم جلوس ينتظرون ما أنتظره فإذا بفقير عليه آثار الدلال والنسك يسأل الناس فقلت

وسجاه ودخل تحت السرير قال فدخل طالوت نصف الليل وأراد أن يقتل داود فلم يجده فقال لإبنته أين بعلك فقالت هو نائم على السرير فضربه بالسيف فسال الخمر فلما وجد ريح الخمر قال رحم الله داود ما كان أكثر شربه للخمر وخرج فلما أصبح علم أنه لم يفعل شيئاً فقال أن رجلا طلبت ما طلبت منه لخليق أن لا يدعني حتى يدرك ثأره مني ثم أنه استتر بحجابه وحراسه وأغلق دونه الأبواب قال فأتى داود ذات ليلة وقد هدأت العيون وأعمى الله عنه الحجاب وفتح الله له الأبواب فدخل عليه وهو نائم في فراشه فوضع سهماً عند رأسه وسهماً عند رجليه وسهماً عن يمينه وسهماً عن شماله ثم خرج فلما استيقظ طالوت وجد السهام فرفعها فقال رحم الله داود وهو خير مني ظفرت به لقصدت قتله وظفر بي فكف عني لو شاء لوضع السهم في حلقي وما أنا بالذي آمنه فلما كانت الليلة القابلة أتاه داود ثانياً وأعمى الله عنه أعين الحجاب فدخل وهو نائم على فراشه فأخذ إبريق طالوت الذي كان يتوضأ منه وكوزه الذي كان يشرب منه وقطع شعرات من لحيته وشيئاً من هدب ثيابه ثم خرج وهرب وتوارى فلما أصبح طالوت ورأى ذلك سلط على داود العيون وشدد في طلبه فلم يقدر عليه ثم أن طالوت ركب ذات يوم فوجد داود عليه السلام يمشي في البرية فقال طالوت في نفسه اليوم أقتل داود أنا راكب وهو ماش وكان داود إذا فر لم يدرك فركض طالوت في أثره واشتد داود في الجري فدخل غاراً فأوحى الله إلى العنكبوت فنسجت عليه بيتاً فلما انتهى طالوت إلى الغار ونظر إلى بناء العنكبوت قال لو كان ههنا لخرق بيت العنكبوت فتركه ومضى فلما مضى خرج طالوت من الغار وانطلق إلى الجبل مع المتعبدين فجعل يتعبد فيه فطعن العلماء والعباد على طالوت في شأن داود فجعل طالوت لا ينهاه أحد عن قبل داود إلا قتله فجعل يقتل العلماء فلم يكن يقدر في بني إسرائيل على عالم ويطلق قتله ولم يكن يحارب جيشاً إلا هزمه حتى أتى بامرأة تعلم السر الأعظم فأمر خبازه بقتلها فرحمها الخباز وقال لعلنا نحتاج إلى عالم فتركها ووضع الله في قلب طالوت التوبة فندم على ما فعل وأقبل على البكاء حتى رحمه الناس وكان كل ليلة يخرج إلى القبور فيبكي وينادي أنشد الله عبداً يعلم لي التوبة إلا أخبرني بها فرحمه الخباز فقال له مالك أيها الملك هل تدري ما مثلك إلا كمثل ملك نزل قرية عشاء فصاح الديك فتطير منه فقال لا تتركوا في هذه القرية ديكاً إلا أذبحتموه فلما أراد أن ينام قال لأصحابه إذا صاح الديك فأيقظونا حتى ندلج فقيل له وهل تركت ديكاً يسمع صوته وأنت هل تركت عالماً في الأرض فازداد حزناً وبكاءً فلما رأى الخباز ذلك قال أرأيت أن دللتك على عالم لعلك تقتله قال لا فوثق منه الخباز بالإيمان فأخبره أن المرأة العالمة عنده فقال انطلق بنا إليها إسألها هل لي من توبة وكانت تعلم الإسم الأعظم وكان إنما يعلم هذا الإسم أهل بيت لها فنيت رجالهم وعلمت نساءهم فما بلغ طالوت الباب قال له الخباز إنها إن رأتك فزعت ثم جعله خلفه ودخل عليها الخباز فقالت ألست أعظم الناس عليك منة أنجيتك من القتل وأوثقتك منه قالت بلى قال لي إليك حاجة هذا طالوت يسأل هل له من توبة فلما سمعت بذكره غشي عليها من الفرق فلما أفاقت قال لها إنه لا يريد قتلك ولكن يسألك هل له من توبة قالت لا والله ما له من توبة ولكن هل تعلمون قبر شمويل عليه السلام قالوا نعم قالت فانطلقوا بنا إلى قبره فلما وصلوا إليه صلت عند ركعتين ثم إنها نادت يا صاحب القبر فخرج شمويل عليه السلام من القبر ينفض التراب عن رأسه فلما نظر إلى الثلاثة المرأة والخباز والملك فقال لهم أقامت القيامة قالوا لا ولكن هذا طالوت يسألك هل له من توبة فقال له شمويل ما فعلت يا طالوت بعدي قال لم أدع شيئاً من الشرك إلا فعلته وقد جئت أطلب التوبة قال كم لك من ولد قال عشرة رجال قال لا أعلم لك من توبة إلا أن تتخلى من ملكك وتخرج أنت وولدك تجاهد في سبيل الله ثم تقدم ولدك حتى يقتلوا بين يديك ثم إنك تقاتل حتى تقتل آخرهم ثم رجع شمويل عليه السلام إلى القبر فسقط ميتاً ورجع طالوت أحزن ما يكون وخاف أن لا يتابعه ولده فبكى حتى ذهبت أشعار عينيه ونحل جسمه فدخل عليه أولاده فقال لهم أرأيتم لو دفعت إلى النار كنتم تقذفوني قالوا نعم نقذفك

في سري لو عمل هذا عملا يصون به نفسه عن السؤال كان خيراً له فلما انصرفت إلى منزلي وكان على شيء من الورد في الليل من الذكر والصلاة والبكاء وغير ذلك فثقل على جميعه وسهرت سهراً شديداً ثم غلبني النوم فنمت فرأيت في نومي ذلك النفير وقد جاؤا به في خوان من زبرجد وقالوا لي كل لحمه فقد اغتبته وكشفوا لي عن الخوان فقلت أنا ما اغتبته إنما قلت في نفسي شيئاً فقيل لي ما أنت ممن يرضى منهم بمثل هذا أذهب إليه فاستحله مما كان منك قال الجنيد فاصبحت ولم أزل متردداً عليه حتى رأيته في موضع ظاهر البلد وهو يلتقط الماء ما يتساقط من أوراق البقل فأتيت إليه وسلمت عليه فرد علي السلام ثم قال لا تعد إلى مثلها يا أبا القاسم فقلت أستغفر الله العظيم فقال اذهب غفر الله لي ولك ثم ولي فلم أره رضي الله تعالى عنه ورضي عنا بهم أجمعين أمين .

(وحكي) عن الجنيد أيضاً رضي الله تعالى عنه أنه قال دخلت الكوفة في بعض أسفاري فرأيت داراً كانت لبعض الرؤساء عليها أثر النعيم وعلى بابها عبيد وغلمان ببعض أزقتها جارية تغني وتنشد هذه الأبيات :

ألا يا دار لا يدخلك حزن ولا يعبث بساكنك الزمان فنعم الدار أنت لكل

ضيف إذا ما الضيف أعوزه المكان قال الجنيد فررت بعد ذلك بمدة يسيرة فإذا الباب مسدود والجمع مبدود وقد ظهر عليها كآبة الذل والهوان وعلى ذلك الباب مكتوب هذا البيتان :

ذهبت محاسنها وبان شجونها ... والدهر لا يبقى مكاناً سالماً

فاستبدلت من إنسها بتوحش ... بعد السرور عزاء دائماً

قال الجنيد فسألت عن خبرها فقيل مات صاحبها وصار من أمرها ما ترى قال الجنيد فقرعت الباب الذى كان لا يقدر أحد أن يصل إليه فكلمتنى جارية بكلام ضعيف فقلت لها يا جارية أين بهجة ذلك المكان ونواره وأين شموسه وأقماره وأين قصاره وزواره فبكت الجارية بكاء شديداً وقالت ياشيخ كانوا فيه على سبيل العارية ثم نقلتهم الأقدار إلى دار القرار وهكذا حالة الدنيا ترحل من سكن إليها وتسىء من أحسن إليها قال فقلت لها يا جارية مررت فى بعض الأعوام على هذا القصر فسمعت فيه جارية تغنى بصوت شجن فمن تلك الجارية فبكت وقالت هو أنا ولم يبق أحد من أهل هذه الدار غيرى فالويل لمن عرفته الدنيا فقلت لها ياجارية كيف يقربك القرار فى هذا الموضع

بما قدرنا عليه قال فإنها النار إن لم تفعلوا ما أقول لكم فاعرض علينا مقالتك فذكر لهم القصة فقالوا وإنك لمقتول بعدنا قال نعم قالوا لاخير لنا فى الحياة بعدك فدطابت أنفسنا بالذى سألت فتجهز بأولاده إلى الغزو وكانوا عشرة فتقاتلوا بين يديه ثم شد بعدهم فقاتل حتى قتل فجاء قاتله إلى داود يبشره بقوله قد قتلت عدوك فقال اود ما كنت بالذى تحيا بعده فضرب عنقه .

(مجلس فى خلافة داود عليه السلام وما يتعلق بها)

قال الله تعالى (ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض) الآية قالت العلماء بأخبار الأنبياء لما استشهد طالوت أتى بنو إسرائيل إلى داود فأعطوه خزانة طالوت وملكوه على أنفسهم وذلك بعد قتل داود جالوت بسبع سنين ولم تجتمع بنو إسرائيل على ملك واحد بعد يوشع بن نون إلا على داود عليه السلام فذلك قوله عز وجل (وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة) الآية .

(باب فى ذكر نسبه)

هو داود بن إيشا بن عوفيد بن بوعز بن سلمون بن يغشون بن عمينوذب بن أرم بن حضرون ابن بارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليهم أجمعين.

(باب فى ذكر صفته وحليته)

أخبرنى الحسن بن محمد الدينورى بإسناده عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ زرقة العينين يمن وكان داود عليه السلام أزرق العينين أحمر الوجه دقيق الساقين سبط الشعر أبيض الجسم طويل اللحية فيها جعودة حسن الصوت والخلق طاهر القلب نقيه .

(باب فى ذكر ما خص الله تعالى به نبيه داود عليه السلام من الفضل والكرامات)

(حين أعطاه الله النبوة والملك)

فمنها أنه نزل عليه الزبور بالعبرانية مائة وخمسين سورة فى خمسين منها ذكر ما يكون من مختصر وأهل بابل وفى خمسين منها ذكر ما يلقون من الروم من أهل أيرون وفى خمسين منها موعظة وحكمة ولم يكن فيها حلال ولا حرام فذلك قوله تعالى (وآتينا اود زبورا) ومنها الصوت الطيب والنغمة الطيبة اللذيذة والترجيع والألحان ولم يعط الله أحدا من خلقه مثل صوته وكان يقرأ الزبور بسبعين لحناً بحيث يعرق المحموم ويفيق المغمى عليه وكان إذا قرأ الزبور برز إلى البرية فيقوم وتقوم معه علماء بنى إسرائيل خلفه وتقوم الناس خلف العلماء وتقوم الجن خلف الناس وتقوم الشياطين خلف الجن وتدنوا الوحوش والسباع ويؤخذ بأعناقها وتظله الطيور مضحية ويركد الماء الجارى ويسكن الريح وما صنعت المزامير والبرابط والصنوج إلا على صوته وذلك أن إبليس لعنه الله حسده واشتد عليه فقال لعفاريته ألا ترون ما دهاكم فقالوا له مرنا بما شئت فقال إنه لا يصرف الناس عن داود إلا ما يضاده ويحاده فى مثل حاله فهيؤا المزامير والعيدان والأوتار والملاهى على جناس أصوات داود فسمعها سفهاء الناس فمالوا إليها فاغتروا بها ويقال أن داود عليه السلام كان إذا قرأ الزبور بعد ما قارب الذنب لا يقف له الماء ولا تصغى له الوحوش ولا البهائم ولا الطيور كما كانت قبلها وتقصف نفمته فقال إلهى ماهذا فأوحى الله تعالى إليه ذلك أنس الطاعة وهذه وحشة المعصية يا داود أن الخطيئة هى التى غيرت صوتك وحالك فقال إلهى أو ليس قد غفرتها لى قال بلى ولكن ارتفعت الحالة التى بينى وبينك من الود والقرب فلن تدركها أبدا (أخبرنا) أبو بكر الجوزقى عن أبى موسى الأشعرى قال قال رسول الله ﷺ لقد أعطيت مزمارا من مزامير آل داود فقلت أما والله يارسول الله لو علمت أنك تسمع لحبرته تحبيرا (وأخبرنا أبو بكر) قال أخبرنا أبو العباس بالإسناد عن البراء بن عازب قال سمع النبى ﷺ صوت أبى موسى فقال لقد أعطى هذا من صوت آل داود (ومنها) تسخير الجبال والطير له يسبحن معه إذا سبح كما قال الله

تعالى

تعالى (ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد) وقوله تعالى (أنا سخرنا له الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق) ويقال إن داود عليه السلام كان إذا تخلل الجبال فسبح الله تعالى جعلت الجبال تجاوبه بالتسبيح نحو ما يسبح ثم قال فى نفسه ليلة من الليالى لأعبدن الله تعالى عبادة لم يعبده أحد بمثلها فصعد الجبل فلما كان فى جوف الليل داخلته وحشة فأوحى الله تعالى إلى الجبال أن آنسى داود فاصطكت الجبال بالتسبيح والتقديس والتهليل فقال داود فى نفسه كيف يسمع صوتى مع هذه الأصوات فهبط جبريل عليه السلام وأخذ بعضده حتى انتهى به إلى البحر فوكزه برجله فانفرج له البحر فانتهى به إلى الأرض فوكزها برجله فانفجرت له الأرض فانتهى به إلى الحوت فوكزه برجله فانتهى به إلى الصخرة فوكز الصخرة برجله فانفلقت فخرج منها دودة تنش فقال له جبريل إن ربك يسمع نشيش هذه الدودة فى هذا الموضع قوله تعالى (يسبحن بالعشى والإشراق) قال المفسرون يعنى صلاة الضحى وصلاة الأوابين بين العشاءين قال ابن عباس وكان داود يفهم تسبيح الحجر والشجر والمدر (ومنها) أنه أكرمه الله تعالى بالحكمة وفصل الخطاب فالحكمة هى الإصابة فى الأمور وأما فصل الخطاب فاختلفوا فيه فقال ابن عباس بيان الكلام وقال ابن مسعود والحسن المعنى علم الحكم والنظر فى القضاء وكان لا يتتعتع فى القضاء بين الناس وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه هو البينة على من ادعى واليمين على من أنكر (ومنها) القوة فى العبادة وشدة الاجتهاد كما قال الله تعالى (واذكر عبدنا داود ذا الأيد) يعنى القوة فى العبادة إنه أواب أى تواب مسبح مطيع وكان يصوم يوما ويفطر يوما يصوم النهار ويقوم الليل وما مرت به ساعة من الليل إلا وفيها من آل داود قائم يصلى ولا يوم من الأيام إلا وفيه منهم صائم (ومنها) قوة المملكة كما قال الله تعالى (وشددنا ملكه) أى قويناه وقرأ الحسن وشددنا ملكه بالتشديد (وقال ابن عباس) كان أشد ملوك الأرض سلطانا وكان يحرس محرابه كل ليلة ثلاثة وثلاثون ألف رجل قال السدى كان يحرسه كل ليلة أربعة آلاف رجل (ومنها) شدة البطش فيروى أنه ما فر ولا انحاز من عدوان قط (ومنها) إلانة الحديد له وكان سبب ذلك ما روى فى الأخبار أن داود عليه السلام لما ملك بنى إسرائيل كان من عادته أن يخرج إلى الناس متنكرا فإذا رأى رجلا لا يعرفه تقدم إليه فيسأله عن داود فيقول له ما تقول فى داود إليكم هذا أى الرجل فيثنون عليه ويقولون خيرا فبينما هو كذلك يوما من الأيام إذ قيض الله له ملكا فى صورة الآدميين فلما رآه تقدم إليه داود على عادته فسأله فقال له الملك نعم الرجل هو لولا خصلة فيه فراع داود ذلك فقال ما هى يا عبد الله قال إن داود يأكل ويطعم عياله من بيت المال قال فتنبه لذلك وسأل الله تعالى أن يسبب له سببا يستغنى به عن بيت المال فينفق منه ويطعم عياله فألان له الحديد فصار فى يده مثل الشمع والعجين والطين المبلول وكان يصرفه بيده كيف يشاء من غير إدخال نار ولا ضرب بحديد وعلمه صنعة الدروع فكان يتخذ الدروع وهو من عملها وكانت قبل ذلك صفائح فيقال أنه كان يبيع كل درع منها بأربعة آلاف درهم فيأكل ويطعم عياله ويتصدق منها على الفقراء والمساكين فذلك قوله تعالى (وعلمناه صنعة لبوس لكم) وقوله تعالى (وألنا له الحديد أن اعمل سابغات) اى دروعا كوامل واسعات وقدر فى السرد أى لا تجعل المسامير دقاقا فتقلق ولا غلاظا فتكسر الحلق فكان يفعل ذلك حتى اعتد من ذلك مالا.

(وروى) أن لقمان الحكيم رأى داود عليه السلام وهو يعمل دروعا فتعجب من ذلك ولم يدر ما هو فأراد أن يسأله فسكت حتى فرغ داود من نسج الدرع فقام فلبسه وقال نعم القميص هذا للرجل المحارب فعلم لقمان ما يراد به فقال الصمت حكمة وقليل فاعله.

الخراب فقالت يا شيخ ما أعظم جفاك أما علمت أن هذا منزل الأحباب كيف أفارقه ثم جعلت تقول هذه الأبيات:

قالوا اتفنى وقوفا فى منازلهم
ونفس مثلك لا يبغى تحملها
فقلت والقلب قد ضجت أضالعه
والروح تنزع والأشواق تبعثها
منازل الحب فى قلبى معظمة
وإن خلا من نعيم الوصل منزلها
فكيف أتركها والقلب يتبعها
حيا بمن كان قبل الموت ينزلها
قال الجنيد فتركتها ومضيت وازداد قلبى تولعا ووقع شعرها فى قلبى موقعا وإنما أعجبنى قولها لأنها ذكرت صفة الحب والمحبوب وصدقت فى الوصف الذى ذكرته وصبرت على منازل الأحباب وملازمتها على ما هى فيه من شظف الحال وتجدد أحزان الفراق سبحان من قهر العباد بكأس الموت.

(وحكى عن إبراهيم الخواص رضى الله تعالى عنه) أنه قال خرجت سنة من السنين إلى بيت الله الحرام وزيارة النبى ﷺ فبينما أنا أمشى إذا عارضنى عارض فى طريق يقتضى الخلوة والخروج عن الطريق الجادة فأخذت طريقا غير الطريق التى

(باب فى قصة داود عليه السلام حين ابتلى بالخطيئة وما يتصل بذلك)

قال الله تعالى (وهل اتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم) الآيات اختلف العلماء بأخبار الأنبياء فى سبب امتحان الله تعالى نبيه داود عليه السلام بما امتحنه الله به من الخطيئة فقال قوم كان سبب ذلك انه تمنى يوماً من الأيام على ربه تعالى منزلة آبائه إبراهيم وإسحق ويعقوب وسأله ان يمتحنه بمثل الذى كان يمتحنهم ويعطيه من الفضل مثل الذى أعطاهم (فروى) السدى والكلبى ومقاتل عن اشياخهم ودخل حديث بعضهم فى بعض قالوا كان داود عليه السلام قد قسم الدهر ثلاثة أيام يوماً يقضى فيه بين الناس ويوما يخلو فيه بنسائه ويوماً لعبادة ربه وقراءة الكتب وكان يجد فيما يقرأ من الكتب فضل إبراهيم وإسحق ويعقوب عليهم السلام فيقول يارب أرى الخير قد ذهب به آبائى الذين كانوا قبلى فأوحى الله تعالى إليه أنهم ابتلوا ببلايا لم يبتل بها أحد فصبروا عليها ابتلى ابراهيم عليه السلام بنار النمروذ وبذبح ولده وابتلى إسحق بالذبح وابتلى يعقوب بالحزن وذهاب بصره على يوسف وإنك لم تبتل بشىء من ذلك فقال داود عليه السلام يارب فابتلينى كما ابتليتهم واعطنى كما أعطيتهم فأوحى الله تعالى إليه إنك مبتلى فى شهر كذا فى يوم كذا فاحترس على الصبر فلما كان فى اليوم الذى وعده الله دخل داود محرابه واغلق بابه وجعل يصلى ويقرأ الزبور فبينما هو كذلك إذ جاءه الشيطان وتمثل له فى صورة حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن فوقعت بين يديه فمد يده ليأخذها فطارت فوقعت غير بعيد من غير أن تؤيسه من نفسها فمازال يتبعها حتى أشرف على امرأة تغتسل فأعجبه خلقها وحسنها فلما رأت ظله فى الأرض جللت جسدها بشعرها فزاده ذلك إعجاباً بها وكان قد بعث زوجها فى بعض جيوشه فكتب إليه أن سر فى مكان كذا وكذا مكاناً إذا وصل إليه قتل ولم يرجع ففعل فأصيب فخطبها داود وتزوجها وقال بعضهم فى سبب ذلك كما اخبرنا قتادة عن الحسن بن محمد أن داود عليه السلام قال لبنى إسرائيل حين ملك والله لأعدلن فيكم ولم يستثن فابتلى (قال أبو بكر) بن محمد بن عمر الوراق كان سبب ذلك أن داود عليه السلام كان كثير العبادة فأعجب بعمله فقال هل فى الأرض أحد يعمل عملى فأتاه جبريل عليه السلام فقال أن الله تعالى يقول أعجبت بعبادتك والعجب يأكل العبادة فان أعجبت ثانياً وكلتك إلى نفسك فقال داود يارب كلنى إلى نفسى سنة فقال إنها لكثيرة قال فشهراً قال فانه لكثير قال فأسبوعا فقال إنه لكثير قال فيوماً قال إنه لكثير قال فساعة قال فشأنك بها قال فوكل الحراس ولبس الصوف ودخل المحراب ووضع الزبور بين يديه فبينما هو فى نسكه وعبادته إذ وقع الطائر بين يديه وكان من أمر المرأة ما كان قال فلما دخل داود بامرأة أوريا لم يلبث إلا يسيراً حتى بعث الله تعالى ملكين فى صورة رجلين نطلبا أن يدخلا عليه فوجداه فى يوم عبادته فمنعهم الحراس أن يدخلا عليه فتسوروا المحراب وهو يصلى فما شعر إلا وهما بين يديه جالسان فذلك قوله تعالى (وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم) حين هجما عليه فى محرابه بغير إذنه قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط أى ولا تجر ولا تفرط واهدنا إلى سواء الصراط أرشدنا إلى وسط الطريق المستقيم إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة وهذا من حسن التعريض حيث كنى بالنعاج عن النساء والعرب تفعل ذلك كثيراً تورى عن النساء وتكنى عنها بألقاب كالظباء والنعاج والبقر وهو كثير فاش فى أشعارهم فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب قال الضحاك اعطنيها وتحول لى عنها واجعلها كفلى أى نصيبى وعزنى فى الخطاب قال الضحاك يقول إن تكلم كان أفصح منى وإن حال كان أبطش منى فقال داود لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه (قال السدى) باسناده إن أحدهما لما قال إن هذا أخى له تسع وتسعون

كنت ماشيا فيها فصرت مطلقا حتى انتهيت إلى برية خضراء فيها من كل الثمرات والرياحين ورأيت فى وسطها بحيرة فلما رأيتها قلت هذه جنة وصرت متعجبا فبينما أنا كذلك إذا بنفر قد أقبلوا على هيئاتهم سيما الآدميين وعليهم المرقعات الحسان فأتوا إلى وسلموا على فقلت وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ثم وقع فى خاطرى سؤالهم عن كونهم من الجن أم من الإنس وأن البقعة بقعة غريبة فقال قائل منهم قد جرت بيننا مسألة واختلفنا فيها ونحن نفر من الجن قد سمعنا كلام الله من فيه محمد ﷺ ليلة من الليالى فسلبتنا نعمة كلامه جميع الدنيا وقد قيض الله لنا هذه البحيرة فى هذه البرية قال إبراهيم فقلت كم بينى وبين أصحابى وهل حضر هذا الموضع غيرى فقالوا إن هذا الموضع لم يحضر اليه آدمى قبلك غير شاب من أصحابك وتوفى هنا وهذا قبره ثم أشاروا إلى شفير تلك البحيرة فرأيت قبراً حوله رياحين وروضة خضراء لم أر أحسن منها ثم قالوا أتدرى كم بينك وبين أصحابك فقلت الله أعلم فقالوا مسيرة سنة قال إبراهيم فتعجبت من ذلك فقلت أخبرونى عن الشاب صاحب هذا القبر فقال

نعجة داود للآخر ما تقول قال ان لي تسعا وتسعين نعجة وله نعجة واحدة فأريد أن آخذها منه وأكمل نعاجي مائة قال وهو كاره قال نعم قال إذا لا ندعك وإن رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا يعني طرف الأنف وأصل الجبهة فقال الرجل يا داود أنت أحق بضرب هذا مني حيث كان لك تسع وتسعون امرأة ولم يكن لأوريا إلا امرأة واحدة فلم تعرضه للقتال حتى قتل وتزوجت امرأته فهذه وجه الآية إلا أن داود حكم قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر قالوا ثم أن داود نظر فلم ير أحدا فعرف ما قد وقع فيه فذلك قوله تعالى (وظن داود انما فتناه) أي ابتليناه وقال سعيد بن جبير إنما كانت فتنة داود بالنظر قال الأستاذ رحمه الله تعالى ولم يتعمد داود عليه السلام النظر إلى المرأة ولكنه أعاد النظر اليها فصارت عليه وبالا كما قال رسول الله ﷺ لا تتبع النظرة النظرة فان لك الأولى وعليك الأخيرة (وقال القائلون) بتنزيه المرسلين في هذه القصة أن لا ذنب إنما كان تمنى أن تكون له امرأة أوريا حلالا وحدث نفسه بذلك فاتفق له غزوة فأرسل أوريا وقدمه أمام الحرب فاستشهد فلما بلغه قتله لم يجزع عليه ولم يتوجع له كما كان يجزع على غيره من جند إذهلك ووافق قتله مراده ثم تزوج بامرأته فعاتبه الله على ذلك لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت فهي عظيمة عند الله وقال بعضهم كان ذنب داود أن أوريا كان قد خطب تلك المرأة ووطن نفسه عليها فلما غاب في غزاته خطبها داود فتزوجت منه لجلالته فاغتم لذلك أوريا غما شديدا فعاتبه الله على ذلك حيث لم يترك هذه الواحدة لخاطبها الأول وقد كان عنده تسع وتسعون امرأة ولذلك قال النبي ﷺ لا يبيع أحدكم على بيع أخيه ولا يخطب على خطبة أخيه ومما يصدق ما ذكرناه ما قيل عن المفسرين المتقدمين مما أخبرنا به عقيل بن محمد بن الفقيه المغافري عن زكريا عن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله ﷺ يقول ان داود عليه السلام حين نظر إلى المرأة قطع على بني إسرائيل بعثا وأوصى صاحب البعث إذا حضر للعدو فقدم فلانا بين يدي التابوت وكان التابوت في ذلك الزمان يستنصر به ومن قدم بين يديه لم يرجع حتى يقتل أو ينهزم الجيش عنه فقتل زوج المرأة ونزل الملك ليقضا عليه قصته ففطن داود وسجد فمكث أربعين ليلة ساجدا يبكي حتى نبت الزرع من دموعه حول رأسه وأكلت الأرض جبينه وهو يقول في سجوده زل داود زلة هي أبعد مما بين المشرق والمغرب رب إن لم ترحم ضعف داود وتغفر له ذنبه جعلت ذنبه حديثا في الخلائق من بعده فجاءه جبريل عليه السلام بعد أربعين ليلة فقال يا داود ان الله تعالى قد غفر لك الهم الذي هممت به فقال داود علمت ان الله قادر على أن يغفر الهم الذي هممت به وقد عرفت أن الله عدلا لا يحيف فكيف بفلان يعني أوريا إذا جاء يوم القيامة فقال يا رب دم الذي عند داود قال جبريل ما سألت ربك عن ذلك ولئن شئت لأفعلن قال نعم فرجع جبريل عليه السلام وسجد داود فمكث ما شاء الله ثم نزل فقال قد سألت الله يا داود عن الذي أرسلتني فيه فقال الله تعالى قل لداود أن الله يجمعكما يوم القيامة فيقول له هب لي دمك الذي عند داود فيقول هو لك يا رب فأقول ان لك في الجنة ما شئت وما اشتهيت عوضا عن دمك أخبرنا ابن فنحويه بإسناده عن كعب الأحبار عن وهب بن منبه قالوا جميعا إن داود عليه السلام لما دخل عليه الملكان وقضى على نفسه تحولا في صورتهما فعرجا وهما يقولان قضى الرجل على نفسه وعلم داود أنما فتناه فخر ساجدا أربعين يوما لا يرفع رأسه إلا لحاجة لا بد منها أو صلاة مكتوبة ثم يعود فيسجد تمام أربعين يوما لا يأكل ولا يشرب وهو يبكي حتى نبت العشب حول رأسه وهو ينادي ربه تعالى ويسأله التوبة وكان يقول في سجوده سبحان الملك الأعظم الذي يبتلي الخلائق بما يشاء سبحان خالق النور سبحان الحائل بين القلوب إلهي خليت بيني وبين عدوي إبليس فلم أنته فتنته إذ زل بي قدمي سبحان خالق النور إلهي تبكي الثكلى على ولدها إذا فقدته ويبكي داود على خطيئته سبحان خالق النور يغسل الثوب فيذهب درنه وسخطه والخطيئة لازمة لي لا تذهب عني سبحان خالق النور إلهي لم تعظ بما وعظت به غيري سبحان خالق النور إلهي أمرتني ان أكون لليتيم كالأب الرحيم وللأرملة كالزوج العطوف فنسيت عهدك سبحان خالق النور إلهي خلقتني وفي سابق علمك كان ما أنا

قائل منهم بينما نحن قعود على شفير هذه البحيرة نتذاكر المحبة ونتحاور فيها إذا نحن بشخص قد أقبل الينا وسلم علينا فرددنا عليه السلام وقلنا من أين أقبل الشاب فقال مدينة سابور فقلنا له متى خرجت منها فقال منذ سبعة أيام فقلنا له وما الذي ازعجك منها وأخرجك من وطنك فقال سمعت قوله تعالى وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون فقلنا له ما معنى الإنابة وما معنى التسليم وما معنى العذاب فقال الإنابة ان يرجع بك منك اليه ولم يذكر التسليم في الأصل ولعله أراد ان العبد يسلم نفسه لله تعالى ويعلم انه اولى به ثم قال والعذاب وصاح صيحة عظيمة ومات رحمة الله عليه فواريناه بالتراب وهذا قبره رضي الله تعالى عنه قال إبراهيم فتعجبت مما وصفوه لي فدنوت إلى قبره فوجدت عنده بلاقة نرجس كأنها ريحا عظيمة ومكتوب على ورقة منها هذا حبيب الله قتيل الغيرة وعلى ورقة أخرى صفة الإنابة قال إبراهيم فقرأت لهم ما هو مكتوب على النرجس وفسرته لهم فوقع بهم الطرب فلما أفاقوا قالوا وجدنا جواب مسألتنا فوقع النوم على

فما انتبهت إلا قريبا من أصحابي بمسجد

صائر اليه سبحان خالق النور إلهى الويل لداود إذا كشفت عنه الغطاء فيقال هذا داود الخاطىء سبحان خالق النور إلهى بأى عين أنظر اليك يوم القيامة وإنما ينظر الظالمون من طرف خفى سبحان خالق النور إلهى بأى قدم أقوم أمامك يوم تزل اقدام الخاطئين يوم القيامة من سوء الحساب سبحان خالق النور إلهى مضت النجوم وكنت أعرفها بأسمائها فتونسنى فتركتنى والخطيئة لازمة لى سبحان خالق النور إلهى امطرت السماء ولم تمطر حولى وأعشبت الأرض ولم تعشب حولى بخطيئتى سبحان خالق النور إلهى أنا الذى لا أطيق وعدك فكيف اطيق صوت جهنم سبحان خالق النور إلهى كنت تستر الخاطئين بخطاياهم وانت شاهد حيث كانوا سبحان خالق النور إلهى رق القلب وجمدت العينان من مخافة الحريق على جسدى سبحان خالق النور إلهى الطير تسبح لك وانا العبد الخاطىء الضعيف الذى لم أرع وصيتك سبحان خالق النور إلهى الويل لداود من الذنب العظيم الذى اصاب ولا اعلم له بذلك سبحان خالق النور إلهى انا المستغيث وأنت المغيث فمن يدعوا المغيث إلا المستغيث سبحان خالق النور إلهى أسالك بأبى إبراهيم وإسمعيل واسحق ويعقوب أن تعطينى سؤالى سبحان خالق النور اللهم برحمتك اغفر لى ذنوبى ولا تباعدنى من رحمتك لهوانى فإنك ارحم الراحمين سبحان خالق النور إلهى إنى أعوذ بك من دعوة لا تستجاب وصلاة لا تقبل وذنب لا يغفر وعذاب لا يفتر سبحان خالق النور إلهى إنى أعوذ بك وبنور وجهك الكريم من ذنوبى التى أوبقتنى سبحان خالق النور إلهى فررت اليك من ذنوبى واعترفت بخطيئتى فلا تجعلنى من القانطين ولا تخزنى فى يوم يبعثون سبحان خالق النور إلهى فرغ الحنين وفرغت الدموع وتناثر الدود من ركبتى وخطيئتى ألزم من جلدى سبحان خالق النور قال فأتاه النداء أجائع انت فتطعم أو ظمآن انت فتسقى أو مظلوم انت فتنتصر ولم يجبه بذكر خطيئته بشىء فصاح صيحة فهاج منها ماحوله ثم نادى يارب الذنب الذى أصبته فنودى ياداود إرفع رأسك فقد غفرت لك فلم يرفع رأسه حتى أتاه جبريل عليه السلام فرفعه قال وهب ابن منبه إن داود عليه السلام اتاه نداء إنى قد غفرت لك فقال يارب كيف وانت لا تظلم أحدا فقال اذهب إلى قبر أوريا فناده وانا اسمعه نداءك فتحلل منه قال فانطلق داود عليه السلام حتى أتى قبره وقد لبس المسوح فجلس عند قبره ثم فاداه ياأوريا فقال لبيك من هذا الذى قطع على لذتى وأيقظنى قال أنا داود قال ماجاء بك يانبى الله قال جئت أتحلل مما كان منى اليك قال وما كان منك إلى قال عرضتك للقتل قال عرضتنى للجنة وانت فى حل فأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام ألم تعلم إنى حكم عدل لا أقضى إلا بالحق الا أعلمته انك تزوجت امرأته قال فانطلق داود اليه فناداه ياأوريا فاجابه فقال من هذا الذى قطع على لذتى قال أنا داود قال يانبى الله ماحاجتك أليس قد عفوت عنك قال نعم لكن انا ما فعلت بك ذلك إلا لمكان امرأتك وإنى قد تزوجتها قال فسكت أوريا ولم يجبه فدعاه فلم يجبه فقام عند قبره وحث التراب على رأسه ثم نادى الويل ثم الويل لداود سبحان خالق النور الويل لداود ثم الويل الطويل لداود سبحان خالق النور الويل لداود ثم الويل الطويل له إذا نصبت الموازين القسط ليوم القيامة سبحان خالق النور الويل لداود ثم الويل الدائم له حين يؤخذ برقبته ثم يدفع إلى المظلوم سبحان خالق النور الويل لداود ثم الويل الطويل له حين يسحب على وجهه مع الخاطئين إلى النار سبحان خالق النور الويل لداود ثم الويل الطويل له حين تقرنه الزبانية مع الظالمين إلى النار سبحان خالق النور فأتاه النداء من السماء ياداود قد غفرت لك ذنبك ورحمتك ورثيت لطول بكائك واستجبت دعائك وأقلت عثرتك قال يارب كيف لى أن تعفو عنى وصاحبى لم يعفو عنى قال ياداود إن يعف أولم يعف فأنا اعطيه يوم القيامة مالم ترعيناه ولم تسمع اذناه فاقول له قد رضيت عبدى فيقول يارب من اين هذا ولم يبلغه عملى فاقول هذا عوض من أجل عبدى داود فاستوهبك منه فيهبك لى فقال داود يارب الآن قد عرفت انك قد غفرت لى فذلك قوله عز وجل (فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) (اخبرنا) ابو الحسن بن محمد حدثنا محمد بن على أخبرنا بكر بن أحمد بن معقل

عائشة رضى الله تعالى عنها فوجدت فى وطائى باقة نرجس فمكثت معى سنة كاملة لم تتغير فلما كان بعد مدة يسيرة فقدتها فتأسف عليها أسفا شديدا ورجعت باكيا حزينا (وحكى) عن بعضهم رضى الله تعالى عنه أنه قال رأيت فى منامى كأن اهل القبور قد خرجوا من قبورهم إلى ظاهر المقبرة فإذا هم يتلقطون شيئا لا أدرى ماهو فتعجبت من ذلك ورأيت رجلا منهم جالسا منفردا وحده لم يلتقط معهم فدنوت منه فسلمت عليه وسألته ما الذى يلتقطه هؤلاء فقال يلتقطون ما يهدى المسلمون من القراءة والصدقة والدعاء فقلت له لم لا تلتقط معهم فقال إنى غنى عن ذلك فقلت له بأى شىء أنت غنى قال بختمة يقرؤها ولدى ويهديها إلى فى كل يوم وليلة فقلت وأين هو فقال شاب يبيع الزلابية فى السوق الفلانى قال فلما استيقظت من نومى ذهبت إلى السوق فإذا بشاب جالس يبيع الزلابية ويحرك شفتيه فأتيت اليه وقلت بأى شىء تحرك شفتيك فقال بختمة اقرأها وأهدى ثوابها إلى والدى فى قبره قال فمكثت بعد ذلك مدة من الزمان فرأيت فى بعض الليالى كما رأيته أولا وهو أن اهل القبور يلتقطون وإذا بالرجل يلتقط معهم كما يلتقطون فاستيقظت متعجبا وذهبت

أخبرنا عمر بن محمد الشرقي قال الكعبي قال حدثنا أبو سعيد عبدالله المزني قال حدثنا محمد بن المنكدر عن محمد بن عبد الرحمن بن عوف حدثني أبو سعيد الخدري قال أتيت رسول الله ﷺ فقلت يارسول الله إني رأيت الليلة في منامي كأني تحت شجرة والشجرة تقرأ سورة ص فلما بلغت الشجرة إلى السجدة سجدت فسمعتها تقول في سجودها اللهم اكتب لي بها أجراً واحطط عني بها وزراً وارزقني بها شكراً وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود عليه السلام فقال له رسول الله ﷺ أفسجدت انت يا أبا سعيد قال قلت لا يارسول الله فقال أنت أحق بالسجدة من الشجرة ثم قرأ رسول الله ﷺ حتى بلغ السجد فسجد ثم قال مثل قول الشجرة (أخبرنا) ابن فتحويه عن عثمان بن أبي عاتكة أنه قال كان من دعاء داود عليه السلام سبحانك إلهي إذا ذكرت خطيئتي ضاقت على الأرض برحبها وإذا ذكرت رحمتك ارتدت إلي روحي إلهي أنيت أطباء عبادك ليداووني فكلهم عليك دلوني وقال ﷺ خد الدمع في وجه داود مثل خد الماء في الأرض أخبرنا ابن فتحويه عن الحسن بن عبدالله القرشي قال لما اصاب داود الخطيئة فزع إلى العبادة فأتى راهباً في قلة جبل فناداه بصوت عال فلم يجبه فلما أكثر عليه الصوت قال الراهب من هذا الذي يناديني قال أنا داود نبي الله قال صاحب القصور الحسنة الحصينة والخيول المسومة والنساء والشهوات لئن نلت الجنة بهذا لأنت أنت قال داود فمن أنت قال أنا راهب راغب منزو متر قب قال فمن أنيسك ومن جليسك قال اصعد تراه إن كنت تريد ذلك قال فتخلل داود الجبل ورقى إلى القلة فإذا هو بميت مسجى فقال له هذا أنيسك هذا جليسك قال نعم قال وماهذا قال تلك قصة مكتوبة في لوح من نحاس عند رأسه فقرأ داود فاذا فيه أنا فلان بن فلان ملك الملوك عشت الف عام وبنيت الف قصر وألف مدينة وهزمت الف عسكر وتزوجت الف امرأة وافتضضت الف بكر فبينما أنا في ملكي إذ أتاني ملك الموت فأخذني واخرجني مما كنت فيه فهذا التراب فراشي والدود جيراني قال فخر داود عليه السلام مغشياً عليه (قال وهب بن منبه) لما تاب الله على داود كان يبدأ إذا دعا فيستغفر الله للخاطئين قبل نفسه فيقول اللهم اغفر للخاطئين فعساك أن تغفر لداود معهم (وأخبرنا) عبدالله بن حامد عن ثابت قال كان داود عليه السلام إذا ذكر عقاب الله تعالى تحللت أوصاله ولا يشدها إلا الأنين وإذا ذكر رحمة الله تعالى تراجعت (وعن أبي عبد الله البجلي) قال ما رفع داود بعد الخطيئة رأسه إلى السماء قط حتى مات صلى الله على نبينا محمد وعليه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

(باب في ذكر خروج ابن علي أبيه وما كان من أمرهما)

قال وهب وغيره من أهل الكتب ان داود عليه السلام لم يزل قائماً بالملك بعد طالوت إلى ان كان من أمره وأمر امرأة اوريا ما كان فلما واقع الخطيئة واشتغل بالتوبة منها استخفت به بنو إسرائيل واستضعفوه واجتمع أهل الزيغ من بني إسرائيل وذهبوا إلى ابن لداود من إبنة طالوت يقال شالون وقيل إيشا قالوا له قد كبر أبوك واشتغل بخطيئته وتوبته وضاعت حقوق الناس وضعف أمر الملك فلم يزالوا به حتى بايعوه وخلعوا داود وعدلوا عنه ودعاهذا الإبن إلى نفسه فلما رأى ذلك داود خرج من بين أظهرهم مع ابن اخ له يقال له ثوب وتوغل في الجبال فأشار قومه ان يقتل اباه فلما بلغ ذلك داود ارسل إليه رفيقه وقال له قل له هل سمعت بابن يقتل اباه فقال له الإبن وهل سمعت انت بنبي اذنب فلم تقبل توبته فقال له الرسول إن كان الله تعالى قد أذن لك في هلاكي فلا تباشره انت فإنه لا يجمل في الآخرة حدوثه منك فقبل منه ذلك فكف عن قتل أبيه داود وبقي ابنه ملكا سنتين فلما تاب الله على داود صارت الناس تأتيه فحارب ابنه فهزمه ووجه في طلبه قائداً من قواده وأوصاه ان يثبتوقى حتفه ويتلطف في اسره فطلبه القائد وهو منهزم فاضطره إلى شجرة فر بض بها وكان الغلام ذا جمة فتعلق غصن من اغصانها بشعره فحبسه ولحقه القائد فقتله مخالفاً لأمر داود عليه السلام فحزن عليه داود حزناً شديداً وتنكر للقائد وكان له بأس شديد في ملاقاة العدو فكره داود أن يقتله فتركه لاجل مجاهدة العدو فلما حضر داود الموت أوصى ولده سليمان

يريني مقامات أهل المقابر فرأيت في نومي كأن القيامة قد قامت والقبور انشقت فاذا منهم النائم على السندس ومنهم النائم على الحرير والديباج ومنهم النائم على الريحان ومنهم النائم على السرير ومنهم الضحاك ومنهم الباكي فقال يارب لو شئت ساويت بينهم في الكرامة الواحدة فنادى مناد من أهل القبور يا هذا إنما هي منازل الاعمال ومحطات الرجال (فأما) أصحاب السندس فهم أهل الخير الحسن (وأما) اصحاب الحرير والديباج فهم الشهداء (وأما) اصحاب الريحان فهم الصادقون (وأما) اصحاب الضحك فهم اصحاب التوبة (وأما) اصحاب البكاء فهم المذنبون قال فاستيقظت من نومي مفكرا فيهم رحمة الله تعالى عليهم اجمعين ورحمنا والمسلمين آمين بجاه سيد المرسلين

(وحكى عن صالح المري رضي الله تعالى عنه أنه قال) اقبلت ليلة الجمعة إلى جامع فمررت بمقبرة فجلست عند قبر فغلبني النوم فنمت فرأيت في منامي كأن أهل القبور قد خرجوا من قبورهم وقعدوا حلقا يتحدثون وإذا بشاب عليه ثياب دنسة جالس بجانب

عليهما السلام بقتل القائد فقتله حين فرغ من دفن أبيه وكانت مدة داود من يوم خرج من ملكه وانقطع عنه الوحي إلى أن قبل الله توبته ورد عليه ملكه ورجع إلى قومه سنتين .

(باب في قصة أصحاب السبت)

قال الله تعالى (واسئلهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت) الآية قال ابن عباس ووهب ابن منبه إن قوما من بني إسرائيل سكنوا قرية على شاطئ البحر بين مصر ومدين يقال لها أيلة حرم الله عليهم صيد الحيتان وسائر العمل يوم السبت وأمرهم أن يتفرغوا العبادة ذلك اليوم وذلك في زمان داود عليه السلام فكان إذا دخل يوم السبت لم يبق حوت في البحر إلا اجتمع هناك ويخرجن من الماء خراطيمهن حتى لا يرى الماء من كثرتهن حتى إذا مضى يوم السبت تفرقن ولزمن مقر البحر لا يرى منهم إلا القليل فذلك قوله تعالى (إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم) الآية سمعت أبا القاسم قال سمعت أبي يقول سئل الحسن بن الفضيل هل تجد في كتاب الله الحلال لا يأتيك إلا قوتا والحرام يأتيك جزافا قال نعم في قصة داود عليه السلام وأهل أيلة إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم قال فعمد رجال منهم فحفروا الحياض حول البحر وشرعوا إليها من الأنهار فإذا كانت عشية الجمعة فتحوا تلك الأنهار فيقبل الموج بالحيتان إلى الحياض فلا تطيق الخروج منها لبعد عمقها وقلة الماء فإذا كان يوم الأحد أخذوها وقيل إنهم كانوا ينصبون الحبال والشصوص يوم الجمعة ويخرجونها يوم الأحد قال وكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت كثيرا وفي غير يوم السبت لا يأتيهم حوت واحد فأخذ رجل منهم حوتا وربطه في ذنبه خيطا ثم ربطه إلى خشبة في الساحل ثم تركه في الماء إلى يوم الأحد فأخذه فشواه فوجد جاره ريح الحوت فقال يا فلان إني أجد في بيتك ريح الحوت فأنكره فأطلع الجار في تنوره فإذا هو في بيته فقال إني أرى الله سيعذبك فلما رأى العذاب لم يأخذه أخذ في السبت الآخر حوتين فلما رأوا العذاب لا ينزل عليهم أخذوا وملحوا وأكلوا وباعوا فأثروا وكثرت أموالهم ولم تنزل عليهم عقوبة فقست قلوبهم وتجبروا وتجرؤا على الذنب وقالوا ما نرى السبت إلا قد حل لنا وإنما حرم ذلك على آبائنا لأنهم قتلوا أنبياءهم فلما فعلوا ذلك صار أهل تلك القرية وكانوا نحوا من سبعين ألفا ثلاثة أصناف صنف أمسك ونهى وصنف أمسك ولم ينه وصنف انتهكوا الحرمة فكان الذين نهوا اثني عشر ألفا فلما أبى المجرمون قبول النصيحة قال الناهون والله لنخرجن من القرية ولا نساكنكم في قرية واحدة ثم قسموا القرية بينهم بجدار ومكثوا على ذلك سنين فلعنهم الله على لسان داود عليه السلام وغضب عليهم لإصرارهم على المعصية فخرج الناهون ذات يوم من بابهم ولا يخرج معهم أحد فلما أبطؤا تسوروا عليهم الحائط فإذا هم جميعهم قد مسخوا قردة فذلك قوله تعالى (فلما نسوا ما ذكروا به نجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس) أي شديد بما كانوا يفسقون قوله تعالى (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود) يعني عصاة أهل أيلة وعيسى بن مريم يعني كفار أصحاب المائدة ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون قالوا فلما دخلوا عليهم ورأوا أنهم قد مسخوا عرفت القردة أنسباؤهم من القردة فجعل القرد يأتي نسيبه من الإنس فيشم ثيابه ويبكي فيقول له الرجل ألم ننهكم فيقول القرد برأسه نعم قال قتادة صارت الشباب قردة والشيوخ خنازير فما نجى إلا الذين نهوا وهلك سائرهم ثم خرج الممسخون من المدينة وهاموا على وجوههم متحيرين ومكثوا كذلك ثلاثة أيام ثم هلكوا وكذلك لم يبق قوم مسخوا أكثر من ثلاثة أيام ولم يتوالدوا ولم يتناسلوا ثم بعث الله عليهم ريحا ومطرا فقذفهم في البحر فإذا كان يوم القيامة أعادهم الله تعالى إلى صورهم البشرية فيدخلهم النار (وروى) أبو نصر عن أبي سعيد الخضري قال قال رسول الله ﷺ ما أهلك الله قوما ولا قرنا ولا أمة بعذاب من السماء بعد ما أنزل الله التوراة على وجه الأرض غير أهل القرية التي كانت حاضرة البحر الذين مسخوا قردة ألم تسمع قول الله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى) الآية

﴿ باب فى قصه داود وسليمان عليهما السلام فى الحرث ﴾

قال الله تعالى (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين) (قال ابن عباس وقتادة) كان الحرث ذرعاً وقال ابن مسعود وشريح كان الحرث كرماً قد تدلت عناقيده إذ نفشت والنفش بالليل والهمل بالنهار وهما جميعا الرعى بلاراع وكنا لحكمهم شاهدين لايخفى علينا منه شىء قال ابن عباس وقتادة أن رجلين دخلا على داود أحدهما صاحب غنم والآخر صاحب حرث فقال صاحب الزرع ان هذا انفلتت غنمه ليلا فوقعت فى حرثى فلم تبق منه شيأ قال له داود اذهب فان الغنم لك فأعطاه رقاب الغنم بالحرث فمر على سليمان فقال لهما كيف قضى بينكما فاخبراه فقال سليمان لو وليت أمركما لقضيت بغير هذا فاخبر بذلك داود فدعاه فقال له كيف كنت تصنع فى القضاء بينهما قال كنت أدفع الغنم إلى صاحب الحرث سنة فيكون له نسلها وصوفها ومنافعها ويبذل صاحب الغنم لاهل الحرث مثل حرثهم فاذا كان العام المقبل وصار الحرث كهيئته يوم أكل فيدفع إلى أهله ويأخذ صاحب الغنم غنمه (وقال) ابن مسعود وشريح أن راعيا نزل ذات ليلة بجنب كرم فدخلت الأغنام الكرم وهو لايشعر فأكلت القضبان وأفسدت الكرم فصار صاحب الكرم من الغد إلى داود فقضى بالأغنام لصاحب الكرم لأنه لم يكن بين ثمن الأغنام وثمن الكرم تفاوت قال فمر بسليمان وهو ابن إحدى عشر سنة فقال لهما ما قضى بينكما داود فقصا عليه القصة فقال سليمان غير هذا أرفق بالفريقين فعاد إلى داود فاخبره بذلك فدعا سليمان وقال له بحق النبوة والابوة إلا ما أخبرتنى بالذى هو أرفق بالفريقين فقال سليمان تسلم الأغنام إلى صاحب الكرم لينتفع بنسلها وصوفها ومنافعها ويعمل الراعى فى اصلاح الكرم إلى ان يعود كهيئته ثم يتسلمه صاحبه وترد الأغنام إلى صاحبها فقال داود القضاء ماقضيت وحكم بذلك فذلك قوله تعالى (ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما) قال الحسن كان الحكم ماقضى به سليمان ولم يعنف الله داود فى حكمه قال الأستاذ وهذا يدل على أن لكل مجتهد نصيب

(باب فى قصة استخلاف داود ابنه سليمان عليهما السلام وذكر بدء أمر الخاتم)

قال أبو هريرة رضى الله عنه أنزل الله تعالى كتابا من السماء على داود عليه السلام مختوما بخاتم من الذهب فيه ثلاثة عشر مسألة فأوحى الله تعالى اليه أن سهل عنها ابنك سليمان فان هو أخرجها فهو الخليفة من بعدك قال فدعا داود عليه السلام سبعين قسا وسبعين حبرا وأجلس سليمان بين أيديهم وقال يا بنى ان الله تعالى أنزل على كتابا من السماء فيه مسائل وأمرنى ان اسألك عنها فان أخرجتها فأنت الخليفة من بعدى فقال سليمان ليسأل نبى الله عما بدا له وما توفيقى إلا بالله قال داود ما أقرب الأشياء وما أبعدها وما آنس الأشياء وما أوحشها وما أحسن الأشياء وما أقبحها وما أقل الأشياء وما أكثرها وما القائمان وما الساعيان وما المشتركان وما المتباغضان وما الأمر الذى إذا اركبه الرجل حمد آخره وما الأمر الذى إذا ركبه الرجل ذم آخره فقال سليمان عليه السلام أما أقرب الأشياء فالآخرة وأما ابعد الأشياء فما فاتك من الدنيا وأما آنس الأشياء فجسد فيه روح وأما أوحش الأشياء فجسد لاروح فيه وأما احسن الأشياء فالإيمان بعد الكفر وأما اقبح الأشياء فالكفر بعد الإيمان وأما أقل الاشياء فاليقين وأما اكثر الاشياء فالشك وأما القائمان فالسماء والارض وأما الساعيان فالشمس والقمر وأما المشتركان فالليل والنهار وأما المتباغضان فالموت والحياة وأما الأمر الذى إذا ركبه الرجل حمد آخره فالحلم عند الغضب وأما الامر الذى إذا ركبه الرجل ذم آخره فالحدة عند الغضب قال ففكوا الخاتم فاذا جواب المسائل سواء على ما نزل من السماء فقال القسيسون والرهبان لانرضى حتى نسأله عن مسألة فان اخرجها فهو الخليفة من بعدك فقال سليمان عليه السلام سلونى وما توفيقى إلا بالله فقالوا له ما الشىء الذى إذا صلح صلح كل شىء من الإنسان وإذا فسد فسد كل شىء من الإنسان فقال هو القلب فقام داود فصعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال ان الله تعالى يأمرنى ان استخلف عليكم سليمان قال فضجت بنو إسرائيل وقالوا غلام حدث يستخلف

عنى خيرا يا صالح ثم
وصلت الهدية قال صالح
فقلت له انتم تعرفون يوم
الجمعة فقال نعم وأن الطيور
يعرفون يوم الجمعة ويقولون
ليوم الجمعة سلام سلام اللهم
ارحمنا برحمتك واغفر لنا
وللمسلمين (وحكى عن ذى
النون المصرى رضى الله تعالى
عنه) أنه قال بينما أنا سائر فى
واد من الأودية إذ مررت على
واد كثير الأشجار والنبات
من خضرته وأنهاره وكثرة
عشبه وأزهاره فسمعت
صوتا أهطل مدامعى وهيج
بلبالى فتبعت الصوت حتى
أوقعنى بباب مغارة فاذا
فيها رجل من أهل التعبد
والاجتهاد فسمعته يقول
سبحان من أوصل الفهم إلى
عقول ذوى البصائر فهى
لاتعتمد إلا عليه سبحان
من أورد حياض المودة
نفوس أهل المحبة فهى
لاتحن إلا اليه ثم امسك فقلت
السلام عليك يا حليف
الاحزان وقرين الأشجان
فقال عليك السلام ياذا النون
ما الذى أوصلك إلى من
أفرده خوف المسألة عن
الانام فاشتغل بمحاسبة
نفسه عن التلفظ بالكلام
قال ذو النون فقلت له اوصلتنى
اليك الرغبة فى الصفح
والتماس المواهب من قلوب
المقربين والأبرار فقال
الرجل بلغنى ان لله سبحانه
وتعالى عباداً قدح فى قلوبهم
زند الشغف وناو الأسف

علينا وفينا من هو أفضل منه وأعلم فبلغ ذلك داود عليه السلام فدعا رؤساء أسباط بنى إسرائيل وقال لهم انه قد بلغنى مقالتكم فارونى عصيكم فأى عصا أثمرت فان صاحبها ولى هذا الأمر بعد قالوا قد رضينا فجاؤا بعصيهم فقال لهم داود ليكتب كل رجل منكم اسمه على عصاه فكتبوا ثم جاء سليمان بعصاه فكتب عليه اسمه ثم أدخلت بيتاً وأغلق عليها الباب وسد بالاقفال وحرسه رؤس أسباط بنى إسرائيل فلما أصبح صلى بهم الغداة ثم أقبل ففتح الباب فأخرج عصيهم كما هى وأما عصا سليمان فقد أورقت وأثمرت قالوا فسلموا الامر فى ذلك لداود عليه السلام فلما رأى ذلك داود حمد الله وحمل سليمان خلفه ثم سار به فى بنى إسرائيل فقال إن هذا خليفتى عليكم من بعدى (قالوا) ثم أن سليمان بعد أن استخلف امره وتزوج بأمرة واستتر عن الناس وأقبل على العلم والعبادة ثم ان امرأته قالت له ذات يوم بأبى أنت وأمى ما أكمل خصالك وأطيب رائحتك ولا أعلم لك خصلة أكرهها إلا أنك فى مؤنة أبى فلو دخلت السوق فتعرضت لرزق الله لرجوت أن لا يخيبك الله فقال سليمان إنى ما عملت عملا قط ولا أحسنه ثم انه دخل السوق صبيحة يومه ذلك فلم يقدر على شىء فرجع فأخبرها فقالت غدا يكون إن شاء الله فلما كان اليوم الثانى مضى حتى انتهى إلى ساحل البحر فاذا هو بصياد فقال له هل لك أن أعينك وتعطينى شيئاً قال نعم فاعانه فلما فرغ أعطاه الصياد سمكتين فاخذهما وحمد الله تعالى ثم إنه شق بطن أحدهما فاذا هو بخاتم فى بطنها فاخذه وسره فى ثوبه وحمد الله عز وجل وأخذ السمكتين وجاء بهما إلى منزله ففرحت امرأته بذلك فاخرج الخاتم ولبسه فى أصبعه فعكفت عليه الطير والريح ووقع عليه بهاء الملك ثم لم يلبس أبواه ان مات فلما مات حمل المرأة وأباها إلى اصطخر والله أعلم.

(باب فى ذكر وفاة داود عليه السلام)

(قال الشيخ أبو زيد) سمعت الشيخ أبا عمر والفارابى يروى أن داود عليه السلام كانت له وصيفة تغلق الابواب كل ليلة وتأتيه بالمفاتيح ثم تنام ويقبل داود على ورده فى العبادة فاغلقت ذات ليلة الابواب وجاءت بالمفاتيح ثم ذهبت لتنام فرأت رجلا قائما فى وسط الدار فقالت له ما أدخلك هذه الدار فان صاحبها رجل غيور فخذ حذرك فقال لها أنا الذى أدخل الدور على الملوك بغير اذنهم. قال فلما سمع داود ذلك وكان فى المحراب واقفاً يصلى فزع واضطرب وقال لها على به فاتاه فقال له داود ما أدخلك هذه الدار فى هذا الوقت بغير اذن فقال انا الذى أدخل الدور على الملوك بغير إذن فقال له إذا فأنت ملك الموت قال نعم قال أفجئت داعياً أم ناعياً فقال ناعياً فقال داود عليه السلام فهلا أرسلت إلى قبل ذلك وأذنتنى لاستعد للموت فقال كم أرسلت اليك فلم تنتبه قال ومن كانت رسلك التى أرسلت إلى فقال يا داود اين أبوك أيشا واين أمك واين أخوك واين جارك اين قهارمتك اين فلان وفلان فقال ماتوا كلهم فقال أما علمت إنهم رسلى اليك وان التوبة تبلغك (قال الاستاذ رضى الله عنه) وفى هذا المعنى قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لا يزال المرء ينعى أخاه حتى يكونه وقد يرجوا الرجال فيحول الموت دونه وقد نظمه بعض الشعراء فقال

وإذا حملت إلى القبور جنازة * فاعلم بأنك بعدها محمول
وإذا وليت أمور قوم مدة * فاعلم بأنك عنهم معزول

(مجلس فى قصة سليمان عليه السلام وما يتعلق بها)

قال الله تعالى (وورث سليمان داود) يعنى نبوته وحكمته وعلمه وملكه دون سائر أولاده وكان لداود عليه السلام تسعة عشر إبنا (وقال مقاتل) كان سليمان عليه السلام اعظم ملكا عن أبيه داود وأقضى منه وكان داود عليه السلام أشد تعبداً من إبنه سليمان وكان سليمان حين آتاه الله الملك والحكمة ابن ثلاثة عشر سنة وكان ملكه ما بين الشام إلى اصطخر وقيل انه ملك الأرض كلها (وروى) عن مجاهد عن ابن عباس قال ملك الارض أربعة مؤمنان وكافران فاما المؤمنان فسليمان عليه السلام وذو القرنين وأما الكافران فالنمرود بن كنعان وبختنصر

فارواحهم لشدة فرحها تسرح فى رياض الملكوت وتنظر إلى دخولها فى حجب الجبروت قال ذو النون فقلت له ياسيدى صفهم لى فقال أولئك هم قوم آووا إلى كهف رحبته وشربوا من كؤس شرب محبيه وخلوا بمنادمة أنسه ثم يقول

قد كان لى دمع فافنيته
وكان لى جفن فادميته
وكان لى جسم فأبليته
وكان لى قلب فاضنيته
وكان لى ياسيدى ناظر
أرى به الخلق فاعميته
عبدك اضحى سيدى موثقاً
لو شئت قبل الموت اطلقته

ثم قال مخاطباً الله تعالى

سيدى بهم فالحقنى
ولما وفقتهم وفقنى

قال ذو النون فقلت سيدى أوصنى بوصية أنتفع بها فقال عليك بتقوى الله فى السر والعلانية فان من أحبه الله شوقه إلى لقائه فان له يوما يتجلى فيه على أوليائه ثم غاب عن بصرى فلم أره نفعنا الله تعالى بهم وبعلومهم ومدنا من مددهم آمين (وحكى عن الواسطى رضى الله تعالى عنه) انه قال بينما أنا سائر فى البادية إذ رايت أعرابيا جالساً منفرداً بنفسه فدنوت منه وسلمت عليه فرد على السلام فاردت أن أكلمه فقال اشتغل بذكر الله تعالى فان ذكره فيه شفاء القلوب ثم قال كيف يفتر ابن آدم عن خدمة خالقه ورازقه وكيف يشتغل عن

باب

(باب فى صفة حليته عليه السلام)

(قال وهب بن منبه وكعب الاحبار) كان سليمان أبيض جسيما وضيئا جميلا كثير الشعر يلبس من الثياب البياض وكان خاشعا متواضعا يخالط المساكين ويجالسهم ويقول مسكين بجالس مسكينا وكان أبوه فى أيام ملكه يشاوره فى كثير من أموره مع صغر سنه ووفور عقله وعلمه صلى الله على نبينا محمد وعليه وسلم

(باب فيما خص الله به نبيه سليمان عليه السلام من أنواع المناقب والمواهب وغير ذلك)

قال الله تعالى (ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين) وقال الله تعالى إخبارا عنه (رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب) فأجاب الله دعاءه وأكرمه بخصائص لم يكرم بها أحدا من خلقه قبله ولا بعده (فمنها) تسخير الله الريح كما قال الله عز وجل (فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب) اى أراد بلغة حمير (قال) محمد بن إسحق وغيره من أصحاب الاخبار كان سليمان عليه السلام رجل غزاء لا يكاد يقعد عن الغزو وكان لا يسمع بملك فى ناحية من الأرض إلا أتاه حتى يذله ويقهره وكان إذا أراد الغزو أمر بمعسكره فيضرب له خشب ثم ينتصب له على الخشب سرير ثم يحمل عليه الناس والدواب وآلة الحرب كلها حتى إذا حمل معه ما يريد أمر العاصف من الريح فدخلت تحت تلك الخشبة فحملتها حتى إذا استقلتها أمر الرخاء فمرت به شهرا فى غدوته وشهرا فى روحته إلى حيث أراد كما قال الله تعالى (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر) وقال ابن إسحق ذكر لى أن رجلا نزل منزلا من ناحية الدجلة فوجد فيه كتابا بأمكتوبا أكتبه بعض أصحاب سليمان أما من الجن وأما من الإنس نحن نزلناه ومابنيناه ومبنيا وجدناه غدونا من اصطخر فقلنا ونحن رائحون إن شاء الله تعالى فبائتون الشام قال وكان فيما بلغنى تمر بعسكره الريح الرخاء تهوى به إلى حيث أرادوا إنها لتمر بالمزرعة فلا تحركها وأخبرنا الحسن بن محمد بن فتحويه بإسناده عن وهب بن منبه عن أبيه قال أن سليمان عليه السلام ركب الريح يوما فمرت بحراث فنظر إليها الحراث وقال لقد أوتى آل داود ملكا عظيما فحملت الريح كلامه والقته فى أذن سليمان عليه السلام فنزل حتى أتى الحراث وقال له إنى سمعت قولك وإنما تزلت إليك لئلا تتمنى مالا تقدر عليه أن تسبيحة واحدة يتقبلها الله منك خير مما أوتى آل داود فقال له الحراث أذهب الله همك كما أذهب همى (وقال مقاتل) نسجت الشياطين لسليمان عليه السلام بساطا فرسخا فى فرسخ ذهبا فى إبريسم وكان يوضع له منبر من الذهب فى وسط البساط فيقعد عليه وحوله ثلاثة آلاف كرسى من الذهب والفضة فيقعد الأنبياء على كراسى الذهب والعلماء على كراسى الفضة وحولهم الناس وحول الناس الجن والشياطين وتظلهم الطير بأجنحتها لئلا تقع عليهم الشمس وترفع ريح الصبا البساط مسيرة شهر من الصباح إلى الرواح ومسيرة شهر من الرواح إلى الصباح (أخبرنا) ابن فتحويه بإسناده عن محمد بن كعب القرظى قال بلغنى أن عسكر سليمان عليه السلام مائة فرسخ خمسة وعشرون منها الإنس وخمسة وعشرون الجن وخمسة وعشرون منها للوحوش وخمسة وعشرون منها للطيور وكان له ألف بيت من القوارير على الخشب فيها ثلثمائة سرير وسبعمائة امرأة فيأمر الريح العاصفة فتحمله ويأمر الرخاء فتسير به فأوحى الله تعالى إليه وهو سائر بين السماء والأرض إنى قد زدت فى ملكك أنه لا يتكلم أحد من الخلائق بشىء إلا جاءت الريح به إليك فأخبرتك به (ومنها) تعليم الله له كلام الطير حتى النمل كما قال الله تعالى (يا أيها الناس علمنا منطق الطير) الآية (وقال ابن فتحويه) بإسناده عن كعب الأحبار قال صاح ورشان عند سليمان فقال أتدرون ما يقول فقالوا لا قال أنه يقول ليدوا للموت وابنوا للخراب وصاحت فاختة عند سليمان فقال أتدرون ما تقول قالوا لا قال إنها تقول ليت ذا الخلق لم يخلقوا وصاح طاوس فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال أنه يقول كما تدين تدان وصاح هدهد فقال أتدرون ما يقول قالوا لا أنه يقول من لا يرحم لا يرحم وصاح صرد فقال أتدرون ما يقول

يستعين بغيره وهو ناظر إليه
ثم بكى فبكيت معه شفقة
عليه ثم قلت له يا حبيبى مالى
أراك وحيد فقال ما أنا
بوحيد والله معى وما أنا
بفريد والواحد يؤنسنى
ثم قام ومضى مسرعا وقال
يا سيدى إن أكثر خلقك
مشغول عنك بغيرك وأنت
عوض عن جميع مافات
منى يا صاحب كل غريب
يا مؤنس كل فريد وجعل
يمشى وأنا خلفه فالتفت إلى
وقال ارجع عافاك الله إلى
من هو خير لك منى ولا
تشغلنى عمن هو خير لى منك
ثم غاب عن بصرى فلم أره
رضى الله تعالى عنه ونفعنا
به ومدنا من مده فى الدين
والدنيا والآخرة آمين

(وحكى عن ذى النون المصرى أيضا رضى الله تعالى عنه) أنه قال بينما أنا فى طواف إذ لمع نور ملحق بعنان السماء فتعجبت من ذلك النور فأتممت طوافى وأسندت ظهرى إلى الكعبة متفكرا فى ذلك النور فسمعت صوتا شجيا بنغمة ذى خشية فتبعت الصوت حتى أوقعنى بجارية متعلقة بأستار الكعبة وهى تبكى وتنشد وتقول :

أنت تدرى يا حبيبى
من حبيبى انت تدرى
ونحول الجسم وارد
مع بيوحان بسرى
قد كتمت الحب حتى
ضاق بالكتمان صدرى

قالوا لا قال أنه يقول استغفروا الله يا مذنبين فمن ثم نهى رسول الله ﷺ عن قتله قال وصاح الطيطوا فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال إنه يقول كل حي ميت وكل جديد بال قال وصاح خطاف فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال إنه يقول قدموا خيراً تجدوه فمن نهى رسول الله ﷺ عن قتله وهدرت حمامة فقال أتدرون ما تقول قالوا لا قال إنها تقول سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وملء أرضه وصاح قمري فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال أنه يقول سبحان الحي الذي لا يموت أبداً وصاح غراب فقال اتدرون ما يقول قالوا لا قال فانه يلعن العشارين والحذأة تقول كل شيء هالك إلا وجهه والقطا تقول من سكت سلم والعنقاء تقول ويل لمن الدنيا همه والباز يقول سبحان ربي الأعلى وبحمده والضفدع يقول سبحان ربي القدوس والعصفور يقول سبحان ربي المذكور بكل مكان (واخبرنا ابن ميمون) باسناده عن مكحول قال صاح دارج عند سليمان عليه السلام فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال فانه يقول الرحمن على العرش استوى وباسناده عن صالح المري عن الحسن قال قال رسول الله ﷺ الديك إذا صاح يقول اذكروا الله يا غافلين (وروى) عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن جده عن الحسين بن علي عليهم السلام أنه قال إذا صاح النسر يقول يا ابن آدم عش ما شئت فإن آخرك الموت وإذا صاح العقاب قال في البعد عن الناس أنس وإذا صاح الضفدع قال اللهم العن مبغضي آل محمد وإذا صاح الخطاف قرأ الحمد لله رب العالمين ولا الضالين كما عدها القارئ. (وقال فرقد السنجي) مر سليمان ببلبل فوق شجرة وهو يحرك رأسه ويميل ذنبه فقال لأصحابه أتدرون ما يقول هذا البلبل قالوا الله ورسوله أعلم قال أنه يقول أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفا (اخبرنا) ابو عبد الله بن حامد باسناده عن ابن مسعود عن أبيه قال كنا مع النبي ﷺ في سفرة فمررنا بشجرة فيها فرخا حمامة فأخذناهما فجاءت الحمامة وشكت إلى النبي ﷺ من فجع هذه الحمامة بفرخيها فقلنا نحن فقال ردوهما إلى موضعهما (وروى) أن قنبرة باضت في طريق سليمان عليه السلام فقال الذكر للأنثى ألم انهك أن تبيضي في طريق سليمان الملك لو ركب إلينا لحطم بيضنا فقالت الأنثى ويحك أن نبي الله أرحم بنا من ذلك فسمع سليمان قولها فبعث الله إليهما جناً حين أراد أن يركب وقال اجعل بيضهما تحت رجليك وإياك أن تصيبه شيء فلما مر سليمان في موكبه وجاوزهما قالت الأنثى ألم أقل لك أن نبي الله أرحم بنا من ذلك فقال الذكر للأنثى عندي للملك هدية قالت وما عندك قال عندي جرادة أدخرتها لولدي قال فأخذ التمرة والجرادة ثم طارا حتى وقفا بين يدي سليمان وهو على سريره في مجلسه فوضعاهما بين يديه وسجدا له فدعا لهما ومسح بيده على رؤوسهما فيروى أن هذه القشرة التي على رأس القنبر من مسح سليمان عليه السلام إياهما قال ومر سليمان بموكبه على نملة فقالت النملة سبحان الله العظيم ما أعظم ما أوتي آل داود فتبسم سليمان من قولها وفسر قولها لجنوده ثم قال ألا انبئكم بخير وهو اعجب من هذه النملة قالوا بلى قال تقول اتقوا الله في السر والعلانية والقصد في الغنى والعدل في الغضب والرضا (وحكى) أن نملة دبت على سليمان فحملها ورمى بها فوقعت النملة فقالت ما هذه الصولة وما هذا البطش اما علمت أني أمة من أنت عبده فغشي على سليمان فلما افاق قال ائتوني بها فأتوه بها فسألها فقالت له جلدي رقيق وبدني ضعيف واخذتني ورميتني فقال لها سليمان اجعليني في حل فاني لم اقصد ذلك فقالت بشرط أن لا تنظر إلى الدنيا بعين الشهوة ولا تستغرق في شهواتك وضحكك ولا يتعين أحد بجاهك إلا بدلته له قال قد فعلت ذلك قالت فأنت في حل (قال) ثم أن سليمان مضى حتى أتى على وادي السدير واد من الطائف فأتى على وادي النمل فقالت نملة تمشي وكانت عرجاء تتكاوس وكانت نملة ضعيفة وقال الشعبي كانت ذات جناحين واختلفوا في اسمها فأخبرني ابن ميمونة باسناده عن الضحاك قال كان اسم نملة سليمان طاخية وقيل حرمى فنادت لما رأت سليمان في موكبه يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون وكان لا يتكلم خلق إلا حملته الريح والقته في مسامع سليمان قال مقاتل فسمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال فتبسم ضاحكا من قولها وقال

قال ذو النون فلما رأيتها وسمعت ذلك بكيت فقالت إلهي وسيدي ومولاي بحبك إلا ما غفرت لي فقلت لها يا جارية أما تتقين الله في مثل هذا المقام تتكلمين بمثل هذا الكلام وتقولين بحبك لي من أين عرفت أنه يحبك فقالت إليك عني يا ذا النون أما علمت أن لله سبحانه وتعالى أقواما يحبهم ويحبونه فهو أحبهم قبل أن يحبوه أما سمعت قوله تعالى في كتابه العزيز فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه فسبقت محبته لهم لهم قبل محبتهم له قال ذو النون فقلت يا جارية من أين عرفت إني ذو النون ولم تريني قبل ذلك اليوم فقالت إليك عني يا بطال جالت القلوب في ميدان الأسرار فعرفني بك العزيز الغفار قال ذو النون فقلت لها يا جارية مالي أراك ضعيفة البدن نحيلة الجسم ومالك سقم فأنشدت تقول

تطاول سقمه فدواه داء
كذا من كان للباري محباً
بهم يذكره حتى يراه

ثم قالت يا ذا النون انظر من خلفك فالتفت خلفي فلم أر أحداً فرددت وجهي نحوها فلم أرها ولم أدر اين ذهبت فتأسفت على فراقها وتوسلت إلى الله تعالى بها فرأيت ببركتها الإجابة والقبول وحصول الخير نفعنا الله بها

رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى الآية وفى بعض الأخبار أن سليمان لما سمع قولها نزل عليها وقال ائتونى بها فأتوه بها فقال لها حذرت النمل هل سمعتم أنى ظالم أم علمتم أنى نبى عدل فلم قلت لا يحطمنكم سليمان وجنوده قالت النملة يا نبى الله أما سمعت قولى وهم لا يشعرون مع أنى ما أردت حطم النفوس وإنما أردت حطم القلوب حسنت أن يتمنين ما أعطيت فيفتن ويشغلن بالنظر اليك عن التسبيح فقال لها عظينى فقالت له النملة هل علمت لم سمى أبوك داود قال لا قالت لأنه داوى جراحة قلبه ثم قالت وهل تدرى لم سميت سليمان قال لا قالت لأنك سليم وكنت إلى ما أوتيت بسلامة صدرك وحق لك أن تلحق بأبيك داود ثم قالت أتدرى لما سخر الله لك الريح قال لا قالت ليخبرك أن الدنيا كالريح فتبسم ضاحكا من قولها متعجبا وقال رب أوزعنى ان أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى الآية (أخبرنى) ابن ميمونة بإسناده عن ابن عباس قال نهى رسول الله ﷺ عن قتل أربعة من الدواب والهدهد والصرد والنحلة والنملة ومنها قصة العنقاء فى إثبات القضاء والقدر أخبرنا أبو محمد عبد الله بن حامد بإسناده عن محمد بن جعفر الصادق قال عاتب سليمان الطير فى بعض غيابه فقال لها انك تأتين كذا وتفعلين كذا فقالت والله رب السماء والثرى إنا لنحرص على الهدى ولكن قضاء الله يأتى إلى منتهى علمه وقدره قال صدقت ولا حيلة فى القضاء فقالت العنقاء لست أو من بهذا فقال لها سليمان ألا اخبرك بأعجب العجب قالت بلى قال انه ولد الليلة غلام بالمغرب وجارية بالمشرق هذا ولد ملك كبير وهذه ابنة ملك والجارية والولد يجتمعان فى أمنع المواضع بقدرة الله تعالى وأهوالها على سفاح فى جزيرة فى وسط البحر فقالت العنقاء يا نبى الله أوقد ولد هذان الولدان المذكوران قال نعم الليلة قالت فهل أخبرت بهما من هما وما اسمهما واسم أبيهما قال بلى اسمهما كذا وكذا واسم أبيهما كذا وكذا فقالت العنقاء يا نبى الله أنا ابطل القدر وافرق بينهما فقال لها سليمان أنك لا تقدرين على ذلك قالت بلى فأشهد سليمان عليها الطير وكفلتها البومة فمرت العنقاء وكانت فى كبر الجمل عظما ووجها وجه إنسان ويداها يد إنسان وثدياها ثديا امرأة وأصابعها كذلك فحملت فى الهواء حتى اشرفت على الدنيا فابصرت كل دار وما فيها وكل إنسان وابصرت الجارية وهى فى مهدها وقد أجلسوها فاختلست الجارية من المهد وطارت بها حتى انتهت إلى جبل شاهق فى السماء فى جوف البحر وسط جزيرة وفى الجزيرة شجرة عالية لا ينالها طائر إلا بجهد طير انه ولها أغصان عظيمة تزيد على الف غصن كل غصن كاعظم ما يكون من شجر الأرض كثيرة الورق فاتخذت لها وكرا فى وسط الشجر عجيبا واسعا مضيئا وطيئا وأرضعتها وحملت الجارية تحت جناحها وصارت تأتيها بأنواع الطعام والشراب وتحفظها من البرد والحر وتؤنسها بالليل ولا تخبر أحدا بشأنها كى تتم أمرها وهى تغدو إلى سليمان وتروح إلى وكرها فعلم سليمان بذلك ولم يبده لها فبلغ الغلام مبلغ الرجال وصار ملكا من ملوك الدنيا وكان يلهو بالصيد ويحبه ويطلبه فصار لا يقوم ليلا ولا نهارا وكان أبوه ملكا عظيما فلما رأى الملك ولده لاهيا بالصيد لم يزجره عنه حتى نال منا لا طويلا وأمرا عظيما فقال يوما لأصحابه كل صيد البر وفلواته ومفازته قد نلت منه فلو ركبت البحر فأنال من صيده فانه كثير العجائب فقال له المشيرون من وزرائه نعم ما رأيت وهو اكثر شىء من خلق الله صيدا وعجائب فأمر الغلمان بتجهيز ما يحتاجون اليه وهيأ السفن وجعل يأخذ من كل شىء يملكه وأخذ من الوزراء والغلمان والجوارى والطباخين والخبازين والدواب وركب السفن ومر فى البحر كذلك يتصيد ولا يعرف شيئا غير ذلك حتى سار مسيرة شهر فأرسل الله تعالى على سفينته ريحا خفيفا فضربتها وساقتها حتى قربت من جزيرة العنقاء والجارية وهى مسيرة خمسين سنة فى منتهى خمسين ليلة ثم ركضت سفينته باذن الله وأصبح الغلام فرأى سفينته راكدة فاخرج رأسه من ناحية ونظر فإذا هو بجبل شاهق فى وسط جزيرة فى البحر فى لون الزعفران طويلة لا يدرى اين منتهاها ولا عرضها وإذا هو بشجرة خضراء فى رأس الجبل ملتفة كثيرة الأغصان والأوراق ورقها فى عرض آذان الفيلة نفوح بريح الأقحوان

(وحكى عن بعضهم رضى الله تعالى عنه أنه قال) أمسك الغيث عن بغداد سنة من السنين حتى كاد أهلها أن يهلكوا فاغتسلوا وتطهروا وخرجوا إلى الصحراء يسألون الله تعالى أن يسقيهم غيثا فلم يستقوا وكان ذلك فى أيام خلافة هرون الرشيد رحمة الله تعالى عليه فبينما هم يلوذون ويتوسلون إلى الله تعالى وإذا برجل من اهل الخير والصلاح والعبادة قد أقبل من طاهر البرية أشعث اغبر لا يلتفت اليه ومعه ثلاث بنات عذارى كأنهن الاقمار فوقف ببناته فى الطريق فمر عليه الناس وسلموا عليه فرد عليهم السلام وقال ياقوم ما بالكم مجتمعين فقالوا له ياشيخ خرجنا إلى الصحراء ندعو الله تعالى أن يسقينا غيثه فلم يسقنا فقال لهم الشيخ هل هو غائب عنكم من المدينة حتى خرجتم إلى الصحراء تسألونه اليس هو فى كل مكان موجودا وبساط اجابته لجميع خلقه ممدودا أما سمعتم قوله تعالى وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير قال فبلغ هرون كلامه فقال هذا كلام رجل بينه وبين مولاه سريرة ثم قال ائتونى به فلما حضر بين يديه وسلم بعضهم على بعض صافحه هرون الرشيد وأجلسه بجانبه ثم قال له يا شيخ ادع الله تعالى ان يسقينا غيثه عسى أن يكون

لها تمر بيضاء الساق فقال لأصحابه إني أرى عجباً أرى جبلا شاهقا في وسط جزيرة لم أر مثله ولا أرى مثل طوله ولا عرضه وأرى شجرة فيها كل حسن قد أعجبني منظرها ثم انه حرك سفينته وجاء بها إلى الجزيرة التي فيها الجبل وأرساها عندها ثم انه نزل من السفينة هو ورفقته وداروا في الجزيرة فلم يروا فيها أثر عمارة ولا عبر بها آدمي قبله ثم انه صعد إلى رأس الجبل فرأى أصل الشجرة وكانت الجارية قد نظرت إلى السفينة وهي جارية فلم تعرف ما هي لأنها أخذت صغيرة ولم تدر ما السفن فبقيت متعجبة وليس عندها أحد تسأله عن ذلك فبينما هي متفكرة في أمر السفينة إذا حس حديث الآدميين فاخرجت رأسها من الوكر فنظرت يميناً وشمالا فلم تر أحدا فنظرت في أصل الشجرة فاذا بالغلام ورفقته فتعجبت منهم لما رأت من حسنهم وجمالهم وكيف وصلوا إلى ذلك الموضع وأن الغلام لما بلغ أصل الشجرة نظر يميناً وشماله وبقي متعجباً من عظم تلك الشجرة ورفعها في السماء وصار ينظر إلى أغصانها وكانت الجارية قد أخرجت رأسها لتنظر إلى السفينة فكانت منها التفاتة إلى أصل الشجرة فوقعت عينها في عين الغلام فرأى صورتها ورأى عجباً من عظم جمالها وكثرة شعرها وذوائبها فقال لها الغلام بلسان فصيح أجنية انت أم انسية قالت لا والله أنا من خيار الإنس فمن أنت فافهما لغته فقالت لا أدري ما تقول وما انت إلا اني أرى وجهك لوجهي وكلامك كلامي وأنا لا أعرف شيئاً غير العنقاء وهي أمي التي ربتني وحضنتني تأتيني كل ليلة وتسميني بنتها فقال الغلام وأين العنقاء فقالت هي في نوبتها فقال الغلام وما نوبتها قالت تغدو كل يوم إلى ملكها سليمان فتسلم عليه وتقيم عنده إلى الليل ثم تجيء وتحدثني بكل ما يحكم به سليمان وانه لملك عظيم على ما تصفه لي أمي العنقاء من ملكه وأنها تخبرني أنه أحسن الناس وجهاً وأتم خلقاً مني قال فارتعد الغلام ثم قال عرفته وهو الذي قتل أبي وسبى دولته وإني لمن طلقائه وممن يؤدي اليه الخراج وقد سخر الله له الطير والرياح ثم بكى الغلام ساعة فقالت له الجارية ما يبكيك قال وجدتك في مثل هذا الموضع الذي لا إنس فيه ولا أحد وأن مثلك في الدنيا عدد الشجر والمدر وكلهم في مقاصير الذهب والفضة والعيش الهنيء والرغد واللذة الحسنة مع الأزواج يتعانقون ويتنعمون ويتوالدون الأولاد مثل خلقك وخلقي أرأيت ان هاجت الريح فازعجتك من وكرك من يمنعك ان تقعي في البحر وأن وقعت في البحر فمن ذا الذي يخرجك قال ففزعت الجارية من قوله قالت وكيف لي أن يكون معي انسي مثلك يحدثني مثل حديثك ويحفظني مما ذكرت فقال لها الغلام أولا تعلمين أن الله اتخذ سليمان نبياً وسخر له الريح والطير هو الذي رحمك وساقني اليك لأكون لك الفاً وصاحباً وانيساً وإني لمن أولاد الملوك فقالت له الجارية وكيف تصير إلي وأصير اليك وان العنقاء هذه تروح وتجيء وتحضنني إلى صدرها بين جناحيها فقال الغلام تكمنين جزعك ووحشتك وبكائك على العنقاء ليلتك هذه فاذا جاءت اليك وقالت لك ما تحبين وما تريدين وما شأنك فأخبريها بوحدتك في نهارك ثم انظري ما يكون من ردها عليك فاخبريني بذلك ففعلت وان العنقاء رجعت اليها فوجدتها باكية حزينة فقالت له يا بنية مالك فقالت الوحدة والوحشة قتلتني وإني لمنزعجة على نفسي من ذلك فقالت لها يا بنية لا تخافي ولا تحزني فإني استأمر سليمان عليه السلام أن آتيه يوماً ويوماً لا آتيه فيكون ذلك انساً لك فلما أصبحت أخبرت الغلام بجوابها فقال لها أوتصبرين على ذلك لا ولكني سأنحر من دوابي هذا فرساً وابقر بطنه واخرج ما فيه وأطيبه بطيب معي وأدخله في جوفه والقيه على رأس سفينتي هذا فإذا جاءتك العنقاء تقولين لها أرى عجباً أرى خلقة ملقاة على كواثل هذه السفينة فلو اختطفتيها وحملتيها إلى فكانت معي في وكري فانظر اليها وآنس بها كان أحب إلي من كونك عندي نهاراً وإمساكك عن أخبار سليمان وأخبار المسلمين فلما رجعت العنقاء وجدتها على حالتها وكان سليمان كان قد شغل عنها فلم تصل اليه في استئذانها إياه في المقام يوماً والمدو يوماً فقالت لها يا بنية إن نبي الله قد اشتغل عني اليوم بالحكم بين الآدميين فلم أصل اليه

قالت

لك عند الله جاه قال فتبسم الشيخ وقال يا هرون أتريد أن أسالك إلهي ومولاي فقال نعم توبوا بنا إلى الله قال فنودي بالتوبة فتابوا إلى الله تعالى ثم تقدم الشيخ وصلى ركعتين خفيفتين فلما سلم أخذ بنانه عن يمينه وعن شماله وبسط يده إلى خالقه وأسبل دمعه على خده وجعل يدعو بدعوات لم يسمع أحسن منها قال فما استتم دعاءه حتى تجللت السماء بالسحاب وارعدت بالبرق وأمطرت كأفواه القرب قال ففرح الرشيد بذلك واجتمع اليه خواص رعيته وأهل مملكته يهنئونه ويبشرونه بذلك قال هرون على بالرجل الصالح فطلبوه فوجدوه ساجداً في الصحراء في الماء والطين لله رب العالمين فقالوا للبنات ما بال أبيكن لم يرفع رأسه فقالت انه من عادته إذا سجد لله عز وجل لا يرفع رأسه إلا بعد ثلاثة أيام قال فاخبروا الرشيد بذلك فبكى وقال اللهم إني اسألك وأتوسل اليك بحرمة الصالحين عندك أن تهبنا لهم وأن تفيض علينا من بركاتهم في الدارين وجميع المسلمين يا أرحم الراحمين (وحكي عن مالك بن دينار عفا الله عنه) أنه قال امسك الغيث عنا سنة من السنين فخرجنا إلى الصحراء نسأل الله تعالى أن يسقينا غيثه حتى خرج معنا أكابرنا وأصاغرنا وأولادنا

قالت لها إني أريدان تتخلفي عنه نهار المكان اخبار سليمان واخبار المسلمين وإني أرى عجباً في البحر أرى شيئاً مرتفعاً كما هو قالت لها العنقاء هذه سفينة قوم سيارة راكبين في البحر قالت فما الذي أراه ملقى على رأس هذه السفينة قالت دابة ميتة القوها قالت فاحتملتها إلى لأستأنس بها وأنظر إليها فانتفضت العنقاء فاختطفت الفرس وكان الغلام في بطنها فحملتها إلى عشها فقالت الجارية يا أماه يا أحسنه وضحكت ففرحت العنقاء بذلك وقالت يا بنية لو علمت لكنت أتيتك بمثل هذا منذ حين ثم إنها طارت إلى نوبتها عند سليمان فخرج الغلام من بطن الفرس فلاعبها ولامسها وافتضها واحبلها من ساعتها وفرح كل واحد منهما بصاحبه واستأنس به وكان سليمان عليه السلام قد جاءه الخبر باجتماعهما من قبل الريح وأن العنقاء راحت وكان مجلس سليمان يومئذ مجلس الطير وحكمهم فجلس سليمان عليه السلام للطير في مرتبته ودعا بعرفاء الطير وأمرها الا تدع طيراً إلا حشرته إليه فحشرت إليه جميع الطيور ثم أمر عرفاء الجن أن يحشروا قبائل الجن من سكان البحار وسكان الجزائر والهواء والمغارات والفلوات والأمصار فحشروا إليه وأمر الشياطين فأحضرت كذلك وكذلك الإنس كهيئتهم ثم كل دابة تدب على وجه الأرض فاشتد الخوف وقالوا في أنفسهم نشهد بالله أن نبي الله قد أهمه أمر عظيم فأول سهم قد خرج في تقديم الطير سهم الحدأة وكانت الطير لا تتقدم إلا بالسهام وكذلك الجن والشياطين فتقدمت الحدأة تدعى على زوجها وكان قد جحدها ولدها فقالت يا نبي الله إنه سفدني حتى إذا احتضنت بيضي وأخرجت ولدي جحدنيه فقال سليمان للذكر ما تقول فقال يا نبي الله إنها لا تمتنع من الطير وهي تحوم البراري فلا أدري هل هو مني أو من غيري قال فأمر سليمان بولدها فجيء به فوجد الشبه واحد فألحقه بالذكر ثم قال لها لا تمكنيه من السفاد حتى تشهدي عليه بذلك الطير بالصراح فإنه لا يجحدك بعدها أبداً إلى يوم القيامة فهي إذا سفدها صاحت وقالت يا طيور سفدني اشهدوا ثم خرج سهم العنقاء فتقدمت إليه فقال لها سليمان ما قولك في القدر فقالت يا نبي الله لي من القوة والاستطاعة ما أدفع الشر وافعل الخير فقال لها سليمان فأين الشرط الذي كان بيني وبينك زعمت أنك تفرقين بقوتك واستطاعتك بين الجارية والغلام فقالت قد فعلت قال سليمان الله أكبر فائتيني بها الساعة والخلق شهود لأعلم صدق قولك ثم أمر عريف الطير أن يكون معها لا يفارقها حتى تأتي بها فمرت العنقاء حتى قربت من الجارية وكانت الجارية إذا قربت منها العنقاء تسمع حفيف أجنحتها فيبادر الغلام ويدخل جوف الفرس فلما رأتها البنت قالت لها كالفزعة أن لك شأناً إذ رجعت من ساعتك قالت لها أي لعمري أن شأناً هذا سليمان قد أمر بإحضارك الساعة لأمر كان بيني وبينه في أمرك وإنني لأرجو نصرتي اليوم فيك قالت كيف تحملينني قالت على ظهري قالت وهل أستقر على ظهرك وإني أرى أهوال البحر فلا آمن أن أزل فأسقط وأهلك قالت منقاري قالت فكيف اصبر في منقارك قالت وكيف أصنع ولا بد لي من إحضارك عند سليمان وهذا عريف الطير معي وقد دعا بكفيلتي البومة فقالت لها ادخلي في جوف هذا الفرس ثم ترفعينه على ظهرك أو في منقارك فلا أرى شيئاً ولا أسقط ولا أفزع من شيء قالت أصبت قال فدخلت جوف الفرس واجتمعت مع الغلام وحملت العنقاء الفرس في منقارها وطارت حتى وضعت الفرس بين يدي سليمان عليه السلام فقالت يا نبي الله هي الآن في جوف الفرس فأين الغلام وقدره وعلمه فتبسم سليمان طويلا ثم قال لها آتومنين بقضاء الله وقدره وأنه لا حيلة لأحد في دفع قضاء السابق الكائن من خير وشر فقالت آمنت بالله وأقول أن المشيئة إلى العباد والقوة فمن شاء فليفعل خيراً أو شراً قال سليمان كذبت ما جعل الله من المشيئة للعباد شيئاً ولكن من شاء الله أن يكون كافراً كان كافراً ولا يقدر أحد أن يدفع قضاء الله وقدره بحيلة لا بفعل ولا بعلم وأن الغلام الذي قد ولد بالمغرب مع الجارية التي ولدت بالمشرق قد اجمعا الآن في مكان واحد على سفاح وقد حملت الجارية من الغلام بولد فقالت العنقاء لا تقل يا نبي الله هذا فإن الجارية معي في جوف هذا الفرس فقال سليمان الله أكبر أين البومة المتكفلة

فلم تزل تدعوا وتتضرع إلى
إلى الله تعالى وهم يؤمنون
على دعائها ولم يزدد النهار إلا
صحوا ولا الشمس إلا حرا
فمل الناس ومضوا إلى
حوائجهم حتى صرت أنا
ورفيقي في الصحراء فجلسنا
بمسجد خرب هناك فبينما
نحن جلوس إذ أقبل علينا
غلام أسود عليه خرقتان
قديمتان تساوي قيمتها
درهمين فدخل المسجد وصلى
ركعتين فلما سلم قال إلهي
وسيدي ومولاي لم رددت
عبادك وفقرائك وعيالك
أفرغ ما عندك أم نفدت
خزائنك ثم قال بحبك لي
إلا ما سقيتهم الغيث. قال
مالك فو الله ما فرغ من
دعائه حتى تجللت السماء
بالسحاب وارعدت بالبرق
واسبلت مطراً كأفواه
القرب قال مالك فقلت والله
إن هذا لعظيم الجاه عند الله
تعالى ثم قام وخرج من
المسجد فتبعناه ونحن نخوض
في الماء المركب فما زال يمشي
ونحن نتبعه من بعيد حتى
دخل بيت رجل نخاس كنا
نعرفه. فلما دخل البيت
انصرفنا إلى بيوتنا وقد
اشتغلت بحبه فلما أصبح
الصبح جئت إلى النخاس
لشراء الغلام فلما رآني سلم
علي وقال ما تريد يا مالك
فقلت أريد غلاماً عندك
فقال النخاس وأي غلام
هو فإن عندي مائة غلام

بالعنقاء قالت ها أنا يانبي الله قال سليمان انت على مثل قول العنقاء قالت نعم فقال سليمان قدر الله السابق قبل الخلق اخرجهما على قضائه له ومشيئته قال فأمر البومة ففتحت جوف الفرس واخرجتهما جميعاً من جوف الفرس فأما العنقاء ففزعت وذهبت وطارت في السماء فأخذت نحو المغرب واختفت في بحر من بحاره وآمنت بالقدر وحلفت لاتنظر في وجه طير أبدا استحياء منه وأما البومة فإنها لزمت الآجام والجبال وقالت أما بالنهار فلا خروج لي ولا سبيل إلى المعاش فهي إذا خرجت نهاراً وبختها الطير واجتمعت عليها وقالت لها ياقدرية فهي تخضع لها وهذا ما كان من شأن العنقاء والبومة في القضاء والقدر والله أعلم بالغيب (ويروى) أن سليمان سار من أرض العراق غاديا فقال بمدينة مر وصلى العصر بمدينة بلخ تحمله الريح وتظله الطير بخيله وجنوده ثم سار من مدينة بلخ بلاد الترك ثم جاوزها إلى أرض الصين ثم عطف يمينه على مطلع الشمس على ساحل البحر حتى أتى أرض الهند ثم خرج إلى مكران وكرمان ثم جاوزها حتى أتى ارض فارس فنزلها أياما ثم غدا منها فقال بكسكر ثم رجع إلى الشام وكان مستقر مدينة تدمر وكان أمر الشياطين قبل خروجه من الشام إلى العراق أن يبنوا له تدمر فبنوها بالصفائح والعمد والرخام الأبيض والأصفر يقول الشاعر:

واذكر سليمان إذ قال المليك ... قم في البرية فاحددها عن الفند
وجيش الجيش إني قد أبحت لهم ... بناء تدمر بالأحجار والعمد

قال ووجدت هذه الأبيات منقورة في صخرة بأرض كسكر أنشأها بعض أصحاب سليمان بن داود عليهما السلام

ونحن ولاحول سوى حول ربنا ... نروح الأوطان من ارض تدمر
إذا نحن رحنا كان أمر رواحنا ... مسيرة شهر والغدو لآخر
أناس سروا والله طوع أنفسهم ... لنصرة دين النبي المطهر
لهم في معالي الدين فضل ورأفة ... وإن نسبوا يوما فمن خير معشر
متى ركبوا الريح المطيعة أسرعت ... مبادرة عن شهرها لم تقصر
تظلهم طير صفوفا عليهم ... متى رفرفت من فوقهم لم تفتر

رجعنا إلى القصة وقال قوم من العلماء معنى قوله تعالى فطفق مسحا بالسوق والأعناق وحبسها في سبيل الله وكرى سوقها بميسم الصدقة وقال الزهري مسح سوقها واعناقها من الغبار قال وهي رواية الوقدي عن ابن عباس قال قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ثم أن الله أمر الملائكة الموكلون بالشمس حتى ردوها على سليمان وصلى العصر في وقتها (حدثنا) أبو عبد الله عتيبا الأنصاري باسناده عن علي ابن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله ﷺ لما أراد الله أن يخلق الخيل قال للريح الجنوب إني خالق منك خلقا فاجعله عزا لأوليائي ومذلة لأعدائي وجمالا لأهل طاعتي فقالت الريح إلهي وسيدي ومولاي إني مطيعة فقبض منها قبضة فخلق فرسا وقال له خلقتك عربيا وجعلت الخير معقودا بناصيتك والغنائم مجموعة على ظهرك وعطفت عليك صاحبك وجعلتك تطير بلا جناح فأنت للطلب وأنت للهرب وسأجعل على ظهرك رجالا يسبحونني ويحمدونني ويكبرونني فتسبحني إذا سبحوا وتهللني إذا هللوا وتكبرني إذا كبروا وقال النبي ﷺ ما من تسبيحة وتحميدة وتمجيدة وتكبيرة يكبرها صاحبها تسمعها إلا تجيبه بمثلها قال فلما سمعت الملائكة صفتها ونظروا خلقتها قالوا ربنا نحن ملائكتك نسبحك ونحمدك فماذا الذي خلق الله لهم خيلا بلقا أعناقها كأعناق البخت فلما أرسل الله الفرس إلى الأرض واستوت قدماه عليها صهل فقيل له بوركت من دابة إذ بصهيلك أذل الله المشركين وأذل بك أعناقهم وملأ بك آذانهم وأرعب بك قلوبهم فلما عرض الله تعالى على آدم من كل شيء قال له اختر من خلقي ماشئت فاختار الفرس فقيل له اخترت عزك وعز ولدك خالدا ما خلدوا وباقيا ما بقوا بركتي عليك وعليهم ما خلقت خلقا أحب إلي منك ومنهم (ومنها) قوله تعالى (وأرسلنا

قبل مالك فتحيرت في نفسي حيرة شديدة إذ لم أكن اعرف للغلام إسما فقلت اعرض على الغلمان فعرض على ثمانين غلاما واحد بعد واحد فلم أر فيهم ذلك الغلام ثم التفت خلفي فرأيت موضعا خربا فمضيت إلى ذلك الموضع فاذا بالغلام قائم يصلي فلما نظرت إليه قلت هو هذا ورب الكعبة فقال النخاس وما تصنع بهذا الغلام يامالك هو غلام مشؤم مكار قال مالك وما شؤمه ومكره فقال النخاس خذه وأرحني منه قال مالك فأخذته بعشرين دينارا فقال النخاس يا مالك هذا الثمن كثير في هذا العبد فقال مالك والله إنه قليل في ثمنه وإني راغب فيه ثم أخذت بيده فقلت له ما إسمك يا غلام فقال ميمون قال فلما مضينا من عند النخاس قال الغلام يامولاي ماتصنع بي فقلت للخدمة فقال والله لم أخدم أحدا من المخلوقين وإنما خدمتي لله رب العالمين فما حملك على شراء الغلام المشؤم قال حملني على ذلك ما رأيته منك بالامس في المسجد الخرب الذي بالصحراء قال مالك فتغير وجه الغلام عند سماع ذلك فلما اقبلنا إلى مسجد كان قريبا من المنزل قال يامولاي اتأذن لي أن أصلي في هذا المسجد ركعتين

فقلت نعم فدخل وصلى ركعتين وجلست على باب

له عين القطر أذبنا له عين النحاس أسيلت ثلاثة أيام كما يسيل الماء وكانت بأرض اليمن وإنما ينتفع الناس اليوم بما أخرجه الله لسليمان عليه السلام (ومنها) تسخير الله تعالى له الجن والإنس والطير والوحوش والشياطين يعملون له ما يشاء كما قال تعالى (ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير) وذلك أن الله تعالى وكل بهم ملكا بيده سوط من نار فمن زاغ عن أمر سليمان ضربه ضربة أحرقته فاعملت له الشياطين بأمره وأحدثوه له الحمامات والطواحين والقوارير والصابون أشياء كثيرة واحتفروا له نهر الملك وألقوا ترابه بين خانقين وقصر شيرين وبما عملوا له العياصة كما قال الله تعالى ومن الشياطين من يغوصون له الآية وقال تعالى والشياطين كل بناء وغواص وكانوا يغوصون في البحار ويستخرجون أنواع اللآلىء والدر والمرجان وسائر الجواهر البحرية وكانوا يستخرجون اليواقيت والزمرد وأنواع الجواهر الثمينة من المعادن وهم أول من فعل ذلك .

(حديث القبة) قال وهب بن منبه بينما سليمان عليه السلام على ساحل البحر والريح من تحته والإنس عن يمينه والجن عن شماله والطير تظله إذ انظر إلى عظم أمواج البحر فدعته نفسه أن يعلم ما في قعر البحر فأمر الريح فسكنت من تحته ثم قعد على كرسي ملكه ثم دعا رأس الغواصين فقال له اختر لي من أصحابك مائة رجل فاختار له مائة رجل فقال اختر لي من المائة ثلاثين فاختار له ثلاثين فقال اختر لي من الثلاثين عشرة فاختار له عشرة فقال اختر لي من العشرة ثلاثة فقال لواحد منهم غص حتى تنظر إلى قعر البحر وتأتيني بالخبر فقال له سمعاً وطاعة لك يا نبي الله فغاص البحر وأبعد ثم خرج فقال له سليمان ما الذي رأيت قال يا نبي الله ما رأيت إلا أمواجاً وحيتاناً غير إني رأيت ملكاً عظيماً فقال لي أين تريد سلمت له إن نبي الله سليمان أرسلني أنظر له قعر هذا البحر فقال ارجع إليه فاقرأ عليه مني السلام وقل له أن قوماً ركبوا هذا البحر منذ أربعين عاماً فغاب عليهم مركبهم فخرجوا يصلحونه فسقط من أحدهم قدوم فهوى يتجلجل في البحر ولم يبلغ قعره بعد فرجع إليه وأخبره بالخبر فتعجب نبي الله سليمان من ذلك ونهى عما كان قصد قال فبينما هو على شاطىء البحر إذ رأى قبة من زجاج تضربها الأمواج في لجة البحر فعارضها وقال للغواصين غوصوا في أثرها فغاصوا فأخرجوها فلما وضعت القبة على ساحل البحر انفتح لها بابان بمصراعين وخرج من القبة شاب عليه ثياب أبيض من اللبن وكانت رأسه تقطر ماء فجاء حتى وقف بين يدي سليمان فقال له سليمان يا فتى من الجن أنت أم من الإنس قال بل من الإنس قال فتعجب سليمان منه ومن زيه ثم قال له ما بلغ بك ما أرى فقال يا نبي الله كانت لي والدة وكنت من أبر الناس بها أطعمها وأسقيها بيدي ولا أترك شيئاً من صنائع البر إلا صنعته بها فلما حضرتها الوفاة سألتها أن تدعو لي فرفعت رأسها إلى السماء وقالت يا رب قد عرفت بر ولدي بي فارزقه العبادة في موضع لا يكون لإبليس وجنوده عليه سبيل ثم ماتت فدفنتها فخرجت يوماً إلى ساحل البحر فإذا أنا بهذه القبة فدعتني نفسي أن أدخلها فلما دخلتها انطبقت على أبوابها وتزاخرت الأمواج بها وكان هذا آخر عهدي يا نبي الله فقال له سليمان فمن أين مطعمك ومشربك فقال يا نبي الله إذا كان الليل جاءني في طائر أبيض في منقاره شيء أبيض فيدفعه إلي فآكله فهو يقيتني من الطعام والشراب فقال له سليمان فمن أين تعرف الليل وأنت في ظلمة هذا البحر قال يا نبي الله في القبة خيطان خيط أبيض وخيط أسود فإذا رأيت الخيط الأبيض زائداً علمت أنه النهار وإذا رأيت الخيط الأسود زائداً علمت أنه الليل فقال له سليمان هل لك في صحبتنا رغبة قال لا يا نبي الله إن تشأ تأذن لي أن أعود إلى قبتي فأذن له فانطلق ودخلها وانطبق عليه بابها وتزاخرت به الأمواج فكان آخر العهد به (ومنها) قوله تعالى (يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب) يقال إنها الحيضان كانت تسع الجفنة الواحدة طعام ألف رجل فيجتمعون عليها ويأكلون بين يديه وقدور راسيات ثابتات لا تزول يسع القدر الواحد عشر جزر .

المسجد أنظره فلما فرغ من صلاته قال إلهي وسيدي ومولاي كانت المعاملة بيني وبينك سراً والآن قد علم بها المخلوقون فاقبضني إليك الساعة ثم شهق شهقة فمات رحمة الله تعالى عليه .

قال مالك فدخلت إليه فوجدته يضحك في موته فتاسفت عليه فبينما أنا كذلك إذا بشابين جميلين كأنهما الأقمار قد دخلا من باب المسجد فسلما علي وقالا عظم الله أجرنا وأجرك في ميمون ثم أعطاني أحدهما كفناً جديداً يفوح منه رائحة المسك قال مالك فغسلناه وكفناه وصلينا عليه ودفناه رحمة الله تعالى عليه وعلى جميع المسلمين .

(وحكي عن بعضهم رضي الله تعالى عنه) أنه قال حججت سنة من السنين إلى بيت الله الحرام وزيارة النبي عليه الصلاة والسلام وكانت سنة كثيرة الحر فلما كانت ذات ليلة غفوت قليلا فلما استيقظت إذا بي قد انقطعت عن الركب وصرت وحدي في البرية ولم أدر كيف أصنع فبينما أنا كذلك إذ لاح لي شخص أمامي فاسرعت نحوه فإذا هو غلام لا نبات بعارضيه كأنه القمر المنير أو الشمس الضاحية وهو يمشي ويتبختر كأنه في صحن داره فتقدمت إليه وسلمت عليه فقال تعم وعليك السلام يا إبراهيم

من أين عرفتني ولم ترني قبل ذلك اليوم فقال ما جهلت منذ عرفت ولا قطعت منذ وصلت قال إبراهيم فقلت له ما الذي أوصلك إلى هذه البرية في مثل هذه السنة الكثيرة الحر قال يا إبراهيم ما أنست بسواه ولا رافقت أحداً غيره وإني منقطع بالكلية مقر له بالربوبية قال إبراهيم فقلت من أين المأكول والمشروب فقال تكفل بي المحبوب قال إبراهيم فقلت له يا غلام أما تخاف من بعد السفر وطول المشقة فأنشد يقول شعراً :

من ذا يخوفني بالبر أقطعه
إلى الحبيب وقد قدمت إيماناً
الحب أقلقني والشوق أزعجني
فلا يخاف محب الله إنساناً
فإن أجوع فذكر الله يشبعني
ولا أكون بحمد الله عطشاناً
وإن ضعفت فوجدي فيه يحملني
إلى الحجاز ومن أقصى خراسان

قال إبراهيم فتعجبت من كلامه على صغر سنه ثم قلت له بالله عليك يا غلام ما عمرك قال إثنتا عشرة سنة قلت والله لقد أدهشتني ما سمعت منك فتبسم وقال الحمد لله الذي أولانا من نعمه وفضلنا على كثير من عباده فتعجبت من حسن وجهه وحلاوة منطقه . قلت سبحان الخالق المصور فأطرق رأسه ساعة ونظر إلى وقال يا إبراهيم إن المنقطع من قطعه الحبيب والمواصل من أخذ من الطاعة نصيب

(قصة مدينة سليمان عليه السلام التي كان يسافر بها في الهواء)

(ومما) عملوا له مدينة من قوارير عشرة آلاف ذراع في عشرة آلاف ذراع فيها ألف سقف ما بين كل سقفين عشرة أذرع في كل سقف جميع ما يحتاج إليه من المساكن والقباب والمرافق أسفلها أغلظ من الحديد وأعلاها أرق من الماء يرى من داخلها ما وراءها خارجها من صفائه ونقائه والشمس والقمر بالليل وعلى السقف الأعلى فيه بيضاء عليها علم أبيض يستضيء به في الليل الداجي العسكر كله يتلألأ شعاعه مد البصر وبها من الأركان ألف ركن على مناكب الشياطين تحت كل ركن منها عشرة من الشياطين تسع لسليمان وجنوده وحشمه وأوليائه علواً وسفلاً تحملها الريح إلى حيث يشاء وكانت تلك المدينة له مستقراً يأكل ويشرب وينام ويتمتع بها وفي أسفلها مرابط واصطبلات وأوارى وأواخي لخيله ودوابه (ومما) عملوا له كرسي ملكه

(صفة كرسي سليمان عليه السلام)

قال الله تعالى (وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب) يروى أن نبي الله سليمان عليه السلام أمر الشياطين اتخاذ كرسي يقعد عليه للقضاء وأمر أن يعمل بديعاً مهولاً بحيث لو رآه مبطل أو شاهد زور ارتدع وبهت قال فعملوا له كرسياً من أنياب الفيل وفصصوه بالياقوت واللؤلؤ والزبرجد وأنواع الجواهر وحفوه بأربع نخلات من الذهب ثمارها الياقوت الأحمر والزمرد الأخضر على رأس نخلتين منها طاوسان من ذهب وعلى رأس الأخيرتين نسران من ذهب بعضهما مقابل بعض وجعلوا من جانب الكرسي أسدين من ذهب على رأس كل واحد منهما عمودان من الزمرد الأخضر وقد عقدوا على النخلات أشجار الكرم من الذهب الأحمر واتخذوا عناقيدها من الياقوت الأحمر بحيث يظل عريش الكروم والنخل الكرسي قالوا وكان سليمان إذا أراد صعوده وضع قدميه على الدرجة السفلى فيسير الكرسي ورجله فيها ويدور دوران الرحى المسرعة وتنشر تلك النسور والطواويس أجنحتها ويبسط الأسدان أيديهما ويضربان الأرض بأذنابهما وكذلك يفعل في كل درجة يصعدها سليمان فإذا استوى بأعلاه أخذ النسران اللذان على النخلتين المسك والعنبر يفتشانهما عليه ثم تتناول حمامة من ذهب قائمة على عمود من جوهر من أعمدة الكرسي التوراة فتفتحها لسليمان فيقرؤها على الناس ويدعوهم إلى فصل القضا قال وتجلس عظماء بني إسرائيل على كراسي الذهب والفضة المفصصة بالجواهر وهي ألف كرسي على يمينه وتجيء عظماء الجن فيجلسون على كراسي الفضة عن يساره وهي ألف كرسي حافين به جميعاً ثم تظلهم الطير وتتقدم الناس للقضاء فإذا دعا بالبينات وتقدم الشهود لإقامة الشهادات دار الكرسي بجميع ما فيه وما حوله دوران الرحا المسرعة قال معاوية لوهب بن منبه ما الذي يدير ذلك الكرسي قال بلبلان من ذهب وذلك الكرسي مما عمله صخر الجني قالوا فإذا دار الكرسي بسط الأسدان أيديهما ويضربان الأرض بأذنابهما وينشر النسران والطاوسان أجنحتهما فتفزع منه الشهود ويداخلهما من ذلك رعب شديد فلا يشهدون إلا بالحق فهذا شأن كرسي سليمان عليه السلام وعجائب ما كان فيه فلما توفي سليمان عليه السلام بعث بختنصر فأخذ ذلك الكرسي وحمله إلى أنطاكية فأراد أن يصعد عليه ولم يكن له علم بالصعود عليه ولا بأحواله فلما وضع قدميه على الدرجة السفلى رفع الأسد يده اليمنى فضرب ساقه ضربة شديدة دقها ورماه فحمل بختنصر فلم يزل يعرج ويتوجع منها حتى مات وبقي الكرسي بأنطاكية حتى غزاهم ملك من الملوك يسمى كداش بن سداس فهزم خليفة بختنصر ورد الكرسي إلى بيت المقدس فلم يستطع أحد من الملوك الجلوس عليه ولا الاستمتاع به فوضع تحت الصخرة فغاب ولم يعرف خبره ولم يدر أين هو والله أعلم (ومنها) بيت المقدس .

(صفة بنيانه وبدء أمره)

قال الله تعالى (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) الآية وقال تعالى (ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين) قيل بالمياه والأشجار والثمار وقيل أن كل ماء عذب يخرج من تحت أصل الصخرة بيت المقدس يهبط من السماء إليها ثم يتفرق في الأرض وذلك قوله تعالى

(بارك فيها ثمانمائة) وروى خالد بن معدان عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله ﷺ صخرة بيت المقدس على نخلة من نخيل الجنة وتلك النخلة على نهر من أنهار الجنة على ذلك النهر آسية بنت مزاحم ومريم إبنة عمران رضي الله عنهما يتظلان على أهل الجنة إلى يوم القيامة وأما بدء بناء بيت المقدس وصفة بنائه على ما ذكره أهل البصيرة بالسير هو أن الله تعالى بارك في نسل إبراهيم حتى جعلهم في الكثرة غاية لا يحصون فلما كان زمان داود عليه السلام لبث فيهم مدة مديدة بأرض فلسطين وهم يزدادون كل يوم كثرة فأعجب داود بكثرتهم وأراد أن يعلم عدد بني إسرائيل كم هم فأمر بعدهم وبعث بذلك عرفاءه ونقباءه وأمرهم أن يرفعوا إليه ما يبلغ من عددهم فكانوا يعدون زمانا من الدهر حتى عجزوا فبعث الله جبريل عليه السلام وأوحى إليه يا داود قد علمت إني وعدت أباك إبراهيم يوم أمرته بذبح ولده فصبر وأتم أمري بأن أبارك له في ذريته حتى يصيروا بعدد نجوم السماء وأجعلهم بحيث لا يحصى عددهم فأردت أن تعلم عددهم إنه لا يحصى عددهم غيري وإني قد أقسمت لأبتليهم ببلية يقل منها عددهم ويذهب عنك إعجابك بهم وبكثرتهم فاختاروا إما أن أبتليكم بالجوع والقحط ثلاث سنين وأسلط عليكم عدوكم ثلاثة أشهر أو الموت ثلاثة أيام فجمع داود بني إسرائيل وأخبرهم بما أوحى الله تعالى إليه وخيرهم فيه فقالوا له أنت أعلم بما هو أيسر لنا وأنت نبينا فانظر لنا غير أن الجوع لا صبر لنا عليه وتسليط العدو أمر فاضح فإن كان ولا بد فالموت لأنه بيده لا بيد غيره فأمرهم داود أن يتجهزوا للموت فاغتسلوا وتحنطوا ولبسوا الأكفان وبرزوا إلى صعيد بيت المقدس من قبل بناء المسجد بالذراري والأهلين وأمرهم أن يضجوا إلى الله تعالى ويتضرعوا إليه لعله أن يرحمهم فأرسل الله إليهم الطاعون فأهلك منهم في يوم وليلة ألوفا كثيرة لا يدرى عددهم ولم يفرغوا من دفنهم إلا بعد موتهم بشهر فلما أصبحوا في اليوم الثاني خر داود عليه السلام ساجدا لله تعالى يبتهل إلى الله تعالى ويقول رب أنا آكل الحل الحامض وبنو إسرائيل يضرسون يعني أذنبت وبنو إسرائيل يعاقبون فما كان من شيء فني أنزله واعف عن بني إسرائيل فاستجاب الله دعاءه وكشف عنهم الطاعون ورفع عنهم الموت فقال داود لبني إسرائيل أن الله تعالى قد من عليكم ورحمكم فسجدوا له شكرا قالوا فكيف تأمرنا قال آمركم أن تتخذوا في هذا الصعيد الذي رحمكم الله فيه مسجدا لا يزل فيه منكم ومن بعدكم ذاكر لله تعالى فأخذ داود في بنائه فلما أرادوا أن يبتدؤا بالبناء جاء رجل صالح فقير يختبرهم ليعلم كيف إخلاصهم في بنائهم فقال لبني إسرائيل أن لي فيه موضعا أنا محتاج إليه ولا يحل لكم أن تحجبوني عن حقي فقالوا يا هذا ما من أحد من بني إسرائيل إلا وله في هذا الصعيد حق مثل حقك فلا تكن أبخل الناس ولا تضايقنا فيه فقال أنا أعرف حقي وأنتم لا تعرفون حقكم فقالوا أما ترضى وطيب نفسك وإلا أخذناه منك كرها فقال لهم أتجدون هذا في حكم الله وحكم داود قال فرفع خبره إلى داود عليه السلام فقال ارضوه فقالوا بكم نأخذ منه يا نبي الله تعالى قال خذوه بمائة شاة فقال الرجل زدني يا نبي الله قال داود خذوه بمائة بقرة فقال زدني قال بمائة بعير قال زدني يا نبي الله فانما تشتريه لله تعالى والله كريم لا يبخل فقال داود حيث قلت هذا فاحتكم أعطيك قال تشتريه بحائط مثله زيتونا ونخلا وعنبا قال نعم فقال الرجل أنت تشتريه لله تعالى فلا تبخل قال سل ما شئت قال أنت أكرم على الله مني ولكن ابن لي حوله جدارا مشرفا ثم تملؤها ذهبا وإن شئت ورقا قال داود هذا هين فالتفت الرجل إلى بني إسرائيل وقال لهم هذا هو النائب المخلص ثم قال لداود يا نبي الله لأن يغفر الله لي ذنبا واحدا أحب إلي من كل شيء وهبت لي ولكني كنت أختبركم فجدوا في بناء بيت المقدس وكان ذلك فيما قيل لإحدى عشر سنة مضت من ملك داود وكان داود ينقل الحجارة على ظهره وكذلك أخيار بني إسرائيل حتى رفعوه قامة وعجزوا فأوحى الله تعالى إليه أن هذا بيت مقدس وإنك رجل سفاك الدماء ولست ببانيه ولكن أبشر لك أملكه بعدك اسمه سليمان أسلمه من سفك الدماء وأقضي إتمامه على يديه ويكون صديقا وذكره وأجره لك باقيا فصلوا فيه زمانا إلى أن توفي داود عليه السلام واستخلف سليمان فأمره الله تعالى ببناء بيت المقدس

منقطع عن الحجاج بالزحام
قلت له نعم سألتك بالله أن تدعو لي أن ألحق من سبقني من أصحابي قال فنظر إلى السماء وحرك شفتيه فأخذتني سنة من النوم فما استيقظت إلا وأنا في وسط الحجاج ورفيقي يقول لي أحذر أن تقع من على الراحلة ولم أدر أين ذهب الغلام فسألت الله أن يجمعني به قبل الموت فلما دخلنا مكة إذا بالغلام متعلق باستار الكعبة وهو يبكي وينشد ويقول شعرا:

تعلقت بالأستار والقبر زوره
وأنت بما في القلب والسر أعلم
أتيت إليه ماشيا غير راكب
وإني على صغري محب متيم
هويتك طفلا حيث لا أعرف الهوى
فلا تعذلوني إنني متعلم
وإن قد حانت إلهي منيتي
لعل بوصل منك أحظى وأغنم

قال إبراهيم ثم أرخى عينيه وخر ساجدا فأتيت إليه وحركته فإذا هو قد مات رحمة الله تعالى عليه فتأسفت لذلك ومضيت إلى رجل لآخذ له منه كفنا واستعنت برفيقي حتى يساعدني على تجهيزه فأتينا إليه فلم نجده فتعجبت من ذلك وسألت عنه الحجاج فلم يخبرني به أحد فعرفت أنه مستتر عن أعين الناس وما رآه أحد غيري فرجعت إلى مكاني ولم أفتر عن ذكره فلما جن الليل نمت فرأيته في

فجمع سليمان الجن والإنس والشياطين وقسم عليهم الأعمال وخص كل طائفة بعمل يصلح لها وأرسل الجن والشياطين فى تحصيل عمل الرخام والبلور والأبيض الصافى من معادنه وأمر ببناء المدينة بالرخام والصفائح وجعلها إثنى عشر ربضاً لكل ربض منها سبط من الأسباط وكانوا إثنى عشر سبطاً فلما فرغ من بناء المدينة ابتدأ فى بناء المسجد فوجد الشياطين فرقاً فريق منهم يستخرجون الذهب والفضة والياقوت من معادنه وفريق يغوصون فى البحر ويستخرجون أنواع الدر وفريق يقطعون أنواع الرخام وفريق يغوصون على الجواهر وفريق يأتون بالمسك والعنبر وأنواع الطيب من أماكنها فأتى بشىء من ذلك لا يحصيه إلا الله تعالى ثم أنه أحضر الصناع وأمرهم بنحت تلك الحجارة وتنضيدها ألواحاً وإصلاح تلك الجواهر ونقشها فكانوا يعالجونها فتصوت صوتاً شديداً لصلابتها فكره سليمان تلك الأصوات فدعا الجن وقال لهم هل عندكم حيلة فى نحت هذه الجواهر من غير تصويت فقالوا يا نبى الله ليس فى الجن أكثر تجارباً ولا أكثر علماً من صخر العفريت فارسل إليه من يأتيك به فطبع سليمان بخاتمه طابعاً وكان يطبع للشياطين بالنحاس ولسائر الجن بالحديد وكان إذا طبع بخاتمه لمع ذلك كالبرق الخاطف فكان لا يراه أحد من جن ولا شيطان إلا انقاد إليه باذن الله تعالى فارسل الطابع مع عشرة من الجن فأتوه به وهو فى بعض جزائر البحر فاروه الطابع فلما نظر إليه كاد أن يصعق خوفاً فاقبل مسرعاً مع الرسل حتى دخل على سليمان فسأل سليمان رسله عما أحدث العفريت فى طريقه فقالوا يا نبى الله أنه كان يضحك فى بعض الأحايين من الناس فقال له سليمان ما رضيت بتمردك على وتركك المجىء إلى طاعتى حتى صرت تسخر من الناس فقال يا نبى الله إنى لست أسخر منهم غير أن ضحكى كان تعجباً بما كنت أسمع وأرى فى طريقى فقال له سليمان وما ذاك قال مررت على شط نهر فوجدت رجلا ومعه بغلة يريد أن يسقيها وجرة يريد أن يستقى بها فستقى البغلة وملأ الجرة ثم أراد أن يقضى حاجته فشد البغلة بذنب الجرة فنفرت البغلة وكسرت الجرة فضحكت من حمق الرجل حيث توهم أن الجرة تحبس البغلة ومررت أيضاً برجل آخر وهو جالس عند إسكاف يستعمله فى إصلاح خف له فسمعته يشترط عليه أن يصلحه بحيث يبقى معه أربع سنين ونسى نزول ملك الموت إليه من قبله فضحكت من قلة عقله وجهله ومررت بعجوز تتكهن وتخبر الناس بما لا يعلمون من أمور السماء وقد كنت عهدت رجلا دفن فى موضع فراشها ذهباً كثيراً فى الدهور الخالية فرأيتها تموت جوعاً وتحت رأسها ذهب كثير وهى لا تعلم بمكانه ثم تخبر الناس بامر السماء فضحكت منها ومررت برجل فى بعض المدن وقد كان به داء فيما قيل فاكل البصل فبرأ من دائه فصار يطيب الناس وكان لا يأتيه أحد يسأله عن علة إلا أمره باكل البصل وإنه لا ضر شىء حتى أن ضرره يصل إلى الدماغ فضحكت منه ومررت فى بعض الأسواق فرأيت الثوم وهو أفضل الأدوية يكال كيلا ورأيت الفلفل وهو من السموم القاتلة يوزن وزناً فضحكت ومررت بناس قد جلسوا يبتهلون إلى الله ويسالونه الرحمة والمغفرة فمل منهم قوم فقاموا وجاء آخرون فجلسوا فرأيت الرحمة نزلت عليهم وأخطأت الذين كانوا من قبل وغشيت الذين جاؤا فضحكت تعجباً للقضاء والقدر فقال له سليمان هل علمت من كثرة تجاربك وجولاتك فى البحار شيئاً ينحت لى هذه الجواهر فتلين ويسهل نحتها وثقبها بلا صوت قال نعم يا نبى الله أعرف حجراً أبيض كاللبن يقال له السامور غير إنى لا أعرف معدنه الذى فيه وليس فى الطير شىء أحيل ولا أهدى من العقاب فامر بفراخه أن تجعل فى صندوق من تلك الجواهر فانه يأتى بذلك الحجر فيضرب به الصندوق حتى يثقبه ليصل إلى أولاده قال فامر سليمان بفراخ العقاب أن تضم فى صندوق من حجر منها يوماً وليلة فحجب عن أفراخه فمر مسرعاً وجاء بالحجر بعد يوم وليلة فثقب به الصندوق حتى وصل إلى فراخه فوجد سليمان مع العقاب نفراً من الجن حتى أتوه منه بقدر ما علم أن فيه الكفاية واستعمل ذلك فى أدوات الصناع فسهل عليهم نحتها من غير صوت وهو حجر يستعمل فى نقش الخواتيم وثقب الجواهر إلى اليوم وهو ثمين عزيز قالوا فبنى سليمان المسجد بالرخام الأبيض والأصفر والأخضر وعمده من الملها الصافى وسقفه بالواح الجواهر الثمينة

المنام وهو فى موكب عظيم وعليه نور ساطع وعليه من الحلى والحلل ما يعجز عن وصفه الواصفون وقال إبراهيم فقلت له ألست صاحبى بالأمس فقال نعم فقلت له والله لقد طلبتك لأغسلك وأكفنك فلم أجدك فقال يا إبراهيم إن الذى أخرجنى ويحبه شوقنى وعن أهلى غربنى هو الذى كفننى وما أحوجنى قال إبراهيم فقلت له ما فعل الله بك بعد ذلك قال أوقفنى بين يديه وقال ما بغيتك. قلت أنت بغيتى فقال الله عز وجل أنت عبدى حقاً ولا أحتجب عنك فى كل ما تريد فقلت سيدى أريد أن تشفعنى فى القرن الذى مت فيه فقال الله عز وجل قد شفعتك فيه قال إبراهيم ثم صاحنى فاستيقظت من منامى فرحاً مسروراً فلما أصبحت قضيت ما كان على من فرائض الحج ولم يفتر قلبه عن ذكر الغلام وسرت فى جملة الحجاج والناس يقولون يا إبراهيم أزعجت الناس من طيب رائحتك قال ولم تزل رائحة الطيب تفوح من يد إبراهيم الخواص رحمه الله تعالى وأنه قال كنت سائراً فى طريق مكة على لوحدة فلت عن الطريق فمكثت أمشى يومى وليلتى حتى أدركنى المساء فاغتممت لذلك غماً شديداً

ونصص سقفه وحيطانه بالآلىء واليواقيت وأنواع الجواهر وبسط أرضه بألواح الفيروزج فلم يكن يوجد يومئذ فى الأرض بيت أبهى ولا أنور من ذلك المسجد وكان يضىء فى الليل كالقمر ليلة البدر فلما فرغ منه جمع إليه أحبار بنى إسرائيل وأعلمهم أنه بناء لله تعالى وكل شىء منه خالص لله تعالى واتخذ ذلك اليوم الذى فرغ منه عيداً * قالوا ومن عجائب ما اتخذه سليمان بيت المقدس أنه بنى بيناً وطين حائطه بالجص وصقله فكان إذا دخله البار استبان خياله فى ذلك الحائط أبيض وإذا دخله الفاجر استبان خياله فى ذلك الحائط اسود فارتدع من ذلك كثير من الناس عن الفجور والخيانة ونصب فى زاوية من زوايا المسجد عصا أبنوس فكان من مسها من أولاد الأنبياء لم يضره منها شىء ومن مسها من غيرهم احترقت يده فلما فرغ سليمان من بناء بيت المقدس قرب قرباناً على الصخرة ثم قال اللهم إنك وهبت لى هذا الملك مناً منك على وجعلتنى خليفة على أرضك وأكرمتنى به من قبل أن أكون شيئاً فلك الحمد اللهم إنى أسألك لمن دخل هذا المسجد خصالا أن لا يدخله أحد يصلى فيه ركعتين مخلصاً فيهما إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ولا يدخله مذنب إلا تبت عليه ولا خائف إلا أمنته ولا سقيم إلا شفيته ولا مجدب إلا أخصبته وأغنيته وإذا أجبت دعوتى وأعطيتنى طلبتى فاجعل علامته أن تتقبل قربانى قال فنزلت نار من السماء فسدت ما بين الخافقين ثم امتدت منها عنق فاحتمل القربان وصعد به إلى السماء وكان بيت المقدس على ما بناه سليمان عليه السلام إلى أن غزا بختنصر بنى إسرائيل فخرب بيت المقدس وألقى فيه الجيف وكبسه بالتراب ونقل جميع ما فيه من الذهب والفضة والجواهر والآنية إلى أرض بابل وكان بيت المقدس خراباً إلى أن بناه المسلمون فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأمره والله أعلم .

(باب فى قصة بلقيس ملكة سبأ والهدهد وما يتصل به)

قال الله تعالى (وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين) الآية قالت العلماء بأخبار القدماء إن نبى الله سليمان بن داود عليهما السلام لما فرغ من بناء بيت المقدس عزم على الخروج إلى أرض الحرم فتجهز للمسير واصطحب معه الناس والجن والشياطين والطيور والوحوش ما بلغ عسكره مائة فرسخ وأمر الريح الرخاء فحملتهم فلما وافوا الحرم أقام به ماشاء الله أن يقيم وقرب القرابين وقضى المناسك وبشر أهله بخروج محمد ﷺ وأخبرهم أنه سيد الأنبياء وخاتم النبيين وأن ذلك مثبت فى زبورهم ثم أحب أن يسير إلى أرض اليمن فخرج من مكة صباحاً وصار نحو اليمن يؤم نجم سهيل فوافى صنعاء وقت الزوال وذلك مسيرة شهر فرأى أرضاً بيضاء حسنة تزهر بخضرتها فأحب النزول بها ليصلى ويتغذى فطلبوا الماء فلم يجدوه وكان الهدهد دليله على الماء وكان يرى موضع الماء وعمقه ثم تجىء الشياطين فيستخرجونه كما يستخرج الأهاب ويستخرجون الماء قال سعيد بن جبير لما ذكر ابن عباس هذا الحديث قال له نافع بن الأزرق كيف يبصر الماء من تحت الأرض ولا يبصر الفخ إذا غطى له بقدر أصبع من تراب قال ويحك إذا جاء القدر عمى البصر (قال ابن عباس) فى بعض الروايات عنه وقعت قطعة من الشمس على رأس سليمان فنظر فإذا موضع الهدهد خال فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عن الهدهد فقال أصلح الله الملك ما أدرى أين هو وما أرسلته إلى موضع فغضب عند ذلك سليمان وقال لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه واختلف العلماء فى العذاب الشديد ما هو فقال أكثر المفسرين كان عذابه أن ينتف ريشه ويدبه ويدعه معطاً ثم يلقيه فى بيت النمل فتلدغه وقال الضحاك لأنتفنه ولأشدن رجليه ولأشمسنه وقال مقاتل لأطلينه بالقطران ولأشمسنه وقيل لأوجعنه القفص وقيل لأفرقن بينه وبين إلفه وقيل لأمنعنه من خدمتى أو ليأتينى بسلطان مبين أى حجة واضحة (وروى) عكرمة عن ابن عباس قال كل سلطان فى القرآن حجة قال ثم دعا العقاب سيد الطيور فقال له على بالهدهد الساعة فرفع العقاب نفسه دون السماء حتى التصق بالهواء فنظر إلى الدنيا كالقصعة بين يدى أحدكم فنظر يميناً وشمالا فإذا هو الهدهد مقبلا من نحو اليمن فانقض نحوه يريده بسوء ناشده الله وقال له بحق الذى قواك وأقدرك على إلا رحمتنى ولا تتعرض لى بسوء ثم طارا متوجهين نحو سليمان فلما

لأجل الوضوء وفقد الماء

وكانت ليلة مقمرة فسمعت صوتاً ضعيفاً وهو يقول يا إسحق قد نوأت منه فإذا هو شاب حسن الثياب نظيف الأثواب فسلمت عليه فرد على السلام فوجدته منطرحاً على الأرض وليس فيه حركة وعند رأسه رياحين مختلفة الألوان فتعجبت من ذلك وقلت له ما الذى اتى بك إلى هذه البرية وهى مقفرة فقال يا أبا إسحق قد دنت وفاتى وقد سألت الله أن يحضر عندى ولياً من أوليائه فنوديت يحضر وفاتك إبراهيم الخواص وها أنا منتظرك فقلت له يا أخى ما الذى حبسك ههنا فقال يا اخى كنت عند اهلى فخطر على السفر واشتهيت الغربة فخرجت من مدينة شمشاط أريد الحج فوقعت فى هذه البقعة منذ شهرين وقد حضرت الوفاة قال إبراهيم فقلت ألك ولدان فقال نعم ولى أخت صالحة فقلت له هل اشتقت لهم وخطر بالك بهم قال لا إلا اليوم فإنى أحببت أن أشم منهم رائحة أو أجدد بهم عهداً قال إبراهيم فاجتمعت إليه وحوش كثيرة وأتوا بهذه الرياحين فبكيت وبكوا معى وصرت متحيراً فى أمره متفكراً فى حاله ووقع حب الشاب فى قلبى وانجذب إليه سرى فبينما أنا كذلك إذ أقبلت حية عظيمة وفى فمها باقة نرجس لم أر احسن منها

ولا أزكى من رائحتها فوضعتها عند رأسه وقالت بلسان فصيح يا إبراهيم أعدل عن ولى الله تعالى فإن الله تعالى يغير على أوليائه قال إبراهيم فلحقنى من ذلك حال وصحت صيحة عظيمة وغشى على فلما أفقت وجدت الشاب قد فارق الدنيا رحمة الله تعالى عليه فقلت إنا لله وإنا إليه راجعون ما هذه إلا محنة عظيمة كيف أصنع فى تجهيزه قال فأرسل الله على النوم فنمت فما أفقت إلا بعد ليلة وقد طلعت على الشمس فنظرت لموضع الشاب فلم أجد له أثراً فتعجبت من ذلك وسرت حتى دخلت مكة فلما قضيت حجى توجهت إلى بلد الشاب فاستقبلنى نساء عليهن مرقعات وفى أوائلهن امرأة عليها مرقعة وثوب من شعر وبيدها ركوة وهى لا تفتر عن ذكر الله تعالى فتأملتها فما رأيت أشبه بالشاب منها فقالت يا أبا إسحق إنى فى انتظارك لتحدثنى عن أخى وقرة عينى ثم بكت وارتفع بكاؤها فبكيت معها ثم وصفت لها الشاب وما كان عنده من الرياحين فلما بلغت قوله أحببت أن أشم منهم رائحة أو أجدد بهم عهداً قالت أخته قد بلغ الشم ثم سقطت إلى الأرض ميتة فاحتوشها أهلها وقالوا جزاك الله خيراً يا أبا إسحق لقد أوحشتها مما كانت فيه قال إبراهيم فلم يبق أحد

انتهى إلى المعسكر تلقاهما النسر والطير فقال الهدهد وما استثنى نبى الله قالوا بلى إنه قال أو ليأتينى بسلطان مبين فطار الهدهد والعقاب حتى أتيا سليمان فلما قرب الهدهد منه رفع رأسه وأرخى ذنبه وجناحيه يجرهما على الأرض تواضعاً لسليمان فمد سليمان يده إلى رأسه فجذبها وقال أين كنت لأعذبنك عذاباً شديداً فقال له الهدهد يا نبى الله اذكر وقوفك بين يدى الله فلما سمع ذلك سليمان ارتعد وعفا عنه (أخبرنى) الحسين ابن محمد الثقفى باسناده عن عكرمة فقال إنما صرف سليمان عن ذبح الهدهد بره بوالديه ثم سأله ما الذى أبطأك عنى قال الهدهد ما أخبر الله به أحط بما لم تحط به أى علمت ما لم تعلم به وجئتك من سبأ بنبأ يقين إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها سم بلقيس بنت البشرخ وهو الهذهاذ وقيل هى بلعمة بنت شراحيل بن ذى جدن بن البشرخ بن الحرث قيس بن صنعاء بن يشجب بن يعرب بن قحطان وكان أبو بلقيس الذى يسمى البشرخ ويلقب بالهذهاذ ملكا عظيم الشأن وكان ملك أرض اليمن كلها وكان يقول للملوك الأطراف ليس أحد منكم كفؤ إلى وأنى أن يتزوج منهم فزوجوه بامرأة من الجن يقال لها ريحانة بنت الشكر وكانت الإنس إذ ذاك ترى الجن وتخالطهم فولدت له بلعمة وهى بلقيس ولم يكن له ولد غيرها وتصديق هذا ما أخبر به ابن ميمونة باسناده عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال كان أحد أبوى بلقيس جنياً قالوا فلما مات أبو بلقيس ولم يخلف ولداً غيرها طمعت فى الملك وطلبت من قومها أن يبايعوها فأطاعها قوم وعصاها آخرون فاختاروا عليها رجلا فملكوه عليهم وافترقوا فرقتين منهم استولت على طرف من أرض اليمن ثم أن هذا الرجل الذى ملكوه أساء السيرة فى أهل مملكته حتى كاد يمد يده إلى حرم رعيته يفجر بهن فأراد أصحابه خلعه فلم يقدروا عليه فلما رأت بلقيس ذلك أدركتها الغيرة فأرسلت إليه وعرضت نفسها عليه وقالت له اجمع رجال قومى واخطبنى منهم فجمعهم وخطبها منهم فقالوا لا نراها تفعل هذا فقال إنما هى التى ابتدأتنى وإنى أحب أن تسمعوا قولها فتشهدوا عليها فلما جاؤها وذكروا لها ذلك قالت نعم إنى أحببت الولد ولم أحبه منذ كنت أرغب عن هذا والساعة قد رضيت له فزوجوها منه فلما زفت عليه خرجت فى ناس كثير من خدمها وحشمها حتى غصت منازله ودوره بهم فلما جاءته سقته الخمر حتى سكر ثم حزت رأسه وانصرفت من الليل إلى منزلها فلما أصبح الناس ورأوا الملك قتيلا ورأسه منصوب على باب داره علموا أن تلك لمنا كحة كانت مكراً وخديعة منها فاجتمعوا إليها وقالوا لها أنت أحق بهذا الملك من غيرك فقالت لولا العار والشنار ما قتلته ولكن رأيته قد عم فساده فأخذتنى الحمية ففعلت به ما فعلت فملكوها واستثبت أمرها فى المملكة وروى ابن ميمون باسناده عن الحسن بن على عن أبى بكر قال ذكرت بلقيس عند رسول الله ﷺ فقال لا يفلح قوم ولوا أمرهم أمرأة قالوا فلما ملكت بلقيس اتخذت قصراً وعرشاً.

(صفة القصر الذى بنته بلقيس)

قال الشعبى روى أن بلقيس لما ملكت أمرت ببناء قصر فحمل إليها خمسمائة اسطوانة من رخام طول كل اسطوانة خمسون ذراعاً فأمرت بها فنصبت على تل قريب من مدينة صنعاء وجعلت بين كل اسطوانتين عشرة أذرع ثم جعلت فيها سقفا منظومة بألواح الرخام وألحم بعضها إلى بعض بالرصاص حتى صارت كأنها لوح واحد ثم بنت فوق ذلك صرحا مربعاً من آجر وجص فى كل زاوية من زواياه قبة من ذهب مشرفة فى الهواء وفيما بين ذلك مجالس حيطانها من ذهب وفضة مرصعة بألوان الجواهر المربعة وجعلت فيه أى فى باب ذلك القصر مما يلى المدينة برجاً من الرخام الأبيض والأخضر والأحمر وفى جوانبه حجر لحجابها ونوابها وحرسها وخدمها وحشمها على قدر مراتبهم (صفة عرشها) كان فى مقدمه من ذهب مفصص باليواقيت الحمر والزمرد الأخضر ومؤخره من فضة مكللة بألوان الجواهر وله أربع قوائم قائمة من ياقوت أحمر وقائمة من ياقوت أخضر وقائمة من زمرد أخضر وقائمة من درأصفر وصفائح السرير من ذهب وعليه سبعون بيتاً وعلى كل بيت باب مغلق وكان طوله ثمانين ذراعاً فى الهواء فذلك قوله عز وجل

وأوتيت

وأوتيت من كل شيء أي مما تحتاج إليه في الملك والآلة والعدة ولها عرش عظيم أي سرير ضخم حقير وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وذلك أنها قالت لوزرائها ما كان يعبد آباؤنا الماضون وقالوا كانوا يعبدون إله السماء قالت وأين هو قالوا هو في السماء وعلمه في الأرض قالت فكيف أعبده وأنا لا أراه ولست أعرف شيئاً أشد من نور الشمس فهي أولى ما ينبغي لنا عبادته فعبدت الشمس من دون الله تعالى وحملت قومها على عبادتها وكانوا يسجدون لها إذا طلعت وإذا غربت (قال) فلما قال ذلك الهدهد لسليمان قال له سليمان سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ثم أن الهدهد دلهم على الماء فاحتفروا الركايا وهي الآبار التي تطو ببطن كل واد فروى الناس والدواب وكانوا قد عطشوا ثم كتب سليمان كتاباً من عبدالله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ بسم الله الرحمن الرحيم السلام على من اتبع الهدى أما بعد أن لا تعلوا علي وأتوني مسلمين قال ابن جريج وغيره لم يزد سليمان على ما قص الله تعالى في كتابه شيئاً وكان أبلغ الناس في كتابه وأقله إملاء. وكذلك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يكتبون حملا ولا يطيلون كتاباً ولا يكثرون قالوا فلما كتب الكتاب طبعه بالمسك وختمه بخاتمه وقال للهدهد إذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم وكن قريباً منهم فانظر ماذا يرجعون أي يردون من الجواب فأخذ الهدهد الكتاب وأتى به إلى بلقيس وكانت بأرض يقال لها مأرب من صنعاء على ثلاثة أيام فوافاها في قصرها وقد غلقت الأبواب وأخذت المفاتيح فوضعتها تحت رأسها ومضت إلى فراشها فأتاها الهدهد وهي نائمة مستلقية على ظهرها فألقى الكتاب على نحرها هذا قول قتادة وقال وهب ابن منبه كانت لها كوة يعني طاقة مستقبلة الشمس تقع الشمس فيها حين تطلع فإذا نظرت إليها سجدت لها فجاء الهدهد إلى تلك الكوة فسدها بجناحيه فارتفعت الشمس ولم تعلم فاستبطأت الشمس فقامت تنظرها فرمى الصحيفة في وجهها قالوا فأخذت بلقيس الكتاب وكانت قارئة كاتبة عربية من قوم تبع ابن شرحبيل الحميري فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت لأن ملك سليمان كان في خاتمه وعرفت أن الذي أرسل هذا الكتاب هو أعظم ملكاً منها وقالت أن ملكاً سكون رسله الطير لملك عظيم فقرأت الكتاب وتأخر الهدهد غير بعيد ثم أنها جاءت حتى قعدت على سرير ملكها وجمعت الملأ من قومها وهم إثنا عشر ألف قيل تحت يد كل منهم مائة ألف مقاتل وكانت تكلمهم وراء الحجاب فإذا أحزنها أمر أسفرت عن وجهها فلما جاؤا وأخذوا مجالسهم قالت لهم بلقيس إني ألقي إلي كتاب كريم أي شريف لشرف صاحبه وقال الضحاك سمته كريماً لأنه كان مختوماً يقال عليه ما أخبرني به أبو حامد الوراق بإسناده عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال كرم الكتاب ختمه وقيل سمته كريماً لأنه مصدر بسم الله الرحمن الرحيم فذلك قوله تعالى إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم أن لا تعلوا علي وأتوني مسلمين ثم قالت يا أيها الملأ أفتوني في أموري وأشيروا علي فيما عرض لي ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون أي تحضرون فقالوا مجيبين لها نحن أولو قوة وأولو بأس شديد عند الحرب والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين تجدينا لأمرك طائعين فقالت لهم بلقيس حين عرضوا أنفسهم للحرب أن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة أي أهانوا أشرافها وكبراءها لكي يستقيم لهم الأمر فصدق الله قولها فقال وكذلك يفعلون أنشدني أبو القاسم الجنيدي في هذا المعنى قال أنشدني أبي في معناه

إن الملوك بلاء حيثما حلوا ... فلا يكن لك في أكنافهم ظل
ماذا تؤمل من قوم إذا غضبوا ... جاروا عليك وإن أرضيتهم ملوا
وإن مدحتهم خالوك تخدعهم ... واستثقلوك كما يستثقل الكل
فاستغن بالله عن أبوابهم كرماً ... إن الوقوف على أبوابهم ذل

قال الله تعالى مخبراً عنها وإني مرسلة إليهم بهدية قال أهدت له صفائح الذهب في أوعية الديباج فلما بلغ في مدينة شمشاط حتى حضر جنازتها فلما دفنت أقمت عند قبرها إلى الليل فلما نمت رأيتها في روضة خضراء والشاب بجانبها وهما يقرآن هذه الآية لمثل هذا فليعمل العاملون.

(وحكي عن الشيخ أبي بكر الشبلي رضي الله تعالى عنه) أنه قال مررت بمجنون في بعض الأيام والصبيان يرجمونه بالحجارة وقد أدموا وجهه وشجوا رأسه فزجرتهم وهم يقولون دعنا نقتله فإنه كافر فقلت وما الذي تبين لكم من كفره فقالوا يزعم أنه يرى ربه ويخاطبه قال الشبلي فمنعتهم عنه وتقدمت إليه فوجدته يحدث نفسه ويضحك ويقول أجميل منك أن تسلط على هؤلاء الصبيان حتى فقال ما الذي يقولون عني فقلت له يقولون أنك ترى ربك وتخاطبه قال فصاح صيحة وغشي عليه فلما أفاق قال ياشبلي وحق من قيمني بحبه وهيمني بقربه لو احتجب عني طرفة عين لتقطعت من ألم البين قال الشبلي فعرفت أنه من الخواص أرباب الإخلاص ثم قلت يا سيدي فما علامة المحبة قال يا شبلي لو قطرت منها قطرة في البحار لصارت سعيراً ولو وضعت منها ذرة على الجبال لصارت هباء منثوراً فكيف بقلوب كثرها الغلام قلقاً وزفيراً وزادها الهيام حرقاً وتحيراً ثم جعل

يقول شعراً:

كشف الحبيب لمن دعاه ستورا
وسقاه كأساً فاغتدى مخموراً
واعتاده حر اللهيب ولم يرد
إلا الحبيب فينال منه حبوراً
يا فوز من كان الحبيب نديمه
وغدا إليه من الجميع مشيرا
فاذا رأيت محبة فى سكره
خلع العذار رأيته مذعورا
من ذا يطيق الصبر عن محبوبه
حاشا المحب يكون عنه صبوراً

(وحكى) عن ذى النون المصرى رضى الله تعالى عنه أنه قال مررت يوماً فى بعض الأسواق فرأيت جنازة محمولة على أربعة رجال وليس معها أحد فقلت والله لأمضين مع هؤلاء وأكون خامسهم لأنال الأجر فمضيت معهم حتى أتوا إلى الجبانة فقلت لهم يا قوم أين ولى هذه الجنازة حتى يصلى عليها فقالوا يا شيخ كلنا فى الأجر سواء ليس فينا أحد يعرفه قال ذو النون فتعجبت من ذلك عجباً شديداً ثم تقدمت وصليت عليه وأنزلناه فى لحده ووارياه بالتراب فلما هموا بالانصراف قلت لهم ما شأن هذا الميت أخبرونى بحاله فقالوا لا نعلم غير أن امرأة اكترتنا لنحمله وهى لاحقة بنا فبينما نحن فى الحديث إذ أقبلت امرأة علينا عليها سيما الخير والصلاح

ذلك سليمان أمر الجن فوهوا له الآجر بالذهب ثم أمر به فألقى فى الطريق فى كل مكان فلما جاؤا رأوه ملقى فى الطريق فى كل مكان قالوا قد جئنا نحمل شيئاً نراه ههنا ملقى لا يلتفت إليه أحد فصفر فى أعينهم ما جاؤا به وقيل كانت أربع لبنات من ذهب (قال وهب بن منبه) وغيره من أهل الكتب عمدت بلقيس إلى خمسمائة جارية وخمسمائة غلام فألبست الجوارى لباس الغلمان الأقبية والمناطق وألبست الغلمان لباس الجوارى وجعلت فى سواعدهم أساور من ذهب وفى أعناقهم أطواقاً من ذهب وفى آذانهم أقراطاً وشنوقا مرصعات بأنواع الجواهر وحملت الجوارى على خمسمائة فرس والغلمان على خمسمائة بردون على كل فرس سرج من ذهب مرصع بالجواهر والياقوت المرتفع وأرسلت إليه أيضا بالمسك والعنبر والعود والالنجوج وعمدت إلى حقه فجعلت فيها درة ثمينة غير مثقوبة وجذع خرزة مثقوبة معوجة الثقب ودعت رجلا من أشرف قومها يقال له المنذر بن عمرو ووضعت إليه رجالا من قومها أصحاب رأى وعقل وكتبت معهم كتابا بنسخة الهدية وقالت فى الكتاب إن كنت نبيا فميز بين الوصائف والوصفاء وأخبرنا بما فيه الحقة قبل أن تفتحها وانقب الدرة ثقبا مستويا وأدخل خيطا فى الخرزة ثم أمرت بلقيس الغلمان فقالت لهم إذا كلمكم سليمان فكلموه بكلام فيه تأنيث وتخنيث يشبه كلام النساء وأمرت الجوارى أن يكلموه بكلام فيه غلظة يشبه كلام الرجال ثم أنها قالت للرسول انظر إلى الرجل إذا دخلت عليه فان نظر إليك نظر غضب فاعلم أنه ملك فلا يهولنك منظره فانا أعز منه وإن رأيته رجلا نشاشا لطيفا فاعلم أنه نبى مرسل فتفهم كلامه ورد الجواب فانطلق الرسل بالهدايا فلما رأى الهدهد ذلك أقبل مسرعا إلى سليمان وأخبره بالخبر كله فأمر سليمان الجن أن يصنعوا له لبنا من الذهب والفضة ففعلوا ذلك ثم أمرهم أن يبسطوا له من موضعه الذى هو فيه إلى تسع فراسخ ميدانا واحد بلبنات الذهب والفضة وأن يجعلوا حول الميدان حيطانا مشرفة من الذهب والفضة ففعلوا ذلك فقال لهم أى الدواب أحسن مما رأيتم فى البر والبحر فقالوا يا نبى الله إنا رأينا فى بحر كذا دواب مختلفة ألوانها لها اجنحة واعرف ونواص فقال سليمان على بها الساعة فأتوه بها فقال شدوها عن يمين الميدان وعن يساره على لبنات الذهب والفضة والقوا لها علوفة فيها ثم قال للجن على بأولادكم فاجتمع خلق كثير فأقامهم فيها عن يمين الميدان وعن يساره ثم قعد سليمان فى مجلسه على سويره ووضع اربعة آلاف كرسى عن يمينه ومثلها عن يساره وامر الشياطين ان يصطفوا صفوفا فراسخ وامر الإنس فاصطفوا فراسخ وامر الوحوش والسباع والهوام والطيور فاصطفوا فراسخ عن يمينه وعن يساره فلما اقبل القوم ودنوا من الميدان ونظروا إلى ملك سليمان ورأوا الدواب التى لم تر اعينهم مثلها تروث على لبن الذهب والفضة تقاصرت إليهم انفسهم ورموا بما معهم من الهدايا.

(وفى بعض الروايات) ان سليمان عليه السلام لما امر بفرش الميدان بلبنات الذهب والفضة وامرهم ان يتركوا فى طريقهم على قدر اللبنات التى معهم فلما رأت الرسل موضع اللبنات خاليا وكل الأرض مفروشة خافوا أن يتهموهم بذلك فطرحوا ما معهم فى ذلك المكان قال فلما جاؤا إلى الميدان ورأوا الشياطين نظروا إلى منظر عجيب ففزعوا منهم فقيل لهم جوزوا فلا خوف عليكم قال فكانوا يمرون على كردوس وكردوس من الجن والإنس والطير والسباع والوحوش حتى وقفوا بين يدى سليمان عليه السلام فنظر اليهم سليمان نظرا حسناً بوجه طلق وقال ما وراءكم فأخبره رئيس القوم بما جاء به وأعطوه كتاب الملكة فلما نظر اليه وقرأه قال لهم أين الحقه فأتى بها فحركها فجاءه جبريل عليه السلام فأخبره بما فى الحقه فقال ان فيها درة ثمينة بلا ثقب وخرزة مثقوبة معوجة الثقب فقال له الرسول صدقت فانقب الدرة وأدخل الخيط فى الخرزة فقال سليمان عليه السلام من لى بثقبها فسأل الإنس فلم يكن عندهم علم ذلك وسأل الشياطين فقالوا له ارسل إلى الأرضة فأرسل اليها فلما اتت أخذت شعرة فى فيها ومرت فى الخرزة حتى خرجت من الجانب الآخر فقال لها سليمان سلى حاجتك قالت ان تصير رزقى فى الشجر قال لك ذلك ثم قال من لهذه الخرزة يسلكها

بالخيط فقالت دودة بيضاء أنا لها يا نبى الله فأخذت الدودة خيطاً فى فيها ودخلت الثقب فخرجت من الجانب الآخر فقال لها سليمان ما حاجتك فقالت أن تصير رزقى فى الفواكه قال لها ذلك ثم أنه ميز بين الجوارى والغلمان بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم فكانت الجارية تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها ثم تجعلها فى اليد الأخرى ثم تضرب به الوجه والغلام يأخذ من الإناء بيديه ويضرب به وجهه وكانت الجارية تصب على باطن ساعدها والغلام على ظهر الساعد وكانت الجارية تصب الماء صباً وكان الغلام يحدر الماء على ساعده حدراً فميز بينهم بذلك ثم رد سليمان الهدية كلها وقال أتمدوننى بمال فما أتانى الله خيراً مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون لأنكم أهل المفاخرة والمكاثرة فى الدنيا ولا تعرفون غير ذلك وليست الدنيا من حاجتى لأن الله تعالى قد مكننى منها وأعطانى ما لم يعط أحداً من العالمين فيها ومع ذلك فالله سبحانه وتعالى أكرمنى بالنبوة والحكمة ثم أنه قال للمنذر بن عمر أمير القوم ارجع إليهم بالهدية فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون إن لم يأتونى مسلمين قالوا فلما رجعت رسل بلقيس إليها من عند سليمان وأخبروها قالت والله ما هذا بملك وما لنا به من طاقة فبعثت إلى سليمان إنى قادمة عليك بملوك قومى حتى أنظر ما أمرك وما تدعو إليه من دينك ثم أن بلقيس أمرت بعرشها فجعل فى سبع أبيات بعضها داخل بعض فى آخر قصر من قصورها ثم أغلقت دونها الأبواب ووكلت به حرساً يحفظونه ثم إنها قالت لمن خلفت على سلطانها احتفظ بمن قبلك وسرير ملكى فلا تخلص إليه أحداً ولا يراه حتى آتيك ثم إنها أمرت منادياً ينادى فى أهل مملكتها ليؤذنهم بالرحيل ثم شخصت إلى سليمان فى اثنى عشر ألف قيل من ملوك اليمن تحت يد كل مائة ألف مقاتل قال ابن عباس وكان سليمان عليه السلام رجلا مهيباً لا يبتدىء بشىء حتى يكون هو الذى يسأل عنه فخرج يوماً فجلس على سرير ملكه فرأى وهجاً قريباً منه فقال ما هذا قالوا يا بلقيس يا رسول الله قال وقد نزلت منا بهذا المكان قالوا نعم قال ابن عباس وكان ما بين الكوفة والحيرة قدر فرسخ فأقبل سليمان على جنوده وقال أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين أى طائعين خاضعين واختلف العلماء فى السبب الذى لأجله أمر سليمان بإحضار العرش فقال أكثرهم لأن سليمان علم إذا أسلمت حرم عليه مالها فأراد أن يأخذ سريرها قبل أن يحرم عليه أخذه بإسلامها (وقال قتادة) لأنه أعجبه صفته لما وصفه الهدهد فأراد أن يراه قبل أن يراها وقيل ليريها قدرة الله تعالى وعظيم سلطانه فى معجزة يأتى بها فى عرشها قال عفريت من الجن وهو المارد القوى أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك من مجلسك الذى تقضى فيه إلى نصف النهار واختلفوا فى اسمه فقال وهب إنه كودى وقال شعيب أنه كوذان وإنى عليه لقرى أى قوى على حمله أمين على ما فيه من الجواهر فقال سليمان أريد أسرع من هذا فقال الذى عنده علم من الكتاب الآية واختلفوا فيه فقال بعضهم هو جبريل عليه السلام وقال آخرون ملك من الملائكة فقال أكثر المفسرين هو آصف بن برخيا بن شمعيا بن ملكيا وكان صديقاً يعلم اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى (حدثنا) ابن ميمونة بإسناده عن زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال الذى عنده علم من الكتاب رجل صالح وكان فى جزيرة من جزائر البحر فخرج ذلك اليوم ينظر من سأكن الأرض وهل يعبد فوجد سليمان فدعا باسم من أسماء الله تعالى فإذا هو بالعرش قد حمل فأتى به سليمان عليه السلام من قبل أن يرتد إليه طرفه فلما رأى سليمان العرش مستقراً عنده محمولا إليه من مأرب إلى الشام فى قدر ارتداد الطرف وهو مدة يسيرة قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه أى لم يقنع بذلك إلا لنفسه حيث استوجب شكره لتمام النعمة ودوامها لأن الشكر قيد النعمة الموجودة وصيد النعمة المفقودة ومن كفر فإن ربى غنى عن شكره كريم بالأفضال عمن يكفر نعمته فقال سليمان عليه السلام نكروا له عرشها أى زيدوا فيه وانقصوا منه وجعلوا أعلاه أسفله وأسفله أعلاه ننظر أتهتدى إلى عرشها فتعرفه أم تكون من الجاهلين الذين لا يهتدون إليه أراد أن يختبر عقلها وإنما حمل سليمان على ذلك ما ذكره وهب بن منبه ومحمد بن كعب

وهى باكية العين حزينة القلب فما وقفت على القبر كشفت وجهها ونشرت شعرها ورفعت يديها إلى السماء وهى تتضرع وتبكى ساعة وتدعو ساعة ثم سقطت إلى الأرض مغشيا عليها ثم أفاقت بعد ذلك وهى تضحك قال ذو النون فقلت لها أخبرينى بخبر هذا الشاب المتوفى وكيف الضحك بعد البكاء فقالت من أنت يرحمك الله فقلت لها ذو النون فقالت والله لولا إنك من أعيان الصالحين ما أخبرتك بخبره ثم قالت يا أخى إن هذا الشاب ولدى وقرة عينى وكان تائها بشبابه لا بسائياب إعجابه لم يترك سيئة إلا ارتكبها ولا معصية إلا سعى إليها وطلبها وقد بارز مولاه بالمعاصى والآثام فحصل له الم عظيم منذ ثلاثة أيام فلما كان فى معاناة الموت قال لى يا أماه سألتك بالله إلا ما قضيت وصيتى إذا أنا مت فلا تعلمى بموتى أحد فإنهم لا يترحمون على لسوء فعلى وكثرة ذنوبى ثم بكى وأنشد يقول شعراً :

لى ذنوب شغلتنى
عن صيامى وصلاتى
تركت جسمى عليلا
مات من قبل وفاتى
ليتنى تبت لربى
من جميع السيئات
أنا عبد لإلهى
مغضب فى الخلوات
بحت جهراً بذنوبى
وعيوبى قاتلات

وغيرهما من أهل العلم أن الشياطين خافت أن يتزوجها سليمان ويستولدها فيفشي إليها أسرار الجن فلا يتمكنون من تسخير سليمان وذريته من بعده فأرادوا أن يزهدوه فيها فأساؤا الثناء عليه وقالوا له أن في عقلها شيئاً وأن رجليها كحافر حمار فأراد سليمان أن يختبر عقلها بتنكير عرشها وينظر إلى قدميها ببناء الصرح فلما جاءت بلقيس قيل لها أهكذا عرشك قالت كأنه هو لشبهته به وكانت قد تركته خلفها في بيت خلف سبعة أبواب مغلقة والمفاتيح معها فلم تقر بذلك ولم تنكر فعلم سليمان كمال عقلها وقال وهب بن منبه) إنما بنى الصرح ليختبر عقلها وفهمها يعاتبها بذلك كما فعلت هي بتوجيهها إليه الوصائف والوصفاء ليميز بين الذكور والأناث فلما جاءت بلقيس قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وهي معظم الماء فكشفت عن ساقيها لتخوضه إلى سليمان فنظر سليمان عليه السلام فاذا هي أحسن الناس ساقاً وقدماً إلا أنها كانت شعراء الساقين فلما رأى سليمان ذلك صرف بصره عنها وناداها أنه صرح ممرد من قوادير وليس بماء فلما جلست قالت له يا سليمان إني أريد أن أسألك عن شيء قال سلي قالت أسألك عن ماء روى ليس من الأرض ولا من السماء وكان سليمان إذا جاءه شيء لا يعلمه سأل عنه الإنس إن كان عندهم علم ذلك وإلا سأل الجن إن علموا وإلا سأل الشياطين فسأل الشياطين عن ذلك فقالوا له ما أهون ذلك انتمر الخيل أن تجري ثم املأ الآنية من عرقها فقال لها سليمان عرق الخيل فقالت صدقت ثم قالت أخبرني عن كون ربك فوثب عن سريره وخر ساجداً وصعق فقامت عنه وتفرقت جنوده فجاء جبريل عليه السلام وقال له يا سليمان يقول لك ربك ما شأنك قال يا جبريل ربي أعلم بما قالت قال فقال الله يأمرك أن تعود إلى سريرك فترسل إليها وإلى من حضرها من جنودك وجنودها فتسألهم عما سألتك عنه ففعل ذلك سليمان فلما دخلوا عليه واستقروا لها عما ذا تسألني قالت عن ماء روى ليس من أرض ولا من سماء فأجيبت قال وعن أي شيء سألتيني أيضاً قالت ما سألتك عن شيء إلا هذا فسأل الجنود فقالوا مثل قولها وأنساهم الله تعالى ذلك وكفى الله سليمان الجواب ثم أن سليمان دعاها إلى الإسلام وكانت قد رأت حال الهدهد والهدية والرسل والعرش والصرح فأجابت وقالت ربي إني ظلمت نفسي بالكفر وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين

(وروى) محمد بن إسحق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه قال سليمان لبلقيس لما أسلمت وفرغ من أمرها اختاري رجلا من قومك حتى أزوجك إياه قالت ومثلي ينكح الرجال يا نبي الله وقد كان لي في ملكي وقومي من السلطان ما كان قال نعم إنه لا يكون في الإسلام إلا ذاك ولا ينبغي لك أن تحرمي ما أحل الله لك قالت زوجني إن كان ولا بد من تبع الأكبر ملك همدان فزوجه إياها ثم ردها إلى اليمن وسلطن زوجها إذا تبع على اليمن ودعا سليمان زوبعة أمير جن اليمن فقال له اعمل لذي تبع ما استعملك فيه قال فصنع لذي تبع المصانع باليمن ثم لم يزل بها ملكا يعمل فيها ما أراد حتى مات سليمان عليه السلام قال فلما حال الحول وبلغ الجن موت سليمان أقبل رجل منهم فسلك تهامة حتى إذا كان في جوف اليمن صرخ بأعلى صوته يا معشر الجن أن سليمان نبي الله قد مات فارفعوا أيديكم قال فعمدت الشياطين إلى حجرين عظيمين فكتبوا فيهما كتاباً المسند يعني خط الحميرية نحن بنينا سلحين وابنيين وبنين صرواح ومرواح وفتقون وهندة وهنيدة ودلوم وهذه الحصون كانت باليمن عملتها الشياطين لذي تبع ولو لا صارخ تهامه لم يرفعوا أيديهم فانطلقوا وتفرقوا وانقضى ملك ذي تبع وملك بلقيس مع ملك سليمان عليه السلام والله أعلم.

(باب في ذكر غزوة سليمان عليه السلام أبا زوجته الجرادة وخبر الشيطان الذي أخذ خاتمه من يده وسبب زوال ملكه

قال الله تعالى (ألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب) وروى محمد بن إسحق عن بعض العلماء أن سليمان أخبر أن في جزيرة من جزائر البحر رجلا يقال له صيدون ملك عظيم الشأن لم يكن للناس إليه سبيل لمكانه في البحر وكان الله قد آتى سليمان في ملكه سلطانا لا يمتنع عليه شيء في بر ولا بحر فخرج إلى تلك المدينة فحملته الريح على ظهرها حتى نزل عليها بجنوده من الجن والإنس فقتل ملكها وسبى ما فيها فأصاب فيما أصاب بنتاً

د قوالت سيأتي وتلاشت
حسناتي قالت ثم بكى بكاء
شديداً وقال آه مما فرطت
في جنب الله آه علي. قلي
ما أفساه ثم قال بالله عليك
يا أماه إذا أنا مت فضعي
خدي على التراب وضعي
قدمك على وجهي وقولي هذا
جزاء من عصى مولاه وترك
أمره واتبع هواه ثم إذا دفنتيني
فقني على قبري وادفني يديك
إلى السماء وقولي اللهم إني
رضيت عنه فارض عنه ففعلت
ما أمرني به وجميع ما أوصاني
عليه ياذا النون فلما رفعت
طرفي إلى السماء سمعت صوتاً
بلسان فصيح وهو يقول
انصرفي يا أماه قد قدمت على
كريم فوجدته راضياً عني
غير غضبان فلما سمعت ذلك
ضحكت واستبشرت وهذا
حديثي يا أختي فانظر إلى كرم
الله تعالى ولطفه بعباده المذنبين
والله تعالى أعلم.

(وحكي عن مالك بن
دينار رضي الله عنه) أنه قال
رأيت بالبصرة قوماً يحملون
جنازة وليس معهم أحد يشيع
الجنازة فسألت عن ذلك فقيل
هذا رجل كان من كبار المذنبين
والعصاة المسرفين قال مالك
فسرت معهم حتى صلينا
عليه وأنزلناه في لحده
وانصرف عنه من كان معه
ثم ملت إلى ظل عند قبره
فنمت فرأيت ملكين قد
نزلا من السماء فشقا قبره
ونزلا أحدهما إليه وقال

لذلك الملك يقال لها جراد لم ير مثلها حسناً وجمالاً فاصطفاها لنفسه ودعاها إلى الإسلام فأسلمت على يده في الظاهر على خيفة منه وقلة ثقة فأحبها حباً شديداً لم يحبه أحداً من نسائه وكانت منزلتها عنده منزلة عظيمة وكانت على منزلتها عنده لا يذهب حزنها ولم ير فأدمعها فشق ذلك على سليمان فقال ويحك ما هذا الحزن الذي لا يذهب والدمع الذي لا يرفأ فقالت إني أذكر أبي وأذكر ملكه وسلطانه وما كان فيه فيحزنني ذلك فقال لها سليمان قد أبدلك الله ملكاً هو أعظم من ملكه وسلطاناً هو أعظم من سلطانه وهداك الله إلى الإسلام وهو خير لك من ذلك كله قالت إن ذلك كذلك ولكنني إذا ذكرته أصابني ما ترى من الحزن فلو أنك أمرت الشياطين يصورون لي صورته في داري التي أنا فيها أراه بكرة وعشية لرجوت أن يذهب ذلك حزني ويسلبني عن بعض ما أجد في نفسي فأمر سليمان الشياطين أن يمثلوا لها صورة أبيها في دارها حتى لا تنكر منه شيئاً فمثلوه لها حتى نظرت إلى أبيها بعينه إلا أنه لا روح فيه فعمدت إليه حين صنعوه فازدرته وقصته وعممته وردته بمثل ثيابه التي كان يلبسها ثم إنها كانت إذا خرج سليمان من دارها تغدو إليه في ولائدها فتسجد له ويسجدون له معها كما كانت تصنع معه في ملكه وتروح إليه كل عشية تفعل معه مثل ذلك وسليمان لا يعلم شيء من ذلك أربعين صباحاً فبلغ ذلك آصف بن برخيا وكان صديقاً لا يرد عن باب سليمان أي ساعة أراد دخول بيته دخل حاضراً أم غائباً فأتاه فقال يا نبي الله كبرت سني ودق عظمي ونفد عمري وقد حان الذهاب مني وقد أحببت أن أقوم مقاماً قبل الموت أذكر فيه من مضى من أنبياء الله تعالى وأثني عليهم بعلمي فيهم واعلم الناس بعض ما يجهلون من كثير من أمورهم فقال افعل فجمع له سليمان الناس فقام فيهم خطيباً فذكر من مضى من أنبياء الله تعالى وأثنى على كل نبي بما فيه وذكر ما فضلهم الله به حتى انتهى إلى سليمان فقال له ما كان أحكمك في صغرك وأروعك في صغرك وأفضلك في صغرك وأحكم أمرك في صغرك وأبعدك من كل ما يكره في صغرك ثم انصرف فوجد سليمان في نفسه من ذلك حتى امتلأ غيظاً فلما دخل سليمان داره أرسل إليه فلما أتاه قال له يا آصف ذكرت من مضى من أنبياء الله تعالى فأثنيت عليهم خيراً في كل زمانهم وعلى كل حال من أمورهم فلما ذكرتني أثنيت علي بخير في صغري وسكت عما سوى ذلك في كبري فما الذي أحدثت في آخر عمري فقال له أن غير الله يعبد في دارك أربعين صباحاً في هوى امرأة فقال سليمان في داري قال نعم دارك فقال إنا لله وإنا إليه راجعون لقد علمت أن ما قلت إلا عن شيء بلغك ثم أن سليمان رجع إلى داره فكسر ذلك الصنم وعاقب المرأة وولائدها ثم أنه أمر بثياب الطهر فأتي بها وهي ثياب لا يغزلها إلا الأبكار ولا تمسها إلا امرأة ذات دم فلبسها ثم خرج إلى فلاة من الأرض وحده وأمر برماد ففرش ثم أقبل تائباً إلى الله تعالى حتى جلس على ذلك الرماد وتمعك فيه بثيابه تذللاً وتضرعاً إليه ويبكي ويدعو ويستغفر مما كان في داره ويقول فيما يقول رب ما كان ينبغي لآل داود أن يعبدوا غيرك وأن يقروا في دورهم وأهاليهم عبادة غيرك فلم يزل كذا يومه حتى أمسى ثم رجع إلى داره وكانت له وليدة يقال لها أمينة كان إذا دخل مذهبه أو أراد قضاء حاجة أو أراد إصابة امرأة من نسائه وضع خاتمه عندها حتى يتطهر وكان لا يمس خاتمه إلا وهو مطهر لأن خاتمه كان من ياقوتة خضراء أتاه بها جبريل عليه السلام مكتوب عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ وكان ملكه في خاتمه فوضعه يوماً من الأيام عندها كما كان يضعه عند دخول مذهبه فأتاها الشيطان صاحب البحر على صورة سليمان وكان اسمه صخراً فظنته سليمان لأنها لم تنكر منه شيئاً فقال يا أمينة خاتمي فناولته إياه لجهلها في يده ثم خرج حتى جلس على سرير سليمان فعكفت عليه الطير والجن والإنس والشياطين فخرج سليمان فأتى إلى أمينة وقد تغير من حاله ونفسه ما كان معهوداً له عند كل من رآه فقال يا أمينة خاتمي فقالت ومن أنت قال سليمان بن داود فقالت كذبت لست سليمان فقد جاء سليمان وأخذ خاتمه وهو جالس على سرير ملكه فعرف سليمان أن الخطيئة أدركته فخرج سليمان وجعل يقف على الدار من دور بني إسرائيل فيقول أنا سليمان بن داود فيحثون عليه التراب ويسبونه ويقولون

لصاحبه اكتبه من أهل النار فما فيه جارحة سلمت من المعاصي والأوزار فقال له صاحبه يا أخي لا تعجل عليه اختبر عينيه فقال قد اختبرتهما فوجدتهما مملوءتين بالنظر إلى محارم الله تعالى قال فاختبر سمعه قال فاختبرته فوجدته مملوءاً بسماع الفواحش والمنكرات قال فاختبر لسانه قال فاختبرته فوجدته مملوءاً بالخوض وارتكاب المحرمات قال فاختبر يديه فقال اختبرتهما فوجدتهما مملوءتين بتناول الحرام وما لا يحصل من اللذات والشهوات قال فاختبر رجليه فقال اختبرتهما فوجدتهما في سعي النجاسات والأمور المذمومات فقال الآخر أخي لا تعجل عليه ودعني أنزل إليه فنزل الملك الثاني إليه ومكث عنده ساعة وقال يا أخي قد اختبرته فوجدته مملوءاً بالإيمان فاكتبه سعيداً مرحوماً ففضل الله عظيم ورحمته وسعت كل شيء قال مالك فانتبهت من منامي متعجباً مما رأيت فسمعت قائلاً يقول هذا الكلام :

لما رأوه مبعداً عن طاعتي
حكموا بأني لا أجود برحمتي
جنني أجل ولن يضيق علي الورى
من ذا يحد أوامري ومشيتي

قال مالك وما حصلته هذه

السعادة لهذا الرجل إلا بعناية سابقة وما تحصل هذه لكل عاص فلا يغتر الإنسان بهذه فالعاصون كلهم في خطر المشيئة بل الطائعون لا يدرون بماذا يختم لهم فنسأل الله تعالى حسن الخاتمة والعفو والمغفرة بمعونته ورحمته وفضله وعفوه وكرمه وإحسانه وجوده ومنه آمين

(وحكى عنه أيضاً عفا الله تعالى عنه) أنه قال سألني بعض أصحابي عن سبب توبتي فقلت له كنت منهمكا على شرب الخمر فاشتريت جارية جميلة فاستولدتها فولدت لي بنتاً نفيسة ذات حسن وجمال فأحببتها وشغفت بها فلما كبرت وترعرعت ألفتني وألفتها فكنت إذا وضعت آنية السكر تجاذبني عليه وتهريقه على الأرض فلما بلغ عمرها سنتين ماتت فأكمدني الحزن عليها فلما كان ليلة النصف من شهر شعبان وكانت ليلة جمعة بت مملوءا بالخمر فلما نمت رأيت كل أهل القبور قد قاموا من قبورهم وحشروا إلى الله عز وجل وكأني قد حشرت معهم فبينما أنا كذلك إذ سمعت صوتا من خلفي فالتفت نحوه فاذا بثعبان كأنه نخلة سحوق قد لحق بي وفتح فاه ليلتقمني ففررت منه مسرعا فزعا مرعوبا وإذا بشيخ نقي الثياب عليه رائحة طيبة وهو جالس في طريقي فسلمت عليه فرد علي السلام فقلت له اغثني من هذا

(قال)

انظروا إلى هذا المجنون وأي شيء يزعم يقول إنه سليمان فلما رأى سليمان ذلك خرج متوجهاً إلى البحر فكان ينقل الحيتان لأصحاب البحر من البحر إلى السوق فيعطونه كل يومين سمكتين فاذا أمسى باع إحدى السمكتين بارغفة وشوى الأخرى ليأكلها فمكث كذلك أربعين صباحاً عدة ما كان ذلك الوثن يعبد في داره فأنكر آصف بن برخيا وعلماء بني إسرائيل حكم عدو الله الشيطان في ذلك الأربعين يوماً فقال آصف يا معشر بني إسرائيل هل رأيتم من اختلاف حكم سليمان ما رأيت قالوا نعم فقال أمهلوني حتى أدخل على نسائه وأسالهن هل أنكرن منه في خاصة أمره ما أنكره من عامة أمر الناس وعلانيته فدخل على نسائه فقال لهن ويحكن هل أنكرتن من أمر سليمان بن داود ما أنكرناه فقلنا أشد ما يدع امرأة منا في دمها ولا يغتسل فقال آصف إنا لله وإنا إليه راجعون إن هذا لهو البلاء المبين ثم إنه خرج إلى بني إسرائيل فقال ما في الخاصة أعظم مما في العامة فلما مضت أربعون صباحاً زال الشيطان عن مجلسه ثم مر في البحر فقذف الخاتم فيه فابتلعته سمكة فاصطادها بعض الصيادين وقد عمل له سليمان صدر يومه ذلك حتى إذا كان العشاء أعطاه السمكتين وكان من جملتها السمكة التي ابتلعت الخاتم فحمل سليمان سمكتيه فباع التي ليس في بطنها الخاتم بالأرغفة ثم عمد إلى السمكة الأخرى فشقها ليشويها فوجد خاتمه في جوفها فأخذه فجعله في يده ووقع ساجداً فعكف عليه الطير والجن والإنس والشياطين وأقبل على الناس وعلم أن الذي دخل عليه لما أحدث في داره من عبادة الوثن فرجع إلى ملكه وأظهر التوبة من ذنوبه ثم أمر الشياطين وقال ائتوني بصخر المارد فطلبته الشياطين حتى أتت به فنحت له صخرة أدخله فيها ثم سد عليه بأخرى ثم أوثقها بالحديد والرصاص ثم أمر فقذف في البحر فهذا حديث وهب ابن منبه (وقيل) سبب ذلك ما أخبرنا شعيب بن محمد العجلي باسناده عن سعيد بن المسيب أن سليمان ابن داود احتجب عن الناس ثلاثة أيام فاوحى الله إليه أن يا سليمان احتجبت عن عبادي ثلاثة أيام فلم تنظر في أمورهم ولم تنصف مظلوماً من ظالم وذكر حديث الخاتم وأخذ الشيطان إياه كما رويناه وقال في آخره قال علي كرم الله وجهه ذكرت ذلك للحسن فقال ما كان الله تعالى ليسلط على نسائه ونعوذ بالله ان يسلط الشيطان على نساء أنبيائه بالمباشرة وكيف يعتقد ذلك أحد وقد نزه الله تعالى أنبيائه عن مثل هذا القبيح وهذا القول أصح الأقوال وأليق بانبياء الله تعالى وأقرب إلى التقوى (وقال) بعض المفسرين وكان سبب فتنة سليمان أنه امر أن لا يتزوج امرأة إلا من بني إسرائيل فتزوج امرأة من غيرهم فعوقب على ذلك (وقيل) كان سليمان عليه السلام لما اصاب صيدون اعجب بها وعرض عليها الإسلام فامتنعت فخوفها سليمان فقالت له إن اكرهتني على الإسلام قتلت نفسي فخاف سليمان ان تقتل نفسها فتزوج بها مشركة فكانت تعبد صنما لها من ياقوتة اربعين صباحاً في خفية من سليمان إلى ان اسلمت فعوقب سليمان بزوال ملكه اربعين يوماً والله تعالى اعلم.

(باب في ذكر وفاة سليمان عليه السلام)

قال الله تعالى (فلما قضينا عليه الموت) الآية قال اهل التاريخ لبث سليمان في ملكه بعد ان رده الله تعالى عليه تعمل له الجن والشياطين ما شاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات وغير ذلك ويعذب من الشياطين من يشاء ويطلق من يشاء ويأمرهم بحمل الحجارة الثقيلة ونقلها إلى حيث احب قال فتزيى لهم إبليس وهم دائبون في العمل فقال كيف انتم قالوا اما لنا طاقة مما نحن فيه فقال إبليس تذهبون تحملون الحجارة وترجعون فراغاً لا تحملون شيئاً قالوا نعم قال فانتم في راحة قال فابلغت الريح ذلك سليمان فأمرهم ان يحملوا اذا هبين وراجعين فقال لهم إبليس اتنامون بالليل قالوا نعم قال فأنتم في راحة قال فابلغت الريح ذلك سليمان فأمرهم ان يعملوا بالليل والنهار فتراءى لهم إبليس فشكوا إليه انهم يعملون بالليل والنهار وانهم في العمل فقال كيف انتم قالوا لا طاقة لنا فيما نحن فيه فقال لهم إبليس وما يشاء وعله قالوا نعم قال فتوقعوا الفرج وقد بلغ الأمر منتهاه فلم يلبثوا إلا قليلا وقدمات سليمان عليه السلام

(قا ابن عباس وغيره كان سليمان عليه السلام يحتجب فى بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين وأقل من ذلك وأكثر يدخل فيه بطعامه وشرابه فدخله فى المرة التى مات فيها وكان بدء أمره فى ذلك أنه لم يكن يوماً يصبح فيه إلا نبت له فى بيت المقدس شجرة فيسألها سليمان ما إسمك فتقول الشجرة إسمى كذا وكذا فيقول لأى شىء أنت فتقول لكذا وكذا فيأمر بها فتقطع فإن كانت نبتت لغرس كتب عليها غرسها فى مكان كذا وكذا وإن كانت لدواء كتب عليها لكذا وكذا فبينما هو يصلى يوماً إذ رأى شجرة نابتة بين يديه فقال لها ما إسمك قالت الخروبة قال ولأى شىء نبتك قالت لخراب هذا المسجد فقال سليمان ابن داود ما كان الله تعالى ليخرب به وأنا حى أنت التى على وجهك هلاكى وخراب بيت المقدس فنزعها وغرسها فى حائطه ثم قال اللهم غم على الجن موتى حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب وكانت الجن تخبر الإنس إنهم يعلمون من الغيب أشياء وإنهم يعملون فى غد ثم أن سليمان دخل المحراب فقام يصلى متكئاً على عصاه فمات ثم بقى على ذلك الحال ولم يعلم بذلك من الشياطين وهم مع ذلك يعملون ويخافون أن يخرج فيعاقبهم (وقال) عبد الرحمن بن زيد قال سليمان لملك الموت إذا أمرت بى فآذنى فأتاه فقال يا سليمان قد أمرت بك وقد بقى لك سويعة فدعا الشياطين فبنوا له صرحاً من قوارير ليس له باب فقام يصلى واتكأ على عصاه فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متكىء على عصاه قالوا وكانت الشياطين تجتمع حوله وحول محرابه ومصلاه أينما كان وكان للمحراب بابان باب بين يديه وباب خلفه فقال بعض الشياطين لصاحبه إن كنت جليداً فادخل من الباب الذى بين يديه واخرج من الباب الذى خلفه فدخل ذلك البعض ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان فى المحراب إلا احترق فمر ذلك الشيطان فلم يسمع صوته ثم رجع فلم يسمع فوقف بالبيت فلم يحترق فنظر إلى سليمان وقد سقط ميتاً فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات ففتحوا عليه وأخرجوه ووجدوا منسأته وهى العصا بلغة الحبشة قد أكلتها الأرضة فلم يعلموا منذ كم مات فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها يوماً وليلة ثم حسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة وكانوا يعملون بين يديه وينظرون إليه ويحسبون أنه حى ولا ينكرون احتباسه عن الخروج إلى الناس لطول صلاته قبل ذلك (وفى رواية ابن مسعود) فمكثوا يدأبون له بعد موته حولاً كاملاً فأيقن الناس أن الجن كانوا يكذبون فى ادعائهم علم الغيب فلو أنهم علموا الغيب لعلموا موت سليمان ولم يلبثوا فى العناء والعذاب سنة يعملون له ثم أن الشياطين قالوا الأرضة لو كنت تأكلين الطعام لأتيناك بأطيب الطعام ولو كنت تشربين الماء لسقيناك أعذب الشراب ولكنا ننقل إليك الماء والطين شكراً لك فالذى يكون فى جوف الخشب فهو ما تأتيها به الشياطين والشياطين تسكن إليها فذلك قوله تعالى (فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض يأكل منسأته) الآية (قال أهل التاريخ) كان عمر سليمان عليه السلام ثلاثاً وخمسون سنة ومدة ملكه منها أربعون سنة وذلك أنه ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة وابتدأ فى بيت المقدس لأربع سنين مضين من ملكه ثم ملك من بعد سليمان ابن له يقال له رحيعم وكان قد استخلفه فنبأه الله وكان نبياً ولم يكن رسولاً ثم قبض وكان ملكه سبع عشرة سنة ثم ملكهم بعده إبنه آفيا بن رحيعم وكان ملكه ثلاثاً وستين سنة ثم ملك بعده إبنه آسا بن آفيا وكان رجلا صالحاً وكان أعرج يعتريه عرق النسا فطمع فيه الملوك لضعفه وافترقت ملوك بنى إسرائيل فعراهم ملك من ملوك الهند يقال له روح الهند فى جمع كثيرة وقبيلة كبيرة فبعث الله عليهم الملائكة فهزمتهم فقصدوا البحر حتى إذا ركبوا جميعاً بعث الله عليهم الأرياح والأمواج فضربت سفنهم بعضا فى بعض فتكسرت فغرق روح الهند ومن كان معه اضطربت الأمواج حتى ألقت أثقالهم وأموالهم وسلبهم إلى حملة بنى إسرائيل ونودوا أن خذوا ما غنمكم الله تعالى وكونوا له من الشاكرين ثم لم تزل تغزوهم الملوك ملك بعد ملك من ملوك العراق وغيرهم فيهلكهم الله تعالى إلى أن ظهر فيهم الظلم والفساد وفشت فيهم المعاصى وعبد بعض ملوك بنى إسرائيل الأصنام من دون الله تعالى فغضب الله عليهم بكفرهم ومعصيتهم وسلط عليهم بختنصر

الثعبان فقال الشيخ إلى ضعيف وهذا أقوى منى ولكن أسرع فى الهرب فلعل الله تعالى يسخرك من ينجيك منه ففررت هارباً حتى صعدت على شرف من شرائف القيامة وأشرف على طبقات النيران والثعبان فى طلبى فكدت أن أسقط فى النار من فزعى منه فصاح صائح من النار يا عزيز ارجع لست من أهلها فاطمأن قلبى لذلك ورجعت إلى الشيخ فقلت له يا شيخ استغثت بك واستجرت فأبيت أن تجيرنى من هذا الثعبان فلم لم تجيرنى قال فبكى وقال يا مالك ما بلغك إنى ضعيف صرت إلى هذا الجبل فإن فيه ودائع المسلمين عسى أن يكون لك فيها وديعة تنصرك وتجيرك من عدوك وهو أقوى منى قال مالك فسرت إلى الجبل فإذا هو جبل عظيم وفيه كرات مخرمة وستور معلقة على كل كوة ستر من الذهب الأحمر مرصع باليواقيت والدر واللؤلؤ والجوهر وإذا ملك ينادى ارفعوا الستور وأشرفوا كلكم فلعل أن يكون لهذا البائس فيكم وديعة تجيره من عدوه قال مالك فرفعت الستور وأشرفت أطفال على بوجوه كالأقمار فصاح بعضهم على بعض أشرفوا كلكم فلقد قرب منه الثعبان وهو متحير فى أمره قال مالك فأشرفوا كلكم على

فنظرت فاذا إبنتى فيهم فلما رأتنى بكت وقالت هذا أبى والله ثم أشارت بيدها إلى الثعبان فولى هارباً ومدت يدها إلى فتعلقت بها فجذبتنى وأدخلتنى مكانا هى فيه يكل عنه الوصف فحمدت الله تعالى على ذلك فقرأت إبنتى قوله ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله قال مالك فبكيت عند ذلك وقلت لها أنتم تعرفون القرآن فقالت نعم فقلت لها أخبرينى عن هذا الثعبان الذى أراد أن يهلكنى فقالت ياولدى هذا عملك السوء قويته على نفسك حتى كاد أن يلقيك فى النار فلولا أنك لم تكن من أهلها لوقعت فيها فقلت لها ومن هذا الشيخ الضعيف الذى استغثت به فلم يغثنى فقالت هذا عملك الصالح أضعفته حتى لم يكن له قدرة على أن يدفع عنك شيئاً فقلت لها ما تصنعون ههنا فقالت نحن مقيمون ههنا حتى تقوم الساعة ننتظر قدومكم علينا ينشفع لكم قال مالك فانتبهت من منامى فلما أصبحت كسرت أوانى الخمر وتبت إلى الله تعالى فكان ذلك سبب توبتى والحمد لله على ذلك والله أعلم

(وحكى عن بعضهم رضى الله سبحانه وتعالى عنه أنه قال) بينما أنا فى الطواف وكانت ليلة مظلمة إذ سمعت صوت حزين ينطق بحال حزين وهو يقول يا كريم لطفك القديم فان قلبى على

(مجلس فى قصة بختنصر وخبر شعيا وأرمياء ودانيال وعزير عليهم وعلى الأنبياء السلام وما يتصل به)

قال الله تعالى وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب إلى قوله عز وجل وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا

(قصة شعيا عليه السلام)

قال محمد بن إسحق وغيره من أهل السيرة والأخبار كان مما أنزل الله تعالى على موسى خبر بنى إسرائيل من أحداثهم وما هم فاعلون بعده كما قال الله تعالى (وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا) إلى قوله حصيرا فكانت بنو إسرائيل يركبون الأحداث والذنوب وكان الله تعالى يتجاوز عنهم تعطفاً عليهم إحساناً إليهم وكان أول ما نزل بهم بسبب ذنوبهم من تلك الوقائع كما أخبر الله تعالى على لسان موسى عليه السلام أن ملكاً منهم كان يدعى صديقة وكان الله تعالى إذا ملك ملكاً من الملوك بعث له نبياً يسدده ويرشده ويكون واسطة فيما بينه وبين الله تعالى فيما يحدث من أمورهم ولا ينزل عليهم كتباً وإنما يأمرهم أن يأمروهم بأحكام التوراة والنهى عن المعاصى والمنكرات والدعاء إلى ما تركوا من الطاعات فلما ملك ذلك الملك بعث الله تعالى شعيا ابن أمضيا وذلك قبل مبعث زكريا ويحيى وعيسى وشعيا هو الذى بشر ببيت المقدس حين شكا إليه الخراب فقال أبشر فانه يأتيك راكب الحمار ومن بعده صاحب البعير فملك ذلك الملك بنى إسرائيل وبيت المقدس زماناً فلما انقضى ملكه فيهم وعظمت فيهم الأحداث الرديئة وشعيا معه فبعث الله عليهم سنجاريب ملك بابل فنزل هو وجنوده فى ستمائة ألف فأقبل سائراً حتى نزل حول بيت المقدس والملك مريض فى ساقه قرحة شديدة فجاءه إليه شعيا فقال له يا ملك بنى إسرائيل أن سنجاريب ملك بابل قد نزل هو وجنوده فى ستمائة ألف راية وأقبل سائراً حتى نزل بيت المقدس وقد هابهم الناس وتفرقوا منهم فكبر ذلك على الملك وقال يا نبى الله هل أتاك وحى من الله فيما حدث فتخبرنا به كيف يفعل الله بنا ويبعدونا سنجاريب وجنوده فقال النبى لم يأت وحى فبينما هم كذلك إذا أوحى الله تعالى إلى شعيا عليه السلام أن ائت ملك بنى إسرائيل فأمره أن يوصى بوصيته ويستخلف على مملكته من يشاء من أهل بيته وعترته فأتى شعيا صديقه فقال أن ربك قد أوحى إلى أن آمرك أن توصى بوصيتك وتستخلف من شئت على ملكك من أهل بيتك فانك ميت فلما قال ذلك شعيا لصديقه أقبل على الله تعالى وصلى وعا وبكى وقال فى دعائه وهو يبكى ويتضرع إلى الله تعالى بقلب مخلص وظن صادق اللهم رب الأرباب وإله الآلهة القدوس المقدس يا رحمن يا رحيم يا رؤف يا من لا تأخذه سنة ولا نوم اذكرنى ببنيتى وفعلى وحسن قضائى فى بنى إسرائيل وذلك كله كان منك وأنت أعلم به منى سرى وعلانيتى لك ثم أن الله استجاب عاءه ورحمه وكان عبداً صالحاً فأوحى الله تعالى إلى شعيا وأمره أن يخبر صديقه الملك أن ربه قد استجاب له ورحمه وقبل منه وقد أخر أجله خمس عشرة سنة وأنجاه الله من عدوه سنجاريب ملك بابل وجنوده فأتى إليه شعيا وأخبره بذلك فلما قال له ذلك ذهب عنه الوجع وانقطع عنه الهزال وخر ساجداً لله تعالى وقال يا إلهى وإله آبائى لك سجدت وسبحت وكبرت وعظمت أنت الذى تعطى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء عالم الغيب والشهادة أنت الأول والآخر والظاهر والباطن وان ترحم وتستجيب دعوة المضطرين أنت الذى أجبت دعوتى ورحمت تضرعى فلما رفع رأسه أوحى الله تعالى إلى شعيا أن قل للملك صديقة أن يأمر عبداً من عبيده فيأتيه بماء التين فيجعله على قرحته فيشفى ففعل ذلك فبرأ فقال الملك لشعيا سل ربك أن يجعل لنا علماً بماء وصانع بعدونا هذا فقال الله لشعيا قل له إنى كفيتك عدوك هذا وأنجيتك منه وإنهم سيصبحون موتى كلهم إلا سنجاريب وخمسة نفر من كبرائه وكتابه فلما أصبحوا جاءهم صارخ يصرخ على باب المدينة يا ملك بنى إسرائيل قد كفاك الله عدوك فأخرج فان سنجاريب ومن معه قد هلكوا فلما خرج الملك التمس سنجاريب فلم يوجد فى الموتى فبعث الملك فى طلبه فأدرك

الطالب هو ومن معه فى خمسة نفر من كبرائه فى مغارة أحدهم بختنصر فجعلوهم فى الجوامع ثم أتوا بهم ملك بنى إسرائيل فلما رآهم خر ساجداً لله تعالى ثم كفاهم الله إياه تذكرة وعبرة ثم لبث سنجاريب بعد ذلك سبع سنين ثم مات واستخلف من بعده بختنصر وكان ابن ابنه وكان بختنصر يعمل كما يعمل جده ويقضى بقضائه فلبث سبعة عشر سنة ثم قبض الله تعالى ملك بنى إسرائيل صديقه فرجع أمر بنى إسرائيل وتنافسوا فى الملك حتى قتل بعضهم بعضاً وظهر فيهم البغى والفساد ونبيهم شعيا فيهم لا يرجعون إليه ولا يقبلون قوله فلما فعلوا ذلك قال الله تعالى لشعيا عليه السلام قم فى قومك بوح على لسانك فلما قام النبى أطلق الله لسانه بالوحى فقال ياسماء اسمعى ويا أرض أنصتى فإن الله أراد أن يقضى شأن بنى إسرائيل مدين رباهم بنعمته واصطفاهم لنفسه وخصهم بكرامته وفضلهم على عباده واستقبلهم بالكرامة وهم كالغنم الضائعة التى لا راعى لها فأوى شاردها وجمع ضالها وجبر كسيرها وداوى مريضها واسمن هزيلها وحفظ سمينها فلما فعل ذلك بطرت فتناطحت كباشها فقتل بعضهم بعضاً حتى لم يبق منهم عظم صحيح يجبر إليه كسير فويل لهذه الأمة الخاطئة الذين لا يدرون أجاءهم الخير أم الشر وإن البعير يذكر وطنه فيئتابه وإن الحمار يذكر الآرى الذى يشبع عليه فيراجعه وأن الثور يذكر المسرح الذى يسرح فيه فيئتابه وإن هؤلاء القوم لا يدرون من أين جاءهم الخير وهم أولوا الألباب والعقول ليسوا ببقر ولا حمير إنى ضارب لهم مثلا فليسمعوه قل لهم كيف ترون أرض كانت خراباً موتاً فبقيت خراباً زماناً طويلا لا عمران فيها وكان لها رب حكيم قوى فأقبل عليها بالعمارة وكره أن تخرب أرضه فأحاط عليها جداراً وشيد فيها قصراً وأجرى نهراً وأنبت عليها غرساً من الزيتون والرمان والنخيل والأعناب وأنواع الثمار كلها وولى ذلك واستحفظه ذا رأى حفيظاً قوياً أميناً فانتظرها فلما أطلعت جاء طلعها خرنوباً فقال بئست الأرض هذه نرى أن يهدم جدرها وقصرها ويفيض ماء نهرها ويحرق غرسها حتى تصير كما كانت خراباً أول مرة موتاً لا عمران فيها فقال الله تعالى قل لهم أن الجدار ذمتى وأن القصر شريعتى وأن النهر كتابى وأن القيم نبيى والغراس هم وأن الخرنوب الذى اطلع الغراس أعمالهم الخبيثة وإنى قد قضيت عليهم قضاءهم على أنفسهم وإنه مثل ضربه الله لهم فرهم يتقربوا إلى بذبح البقر والغنم وليس ينالنى اللحم ولا آكله ولكن يتقربوا إلى بالتقوى والكف عن ذبح النفس التى حرمتها أيديهم مخضوبة منها وبناتهم مزملة بدمائها ويشيدون لى البيوت والمساجد ويطهرون أجوافها وينجسون قلوبهم وأجسادهم وبدنسونها فأى حاجة إلى تشييد البيوت ولست أسكنها وأى حاجة لى إلى تزويج المساجد ولست أدخلها وإنما أمرت برفعها لأذكر فيها وأسبح ولتكن معلماً لمن أراد أن يصلى فيها يقولون لو كان الله يقدر على أن يجمع ألفتنا لجمعها ولو كان الله يقدر أن يفقه قلوبنا لفقهها فأعمد إلى عودين يابسين ثم إبنهما وهم فى أجمع ما يكون فقل للعودين أن الله يأمركما أن تكونا عوداً واحداً فلما قال لهما ذلك اختلطا فصارا عوداً واحداً فقال الله تعالى قل لهما إنى أمرت أن أؤلف بين العودين اليابسين فكيف لا أقدر على ألفتهم إن شئت أم كيف لا أقدر على أن أفقه قلوبهم وأنا الذى صورتهم يقولون صمنا فلم يرفع صيامنا وصلينا فلم تنور قلوبنا وتصدقنا فلم تزك صدقاتنا وإن دعونا بمثل حنين الجمال وبكينا بمثل عواء الذئاب فى كل ذلك لا يسمع ولا يستجاب لنا قال الله تعالى فسلهم ما الذى يمنعنى أن أستجيب لهم ألست أسمع السامعين وأنظر الناظرين وأقرب المجيبين وأرحم الراحمين أذات يدى قلت كيف ويداى مبسوطتان بالخير أنفق كيف أشاء مفاتيح الخزائن عندى لا يفتحها غيرى أم يقولون وحمتى ضاقت فكيف ورحمتى وسعت كل شىء إنما يتراحم المتراحمون بفضلى أم يقولون البخل يعترينى أو لست أكرم الأكرمين

العهد مقيم قال قطاير فلما سمع ذلك حتى أشرفت على الموت فقصدت نحوه فإذا هى امرأة فقلت السلام عليك يا أمة الله فقالت وعليك السلام يا عبد الله فقلت لها أسألك بالله العظيم ما العهد القديم الذى قلدك عليه مقيم فقالت يا هذا لولا إنك أقسمت على بإجبار ما أطلعتك على الأسرار أنظر إلى هذا الصبى الذى بين يدى فنظرت فإذا بصبى يغط فى نومه ووجهه كالقمر فقالت خرجت من بلدى وأنا حاملة به لأحج هذا البيت فركبت البحر فى سفينة وسرنا فبينما نحن كذلك إذ خرجت علينا ريح فكسرت المركب وغرق ركابها فنجوت على لوح فبينما أنا على تلك الحالة إذ أخذنى الطلق فوضعت هذا الصبى فبينما هو فى حجرى إذا برجل ملاح من رجال السفينة قد وصل إلى وحصل معى على ذلك اللوح فقال والله ما زلت أهواك وأنا فى السفينة وقد حصلت معك الآن فمكنينى من نفسك وإلا رميتك فى البحر فقلت يا هذا ويحك أما كان لك فيما رأيت تذكرة وعبرة فقال لى قد رأيت ذلك مراراً عديدة ونجوت وأنا لا أبالى ثم ألح على فخفت منه وقلت له مهلا حتى ينام هذا الصبى فأخذه من حجرى ورمى

به فى البحر فلما رأيت جراءته وما فعل بالصبى طار قلبى وزاد كربى فرفعت طرفى إلى السماء وقلت يا من يحول بين المرء وقلبه حل بينى وبين هذا الفاسق فوعزته وجلاله ما فرغت من الكلام إلا ودابة البحر أخرجت رأسها واختطفته من على اللوح وغاصت به فى الماء فحمدت الله تعالى على ذلك وصرت وحدى على ذلك اللوح فزاد شوقى إلى ولدى وقرة عينى وبكيت على فقده بكاء شديدا وأنشدت شعرا :

قرة العين حبيبى ولدى
ضاع من الدهر جلدى
إن يكن جسمى غريقا فلقد
ظللت أشكوا احتراق الكبد
يا إلهى قدترى ماحل بى
فافرغ الصبر على سيدى
فاجمع الشمل وكن لى راحما
فرجائى فيك أقوى عددى
قالت ثم بقيت يومى إلى الليل وحيدة فريدة فلما أصبح الله بالصباح إذا أنا بقلع يلوح فى البحر فما زالت الأمواج تقذفه والرياح تسوقه حتى وصل إلى فاذا هو بسفينة عظيمة فأخذونى من على ذلك اللوح ووضعونى بينهم فنظرت فاذا بولدى هذا بينهم فنظرت فاذا بولدى هذا بينهم فترامیت عليه وقلت لهم يا قوم من أين لكم هذا الصبى فقالوا بينما نحن سائرون إذ جئت السفينة بنا فنظرنا فاذا بدابة كأنها

وأنا الفتاح بالخير ألست أجود من أعطى وأكرم من سئل ولو أن هؤلاء القوم نظروا لأنفسهم بالحكمة التى نورت فى قلوبهم فتدبروها ولم يشتروا بها الدنيا ولم يصروا وتيقنوا أن أنفسهم هى أعدى العداة لهم فكيف أرفع صيامهم وهم يلبسونه بالزور ويتقوون عليه بطعمة الحرام وكيف أنور صلاتهم وقلوبهم طاغية تركن إلى من يحاربنى وينتهك محارمى أم كيف تركوا عندى صدقاتهم وهم يتصدقون بأموال غيرهم وإنما أجزى عليها أهلها المغصوبين أم كيف أستجيب لهم دعاء وإنما هو قول بألسنتهم والعقل من ذلك بعيد إنما أستجيب قول المستضعف المسكين وأن من علامة رضاى رضا المسكين ولو رحموا المساكين وقربوا الضعفاء وانصفوا المظلوم ونصروا المغصوب وعالوا الغائب وأدوا إلى الفقير واليتيم والأرملة والمسكين حقه ولو كان ينبغى أن أكلم البشر إذا لكلمتهم وكففت أذاهم وكنت نور أبصارهم وسمع آذانهم ومعقول قلوبهم وأعمرت أركانهم وكنت قوة أيديهم وأرجلهم وكنت ألسنتهم إلا أنهم يقولون يقولون لما سمعوا كلامى وبلغتهم رسالتى إنها أقاويل منقولة وأحاديث متواترة وتآليف فيما يؤلف السحرة والكهنة وزعموا أن لو يشاؤا أن يأتوا بحديث مثله لفعلوا وإن يطلعوا على علم الغيب بما توحى إليهم الشياطين إذا طلعوا وكلهم يستخفى بالذى يقول ويسر وهم يعلمون إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما يبدون وما يكتمون وإنى قد قضيت يوم خلقت السموات والأرض قضاء بينته على نفسى وجعلت له أجلا مؤجلا لا بد أنه واقع فان صدقوا فيما ينتحلون من علم الغيب فيخبروك متى أنفذه وفى أى زمان يكون وإن كانوا يقدرون على أن يأتوا بما يشاؤن فليأتوا بمثل هذه القدرة التى بها أقضى فانى مظهره على الدين كله ولو كره المشركون وإن كانوا يقدرون على أن يأتوا بما يشاؤن فيأتون بمثل هذه الحكمة التى أدبر بها أمر ذلك القضاء إن كانوا صادقين فانى قضيت يوم خلقت السموات والأرض بأن أجعل النبوة فى الأحرار وأجعل الملك فى الرعاء وأجعل العز فى الأزلاء والقوة فى الضعفاء والغنى فى الفقراء والثروة فى الأقلاء والمدائن فى الفلوات والآجام فى المعاوز والثرى فى الغيضان والعلم فى الجهلة والحكم فى الأميين فسلهم ممن هذا الأمر ومن القيم بهذا وعلى يد من أنشئه ومن أعوان هذا الأمر وأنصاره فانى باعث لذلك نبيا أميا لا أعمى من العميان ولا ضال من الضالين ليس بفظ ولا غليظ ولا بصخاب فى الأسواق ولا متزى بالفحش ولا قوال بالخنا أسدده بكل جميل وأهب له كل خلق كريم وأجعل السكينة لباسه والبر شعاره والتقوى ضميره والحكمة معقوله والصدق والوفاء طبيعته والعفو والمعروف خلقه والعدل سيرته والحق شريعته والهدى إمامه والإسلام ملته وأحمد إسمه أهدى به بعد الضلالة وأعلم به بعد الجهالة وأرفع به بعد الخمالة وأشهر به بعد النكرة وأكثر به بعد القلة وأغنى به بعد الفقر وأجمع به بعد الفرقة وأؤلف به قلوبا مختلفة وأهواء مشتتة وأمما متفرقة وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر بآياتى وتوحيدى يصلون قياما وقعودا وركوعا وسجودا ويقاتلون فى سبيل الله صفوفا وزحوفا ويخرجون من ديارهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله ألهمهم التكبير والتحميد والتسبيح والتمجيد والتوحيد فى مسيرهم ومجالسهم ومضاجعهم ومنقلبهم ومثواهم يكبرون ويهللون ويقدسون على رؤس الأشراف ويطهرون الوجوه والأطراف ويعقدون الثياب فى الأنصاف قربانهم دماؤهم وقرآنهم فى صدورهم رهبان بالليل ليوث بالنهار ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم فلما فرغ نبيهم شعيا من القالته غدوا عليه ليقتلوه فهرب منهم فلقيته شجرة فانفلقت له فدخلها فأدركه الشيطان فأخذ بهدبة من ثوبه فأراهم إياها فوضعوا المنشار فى وسطها فنشرها حتى قطعوها وقطعوه وهو فى وسطها والله أعلم .

(قصة أرمياء عليه السلام)

فاستخلف الله على بنى إسرائيل بعد قتلهم شعيا رجلا منهم يقال له ناشئة بن أموض وبعث الله اليهم الخضر نبياً ليسدده ويأتيه بالخير من الله تعالى واسم الخضر أرمياء بن خليفاء وكان من سبط هرون بن عمران وإنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فقام عنها وهى تزهو خضراء فقال الله تعالى لارمياء حين بعثه إلى بنى إسرائيل يا أرمياء من قبل أن أخلقك اخترتك ومن قبل أن أصورك فى بطن أمك قدستك ومن قبل ان أخرجك من بطن أمك طهرتك ومن قبل أن تبلغ السعى نبأتك ولأمر عظيم اجتبيتك فذكر قومك نعمى وعرفهم أحداثهم وأدعهم إلى فقال أرمياء إنى ضعيف إن لم تقونى عاجزا إن لم تنصرنى فقال الله تعالى أنا ألهمك فقام أرمياء فيهم خطيباً لم يدر ما يقول فالهمه الله تعالى فى الوقت خطبة بليغة طويلة بين لهم فيها ثواب الطاعة وعقاب المعصية وقال لهم فى آخرها إن الله قال فإنى احلف بعزتى وجلالى إن لم ينتهوا الافيضن لهم فتنة يتحير فيها الحليم ولا سلطن عليهم جباراً قاسياً البسه الهيبة وأنزع من قلبه الرحمة يتبعه عدد مثل سواد الليل المظلم ثم أوحى الله تعالى إلى أرمياء عليه السلام إنى مهلك بنى إسرائيل بيافث ويافث هم أهل بابل وهم من ولد يافث بن نوح فلما سمع ارمياء بكى وصاح وشق ثيابه وحثا الرماد على رأسه فلما سمع الله تضرع أرمياء وبكاءه ناداه يا ارمياء اشق عليك ما أوحيت اليك قال يارب اهلكنى قبل ان أرى فى بنى إسرائيل ما لا أسر به فقال الله تعالى وعزتى وجلالى لا أهلك أحدا من بنى إسرائيل حتى يكون الأمر فى ذلك من قبلك ففرح ارمياء بذلك وطابت نفسه وقال والذى بعث موسى بالحق لا أرضى بهلاك بنى إسرائيل ثم أتى الملك فأخبره بذلك وكان ملكا صالحاً ففرح واستبشر وقال أن يعذبنا ربنا فبذنوب كثيرة وإن يرحمنا فبرحمته ثم إنهم لبثوا بعد الوحى ثلاث سنين لم يزدادوا فيها إلا معصية وتمادياً فى الشر وذلك حين اقترب هلاكهم وقل الوحى ودعاهم الملك إلى التوبة فلم يفعلوا فسلط الله عليهم بختنصر فخرج فى ستمائة الف راية يريد أهل بيت المقدس فلما فصل بختنصر سائرا إلى الملك أتى الملك الخبر فقال الملك لارمياء أنت تزعم ان الله أوحى اليك فقال ارمياء ان الله لا يخلف الميعاد وأنا به واثق فلما قرب الأجل وأراد الله هلاكهم بعث الله إلى ارمياء ملكا قد تمثل له فى صورة رجل من بنى إسرائيل فقال له يا نبى الله إنى استفتيك فى أهل رحمى وصلت أرحامهم ولم أزل اليهم محسناً ولا يزيدنى إكرامى إياهم إلا استخفافاً بى فافتنى فيهم فقال له أحسن فيما بينك وبين الله وصلهم وأبشر بخير فانصرف الملك فما مكث إلا أياما ثم أقبل عليه فى صورة ذلك الرجل فقعد بين يديه فقال له ارمياء ما طهرت أخلاقهم لك بعد قال يا نبى الله والذى بعثك بالحق نبيا ما أعلم كرامة يأتيها احد من الناس إلى أهل رحمة إلا قدمتها اليهم وافضل قال ارمياء عليه السلام ارجع إلى اهلك فأحسن اليهم وسل الله الذى يصلح عباده الصالحين ان يصلحهم فقال الملك فمكث أياما وقد نزل بختنصر وجنوده حول بيت المقدس بأكثر من الجراد ففزع منهم بنو إسرائيل وشق عليهم فقال ملكهم لارمياء يا نبى الله ما وعدك الله به قال إنى بربى لواثق ثم أقبل الملك على ارمياء وهو قاعد على جدار بيت المقدس يضحك ويستبشر ينصر ربه الذى وعده فقعد بين يديه وقال له أنا الذى اتيتك فى شأن اهلى مرتين فقال أرمياء عليه السلام ألم يأن لهم ان ينتهوا من الذى هم فيه فقال له يا نبى الله كل شىء كان يصيبنى منهم قبل اليوم كنت أصبر عليه واليوم رأيتهم فى عملى لا يرضى الله تعالى فقال ارمياء عليه السلام على أى عمل رأيتهم قال على عمل عظيم من سخط الله تعالى لغضبت لذلك وأتيت لأخبرك وإنى اسألك بالله الذى بعثك بالحق نبيا إلا ما دعوت الله تعالى عليهم ليهلكهم فقال ارمياء يا ملك السموات والأرض إن كانوا على حق وصواب فابقهم وإن كانوا على سخطك وعمل لا ترضاه فأهلكهم قال فما خرجت الكلمة من فم ارمياء تماماً حتى أرسل الله صاعقة من السماء فى بيت المقدس فالتهب مكان القربان وخسف بسبعة ابواب من أبوابه فلما رأى ذلك ارمياء صاح وبكى وشق ثيابه وحثا الرماد على رأسه وقال يا ملك

المدينة العظيمة وهذا الصبى على ظهرها يمص ابهامه ثم حدثتهم بقصتى وشكوت ربى على ما أنالنى وعاهدته أن لا أبرح عن بيته ولا ألهو عن خدمته وما سألته بعد ذلك شيئاً إلا اعطى إياه قال فمددت يدى اليها بنفقة فلم تقبلها وقالت اليك عنى احدثك بأفضاله وكرمه ونواله وآخذ الرفد من يد غيره فلم اقدر عليها ان تأخذ شيئاً فتركتها وانصرفت عنها رحمها الله ونفعنا بها والمسلمين آمين (وحكى) عن عبد الله الموصل رضى الله تعالى عنه انه قال كان عندنا رجل ولمان يسمى قضيب البان وكان لا يقدر أحد ان يكلمه من عظيم هيبته وحرمته وكان كثير البكاء فجمعتنى به المقادير فى خلوة فقلت له يا اخى ما الذى اشغلك به عن سواه وكان سبب تولهك وانفرادك عن الناس فنظر إلى نظرة منكرة ثم بكى واصفر لونه وغشى عليه فلما افاق آنسته بالكلام ولاطفته بالخطاب وسألته عن ذلك واقسمت عليه بالله ان يحدثنى عن سبب ذلك فحدثنى وهو يبكى فقال يا اخى كنت اخدم شيخاً وكان من الابدال فخدمته اربعين سنة فكان مجتهدا فى العبادة فلما كان قبل موته بثلاثة أيام دعانى وقال لى يا عبد الله لى عليك حق ولك على حق ومن تمام حقى عليك أن

تصفى لما اقول لك وتحفظ
وصيتى فقلت نعم يا سيدى
حباً وكرامة فقال ياولدى
قد بقى من عمرى ثلاثة
أيام واموت على غير
دين الإسلام فإذا أنا مت
فضعنى فى تابوت بثيابى
واحمل التابوت فى الليل
إلى أرض كذا وكذا من
ظاهر البلد وامكث حتى
تطلع الشمس فإذا رأيت
جماعة قد اقبلوا ومعهم
تابوت يضعونه إلى جانب
تابوتى فخذ التابوت الذى
يأتونك به وعد إلى الزاوية
واخرج الرجل الذى فيه
وافعل معه ما كان يجب عليك
ان تفعله معى فقلت له
ياسيدى كيف هذا الحال
فقال ياولدى كان ذلك فى
الكتاب مسطورا هذا
ما جرى فى اللوح المحفوظ
قلة الأمر من قبل ومن بعد
لايسأل عما يفعل وهم يسألون
قال فلما كان بعد ثلاثة أيام
اضطرب الشيخ وتغير لونه
واسود وجهه وانداز إلى
الشرق وانكب على وجهه
فبكيت على ذلك بكاء شديداً
ولحقنى عليه من الحزن
مالا يعلمه إلا الله تعالى ثم
إنى تذكرت وصية الشيخ
فوضعته فى تابوت فلما جاء
الليل خرجت إلى المكان
الذى قال لى عليه فكشفت
به حتى طلعت الشمس فإذا
بجماعة قد اقبلوا ومعهم
تابوت فوضعوه إلى جانب
تابوت الشيخ فتقدم رجل
وهم أن يحمل ذلك التابوت

السموات والأرض أين ميعادك الذى وعدتنى فنودى انه لم يصبهم الذى اصابهم إلا يقيناك ودعائك
فاستيقن أرمياء عليه السلام إنها فتيا وإن ذلك السائل كان رسول ربه فصار أرمياء حتى خالط
الوحوش ودخل بختنصر وجنوده بيت المقدس ثم امر جنوده أن يملأ كل رجل منهم ترسه تراباً ثم يقذفه
فى بيت المقدس فقذفوا فيه التراب حتى ملؤه ثم انصرفوا إلى بابل واحتمل معه سبايا بنى إسرائيل
وأمرهم ان يجمعوا ما كان فى بيت المقدس فجمعوا كل صغير وكبير من بنى إسرائيل فاختار منهم سبعين الف
صبى فلما أراد أن يقسم الغنائم فى جنده قالت له الملوك الذين كانوا معه أيها الملك لك غنائمنا كلها واقسم بيننا
هؤلاء الصبيان الذين اخترتهم من بنى إسرائيل ففعل ذلك فأصاب كل واحد منهم أربعة غلمان وكان
من أولئك الغلمان دانيال وحنانيا وعزازيا ومشايل وسبعة آلاف من أهل بيت داود وأحد عشر
الفاً من سبط يوسف بن يعقوب وأخيه بنيامين وثمانية آلاف من سبط يساخر بن يعقوب وأربعة
آلاف من سبط يوسف بن يعقوب وأخيه بنيامين وثمانية آلاف من سبط يساخر بن يعقوب وأربعة
آلاف من سبط يهوذا بن يعقوب وأربعة آلاف من سبط روبيل ولاوى بن يعقوب ومن بقى من
بنى إسرائيل جعلهم بختنصر ثلاث فرق فثلثاً أقره بالشام وثلثاً سبى وثلثاً قتل وذهب بأوانى بيت المقدس
حتى أقدمها بابل وذهب بالغلمان السبعين الفاً وسائر السبايا حتى قدم بهم بابل وكانت هذه الواقعة
الأولى التى أنزلها الله على بنى إسرائيل باخذاهم وظلمهم وذلك قوله تعالى (فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا
عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد) يعنى بختنصر وجنوده (وكان بعد أمر بختنصر) على ما روى حجاج عن
ابن جريج عن يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير قال كان رجل من بنى إسرائيل يقرأ التوراة حتى إذا بلغ
بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد بكى وفاضت عيناه وأطبق المصحف ثم انطلق إلى المسجد
وقال يارب أرنى هذا الرجل الذى جعلت هلاك بنى إسرائيل على يديه فأرى فى المنام أنه مسكين ببابل
يقال له بختنصر فانطلق بمال واعتده وكان رجلا موسرا فقيل له اين تريد قال أريد التجارة ثم ذهب
حتى نزل داراً ببابل فاستكراها وليس فيها أحد غيره فجعل يدعو المساكين ويتلطف بهم فقال هل بقى
مساكين غيركم قالوا نعم مسكين مريض يقال له بختنصر فلما أتاه فقال له ما اسمك قال بختنصر فقال لغلمانه
احملوه فنقله اليه ومرضه حتى برىء فكساه وأعطاه نفقة ثم أذن الاسرائيلى فى الرحيل فبكى بختنصر فقال
الإسرائيلى ما يبكيك فقال ابكى لأنك فعلت معى ما فعلت ولا أجد شيئاً أجازيك به فقال جزائى يسير
قال وما هو قال له أن صرت ملكا وملكت بيت المقدس أن تعطينى ما أطلبه فجعل يتبعه ويقول له أتستهزىء
بى ولا يمنعه أن يعطيه ما سأله إلا أنه يرى انه يستهزىء به قال فبكى الإسرائيلى وقال قد علمت ما يمنعك
أن تعطينى ما سألتك إلا الله تعالى يريد أن ينفذ قضاءه فكتب له كتاباً وضرب الدهر ضرباته فقال
يوماً صيحون وهو ملك بابل لو انا أرسلنا طليعة إلى الشام قال ماضرك لو فعلت قال فمن ترون قالوا
فلانا فبعث رجلا وأعطاه مائة الف فخرج بختنصر فى مطبخه لم يخرج إلا ليأكل فى مطبخه فلما قدم
إلى الشام رأى صاحب طليعة أكثر أهل الأرض فرساناً ورجالا جلدا فكبر ذلك فى عينه فلم يصل ولم
يسألهم عن شىء وكان بختنصر دخل الشام ولم يزل يجلس مجلس أهل الشام ويسألهم ويقول لهم ما منعكم
ان تغزوا بابل فلو غزوتموها لنلتم منها شيئاً كثيراً فقالوا انا لا نحسن القتال ولا نقاتل حتى انتقد مجالس
أهل الشام وعرف سرائرهم ثم أن الطليعة رجعوا فاخبروا ملكهم بما رأوا وكان بختنصر رجع منهم
فجعل يقول لفراش الملك لو دعانى الملك لأخبرته غير الخبر الذى اخبره فلان وفلان فرفع ذلك إلى
الملك فدعاه فأخبره الخبر وقال إن فلانا لما أكثر أهل الأرض كراعا ورجالا جلداً كبر ذلك فى عينه فلم
يسألهم عن شىء وإنى لم ادع مجلسا بالشام إلا جلست فيه اسأل أهله فقلت لهم كذا وكذا وقالوا كذا وكذا
فقال الملك لو بعثنا جريدة خيل إلى الشام فان وجدوا مساغا ساغوا وإلا امسكوا ما قدروا عليه فقالوا ما ضرك
لو فعلت ذلك قال فمن ترون قالوا فلانا قال بل الرجل الذى أخبرنى فدعا بختنصر فبعثه ثم انتخب معه

أربعة آلاف من فرسانهم فانطلقوا فجاسوا خلال الديار فسبوا ماشاء الله تعالى ولم يخربوا ولم يقتلوا ومات صيحون الملك فقال استخلفوا ملكا قالوا على رسلكم حتى تأتى أصحابكم فانهم فرسانكم فامهلوا حتى جاء بختنصر بالسبى ومامعه فقسمه بين الناس فقالوا مارأينا أحداً أحق بالملك منه فى هذه القصة الاولى فملكوه على أنفسهم (رجعنا إلى حديث السدى) قال فسأل يحيى عن نكاحها فقال لست أرضاها لك فبلغ ذلك أمها فحقدت على يحيى حين نهاه أن يتزوج ابنتها فعمدت حين جلس الملك على شرابه فألبست ابنتها ثيابا حمراً رقاقاً فاخرة وطيبتها وألبستها من الحلى شيئاً لاقيمة له من غايتها وألبستها فوق ذلك كساء أسود وأرسلتها إلى الملك وأمرتها أن تسقيه الخمر وأن تتعرض له فان راودها عن نفسها أبت عليه حتى يعطيها ماسألته ويكون الذى تسأله أن يؤتى برأس يحيى بن زكريا فى طشت ففعلت ذلك وجعلت تسقيه الخمر وتتعرض له فلما أخذ من يدها الشراب راودها عن نفسها فقالت لا أفعل حتى تعطينى ما أسألك قال وما تسأليني قالت اسألك أن تبعث إلى يحيى بن زكريا فتأتينى برأسه فى طشت فقال ويحك سليني غير هذا قالت ما أريد غير هذا فلما أبت عليه بعث إلى يحيى فأتى برأسه فجعلت الرأس تتكلم حتى وضعت بين يديه وهى تقول إنها لاتحل لك فلما أصبح الملك وإذا دم يحيى يغلى فأمر بالتراب فألقى عليه فرقى الدم فوق التراب يغلى فألقى عليه ايضاً وارتفع الدم فوقه فلم يزل يلقى عليه من التراب حتى بلغ سور المدينة وهو مع ذلك يغلى فبلغ سنجاريب ملك بابل ذلك فنادى فى الناس وأراد أن يبعث لهم جيشاً ويؤمر عليهم رجلا فأتاه بختنصر وكلمه وقال أن الذى أرسلت تلك المرة ضعيف وإنى قد دخلت المدينة وسمعت كلام أهلها فابعثنى فيبعث بختنصر حتى إذا بلغوا ذلك المكان ورآه أهله تحصنوا فى مدائنهم فلم يطقهم فلما اشتد عليهم المقام وجاع أصحابه أرادوا الرجوع فخرجت إليهم عجوز من عجائز بنى إسرائيل وقالت أين أمير الجند فأتى بها إليه فقالت له بلغنى إنك تريد الرجوع بجندك قبل أن تفتح هذه المدينة قال نعم قد طال مقامى وجاع أصحابى فلست أستطيع المقام فوق الذى كان منى قالت أرأيتك إن دللتك على فتح المدينة تعطينى ما أسألك وتقتل من آمرك بقتله وتكف عمن آمرك بالكف عنه قال لها نعم قالت إذا أصبحت فاقسم جندك اربعة أقسام ثم اقسم على كل زاوية ربعا ثم ارفعوا أيديكم إلى السماء ونادوا ياربنا دلنا على من قتل يحيى بن زكريا عليهما السلام فانهم إذا فعلوا ذلك تساقط سور المدينة ففعلوا ذلك فتساقط سور المدينة ودخلوا من جوانبها فانطلقت به إلى دم يحيى بن زكريا عليهما السلام وقالت اقتل على هذا الدم حتى يسكن فقتل سبعين ألفا حتى سكن فلما سكن الدم قالت له كف يدك فان الله تعالى إذا قتل نبى لايرضى حتى يقتل من قتله ومن رضى بقتله وأتاه صاحب الصحيفة بصحيفته فكف عنه وعن أهل بيته وخرب بيت المقدس وأمر أن تطرح فيه الجيف وقال من طرح عليه جيفة فله جزيته فى تلك السنة وأعانه على خرابه الروم من أجل أن بنى إسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا فلما خربه بختنصر ذهب بوجوه بنى إسرائيل وسرايا هم .

﴿ قصة دانيال عليه السلام ﴾

وذهب دانيال وقوم من أولاد الأنبياء وذهب معه برأس جالوت فلما قدم بختنصر أرض بابل وجد سنجاريب قد مات فملك مكانه واستقام له الأمر وثبت على ذلك مدة ثم أن بختنصر رأى رؤيا عجيبة فأفزعته فسأل عنها السحرة والكهنة فعجزوا عن تفسيرها فبلغ ذلك دانيال وكان فى السجن مع اصحابه وقد أحبه صاحب السجن وأعجب به لما رأى من حسن سمته وهدايته فقال دانيال لصاحب السجن إنك قد احسنت الى وان صاحبكم قد رأى رؤيا فدله على لأعبرها له فجاء السجان وأخبر بختنصر بقصة دانيال فقال على به وكان لايقف بين يديه أحد إلا سجد له فأتوا به فقام بين يديه ولم يسجد له فقال له ما الذى منعك من السجود وقال له إن لى ربا أتانى العلم والحكمة وأمرنى أن لا اسجد إلا له فخشيت إن سجدت لغيره ان ينزع منى العلم الذى أتانى ويهلكنى فأعجب به وقال نعم ما فعلت قد أحسنت حيث وفيت بعهده واجللت علمه ثم قال

التابوت فقال الرجل نعم ياأخى أنا خادم هذا البترك الذى فى هذا التابوت اربعين سنة فلما كان قبل موته بثلاثة أيام حضرنى وقال ياولدى لى عليك حق ولك على حق ومن تمام حق عليك ان تحفظ وصيتى وتصغى لما اقول لك قلت نعم فقال ياولدى بقى من عمرى ثلاثة ايام واموت على دين الإسلام فإذا مت فضعنى فى تابوت بثيابى ليلا واخرج بى إلى المكان الفلانى تجد تابوتا موضوعاً فضع تابوتى بجانبه وخذ التابوت الذى هناك وارجع به إلى الكنيسة ومهما كان يجب عليك أن تفعله معى فافعله مع صاحب ذلك التابوت فانه كان من الأبدال فلما كان بعد ثلاثة أيام تهلل وجه البترك بالفرح ونطق بالشهادتين ومات مسلماً ففعلت ما أمرنى به وأتيت إلى ههنا وهذا حديثى يا أخى قال فحملت ذلك التابوت الذى جاؤا به وأخذوا تابوت الشيخ ومضوا به فجئت بذلك التابوت إلى الزاوية واحضرت الفقراء وفتحت لهم التابوت فإذا فيه شيخ عليه نور ساطع فأخرجته من التابوت ونزعت ثيابه فغسلته انا والفقراء وصلينا عليه ودفناه وكان يوما مشهودا فهذا حديثى ياأخه

هل عندك علم بهذه الرؤيا هل لك فى تعبيرها قال نعم قال فأخبرنى فأخبره برؤياه التى رآها قبل أن يخبره بها ثم عبرها له وكانت الرؤيا ما اخبرنا عبد الله بن حامد بإسناده عن وهب بن منبه أن بختنصر رأى فى منامه صنما رأسه من ذهب وصدره من فضة وبطنه من نحاس وفخذه من حديد وساقه من خزف ثم رأى حجراً من السماء قد وقع عليه فدقه ثم ربا الحجر حتى ملأ ما بين المشرق والمغرب ورأى شجرة اصلها فى الأرض وفرعها فى السماء ثم رأى رجلا بيده فأس وسمع منادياً ينادى اضرب جرعها ليتفرق الطير من فرعها وتتفرق الدواب والسباع من تحتها واترك أصلها قائم فعبرها له دانيال عليه السلام فقال أما الصنم الذى رأيت رأسه من ذهب فأنت الرأس الذهب وانت أفضل الملوك وأما الصدر الذى رأيت من فضة فهو ابنك يملك من بعدك وأما البطن الذى رأيت من نحاس فملك يكون بعد إبنك وأما ما رأيت من الفخذ الذى من حديد فتتفرق فرقتان فى فارس تكونان اشد الملوك واما الفخار فآخر ملكهم يكون دون الحديد وأما الحجر الذى رأيت قد وقع من السماء ورباحتى ملأ ما بين المشرق والمغرب فنبى يبعثه الله فيفرق ملكهم كله ويربو ملكه حتى يملأ ما بين المشرق والمغرب وأما الشجرة التى رأيت والطير الذى عليها والسباع والدواب التى تحتها وما أمر بقطعها فيذهب ملكه ويردك الله طائراً نسراً عظيماً فتهلك الطيور ثم يردك الله ثوراً فتهلك الدواب ثم يردك الله أسداً فتملك السباع والوحوش وتكون منذ مسخك الله على ما ذكرناه سبع سنين فى ذلك كله وقلبك قلب إنسان حتى تعلم ان الله له ملك السموات والأرض وهو يقدر على الأرض ومن عليها وأما ما رأيت من أن اصلها قائم فإن ملكك قائم فسئل وهب بن منبه أكان مؤمناً أم لا فقال وجدت اهل الكتاب قد اختلفوا فى ذلك فمنهم من قال مات مؤمناً ومنهم من قال مات كافراً لأنه حرق بيت المقدس والكتب التى فيه وقتل الأنبياء وغضب الله عليه غضباً شديداً فلم يقبل منه يومئذ توبة قالوا فلما عبر دانيال لبختنصر رؤياه وأخبره بها أكرمه وأكرم أصحابه وجعل يقبل عليه ويستشيره فى أموره حتى كان أكرم الناس عليه وأحنهم إليه فحسده المجوس على ذلك فوشوا به وبأصحابه إلى بختنصر فقالوا له إن دانيال واصحابه ما يعبدون إلهك ولا يأكلون ذبيحتك فدعاهم وسألهم فقالوا أجل إن لنا ربا نعبده ولسنا نأكل من ذبيحتك فأمر بأخدود فخدلهم والقوا فيه وهم ستة والقى معهم سبع ضارى ليأكلهم ثم قال انطلقوا لنأكل ونشرب فذهبوا فأكلوا وشربوا ثم إنهم رجعوا فوجدوهم جلوساً والسبع مفترش ذراعيه بينهم ولم يخدش منهم أحداً ولم يصبهم بشىء ووجدوا معهم رجلا زائدا فعدوهم فوجدوهم سبعة فقالوا ما بال هذا السابع وإنما كانوا ستة فخرج إليهم السابع وكان ملكا من الملائكة فلطم بختنصر لطمة فصار فى الوحوش والسباع ومسخه الله سبع سنين ثم رده الله إلى صورته ورد عليه ملكه وقال السدى فلما رد الله عليه ملكه كان دانيال واصحابه أكرم الناس عليه فحسدهم المجوس أيضا ووشوا بهم ثانية وقالوا لبختنصر أن دانيال إذا شرب الخمر لم يملك نفسه أن يبول وكان ذلك فيهم فجعل لهم بختنصر طعاما وشرابا فأكلوا وشربوا منه وقال للبواب انظر أول من يخرج عليك ليبول فاضربه بالطبرزان فان قال أنا بختنصر فقل له كذبت بختنصر أمرنى فحبس الله عن دانيال وأصحابه البول فكان أول من قام من القوم يريد البول بختنصر فقام مدلا وكان ذلك ليلا فقام يسحب ثيابه فلما رآه البواب شد عليه فقال له أنا بختنصر فقال كذبت ان بختنصر أمرنى ان اقتل كل من يخرج أولا ثم ضربه فقتله (وأما) محمد بن إسحق فانه قال لما أراد الله هلاك بختنصر قال لمن كان فى يده من بنى إسرائيل أرأيتم هذا البيت الذى خربت وهؤلاء الناس الذى قتلت منهم وما هذا البيت فقال هذا بيت الله تعالى ومسجد من مساجده وهؤلاء أهله كانوا من زرارى الأنبياء فظلموا وتعدوا وعصوا فسلطك الله عليهم عدوهم بذنوبهم قال فأخبرونى ما الذى يطلع فى إلى السماء واطلع عليها فأقتل من فيها واتخذها ملكا فانى قد فرغت من الأرض وما فيها قالوا ما يقدر عليها أحد من الخلق فقال تفعلن أولا قتلكم عن آخركم فشكوا إلى الله تعالى عليه وتضرعوا فبعث الله تعالى عليه بقدرته ليريه ضعفه وهو أن بعوضة قد دخلت فى منخره ثم ساخت فيه حتى عضت بأم دماغه فما كان

ثم خرجت بعد دفنه هائما على وجهى من خوف سوء الخاتمة وهذا سبب توبتى فنسأل الله تعالى حسن الخاتمة ونعوذ به من مكره وغضبه وعقابه

يا ويح من خلى سبيل الهدى ... وفاته منك بلوغ المرام
فمن أتى حصنك آويته ... فركنه فى عزة لا يضام
صالح قد صف اقدامه ... فى الليل يبكى بالدموع السجام
وما له حظ سوى أنه ... اشقاه مولاه بطول القيام
وكم قريب خاب ظناً وما ... نال سوى التعذيب والانتقام
وكم بعيد نال ما يرتجى ... وحاز فى عقباه أعلى مقام
من لم يكن للوصول اهلا فما ... يفيده القرب ولا الاعتصام
فسطوة الأقدار لا تتعدى ... فانتبهوا من نومكم يا نيام
يا أيها المذنب قم واعتذر ... وتب من الذنب وكسب الآثام
إلى متى أنت ترى غاديا ... ورائحاً فى اللهو طول الدوام
أنب إلى الله وتب واستقم ... من قبل أن تشرب كأس الحمام
فان تخف قبح ذنوب مضت ... فلذ بخير الخلق بدر التمام
محمد المختار من هاشم ... افضل من حج ولبى وصام
صلى عليه الله ما إشرقت ... طلائع الصبح ولى الظلام

ر ولا يسكن حتى يضرب على أم دماغه فلما عرف الموت قال لخاصته من اهله إذا انا مت شقوا رأسي
وانظروا ما الذى قتلنى فلما مات شقوا رأسه فوجدوا البعوضة عاضة بأم دماغه فيرى الله العباد قدرته
وسلطانه ونجا الله تعالى من كان بقى فى يده من بنى إسرائيل ورحمهم وردهم إلى إبليا والشام فبنوا فيها
وربوا وكثروا حتى كانوا على أحسن ما كانوا فيزعمون أن الله أحيا المؤمنين الذين قتلوا والحق بهم
ثم إنهم لما رجعوا إلى الشام وجدوا بختنصر قد احرق التوراة وليس معهم عهد من الله فجدد الله توراتهم
وردها اليهم على لسان عزير وسنذكر القصة فيه إن شاء الله تعالى وكان عمر بختنصر أيام مسخه نيفاً
وخمسمائة عام وخمسين يوم فلما مات بختنصر استخلف إبنه فلسطاس وكانت آنية بيت المقدس التى حملها
بختنصر إلى بابل عنده وكان نجسها بلحوم الخنازير وشرب فيها الخمر واقصى دانيال فلم يقبل منه فاعتزل
دانيال فبينما فلسطاس قاعد ذات يوم إذ بدت له كف معلقة بغير ساعد فكتبت ثلاثة احرف مشهده ثم
غابت فعجب من ذلك وتحير ولم يدر ماهى فدعا دانيال عليه السلام واعتذر اليه وسأله أن يقرأ له ذلك
الكتاب ويخبره بتأويله فقال دنيال بسم الله الرحمن الرحيم وزن فخف ووعد فانجز وجمع ففرق فقال
أما قول وزن فخف أى وزن عملك فى الميزان فخف ووعد فأنجز أى وعد ملكك بالخراب فأنجز اليوم وجمع
ففرق أى جمع لك ولوالدك من قبلك ملكا عظيما ثم فرق اليوم فلا يجتمع إلى يوم القيامة فلا يلبث إلا قليلا
حتى اهلكه الله تعالى وضعف ملكهم وبقى دانيال عليه السلام بأرض بابل إلى ان مات بالسوس والله أعلم

(خبر وفاة دانيال عليه السلام)

قال أهل الاخبار لما فتح الله السوس على يد أبى موسى الاشعرى فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله
عنه قتل أبو موسى ملكها سابور واحتوى على المدينة فغنم مافيها وأخذ أموال سابور وملكها وجعل
يدور فى الخزائن فيأخذ مافيها حتى أفضى إلى خزانة مقفلة وقد ختم على قفلها بالرصاص فقال أبو موسى
الاشعرى لأهل السوس مافى هذه الخزائن فأنى أراها مختومة بالرصاص فقالوا له أيها الأمير ليس فيها
شىء من حاجتك فقال لابد لى ان أعلم مافيها فافتحوا بابها حتى أنظر مافيها فكسروا القفل وفتحوا
الباب فدخل أبو موسى الخزانة فنظرها فإذا هو بحجر طويل محفور على مثال الحوض وفيه رجل ميت
وقد كفن بأكفان منسوجة بالذهب وزأسه مكشوفة فتعجب أبو موسى من طوله وكل من كان معه
ثم أنهم شبروا أنفه فإذا هو يزيد على شبر فقال أبو موسى لأهل السوس ويحكم من هذا الرجل قالوا إن
هذا الرجل كان بالعراق وكان أهل العراق إذا حبس عنهم المطر استسقوا به فيسقون فاصابنا من قحط
المطر ما كان يصيب أهل العراق فأرسلنا اليهم وسألناهم أن يدفعوه الينا حتى نستقى به فأبوا علينا
فرهنا عندهم خمسين رجلا وحملناه إلى بلدنا هذا ثم استسقينا به فسقينا فرأينا من الرأى ان لا نرده اليهم
فلم يزل مقيما عندنا إلى ان أدركه الموت فمات فهذه قصته وحاله قال فاقام أبو موسى الاشعرى بالسوس
وكتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يخبره بما فتح الله عليهم من مدينة السوس وما ولاها
وكتب فى كتابه أمر ذلك الرجل الميت فلما وصل الكتاب وقرأه عمر بن الخطاب رضى الله عنه دعا
كبار اصحاب رسول الله ﷺ فسألهم عن ذلك فما وجد عندا واحد منهم علمه فقال على بن أبى طالب
رضى الله عنه إن هذا الرجل دانيال الحكيم وهو نبى غير مرسل كان فى قديم الزمان مع بختنصر ومن
كان بعده من الملوك وجعل على بن أبى طالب رضى الله عنه يحدث عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن قصة
دانيال من أولها إلى آخرها إلى وقت وفاته ثم قال اكتب إلى صاحبك وأمره ان يصلى عليه ويدفنه فى
موضع لا يقدر عليه أهل السوس فكتب عمر إلى أبى موسى بذلك فلما قرأ ابو موسى كتاب عمر
أمر أهل السوس ان يحفروا نهرا إلى موضع آخر ثم أمر بدنيال فكفن بأكفان غير التى كانت عليه هو
وجميع من كان معه من المسلمين ثم امر بقبر فحفر له فى وسط النهر ثم دفنه وأجرى عليه النهر فيقال أن
دانيال عليه السلام فى نهر السوس والله أعلم (قال الأستاذ رضى الله عنه) فهذا الذى ذكرت جميع أمر

(وحكى عن منصور بن
عمار عفا الله عنه أنه قال)
كان لى أخ فى الله تعالى
يتفقدنى فى شدتى ورخائى
وكان كثير العبادة والتهجد
والبكاء فلما بعد أيام فقدته
فسألت عنه فقيل لى أنه
ضعيف فسرت إلى بيته
وطرقت عليه الباب فخرجت
إلى ابنته وقالت ما تريد
فقلت لها قولى لأبيك
فلان أخوك يريد أن يدخل
اليك فدخلت وعادت إلى
وقالت ادخل فدخلت اليه
فوجدته فى وسط داره وهو
مضطجع على الأرض وقد
تغيرت صورته واسود
وجهه وازرقت عيناه
وتقلصت شفتاه فقلت له
وأنا خائف منه يا اخى اكثر
من قول لا إله إلا الله ففتح
عينيه ونظر إلى ثم غشى عليه
فلما أفاق قلت له يا اخى اكثر
من قول لا إله إلا الله ففعل كما
فعل اولا فقلت ثالثا اكثر
من قول لا إله إلا الله وإن لم
تقلها لاغسلتك ولا كفنتك
ولا صليت عليك ولا دفنتك
قال منصور ففتح عينيه
ونظر إلى وقال يا اخى
يا منصور كلمة حيل بينى
وبينها فقلت لا حول
ولا قوة إلا بالله العلى
العظيم ثم قلت يا اخى فأين
الصلاة والعبادة والصيام
والبكاء والدعاء فقال كل ذلك
كان لغير الله تعالى وإنما
كنت أفعل ذلك رياء للناس
وسمعة حتى يقال على وأذكى

به وكنت إذا خلوت بنفسي
أغلقت الأبواب وأرخيت
الستور وشربت الخمور
وبارزت مولاى بالمعاصى
ودمت على ذلك مدة من
الزمان فأصابنى مرض
أشرفت على الموت فقلت
لابنتى هذه ناولينا المصحف
فأتت به إلى فقرأت فيه حتى
بلغت سورة يس فرفعت
المصحف وقلت اللهم بحق
هذه السورة الشريفة وبحق
مافى هذا المصحف من
كلامك القديم ان تعافينى
وتفرج عنى وانا لاعود إلى
معصيتك أبدا قال ففرج الله
عنى وعافانى فلما تفيت عدت
لما كنت فيه من اللهو واللعب
واللذات وانسانى الشيطان
ذلك العهد الذى بينى وبين
مولاى فصرت على ذلك
الحال مدة من الزمان فوقعت
فى مرض آخر أشرفت منه على
الموت فأمرت أهلى أن
يخرجونى إلى وسط الدار ثم
طلبت المصحف وقرأت فيه
وقلت اللهم بحق هذا القرآن
العظيم إلا ماعافيتنى وفرجت
عنى وانا لا أعود إلى معصية
ابدا فاستجاب الله تعالى
منى وفرج عنى فعدت إلى
ماكنت فيه حتى وقعت فى
المرض فامرت أهلى ان
يخرجونى إلى وسط الدار كما
ترى ثم طلبت المصحف لأقرأ
فيه فلم يتبين لى فيه حرف
واحد فعرفت ان الله سبحانه
وتعالى غضب على غضباً
شديدا فرفعت بصرى إلى

يختنصر الذى جاء فى التفسير إلا أن رواية من يروى ان بختنصر هو الذى غزا بنى إسرائيل عند قتلهم
يحيى غلط عند أهل السير والأخبار والعلماء بأمور الماضين من أهل الكتاب والمسلمين وذلك إنهم
مجمعون على ان بختنصر إنما غزا بنى إسرائيل عند قتلهم نبيهم شعيا وفى عهد ارميا عليه السلام وهى
الوقعة الأولى التى قال الله تعالى فيها (فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد
فجاسوا خلال الديار) الآية يعنى بختنصر وجنوده قالوا ومن عهد ارميا وتخريب بختنصر بيت المقدس
إلى مولد يحيى بن زكريا اربعمائة واحدى وستون سنة وذلك أنهم يعدون من لدن تخريب بختنصر وبيت
المقدس إلى آخر عمر انه فى عهد كربن بن شير بن اصهير بابل من قبل بهن إسفنديار بن بستاسف مئتين سنة
ثم من عمر انه إلى ظهور الأسكندر إلى على بيت المقدس وحصاره ملكها وضمها إلى مملكته ثمانية
وثمانون سنة ثم من بعد ملكه بيت المقدس إلى مولد يحيى بن زكريا ثلثمائه وثلاثون سنة وإنما الصحيح
فى ذلك ماذكره محمد بن إسحق بن يسار قال عمرت بنو إسرائيل بيت المقدس بعد ما عمرت الشام وعاد
اليها ملكها بعد خراب بختنصر إياها وسبيهم منها فجعلوا يحدثون الأحداث بعد ملك عزير عليه السلام
فبعث الله فيهم الأنبياء ففريقا يكذبون وفريقا يقتلون حتى كان آخر من بعث اليهم من أنبيائهم زكريا
ويحيى وعيسى عليهم السلام وكانوا من آل داود عليه السلام فمات زكريا وقتل يحيى بسبب نهيه
الملك عن نكاح تلك المرأة فلما رفع عيسى من بين ظهورهم وقتلوا يحيى ابن زكريا عليه السلام بعث الله
عليهم ملكا من ملوك بابل يقال له كردوس فسار اليهم بأهل بابل حتى دخل عليهم الشام فلما دخل
عليهم أمر رئيساً من رؤوس جنوده يقال له بنوارزادان صاحب القتل فقال له إنى قد حلفت بالهم لئن
أنا ظهرت وظفرت على أهل بيت المقدس لأقتلنهم حتى تسيل دماؤهم فى وسط عسكرى إلا أنى لا أجد
أحداً اقبله فأمره أن يقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم ثم ان بنوارزادان دخل فى بيت المقدس فأقام فى البقعة
التى كانوا يقربون فيها قربانهم فوجد فيها دما يغلى فسألهم عنه فقالوا هذا دم قربان قربناه فلم يقبل منا
فلذلك هو يغلى كما تراه ولقد قربنا منذ ثمانمائة سنة القربان فقبل منا إلا هذا قال ماصدقتمونى الخبر فقالوا
له لو كان أول دماتنا لقبل منا ولكنه قد انقطعت منا الملوك والأنبياء والوحى فبذلك لم يقبل فذبح منهم
بنوارزادان على ذلك الدم سبعمائة وسبعين رئيساً من رؤسهم فلم يهدأ الدم فأمر بسبعة آلاف من بنيهم
وأزواجهم فذبحهم على الدم فلم يهدأ فلما رأى بنوارزادان الدم لا يهدأ قال لهم ويلكم يا بنى إسرائيل
اصدقونى قبل أن أفنيكم واصبروا على امر ربكم فلقد ظالما ملكتم فى الأرض يفعلون فيها ماشئتم أصدقونى
قبل ان لا اترك منكم نافخ نار لا انثى ولا ذكر إلا قتلته فلما رأوا الجد وشدة القتل أصدقوه الخبر وقالوا
ان هذا دم نبى منا كان ينهانا عن أمور كثيرة من سخط الله فلو أننا اطعناه فيها لكان ارشد لنا وكان
يخبرنا بأمركم فلم نصدقه وقتلناه فهذا دمه يغلى فقال بنوارزادان ما كان اسمه قالوا يحيى بن زكريا قال
الآن صدقتمونى بمثل هذا ينتقم منكم ربكم فلما رأى بنوارزادان انهم صدقوه خر ساجداً وقال لمن حوله
أغلقوا أبواب المدينة واخرجوا من كان هنا من جيش كردوس وأبقوا من بقى من بنى إسرائيل ثم قال
يا يحيى بن زكريا قد علم ربى وربك ما أصاب قومك من أجلك وما قتل منهم فاهدأ بإذن الله تعالى فقد أدم يحيى
فأوحى الله تعالى إلى رأس من رؤس بقية الأنبياء أن بنوارزادان حنون صدوق وحنون بالعبرانية حديد
الإيمان ثم ان بنوارزادان قال لبنى إسرائيل ان عدو الله كردوس أمرنى ان اقتل منكم حتى تسيل دماؤكم
وسط عسكره وإنى لست استطيع ان اعصيه فقالوا له افعل ما امرت به فأمرهم فحفروا خندقا ثم أمر
بأموالهم من الخيل والبغال والحمير والإبل والبقر والغنم فذبحوها حتى سال الدم فى العسكر وامر بقتل
الذين كانوا قتلوا قبل ذلك فطرحوا على ماقتل من مواشيهم وكانوا فوقهم فلم يظن كردوس إلا ان
ما فى الخندق من بنى إسرائيل فلما بلغ الدم إلى عسكره أرسل إلى بنوارزادان ارفع عنهم القتل فقد
بلغ تنى دماؤهم ثم إنه انصرف عنهم إلى بابل وقد افنى بنى إسرائيل أو كاد ان يفنيهم هى الوقعة الأخيرة

فكانت

التى انزل الله تعالى فيها قوله تعالى وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين الآيات فكانت الوقعة الأولى لبختنصر وجنوده ثم رد الله لهم الكرة وكانت لهم الديانة والرياسة وكانت الوقعة الأخيرة لكردوس وجنوده فلم تقم لهم من بعد ذلك قائمة ولا راية وانتقل عن الشام ونواحيها إلى الروم أواليونانيه إلى أن تناسل بنو إسرائيل وكثروا وانتشروا بعد ذلك وأحدثوا الأحداث واستحلوا المحارم وضيعوا الحدود فسلط الله عليهم بلطوس بن اسنابوس ضرب بلادهم وطردهم عنها ونزع الله تعالى منهم الملك والرياسة وضرب عليهم الذل فليسوا فى أمة من أمم إلا وعليهم الصغار والذلة والجزية والملك فى غيرهم وبقى بيت المقدس خرابا إلى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فعمره المسلمون بأمره والله اعلم.

﴿ باب فى ذكرى الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها ﴾

قال الله تعالى (أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها) الآية واختلفوا فى ذلك المار من كان فقال عكرمة وقتادة والربيع بن أنس والضحاك والسدى وهو عزير بن شرحيا وقال وهب بن منبه وعبد الله بن حميد بن عمير هو ارمياء بن خلفياء وكان من سبط هرون بن عمران وهو الخضر واختلفوا أيضا فى القرية التى مر عليها فقال عكرمة ووهب وقتادة والربيع هى بيت المقدس وقال الضحاك هى الأرض المقدسة وقال السدى هى سلماباد وقال الكلبى هى دير سابر باذ وقيل دير هرقل وقيل هى قرية العنب وهى على فرسخين من بيت المقدس وكان السبب فى ذلك ماروى محمد بن إسحق بن يسار عن وهب بن منبه أن بختنصر لما وطىء الشام وخرب بيت المقدس وقتل بنى إسرائيل وسباهم طار ارمياء حتى خالط الوحوش فلما ولى بختنصر عنهم راجعا إلى بابل ومعه سبايا بنى إسرائيل أقبل ارمياء على حمار له ومعه عصير عنب فى ركوة وسلة تين حتى غشى إيلياء فلما وقف عليها وعاين خرابها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها ثم ربط ارمياء حماره بحبل جديد والقى الله تعالى عليه النوم فلما نام نزع منه الروح مائة عام ومات حماره وعصيره وتينه عنده وأعمى الله عنه العيون فلم يره أحد وذلك ضحى ومنع الله السباع والطير عن لحمه فلما مضى من موته سبعون سنة أرسل الله ملكا إلى ملك من ملوك فارس عظيم يقال له يوشك فقال إن الله يأمرك أن تنفر بقومك وتعمر بيت المقدس وإيلياء وارضهما حتى يعود اعمر ما كان فانتدب الملك الف قهرمان مع كل قهرمان ثلثمائة الف عامل وجعلوا يعمرونها وأهلك الله تعالى بختنصر ببعوضة دخلت فى دماغه ونجى الله تعالى من بقى من بنى إسرائيل ولم يمت منهم جميعا أحد ببابل وردهم الله تعالى إلى بيت المقدس ونواحيها فعمروها ثلاثين سنة وكثروا حتى كانوا كأحسن ما كانوا عليه فلما مضت المائة عام على عزير أحيا الله منه عينيه وسائر جسده ميت ثم أحيا جسده وهو ينظر ثم نظر إلى حماره فإذا عظامه متفرقة بيض تلوح وسمع صوتا من السماء أيتها العظام البالية إن الله يأمرك أن تجتمعى فاجتمع بعضها إلى بعض واتصل بعضها ببعض ثم نادى ثانية إن الله يأمرك أن تكتسى لحما ودما وجلدا فكان كذلك (اخبرنا) ابو عبد الله الحسين بن محمد الحافظ بإسناده عن ابن عباس قال لما أحيا الله عزيرا بعد ما أماته مائة سنة ركب حماره حتى أتى محلته فأنكره الناس وأنكر منازله فانطلق على وجهه منه حتى أتى منزله فاذا هو بعجوز عمياء مقعدة قد اتى عليها مائة وعشرون سنة وكانت امة له فخرج عنهم عزير وهى بنت عشرين سنة وكانت عرفته وعقلته فلما اصابها الكبر اصابتها الزمانة فقال لها عزير يا هذه هذا منزل عزير قالت نعم هذا منزل عزير ما رأيت كذا وكذا سنة أحد يذكر عزيرا وقد نسيه الناس قال فإنى أنا عزير قالت سبحان الله فإن عزير قد فقدناه منذ مائة سنة ولم نسمع له بذكر قال فانى أنا عزير كان الله قد اماتنى مائة ثم بعثنى قالت فان عزيرا كان رجلا مستجاب الدعوة يدعو للمريض وصاحب البلاء بالعافية والشفاء فيعافيه الله تعالى ويشفيه فادع الله تعالى ان يرد على بصرى حتى أراك فان كنت عزيرا عرفتك قال فدعا به ومسح بيده على وجهها

السماء وقلت إلهى بحرمة هذا المصحف إلا ما فرجت عنى وعافيتنى وأنا لا اعود يا جبار السموات والأرض فبينما انا كذلك إذ سمعت قائلا يقول ولا ارى شخصه شعرا:

تتوب من الذنوب إذا مرضتا
وترجع للذنوب إذا برينا
إذا ما الضر مسك انت باك
واخبث ما يكون إذا قويتا
فكم من كربة نجاك منها
وكم كشف البلاء إذا بليتا
اما تخشى هجوم الموت ياذا
وانت على الخطايا قد دهيتا
وتنسى فضل رب جاد لطفا
عليك لا خشيت ولا وعيتا
وكم عاهدت ثم نقضت عهدا
وأنت لكل معروف نسيتا

قال منصور بن عمار فقمت من عنده وخرجت وعينى تسكب العبرات عليه فما وصلت إلى بيتى هذا قيل لى انه قد مات فنسأل الله تعالى حسن الخاتمه فكم من نفس مكربها عند الموت بعد ان كانت صوامة قوامة فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم إنا نعوذ بك من مكرك وغضبك وعقابك يا اكرم الأكرمين يا الله

(وحكى عن منصور بن عمار أيضا رضى الله تعالى عنه انه قال) رأيت شابا فى بعض الأيام يصلى صلاة الخائفين فقلت فى نفسى هذا

وعينيها فاستجاب الله له فعرفيت ورد الله عليها بصرها ثم اخذ بيدها وقال لها قومى باذن الله تعالى فأطلق الله رجليها فقامت صحيحة وكأنما نشطت من عقال فنظرت إلى عزير فعرفته فقالت اشهد إنك عزير ثم إنها انطلقت إلى محلة بنى إسرائيل وهم فى أفنيتهم ومجالسهم وابن عزير شيخ ابن مائة سنة وثمانى عشرة سنة وبنو بنية شيوخ فى المجلس فنادت هذا عزير قد جاءكم فكذبوها فقالت أنا فلانة مولاتكم دعا لى ربه فرد على بصرى واطلق رجلى وزعم أن الله أماته مائة سنة ثم بعثه قال فنهض الناس واقبلوا إليه فقال ابنه كانت لأبى شامة سوداء مثل الهلال بين كتفيه فكشف عن كتفه فإذا هى بحالها فعرف عند ذلك انه عزير عليه السلام

(باب فى ذكر تمام قصة عزير عليه السلام وحاله بعد ما رجع إلى قومه)

قال الله تعالى (وقالت اليهود عزير بن الله) روى عطية العوفى عن ابن عباس قال كان عزير من أهل الكتاب وكانت التوراة عندهم فعملوا بها ما شاء الله أن يعملوا ثم أضاعوها وعملوا بغير الحق وكان التابوت فيهم فلما رأى الله تعالى انهم قد أضاعوها وعملوا بالأهواء رفع الله عنهم التابوت وأنساهم التوراة ونسخها من صدورهم فأرسل الله عليهم مرضاً فاستطلقت بطونهم حتى كان الرجل يمس كبده حتى نسوا التوراة وفيهم عزير فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا بعد ما نسخت التوراة من صدورهم وكان عزير قد أمر علماءهم أن يدعوا الله تعالى فدعا الله وإياهم وابتهل إليه أن يرد إليه ما نسخ من صدره فبينما هو يصلى مبتهلا إلى الله تعالى إذ نزل نور من السماء فدخل جوفه فعاد إليه الذى كان ذهب من صدره من التوراة فأذن فى قومه وقال يا قوم قد آتانى الله التوراة وردها إلى فطفق يعلمهم فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا وهو يعلمهم التوراة ثم أن التابوت نزل بعد ذلك بعد ذهابه منهم فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان فيه على الذى كان يعلمهم عزير فوجدوه مثله فقالوا والله ما أوتى عزير إلا أنه ابن الله (قال السدى) وابن عباس فى رواية عمار عمار إنما قالت اليهود هذا الآن العالقة ظهروا عليهم فقتلوهم وأخذوا التوراة وهرب علماؤهم الذين بقوا ودفنوا التوراة فى الجبال وغيرها ولحق عزير بالجبال وغيرها واختلط بالوحوش وجعل يتعبد فى رؤس الجبال ولا يخالط الناس ولا ينزل إلا يوم عيد وجعل يبكى ويقول يا رب تركت بنى إسرائيل بغير عالم وجعل يبكى حتى سقطت أشفار عينيه فنزل مرة إلى العيد فلما رجع فإذا بامرأة قد تمثلت له عند قبر من تلك وهى تبكى وتقول يا مطعماه يا مكسياه فقال لها عزير يا هذه اتقى الله واصبرى واحتسبى اما علمت أن الموت سبيل الناس ثم قال لها ويحك من كان يطعمك ويسقيك ويكسوك قبل هذا الرجل يعنى زوجها الذى كانت تندبه فقالت الله تعالى قال فإن الله عز وجل حى لا يموت أبدا قالت يا عزير فمن كان يعلم العلماء قبل بنى إسرائيل قال الله تعالى قالت فلم تبكى عليهم وقد علمت أن الموت حق وأن الله حى لا يموت فلما علم عزير أنه قد خصم ولى مدبراً فقالت يا عزير إنى لست امرأة ولكنى الدنيا أما إنه سينفع لك فى مصلاك عين وتنبت شجرة فكل من تلك الشجرة واشرب من ماء تلك العين واغتسل وصلى ركعتين فإنه سيأتيك شيخ ويعطيك شيئاً فما أعطاك فخذ منه فلما أصبح نبتت العين فى مصلاه ونبتت شجرة ففعل ما أمر به فجاء شيخ وقال له افتح فاك ففتح فاه فألقى فيه شيئاً كهيئة القوارير ثلاث مرات ثم قال له ادخل هذه العين فامش فيها حتى تبلغ أملك قال فدخل وجعل لا يرفع قدمه إلا ازيد فى علمه فرجع إليهم وهو من اعلم الناس بالتوراة ثم قال يا بنى إسرائيل قد جئتكم بالتوراة قالوا يا عزير ما كنت كذابا فربط على كل أصبع له قلما وكتب بأصابعه كلها حتى كتب التوراة كلها عن ظهر قلبه فأحيا لهم التوراة والسنة فلما رجع العلماء استخرجوا كتبهم التى دفنوها وقابلوها بتوراة عزير فوجدوها مثلها فقالوا ما أعطى الله له هذا إلا لأنه ابنه وقال الكلبى ان بختنصر لما ظهر على بنى إسرائيل وهدم بيت المقدس وقتل من قرأ التوراة وكان عزير إذ ذاك غلاماً صغيرا فاستصغره فلم يقتله ولم يدر أنه قد قرأ التورا فلما مات مائة سنة ورجعت بنو إسرائيل إلى بيت المقدس وليس فيهم

الشاب لعله من اولياء الله تعالى فوقفت حتى فرغ من صلاته فسلمت عليه فرد على السلام فقلت له يا شاب ألم تعلم ان فى جهنم واديا يقال له لظى نزاعة للشوى تدعوا من أدبر وتولى وجمع فأوعى فشهق شهقة وخر مغشياً عليه فلما أفاق قال زدنى يا منصور يرحمك الله فقلت يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون قال فخر الشاب ميتاً رحمة الله عليه فكشفت عن ثيابه لاغسله فوجدت على صدره مكتوبا بقلم القدرة فهو فى عيشة راضية فى جنة عالية قطوفها دانية قال منصور فغسلته وكفنته وصليت عليه ودفنته ثم نمت فرأيته فى المنام على سرير من ذهب مكلل باللآلىء وهو فى زينة عظيمة فقلت له ما فعل الله بك قال غفر لى واعطانى ثوابا مثل ثواب أهل بدر وزادنى على ذلك إضافة فقلت له لم ذلك فقال لانهم قتلوا بسيف الكفار وأنا قتلت بمحبة العزيز الغفار رضى الله تعالى عنه ونفعنا والمسلمين ببركاته

(وحكى عن بعضهم رضى الله تعالى عنه أنه قال)

كان فى قديم الزمان رجلان أحدهما عابد والآخر فاسق وكانا أخوين

من يقرأ التوراة بعث الله تعالى فيهم عزيرا ليجدد لهم التوراة ويكون لهم آية فأنامهم عزير وقال أنا عزير فكذبوه وقالوا إن كنت عزيرا كما تزعم فأملى علينا التوراة فكتبها وقال هذه التوراة فعجبوا وقالوا إن الله تعالى لم يقذف التوراة فى قلب رجل واحد منا بعد ماذهبت من قلوبنا إلا ابنه فعند ذلك قالت اليهود عزير بن الله

(مجلس فى ذكر غزوة بختنصر العرب وقصة يوحنا وخراب حضور)

قال الله تعالى (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين) إلى قوله تعالى (حصيداً خامدين) قال هشام بن محمد الكلبى وغيره كان بدء نزول العرب أرض العراق واتخاذهم الحيرة والأنبار منزلا أن الله تعالى أوحى إلى يوحنا بن برخيا بن خيا بن رؤبابيل بن سنبل وسنبل هذا هو أول من اتخذ الطفيشل كان من ولد يهوذا بن يعقوب أن ائت بختنصر وأمره ان يغزو العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم ولا أبواب ويطأ بلادهم ويقتل مقاتلهم ويستبيح أموالهم لكفرهم بى واتخاذ الآلهة دونى وتكذيبهم انبيائى ورسلى وذلك بعد قتل اهل حضور وهى بلدة باليمن بعث الله اليهم نبياً فاقبل يوحنا حتى قدم على بختنصر ببابل فاخبره بما أوحى الله تعالى اليه وقص عليه ما أمره به وذلك فى زمن معد بن عدنان فأوحى الله تعالى إلى يوحنا أنى قد سلطت بختنصر على أهل قرية عربة لا تنقم به منهم فعليك بمعد بن عدنان الذى من ولده النبى محمد ﷺ الذى أخرجه فى آخر الزمان وأختم به النبوة وأرفع به من أطاعه فخرج تطوى له الأرض حتى سبق بختنصر فلقى عدنان وقد تلقاه فنظر إلى معد ولمعد يومئذ اثنتا عشرة سنة فحمله يوحنا على البراق وأردفه خلفه فانتهيا إلى أرض نجران من ساعتهما قالوا ووثب بختنصر على من كان فى بلاده من تجار العرب وكانوا يقدمون عليه بالتجارات والامتيار فجمع من ظفر به منهم فبنى لهم ديرا على نجف وحصنه ثم ضمهم فيه فقيدوا ووكل بهم حرساً وحفظة ثم نادى فى الناس بالغزو فتأهبوا لذلك وانتشر الخبر فيمن يليهم من العرب فخرجت اليه الطوائف منهم مسالمين مستأمنين فاستشار بختنصر فيهم يوحنا فقال إن خروجهم اليك من بلادهم قبل نهوضك اليهم رجوع منهم عما كانوا عليه فأقبل منهم وأحسن اليهم قال فانزلهم بختنصر السواد على شاطىء الفرات والتقى بختنصر مع العرب فهزمهم وأثخن فيهم بالقتل والأسر وساروا حتى بلغ الحجاز التقى عدنان فى قومه من العرب وبختنصر بذات عرق فهزمهم ونادى مناد من جوف السماء يا ثارات الأنبياء فاخذتهم السيوف من خلفهم ومن بين أيديهم فندموا على ذلك ونودى بالويل فذلك قوله تعالى (فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون) أى يسرعون هاربين فأخذتهم السيوف وقالت لهم الملائكة لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم الآية فلما عرفوا أنه واقع بهم أقروا بالذنوب قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين فازالت تلك دعواهم فما زالوا يدعون بها حتى هلكوا لذلك قوله تعالى (فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين) ثم رجع بختنصر إلى بابل بما جمع من سبايا العرب فالقاهم فى الانبار فقيل أنبار العرب وانضم اليه المستأمنون من العرب وخلى بختنصر أهل الدير بعد فراغه من غزو العرب وابتنوا لأنفسهم بلدين فسموا أحداهما الأنبار والأخرى الحيرة وخالطهم بعد ذلك النبط ومات عدنان وبقيت بلاد العرب خرابا فى حياة بختنصر فلما مات بختنصر رجع معد بن عدنان ومعه انبياء بنى إسرائيل حتى أتى مكة فاقام اعلامها وحج الأنبياء معه.

(مجلس فى ذكر لقمان الحكيم عليه السلام وذكر بعض مواعظه وحكمته ووصيته لابنه)

قال الله تعالى (ولقد آتينا لقمان الحكمة) يعنى العقل والعلم والعمل به والإصابة فى الأمور واختلفوا فى نسبه فقال محمد بن اسحق بن يسار هو لقمان بن باعور بن ناحور بن تارخ وهو آزر أبو إبراهيم عليه السلام وقال وهب كان ابن أخت أيوب عليه السلام وقال مقاتل كان ابن خالة أيوب وقال الواقدى كان قاضى

شقيقين فكان العابد يتمنى أن يرى إبليس لعنه الله فى محرابه فتمثل له يوما من الأيام وقال له يافلان أسفا عليك ضيعت عمرك من اتعاب نفسك وهو أربعون سنة وقد بقى من عمرك مثل ما مضى فانظلق إلى شهوات نفسك ولذاتها عشرين سنة وتب بعد ذلك وعد إلى العبادة العشرين الأخرى فان الله تعالى غفور رحيم فقال العابد إنى لأنزل إلى أخى فى أسفل الدار وأوافقه على اللهو واللعب والشهوات واللذات عشرين سنة ثم أتوب بعد ذلك وأعبد الله العشرين الأخرى ولم يعرف أن ذلك المكيدة من إبليس لعنه الله تعالى وقال أخوه المسرف على نفسه قد أفنيت عمرى فى المعاصى أفأخى يدخل الجنة وأنا أدخل النار والله لأقومن ولأصعدن إلى أخى وأوافقه على الطاعة والعبادة باقى عمرى لعل الله تعالى أن يغفر لى قال فطلع العاصى على نية المعصية فزلفت رجل العابد فوقع على أخيه فمات الإثنان فحشر العابد على نية المعصية وحشر العاصى على نية التوبة فانظر يا أخى كيف ختم للطائع وكيف ختم للعاصى كما قال عليه الصلاة والسلام الأعمال بخواتيمها وقال إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فنسأل الله تعالى حسن

بنى إسرائيل وقال آخرون كان عبداً وقال مجاهد كان لقمان عبداً أسود عظيم الشفتين مشقق القدمين وروى الأوزاعى عن عبد الرحمن بن حرملة قال جاء اسود إلى سعيد بن المسيب يسأله فقال له سعيد ابن المسيب لاتحزن من اجل اسود فانه قد كان من خير الناس ثلاثة من السودان بلال ومهجع مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولقمان الحكيم كان أسود نوبياً من سودان مصر (وروى) نافع عن عبدالله بن عمر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول حفاً أقول لم يكن لقمان نبياً ولكن كان عبداً عصمه الله تعالى كثير التفكير حسن اليقين احب الله فأحبه الله فمن عليه بالحكمة وذلك أنه كان نائماً نصف النهار فجاءه النداء يالقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة فى الأرض تحكم بين الناس بالحق فاجاب الصوت فقال ان خيرنى ربى قبلت العافيه ولم أقبل البلوى وان عزم على فسمعا وطاعة فانى أعلم إن فعل بى أعاننى وعصمنى فقالت الملائكة يالقمان قال لأن الحاكم أشد المنازل وأكدوها يغشاه الظلم من كل مكان ان أصاب فأرجو أن ينجو وان اخطأ اخطأ طريق الجنة ومن يكن فى الدنيا ذليلا خير من أن يكون شريفاً ومن تخير الدنيا على الآخرة نفته الدنيا ولا تبقى له الآخرة فتعجبت الملائكة من حسن منطقه فنام نومة فاعطى الحكمة فانتبه فتكلم بها ثم نودى داود بعده فقبلها ولم يشترط بها ما اشترط لقمان فهم بالخطيئة غير مرة كل ذلك ويعفو الله عنه وكان لقمان يوازه بحكمته فقال له داود طوبى لك يالقمان أعطيت الحكمة وصرف عنك البلاء وأعطى داود الخلافه وابتلى بالبلية والفتنة .

(باب فى ذكر بعض ماروى من حكم لقمان ومواعظه المذكورة فى القرآن)

قال الله تعالى (ولقد آتينا لقمان الحكمة وإذقال لقمان لإبنه وهو يعظه يابنى لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم الآية) (أخبرنا) أبو عبد الله بن الحسين الدينورى عن عكرمة قال كان لقمان من أهون مملوك على سيده قال فبعثه مولاه مع رفقة له إلى بستان له ليأتوه بشىء من ثمره فجاؤا وليس معهم شىء وقد أكلوا الثمرة وأحالوا على لقمان فقال لولاه إن ذا الوجهين لايكون عند الله أميناً فاسقنى وإياه ماء حميما ثم أرسلنا لنقذفه ففعل فجعلوا يتقايؤن الفاكهة وجعل لقمان يتقايا ماء نقياً فعرف صدقه من كذبهم قال فأول مارأوا من حكمه أنه بيناهو مع مولاه إذ دخل المخرج فاطال فيه الجلوس فناداه لقمان أن طول الجلوس على الخلاء يتجع منه الكبد ويورث الباسور وتصعد الحرارة إلى الرأس فاجلس هوينا وقم فخرج وكتب حكمته على باب الحش قال وسكر مولاه يوما فخاطر أقواما على أن يشرب ماء بحيرة فلما أفاق عرف ماوقع فيه فدعا لقمان ثم قال له لمثل هذا اليوم كنت خبأتك قال أخرج كرسيك وأوباريقك ثم أجمعهم فلما اجتمعوا قال لهم على أى شىء خاطرتموني قالوا على ماء هذه البحيرة فقال لهم لقمان أن لها مواد فاحبسوا عنها موادها حتى يشربها قالوا وكيف نستطيع أن نحبس موادها فقال لقمان وكيف يستطيع شربها ولها مواد اخبرنا بن فتحويه باسناده عن خالد الربعى قال كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً فقال لمسيده اذبح لنا شاه فذبح له شاة فقال ائتنى باطيب مضغتين منها فاتاه باللسان والقلب فقال له أما كان فيها شىء أطيب من هذا قال لا فسكت عنه ثم قال اذبح لنا شاة فذبح شاه فقال ائتنى بأخبث مضغتين منها فجاءه باللسان والقلت فقال له أمرتك ان تأتينى باطيب مضغتين فاتيتنى باللسان والقلب وأمرتك أن تأتينى بأخبث مضغتين فأتيتنى باللسان والقلب فقال إنه ليس بأطيب منهما إذا طابا ولا أخبث منهما إذا خبثا (أخبرنا) الحسين بن الحسن بن محمد باسناده عن شقيق قال قيل للقمان أى الناس أشر قا قال الذى لايبالى ان يراه الناس مسيئاً وقيل للقمان ما اقبح وجهك قال تعيب بهذا على النقش أو على الناقش (وروى) الحارثى عن سفيان الثورى قال قال لقمان لإبنه أن الدنيا بحر عميق قد غرق فيها ناس كثير فلتكن سفينتك فيها تقوى الله ولو لكن حشوها إيمانك بالله وشراعها التوكل على الله فلعلك تنجو وما أظنك ناجيا يابنى كيف لايخاف الناس مايوعدون وهم فى كل يوم ينقصون يابنى خذ من الدنيا بلغة ولا تدخلن فيها دخولا

الخاتمة ونسأله الأمان من زوال الإيمان آمين (وحكى) عن مالك بن دينار عفا الله تعالى عنه ونفعنا به انه قال دخلت جبانة البصرة فاذا سعدون المجنون جالس بها فقلت له كيف أنت وكيف حالك ياسعدون فقال كيف حال من أمسى وأصبح يريد سفرا بعيدا بلازاد ولا راحلة ولاهمة يقدم على ذلك الحاكم بين العباد ثم بكى فقلت له ياسعدون ما يبكيك فقال والله ما بكيت حرصا على الدنيا ولاجزعا من الموت ولكن بكيت ليوم مضى من عمرى لم يحسن فيه عملى وأبكانى والله قلة الزاد وبعد المسافة والعقبة والكؤود ولم أدر بعد ذلك أصير إلى الجنة أم إلى النار قال مالك فسمعت منه كلام حكمة فقلت له ياسعدون ان الناس يزعمون أنك مجنون فقال وانت اغتررت يامالك بما اغتر به الناس يزعمون أنى مجنون ومابى من جنون ولكن حب مولاى قد خالط قلبى وأحشائى وجرى بين لحمى ودمى وعظامى وأنا والله من حبه هائم مشغول قال مالك فقلت له ياسعدون فلم لاتخالط الناس ولا تخاطبهم فأنشد يقول :

خذ عن الناس جانبا
وارض بالله صاحبا
قلب الناس كيف شئت
تجدهم عقاربا

فتضر فيها بآخرتك ولا ترفضها فتكون عيالا على الناس وصم صياما يقطع شهوتك ولا تصم صياما يمنعك عن الصلاة فإن الصلاة أعظم من الصوم يا بنى لا تتعلم العلم لتباهى به العلماء وتمارى به السفهاء أو ترائى به فى المجالس ولا تترك العلم زهادة فيه ورغبة فى الجهالة يا بنى اختر المجالس على عينك فإن رأيت قوما يذكرون الله فاجلس اليهم فانك إن تك عالما ينفعك علمك ويزيدوك علما وان تك مستهلا يعلموك ولعل الله أن يطلعهم برحمته فتعمك معهم وإذا رأيت قوما لا يذكرون فلا تجلس اليهم فانك إن تكن عالما لا ينفعهم علمك وان تكن جاهلا يزيدوك جهلا فلعل الله يطلعهم بالعقوبة فتعمك معهم يا بنى لا تضع برك إلا عند راعيه كما ليس بين الكبش والذئب خلة كذلك بين البار والفاجر خلة ومن يحب المرء يشتم من يدخل مداخل السوء يتهم ومن يقارن قرين السوء لا يسلم ومن لا يملك لسانه يندم يا بنى كن عبدا للأخيار ولا تكن خليلا للأشرار يا بنى كن أمينا تكن غنيا ولا تر الناس أنك تخشى الله وقلبك فاجر يا بنى جالس العلماء وزحمهم بركبتيك ولا تجادلهم فيمنعوك حديثهم والطف بهم فى السؤال إذا تركوك ولا تعجز فيملوك يا بنى لا تطلب من الأمر مدبرا ولا ترفض منه مقبلا فإن ذلك يقل الرأى ويزرى بالعقل يا بنى ان تأدبت صغيرا انتفعت كبيرا يا بنى إذا سافرت فلا تأمن على دابتك فان ذلك سريع فى أدبارها وليس ذلك من فعل الحكماء إلا أن تكنك فيه النمدد وإذا قربت من المنزل فانزل عن دابتك ثم اعلفها قبل نفسك وإياك والسفر فى أول الليل وعليك بالتعريس والأدلاج من نصف الليل إلى آخره وسافر بسيفك وخفيك وعمامتك وكسائك وسقائك وابرتك وخيوطك ومخرزك وتزود من الأدوية ما تنتفع به أنت ومن معك وكن لأصحابك موافقا موافيا إلا فى معصية الله يا بنى إياك والتقنع فانه بالنهار شهرة وبالليل ريبة يا بنى لا تأمر الناس بالبر وتنسى نفسك فتكون مثلك مثل السراج يضىء للناس ويحرق نفسه يا بنى لا تحقرن من الأمور صغارها ان الصغار تصير كبارا يا بنى إياك والكذب فإنه يفسد دينك وينقص عند الناس مروءتك فعند ذلك يذهب حياؤك وبهاؤك وجاهك ولا تهان ولا يسمع منك إذا حدثت ولا تصدق إذا قلت ولا خير فى العيش إذا كان هكذا يا بنى إياك وسوء الخلق والضجر وقلة الصبر فلا يستقيم لك على هذه الخصال صاحب ولا يزال لك من الناس عليها نجانب والزم نفسك التودد فى أمورك والصبر على موارات الأحوال وحسن مع جميع الناس خلقك فإن من حسن خلقه وأظهر بشره وبسطه حظى عند الأبرار وأحبه الأخيار وبجانبه الفجار يا بنى لا تعلق نفسك بالهموم ولا تشغل قلبك بالاحزان وإياك والطمع وأرض بالقضاء وقنع بما قسم الله لك يصف عيشك وتسر نفسك وتستلذ حياتك وإن أردت أن يجمع لك غنى الدنيا فاقطع طمعك مما فى أيدى الناس فإن ما بلغ الأنبياء والصديقون ما بلغوا إلا بقطع طمعهم بما فى أيدى الناس يا بنى ان غنى الدنيا قليل وعمرك فيها قليل من قليل وقد بقى قليل من قليل يا بنى اجعل معروفك فى أهله ولا تضعه فى غير أهله فتخسر فى الدنيا وتحرم ثوابه فى الآخرة وكن مقتصدا ولا تكن مبذرا ولا تمسك المال تقتيرا ولا تعطه تبذيرا يا بنى الزم الحكمة تكرم بها واعزها تعزبها وسيد أخلاق الحكمة دين الله عز وجل يا بنى للحاسد ثلاث علامات يغتاب صاحبه إن غاب ويتملق إذا شهد ويشمت فيه بالمصيبة ثم خبر لقمان الحكيم وما وصى لابنه والله أعلم.

(مجلس فى ذكر قصة ذى القرنين عليه السلام)

قال الله تعالى (ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكرا)

(باب فى نسبه ولقبه)

قال اكثر أهل السير هو الأسكندر بن فيلبش بن بطريوس بن هرمس بن هردوس بن منطون بن رومى بن لطين بن يونان بن يافث ويقال نسبه ينتهى إلى العيص بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن

(قيل) وكان سعدون المجنون رضى الله تعالى عنه ونفعنا به يدور فى شوارع البصرة ويقف عند كل باب ويقول:

يا أيها الناس اتقوا ربكم
إن زلزلة الساعة شىء عظيم

ثم يبكى وينشد عند ذلك ويقول:

فلو لم يكن فيها سوى الموت والبلى
وتمزيق أعضاء ولحم مبدد
لكنت حقيقا يا ابن آدم بالبكا
على نائبات الدهر مع كل مسعد

(قال) وكان سعدون رضى الله تعالى عنه إذا اشتد به الجوع ينشد ويقول:

إلهى أنت قد آليت حقا
بأنك لا تضيع من خلقتا
وإنك ضامن للرزق حقا
تؤدى ما ضمنت كما قسمتا
وإنى واثق بك يا إلهى
ولكن القلوب كما علمتا
إلهى أنت رزاق كريم
ومن لى بالعطاء إذا منعتا

(وقال) وكان سعدون رضى الله تعالى عنه عليه جبة من صوف مكتوب على كمها الأيمن سطر وهو:

عصيت مولاك يا سعيد
ما هكذا تفعل العبيد

وعلى الكم الأيسر سطران وهما:

تبا لمن قوته رغيف
أتى به السيد اللطيف

يعصى إلها له جلال

وهو به راحم رؤف
ومن خلفه سطران وهما
كل يوم يمر يأخذ بعضى
يذهب الاطيبين منى
ويمضى
نفس كفى عن المعاصى
وتوبى
ما المعاصى على الأنام
بفرض
ومن بين يديه سطران وهما
أيها الشيخ الذى لايرام
نحن من طينة عليها السلام
إنما هذه الدنيا متاع
نعم موت تساوى به الأنام
وعلى عكازه مكتوب
هذان السطران
اعمل وأنت بذى الدنيا
على وجل
واعلم بأنك بعد الموت
مبعوث
واعلم بأنك ما قدمت من
عمل
يحصى عليك وما خلفت
موروث
قال مالك فقلت له أنت
حكيم ولست بمجنون
فقال سعدون انا مجنون
الجوارح ولست بمجنون
القلب ثم ولى ولم أره رضى
الله تعالى عنه (وحكى عن
بشر الحافى رضى الله عنه
انه قال) كنت فى لهو
وعندى ندمان يشربون
ويطربون فمر بى رجل
من الصالحين على باب
دارى وطرق الباب
فخرجت اليه جارية من
الجوارى فلما رآها الرجل
قال يا جارية صاحب هذه

عليه السلام وزعم بعض القدماء ان الأسكندر هو أخو دارا بن دارا وذلك أن دارا الأكبر بن بهمن بن اسفنديار بن بيتاسف كان تزوج أم الاسكندر وكانت بنت ملك الروم وكان اسمها هلانة وأنها حملت إلى زوجها دارا الأكبر فوجد منها رائحة كريهة فأمر أن يحتال فى زوال ذلك منها فاجتمع رأى أهل المعرفة فى مداواتها على شجرة يقال لها سندروس فطبخت لها وغسلت بمائها فاذهب ذلك كثيرا من نتنها ومن عرقها ولم يذهب ذلك كله فانتهت نفسه عنها لبقية نتنها وعافها فردها على أهلها وقد علقت منه فولدت له فى أهلها غلاماً فسمته باسمه واسم الشجرة التى غسلت بمائها اسكندروس فهذا أصل اسمه ثم خفف فقيل اسكندر وكنى بذى القرنين واختلفوا فى تسميته بذلك فقال بعضهم سمى بذلك لأنه ملك الروم وفارس وقيل لأنه كان فى مقدم رأسه شبه القرنين من لحم وقيل لأنه دعا قومه إلى التوحيد فضربوه على قرنه الأيمن ثم دعاهم إلى التوحيد فضربوه على قرنه الأيسر وقيل لأنه كان له ذؤابتان حسنتان والذؤابة تسمى قرنا وقيل لأنه كان كريم الطرفين من أهل بيت شرف من أبيه وأمه وقيل لأنه كان انقرض فى وقته قرنان من الناس وهو حى وقيل لأنه كان إذا حارب قاتل بيديه وركابه جميعاً وقيل لأنه أعطى علم الظاهر والباطن وقيل لأنه دخل النور والظلمة والله اعلم .

(باب فى ذكر بدو أمره واستكمال ملكه)

قال الله تعالى (انا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سبباً فأتبع سبباً) وقال قوم كان فيلبش اليونانى أبو الاسكندر الأكبر ملك اليونانيين فلما مات ملك بعده الاسكندر وقال آخرون إن الاسكندر أخو دارا الأصغر وكان أبو هلانة جد الأسكندر لأمه ملكا من ملوك الروم فلما مات صار الملك لابن بنته الأسكندر وكانت ملوك الروم يؤدون الاتاوة جميعاً إلى ملوك الفرس وكانت الاتاوة التى كان أبو الأسكندر يؤديها إلى ملوك الفرس بيضة من ذهب فلما ملك الاسكندر وكان رجلا ذا عزيمة وقوة وملك غزا ملوك الروم فقهرهم واستجمع له ملك الروم ثم غزا بعض ملوك العرب فظفر بهم فآنس بذلك من نفسه القوة فاستعصى على دار الأصغر ملك فارس فامتنع من حمل ما كان أبوه يحمله اليه من الخراج والاتاوة عن نفسه وعن ملك الروم فكتب اليه دارا ابن دارا بقصة الخراج والاتاوة عن نفسه وعن ملك الروم فاجابه الاسكندر رأنى قد ذبحت تلك الدجاجة التى كانت تبيض ذلك وأكلت لحمها فلما وصل اليه الكتاب بذلك سخط عليه وكتب اليه يؤنبه بسوء صنيعه فى امتناعه عن حمل الخراج اليه وبعث اليه بصولجان وكرة وقميزى سمسم وأعلمه فيما كتب به اليه انك صبى وأنه ينبغى لك أن تلعب بالصولجان والكرة التى بعثت بهما اليك ولا تنتقلد الملك ولا تتلبس به ولا تستعصى وإلا بعثت اليك من يأتى بك وثاق ولو كان جنودك بعدد حب السمسم الذى بعثت به اليك فبعثت به اليه الاسكندر فى جواب ذلك أنى قد فهمت ما كتبت وقد نظرت ما ذكرت فى كتابك من إرسال الصولجان والكرة وضممت الكرة إلى الصولجان وشبهت الكرة بأرضك وإنى محتو على ملكك وأضيفه إلى ملكى واضيف بلادك إلى بلادى وإنى نظرت إلى السمسم الذى بعثته إلى كنظرى إلى الصولجان والكرة وبعثت إلى دارا مع كتابه صرة من خردل وأعلمه فى الجواب إنما بعثت اليك بذلك لأن جنودك مثل ذلك فلما وصل إلى دارا بن دارا جواب الاسكندر جمع جنوده وتأهب لمحاربة الاسكندر وإن الاسكندر أيضا تأهب للقائه ونادى فى عسكره بالرحيل وسار نحو بلاد دارا فالتقيا بناحية خرسان مما يلى الخزر واقتتلا أشد القتال ودارت الدائرة على جند دارا فعرض له فارسان من قرابته وأهل بيته وثقته وقيل أن أحدهما كان صنيعة قطعناه فارديا عن مركبه وأراد بطعنهما إياه الحظوة عند الأسكندر والوسيلة اليه وأن الاسكندر نادى أن يؤخذ دارا أسيرا لايقتل فأخبر بشأن دارا فأسرع حتى وقف عليه فرآه يجود بنفسه

فنزل إليه وجلس عند رأسه واخبره انه لم يهم قط بقتله وأن الذى اصابه لم يكن قط برأيه وإنما غدر به ثقاته ثم قال له سلنى عما بدالك فأسعفك به فقال له دارا أن لى إليك حاجتين إحدهما أن تنتقم لى من الرجلين الذين فتكا بى وسماهما وبلادهما والثانية أن تتزوج إبنتى روشنك فأجابه إلى الحاجتين وأمر بصلب الرجلين وأن ينادى عليهما هذا جزاء من اجترأ على ملكه وغش أهل بلده وتزوج ابنته روشنك وكان ملك دارا أربعة عشرة سنة فلما قتل اجتمع ملك الروم وكان الإسكندر متفرقا وتفرق ملك فارس وكان قبل الإسكندر مجتمعا .

(باب فى ذكر الحوادث التى كانت فى أيام ذى القرنين بعد قتل دارا ووصف مسيره إلى البلاد والآفاق)

قالت العلماء بأخبار القدماء لما قتل الإسكندر دارا ملك البلاد ودانت له العباد فهدم ما كان فى بلاد الفرس من بيوت النيران وما كان بأرض الهند من بيوت الاوثان وقتل الهرابذة واحرق كتبهم ودعا الناس إلى الإسلام والتوحيد (قال المرتضى) فى سبب إحراق كتبهم أن المجوس جعلوا حروف كتبهم من الذهب المضروب بمسامير الذهب على جلود الثيران فبلغ عددها اثنى عشر الفا فأحرقوها لحصول ذلك الذهب وبقى اثنتى عشرة مدينة منها ثلاث مدائن بخراسان هراة ومرو وسمرقند ومدينة بأرض اصفهان بنيت على مثال الجنة ومدينة بأرض اليونان يقال لها هيلاقوس ومدينة بابل لزوجته روشنك بنت دارا أو مدينة الإسكندرية ثم أنه رأى فى منامه أنه أخذ بقرنى الشمس ورأى فى منامه أنه يسير إلى آفاق الارض شرقا وغربا (واختلف) العلماء فى نبوته فقال قوم لم يكن نبيا وإنما كان عبدا صالحا وملكا عادلا فاضلا وقال آخرون بل كان نبيا غير مرسل والصحيح إن شاء الله تعالى أنه كان نبيا غير مرسل لما روى وهب وغيره من أهل الكتب قالوا كان ذو القرنين رجلا من الروم ابن عجوز من عجائزهم ليس لها ولد غيره وكان اسمه الاسكندر ويقال كان اسمه عياشا وكان عبدا صالحا فلما استحكم ملكه واجتمع أمره أوحى الله تعالى اليه ياذا القرنين إنى قد بعثتك إلى جميع الخلائق ما بين الخافقين وجعلتك حجتى عليهم وهذا تأويل رؤياك إنى باعثك إلى أمم الارض كلهم وهم سبع أمم مختلفة السنتهم منهم أمتان بينهما عرض الارض وأمتان بينهما طول الارض وثلاث أمم فى وسط الارض وهم الإنس والجن ويأجوج ومأجوج فأما الامتان اللتان بينهما طول الارض فأمة عند مغرب الشمس يقال لها ناسك وأمة أخرى بحيالها يقال لها منسك وهى عند مطلع الشمس واما الامتان اللتان بينهما عرض الارض فأمة فى قطر الارض الايمن يقال لها هاويل والاخرى بحيالها فى قطر الارض الايسر يقال لها تأويل فلما قال الله تعالى له ذلك قال ذو القرنين إلهى إنك قد ندبتنى إلى أمر عظيم لا يقدر عليه إلا أنت فأخبرنى عن هذه الامم التى بعثتنى إليهم وبأى قوة أكابرهم وبأى جمع وحيلة أكاثرهم وبأى صبر اقاسيهم وبأى لسان أناطقهم وكيف لى بأن افقه لغاتهم وبأى سمع اسمع اقوالهم وبأى بصر انقدهم وبأى حجة أخاصمهم وبأى عقل اعقل عنهم وبأى قسط أعدل بينهم وبأى حلم أصابرهم وبأى معرفة أفصل بينهم وبأى علم أتقن أمورهم وبأى يد أسطو عليهم وبأى رجل أطؤهم وبأى طاقة أحصيهم وبأى جند أقاتلهم وبأى رفق أؤلفهم وليس عندى يا إلهى شىء مما ذكرت يقوم لهم ويقوينى عليهم وأنت الرؤوف الرحيم لا تكلف نفسا إلا وسعها ولا تحملها فوق طاقتها ولا تشقيها بل ترحمها فقال الله تعالى سأطوقك ما حملتك وأشرح لك سمعك وصدرك فتسمع وتعى كل شىء واشرح لك فهمك فتفقه كل شىء وابسط لك لسانك فتنطق بكل شىء وإفتح لك بصرك فتنقد كل شىء وأحصى لك قوتك فلا يفوتك شىء وأشد لك عضدك فلا يهولك شىء وأشد لك ركنك فلا يغلبك شىء وأشد لك قلبك فلا يفزعك شىء وأشد لك يديك فتسطو على كل شىء وأشد لك وطأك فتهلك كل شىء والبسك الهيبة فلا يروعك شىء وأسخر لك النور والظلمة

الدار حر ام عبد فقالت له الجارية بل حر فقال لها صدقت لو كان عبدا لاستعمل آداب العبودية وترك اللهو واللعب ثم تركها ومضى قال شر فأتت إلى الجارية واخبرتنى بذلك فذهبت إلى الباب مسرعا حافيا فوجدت الرجل قد مضى فتبعته حتى لحقته ثم قلت له أنت الذى وقفت بالباب فقال نعم فقلت له أعد على ماقلته فأعاده على قال بشر فرغت خدى على التراب وقلت له بل عبد بن عبد ثم هممت على وجهى حافيا حتى عرفت بالحافى فقيل لى لم لا تلبس نعلين تقيانك من الحر والبرد فقلت ماصالحنى مولاى إلا حافيا قال فكان كذلك حتى مات رحمة الله تعالى عليه ونفعنا به وببركاته ومدنا من مدده

(وحكى عن بعضهم رضى الله تعالى) عنه أنه قال كان ببغداد رجل من التجار كنت سمعت أنه يقع فى حق السادة الصوفية بكلام قبيح ثم رأيته بعد ذلك بمدة يسيرة قد صحبهم وانفق ماله عليهم فقلت له كنت قبل الآن تبغضهم قال نعم كان قلبى مهتما بذلك صليت الجمعة يوما من الايام بمسجد بغداد ثم خرجت فرأيت بشر الحافى رضى الله عنه خارجا من المسجد مسرعا فقلت فى نفسى انظر إلى هذا الرجل

وأجعلها جندمن جنودك يهديك النور أمامك وتحوط بك الظلمة من ورائك فلما قيل له ذلك حدثته نفسه بالمسير وألح عليه قومه بالمقام فلم يفعل وقال لابد من طاعة الله تعالى ثم أمرهم أن يبنوا له مسجداً وأن يجعلوا طول المسجد أربعمائة ذراع وعرضه مائتى ذراع وعرض أساس حائطه أربعة وعشرون ذراعاً وطوله فى السماء مائة ذراع وأمرهم أن ينصبوا فيه السوارى قالوا كيف نصنع قال إذا فرغتم من من شأن الحيطان فاكسوها بالتراب حتى يستوى الكيس مع حائط المسجد فإذا فرغتم فرضتم من الذهب على الموسر قدره وعلى المقتر قدره وقطعتموه مثل قلامة الظفر ثم خلصتموه بذلك الكيس وجعلتم خشباً من نحاس ووتداً من نحاس وصفائح من نحاس تذيبون ذلك وأنتم ممكنون من العمل وكيف شئتم على أرض مستوية وجعلتم طول كل خشبة مائة ذراع وأربعة وعشرون ذراعاً ومائتى ذراع فيما بين الحيطان لكل حائط اثنا عشر ذراعاً ثم تدعون المساكين لنقل التراب فيسارعون إليه لما فيه من الذهب والفضة فمن حمل شيئاً فهو له ففعلوا ذلك فأخرج المساكين ذلك التراب واستقر السقف مما عليه واستغنى المساكين فكان جندهم أربعين الفاً فجعلهم أربعة أجناد فى كل جند عشرة آلاف ثم عرض جنده فوجدهم فيما قيل الف الف وأربعمائة الف منهم من جنده ثمانمائة الف ومن جند دارا ستمائة الف ومن المساكين أربعين الفاً ثم انطلق يؤم الامة عند مغرب الشمس فذلك قوله تعالى (حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة أى ذات حمأ ومن قرأ حامية بألف من غير همزة فمعنا حارة (أخبرنا) عبد الله بن حامد الاصفهانى بإسناده عن ابن عباس قال اقرأنيها أبى بن كعب كما أقرأه رسول الله ﷺ فى عين حمئة وقال ابن عباس كنت جالساً عند معاوية إذ قرأ هذه الآية وجدها تغرب فى عين حامية فقلت ما نقرؤها إلا حمئة فقال معاوية لعبد الله بن عمر كيف تقرؤها قال أقرؤها كما قرأتها يا أمير المؤمنين قال ابن عباس فأطلت الجدال معهما فأرسل معاوية إلى كعب فجاءه فقال له اين تجد الشمس تغرب فى التوراة يا كعب قال أما العربية فأنتم أعلم بها منى واما الشمس فإنى أجدها فى التوراة تغرب فى ماء وطين وأنشدك ما نزاد به تبصرا وهو قول تبع :

قد كان ذو القرنين قبلى مسلما ... ملكا تدين له الملوك وتسجد
بلغ المشارق والمغارب يبتغى ... أسباب أمر من حكيم مرشد
فرأى مغيب الشمس عند غروبها ... فى عين ذى خلب وثاط حرمد

فقال معاوية ما الخلب يا كعب فقلت الطين بكلامهم قال فما الثأط قلت الحمأة قال وما الحرمد قلت الأسود فدعا رجلا فقال أكتب ما يقول فلما بلغ مغرب الشمس وجد عندها جمعاً وعدداً لا يحصيه إلا الله تعالى وقوة بأساً لا يطيقه إلا الله تعالى ورأى السنة مختلفة وأهواء مشتبهة فذلك قوله تعالى (وجد عندها قوماً) يعنى تأسأ فلما رأى ذلك كاثرهم بالظلمة فضرب حولهم ثلاث عساكر فأحاط بهم من كل مكان حتى جمعه فى مكان واحد ثم أخذ عليهم بالنور ودعاهم إلى الله تعالى وإلى عبادته فمنهم من آمن ومنهم من صد عنه فعمد إلى الذين تولوا عنه فأدخل عليهم الظلمة فدخلت فى أنوفهم وآذانهم وأجوافهم ودخلت فى بيوتهم ودورهم وغشيتهم من فوقهم ومن تحتهم ومن كل جانب فلما خوفوا صاحوا وتحيروا فلما أشفقوا أن يهلكوا فيها ضجوا بصوت واحد فكشفها عنهم وأخذهم عنوة فدخلوا فى دوته فجامن أهل المغرب أمم عظيمة فجعلهم جنداً واحداً ثم انطلق بهم يقودهم والظلمة تسوقهم ومن خلفهم وتحرسهم والنور أمامه يقوده ويدله وهو يسير فى ناحية الأرض اليمنى وهو يريد الأمة التى فى قطر الارض اليمنى التى يقال لها هاويل وسخر الله له قلبه ويده ورأيه وعقله ونظره فلا يخطىء إذا عمل عملا فانطلق يقود تلك الأمة وهى تتبعه حتى إذا انتهى إلى بحر أو مخاضة هيأ سفناً من ألواح صغار مثل النعال فيلحمها فى ساعة ثم يحمل فيها جميع ما معه من تلك الامم وتلك الجنود وإذا بلغ البحار والأنهار فتقها ثم يدفع إلى كل رجل منهم لوحا فلا يكترث

المرصوف بالزهد والورع لم يستقر فى المجد ساعة فتبعته حتى دخل السوق ووقف على الخباز واشترى بدرهم خبزا ثم تقدم إلى الشورى فاشترى منه بدرهم شورى ثم اشترى بدرهم حلواء فقلت فى نفسى لا أبرح عنه حتى أنظر مادا يصنع بهذا فخرج إلى الصحراء فتبعته وأنا اقول يريد الماء والخضرة فما زال يمشى وأنا خلفه إلى قريب من العصر حتى دخل مسجدا آخر فيه مريض فجلس عند رأسه وصار يطعمه لقمة وأنا انظر إليه فقمت لأنظر ذلك المسجد وما حوله فقمت ساعة ثم رجعت إلى المسجد فلم أجد بشرا الحافى فسألت المريض وقلت له أين الذى كان يلقمك فقال بشر الحافى فقلت نعم واين هو فقال توجه إلى بغداد فقلت كم بينى وبين بغداد قال اربعون فرسخا يعنى خمس مراحل قال فقلت لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ما هذا الذى فعلته بنفسى وليس معى شىء اكترى به ما اركبه ولم اقدر على المشى قال فجلست عند المريض فى المسجد إلى الجمعة الأخرى حتى جاء يوم الجمعة ومعه شىء يؤكله للمريض فلما فرغ من إطعامه قال له المريض يا أبا نصر هذا لرجل صحبك من بغداد

بحمله فلم يزل ذلك دأبه حتى انتهى إلى هاويل ففعل فيها كفعله فى ناسك فلما فرغ منها مضى على وجهه فى ناحية الأرض اليمنى حتى انتهى إلى منسك عند طلوع الشمس وجدها تطلع على قوم فعمل فيها وجند جنودا كفعله فيما قبلها وذلك قوله تعالى (حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا) وذلك إنهم كانوا فى مكان لا يستقر عليه بناء وكانوا يسكنون فى أسراب لهم حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى معايشهم وحروثهم (وقال الحسن) كانت أرضهم أرضا لا تحتمل البناء وكانوا إذا طلعت الشمس عليهم دخلوا الماء فإذا ارتفعت عنهم خرجوا فرعوا كما ترعى البهائم وقال ابن جريج جاءهم مرة جيش للتفرج على طلوع الشمس فنهاه اهلها فقالوا ما نبرح حتى تطلع الشمس فتراها ثم إنهم قالوا ماهذه العظام فقالوا هذه جيف قوم طلعت عليهم الشمس فماتوا ههنا قال فذهبوا هاربين إلى الأرض وقال الكلبى هم أمة يقال لها منسك حفاة عراة عماة عن الحق قال وحدثنا عمرو بن مالك بن أمية قال وجدت رجلا بسمرقند يحدث الناس وهم حوله مستمعون له مجتمعون فسألت بعض من سمع حديثه فأخبرنى أنه حدثهم عن القوم الذين تطلع عليهم الشمس قال خرجت حتى جاوزت الصين ثم سألت عنهم فقيل لى أن بينك وبينهم يوما وليلة فاستأجرت رجلا ثم سرت بقية يومى وليلتى حتى صبحتهم فإذا أحدهم يفرش أذنه ويلتحف الأخرى وكان صاحبى بحسن لسانهم فسألهم فقالوا لما انتظرحنى تطلع الشمس قال فبينما نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة فغشى على فوقعت فلما أفقت قمت وهم يمسحون على بالدهن فلما طلعت الشمس على الماء إذا هى على الماء كهيئة الزيت وإذا طرف السماء كهيئة الفسطاط فلما ارتفعت أدخلونى سربا لهم أنا وصاحبى فلما ارتفع النهار خرجوا إلى البحر فجعلوا يصطادون السمك ويطرحونه فى الشمس فينضج والله أعلم .

(باب فى صفة سد ذى القرنين وما يتعلق به)

قال الله تعالى (حتى إذا بلغ بين السدين وجدوا من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا) قالت العلماء بأخبار القدماء لما فرغ ذو القرنين من أمر الأمم وهم فى أطراف الارض وطاف المشرق والمغرب عطف منها على الأمم التى فى وسط الأرض من الجن والإنس ويأجوج ومأجوج فلما كان بعض الطريق مما يلى منقطع الترك نحو المشرق قالت له أمة صالحة من الإنس ياذا القرنين بين هذين الجبلين خلق من خلق الله ليس فيهم مشابهة من الإنس وهم أشباه البهائم يأكلون العشب ويفترسون الدواب والوحوش كما تفترسها السباع ويأكلون حشرات الأرض كلها من الحيات والعقارب وكل ذى روح مما خلق الله فى الأرض وليس لله خلق ينمون نماءهم ولا يزدادون كزيادتهم فإن أنت أطلعت على ماينمو من نمائهم وزيادتهم فلا تشك أنهم سيملؤن الأرض ويخرجون أهلها مثلها ويظهرون عليها ويفسدون فيها وليست تمر بنا سنة منذ جاورناهم إلا ونحن نتوقع أن يطلع علينا أولهم من بين هذين الجبلين فهل لك خرجا أى جعلا وأجرا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا حاجزا فلا يصلون إلينا فقال لهم ذو القرنين مامكنى فيهم ربى أى قوانى عليه خير من خراجكم فاعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما حاجزا كالحائط قالوا وما تلك القوة قال فعلة وصناع يحسنون البناء والعمل والآلة قالوا وما تلك الآلة قال آتونى زبر الحديد أى قطعة واحدتها زبرة وآتونى النحاس فقالوا من أين لنا الحديد والنحاس مايسمع هذا العمل قال سأدلكم على معادنهما قالوا فبأى قوة نقطع الحديد والنحاس فاستخرج لهم معدنا آخر يقال له الساهون وهو أشد ماخلق الله فى الأرض بياضا وهو الذى قطع به سليمان أساطين بيت المقدس وصخوره وجواهره ثم إنه قاس مابين الجبلين ثم أوقد على ماجمع من الحديد والنحاس النار وصنع منها زبرا مثل الصخور العظام ثم أذاب النحاس فجعله

فى الجمعة الماضية وهو مقيم عندى قال فنظر إلى بشر كالمغضب وقال لم صحبتنى فقلت اخطأت يا سيدى واستغفرت الله العظيم مما كان منى فقال بشر الحافى قم فامش فمشيت معه إلى قريب من المغرب فدخل بغداد قال أين محلك من بغداد فقلت فى المحل الفلانى فقال اذهب ولا تعد لمثل هذا فتبت إلى الله تعالى وصحبته رضى الله تعالى عنه ونفعنا به فى الدارين آمين

(وحكى عن بعضهم رضى الله تعالى عنه) أنه قال دخلت الخلوة فى ايام جذلى وعاهدت ربى عز وجل أن لا آكل شيئا إلا بعد أربعين يوما فمكثت فى الخلوة عشرين يوما فاشتد على الجوع والفاقة والضرورة فخرجت من الخلوة فسرت ولم اشعر بنفسى إلا وأنا فى السوق فبينما أنا كذلك إذا بفقير يتمنى على الله رطل خبز ورطل شواء ورطل حلواء فتعجبت من ذلك وهو يمر على ولا يكلمنى فقلت فى نفسى أن هذا الرجل الثقيل كيف يتمنى هذه الشهوات العزيزة وأنا أطلب كسرة يابسة لم تحصل قال فلما كان بعد ساعة حصل له ماتمناه فجاء فى بذلك وأعطانيه وقال يا فلانة أتدرى من هو الثقيل الذى يخرج من الخلوة لأجل الشهوات وينقض العهد يطلب من

الطيبات والنفائس مايرد ثم قال لاتعد لمثلها أبدا وتركني ومضى فلم أره رضى الله تعالى عنه ونفعنا بهم اجمعين وجميع المسلمين آمين

(وحكى عن الشيخ المسمى بجوهر الشكور المدفون بعدن رضى الله تعالى عنه) أنه كان مملوكا فعتق فكان يبيع ويشترى فى الأسواق إلا إنه كان يحضر مجلس الفقراء ويعتقدهم أعتقادا شديداً وكان رجلا أمينا فلما حضرت وفاة الشيخ العارف بالله تعالى شيخ الطريقة بعد المدفون بها اجتمعت عليه الفقراء وقالوا ياسيدي من يكون شيخا بعدك فقال الذى يقع على رأسه الطائر الأخضر فى اليوم الثالث بعد موتى عند اجتماع الناس والفقراء عند قبرى فيكون هو الشيخ عليكم ثم توفى الشيخ رحمه الله تعالى فاجتمع الفقراء عند قبره ثلاثة أيام ينتظرون ماوعدهم الشيخ رضى الله تعالى عنه فبينما هم كذلك إذا بالطير الأخضر قد وقع قريباً منهم وارتفع فصار كل من الفقراء يتمنى أن يكون هو الموعود به فبينما هم منتظرون الوعد الكريم وما يكون فيه من تقدير العزيز العليم إذا بالطير قد وقع على رأس جوهرة لم يكن بخطره ذلك ولا لأحد من الفقراء فقام الفقراء يزفونه إلى الزاوية وينزلونه

عليه القوة ثم قال أن الذى يطوى الأربعين يوماً يطويها بالتدريج

كالطين والملاط لتلك الصخور التى هى من الحديد ثم بنى وكيفية بنائه على ماذكر أهل السير أنه لما قاس مابين الجبلين وجد مابينهما مائة فرسخ فلما انشأ فى عمله حفر له الاساس حتى بلغ الماء ثم جعل عرضه خمسين فرسخاً ثم وضع الحطب بين الجبلين ثم نسج عليه الحديد ثم نسج الحطب على الحديد فلم يزل يجعل الحطب على الحديد والحديد على الحطب حتى ساوى بين الصدفين وهما الجبلان ثم أمر بالنار فأرسلت فيه ثم قال انفخوا حتى جعل يفرغ القطر فيه وهو النحاس المذاب فجعلت النار تأكل الحطب ويصير النحاس مكان الحطب حتى لزم الحديد النحاس فصار كأنه برد حبرة من صفرة النحاس وحمرته وسواد الحديد وغبرته فصار سداً طويلا عظيما حصيناً قال تعالى (فما استطاعوا أن يظهروه) أى يعلوه (وما استطاعوا له نقبا) قال قتادة ذكر لنا أن رجلا قال يانبى الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج قال انعته لى قال كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء فقال قد رأيته ويقال أن موضع السد وراء زخزد بقرب مشرق الارض بينه وبين الخزر مسيرة اثنين وسبعين يوما وذكر أن الواثق بالله أمير المؤمنين رأى أن السد مفتوحا فوجه سلاماً الترجمان فى خمسين رجلا وأعطاه خمسة آلاف دينار وأعطى كل رجل من الخمسين خمسين الف درهم ورزق سنة وأعطاه مائتى بغلة تحمل الزاد والماء وخرج من سر من رأى بكتاب الواثق بالله إلى إسحق وإسمعيل صاحب أرمينيه وكان بتفليس وكتب إسحق إلى صاحب السرير وكتب له صاحب السرير إلى ملك اللان وكتب له ملك اللان إلى الازلى طلجند فى بلاد شاه ملك الخزر فأقام عنده حتى أخذ معه خمسين رجلا أدلاء فساروا خمسة وعشرين يوماً حتى انتهوا إلى أرض سوداء منتنة الريح ثم سألوا عن سبب نتن الريح ماهى فقالوا مات ههنا قوم ثم ساروا فى مدن خراب عشرين يوماً فسألوا عن تلك المدن فقالوا قد ظهر فيها يأجوج ومأجوج فخربوها ثم ساروا إلى حصون بالقرب من الجبل يتكلمون بالعربية والفارسية يقرؤن القرآن ولهم مكاتب ومساجد فقالوا لنا من هؤلاء القوم قلنا رسل أمير المؤمنين فقالوا من هو أمير المؤمنين قلنا من أولاد العباس ملك بالعراق فتعجبوا منه وقالوا شيخ أوشاب وزعموا أنهم لم يبلغهم خبره ثم فارقوهم وساروا إلى أملس ليس عليه خضرة وإذا جبل مقطوع بواد عرضه مائة وخمسون ذراعاً عضادتاه مبنيتان مقابلتا الجبل عرض كل عضادة خمسة وعشرين ذراعاً مبنية بلبن من حديد مركبة فى نحاس فى سمك خمسين ذراعاً وإذا وتد من حديد طرفاه على وعضادتين طوله مائة وعشرون ذراعاً قد ركب على العضادتين علو كل واحدة مقدار عشرة أذرع فى عرض خمسة أذرع فوق ذلك اللبن الحديد المغيب فى النحاس إلى رأس الجبل وارتفاعه مد البصر فإذا باب له مصراعان منصوبان من حديد عرض كل باب خمسون ذراعاً فى ارتفاع خمسين ذراعاً قائمتاها فى دورهما على قدر الدربند وعلى الباب قفل طوله سبعة أذرع فى غلظ ذراع وأرتفاع القفل من الارض خمسة وخمسون ذراعا وفوق القفل مقدار خمسة أذرع غلق وعلى الغلق مفتاح طوله ذراع ونصف معلق فى سلسلة طولها ثمانية أذرع فى استدارة أربعة أشبار والحلقة التى فى السلسلة مثل حلقة المنجنيق وعرض عتبة الباب عشرة أذرع فى طول مائة ذراع سوى مافى العضادتين والظاهر منها هذا كله بذراع السواد ورئيس تلك الحصون يركب كل جمعة فى عشرة فوارس مع كل فارس مرزبة من حديد وزن كل واحدة خمسون منا فيضرب القفل بالمرزبات كل يوم ثلاث ضربات فيسمع من وراء الباب الصوت فيعلموا أن هناك حفظة ويعلم هؤلاء أن أولئك لم يحدثوا فى الباب حدثا فإذا ضربوا أصغوا إليه بآذانهم فيسمعون من داخل دويا وبالقرب من هذا الجبل حصن كبير عظيم عشرة فراسخ فى مسيرة مائة فرسخ لانها عشرة فى عشرة ومع الباب حصنان طول كل واحد منهما مائتا ذراع وعلى باب هذين الحصنين صخرتان وبين الحصنين ماء عين عذب فى أحد الحصنين آلة البناء التى بنى بها السد من قدور الحديد ومغارف من حديد وسألناه هل وراء ذلك أحد من أهل يأجوج

ومأجوج فذكروا أنهم رأوا منهم عدة فوق الشرف فهبت ريح سوداء فالقتهم إلى جانبهم وكان مقدار الرجل فى رأى العين شبراً ونصفاً قال فلما انصرفنا أخذنا الأدلاء على نواحى خراسان فدلنا إليها فوقفنا إلى القرب من سمرقند على سبعة فراسخ وكان أصحاب الحصن قد زودونا الطعام ثم سرنا إلى عبد الله بن طاهر فوصلنا بمائة ألف درهم ووصل كل رجل معى بخمسمائة درهم وأجرى على كل فارس خمسة دراهم وعلى كل رجل ثلاثة دراهم كل يوم حتى صرنا إلى الرى ورجعنا إلى سر من رأى بعد ثمانية وعشرين شهراً والله أعلم .

(باب فى دخول ذى القرنين الظلمات مما يلى القطب الشمالى لطلب عين الحياة)

روى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال كان ذو القرنين قد ملك ما بين المشرق والمغرب وكان له خليل من الملائكة إسمه روفائيل يأتيه ويزوره فبينما هما ذات يوم يتحدثان إذ قال له ذو القرنين يا رفائيل حدثنى عن عبادتكم فى السماء فبكى وقال ياذا القرنين وما عبادتنا من عبادتكم إن فى السماء من الملائكة من هو قائم لا يجلس أبداً ومن هو ساجد لا يرفع رأسه أبداً ومن هو راكع لا يستوى قائماً أبداً ويقولون سبحان القدوس رب الملائكة والروح ربنا ما عبدناك حق عبادتك فبكى ذو القرنين بكاء شديداً ثم قال إنى أحب أن أعيش فأبلغ من عبادة ربى حق عبادته فقال روفائيل أو تحب ذلك ياذا القرنين قال نعم قال روفائيل فإن لله عيناً فى الأرض تسمى عين الحياة وجعل الله عز وجل أن من يشرب منها شربة لا يموت أبداً حتى يكون هو الذى يسأل ربه الموت فقال له ذو القرنين هل تعلمون أنتم موضع تلك العين فقال لا غير أن نتحدث فى السماء ان لله فى الأرض ظلمة لا يطؤها إنس ولا جان فنحن نظن أن تلك العين فى تلك الظلمة فجمع ذو القرنين علماء أهل الأرض وأهل دراسة الكتب وآثار النبوة فقال لهم أخبرونى هل وجدتم فيما قرأتم من كتب الله تعالى وما جاءكم من الأحاديث وسألتم من كان قبلكم من العلماء أن الله وضع فى الأرض عيناً سماها عين الحياة فقالت العلماء لا فقال عالم من العلماء إنى قرأت وصية آدم عليه السلام فوجدت فيها أن الله خلق فى الأرض ظلمة لم يطأها إنس ولا جان ووضع فيها عين الخلد فقال ذو القرنين أين وجدتها قال فى الأرض التى على قرن الشمس فبعث إليها ذو القرنين وحشد إليها الفقهاء والأشراف من الناس والملوك ثم سار يطلب مغرب الشمس فسار إثنتى عشرة سنة إلى أن بلغ طرف الظلمة فإذا هى مثل الدخان وليست كظلمة الليل فعسكر هنالك ثم جمع علماء عسكره فقال إنى أريد أن أسلك هذه الظلمة فقالت العلماء أيها الملك من كان قبلك من الملوك والأنبياء لم يطأ هذه الأرض فلا تطأها فإنا نخاف أن ينفتح عليك أمر تكرهه ويكون فيه فساد الأرض ومن عليها فقال لا بد أن أسلكها فقالوا أيها الملك كف عن هذه الظلمة فإنا لو نعلم أنك إن طلبتها ظفرت بما تريد ولم يحبط الله علينا لاتبعناك ولكنا نخاف من الله تعالى فساداً فى الأرض ومن عليها فقال ذو القرنين لا بد من أن أسلكها فقالت العلماء شأنك بها فقال ذو القرنين أى الدواب بالليل أبصر قالوا الخيل قال وأى الخيل بالليل أبصر قالوا الإناث قال وأى الإناث أبصر قالوا البكارى قال فأرسل ذو القرنين فجمع له ستة آلاف فرس أنثى أبكار ثم انتخب من عسكره أهل الجلد والعقل ستة آلاف رجل فدفع لكل رجل منهم فرساً وعقد راية للخضر عليه السلام وجعله مقدمته فى ألفين وبقى ذو القرنين فى أربعة آلاف رجل فقال ذو القرنين لبقية عسكره لا ترحلوا من مكانكم هذا إلى إثنتى عشرة سنة فإن نحن رجعنا إليكم وإلا فارجعوا إلى بلادكم فقال الخضر أيها الملك إنا نسلك الظلمة ولا ندرى كم السير فيها ولا يبصر بعضنا بعضاً وكيف نصنع بالضلال إذا أصابنا فدفع ذو القرنين إلى الخضر عليه السلام خرزة حمراء وقال له حيث يصيبكم الضلال فاطرح هذه فى الأرض فإذا صاحت فليرجع إليها أهل الضلال أين صاحت قال فصار الخضر بين يدى ذى القرنين يرتحل الخضر ويحط ذو القرنين فبينما الخضر عليه السلام يسير إذ عرض له واد فظن الخضر أن العين فى الوادى وألقى فى قلبه ذلك فقام على شفير الوادى ومكث طويلا ثم أجابته الخرزة فطلب صوتها فانتهى إليها فإذا هى على جانب العين فنزع الخضر ثيابه ثم دخل العين فإذا ماؤها أشد بياضاً من اللبن وأحلى من الشهد فشرب

منزلة الشيخ فبكى جوهر وقال كيف أصلح لذلك وأنا رجل سوقى ولم أكن أعرف طريقة الفقراء وعلى تبعات بينى وبين الناس معاملات فقال له الفقراء هذا أمر من الله عز وجل فالله يتولاك ويعينك ويعلمك وهو يتولى الصالحين فقال لهم جوهر فأمهلونى حتى امضى إلى السوق وأبرأ من حقوق الناس فأجابوه لذلك فذهب إلى السوق ووفى كل ذى حق حقه ورجع إلى الفقراء وترك السوق ولزم الزاوية والفقراء وصار جوهر اكبا له من الكرامات والفضائل ما يطول شرحه فسبحان المنان الكريم ذى العرش العظيم فصبر على العبادة حتى مات رضى الله تعالى عنه

(وحكى ان الحجاج بن يوسف الثقفى) بعث إلى رجل من أهل الخير والصلاح والعبادة فلما حضر بين يديه لم يمهله دون ان قال لغلمانه اذهبوا به إلى السجن وقيدوه واكتبوا على قيده مخلد فلما سمع ذلك الرجل مقالة الحجاج تبسم وقال إنك تحتاج إلى مسمار كبير يكون وزنه قنطارا فقال الحجاج ما اصنع به فقال له الرجل تسمر به الفلك فلعل هذا من شؤم فعلك وقلة عقلك وتجارتك على مولاك وحلمه عليك قال فاغتاظ الحجاج عند ذلك وامر السجان ان

يأخذه ويقيده بسلسلة ويبنى له بيتاً ويضعه فيه ويسد أبوابه حتى يموت فيه ففعل به السجان وأحصر له حداد ثم وضع القيد فى رجله وأمسك عليه بالرصاص فقال الرجل عند ذلك حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم قال ثم وضعوه فى البيت مقيداً مسلسلا فلما جاء الليل مضى السجان إلى الرجل فسمعه قائماً يصلى ويقرأ ويدعو الله عز وجل فتعجب السجان من ذلك فلما طلع النهار أتى السجان إلى الرجل فلم يجده ورأى البيت على حاله والحديد ملقى على الأرض قال فخاف السجان على نفسه من ذلك فتوجه إلى عياله وأولاده وودعهم وأخذ كفناً ومضى به الحجاج وهو مصفر اللون موقن بالموت فلما وقف بين يدى الحجاج قال ما بالك بهذه الحالة فقص عليه القصة فقال الحجاج على بالحداد فحضر بين يديه فقال ما صنعت بالرجل بالأمس فقال صنعت به كذا وكذا فقال الحجاج ما كان يقول عند ذلك فقال السجان سمعته يقول عند وضع القيد فى رجليه حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم فقال الحجاج نعم أن الذى احتسب به هو الذى خلصه إنه على كل شىء قدير .

(وحكى عن هرون

واغتسل وتوضأ ولبس ثيابه ثم إنه رمى الخرزة نحو أصحابه فوقعت فصاحت فرجع الخضر إلى صوتها وإلى أصحابه فركب وقال لأصحابه سيروا على إسم الله وأن ذا القرنين مر فأخطأ الوادى فسلكوا تلك الظلمة فى أربعين يوماً ثم إنهم خرجوا إلى ضوء ليس كضوء شمس ولا قمر والأرض حمراء رملة خشخانية فإذا هم بقصر مبنى فى تلك الأرض طوله فرسخ عليه باب فنزل ذو القرنين بعسكره ثم إنه خرج وحده حتى دخل القصر فإذا حديدة قد وضع طرفاها على جانب القصر من هنا ورهنا وإذا طائر أسود يشبه الخطاف مزموماً بأنفه إلى الحديد معلقاً بين السماء والأرض فلما سمع الطائر خشخشة ذى القرنين قال من هذا قال أنا ذو القرنين فقال الطائر ياذا القرنين ما كفاك ماورائى حتى وصلت إلى ثم قال ياذا القرنين حدثنى فقال سل فقال هل كثر بناء الجص والآجر فى الأرض قال نعم فانتفض الطائر انتفاضة ثم انتفخ فبلغ ثلث الحديد ثم قال ياذا القرنين هل كثرت شهادة الزور فى الأرض قال نعم قال فانتفض الطائر ثم انتفخ حتى ملأ الحديدة وسدما بين جدران القصر بحيث رأى ذو القرنين ذلك وخاف خوفاً شديداً فقال الطائر لا تخف حدثنى قال سل قال هل ترك الناس غسل الجنابة بعد قال لا فعاد الطائر كما كان ثم قال ياذا القرنين أسلك هذا الدرج درجة درجة إلى أعلى القصر فسلكها ذو القرنين وهو خائف وجل لا يدرى على ما يهجم حتى استوى على صدر الدرج فإذا سطح ممدود عليه صورة رجل شاب قائم وعليه ثياب بيض رافعاً وجهه إلى السماء واضعاً يده على فيه فلما سمع خشخشة ذى القرنين قال من هذا قال أنا ذو القرنين قال ياذا القرنين أن الساعة قد قربت وإنى منتظر أمر ربى يأمرنى أن أنفخ فى الصور ثم أن صاحب الصور أخذ شيئاً من بين يديه كأنه حجر فقال ياذا القرنين خذ هذا فان شبع هذا شبعت وإن جاع هذا جعت فأخذ ذو القرنين الحجر ونزل حتى أتى أصحابه فحدثهم بأن أمر الطائر وما قال له وما أورده عليه وما قاله صاحب الصور ثم جمع علماء عسكره وقال أخبرونى ما هذا الحجر وما أمره فقالوا أيها الملك أخبرنا ما قال لك صاحب الصور فقال ذو القرنين أنه قال إن شبع هذا شبعت وإن جاع جعت فوضعت العلماء ذلك الحجر فى كفة ميزان وأخذوا حجراً مثله ووضعوه فى الكفة الأخرى ثم رفعوا الميزان فاذا الذى جاء به ذو القرنين أثقل فوضعوا معه آخر ورفعوا الميزان فاذا الذى جاء به ذو القرنين أثقل فلم يزالوا يضعوا حجراً بعد حجر حتى وضعوا ألف حجر ثم رفعوا الميزان فمال بالألف جميعاً فقالت العلماء انقطع علمنا دون هذا لا نعرف أسحر هذا أم علم ولا نعلمه وقال الخضر عليه السلام وكان واقفاً أنا أعلم علمه فأخذ الخضر عليه السلام الميزان بيده ثم أخذ الحجر الذى جاء به ذو القرنين فوضعه فى إحدى الكفتين وأخذ حجراً من تلك الحجارة فوضعه فى الكفة الأخرى ثم أخذ كفاً من تراب فوضعه على الحجر الذى جاء به ذو القرنين ثم رفع الميزان فاستوى فخرت العلماء سجداً لله تعالى وقالوا سبحان الله هذا علم لم يبلغه علمنا والله لقد وضعنا معه ألف حجر فما استقل به فقال الخضر عليه السلام أيها الملك أن سلطان الله عز وجل قاهر لخلقه وأمره نافذ فيهم وحكمه جار عليهم وأن الله ابتلى خلقه بعضهم ببعض فابتلى العالم بالعالم والجاهل بالجاهل والجاهل بالعالم والعالم بالجاهل وإنه ابتلانى بك وابتلاك بى فقال ذو القرنين صدقت فأخبرنى ما هذا الحجر فقال الخضر عليه السلام أيها الملك هذا مثل ضربه لك صاحب الصور أن الله تعالى مكن لك فى الأرض والبلاد فأعطاك منها ما لم يعط أحداً من خلقه وأوطأك منها ما لم يوطىء لأحد من خلقه فلم تشبع وأتيت نفسك شرها حتى بلغت من سلطان الله ما لم يطأه إنس ولا جان فهذا مثل ضربه لك صاحب الصور ابن آدم لا يشبع أبداً حتى يحثى عليه التراب ولا يملأ جوفه إلا التراب فبكى ذو القرنين ثم قال صدقت ياخضر فى ضرب هذا المثل لأجرم لأطلبت أثرا فى البلاد بعد مسيرى هذا حتى أموت ثم انصرف راجعاً حتى إذا كان فى وسط الظلمة وطىء الوادى الذى فيه الزبرجد فقال من معه لما سمعوا خشخشة تحت حوافر دوابهم ما هذا الذى تحتنا أيها الملك فقال ذو القرنين خذوا منه فان من أخذ منه ندم ومن تركه ندم فمنهم من أخذ منه شيئاً ومنهم من تركه فلما خرجوا من الظلمة ونظروه إذا هو زبرجد فندم الآخذ والتارك قال فقال رسول الله ﷺ رحم الله أخى

ذا القرنين لو ظفر بواذى الزبرجد فى مبدأ أمره ما ترك منه شيئاً حتى كان يخرجه إلى الناس لأنه كان راغباً فى الدنيا واكسه ظفر به وهو زاهد فى الدنيا لا حاجة له فيها ثم أنه رجع إلى العراق وملك ملوك الطوائف كلها ومات فى طريقه قبل وصوله بشهر (قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه) أنه رجع إلى دومة الجندل وكانت منزله فأقام بها حتى مات قالوا وكان عمره ستاً وثلاثون سنة وكان ملكه سبعة عشر سنة وكان قبل دارا فى اول السنة الثالثة من ملكه فلما مات حمل إلى أمه بالإسكندرية ودفن هناك قالوا فلما مات الإسكندر عرض الملك على إبنه أسكندروس من بعده فأبى واختار النسك والعبادة فملكت اليونانية عليهم فما قيل بطليموس بن لوسوع وكان ملكه ثمانية وثلاثين سنة وكانت المملكة فى حياة الإسكندر وبعد وفاته إلى أن تحول الملك إلى الروم والمضاض واليونانية ولبنى إسرائيل بيت المقدس ونواحيها الديانة والرياسة على غير وجه الملك إلى أن خرب بلادهم الفرس والروم وطردوهم عنها بعد قتل يحيى بن زكريا عليهما السلام والله أعلم

(مجلس فى قصة زكريا وإبنه يحيى ومريم وعيسى عليهم السلام)

وهو مجلس مشتمل على أبواب كثيرة قال محمد بن إسحق وغيره من أهل الأخبار عبرت بنو إسرائيل بعد مرجعهم من أرض بابل إلى بيت المقدس وبلاد الشام وانتظام أمورهم ولم يزالوا يحدثون الأحداث ويعود الله عليهم بفضله وبرحمته ويبعث فيهم الرسل ففريقاً يكذبون وفريقاً يقتلون كما قال الله تعالى حتى كان ممن بعث فيهم من أنبيائهم زكريا ويحيى وعيسى وكانوا من آل بيت داود عليه السلام .

(نسب زكريا عليه السلام)

هو زكريا بن يحيى يوحنا بن ادن بن مسلم بن صدوق بن يحسان بن داود بن سليمان بن مسلم بن صديقة ابن ناحور بن سدوم بن شهما ساطين بن رابيا بن رحيعم بن سليمان بن داود عليه السلام .

(باب فى ذكر مولد مريم عليها السلام وخبر تحريرها)

قال الله تعالى (إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا) الآيات قال المفسرون هى حنة بنت فاقوذ جدة عيسى عليه السلام وعمران قال ابن عباس هو عمران بن ماثان وليس بعمران أبى موسى إذ بينهما ألف وثمانمائة سنة وكانت بنو ماثان رؤس بنى إسرائيل وأحبارهم وملوكهم وقال ابن إسحق وهو عمران بن ساهم بن أمور بن ميشا بن حزقيل بن أحريف بن بوم بن عزازيل بن امصيا بن ناوس بن نوثا بن بارض بن يهوشافاط بن رادم بن ابيا بن رحيعم بن سليمان بن داود عليه السلام وكانت القصة أن زكريا بن يوحنا وعمران بن ماثان متزوجين بأختين إحداهما عند زكريا بن يوحنا وهى إيشاع بنت فاقوذ أم يحيى وكانت الأخرى عند عمران وهى حنة بنت فاقوذ أم مريم وكان قد أمسك عن حنة الولد حتى أيست وتجزت وكانوا أهل بيت من الله بمكان فبينما هى فى ظل شجرة إذ نظرت طائرا يطعم فرخا فتحركت عند ذلك شهوتها للولد ودعت الله تعالى أن يهب لها ولدا وقالت اللهم لك على إن رزقتنى ولدا أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من سدنته وخدمه نذرا وشكرا فحملت بمريم عليها السلام فحررت ما فى بطنها ولم تعلم ما هو قالت رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا أى عتيقا عن الدنيا وأشغالها خالصا لله تعالى وخادما لبيتك المقدس حبسا عليه مفرغا لعبادة الله ولخدمته فتقبل منى الكائن إنك أنت السميع العليم قالوا وكان المحرر إذا حرر ونذر جعل المحرر والمنذر فى الكنيسة يقوم عليها ويكنسها ويخدمها ولا يبرح عنها حتى يبلغ الحلم فاذا بلغ خير بين أن يقيم وبين أن يذهب حيث يشاء وإن أراد أن يخرج بعد التخيير استأذن رفقائه من السدنة ليكون خروجه على علم منهم ولم يكن أحد من بنى إسرائيل وعلمائهم إلا من فى نسله محرر لبيت المقدس ولم يكن محررا إلا الغلمان وكانت الجارية لا تمكلف ذلك ولا تصلح لما يصيبها من الحيض والأذى فحررت أم مريم ما فى بطنها فلما فعلت ذلك قال لها زوجها عمران ماذا صنعت أرأيت إن كان ما فى بطنك أنثى والأنثى عورة لا تصلح لذلك فوقعا فى هم من ذلك فهلك عمران وحنة حامل بمريم فلما وضعتها إذا هى جارية فقالت حنة وكانت ترجو أن يكون غلاما اعتذار إلى الله تعالى (رب إنى

الرشيد رضى الله تعالى عنه) أنه رأى رجلا من أهل الخير تسمعه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فشق ذلك على هرون الرشيد فأحضر الرجل بين يديه فلما حضر أمر أن يجعل له بيت ويسد عليه بابه ومنافذه حتى يموت فيه قال ففعلوا ذلك معه فلما كان بعد خمسة أيام قال بعض جلساء هرون الرشيد يا مولاى إنى رأيت الرجل الذى أمرت بسد البيت عليه وهو يتبختر فى بستانك الفلانى فقال الرشيد على به فأحضروه بين يديه فلما رآه الرشيد قال له من أخرجك من البيت قال الذى أدخلنى البستان قال ومن أدخلك البستان قال الذى أخرجنى من البيت قال فضحك الرشيد وقال هذا عجيب قال الرجل وأى أمر ربك ليس بعجيب قال فبكى الرشيد وأمر له بالإحسان وأركبه فرس من خواص خيله وأمر مناديا ينادى بين يديه ويقول هذا عبد أعزه مولاه فأراد هرون إهانته فلم يقدر ثم زاد فى إحسانه وإكرامه واحترامه وهذا من بعض مناقبهم نفعنا الله بهم آمين .

(وحكى عن الشيخ شاه بن الشجاع الكرمانى رضى الله تعالى عنه) أنه كان له بنت تقرأ القرآن وتصوم النهار وتقوم الليل وكانت بديعة

الحسن والجمال فسمع بها ملك كرمان فأتى أباها ليخطبها منه فاستمهله الشيخ ثلاثة أيام ثم أقبل والدها يطوف المساجد لينظر رجلا فقيراً يزوجه بها فبينما هو كذلك إذ رأى غلاماً حسن الوجه يصلى ويحسن الصلاة فلما فرغ من صلاته قال له يا غلام هل لك فى زوجة تقرأ القرآن وتصوم النهار وتقوم الليل وهى جميلة نظيفة فقال الغلام ومن يزوجنى بها يا سيدى فقالوا أنا أزوجك بها خذ بدرهم خبزاً وبدرهم أدماً وبدرهم طيباً والأمر مفروغ منه ثم عقد له عليها ورجع إلى بيته وأخبرها بذلك فلما دخلت إلى بيت الغلام رأت فيه رغيفاً يابساً على رأس جرة ماء فلما رأته قالت ما هذا فقال لها الغلام هذا رغيف تركته من أمس لتفطر عليه فلما سمعت ذلك ولت راجعة فقال لها الشاب قد علمت أن بنت شاه الكرمانى لا تفرح بفقرى ولا ترضى أن أكون لها بعلا فقالت إن بنت شاه ليس خروجها من منزلك لفقرك بل لضعف يقينك ولست أعجب منك وإنما أعجب من والدى حين قال لى قد زوجتك بشاب عفيف فكيف يوصف بالعفة من لا يعتمد على الله سبحانه وتعالى إلا مع دخاره رغيفاً قال فلما سمع

وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى) أى فى خدمة الكنيسة والعبادة فيها نعوذ بها وضعفها ومايعتريها من الحيض والنفاس والأذى وإنى سميتها مريم وهى بلغتهم العابدة الخادمة وكانت مريم عليها السلام أجمل النساء وأمثلهن فى وقتها (أخبرنى) الحسن بن محمد بإسناده عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ حسبك من نساء العالمين أربع مريم إبنة عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ﷺ وإنى أعيذها أى أجيرها وأمنعها بك وذريتها من الشيطان الرجيم (أخبرنا) عبد الله ابن حامد بإسناده وأخبرنا أبو سهيل أحمد بن محمد بن هرون بإسناده عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إلا مريم وإبنها ثم يقول أبو هريرة اقرؤا إن شئتم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم (وأخبرنا) شعيب بن محمد بإسناده عن قتادة قال كل آدمى يطعنه الشيطان فى جنبه حين يولد إلا عيسى وأمه عليهما السلام جعل بينهما حجاب وأصابت الطعنة الحجاب ولم ينفذ إليهما منه شئ. قال وذكروا لنا أنهما كانا لا يصيبان من الذنوب كما يصيبه سائر بنى آدم قال الله تعالى (فتقبلها ربها بقبول حسن) الهاء راجعة إلى النذيرة أى فتقبل الله النذيرة أى مريم من حنة وأنبتها نباتاً حسناً يعنى سوى خلقها من غير زيادة ولا نقصان فكانت تنبت فى المدة اليسيرة كما ينبت المولود الطويلة وقال ابن جريج وأنبتها ربها فى غذائها ورزقها نباتاً حسناً حتى تمت امرأة بالغة قالوا فلما ولدت مريم أخذتها أمها حنة فلفتها فى خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار أبناء هرون وهم يومئذ لا ثون فى بيت المقدس كما يلى الحجبة أمر الكعبة فقالت لهم دونكم هذه النذيرة فتنافس فيها الأحبار لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم فقال لهم زكريا أنا أحق بها منكم لأن عندى خالتها فقالت له الأحبار لا نفعل ذلك فإنها لو تركت لأحق الناس وأقربهم إليها لتركت لأمها التى ولدتها ولكنا نقترع عليها فتكون عند من خرج سهمه فانتفقوا على ذلك ثم انطلقوا وكانوا تسعة عشر رجلا إلى نهر جار وقال السدى هو نهر الأردن فألقوا أقلامهم أى سهامهم وقيل أقلامهم التى كانوا يكتبون بها التوراة فى الماء فارتفع قلم زكريا فوق الماء وانحدرت أقلامهم ورسبت فى الماء قال ابن إسحق وجماعة وقال السدى بل ثبت قلم زكريا فوق الماء كأنه فى الطين وجرت أقلامهم مع جريان الماء فذهب الماء بها فسهمهم وقرعهم زكريا عليه السلام وكان رأس الأحبار ونبيهم فذلك قوله تعالى (وكفلها زكريا) ضمها إلى نفسه وقام بأمرها وقال ابن إسحق فلما كفلها زكريا وضمها إلى خالتها أم يحيى واسترضع لها حتى إذا نشأت وبلغت مبالغ النساء بنى لها محرابا أى غرفة فى المسجد وجعل بابه إلى وسطها لا يرقى إليها إلا بسلم مثل باب الكعبة فلا يصعد إليها غيره وكان يأتيها بطعامها وشرابها ودهنها فى كل يوم وكان زكريا عليه السلام إذا خرج أغلق عليها الباب فإذا دخل عليها غرفتها وجد عندها رزقاً أى فاكهة فى غير حينها فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف فيقول لها أنى لك هذا فتقول هو من عند الله من قطف الجنة قال الحسن يجد عندها قوتها وكان رزقها يأتيها من الجنة فيقول لها زكريا من أين لك هذا فتقول هو من عند الله قال الحسن وكانت وهى صغيرة يأتيها رزقها وقال محمد بن إسحق ثم أصابت بنى إسرائيل أزمه وهى على ذلك من محالها ثم ضعف زكريا عن حملها فخرج إلى بنى إسرائيل وقال يا بنى إسرائيل تعلمون والله إنى لقد كبرت وضعفت عن حمل إبنة عمران فأيكم يكفلها بعدى فقالوا والله لقد جهدنا وأصابنا من الجهد ما ترى فتدافعوها بينهم ثم لا يجدون من يحملها فتقارعوا عليها بالأقلام فخرج السهم على رجل نجار من بنى إسرائيل يقال له يوسف بن يعقوب بن ماتان وكان ابن عم مريم فحملها قال فعرفت مريم فى وجهه شدة مؤنة ذلك عليه فقالت له يا يوسف أحسن الظن بالله فإن الله سيرزقنا فجعل يوسف يرزق لمكانها منه فيأتيها كل يوم من كسبه بما يصلحها فإذا أدخله عليها وهى فى الكنيسة أنماه الله تعالى وكثره فيدخل إليها زكريا فيرى عندها فضلا من الرزق ليس بقدر ما يأتيها به يوسف فيقول لها يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب (أخبرنا) عبد الله بن حامد بإسناده عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ أقام أياماً لم يطعم طعاماً حتى

شق ذلك عليه فطاف فى منازل أزواجه فلم يصب فى بيت أحد منهن شيئاً فأتى فاطمة رضى الله عنها فقال يا بنية هل عندك شىء آكل فانى جائع فقالت لا والله بأبى أنت وأمى فلما خرج رسول الله ﷺ من عندها بعث إليها جارة لها برغيفين وبضعة لحم فأخذته منها ووضعته فى جفنة وغطت عليه وقالت لأؤثرن بها رسول الله ﷺ على نفسى ومن عندى وكانوا جميعا محتاجين إلى شبعة من طعام فبعثت حسناً وحسينا إلى جدهما رسول الله ﷺ فرجع إليها فقالت بأبى أنت وأمى يا رسول الله قد أتانا الله بشىء فخبأته لك قال فهلمى به فأتى به فكشفت عن الجفنة فاذا هى مملوءة خبزاً ولحما فلما نظرت إليه بهتت وعرفت أنها بركة من الله تعالى فحمدت الله وصلت على نبيه فقال عليه السلام من أين لك هذا يا بنية قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب فبعث رسول الله ﷺ إلى على رضى الله عنه فأتى فأكل الرسول وعلى وفاطمة والحسن والحسين وجميع أزواج النبى ﷺ رضى الله عنهم جميعا حتى شبعوا وبقيت الجفنة كما هى قالت فاطمة رضى الله عنها وأوسعت منها على جميع جيرانى وجعل الله فيها بركة وخيراً كثيراً وكان أصل الجفنة رغيفين وبضعة لحم والباقى بركة من الله تعالى .

(باب فى مولد يحيى بن زكريا عليه السلام)

قال الله تعالى (هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء) قالت العلماء بأخبار الأنبياء لما رأى زكريا عليه السلام ان الله يرزق مريم الفاكهة فى غير حينها قال إن الذى قدر على أن يؤتى مريم بالفاكهة فى غير حينها من غير سبب ولا فعل أحد لقادر على أن يصلح زوجتى ويهب لى ولداً على الكبر . فطمع فى الولد وكان أهل بيته قد انقرضوا وزكريا قد شاخ وأيس من الولد فهنالك أى فعند ذلك دعا زكريا ربه قال رب هب لى أى أعطنى من لدنك ذرية طيبة نسلا تقيا صالحا مرضيا إنك سميع الدعاء فنادته الملائكة يعنى جبريل وذلك أن زكريا كان الحبر الكبير الذى يقرب القربان ويفتح باب المذبح فلا يدخل أحد حتى يأذن له بالدخول فبينما هو فى محرابه عند المذبح قائم يصلى والناس ينتظرونه أن يأذن لهم بالدخول إذ هو برجل شاب عليه ثياب بيض ففزع منه فناداه وهو جبريل عليه السلام يا زكريا إن الله يبشرك بيحيى واختلفوا فيه لم سمى يحيى قال ابن عباس لأن الله تعالى أحيا به عقر أمه وقال قتادة وغيره لأن الله تعالى أحيا قلبه بالإيمان والنبوة وقال الحسن بن الفضل لأن الله تعالى أحياه بالطاعة حتى لم يتغير ولم يهم بمعصية (قال الاستاذ) وكان شيخنا أبو القاسم الجنيد يقول سمى بذلك لانه استشهد والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون قال النبى ﷺ من هوان الدنيا على الله أن يحيى بن زكريا قتلته امرأة قال وسمعت أبا منصور الخشاوى يقول قال عمر بن عبد الله المقدسى . أوحى الله إلى إبراهيم الخليل عليه السلام أنى قد لسارة وكان إسمها كذلك إنى مخرج منكما عبداً لا يهم بمعصيتى إسمه حيى فهبى له من إسمك حرفا فوهبت له أول حرف من حروف إسمها الياء فصار يحيى وصار إسمها سارة مصدقا بكلمة من الله يعنى عيسى عليه السلام فسمى كلمة لان الله تعالى قال له من غير أب كن فكان فوقع عليه إسم الكلمة لانه بها وجد ويحيى أول من آمن بعيسى وصدقه وذلك أن أمه كانت حاملة به فاستقبلتها مريم وقد حملت بعيسى فقالت لها أم يحيى يا مريم أحامل أنت فقالت لماذا تقولين هذا قالت إنى أرى ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك فذلك تصديقه له وإيمانه به وكان يحيى أكبر من عيسى بستة أشهر وذلك أن مولد يحيى كان قبل مولد عيسى بستة أشهر ثم قتل يحيى قبل أن يرفع عيسى إلى السماء وسنذكره قال سعيد بن المسيب وسيد السيد هو الفقيه العالم وقال سعيد بن جبير السيد الذى يطيع ربه عز وجل وقال الضحاك السيد الحسن الخلق وقال عكرمة الذى لا يغضب وقال سفيان الذى لا يحسد وحصوراً قال ابن عباس وابن مسعود وغيرهما هو الذى لا يأتى النساء ولا يقربهن فعول بمعنى فاعل يعنى أنه حصر نفسه عن الشهوات وقال ابن المسيب والضحاك هو العنين الذى لا باءة له ودليل هذا التأويل

الشاب كلاما قال أنا عن ذلك معتذر والعفو عند ذلك أولى فقالت تصدق به على مستحقه فانى لا أقيم فى بيت فيه معلوم فاما أن تتصدق به وإما أن أخرج أنا من البيت قال فتصدق الغلام به فدخلت إلى البيت (قلت) هذا الترويج صدر من الشيخ العارف بالله تعالى شاه ابن الشجاع المذكور بعد ما زهد فى الدنيا وترك الملك ودخل فى طريق القوم رضى الله عنهم وقد تقدمت حكايته فى هذا المجموع رضى الله تعالى عنه ونفعنا ببركاته فى الدنيا والآخرة آمين .

فلو كان النساء كمن ذكرنا
لفضلت النساء على الرجال فما
التأنيث لاسم الشمس عيب
ولا التذكير فخر للهلال

(وحكى عن سهل بن عبد الله التسترى رضى الله عنه) أنه قال أول ما رأيت من العجائب والكرامات إنى خرجت يوما من الايام إلى موضع خالى ظاهر البلد التى كنت قاطنا بها فطاب لى المقام فيه ووجدت قلبى قريبا من الله عز وجل فحضرت الصلاة فأردت الوضوء وكانت عادتى فى صباى تجديد الوضوء لكل صلاة فاغتممت لفقد الماء غما شديدا وصرت متحيراً فبينما أنا كذلك إذ رأيت شيئا قائما يمشى على رجليه فتوهمت أنه آدمى

ما أخبرني به ابن فتحوية بإسناده عن أبي صالح عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول كل ابن آدم يأتي الله بذنب قد أذنبه يعذبه عليه إن شاء الله أو يرحمه إلا يحيى بن زكريا فإنه كان سيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين وقال الحسن بن الفضل إنما قال زكريا يا رب لله لا لجبريل أني يكون لي غلاماً من أين يكون لي ولد وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر آلاتلد عقيم قال الكلبي كان زكريا يوم بشر بالولد ابن اثنتين وتسعين سنة وقيل تسع وتسعين سنة وروى الضحاك عن ابن عباس قال كان زكريا ابن عشرين ومائة سنة وكانت امرأته بنت ثمان وتسعين سنة فأجيب كذلك الله يفعل ما يشاء فان قيل لم أنكر زكريا ذلك وسأل الآية بعد ما بشرته الملائكة أكان ذلك شكاً في وحيه أم إنكاراً لقدرته وهذا لا يجوز أن يوصف به أهل الإيمان فكيف الأنبياء فالجواب عنه ما قال عكرمة والسدي أن زكريا لما سمع نداء الملائكة جاء الشيطان فقال يا زكريا أن الصوت الذي سمعت ليس من الله وإنما هو صوت الشيطان يسخر بك لو كان من الله لأوحاه إليك خفية كما ناديته خفية وكما يوحي إليك في سائر الأمور فقال ذلك دفعاً للوسوسة وفيه جواب آخر وهو أنه لم يشك في الولد وإنما شك في كيفيته والوجه الذي يكون منه الولد فقال أني يكون لي ولد أي كيف يكون لي ولد أتجعلني وامرأتي شابين أم ترزقه كذا وكذا على كبرنا أم ترزقني من امرأة غيرها من النساء فقال ذلك مستخبراً لا منكراً وهذا قول الحسن قال رب اجعل لي آية قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام وتقبل بكليتك على عبادتي وطاعتي ولأنفحبس لسانه عن الكلام ولكنه نهي عنه يدل عليه قوله تعالى واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والأبكار هذا قول قوم من أهل العلم وقال آخرون عقل لسانه عن الكلام عقوبة لسؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة إياه ولم يقدر على الكلام ثلاثة أيام إلا رمزاً أي إشارة وعلى هذا أكثر المفسرين وقال عطاء أراد به صوم ثلاثة أيام لأنهم كانوا إذا صاموا لم يتكلموا إلا رمزاً فولد يحيى ابن زكريا عليه السلام وفي بعض الأخبار أنه لما ولد يحيى رفع إلى السماء فتغذى بأنهار الجنة حتى فطم ثم أنزل إلى أبيه وكان يضحك البيت لنوره وحسن وجهه وجماله ،

(باب صفته وحليته عليه السلام)

قال كعب الأحبار كان يحيى بن زكريا نبياً حسن الوجه والصورة لين الجناح قليل الشعر قصير الأصابع طويل الأنف مقرون الحاجبين رقيق الصوت كثير الغيرة قوياً في طاعة الله تعالى وقد ساد الناس في عبادة الله وطاعته .

(فصل في نبوته وسيرته وذكر زهده وجهده)

قال الله تعالى (يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً) قيل أن يحيى قال له أترابه من الصبيان يا يحيى اذهب بنا نلعب فقال لهم ما للعب خلقت وقال آخرون إنه نبيء صغيرا فكان يعظ الناس ويقف لهم في أعيادهم وجمعهم ويدعوهم إلى الله تعالى ثم سياح ودخل الشام يدعو الناس. ولما بعثه الله تعالى إلى بني إسرائيل وأمره أن يأمرهم بخمس خصال وضرب لكل خصلة منها مثلا أمرهم أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً وقال الشرك كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله ثم أسكنهم داراً له ودفع لهم مالا يتجرون فيه ويأكل كل واحد منهم ما يكفيه ثم يؤدون إليه فضل الربح فعمد العبيد إلى فضل الربح فدفعوه إلى عدو سيدهم وأمرهم بالصلاة فقال أن مثل المصلي كمثل رجل استأذن على ملك فأذن له ودخل عليه فأقبل الملك عليه بوجهه ليستمع مقالته ويقضي حاجته فلما دخل عابه الرجل التفت يميناً وشمالا ولم يهتم بحاجته فأعرض الملك عنه ولم يقض حاجته وأمرهم بالصدقة وقال مثلها كمثل رجل أسره العدو فاشترى منه نفسه بثمن معلوم فجعل

قلما قرب مني إذا هو دب عظيم ومعه جرة ماء قد أمسكها بيده فلما دنا مني وضع الجرة بين يدي فتعجبت في نفسي عجباً شديداً وقلت من أين هذه الجرة وهذا الماء قال فنطق الدب وسلم علي قال يا سهل نحن قوم من الوحوش قد انقطعنا إلى الله تعالى بعزم المحبة والتوكل على الله تعالى فبينما نحن نتكلم مع أصحابنا في مسألة إذ نودينا إلا أن سهلا يريد ماء لتجديد وضوءه فقمت من عند أصحابي ووضعت هذه الجرة بين يدي وكانت فارغة وإذا بملكين قريبين مني قد نوت منهما فصبا فيها الماء من الهواء وأنا أسمع خرير الماء في الجرة قال سهل رضي الله عنه فلما سمعت ذلك غشي علي فلما أفقت إذا بالجرة موضوعة ولم أدر أين ذهب الدب قال سهل فتوضأت وصليت فلما فرغت من الصلاة أردت أن أشرب من الماء فسمعت قائلا من الوادي يقول يا سهل لم يؤذن لك في شرب هذا الماء فتركتها فإذا هي تطرب وأنا أنظر إليها متعجباً ولم أدر أين ذهبت تلك الجرة عفا الله عنهم ونفعنا ببركاتهم آمين

(وحكي عنه أيضاً رضي الله تعالى عنه) أنه قال توضأت في يوم جمعة ومضيت إلى الجامع وكان في أيام البداية فوجدت الجامع قد امتلأ بالناس وهم الخطيب أن يرقى المنبر

يعمل فى بلادهم ويؤدى إليهم من كسبه القليل والكثير حتى أوفى ثمنه فأعتق وأمرهم بذكره عز وجل وقال مثل الذكر كمثل قوم لهم حصن ولهم عدو فاذا أقبل عليهم عدوهم دخلوا حصنهم فلم يقدر عليهم كذلك من ذكر الله تعالى لا يقدر عليه الشيطان وأمرهم بالصيام وقال مثله كمثل الجنة لاتدع عدوه يصل إليه وتستره (وأما سيرته) فروى عن رسول الله ﷺ أنه قال كان من زهد يحيى أنه أتى بيت المقدس فنظر إلى المجتهدين من الأحبار والرهبان وعليهم مدارع الشعر والصوف وبرانس الصوف وإذا هم قد خرقوا تراقيهم وسلكوا فيها السلاسل وشدوا بها إلى سوارى المسجد فلما نظر إلى ذلك أتى أمه وقال ياأماه انسجى لى مدرعة من شعر وبرنساً من صوف حتى آتى إلى بيت المقدس وأعبد الله تعالى مع الأحبار والرهبان فقالت له أمه حتى يأتى نبى الله زكريا عليه السلام فآمره بذلك فلما دخل زكريا أخبرته بما قال لها يحيى فقال له زكريا يابنى ما يدعوك إلى هذا وإنما أنت صبى صغير فقال يا أبت أما رأيت من هو أصغر منى ذاق الموت قال بلى فقال لأمه انسجى لنا قدرعه من الشعر وبرنساً من الصوف ففعلت فتدرع بالمدرعة على بدنه ووضع البرنس على رأسه ثم أتى يوم المقدس وأقبل يعبد الله مع الأحبار والرهبان حتى أكلت مدرعة الشعر لحمه فنظر ذات يوم إلى ماقد نحل من جسمه فبكى فأوحى الله تعالى إليه يا يحيى أتبكى على ماقد نحل من جسمك وعزتى وجلالى لو اطلعت على النار اطلاعة لتدرعت مدارع الحديد فضلا عن المسوح فبكى يحيى حتى أكل الدمع لحم خديه وندت للناظرين أضراسه فبلغ ذلك أمه فدخلت عليه وأقبل زكريا واجتمع الأحبار والرهبان فقال زكريا لإبنه يحيى مايدعوك لهذا يابنى إنما سألت ربى أن يهبك لى لتقر بك عينى قال أنت أمرتنى بذلك يا أبت قال ومتى قال ألست القائل أن بين الجنة والنار عقبة كؤد لايقطعها إلا الباكون من خشية الله تعالى قال بلى قال فجد واجتهد وقام ونفض مدرعته فأخذته أمه فقالت أنا أذن لى يابنى أن أتخذ لك قطعتين من لبد يواريان أضراسك وينشفان دموعك فقال لها شأنك فاتخذت له قطعتى لبد يواريان أضراسه وينشفان دموعه فبكى حتى ابتلتا من دموع عينيه ثم أخذهما فعصرهما فتحدرت الدموع من بين أصابعه فنظر زكريا إلى أمه وإلى دموعه فرفع رأسه إلى السماء وقال اللهم إن هذا إبنى وهذه دموع عينيه وأنت أرحم الراحمين وكان زكريا إذا أراد أن يعظ بنى إسرائيل التفت يميناً وشمالا فاذا رأى يحيى لم يذكر جنة ولا ناراً فجلس يوماً يعظ بنى إسرائيل وأقبل يحيى قد لف رأسه بعباءة وجلس فى غمار القوم فالتفت زكريا يميناً وشمالا فلم ير يحيى فأنشأ يقول حدثنى حبيبى جبريل عن الله عز وجل فى جهنم جبل يقال له السكران فى أصل ذلك الجبل واد يقال له الغضبان خلق لغضب الرحمن تبارك وتعالى فى ذلك الوادى جب قامته مائة عام فى ذلك الجب توابيت من نار فى تلك التوابيت صناديق من نار وثياب من نار وأغلال من نار فرفع يحيى رأسه وقال واغفلتاه عن السكران وعن غضب الرحمن ثم خرج هائماً على وجهه فقام زكريا من مجلسه ودخل على أم يحيى فقال لها يا أم يحيى قومى فاطلبى يحيى فانى قد تخوفت أن لا نراه إلا وقد ذاق الموت فقامت وخرجت فى طلبه حتى مرت براعى غنم فقالت يا راعى هل رأيت شاباً من صفته كذا وكذا قال لعلك تطلبين يحيى بن زكريا قالت نعم ذلك ولد ذكرت النار بين يديه فهام على وجهه فقال تركته الساعة على عقبة كذا ناقعاً قدميه فى الماء رافعاً بصره إلى السماء يقول وعزتك يامولاى لا أذوق بارد الشراب حتى انظر إلى منزلتى منك فأقبلت أمه فلما رأته دنت منه فأخذت برأسه ووضعته بين يديها وناشدته بالله أن ينطلق معها إلى المنزل فانطلق معها إلى المنزل فقالت له هل لك أن تخلع مدرعتك الشعر وتلبس مدرعتك الصوف فانه لين ففعل ثم إنها طبخت له عدساً فأكل واستوفى فذهب به النوم فلم يقم لصلاته فنودى فى منامه يايحيى أردت دار أخير أم دارى وجوارى أخيرا من جوارى فاستيقظ وقام وقال رب أقل عثرتى وعزتك

فأسأت الأدب ولم أزل أتخطى رقاب الناس حتى وصلت إلى الصف الأول ثم جلست فاذا عن يمينى شاب حسن المنظر كأنه من الملوك وعليه أطمار من صوف فلما نظر إلى قال كيف ترى حالك يا سهل فقلت بخير أصلحك الله فصرت متحيرا فى معرفته لى ولم أعرفه فبينما أنا كذلك إذ أخذنى حرق بول فأزعجنى ذلك وصرت متحيرا فى أمرى فان قمت خطت رقاب الناس ثانياً وإن جلست لم أتمكن من الصلاة قال بشهل فالتفت إلى الشاب وقال ياسهل أخذك حرق بول قلت نعم ياسيدى قال فنزع رداءه عن منكبه وغطانى به وقال قم اقض حاجتك واسرع لتدرك الصلاة قال فنظرت فاذا بباب مفتوح وقائل يقول لج الباب يرحمك الله فولجت الباب فوجدت قصرا مشيدا البناء شامخ الأركان وإذا بنخلة قائمة وإذا بجانبها مطهرة مملوءة ماء أحلى من الشهد وإذا بمنشفة معلقة وسواك ألين من الحرير قال سهل فتعجبت من ذلك ثم حللت لباسى وأزفت فى الماء واغتسلت ونشفت ولبست أثوابى فسمعته يناديني ويقول إن كنت قضيت أربك فقل نعم فقلت نعم فنزع الرداء عنى فاذا أنا جالس مكانى ولم يعلم بى أحد

لا أستظل بظل سوى بيت المقدس ثم قال لأمه ناوليني مدرعة الشعر فقد علمت أنكما ستوردانني المهالك فتقدمت إليه أمه ودفعت إليه المدرعة وتعلقت به فقال لها زكريا يا أم يحيى دعيه فان ولدي قد كشف له عن قناع غفلته ولن ينتفع بالعيش فقام يحيى فلبس مدرعته ولبس البرنس على رأسه ثم أتى بيت المقدس فجعل يعبد الله مع الأحبار والرهبان حتى كان من أمره ما كان والله أعلم ء

(باب فى مقتله عليه السلام)

اختلف العلماء فى سبب قتله فقال بعضهم كان يحيى عليه السلام فى زمن ملك من ملوك بنى إسرائيل وكان له امرأة وهى إبنة ملك صيدا وكانت قتالة للأنبياء والصالحين وكانت عاهرة تبرز للناس وكان يحيى يزجرها عن ذلك ويقول لها لا تبرزى كاشفة وجهك وكان كثيرا ما يقول لها مكتوب فى التوراة أن الزناة يوقفون يوم القيامة وريحهم أنتن من الجيف فأمرت بيحيى فسجن وكان قد حبس رجل من أبناء الملوك وكان كثيرا ما يختلف إليها بالليل فعلم بها وبه يحيى فزجره فبلغ ذلك امرأة الملك فحملت بنتا له واستقبلت بها زوجها فقال لها ما فعلت ذلك فقالت وجب لها عليك حتى تقبل لها سلى ما شئت فقالت البنت استوهبت منك أهل الحبس اصنع بهم ما شئت فظن أبوها أنها ترحمهم وتستروحهم فقال أبوها قد فعلت فأمرت أمها بأهل السجن فعرضوا عليها فلما مر بها يحيى أمرت به فذبح وأخذت رأسه فى طشت ثم حملت الطشت إلى أبيها بأمر أمها وقالت أيها الملك إنى قد ذبحت لك ذبيحة من أعظم ما وجدته ولو كان مثله ألف لذبحتهم لك قال وما هو قالت يحيى بن زكريا فقال هلكت وأهلكت أبويك فغير الله ما بهم من النعم وسلط عليهم عدوا فذبحت البنت وابويها وسلط عليهم الكلاب والسباع حتى أكلتهم (وروى) سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كان عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا فى إثنى عشر من الحواريين يعلمون الناس قال وكان مما نهرهم عنه نكاح بنت الأخ وكان لملكهم بنت أخ تعجبه يريد أن يتزوجها وكان لها فى كل يوم حاجة عنده يقضيها له فلما بلغ أمها أنه نهى عن نكاح بنت الأخت قالت لإبنتها إذا دخلت على الملك فسألك عن حاجتك فقولى حاجتى أن تذبح يحيى بن زكريا فلما دخلت عليه سألها عن حاجتها فقالت حاجتى أن تذبح يحيى بن زكريا فقال سلى غير هذا فقالت ما أسألك إلا هذا فلما أبت عليه دعا يحيى بن زكريا ودعا بطشت فذبحه فيه فنبذت من دمه قطرة لم تزل تغلى حتى بعث الله عز وجل بختنصر عليهم فجاءت عجوز من بنى إسرائيل فذلته على ذلك الدم فقتل سبعين ألفا منهم على سن واحد ليسكن فسكن (وقال السدى) باسناده كان ملك بنى إسرائيل يكرم يحيى بن زكريا ويدنى مجلسه ويستشيره فى أموره ولا يقطع أمرا دونه وإنه هوى ان يتزوج إبنة امرأة له فسأل عن ذلك يحيى فنهاه عنه وقال لست ارضاها لك فبلغ ذلك امها فحقدت على يحيى حين نهاه ان يتزوج إبنتها فعمدت إلى إبنتها حين جلس الملك على شرابه فألبستها ثيابا رقاقا محمرا وطيبتها والبستها من الحلى فوق ذلك كساء اسود وارسلتها إلى الملك وامرتها ان تسقيه وتتعرض له فاذا راودها عن نفسها ابت عليه حتى يعطيها ما تسأله فاذا اعطاها ذلك سألته ان يأتيها براس يحيى بن زكريا فى طشت ففعلت ذلك وجعلت تسقيه وتتعرض له فلما اخذ منه الشراب راودها عن نفسها فقالت لا افعل حتى تعطينى ما اسألك قال وما تسأليني قالت ان تبعث إلى براس يحيى بن زكريا فى هذا الطشت قال ويحك سليني غير هذا قالت ما سألتك إلا هذا فلما ابت عليه بعث إليه فأتى براسه والراس يتكلم حتى وضع بين يديه وهو يقول لا تحل لك فلما اصبح إذا دمه يغلى فأمر بتراب فألقى عليه فارتفع الدم فوقه فلم يزل يغلى ويلقى عليه التراب حتى بلغ سور المدينة وهو مع ذلك يغلى وذكر الحديث الطويل الذى فى قصة سنجاريب وبختنصر كما قدمنا ذكره فى اخبار بختنصر (قال كعب الأحبار) كان يحيى من اجمل الناس وجها

فصرت مفكرا فى نفسى متعجبا مما رأيت وصرت أكذب نفسى تارة وأصدقها تارة فقامت الصلاة فصليت مع الجماعة ولم يكن لى شغل إلا ذلك الفتى لأعرفه فلما فرغنا من الصلاة قام فتبعته وأنا أمشى خلفه حتى دخلت إلى درب فالتفت إلى وقال يا سهل كأنك ما أيقنت بما رأيت فقلت كلا ياسيدى فقال لهم الباب يرحمك الله فنظرت فاذا الباب بعينه ثم ولجت القصر فوجدت النخلة والمطهرة والسواك والمنشفة مبلولة فقلت آمنت بالله العظيم فقال يا سهل من أطاع الله أطاعه كل شىء فاطلبه تجده قال سهل فتغرغرت عيناى بالدموع فسحتها وقمحتهما فلم أر الشاب ولا القصر فصرت متحيرا على ما فاتنى منه رضى الله تعالى عنه ونفعنا به وبعلومه وأعاد علينا من بركاته آمين :

(وحكى عنه أيضا عفى الله عنه) أنه قيل لبعض أصحاب سهل كيف كان حال سهل فقال خدمته ثلاثين سنة فما رأيته وضع جنبه على فراشه ليلا ولا نهارا وكان يصلى الصبح بوضوء العشاء وهرب من الناس إلى جزيرة بين عبادان والبصرة وما فر من الناس إلا من رجل حج سنة من السنين فلما رجع قال لأصحابه رأيت سهل بن عبد الله

واحسنهم

واحسنهم فى زمانه فأحبته امرأة الملك التى كان فى زمانه حباً شديداً فأرسلت إليه تراوده عن نفسه فأرسل إليها إنه لا علم له بالنساء والملك أحق أن يطأ فراشه فلما انتهى إليها الرسول غضبت غضباً شديداً وقالت كيف لى أن اقتله ولا يخبر الناس إنى قد راودته فلم تزل بالملك حتى وهب لها يحيى بن زكريا فأرسلت إليه وهو قائم يصلى فى بيت فى محراب داود من يضرب عنقه ويأخذ رأسه فلما أخذوا نأس يحيى خسف الله بها وبأهلها الأرض عقوبة لها بقتلها يحيى عليه السلام .

(ذكر مقتل زكريا عليه السلام)

(قال كعب الأحبار) فلما سمع زكريا أن إبنه يحيى قتل وخسف بالقوم انطلق هارباً فى الأرض حتى دخل بستاناً عند بيت المقدس فيه الأشجار فنادته شجرة يا نبى الله إلى ههنا فلما أتاها انفتقت له الشجرة ودخل زكريا فى وسطها فانطلق إبليس لعنه الله حتى أخذ بطرف ردائه فأخرجه من الشجرة ليصدقوه إذا أخبرهم فلذلك تصنع اليهود الخيوط فى أطراف أرديتهم لا يدرون لما أمروا بذلك وأخذ الملك وأهله يلتمسون زكريا فاستقبلهم إبليس لعنه الله تعالى فقال لهم ما تلتمسون قالوا نلتمس زكريا فقال إبليس إنه دخل فى هذه الشجرة قالوا لا نصدقك قال إن أريتكم علامة تصدقونى بها قالوا فأرنا إياها فأراهم طرف ردائه فأخذوا المناشير وضربوا الشجرة فنشروها نصفين فسلط الله عليهم اخبث اهل الأرض عاجا مجوسياً فانتقم الله به من بنى إسرائيل بدم يحيى وزكريا فقتل عظماء بنى إسرائيل وسبى منهم مائة وسبعين ألفا (وقيل) أن السبب فى قتل زكريا أن إبليس جاء إلى مجالس بنى إسرائيل فقذف بمريم زكريا وقال ما أحبلها احد غير زكريا وهو الذى كان يدخل عليها فطلبوا زكريا فهرب واتبعه سفهاؤهم واشرارهم فسلك وادياً كثير الأشجار فتشبه له الشيطان فى صورة راع فقال يا زكريا قد ادركوك فادع الله أن يفتح لك هذه الشجرة تفعل ذلك فانفتحت له فدخل فيها واخرج إبليس هدب ردائه منها فمرت بنو إسرائيل بالشيطان فقالوا يا راعى هل رأيت رجلا ههنا من صفته كذا وكذا قال نعم سحر هذه الشجرة فانفتحت له فدخل فيها وهذا هدب ردائه فقطعوا الشجرة مع زكريا وفلقوها فلقتين بالمنشار طولا فبعث الله الملائكة فغسلوا زكريا وصلوا عليه ودفنوه وفى الخبر أن الشمس بكت على يحيى اربعين صباحا وكان بكاؤها أن طلعت وغربت حمراء ويروى أن يحيى سيد الشهداء يوم القيامة وقائدهم إلى الجنة والله أعلم .

(مجلس فى مولد عيسى عليه السلام وفى حمل مريم بعيسى عليهما السلام وما يتصل به)

قال الله تعالى (واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً) قالت العلماء بأخبار الأنبياء لما مضى من حمل عيسى عليه السلام ثلاثة أيام ومريم يومئذ بنت خمسة عشر سنة وقيل بنت ثلاثة عشر سنة وكان مع مريم فى المسجد من المحررين ابن عم لها يقال له يوسف النجار وكان رجلا حليما نجاراً يتصدق بعمل يده وكان يوسف ومريم يليان خدمة الكنيسة وكانت مريم إذا نفد ماؤها وماء يوسف أخذ كل واحد منهما قلته وانطلق إلى المغارة التى فيها الماء فيسقيان منه ثم يرجعان إلى الكنيسة فلما كان اليوم الذى لقيها فيه جبريل عليه السلام وكان اطول يوم فى السنة واشده حرا ونفد ماؤها فقالت ألا تذهب بنا يا يوسف فنستقى فقال أن عندى لفضلا من ماء أكتفى به يومى هذا إلى غد قالت ولكنى والله ما عندى ماء فأخذت قلتها ثم انطلقت وحدها حتى دخلت المغارة فوجدت عندها جبريل عليه السلام قد مثله الله بشراً سوياً فقال لها يا مريم إن الله قد بعثنى إليك لأهب لك غلاماً زكياً قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً أى مؤمناً مطيعاً قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه علمت أن التقى ذو رحمة وخشية وهى تحسبه رجلا من بنى آدم قال عكرمة وكان جبريل عرض لها صورة رجل شاب أمرد مضىء الوجه جعد الشعر نسوى الخلق قالت الحكماء إنما أرسله الله تعالى فى صورة البشر لتثبت مريم عليها وتقدر على استماع

فى الموقف بعرفة فقال له أخوه كنا نحن عنده فى ذلك اليوم ، هو جالس بيننا فحلف بالطلاق الثلاث أنه رآه فى ذلك اليوم بعرفة فقال له أخوه سر بنا إليه حتى نسأله عن حكم ذلك اليمين وعما جرى بيننا فى الاختلاف فى ذلك فقاما إليه وسلما عليه فرد عليهما السلام . فسألاه عما جرى بينهما من هذا الحديث فقال سهل مالكم فى هذا الحديث حاجة اشتغلوا بالله تعالى ثم التفت إلى الحالف وقال له امسك عليك زوجتك ولا تخبر بذلك احد بعد ذلك ثم مضى إلى الجزيرة المذكورة هارباً من الناس عفا الله تعالى عنه ونفعنا به وببركته آمين .

(وحكى عن خادمة رابعة العدوية رضى الله تعالى عنها) أنها قالت كانت رابعة العدوية تصلى الليل كله فإذا طلع الفجر هجمت هجعة فى مصلاها حتى يسفر الفجر فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها وهى فزعة يا نفس كم تنامين وإلى كم تقومين يوشك أنك تنامين نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور فكان هذا دأبها حتى ماتت رحمة الله تعالى عليها .

(قالت) خادمتها رضى الله تعالى عنها لما حضرت وفاة رابعة احضرتنى ثم قالت يا فلانة إذا أنا مت فلا تعلمى بى أحد

وكفنيني في جبتي هذه وكانت جبتها من شعر كانت تقوم فيها إذا نامت عيون النائمين قالت فكفنتها فيها وفي خمار من صوف فلما دفنتها رأيتها في المنام وعليها حلة خضراء من استبرق وفي خمار من سندس اخضر فقلت لها يا رابعة ما فعل الله بالجبة التي كفناك فيها والخمار الصوف قالت إنه نزعهما عني وأبدلني هذا الذي رأيته وطويت أكفاني وختم عليها ورفعت في عليين ليكون لي ثوابها يوم القيامة قالت فقلت لمثل هذا فليعمل العاملون فقالت وما هذا عند الله من إكرامه لأوليائه بشيء فقلت لها مريني بأمر أتقرب به إلى الله عز وجل فقالت عليك بذكر الله تعالى فإنه يوشك أن تنبطي بذلك في قبرك رضي الله تعالى عنها

(وحكي عن أحمد بن أبي الحواري عفا الله عنه) أنه قال كانت لرابعة العدوية أحوال شتى فكانت مره يغلب عليها الحب ومرة يغلب عليها الأنس ومرة يغلب عليها الخوف فكانت تنشد في الحب هذا الشعر :

حبيبي لا يعادله حبيب
وما لسواه في قلبي نصيب
حبيب غاب عن بصري وشخصي
ولكن عن فؤادي لا يغيب

وسمعتها في حال الأنس تقول هذا الكلام :

كلامه ولو نزل على صورته التي هو عليها لفزعت ونفرت منه ولم تقدر على استماع كلامه فلما استعاذت منه مريم (قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً قال كذلك قال ربك هو علي هين) الآية فلما قال لها ذلك استسلمت لقضاء الله فنفخ في جيب درعها وكانت قد وضعته عنها فلما انصرف عنها لبست مريم درعها وحملت بعيسى عليه السلام ثم ملأت قلتها وانصرفت إلى المسجد . وقال السدي وعكرمة أن مريم عليها السلام كانت تكون في المسجد ما دامت طاهرة فإذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها حتى إذا طهرت عادت إلى المسجد فبينما هي تغتسل من الحيض وقد اتخذت مكاناً شرقياً أي مشرقاً لأنه كان في الشتاء في أقصر يوم في السنة (قال الحسن) إنما اتخذت النصارى المشرق قبلة لأن مريم انتبذت مكاناً شرقياً فاتخذت من دونهم حجاباً أي ستراً قال وهب فلما اشتملت على عيسى كان معها ذو قرابة لها يقال له يوسف النجار وكانا منطلقين إلى المسجد الذي عند جبل صهيون وكان ذلك المسجد يومئذ من أعظم مساجدهم وكانت مريم ويوسف النجار يخدمان ذلك المسجد وكان لخدمته فضل عظيم وكان يليان معالجته بأنفسهما وتجميره وتطهيره وكان لا يعلم في زمانهما أشد اجتهاداً وعبادة منهما وكان أول من أنكر حملها ابن عمها وصاحبها يوسف النجار فلما رأى الذي بها استعظمه واستفظعه ولم يدر ماذا يصنع من أمرها وكلما أراد أن يتهمها ذكر صلاحها وعبادتها وبراءتها وأنها لم تغب عنه ساعة واحدة وإذا أراد أن يبرئها رأى الذي ظهر بها من الحمل فلما اشتد ذلك عليه كلمها فكان أول كلامها إياها أن قال لها إنه قد وقع في نفسي من أمرك شيء وقد حرصت على أن أكتمه فغلبني ذلك ورأيت أن الكلام فيه أشفى لصدري فقالت له قل قولا جميلا قال اخبريني يا مريم هل نبت زرع بغير بذر قالت نعم قال فهل نبتت شجرة بغير غيث قالت نعم قال فهل يكون ولد من غير ذكر قالت ألم تعلم ان الله عز وجل انبت الزرع يوم خلقه من غير بذر والبذر إنما يكون من الزرع الذي انبته من غير بذر ألم تعلم أن الله تعالى أنبت الشجر من غير غيث وبالقدرة جعل الغيث حياة الشجر بعد ما خلق الله كل واحدة منهما على حدة أو تقول أن الله لا يقدر أن ينبت الشجرة حتى يستعان بالماء ولولا ذلك لم يقدر على إنباته قال يوسف لها لا أقول هذا ولكني أقول أن الله تعالى يقدر على ما يشاء يقول للشيء كن فيكون فقالت له مريم ألم تعلم أن الله خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى قال بلى فلما قالت له ذلك وقع في نفسه ان الذي بها شيء من امر الله وإنه لا يسعه ان يسألها عنه وذلك لما رأى من كتمانها لذلك ثم تولى يوسف خدمة المسجد وكفاها كل عمل كانت تعمل فيه لما رأى من رقة جسمها واصفرار لونها وكلف وجهها ونتوء بطنها وضعف قوتها وكان جبل صهيون على باب بيت المقدس وسمعت من الثقات أن قبر داود عليه السلام فيه وثم كنيسة مشرفة على عين السلوان وسألت بعض الرهبان فقال هذا صهيون والكنيسة التي خدمت مريم ويوسف هذه وقد أفصح فيها عيسى ودعا الخلق إلى الله تعالى ثم نقل من هذه القامة وهي كنيسة عظيمة داخل بيت المقدس يدعون أن عيسى عليه السلام لما قتل دفن فيها وبعد ثلاثة أيام عرج به إلى السماء فلا ينقطع أبد الدهر منها وأنه ينزل فيها والله اعلم .

(باب في ذكر ميلاده عليه السلام)

قالوا فلما أنقلت مريم ودنا نفاسها أوحى الله تعالى إليها أن مسجد بيت المقدس من بيوت الله تعالى الذي طهر ورفع ليذكر فيه إسمه فابرزي إلى موضع تأوين فيه فتحولت مريم إلى بيت خالتها اخت أمها ام يحيى فلما دخلت عليها قامت أم يحيى واستقبلتها فالتزمتها فقالت امرأة

زكريا يا مريم شعرت إنى حبلى قالت مريم وأنت ايضا شعرت إنى حبلى. قالت امرأة زكريا
فانى أجد ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك فلذلك قوله (مصدقا بكلمة من الله) فلما وافت بيت
خالتها أوحى الله إليها إنك إن ولدت بين اظهر قومك عيروك وقذفوك وقتلوك وولدت فاظعنى
من عندهم أى فاخرجى * وقال الكلبى قيل لابن عمها يوسف أن مريم حملت من الزنا الآن
يقتلها الملك وكانت قد سميت له فهرب بها يوسف فاحتملها على حماره ليس بينها وبين الآكاف
شىء فانطلق بها يوسف حتى إذا كان قريبا من أرض مصر فى منقطع بلاد قومها أدرك مريم
النفاس فألجأها إلى اصل نخلة يابسة وذلك فى زمان الشتاء (قال الكلبى) لما كان يوسف ببعض
الطريق أراد قتلها فأتاه جبريل عليه السلام فقال له إنه من روح القدس فلا تقتلها واختلف
العلماء فى مدة حمل مريم عليها السلام ووقت وضعها عيسى عليه السلام فقال بعضهم كان مقدار
حملها تسعة أشهر كحمل سائر النساء وقيل ثمانية أشهر وكان ذلك آية أخرى لأنه لم يعش
مولود لثمانية أشهر غير عيسى وقيل ستة اشهر وقيل ثلاث ساعات وقيل ساعة واحدة
(وقال ابن عباس) ما هو إلا أن حملت ووضعت ولم يكن بين الحمل والوضع والانتباذ
ساعة واحدة لأن الله تعالى لم يذكر بينها فصلا قال الله عز وجل (فحملته فانتبذت به مكانا
قصيا) أى بعيداً من قومها وقال مقاتل حملته أمه فى ساعة وصور فى ساعة ووضع فى ساعة
حين زالت الشمس من يومها وهى بنت عشرين سنة وكانت قد حاضت حيضتين قبل أن تحمل
بعيسى قالوا فلما اشتد بها المخاض التجأت إلى النخلة وكانت نخلة يابسة ليس لها سعف
ولا كرانيف ولا عروق فاحتوشتها الملائكة وكانوا صفوفا محدقين بها أى محيطين بها وكانت
النخلة فى موضع يقال له بيت لحم فقالت حين اشتد الأمر يا ليتنى مت قبل هذا وكنت
شيئا منسيا أى جيفة ملقاة فنوديت أن لا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا وهزى إليك بجذع
النخلة تساقط عليك رطباً جنيا فذلك قوله تعالى (فناداها من تحتها أن لاتحزنى) من قرأ بكسر
الميم والتاء فهو جبريل عليه السلام ناداها من سفح الجبل ومن قرأ بفتح الميم والتاء فهو عيسى
عليه السلام لما خرج من بطن أمه ناداها وكلمها باذن الله تعالى قالوا فلما ولدت عيسى أجرى
الله لها نهراً من ماء عذب بارد إذا شربت منه وفاترا إذا استعملته فلذلك قوله تعالى (قد جعل
ربك تحتك سريا) وهو النهر الصغير قال ابن عباس ضرب عيسى وقيل جبريل عليه السلام
عقب الأرض فظهر الماء وحيث تلك النخلة بعد يبسها فتدلت غصونها وأورقت واثمرت
رطبت وقيل لها هزى إليك بجذع النخلة أى حركيه تساقط عليك رطباً جنياً غضاً طريا
قال الربيع بن خيثم ما للنفساء عندى خير من الرطب ولا للمريض خير من العسل قالت عائشة
رضى الله عنها كان رسول الله ﷺ يمضغ التمر ويحنك به أولاد الصحابة حين يولدون وقال
بعض البلغاء فى وصف التمر علة الصغير ونهلة الكبير قالوا ثم أن يوسف النجار عمد إلى حطب
يابس كالحظيرة حواليها بالقرب منها إذا قد أضر بها البرد ثم أشعل لها نارا لتصطلى بها ثم كسر
أربع جوزات كانت فى خرجه فأطعمها إياها فمن أجل ذلك توقد النصارى النار ليلة الميلاد
ويأكلون الجوز (قال وهب) فلما ولد عليه السلام أصبحت الأصنام كلها بكل أرض منكسة
على رؤسها ففزعت الشياطين ولم يدروا لم ذلك فساروا مسرعين حتى جاؤا إلى إبليس لعنه
الله فغضب عليه وهو على عرش فى لجة خضراء يتمثل بالعرش يوم كان الماء فأتوه وقد خلت
ساعات من النهار فلما رأى إبليس اجتماعهم فزع من ذلك ولم يرهم جميعا منذ فرقهم قبل
تلك ساعة وإنما كان يراهم أشتاتا فسألهم فأخبروه أنه حدث فى الأرض حدث فاصبحت

ولقد جعلتك فى المنوا
محدثى
وأبحت جسمى من أراد
جلوسى
فالجسم منى للجليس
مؤانس
وحبيب قلبى فى الفؤاد
أنيسى
وسمعتها فى حال الخوف
تقول
وزادى قليل ما أراه مبلغى
للزاد. أبكى أم لطول
مسافتى
أتحرقنى بالنار يا غاية
المنى
فأين رجائى فيك اين
مخافتى

قال زوجها فقلت لها
ليلة من الليالى وقد قامت
من أول الليل يا رابعة
مارأيت من يقوم أول الليل
غيرك فقالت سبحان الله
أمثلك من يتكلم على ذلك
إنما أقوم والله إذا نوديت
للقيام .

(قال) زوجها وجلست
يوما من الأيام آكل وهى
جالسة بجانبى فقعدت تذكر
أهوال يوم القيامة فقلت لها
دعينا نتهيأ بطعامنا فقالت
ليس أنا وأنت ممن يتغنص
عليه الطعام بذكر الآخرة
ثم قالت لى والله لست
أحبك حب الإخوان فكانت
إذا طبخت قدرا قالت كله
يا سيدى فما نطبخ إلا
بالتسبيح ثم قالت لى اذهب
فتزوج فتزوجت بثلاثة نساء

فكانت تطعمني اللحم وتقول لي اذهب بقوتك إلى اهلك وكانت تأتيها الجرة بكل ما تطلب وكان لها كرامات خارقة حتى ماتت رحمها الله تعالى ونفعنا ببركتها آمين

(وروى) عن عمرة زوجة حبيب العجمي رضي الله تعالى عنها انها كانت توقظ زوجها بالليل وتقول له قم يا رجل قد ذهب الليل وبين يديك طريق بعيدة والزاد قليلة وقوافل الصالحين قد سارت رضي الله عنهم اجمعين وقال بعضهم عفا الله عنه ونفعنا به وتزوجت امرأة جميلة حسنة الخلق فكانت إذا صلت العشاء لبست ثيابها وتطيبت وتبخترت ثم تأتيني وتقول لي ألك حاجة يا سيدي فإن قلت نعم كانت معي وإن قلت لا تمضي وتنزع ثيابها وتلبس ثياباً غيرها وتصلي إلى الصباح فكان هذا أبها وطريقتها رضي الله تعالى عنها

(وحكى عن بعض اصحاب احمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه) قال لما مات احمد بن حنبل رضي الله عنه رأيته في المنام وهو يمشي ويتبختر في مشيته فقلت يا اخي اي مشية هذه فقال مشية الخدام في دار السلام فقلت ما فعل الله بك فقال غفر لي والبسني نعلين من ذهب احمر وقال هذا بقولك القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ثم قيل لي يا احمد قم

الأصنام كلها منكسة على رؤسها ولم يكن شيء أعون لملاك بني آدم منها لأنهم كانوا يدخلون في اجوافها فتكلمهم وتدبر امرهم فيظنون أنها هي التي تكلمهم فلما اصابها هذا الحادث صغرها في أعين الناس وأذلها وقد خشينا أن لا يعبدوها بعد هذا (واعلم) أنا لم نكن نأتيك حتى احصينا الأرض وقلبنا البحار وكل شيء فلم نزدد بما أردنا إلا جهلا فقال لهم إبليس فما يكون إلا أمر عظيم فكونوا مكانكم فطار إبليس عند ذلك ولبث عنهم ثلاث ساعات فمر فيهن بالمكان الذي ولد فيه عيسى فلما رأى الملائكة محدقين بذلك المكان علم أن ذلك الحدث فيه فأراد إبليس لعنه الله أن يأتيه من فوقه قال فإذا رؤس الملائكة ومناكبهم إلى السماء ثم أراد أن يأتيه من تحت الأرض فإذا اقدام الملائكة راسية فأراد أن يدخل من بينهم فمنعوه عن ذلك يدل عليه حديث النبي ﷺ كل ابن آدم يطعنه الشيطان في جنبيه بأصبعه حين يولد إلا عيسى بن مريم عليه السلام حجبه الله تعالى عنه فذهب يطعن فطعن في الحجاب ، قال وهب فذهب إبليس لعنه الله إلى اصحابه فقال لهم ما جئتكم حتى احصيت الأرض كلها شرقها ومغربها وبرها وبحرها والخافقين والجو الأعلى وكل هذا بلغته في ثلاث ساعات ثم اخبرهم بمولد عيسى وقال ما اشتملت قبله رحم أنثى على ولد إلا بعلمي ولا وضعته إلا وأنا حاضرها وإني لأرجو أن يضل به أكثر ممن يهتدي به وما كان نبي اشد علي وعليكم من هذا المولود ثم إنه خرج قوم في تلك الليلة يؤمنونه من اجل نجم طلع كانوا من قبل يتحدثون أن مطلع ذلك النجم من علامات مولود في كتاب دانيال فخرجوا يريدونه ومعهم الذهب والمر واللبان فمروا بملك من ملوك الشام فسألهم أين تريدون فأخبروه بذلك قال فما بال المر والذهب واللبان أهديتموه بهذه الأشياء قالوا تلك امثاله لأن الذهب سيد المتاع كله وكذلك هذا النبي ﷺ سيد اهل زمانه ولأن المر يجبر به الكسر والجرح وكذلك هذا النبي ﷺ يشفي الله به كل سقيم ومريض ولأن اللبان دخانه يدخل السماء ولا يدخلها دخان غيره وكذلك هذا النبي ﷺ يرفعه الله إلى السماء ولا يرفع في زمانه أحد غيره فلما قالوا ذلك لذلك الملك حدث نفسه بقتله فقال لهم اذهبوا فإذا علمتم بمكانه فأعلموني فإني راغب في مثل ما رغبتم فيه من أمره فانطلقوا حتى قدموا على مريم ودفعوا ما كان معهم من الهدية إليها عليها السلام وأرادوا أن يرجعوا إلى ذلك الملك ليعلموه بمكانه فلقيهم ملك وقال لهم لا ترجعوا إليه ولا تعلموه بمكانه فإنه إنما أراد قتله فانصرفوا في طريق آخر وقال مجاهد قالت مريم عليها السلام كنت إذا خلوت مع عيسى عليه السلام حدثني وحدثته فإذا شغلني عنه إنسان سبح في بطني وأنا اسمع والله اعلم

(باب في رجوع مريم بابنها عيسى بعد ولادتها إياه إلى جماعة قومها من بيت لحم)

قال ثم أن جماعة من قومها لما هيأ الله لأمته مريم عليها السلام أمرها ويسر الله لها اسباب ولادتها قال كلي يا مريم من الرطب واشربي من الماء العذب وقري عيناً وطيبي نفساً فأما ترين من البشر أحداً فسألك عن ولدك أولامك عليه فقولي إني نذرت للرحمن صوماً أي صمتاً وكذلك هو في قراءة ابن مسعود وأنس وذلك إنهم كانوا إذا صاموا أمسكوا عن الطعام والشراب والكلام فلن أكلم اليوم إنسياً فأتت به قومها تحمله قال الكلبي احتمل يوسف النجار مريم وعيسى إلى غار فأدخلهما فيه اربعين يوماً حتى تعالت من نفاسها ثم جاء بها فأتت مريم تحمله بعد اربعين يوماً فكلمها عيسى في الطريق فقال يا أماه أبشري فاني عبدالله ومسيحه فلما دخلت على أهلها ومعها الصبي بكوا وحزنوا وكانوا أهل بيت صالحين فقالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً فظيعاً عظيماً يا أخت هرون قال قتادة كان هرون رجلاً صالحاً من أتقياء بني إسرائيل وليس هرون أخي موسى وذكروا أنه تبع جنازته يوم مات اربعون ألفاً من بني إسرائيل كلهم يسمى هرون وقال وهب كان هرون من أفسق بني إسرائيل واظهرهم فساداً فشبهوها به ما كان أبوك عمران امرأ سوء

وما كانت أمك بغياً أى زانياً فمن أين لك هذا الولد فأشارت لهم مريم إلى عيسى أن كلموه فغضبوا وقالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبياً قال وهب فأناها زكريا عليه السلام عند مناظرتها لليهود وقال لعيسى انطق بحجتك إن كنت أمرت بها فقال عند ذلك عيسى عليه السلام وهو ابن أربعين يوماً إنى عبد الله آتانى الكتاب الآية فأقر على نفسه بالعبودية أول من تكلم تكذيباً للنصارى وإلزاماً للحجة عليهم قال عمرو بن ميمون أن مريم لما أتت قومها بعيسى أخذوا الحجارة وأرادوا أن يرجموها فلما تكلم عيسى تركوها قالوا ثم لم يتكلم بشىء بعدها حتى كان بمنزلة غيره من الصبيان والله اعلم .

(باب فى ذكر خروج مريم وعيسى عليهما السلام إلى مصر)

قال الله تعالى (وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين) قالوا كان مولد عيسى بعد مضى إثنين واربعين سنة من ملك اغسطوس وإحدى وخمسين سنة مضت من ملك الاشكانيين ملوك الطوائف وكانت المملكة فى ذلك الوقت لملوك الطوائف وكانت الرياسة فى الشام ونواحيها لقيصر ملك الروم وكان الملك عليها من قبل قيصر هردوس فلما عرف هردوس ملك بنى إسرائيل خبر المسيح قصد قتله وذلك إنهم نظروا إلى نجم قد طلع فعرفوا ذلك بحساب عندهم فى كتاب لهم فبعث الله ملكا إلى يوسف النجار واخبره بما أراد هردوس وأمره أن يهرب بالغلام وأمه إلى مصر وأوحى الله إلى مريم أن الحقى بمصر فان هردوس إن ظفر بابنك قتله فاذا مات هردوس فارجعى إلى بلادك فاحتمل يوسف مريم وإبنها على حمار له حتى ورد ارض مصر وهى الربوة التى قال الله تعالى (وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين) ذكر ابو إسحق الثعلبى فى التفسير ذات قرار ومعين قال عبد الله بن سلام هى دمشق وقال ابو هريرة هى الرملة وقال قتادة وكعب هى بيت المقدس وقال كعب هى اقرب الأرض إلى السماء وقال ابو زيد هى مصر وقال الضحاك هى غوطة دمشق وقال ابو العالية هى إيلياء وقال القرار المستوية والمعين الماء الظاهر فقامت مريم بمصر إثنتى عشرة سنة تغزل الكتان وتلتقط السنبل أثر الحصادين وكانت تلتقط السنبل والمهد فى منكبها والوعاء الذى فيه السنبل فى منكبها الآخر حتى تم لعيسى إثنتا عشر سنة وروى عن محمد بن على الباقر رضى الله عنه أنه قال لما ولد عيسى كان ابن يوم كأنه ابن شهر فلما كان ابن تسعة اشهر أخذت والدته بيده وجاءت إلى الكتاب وأقعدته بين يدى المؤدب فقال له المؤدب قل بسم الله الرحمن الرحيم فقالها عيسى فقال المؤدب قل أبجد فرفع عيسى عليه السلام رأسه فقال له هل تدرى ما أبجد فعلاه بالقضيب ليضربه فقال للمؤدب لا تضربنى إن كنت تدرى وإلا فاسألنى حتى أفسر لك فقال له المؤدب فسره له فقال عيسى الألف لا إله إلا الله والباء بهجة الله والجيم جلال الله والدال دين الله هو والهاء هى جهنم وهى الهاوية والواو ويل لأهل النار والزاى زفير أهل جهنم حطى حطت الخطايا عن المستغفرين كلمن كلام الله غير مخلوق ولا مبدل لكلماته سعفص صاع بصاع والجزاء بالجزاء قرشت قرشهم حين تحشرهم أى تجمعهم فقال المؤدب لأمه أيتها المرأة خذى إبنك فقد علم ولا حاجة له إلى المؤدب (أخبرنا) الحسين بن محمد بن الحسين المفسر باسناده عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله ﷺ أن عيسى أرسلته أمه ليتعلم فقال له المعلم قل بسم الله فقال عيسى وما بسم الله قال المعلم ما ادرى قال عيسى الباء بهاء الله والسين سناء الله والميم مملكته جل وعلا والله اعلم .

(باب فى صفة عيسى وحليته عليه السلام)

قال كعب الأحبار كان عيسى بن مريم رجلا أحمر مائلا إلى البياض ماهر سبط الرأس ولم يدهن رأسه قط وكان عيسى يمشى حافياً ولم يتخذ بيتاً ولا حلية ولا متاعا ولا ثيابا ولا رزقا إلا قوت يومه

وكان فى المركب رجل من أهل الخير وكان ضعيفاً فلما مات أخذنا فى غسله وتجهيزه

حيث شئت فدخلت الجنة فاذا بسفيان الثورى رضى الله عنه له جناحان يطير بهما من شجرة إلى اخرى وهو يقرأ هذه الآية الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين قال فقلت له ما فعل الله بعبد الرزاق الواعظ قال قال تركته فى بحر من نور فى مركب من زبرجد يطير به للعزيز الغفور فقلت ما فعل الله ببشر ابن الحرث بخ بخ ومن مثل بشر بن الحرث تركته على مائدة بين يدى الجليل وهو مقبل عليه ويقول له كل يا من لم تأكل واشرب يا من لم تشرب وتنعم يا من لم تنعم فقلت ما فعل الله بمعروف الكرخى فقال تركته تحت العرش والحق جل جلاله يقول للملائكته من هذا فقالوا يا رب أنت أعلم فقال هذا معروف الكرخى سكران بحبى فلا يفيق إلا بلقائى .

(وقال) الربيع بن سليمان رأيت الإمام الشافعى رضى الله عنه فقلت يا أبا عبد الله ما فعل الله بك فقال اجلسنى على كرسى من ذهب ونثر على اللؤلؤ الرطب وأباح لى الجنة وهذا من بعض مناقبهم رضى الله عنهم .

(وحكى عن بعضهم رضى الله عنه) أنه قال كنت فى مركب سنة من السنين

وكان حيثما غابت الشمس صف قدميه وصلى حتى يصبح وكان يبرىء الأكمة والأبرص ويحيى الموتى باذن الله وكان يخبر قومه بما يأكلون فى بيوتهم وما يدخرون لغد وكان يمشى على الماء فى البحر وكان أشعث الرأس صغير الوجه زاهداً فى الدنيا راغبا فى الآخرة حريصا على عبادة الله وكان سياحا فى الأرض حتى طلبته اليهود وأرادوا قتله فرفعه الله إلى السماء والله أعلم .

(باب فى ذكر الآيات والمعجزات التى ظهرت لعيسى عليه السلام فى صباه إلى أن نبىء)

قال وهب كان أول آية رآه الناس من عيسى أن أمه كانت نازلة فى دار دهقان من أرض مصر أنزلها بها يوسف النجار حين ذهب بها إلى مصر وكانت دار ذلك الدهقان تأوى إليها المساكين فسرق للدهقان مال من خزانته فلم يتهم المساكين فحزنت مريم لمصيبة ذلك الدهقان فلما رأى عيسى حزن أمه لمصيبة صاحب ضيافتها قال لها ياأماه أتحبين أن أدله على ماله قالت نعم يا بنى قال لها قولى له يجمع المساكين فى داره فقالت مريم للدهقان ذلك فجمع له المساكين فلما اجتمعوا عمد إلى رجلين منهم أحدهما أعمى والآخر مقعد فحمل المقعد على عاتق الأعمى وقال له قم به فقال الأعمى أنا أضعف عن ذلك فقال له عيسى كيف قويت على ذلك البارحة فلما سمعوه يقول ذلك ضربوا الأعمى حتى قام فلما استقل قائما هوى المقعد إلى كوة الخزانة فقال عيسى للدهقان هكذا احتالا على مالك البارحة لأن الأعمى استعان بقوته والمقعد صدق والله فردا على الدهقان ماله كله فأخذه الدهقان ووضعه فى خزانته وقال يامريم خذى نصفه فقالت إنى لم أخلق لذلك قال الدهقان فاعطيه لإبنك قالت هو أعظم منى شأنا ثم لم يلبث الدهقان أن أعرس لإبن له فصنع عيدا فجمع عليه أهل مصر كلهم فكان يطعمهم شهرين فلما انقضى ذلك زاره قوم من أهل الشام ولم يعلم الدهقان بهم حتى نزلوا به وليس عنده يومئذ شراب فلما رأى عيسى اهتمامه بذلك دخل بيتا من بيوت الدهقان فيه صفان من جرار فرعيسى يده على أفواهها وهو يمشى فكلما مر يده على جرة امتلأت شرابا حتى أتى عيسى على آخرها وهو يومئذ ابن إثنتى عشر سنة (آية أخرى) قال السدى كان عيسى عليه السلام إذا كان فى الكتاب يحدث الصبيان بما يصنع آباؤهم ويقول للغلام انطلق فقد أكل أهلك كذا وكذا ورفعوا لك كذا وهم يأكلون كذا وكذا فينطلق الصبى إلى أهله فيبكى عليهم حتى يعطوه ذلك الشىء فيقولون له من أخبرك بهذا فيقول لهم عيسى فحبسوا عنه صبيانهم وقالوا لاتلعبوا مع هذا الساحر فجمعوهم فى بيت فجاء عيسى يطلبهم فقالوا له ليسوا هاهنا فقال لهم فما فى هذا البيت قالوا خنازير قال كذلك يكونون ففتح عنهم فاذا هم خنازير ففشا ذلك فى الناس فهمت به بنو إسرائيل فلما خافت عليه أمه حملته على حمار لها وخرجت هاربة إلى مصر (آية) أخرى قال السدى لما خرج عيسى وأمه عليهما السلام يسيحان فى الأرض إذ جاء بنى إسرائيل ونزلا فى قرية على رجل فأضافهما وأحسن إليهما وكان ملك ذلك الوقت جبارا عنيدا فجاء ذلك الرجل يوما منتما حزينا فدخل منزله ومريم عند امرأته فقالت لها مريم ماشأن زوجك أراه حزينا فقالت لها لاتسألينى فقالت أخبرينى لعل الله يفرج كربته على يدى فقالت أن لنا ملكا يجعل على كل جل من نوبة يطعمه ويسقيه الخمر هو وجنوده فان لم يفعل عاقبه واليوم يومنا وليس عندنا سعة قالت فقولى له لايهتم بشىء فانه قد أحسن إلينا وإنى آمر إبنى أن يدعو له فيكتفى ذلك ثم قالت مريم لعيسى فقال إن فعلت ذلك يقع شر قالت فلا نبالى لأنه أحسن إلينا وأكرمنا قال عيسى فقولى له إذا اقترب ذلك فاملأ قدورك وخوابيك ماء ثم أعلمنى ففعل ذلك فدعا عيسى فتحول ماء القدور لحما ومرقا وماء الخوابى خمرا لم ير الناس مثله قط فلما جاء الملك أكل فلما شرب سأل من أين هذا الخمر أخبرنى على الحق قال فأنا أخبرك عندى غلام ما سأل الله شيئا إلا أعطاه إياه وإنه دعا الله تعالى فجعل الماء خمرا وكان للملك ابن يريد أن يستخلفه فمات قبل ذلك بأيام وكان أحب الخلق إليه فقال الملك إن رجلا دعا الله حتى جعل الماء خمرا ليستجاب له

واردنا إلقاءه فى البحر فبينما نحن كذلك إذا البحر قد انشق ونزلت السفينة إلى أرض فخرجنا منها ونظرنا فاذا بقبر مرخم وليس فيه أحد فدفناه فيه فلما فرغنا من دفنه استوى الماء وارتفعت السفينة فتعجبنا من ذلك رحمة الله عليه

(وحكى عن الشيخ أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه) أنه قال كنت بمكة سنة من السنين فررت بباب بنى شيبة فرأيت شاب حسن الشباب وهو ملقى على الأرض ميتاً فنظرت فى وجهه فرأيته يضحك فتعجبت من ذلك فقال لى يا أبا سعيد أتعجب من موتى وأنت تعرف أن الأحياء أحياء فهم وإن ماتوا إنما والله ينقلون من دار إلى دار قال أبو سعيد فدهشت من ذلك ثم أخذت فى غسله وتجهيزه ودفنه وأنا متحير فى أمرى متفكرا فيما رأيته رضى الله تعالى عنه

(وحكى عن أبى يعقوب السوسى نفعنا الله ببركاته) أنه قال جاء فى بعض المريدين بمكة وسلم على وقال يا أستاذى غدا عند الظهر أموت فخذ هذا الدينار فكفنى بنصفه واحفر لى قبرا بنصفه ثم امض من عندى فلما كان الغد عند الظهر جاء فطاف سبعا ثم امتد نحو القبلة فمات رحمة الله تعالى عليه فنظرت فى وجهه ففتح

حتى يحيى إبنى فدعا عيسى وكلمه فى ذلك فقال له عيسى لا تفعل لأنه إن عاش وقع شر فقال الملك لا أبالى بعد أن أراه قال عيسى إن أحييته تتركونى أنا وأمى نذهب حيث نشاء قال نعم فدعا الله تعالى فعاش الغلام فلما رآه أهل مملكته قد عاش تبادروا بالسلاح وقالوا أكلنا هذا حتى إذا دنا موته يريد أن يستخلف علينا إبنه فيأكلنا كما أكلنا أبوه فاقتتلوا وذهب عيسى وأمه (آية) أخرى قال وهب بينما عيسى يلعب مع الصبيان إذ وثب غلام على صبى فوكزه برجله فقتله فألقاه بين يدى عيسى وهو ملطخ بالدم فاطلع الناس عليه فاتهموه به فأخذوه وانطلقوا به إلى قاضى مصر فقالوا له هذا قتل هذا فسأله القاضى فقال عيسى لا أدرى من قتله وما أنا بصاحبه فأرادوا أن يبطشوا بعيسى عليه السلام فقال لهم ائتونى بالغلام فقالوا له ما تريد منه قال أريد أن أسأله من قتله قالوا وكيف يكلمك وهو ميت فأخذوه وأتوا به إلى مقتل الغلام فأقبل عيسى على الدعاء فأحياه الله تعالى فقال له عيسى من قتلك قال قتلنى فلان على الذى تتله فقال بنو إسرائيل من هذا فقال هذا عيسى بن مريم قالوا فمن هذا الذى معه قال قاضى بنى إسرائيل ثم مات الغلام من ساعته فرجع عيسى إلى أمه وتبعه خلق كثير من الناس فقالت له أمه يا إبنى ألم أنهك عن هذا فقال لها إن الله حافظنا وهو أرحم الراحمين (آية) أخرى قال عطاء سلمت مريم عيسى بعد ما أخرجته من الكتاب إلى أعمال شتى فكان آخر ما دفعته إلى الصباغين فدفعته إلى رئيسهم ليتعلم منه فاجتمع عنده ثياب مختلفات فعرض للرجل سفر فقال لعيسى إنك قد تعلمت هذه الحرفة وأنا خارج فى سفر لا أرجع إلى عشرة أيام وهذه ثياب مختلفات الألوان وقد علمت كل واحد منها على اللون الذى يصبغ به فأحب أن تكون فارغا منتا وقت قدومى ثم خرج فطبخ عيسى عليه السلام واحداً على لون واحد وأدخل فيه جميع الثياب وقال لها كونى باذن الله تعالى على ما أريد منك فقدم الصباغ والثياب كلها فى جب واحد فقال يا عيسى ما فعلت قال فرغت منها قال أين هى قال فى الجب فقال كلها قال نعم قال كيف تكون كلها فى جب واحد لقد أفسدت ذلك الثياب قال نعم قم فانظر فقام فأخرج عيسى ثوباً أصفر وثوبا أخضر وثوبا أحمر إلى أن أخرجها على الألوان التى أراها فجعل الصباغ يتعجب وعلم أن ذلك من الله عز وجل فقال الصباغ للناس تعالوا انظروا إلى ما فعل عيسى عليه السلام فآمن به وأصحابه وهم الحواريون لله عز وجل أعلم

(باب فى ذكر رجوع مريم وعيسى عليهما السلام إلى بلادهما بعد موت هردوس)

قال وهب لما مات هردوس الملك بعد إثنتى عشر سنة من مولد عيسى عليه السلام أوحى الله تعالى إلى مريم يخبرها بموت هردوس ويأمرها بالرجوع مع ابن عمها يوسف النجار إلى الشام فرجع عيسى وأمه عليهما السلام وسكنا فى جبل الخليل فى قرية يقال لها ناصرة وبها سميت النصارى وكان عيسى يتعلم فى الساعة علم يوم وفى اليوم علم شهر وفى الشهر علم سنة فلما تمت اثنين سنة أوحى الله تعالى إليه أن يبرز للناس ويدعوهم إلى الله ويضرب لهم الأمثال ويداوى المرضى والزمنى والعميان والمجانين ويقمع الشياطين ويزجرهم ويدلهم وكانوا يموتون من ساعته ففعل ما أمره به فأحبه الناس ومالوا إليه واستأنسوا به وكثرت أتباعه وعلا ذكره وربما اجتمع عليه من المرضى والزمنى فى الساعة الواحدة خمسون ألفاً فمن أطاق منهم أن يمشى إليه مشى إليه ومن لم يطق وصل إليه عيسى عليه السلام وإنما كان يداويهم بالدعاء بشرط الإيمان بالدعاء الذى كان يشفى به المرضى ويحيى به الموتى اللهم أنت إله من فى السماء وإله من فى الأرض لا إله فيهما غيرك وأنت جبار من فى السموات وجبار من فى الأرض لا جبار فيهما غيرك

عينيه فى وجهى وهو يضحك فقلت له يا أخى أنت ميت أم حى فقال بل حى وكل محب لله فهو حى قال فتعجبت منه ثم أخذت فى غسله وتكفينه وتجهيزه ودفنه رضى الله تعالى عنه

(وحكى عن الشيخ أبى على الروزباوى عفا الله عنه) أنه قال ورد على جماعة من الفقراء فمرض منهم رجل ومكث فى مرضه أياماً كثيرة فمل أصحابه من خدمته وشكوا إلى ذلك فخالفت نفسى وحلفت أن لا يتولى خدمته احد غيرى فصرت أخدمه بنفسى أياماً حتى مات رحمة الله تعالى عليه ثم غسلته وكفنته وصليت عليه ولحدته فبينما أنا عند إضجاعه فى قبره إذا نظرت فى عينيه فوجدتهما مفتوحين ثم أقسم وقال ياعلى لأنصرنك بجاهى يوم القيامة كما نصرتنى وخالفت نفسك وخدمتنى ثم اسبل عينيه رضى الله تعالى عنه ونفعنا والمسلمين ببركاته .

(وحكى بعضهم رضى الله تعالى عنه) أنه قال قصد جماعة من الفقهاء زيارة بعض المشايخ وكان رجلا عالماً زاهداً ورعاً فلما حضروا بين يديه اقيمت الصلاة فصلوا خلفه فسمعوه يلحن فى قراءته فتغير اعتقادهم فيه فكاشف عليهم الشيخ فلما نامو اسلط الله عليهم

وأنت ملك من فى السموات وملك من فى الأرض لاملك فيهما غيرك وأنت حكم من فى السموات وحكم من الأرض لاحكم فيهما غيرك قدرتك فى الأرض كقدرتك فى السماء وسلطانك فى الأرض كسلطانك فى السماء أسألك بأسمائك الكرام إنك على كل شىء قدير .

(باب فى قصة الحواريين عليهم السلام)

قال الله تعالى (فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله ونشهد بأنا مسلمون) وقال الله عز وجل (وإذا أوحيت إلى الحواريين) أى ألهمتهم ووفقتهم (أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأنا مسلمون) اعلم أن الحواريين كانوا أصفياء عيسى بن مريم وأولياءه وأرضياءه وأنصاره ووزراءه وكانوا إثنى عشر رجلا وأسماءهم شمعون الصفار المسمى بطرس واندراوس وأخوه ويعقوب بن زبدى ويحيى أخوه وفيلبش وبرتولوماوس وتوما ومتى العشار ويعقوب بن حلفا وليا الذى يدعى تداوس وشمعون الفنانى وليوذ الأسخريوطى عليهم السلام (واختلف) العلماء فيهم ولم سموا بذلك قال ابن عباس كانوا صيادين يصطادون السمك فمر بهم عيسى فقال لهم ما تصنعون فقالوا نصطاد السمك فقال لهم ألا تمشون معى حتى نصطاد الناس قالوا له وكيف ذلك قال ندعوا إلى الله قالوا ومن أنت قال أنا عيسى بن مريم عبد الله ورسوله قالوا فهل يكون أحد من الأنبياء فوقك قال نعم النبى العربى فاتبعه أولئك وآمنوا به .

(أخبرنا) ابن فنحويه بإسناده عن مصعب قال الحواريون إثنا عشر رجلا اتبعوا عيسى فكانوا إذا جاعوا قالوا يا روح الله جعنا فيضرب بيده إلى الأرض سهلا كان أو جبلا فيخرج لكل إنسان رغيفين فيأكلهما وإذا عطشوا قالوا يا روح الله عطشنا فيضرب الأرض سهلا كان أو جبلا فيخرج الماء فيشربون فقالوا يا روح الله من أفضل منا إذا شئنا أطعمتنا وإذا شئنا أسقيتنا وآمنا بك واتبعناك قال أفضل منكم من يعمل بيده ويأكل من كسبه قالوا فصاروا يعملون الثياب بالكراء فقال له الملك من أنت قال أنا عيسى بن مريم قال الملك إنى أترك ملكى واتبعك فانطلق بمن اتبعه منهم وهم الحواريون وقيل هو الضباغ واصحابه وقد مضت القصة قال الضحاك سموا حواريين لصفاء قلوبهم وقال عبد الله بن المبارك سموا حواريين لأنهم كانوا نورانيين عليهم أثر العبادة ونورها وبياضها وبهاؤها وأصل الحور عند العرب شدة البياض ومنه الأحور والحور وقال الحسن الحواريون الأنصار وقال قتادة هم الذين تصلح لهم الخلافة. قال النضر بن شميل الحوارى خاصة الرجل ومن يستعين به فيما ينوبه ومنه قول النبى ﷺ لكل نبى حوارى وحوارى الزبير فهؤلاء حواريوا عيسى بن مريم عليه السلام فأما حواريوا هذه الأمة فأخبرنا الحسين بن محمد الدينورى باسناده عن سفيان بن معمر أن قتادة قال أن الحواريين كلهم من قريش وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وحمزة وجعفر وأبو عبيدة ابن الجراح وعثمان بن مظعون وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام رضى الله عنهم اجمعين .

(ذكر خصائص عيسى عليه السلام والمعجزات التى ظهرت على يديه بعد مبعثه إلى أن رفع صلوات الله عليه

منها تأييد الله إياه بروح القدس قال عز من قائل (وأيدناه بروح القدس) ونظيرها فى سورة المائدة (وإذ قال الله ياعيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس)

واختلفوا

احتلام فاحتلموا كلهم فى تلك الليلة فخرجوا إلى البحر ليغتسلوا فوضعوا ثيابهم إلى جانب البحر ونزلوا جميعاً فى الماء وكان ذلك فى زمن الشتاء فجاء الأسد فجلس على ثيابهم فلاقوا من البرد شدة عظيمة ولم يعرفوا أن الشيخ علم بحالهم فبينما هم كذلك إذا الشيخ قد أقبل وقال لهم أنتم استوجبتم الليل ثم أخذ بأذن الأسد وقال له أما قلت لك لا تتعرض لضيفانى فخرجوا من الماء ولبسوا ثيابهم ثم أتوا إلى الشيخ يعتذرون له ويقبلون يده ويستغفرون الله تعالى فقال لهم الشيخ انتم اشتغلتم باصلاح الظاهر فخفتم الأسد ونحن اشتغلنا باصلاح الباطن فخافنا الأسد رضى الله تعالى عنه ورضى عنا وعن جميع المسلمين ببركاته

(وحكى عن بعضهم رضى الله تعالى عنه) إشارة لطيفة قال لما ذهب إبراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام إلى النمروذ لعنه الله بدعوة إلى عبادة الله عز وجل عظم عليه ذلك وجمع أهل مملكته وخواص رعيته وقال لهم ما تشيرون به على فى أمر هذا الرجل الذى تجاوز علينا وكسر الأصنام وعطل ديننا بين الأنام فقولوا ما بدا لكم فإنى راجع إلى أقوال القائلين فقالوا احرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم

واختلفوا فيه فقال الربيع بن أنس هو الروح الذى نفخ فيه الروح أضافه سبحانه إلى نفسه تكريما وتخصصا تحويبت الله وناقة الله والقدس هو الله تعالى بدل عليه قوله تعالى وروح منه فنفخنا فيه من روحنا وقال آخرون أراد بالقدس الطهارة أى الروح الطاهرة وسمى عليه السلام روحا لأنه لم تضمه أصلاب الفحول ولم تشتمل عليه أرحام الطوامث إنما كان أمر من الله تعالى قال السدى وكعب روح القدس جبريل وتأييد عيسى جبريل عليهما السلام هو أنه كان قرينه ورفيقه يعينه ويسير معه حيثما سار إلى ان صعد به إلى السماء وقال سعيد بن جبير وعبيد بن عمير هو اسم الله الاعظم وبه كان يحيى الموتى ويرى للناس تلك العجائب (ومنها) تعليم الله إياه الإنجيل والتوراة وكان يقرؤهما من حفظه كما قال الله تعالى (وإذ علمتك الكتاب) أى الخط قيل الخط عشرة أجزاء فتسعة منها لعيسى (والحكمة والتوراة والإنجيل) (ومنها) خلقه الطير من الطين كما قال الله تعالى مخبرا عنه (أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيرا باذن الله) وقال تعالى (وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى) فكان يصور الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيرا باذن الله ويخلق غير الخفاش وإنما خص بالخفاش لانه أكمل الطير خلقا فيكون أبلغ فى القدرة لأن له ثديا وأسنانا ويلد ويحيض ويطير قال وهب كان الطير ما دام الناس ينظرون اليه فاذا غاب عنهم سقط ميتا ليتميز فعل الخلق عن فعل الله تعالى وليعلم الكمال لله عز وجل (ومنها) ابراء الأكمة والابرص قال تعالى (وتبرئ الأكمة والابرص باذنى) والابرص الذى به وضح والأكمة الذى ولد أعمى ولم يرضوه قط ولم يكن فى الإسلام أكمة غير قتادة وإنما خص هذين لانهما أعيا الاطباء وكان الغالب على زمان عيسى الطب فأراهم المعجزة من جنس ذلك (ويروى) أن عيسى عليه السلام مر بدير فيه عميان فقال ما هؤلاء قال هؤلاء قوم طلبوا للقضاء فطمسوا أعينهم بأيديهم فقال لهم مادعاكم إلى هذه قالوا خفنا عاقبة القضاء فصنعنا بأنفسنا ماترى فقال أنتم العلماء والحكماء والاحبار والافاضل امسحوا أعينكم بأيديكم وقولوا بسم الله ففعلوا ذلك فاذا هم جميعا قيام ينظرون (ومنها) إحياؤه الموتى باذن الله قال تعالى (وإذ تخرج الموتى باذنى) وأحيا منهم أمواتا منهم العاذر وكان صديقا له فأرسلت أخته إلى عيسى أن أخاك العاذر يموت وكان بينه وبينه مسيرة ثلاثة أيام فأتاه هو وأصحابه فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيام فقالوا لأخته انطلق بنا إلى قبره فانطلقت معهم إلى قبره وهو فى صخرة مطبقة فقال عيسى اللهم رب السموات السبع والارضين السبع إنك أرسلتنى إلى بنى إسرائيل أدعوهم إلى دينك وأخبرتهم أنى أحيى الموتى بأذنك فاحى العاذر وقد خرج من قبره وبقى وولد ومنها ابن العجوز وكانت القصة فى أن عيسى مر فى سياحته ومعه الحواريون بمدينة فقال أن فى هذه المدينة كنزا فمن يذهب يستخرجه لنا فقالوا ياروح الله لايدخل هذه القرية أحد غريب إلا قتلوه فقال لهم عيسى مكانكم حتى أعود اليكم فمضى حتى دخل المدينة فوقف على باب فقال السلام عليكم ياأهل الدار غريب أطعموه فقالت له امرأة عجوز أما ترضى أن ادعك لاذهب بك إلى الوادى حتى تقول اطعمونى فبينما عيسى بالباب إذا قبل الفتى ابن العجوز فقال له عيسى اضفنى ليلتك هذه فقال له الفتى مثل ماقاله العجوز فقال له عيسى أما إنك لو فعلت ذلك زوجتك بنت الملك فقال الفتى أما إن تكون مجنونا وأما إن تكون عيسى بن مريم قال أنا عيسى فاضافه وبات عنده فلما أصبح قال له اغد وادخل على الملك وقل له جئت أخطب بنت الملك فانه سيأمر بضربك وإخراجك فمضى حتى دخل على الملك فقال له جئت أخطب ابنتك فأمر بضربه فضرب واخرج فرجع الفتى إلى عيسى فاخبره الخبر فقال إذا كان غدا فاذهب اليه واخطب ابنته فانه يمنالك بدون ذلك ففعل الفتى ما أمره عيسى فضربه دون ذلك الضرب الاول فرجع إلى عيسى فأخبره فقال ارجع اليه فانه سيقول له أنا أزوجك إياها على حكمى وحكمى قصر من ذهب وفضة ومافيه من

فاعلين قال فمضوا إلى ملاقاته من الأرض وحفروا فيها حفيرا متسعا ثم نادى النمروذ فى اقطار مملكته إلا من أطاع النمروذ فليحتطب حزمة من الحطب الهشيم لإحراق إبراهيم قال فبادرت اليه العباد من أقطار البلاد فاقاموا حولا كاملا يجمعون الاحطاب إلى أن ملؤا ذلك الحفير بالاحتشاب فقال الجبار قوم نكبله وندعه فى النار ونضرمها عليه واختلفوا فى ذلك فقال إبليس لعنه الله اضرموا النيران فإذا رأى لهبها وعاينها يرجع عن دينه إلى دينكم ثم وضع لهم المنجنيق وقال لهم إذا أتى فضعوه فى كفته وارموه فى ذلك فإنه يصعد به المنجنيق فى الهواء ويوقعه فى النار وانتم تنظرون كيف يحترق قال فاتخذ النمروذ مكانا متسعا من الارض مبنيا بالجص وجلس ينظر كيف يحترق إبراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام فلما أوقدوا النيران كاد أن يضىء لها المشرق والمغرب وصعد لهبها إلى ان اطبق ما بين الخافقين حتى ان الطير إذا طار فى الجو حرقه لهب النيران ثم أتى بإبراهيم عليه الصلاة والسلام فلما نظر إلى ذلك التفت يمينا وشمالا إلى الكافرين وقال إنى وجهت وجهى

ذهب وفضة وزبرجد فقل له افعل ذلك فاذا بعث معك أحداً فأخرج به فإنك سوف تجده فلا تحدث فيه شيئاً ثم إنه دخل على الملك فخطب فقال تصدقها بحكمي فقال وما حكمك فحكم بالذي سماه عيسى فقال نعم رضيت أبعث من يقبض ذلك فبعث معه رجالا فسلم اليهم ما سأله الملك فتعجب الناس من ذلك فسلم إليه الملك ابنته فتعجب الفتى من ذلك وقال يا روح الله تقدر على مثل هذا وأنت على مثل هذا الحال فقال له عيسى إني آثرت ما يبقى على ما يفنى فقال الفتى أنا أيضا أدعه واصحبك فتخلى عن الدنيا واتبع عيسى فأخذ عيسى بيده وأتى به أصحابه وقال لهم هذا الكنز الذي قلت لكم فكان معه ابن العجوز إلى أن مات ومر به وهو ميت على سرير فدعا الله عيسى فجلس على سريره ونزل من على أعناق الرجال ولبس الثياب وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله فبقي وولد له (ومنها) ابنة العاشر رجل كان يأخذ العشر قيل له أتحييها وقد ماتت بالأمس فدعا الله عز وجل فعاشت وبقيت وولدها (ومنها) سام ابن نوح قال له الحواريون وهو يصف لهم سفينة نوح قالوا له لو بعثت لنا من شهد السفينة فصنعت لنا ذلك فقام وأتى تلا فضرب بيده وأخذ قبضة من تراب وقال هذا قبر سام بن نوح إن شئتم أحييته لكم قالوا نعم فدعا الله باسمه الأعظم وضرب التل بعصاه وقال أحي باذن الله فخرج سام بن نوح من قبره وقد شاب نصف رأسه فقال قد قامت القيامة قال لا ولكني دعوتك باسم الله الأعظم قال ولم يكون يشيبنا ذلك الزمان وكان سام قد عاش خمسمائة سنة وهو شاب ثم أخبرهم بخبر السفينة فقال له عيسى مت فقال بشرط أن يعيذني الله من سكرات الموت فدعا الله عيسى عليه السلام ففعل ذلك وقد ذكر هذا الخبر في قصة نوح عليه السلام (ومنها) عزير عليه السلام قال لعيسى عليه السلام أحيه وإلا أحرقناك بالنار وجمعوا له حطباً كثيراً من حطب الكرم وكانوا في ذلك الوقت يدفنون موتاهم في صناديق من حجارة مطبقة فوجدوا قبر عزير مكتوب على ظهره اسمه فعالجوه ليفتحوه فلم يقدروا أن يخرجوه من قبره فرجعوا إلى عيسى فأخبروه فناولهم إناء فيه ماء وقال لهم انضحوا قبره بهذا الماء ففعلوا فانفتح الطبق فأتوا به عيسى وهو في أكفانه والأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ثم إنه نزع ثيابه عنه ثم جعل ينضح على جسده الماء ولحمه وشعره ينبت ثم قال أحي يا عزير باذن الله تعالى فإذا هو جالس وكل ذلك تراه أعينهم فقالوا لعزير ما تشهد لهذا الرجل يعنون عيسى فقال أشهد أنه عبد الله ورسوله فقالوا يا عيسى ادع لنا ربك يبقيه لنا ليكون بين أظهرنا حياً فقال عيسى ردوه إلى قبره فردوه إلى قبره فعاد ميتاً فآمن بعيسى بن مريم من آمن وعاند من عاند قال الكلبي كان عيسى يحيي الموتى بإذن الله تعالى (ومنها) إخباره عليه السلام عن الغيوب قال الله عز وجل إخباراً عنه (وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم) قال الكلبي لما برأ عيسى الأكمه والأبرص وأحيا الموتى قالوا هذا ساحر ولكن أخبرنا بما نأكل وما ندخر فكان يخبر الرجل بما يأكل في غدائه وبما يأكل في عشائه (ومنها) مشيه عليه السلام على الماء روى أنه خرج في بعض سياحته ومعه رجل من أصحابه قصير وكان كثير اللزوم لعيسى فلما انتهى عيسى إلى البحر قال بسم الله بصحة ويقين فمشى على وجه الماء فقال الرجل القصير بسم الله بصحة ويقين فمشى على وجه الماء فداخله العجب فقال هذا عيسى روح الله يمشي على الماء وأنا أمشي على الماء قال فانغمس في الماء فاستغاث بعيسى فتناوله عيسى من الماء وأخرجه وقال له ما قلت يا قصير بأخبره بما خامر خاطره فقال له عيسى لقد وضعت نفسك في غير الموضع الذي وضعك الله فيه فمقتك الله على ما قلت فتب إلى الله مما قلت فتاب الرجل وعاد إلى مرتبته التي وضعه الله فيها فاتقوا الله ولا يحسد بعضكم بعضاً وحدثنا أبو منصور الخشاوي بإسناده للإمام عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال لو عرفتم الله حق معرفته لعلمتم العلم الذي ليس بعده جهل وما بلغ ذلك أحد قط قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا قالوا يا رسول الله قد بلغنا أن عيسى بن مريم مشى على الماء قال نعم ولو ازداد خوفا ويقينا لمشى على الهوى قالوا يا رسول الله ما كنا نرى أن الرسل تقصر فقال إن الله تعالى أبلغ شأنا من أن يبلغ أحد شأنه.

للذي فطر السموات والأرض
حنيفاً وما أنا من المشركين
قال فوضعوه في المنجنيق
ورموه في الجو فضجت
ملائكة السماء وقالوا إلهنا
وسيدنا ومولانا هذا عدوك
فعل بخليلك ما ترى فائذن
لنا أن نخسف به الأرض
فتنجي خليلك إبراهيم فقال
الجليل جل جلاله يا ملائكتي
كل ذلك بعين قدرتي وأنا
اللطيف الخبير ثم قال الله
تعالى يا جبريل أدرك خليلي
إبراهيم وسله ما يريد فأنا
أقرب إليه من حبل الوريد
قال فهبط إليه جبريل مسرعا
وهو صاعد في الهواء قبل
هبوطه إلى النار فقال السلام
عليك يا إبراهيم فقال وعليك
السلام يا جبريل فقال ألك
من حاجة فقال له إبراهيم
أما إليك فلا فقال جبريل
سل من إليه حوائجك فقال
إبراهيم علمه بحالي يغني عن
سؤالي فقال الله تبارك وتعالى
يا نار كوني برداً وسلاماً
على إبراهيم فصارت تلك
النار جنة نعيم وجرت فيها
عين من تسليم وفرش فيها
مهاد النعيم ونودي بلسان
التفهيم سلام قول من رب
رحيم وكان من أمره ما كان

(فلما) آن ظهور إشراق
بهجة المصطفى سيد الأمم طه
المكرم ﷺ وأينعت
أغصان الإسلام وأثمرت
وبزغت في ليل الشرك شمس
الإيمان وظهرت وولد سيد
البشر وشاع ذكره وانتشر

(ذكر حديث جامع فى هذا الباب)

قال وهب خرج عيسى عليه السلام يسبح فى الأرض فصحبه يهودى وكان مع ذلك اليهودى رغيفان ومع عيسى رغيف فقال له عيسى تشاركنى فى طعامك قال اليهودى نعم فلما رأى أنه ليس مع عيسى إلا رغيف واحد ندم فقام عيسى إلى الصلاة فذهب صاحبه وأكل رغيفاً فلما قضى عيسى صلاته قدما طعامهما فقال لصاحبه أين الرغيف الآخر فقال ما كان إلا رغيف واحد فأكل عيسى رغيفاً وصاحبه رغيفا ثم انطلقا فجاءا إلى شجرة فقال عيسى لصاحبه لو أنا بتنا تحت هذه الشجرة حتى تصبح فقال افعل فباتا ثم أصبحا منطلقين فلقيا أعمى فقال له أرأيت إن أنا عالجتك حتى يرد الله لك بصرك فهل تشكره قال نعم فمس بصره ودعا له فأبصر فقال عيسى لليهودى بالذى أراك الأعمى بصيراً كم كان معك من رغيف فقال والله ما كان إلا رغيف واحد فسكت عيسى عنه ومر فإذا هما بمقعد فقال له عيسى أرأيت إن عالجتك فعافاك الله فهل تشكره قال نعم فدعا الله تعالى عيسى فإذا هو صحيح قائم على رجليه فقال صاحب عيسى ما رأيت مثل هذا قط فقال له عيسى بالذى أراك الأعمى بصيراً والمقعد صحيحاً من صاحب الرغيف الثالث فحلف له ما كان معه إلا رغيف واحد فسكت عيسى عنه فانطلقا حتى انتهيا إلى نهر عجاج فقال عيسى لأرى جسراً ولا سفينة فخذ بحجزتى من ورائى وضع قدمك موضع قدمى ففعل فمشيا على الماء فقال له عيسى بالذى أراك أمر الأعمى والمقعد وسخر لك الماء من صاحب الرغيف الثالث فقال لا والله ما كان إلا رغيف واحد فسكت عيسى ثم انطلقا فإذا هما بظباء ترعى فدعا عيسى بظبى فذبحه وشوى منه بعضا وأكلا ثم ضرب عيسى بقية الظبى وقال له قم بإذن الله عز وجل فإذا الظبى يعدو فقال الرجل سبحان الله فقال عيسى بالذى أراك هذه الآية من صاحب الرغيف الآخر فقال ما كان إلا رغيف واحد فمر بصاحب بقر فنادى عيسى يا صاحب البقر أجزر لنا من بقرك هذا عجلا فقال ابعث صاحبك اليهودى يأخذه فانطلق اليهودى فجاء به وذبحه وشواه وصاحب البقر ينظر إليه فقال عيسى كل ولا تكسر عظما فلما فرغوا قذف بعظامه فى جلده ثم ضربه بعصاه وقال له قم بإذن الله فقام العجل وله خوار فقال له عيسى يا صاحب البقر خذ عجلك قال ويحك من أنت قال أنا عيسى بن مريم قال عيسى السحار ثم فر منه فقال عيسى لصاحبه كم كان معك من رغيف فقال ما كان معى إلا رغيف واحد فسكت ومضيا حتى دخلا قرية فنزل عيسى فى أسفلها واليهودى فى أعلاها فأخذ اليهودى عصا عيسى وقال أنا الآن أرى المرضى وأحيى الموتى قال وكان ملك تلك القرية مريضا مدنفا فانطلق اليهودى ونادى من يبتغى طبيبا حتى أتى باب الملك فأخبره بوجعه فقال أدخلونى عليه فأنا أبرئه وإن رأيتموه قد مات فأنا أحييه فقيل له إن وجع الملك قد أعيا الأطباء قبلك وليس من طبيب يداويه ولا يشفيه إلا صلبه فقال أدخلونى عليه فأدخل عليه فضرب الملك بعصاه فمات فجعل يضرب الملك بالعصا وهو يقول قم بإذن الله فلم يقم فأخذ ليصلب فمر بذلك عيسى فأقبل عليه وقد رفع على الخشبة فقال لهم عيسى أرأيتم لو أحييت لكم الملك هل تتركون لى صاحبى قالوا نعم فدعا الله عز وجل فأحياه وقام فأنزل اليهودى من الخشبة فقال لعيسى أنت أعظم الناس على منه ولا أفارقك أبدا فقال له عيسى أنشدك الله الذى أحيا الظبى والعجل بعد ما أكلناهما وأحيا هذا بعد ما مات وأنزلك من على الجزع بعد ما صلبك كم كان معك من رغيف قال فحلف بهذا كله وقال والله ما كان معى إلا رغيف واحد فقال عيسى لا بأس فانطلقا حتى أتيا قرية عظيمة خربة فيها كنز ثلاث لبنات من ذهب قد حفرتها السباع والدواب فقال الرجل لعيسى هذا المال لك فقال عيسى أجل واحدة لى وواحدة لك وواحدة للذى أكل الرغيف الثالث فقال اليهودى لعيسى أنا صاحب الرغيف الثالث أكلته وأنت تصلى فقال عيسى لك كلها فانطلق عيسى وتركه ينظر وهو لا يستطيع أن يحمل منهن واحدة لثقلهن عليه فقال له عيسى دعه فإن له أهلا يهلكون عليه فجعلت

وبلغ أشده واستوى آتاه المطوق بالنور الأمين جبريل عليه السلام من الملك وقال له يا محمد أجب الملك الجليل قد أتيتك بالبراق لتعلوا السبع الطباق فقد دعاك لحضرته الملك الخلاق وها أنا فى ركابك فوضع النبى ﷺ قدماً بالمسجد الحرام وقدماً بالمسجد الأقصى والثالث بعنان السماء فتقدم وصلى بالأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ثم اخترق سماء بعد سماء حتى انتهى إلى عرش الاستواء واخترق الحجب والأستار إلى ان سمع صريف القلم على اللوح المحفوظ فعند ذلك وقف جبريل عليه السلام فقال له النبى ﷺ ما بالك تركتنى فقال له جبريل يا أكرم الخلق على الله تقدم على ربك وذرنى فهذا مكانى متى تقدمت قدر ذرة أحرقتنى أنوار الهيبة وشعاع العظمة وما منا إلا له مقام معلوم فلما هم المصطفى ﷺ بأن يتقدم وينزل جبريل عليه السلام قال له يا أمين الوحى ألك من حاجة إلى الله تعالى فى هذا المقام كما تقدم منك لأبى إبراهيم فقال نعم يا سيد البشر فقال وما هى فقال تسأل الله عز وجل الا من مكره وسخطه وعقابه قال تقدم ﷺ إلى مكان لم يصل إليه نبى مرسل

ولا ملك مقرب فابتداه بالتحية والسلام ذو الجلال والإكرام ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى فقال ﷺ يارب امتى فقال عز وجل يا محمد إني قد أمنت على أمتك بثمانية اشياء لم أمن بها على أحد من الأمم السابقة

(الأول) إني لم اخلق خلقاً في السماء ولا في الأرض أفضل على من أمتك

(الثاني) ان مائة الف وأربعة وعشرين الف من الأنبياء مشتاقون إليك وإلى امتك

(الثالث) إني لم اعط أمتك الكثير من الأموال مثل ما سبق من الأمم لئلا يطول عليهم الحساب يوم القيامة رحمة لهم وشفقة عليهم

(الرابع) إني لم اعط أمتك القوة بالأموال والأولاد مثل الأمم السابقة حتى كفروا وجحدوا نعمتي

(الخامس) إني لم أطول أعمارهم فتجتمع عليهم الذنوب كما تقدم من غيرهم

(السادس) إني لم اعاقب أمتك عن كل ذنب كما عاقبت الأمم السابقة

(السابع) إني اخرتهم إلى آخر الزمان وجعلتهم آخر الأمم حتى لا يطول مكثهم في التراب

(الثامن) إني لم أفش سرهم كما أفشيت سر الأمم وأخبارهم إليك وإلى أمتك وأنه ليس بعدك نبي ولا قرآن وهذا كله ببركتك يا محمد فقال النبي ﷺ

نفس اليهودي تتطلع إلى المال ويكره أن يعصي عيسى ويعجزه حمل المال فانطلق مع عيسى فبينما هو كذلك إذ مر بالمال ثلاثة نفر فأتوا اثنان منهما لصاحبهما الثالث انطلق إلى بعض هذه القرى فأتنا بطعام وشراب ودواب نحمل عليها هذا المال فلما ذهب صاحبهما قال أحدهما للآخر هل لك أن نقتله إذا رجع ونقتسم المال بيننا قال نعم وقال الذي ذهب في نفسه أنا اجعل في الطعام سما فاذا أكلاه مانا ويصير المال كله لي ففعل ذلك فلما رجع إليهما ووصل قتلاه ثم أكلا الطعام الذي جاء به إليهما فماتا وأن عيسى عليه السلام مر به وهم حوله مقتولون فقال لا إله إلا الله أهكذا تصنع الدنيا بأهلها ثم أن عيسى أحياهم بإذن الله فاعتبروا ومروا ولم يأخذوا من المال شيئاً فتطلعت نفس اليهودي صاحب عيسى إلى المال فقال اعطني المال فقال عيسى خذه لك فهو حظك في الدنيا والآخرة فلما ذهب ليحمله خسف به الارض فانطلق عيسى عليه السلام (ومنها نزول المائدة) قال الله تعالى (إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين) الآية واختلف العلماء في صفة نزول المائدة وكيفيتها وما كان عليها فروى عن قتادة عن جابر عن عمار بن ياسر عن رسول الله ﷺ أنه قال نزلت المائدة عليها خبز ولحم وذلك أنهم سألوا عيسى طعاماً يأكلون منه ولا ينفد قال فقال لهم إني فاعل ذلك وإنها مقيمة لكم ما لم تخبؤا أو تخونوا فإن فعلتم ذلك عذبتم قال فما مضى يومهم حتى خانوا وخبؤا وفي بعض الروايات أن بعضهم سرق منها وقال لعلها لا تنزل أبدا فرفعت ومسخوا قردة وخنازير وقال ابن عباس قال عيسى لبني إسرائيل صوموا ثلاثين يوما ثم سلوا الله ما شئتم يعطيكموه فصاموا ثلاثين يوما فلما فرغوا قالوا يا عيسى إنا إن عملنا لاحد فقضيقا عمله أطعمنا طعاما وإنا صمنا وجعنا فادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء فلبس عيسى المسوح واقترش الرماد ثم دعا الله تعالى فقال اللهم ربنا انزل علينا مائدة من السماء الآية فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات ووضعتها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم وروى عطاء بن السائب وغيره أنه كانت المائدة إذا وضعت لبني إسرائيل اختلف عليها الايدي فيها كل الطعام إلا اللحم وقال عطية العوفي نزلت سمكة من السماء فيها طعم كل شيء وقال كعب الاخبار ونزلت مائدة من السماء منكوسة تطير بها الملائكة بين السماء والارض عليها كل الطعام إلا اللحم وقال مقاتل والكلبي استجاب الله لعيسى فقال إني منزلها عليكم كما سألتكم فمن أكل من ذلك الطعام ثم لم يؤمن جعلته مثلا ولعنة وعبرة لمن بعدهم قالوا قد رضينا فدعا شمعون الصفار وكان أفضل الحواريون فقال هل عندك طعام فقال معي سمكتان صغيرتان وستة أرغفة فقال علي بها فقطعها عيسى قطعاً صغيراً وقال اقعدوا في روضة وترفقوا رفاقا كل رفقة عشرة ثم قام عيسى ودعا الله فاستجاب له وأنزل فيها البركة فصار خبزاً صحاحاً وسمكا صحاحاً ثم قام عيسى يمشي فجعل يلقى في كل رفقة ما حملت أصابعه ثم قال كلوا باسم الله فجعل الطعام يكثر حتى بلغ ركبهم فأكلوا ما شاء الله وفضل والناس خمسة آلاف ونيف وقال الناس جميعاً شهدنا أنك عبد الله ورسوله ثم سألوه مرة أخرى فانزل الله خمسة أرغفة وسمكتين فصنع بهما ما صنع في المرة الاولى فلما رجعوا إلى قراهم ونشروا هذا الحديث ضحك منهم من لم يشهدوا قال ويحكم إنما سحر أعينكم فمن أراد الله به الخير ثبته على بصيرة ومن أراد فتنته رجع إلى كفره فمسخوا قردة وخنازير ليس منهم صبي ولا امرأة فمكثوا كذلك ثلاثة أيام ثم هلكوا ولم يتوالدوا ولم يأكلوا ولم يشربوا وكذلك كل ممسوخ ويروى عن عطاء بن أبي رباح عن سليمان الفارسي أنه قال والله ما تبع عيسى من المساوى ولا انتهر يتيما ولا نهقه ضحكا ولا ذب ذبابا عن وجهه ولا أخذ على أنمه مرتين شيئاً قط ولا عبث قط ولما سأله الحواريون أن ينزل عليهم الموائد صنوفا قال اللهم انزل علينا مائدة من السماء الآية وارزقنا عليها طعاما نأكل

وأنت خير الرازقين فنزلت سفرة حمراء بين غمامة من فوقها وغمامة من تحتها وهم ينظرون إليها وهي تهوي منقضة حتى سقطت بين أيديهم فبكى عيسى وقال اللهم اجعلني من الشاكرين اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة وهم ينظرون إليها فنظروا إلى شيء لم يروا مثله قط ولم يجدوا ريحا أطيب من رائحة ذلك فقال عيسى أحسنكم عملا يكشف عنها ويذكر اسم الله ويأكل منها فقال شمعون الصفار رأس الحواريين انت أولى بذلك منا فقام عيسى وتوضأ وصلى صلاة طويلة وبكى كثيرا ثم كشف المنديل عنها وقال بسم الله خير الرازقين فإذا هو بسمكة مشوية ليس عليها قشر ولا شوك فيها تسيل سيلانا من الدسم عند رأسها ملح وعند ذنبها خل وحواليها من أنواع البقول ما خلا الكراث وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الثاني عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد فقال شمعون يا روح الله من طعام الدنيا هذا أم من طعام الآخرة فقال عيسى عليه السلام وما تزون من طعام الدنيا ولا من طعام الآخرة ولكن افتعله الله بالقدرة العالية كاملا مما سألتم يمدكم ويزيدكم من فضله قالوا يا روح الله لو رأيتنا من هذه الآية آية أخرى فقال عيسى يا سمكة احيي بإذن الله فاضطربت السمكة وعاد عليها فلوسها وشوكها ففزعوا منها فقال عيسى مالكم تسألون أشياء إذا أعطيتموها كرهتموها ثم قال فما أخوفني عليكم أن تعذبوا يا سمكة عودي كما كنت بإذن الله فعادت السمكة مشوية كما كانت قالوا يا روح الله كن أول من يأكل منها ثم نأكل نحن فقال عيسى معاذ الله أن آكل منها ولكن يأكل منها من سألها فخافوا أن يأكلوا منها فدعا لها عيسى أهل الفاقة والمرضى وأهل البرص والجذام والمبتلين وقال كلوا من رزق الله ولكم الهناء ولغيركم البلاء فأكلوا منها وصدر عنها ألف وثلثمائة رجل وامرأة من فقير وزمن ومريض ومبتلى كلهم شبعان يتجشأ ثم نظر عيسى إلى السمكة فإذا هي كهيئتها حين نزلت من السماء ثم طارت المائدة صعدا وهم ينظرون إليها حتى توارت منهم فلم يأكل منها مريض إلا برىء ولا زمن إلا صح ولا مبتلى إلا عوفي ولا فقير إلا استغنى ولم يزل غنيا حتى مات وندم الحواريون ومن لم يأكل وكانت إذا نزلت اجتمعت الأغنياء والفقراء والصغار والكبار والرجال والنساء يزدحمون عليها فلبثت أربعين صباحا تنزل ضحى فلا تزال منصوبة يؤكل منها حتى إذا فاء الفيء طارت صعدا وهم ينظرون حتى تغيب عنهم وكانت تنزل يوما كناقة ثمود فأوحى الله إلى عيسى أن اجعل مائدتي ورزقي للفقراء دون الأغنياء فعظم ذلك على الأغنياء حتى شكوا وشككوا الناس فيها فقال أترون المائدة تنزل من السماء حقا فقال لهم عيسى هلكتم فتمروا العذاب الله فأوحى الله تعالى إلى عيسى إني شرطت على المكذبين شرطا أن من كفر بعدولها عذبته عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين فقال عيسى عليه السلام إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فانت العزيز الحكيم فمسخ منهم ثلاثة وثلاثون رجلا باتوا من ليلتهم على الفرش مع نسائهم في ديارهم فأصبحوا خنازير يسعون في الطريق والكناسات ويأكلون القاذورات في الحشوش فلما رأى الناس ذلك فزعوا إلى عيسى بن مريم فبكوا وبكى على الممسوخين أهلوهم فلما أبصرت الخنازير عيسى بكت وجعلت تطوف به فجعل عيسى يدعوهم بأسمائهم واحدا بعد واحد فيكون ويشيرون برؤسهم ولا يقدرون على الكلام فعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا

(ومنها) ما روي أن عيسى عليه السلام مر على رجل جالس عند قبره وكان يكثر المرور به فيجده جالسا فقال يا عبد الله أراك تكثر الجلوس عند هذا القبر فقال يا روح الله هذه امرأة كان لي من جمالها ومالها كيت وكيت ولي عندها وديعة قال أفتحب أن أدعو الله أن يحييها لك قال نعم فتوضأ عيسى وصلى ركعتين ودعا الله عز وجل فإذا أنا بقد خرج من القبر كأنه جذع محترق فقال له عيسى من أنت فقال يا رسول الله أنا رجل في عذاب منذ أربعين سنة فلما كنت في هذه الساعة قيل لي أجب فأجبت ثم قال يا رسول الله قد مر هل من ألم العذاب أما إن ردني الله إلى الدنيا أعطيته

يا رب إن عبدك جبريل سألني أن أسألك أن تؤمنه مكرك فلم يسمع جوابا قال فراجع ربه تأيا في أمره حتى سمع الخطاب من الملك الوهاب يا محمد قد أمنته مكري فعاد الذي ﷺ إلى جبريل وهو فرح مسرور وأخبره بذلك ففرح جبريل بذلك وقال الحمد لله على كثرة انعامه ثم قال يا محمد كل ذلك ببركتك وعلو قدرك عند ربك صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيرا آمين .

(وروى عن أبي بكر رضي الله عنه) أنه أتى يوما من الأيام إلى المسجد الصلاة مع رسول الله ﷺ فوجده قد صلى فقعد حزينا في آخر المسجد لما فاتته الصلاة مع رسول الله ﷺ فهبط جبريل عليه السلام على النبي ﷺ وقال يا محمد السلام يقرئك السلام ويخصك بالتحية والإكرام ويقول لك أن الله سبحانه وتعالى خلقني قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام فكنت أسبحه وأقدسه فبينما أنا على تلك الحالة إذ قبة من نور بيضاء تضيء فجعلت تمر مر السحاب وإذا بصوت منها يقول

أحد أحد فرد صمد

فقلت يا رب من هذا أخلق خلقته قبل أم خلق

عهداً أن لا أعصيه أبداً فادع الله لى فرق له عيسى عليه السلام ودعا الله له عز وجل ثم قال له امض فمضى فقال صاحب القبر يا رسول الله لقد غلطت بالقبر إنما قبرها هذا ودعا الله عيسى عليه السلام فخرجت من ذلك القبر امرأة شابة جميلة فقال له عيسى أتعرفها قال نعم هذه امرأتى فدعا الله عيسى حتى ردها عليه فدخل الرجل بيدها حتى انتهيا إلى شجرة فنام تحتها ووضع رأسه فى حجرها فربها ابن الملك فنظرها ونظرت إليه وأعجب كل واحد منهما بصاحبه فأشار اليها فوضعت رأس زوجها عن حجرها واتبعت الفتى فاستيقظ زوجها فتفقدها فلم يجدها فطلبها فدل عليها فتعلق بها وقال امرأتى فقال الفتى هى جاريتى فبينهما كذلك إذ طلع عيسى عليه السلام فقال الرجل هذا عيسى يم قص عليه القصة فقال لها عيسى ما تقولين قالت أنا جارية هذا ولا أعرف هذا فقال لها عيسى ردى علينا ما اعطيناك قالت قد فعلت فسقطت مكانها ميتة فقال عيسى هل رأيتم أعجب من هذا رجل أماته الله كافراً ثم بعثه فآمن وهل رأيتم امرأة أماتها الله مؤمنة ثم أحياها فكفرت (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) إلى قوله تعالى (بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيما) روى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أن عيسى عليه السلام استقبل رهطاً من اليهود فلما رأوه قالوا قد جاء الساحر بن الساحرة الفاعل بن الفاعلة فقذفوه وأمه فلما رأى ذلك عيسى دعا عليهم فقال اللهم أنت ربى وأنا من روحك خرجتك وبكلمتك خلقت ولم آتهم من تلقاء نفسى اللهم العن من سبنى وسب أمى فاستجاب الله دعاءه ومسخ الذين سبوه وأمه خنازير فلما رأى ذلك رأس اليهود وأميرهم فزع لذلك وخاف دعوته فاجتمعت كلمة اليهود على قتل عيسى فاجتمعوا عليه ذات يوم وجعلوا يسألونه فقال يا معشر اليهود أن الله يبغضكم فغضبوا من مقالته غضباً شديداً وثاروا ليقتلوه فبعث الله تعالى إليه جبريل عليه السلام فأدخله خوخة وواره فى سقفها ورفعه الله تعالى من روزنته فأمر رأس اليهود رجلا من أصحابه يقال له فلطيانوس أن يدخل الخوخة فيقتله فلما دخل فلطيانوس لم يرعيسى فأبطأ عليهم فظنوا أنه يقاتله فيها فألقى الله عليه شبه عيسى فلما خرج ظنوا أنه عيسى فقتلوه وصلبوه وقال وهب ان عيسى لما اعلمه الله تعالى انه خارج من الدنيا جزع من الموت وشق عليه فدعا الحواريين وصنع لهم طعاماً وقال أحضرونى الليلة فلى إليكم حاجة فلما اجتمعوا إليه من الليل عشاهم وقام يخدمهم فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضيهم ويمسح أيديهم بثيابه فتعاظموا ذلك وتكارهوه فقال إلا من رد على شيئاً مما اصنع فليس منى ولا أنا منه فأقروه حتى إذا فرغ من ذلك قال لهم أنا صنعت بكم الليلة ما خدمتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدى إلا ليكون لكم بى أسوة إنكم ترون أنى خيركم فلا يتعاظم بعضكم على بعض وليبذلن بعضكم لبعض كما بذلت نفسى لكم وأما الحاجة التى استعنتكم عليها فتدعون الله لى وتجتهدون فى الدعاء. أن يؤخر أجلى فلما نصبوا أنفسهم للدعاء وأرادوا أن يجتهدوا أرسل الله عليهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاء فجعل يوقظهم ويقول سبحان الله ما تصبرون فى ليلة واحد وتعينونى فيها فقالوا والله ما ندرى مالنا فقد كنا نسهر فنكثر السهر وما نطيق الله سهراً وما نريد دعاء إلا حيل بيننا وبينه فقال يذهب الراعى وتبقى الغنم وجعل يأتى بكلام مثل هذا يعنى نفسه ثم قال ليكفرن بى أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات وليبيعنى أحدكم بدراهم يسيرة وليأكلن ثمنى ثم خرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه فأخذوا شمعون أحد الحواريين فقالوا من أصحابه فجحد وقال ما أنا من أصحابه فتركوه ثم أخذ آخر فجحده كذلك ثم سمع صوت ديك فبكى وأحزنه ذلك فلما اصبح أتى أحدا الحواريين أولئك اليهود فقال لهم ما تجعلون لى إن دللتكم عليه فجعلوا له ثلاثين درهما فأخذها ودلهم عليه وكان شبه عليهم قبل ذلك فأخذوه واستوثقوا منه وربطوه بالحبل وجعلوا يقودونه ويقولون أنت كنت تحيى الموتى وتبرىء الأكمه والأبرص أفلا تفك نفسك من هذا الحبل ويبصقون عليه ويلقون

تخلقه يدى فقال الله عز وجل هذا خلق أخلقه فى آخر الزمان وهو نبى مكرم إسمه محمد وأمته خير الأمم فقلت يارب أسألك بحقه عليك أن تجعلنى سفيراً بينك وبينه فكان كذلك فبينا أنا كذلك إذا بقبة أخرى تليها وهى تمر مر السحاب وإذا بصوت منها يقول صدق صدق فقلت ومن هذا يارب فقال رجل من أمة هذا النبى يكون أول من يصدقه يسمى الصديق فلما بعثك الله يا محمد أقام أبو بكر ينتظرك قبل أمتك بأربعين عاما فلما بعثت بادر إليك وصدقك فيستحق منك أن تصبر له ساعة حتى يصلى معك وينال من بركتك ثم مضى جبريل عليه السلام فقام النبى ﷺ وأخذ بيد أبى بكر وعاهده أنه لم يكن ليصلى فرضاً إلا أن يكون خلفه رضى الله تعالى عنه وعن كل الصحابة أجمعين

(وحكى عنه أيضا رضى الله تعالى عنه) أنه قال بينما نحن جلوس بالمسجد وإذا برجل أعمى قد دخل علينا وسلم فردد نا عليه السلام وأجلسناه بين يدى النبى ﷺ فقال من يقضى حاجته فى حب النبى ﷺ فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه ما حاجتك يا شيخ فقال إن لى أهلا ولم يكن عندى ما نفقات به وأريد من يدفع

عليه الشوك ثم إنهم نصبوا له خشبة ليصلبوه عليها فلما أتوا به إلى الخشبة ليصلبوه أظلمت الأرض وأرسل الله الملائكة فحالوا بينهم وبين عيسى وألقى شبه عيسى على الذى دلهم عليه واسمه يهوذا فصلبوه مكانهم وهم يظنون أنه عيسى وتوفى الله عيسى ثلاث ساعات ثم رفعه إلى السماء فذلك قوله تعالى (إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا) فلما صلب الذى هو شبه عيسى جاءت مريم أم عيسى وامرأة كان عيسى دعا لها وأبرأها من الجنون يبكيان عند المصلوب فأتاهما عيسى وقال على من تبكيان فقالتا عليك فقال إن الله تعالى رفعنى فلم يصيبنى إلا خير وإن هذا شخص شبه لهم قال قتادة ذكر لنا أن نبى الله عيسى قال لأصحابه أيكم يقذف عليه شبهى فانا مقتول فقال رجل من القوم أنا يانبى الله فقتل ذلك الرجل ومنع الله عيسى ورفعه إليه وقيل أن الذى شبه بعيسى وصلب مكانه رجل إسرائيلى يسمى أشيوع بن قنديرا والله أعلم

(ذكر نزول عيسى من السماء بعد رفعه بسبعة أيام)

قال وهب وغيره من أهل الكتب لما رفع الله عيسى عليه السلام لبث فى السماء سبعة أيام ثم قال الله له إن أعداءك اليهود أعجلوك عن العهد إلى أصحابك فانزل عليهم وأوصهم واهبط إلى مريم المجدلانية فإنه لم يبك عليك أحد بكاءها ولم يحزن عليك أحد حزنها فانزل عليها واخبرها أنها أول من تلحق بك وأمرها ان تجمع لك الحواريين فتبثهم فى الأرض دعاة إلى الله تعالى وكانت قصة مريم المجدلانية انها كانت من بنى إسرائيل فى قرية من قرى أنطاكية يقال لها مجدلان وكانت امرأة صالحة وكانت تستحاض فلا تطهر فطبها أشراف بنى إسرائيل فامتنعت فظنوا انها ترفعت بنفسها عنهم ولم يكن ذلك ترفعا وإنما أرادت إخفاء علتها عنهم فلما سمعت بمجىء عيسى عليه السلام وبما يشفى كان الله على يديه من المرضى والزمنى أقبلت إليه وجاء الشفاء فلما رأت عيسى ونما البسه الله من الهيبة استحيت وانصرفت إلى ورائه ووضعت يدها على ظهره فقال عيسى لقد مسنى ذو عاهة بنية حسنة ولقد أعطاه الله ما رجاه وطهره بطهارتى فأذهب الله عنها مابها وبرأت وطهرت فلما امر الله عيسى بالنزول عليها بعد سبعة أيام من رفعه هبط عليها فاشتعل الجبل حين هبط نورا فجمعت له الحواريين فبثهم فى الأرض دعاة إلى الله ثم رفعه الله وكساه الريش والبسه النور وقطع منه شهوة المطعم والمشرب فهو يطير مع الملائكة حول العرش فكان إنسيا ملكيا أرضيا سماويا وتفرق الحواريين حيث أمرهم فتلك الليلة التى أهبط فيها هى الليلة التى تزخرفها النصارى قالوا فوجه بطرس إلى رومية واندراوس متى إلى الأرض التى يأكل اهلها الناس وترما وليا إلى الأرض والمشرق وفيلبس ويهوذا إلى القيروان وافريقية ويحيى إلى أفسوس قرية أصحاب الكهف واليعقوبيين إلى أورشليم وهى إيلياء أرض بيت المقدس وبرتولوماوس إلى الإعرابية وهى الحجاز وشمعون إلى ارض بربر فاصبح كل واحد من الحواريين الذين بعثهم يحدث بلغة من أرسله عيسى اليهم (قال ابن اسحق) ثم عمد اليهود إلى بقية الحواريين أصحاب عيسى يشمسونهم ويعذبهم ويطوفون بهم فلما سمع ملك الروم وكان صاحب وثن فقيل له أن رجلا كان فى هؤلاء الناس الذين محت يدك من بنى إسرائيل عدوا عليه فقتلوه وكان يخبرهم أنه رسول الله وقد أحيا لهم الموتى وأبرأ لهم الأسقام وخلق لهم من الطين كهيئة الطير ونفخ فيه فكان طائرا بإذن الله واخبرهم بالغيب وأراهم العجائب فقال ملوك الروم فما منعكم أن تذكروا إلى من امره فو الله لو علمت اخليت بينه وبينهم ثم إنه بعث إلى الحواريين فانتزعهم من أيديهم فلما أتوا فسألهم عن دين عيسى فأخبروه خبره فبايعهم على دينه واستنزل شبه عيسى والخشبة التى صلب عليها فأكرمها وصانها لما مسها منه وغزا بنى إسرائيل فقتل منهم خلقا كثيرا فمن هناك كانت أصل النصرانية فى الروم (وقال اهل التواريخ) حملت مريم بعيسى ولها ثلاث

لنا شيئا نفتات به فى حيب

رسول الله ﷺ قال فنهض ابو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه وقال نعم انا اعطيك مايقوم بك فى حب رسول الله ﷺ ثم قال هل من حاجة اخرى فقال نعم إن لى ابنة اريد من يتزوج بها فى حياتى حبا فى محمد ﷺ فقال ابو بكر رضى الله تعالى عنه انا اتزوج بها فى حياتك حبا فى رسول الله ﷺ هل من حاجة اخرى فقال نعم أريد ان اضع يدى فى شيبة ابى بكر الصديق رضى الله عنه حبا فى محمد ﷺ قال فنهض ابو بكر رضى الله عنه ووضع لحيته فى يد الأعمى وقال امسك لحيتى فى حب محمد ﷺ وقال فقبض الاعمى بلحية ابى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه وقال يارب اسألك بحرمة شيبة ابى بكر إلا مارددت على بصرى قال فرد الله عليه بصره لوقته فنزل جبريل عليه السلام على النبى ﷺ وقال يامحمد السلام يقرئك السلام ويخصك بالتحية والإكرام ويقول لك وعزتى وجلالى لو اقسم على كل اعمى بحرمة شيبة ابو بكر الصديق لرددت عليه بصره وماتركت على وجه الارض اعمى وهذا كله ببركاتك

عشرة سنة وولدت عيسى ببيت لحم من أرض أورشليم لمضى خمس وستين سنة من غلبة الاسكندر على بابل ولإحدى وخمسين سنة مضت من ملك الأشكانيين وأوحى الله إليه على رأس ثلاثين سنة ورفعت من بيت المقدس إليه ليلة القدر من شهر رمضان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة فكانت نبوته ثلاث سنين وعاشت أمه مريم بعد رفعه ست سنين والله اعلم.

(ذكر وفاة مريم ابنة عمران عليهما السلام)

(قال وهب) لما أراد الله تعالى أن يرفع عيسى عليه السلام آخى بين الحواريين فأمر رجلين منهما يقال لأحدهما شمعون الصفار وللآخر يحيى أن يلتزما أمه ولا يفارقاها فانطلقا ومعهما مريم إلى ماروت ملك الروم يدعونه إلى الله تعالى وقد بعث الله تعالى إليه قبل ذلك يونس عليه السلام فلما أتوه أمر بشمعون واندراوس فقتلا وصلبا منكسين وهربت مريم ويحيى حتى إذا كان في بعض الطريق لحقهما الطلب خافا فانشقت لهما الأرض فغابا فيها وأقبل ماروت ملك الروم واصحابه فحفروا ذلك الموضع فلم يجدوا شيئاً فردوا التراب على حاله وعلموا أنه أمر من الله تعالى فسأل ملك الروم عن حال عيسى فأسلم كما ذكرنا والله اعلم.

(ذكر نزول عيسى عليه السلام من السماء في المرة الثانية في آخر الزمان)

قال الله تعالى (وإنه لعلم الساعة فلا تمترون بها) الآية وقيل للحسين بن الفضل هل تجد نزول عيسى عليه السلام في القرآن قال نعم قوله وكهلا وهو لم يكن بكهل في الدنيا وإنما معناه وكهلا بعد نزوله من السماء (أخبرنا) أبو صالح شعيب بن محمد البيهقي بإسناده عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد وإني أولى الناس بعيسى بن مريم عليهما السلام لأنه لم يكن بيني وبينه نبي وإنه نازل فاعرفوه رجل مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الشعر كأن رأسه تقطر ولم يصبه بلل ينزل بين مهرودتين فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويهلك في زمانه الملل كلها غير الإسلام وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين ويهلك الله في زمانه مسيح الضلالة الكذاب الدجال وتقع الأمنة في الأرض حتى ترتع الأسود والنمور مع البقر والذئاب مع الغنم وتلعب الصبيان بالحيات فلا يضر بعضهم بعضاً ثم يلبث في الأرض أربعين سنة ويتزوج ويولد له ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون ويدفنون في المدينة بجنب عمر اقرؤا إن شئتم (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به من قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً) أي قبل موت عيسى يعيدها أبو هريرة ثلاث مرات (وأخبرنا) محمد بن القاسم الفارسي بإسناده عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ إذا أهبط المسيح عيسى يعيش في هذه الأمة ما يعيش ثم يموت في مدينتي هذه ويدفن إلى جانب قبر عمر فطوبى لأبي بكر وعمر يحشران بين نبيين (وأخبرني أبي) قال حدثني الحسين ابن احمد بن محمد بن علي بإسناده عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ كيف يهلك الله أمة أنا في أولها وعيسى في آخرها والمهدي من أهل بيتي في وسطها.

(باب في قصة الرسل الثلاثة الذين بعثهم عيسى عليهم السلام إلى انطاكية)

(وذلك في أيام ملوك الطوائف)

قال الله تعالى (واضرب لهم مثلا اصحاب القرية إذ جاءها المرسلون) يعني رسل عيسى عليه السلام (إذ أرسلنا إليهم اثنين) واختلفوا في اسميهما فقال ابن إسحق فاروض وروماض وقال وهب يحيى ويونس وقال مقاتل بومان ومالوس وقال كعب صادق وصدوق فكذبوهما فعززنا بثالث اي قوينا

رسول

وعلو قدرك وشأنك عند

رحمهم الله تعالى) حدث أبو موسى الفضل عن أبيه قال سمعت زينب بنت سليمان ابن علي بن عبد الله بن عباس تقول كنت عند الخيزران جارية المهدي وكان عادتها إذا كنت عندها أنها تجلس في عتبة باب بيت من بيوت القصر وأجلس بإزائها في الصدر في مجلس كان المهدي يجلس فيه إذا قصدنا وكان يقصدنا في كل وقت يجلس عندنا ساعة ثم ينهض فبينما نحن جلوس إذ دخلت علينا جارية من جواري الخيزران اللاتي يحجبنها فقالت أعز الله السيدة إن بالباب امرأة ذات جمال وخلق حسن وهي على غاية من سوء الحال تستأذن في الدخول عليك وقد سألتها عن اسمها فامتنعت من أن تخبرني قالت زينب فاشارت الخيزران إلي وقالت ما تريد فقلت ما يضرنا دخولها فلا بد من فائدة أو ثواب فدخلت المرأة فإذا هي أجمل ما يكون من النساء واكملهن فوقفت إلى جانب الباب وسلمت وقالت أنا مزنة بنت مروان بن عبد الملك بن محمد الأموي قالت زينب فكنت متكئة فاستويت جالسة وقلت لمزنة قاتلك الله ولا حياك ولا رعاك ولا سلمك

برسول ثالث وهو شمعون الصفار رأس الحواريين فى قول أكثر المفسرين وقال كعب اسمه شلوم وقال مقاتل سمعان (قالت) العلماء باخبار الأنبياء بعث عيسى عليه السلام رسولين من الحواريين إلى مدينة انطاكية فلما قربا من المدينة أتيا شيخاً يرعى غنمات له وهو حبيب النجار صاحب يس فسلما عليه فقال من أنتما قالا رسول عيسى عليه السلام يدعوكم من عبادة الاوثان إلى عبادة الرحمن قال أمعكما آية قالا نعم نحن نبرىء المريض ونشفى الأكمة والأبرص بإذن الله فقال الشيخ إن لى ابناً مريضاً صاحب فراش منذ سنين قالا فانطلق بنا إلى منزلك فنطلع على حاله فأتى بهما إلى منزله فلما نظر إلى ولد الشيخ وهو فى تلك الحالة قربا إليه ودعيا له ومسحاه بيديهما فقام فى الوقت بإذن الله صحيحاً ففشا الخبر فى المدينة وشفى الله على أيديهما كثيراً من المرضى وكان فى انطاكية فرعون من الفراعنة يعبد الأصنام يقال له سلاحين (قال وهب) اسمه ابطيحيس وكان من ملوك الروم قالوا فانتهى الخبر إلى الملك فدعاهما إليه وقال لهما من انتما قالا رسولا عيسى قال وما آيتكما قالا نبرىء الأكمة والأبرص ونشفى المرضى بإذن الله تعالى قال وفيما جئتما قالا جئناك ندعوك من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر إلى عبادة من يسمع ويبصر قال الملك ولنا إله سوى آلهتنا قالا من أوجدك بعد عدمك وآلهتك قال قوما حتى انظر فى أمركما فتبعهما الناس فأخذوهما وضربوهما فى السوق وقال وهب بعث عيسى بهذين الرسولين إلى انطاكية فأتياها فلم يصل إلى ملكها وطالت مدة مقامهما فخرج الملك ذات يوم فكبرا وذكرا الله تعالى فغضب الملك فأمر بهما فحبسا وجلد كل واحد منهما مائة جلدة قالوا فلما كذبا الرسولان وضربا بعث عيسى رأس الحواريين شمعون الصفار على أثر إحداهما لينصرهما فدخل شمعون البلدة متنكرا فجعل يعاشر حاشية الملك حتى آنسوا به فرفع خبره إلى الملك فدعا ورضى عشرته وأنس به وأكرمه ثم قال له ذات يوم أيها الملك إنه قد بلغنى أنك حبست رجلين فى السجن وضربتهما حين دعواك إلى غير دينك فهل كلمتهما وسمعت قولهما فقال وإليه ترجعون إلى قوله إنى آمنت بربكم فلما قال لهم ذلك وثبوا إليه وثبة رجل واحد فقتلوه ولم يكن أحد يدفع عنه وقال عبد الله بن مسعود وطؤه بأرجلهم حتى خرج قصبة من دبره وقال السدى كانوا يرمونه بالحجارة وهو يقول اللهم اهد قومى حتى قطعوه وقال الحسن خرقوا خرقاً فى حلقه وعلقوه فى سور المدينة ودفنوه فى سوق انطاكية فأوجب الله له الجنة فذلك قوله تعالى (قيل أدخل الجنة) فلما أفضى إلى جنة الله وكرامته (يا ليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) قالوا فلما قتل حبيب غضب الله عليهم وعجل لهم النقمة وأمر جبريل فصاح بهم صيحة فماتوا عن آخرهم فذلك قوله تعالى (وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين) على غيرهم من كفار الأمم (إن كانت إلا صيحة واحدة فاذا هم خامدون) أى ميتون (أخبرنا) أبو بكر الخشاوى بإسناده عن ابن أبى ليلى عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين: حزقيل مؤمن آل فرعون وحبيب النجار مؤمن آل يس وعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه وهو أفضلهم ٠

(قصة يونس بن متى عليه السلام)

قيل متى أمه ولم ينسب أحد من الأنبياء إلى أمه إلا عيسى بن مريم ويونس بن متى عليهما السلام وهو الذى قال رسول الله ﷺ فيه لا ينبغى أحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى قال الله تعالى (وذا النون إذ ذهب مغاضبا) الآيات قالت العلماء بأخبار القدماء كان يونس رجلا صالحاً يتعبد فى جبل وكان فى قرية من قرى الموصل يقال لها نينوى وكان قومه يعبدون الأصنام فبعث الله إليهم يونس بن متى عليه السلام بالنهى عن الكفر والأمر بالتوحيد وكان يونس عليه السلام رجلا

بين الناس أتذكرين يا علو
الله حين أتاك نساء بنى
العباس يسالنك بالله أن
تكلمى اباك فى دفن إبراهيم
ابن محمد فوثبت عليهن
واسمعتهن اخشن الكلام
واغلظ القول وخرجن على
الحالة التى علمت بها قالت
زينب فلما سمعت كلامى
ضحكت فوالله ما انسى
حسن ثغرها وعلو صوتها
بالقهقهة ثم قالت أى بنية
عمى اى شىء أعجبك مما
صنع الله فى حتى أردت ان
تسيئينى والله لقد صنعت
بنساء اهلك ما قد ذكرت
ولكن حق على الله تعالى
ان يكلنى إليك ذليلة جانعة
عريانة افكان هذا شكرك
لله على ما أولاك ثم قالت
زينب فالتفت ونظرت فإذا
هى تبكى فنادت الخيزران
يا مزنة دخلت بإذنى فلا
تخرجى إلا بإذنى وصاحت
بحجابها ردوها فرجعت
وقالت ما ساقنى إلا الضر
والجهد وسوء الحال قال
فنهضت الخيزران وقامت
فعانقتها فقالت مالك فى
موضع شىء من الحال الذى
أنا فيه فقالت الخيزران
لجواريها عليكن بالحمام
إلى بسرعة فدخلوا بها
الحمام وأمرت بعض الجوارى
بخدمتها ثم ألبستها بالخلع
المذهبة والطيب ثم قامت
إليها الخيزران واعتنقتها
واجلستها فى المجلس الذى

صالحاً لا يصبر على الناس فلحق بالجبل يعبد الله تعالى فيه وكان حسن القراءة والكتابة يستمع إلى قراءته الوحش كما كان لداود فى زمانه وكان يعتريه حدة ولذلك نهى رسول الله ﷺ أن يكون مثله لحمة وعجلة ظهرت منه قال الله تعالى (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) وقال تعالى (ولا تكن كصاحب الحوت) لأنه كان قليل الصبر على قومه والمداراة لهم قال رسول الله ﷺ كان يونس بن متى فيه عجلة وخفة فلما حمل أعباء النبوة تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل الثقيل ولذلك السبب ذهب مغاضباً (واختلف العلماء) فى صفة مغاضبته وسبب ذلك ووقته فقال لهم قوم ذهب مغاضباً لقومه وهى رواية الضحاك والعوفى عن ابن عباس قال كان يونس بن متى وقومه يسكنون فلسطين فغزاهم ملك فسبى منهم تسعة أسباط ونصفاً وبقى سبطان ونصف وكانوا اثنى عشر سبطاً فيهم النبوة والملك فأوحى الله تعالى إلى شعيا النبى ان سر إلى حزقيل الملك وقل له يوجه نبياً قوياً أميناً فإنى ألقى الخوف فى قلوب أولئك الأسباط حتى يرسلوا معه بنى إسرائيل فقال له الملك فمن ترى وكان فى مملكته خمسة من الأنبياء فقال يونس فانه قوى أمين فدعا الملك يونس وأمره أن يخرج فقال له يونس هل أمرك الله بإخراجى قال لا قال هل سماني لك قال لا فقال هنا غيرى أنبياء أقوياء أمناء فأخذوا عليه فخرج مغاضباً للنبى والملك ولقومه فأتى بحر الروم وكان من أمره ما كان وقال الحسن البصرى إنما غاضب ربه من أجل أنه أمره بالمسير إلى قومه لينذرهم بأسه ويدعوهم إليه فسأل ربه أن ينظرهم ليتأهب للشخوص إليه فقال له الامر أسرع من ذلك ولم ينتظر حتى سأل أن ينتظر إلى أن يأخذ نعله يلبسها فقيل له نحو القول الاول وكان رجلا فى خلقه ضيق فقال أعجلنى ربى أن آخذ نعلى فذهب مغاضباً

وروى ابن جريج عن ابن عباس قال أتى جبريل يونس عليه السلام فقال انطلق إلى أهل نينوى فأنذرهم أن العذاب قد حضرهم إن لم يتوبوا قال له التمس دابة قال له الأمر أعجل من ذلك فغضب وانطلق إلى البحر فركب سفينة وكان من أمره ما كان فعلى هذه الأقوال كانت رسالة يونس بعد نجاته من بطن الحوت قال ابن عباس إنما كانت رسالة يونس بعد أن نبذه الحوت ودليل هذا القول أن الله تعالى ذكر قصة يونس فى سورة الصافات ثم عقبها بقوله وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون وقال آخرون بل كانت قصة الحوت بعد دعائه قومه وتبليغه الرسالة وإنما ذهب عن قومه مغاضباً لربه إذ كشف عنه العذاب بعد ما أوعدهم به وذلك أنه كره أن يكون بين قوم قد جربوا عليه الكذب والخلف فيما أوعدهم ولم يعلم السبب الذى رفع به عنهم العذاب والهلاك فخرج مغاضباً قال والله لا أرجع إليهم كذاباً أبداً أوعدتهم العذاب فى يوم ولم يأتهم وفى بعض الأخبار أن قومه كان من عادتهم أن يقتلوا من جربوا عليه الكذب فلما لم يأتهم العذاب للميعاد الذى أوعدهم خشى أن يقتلوه فغضب وقال كيف أرجع إلى قومى وقد أخلفتهم الوعد ولم يعلم سبب صرف العذاب عنهم لانه قد كان خرج من بين أظهرهم لنزول العذاب .

(قال ابن عباس) وابن مسعود وغيرهما لما أيس من إيمان قومه دعا عليهم فقيل له ما أسرع ما دعوت على قومك ارجع إليهم فادعهم أربعين ليلة أخرى فإن أجابوك وإلا فانى مرسل عليهم العذاب فرجع ودعاهم سبعا وثلاثين ليلة فلم يجيبوه فقام خطيباً فيهم وقال إنى محذركم العذاب إلى ثلاثة أيام إن لم تؤمنوا ثم قال لهم أن آية ذلك أن تتغير ألوانكم فلما أصبحوا تغيرت ألوانهم فقالوا لبعضهم قد نزل بكم ما قال يونس وأنا لم نجرب عليه كذبا فانظروا فان بات فيكم الليلة فآمنوا من العذاب وإن لم يبت فيكم فاعلموا ان العذاب مصبحكم فلما كانت ليلة الأربعين ورأى يونس تغير ألوانهم علم ان العذاب نازل بهم فخرج من بين أظهرهم فلما أصبحوا تغشاهم العذاب

يجلس فيه أمير المؤمنين المهدى وقدمت إليها الموائد فجعلت تأكل وهى تلقمها إلى أن اكتفت وغسلت يديها ثم قالت لها الخيزران فهل عندك أحد ينتظرك فقالت مالى أحد فقالت الخيزران فقومى فاختارى لك مقصورة من مقاصيرى فاسكنى فيها عندى ولا نفترق حتى يفرق بيننا الموت فقامت وطافت فاختارت أوسعها وانزهها فحول إليها جميع ما يحتاج إليه من الفرش والملابس الحرير والرقيق ثم قالت الخيزران أن هذه امرأة مسها الضر واورثها الفقر مالا تقدر عليه ولا يغسل ما فى قلبها إلا المال احملوا إليها خمسمائة ألف درهم فحمل إليها ذلك ثم دخل المهدى فى آخر الأمر فقال ما بالكم فنهضت إليه زينب وأعلمته بجميع ما جرى وما قالت حين دخلت عليها فغضب غضباً شديداً وقال هذا سجودك لله تعالى شكراً على ما أنعم عليك فو الله لولا إنك حرمة لأحلفن أن لا أكلمك أبداً فقالت يا امير المؤمنين قد طاب قلبها واعتذرت إليها وفعلت معها الخيزران كذا وكذا فسره ذلك وقال احملوا إليها من عندى مائة ألف درهم وقال للخادم الذى على رأسه بلغها منى السلام وقل لها إنى ما سررت شيء منذ دهرى كسروري اليوم

قال

(قال سعيد بن جبير) كما يغشى التراب القبر إذا دخل فيه صاحبه وقال مقاتل كان العذاب فوق رؤوسهم فلما رأوا ذلك أيقنوا بالعذاب والهلاك فطلبوا نبيهم يونس فلم يجدوه فقذف الله فى قلوبهم التوبة وألهمهم الرجوع اليه فخرجوا إلى الصعيد لأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم ولبسوا المسوح وأظهروا الإيمان والتوبة لله واخلصوا النية وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والدواب والأنعام فحن بعضها إلى بعض واختلط حنينهم وعجوا وتضرعوا إلى الله وقالوا آمنا بما جاء به يونس فرحمهم ربهم واستجاب دعوتهم وقبل توبتهم وكشف عنهم العذاب بعد ما أظلهم وذلك يوم عاشوراء وقيل كان يوم الأربعاء للنصف من شوال وقال ابن مسعود وبلغ من توبة أهل نينوى أن تردوا المظالم بينهم حتى ان الرجل ليأتى إلى الحجر وقد وضع عليه أساس بنائه فيقتلعه ويرده (وروى) صالح المرى عن عمران الجونى عن ابى خالد قال لما غشى قوم يونس العذاب مشوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا له قد نزل بنا العذاب فما ترى قال قولوا ياحى حين لاحى ياحى حين تحيى الموتى لاإله إلاانت فقالوا فكشف الله عنهم العذاب ومتعوا إلى حين كما قال تعالى (فلولا كانت قرية آمنت) أى فلم تكن قرية آمنت وضع التحضيض موضع النفى لأن فيه ضربا من الجد فنفعها إيمانها فى وقت اليأس عند معاينة العذاب إلا قوم يونس لما آمنوا نفعهم إيمانهم فى ذلك الوقت لما علم الله من صدقهم كشفنا عنهم العذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين قالوا وكان يونس قد خرج من بين اظهرهم وقام ينتظر العذاب والهلاك لقومه فلم ير شيأ وكان من كذب ولم يكن له بينة قتل قال يونس كيف ارجع إلى قومى وقد كذبتهم فانطلق مغاضباً ربه مغاضباً إلى قومه فأتى البحر كما قال تعالى (وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه) أى لن نقضى عليه العقوبة تقول العرب قدر الله الشىء يقدره تقديرا وقد يقدره قدرا وقد قرىء بهما جميعاً فى قوله تعالى (نحن قدرنا بينكم الموت) وقوله تعالى (والذى قدر فهدى) هذا قول أكثر المفسرين وقال عطاء معناه فظن أن لا نضيق عليه الحبس من قول الله تعالى (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أى ويضيق وقول الله تعالى (ومن قدر عليه رزقه) وقال ابن زيد وهو استفهام معناه فظن ان لن نقدر عليه وقال الحسن معناه فظن ان يعجز ربه فلا يقدر عليه قال وبلغنى أن يونس لما أصاب الذنب انطلق مغاضبا ربه فاستزله الشيطان حتى ظن أن لن نقدر عليه وكان له سلف وعبادة فابى أن يدعه للشيطان فلما أتى يونس البحر إذ قوم يركبون السفينة فحملوه بغير اجرة فلما دخلها احتبست السفينة ووقفت والسفن تسير يميناً وشمالا فقال الملاحون ان فيها عبداً آبقا من سيده وهذا رسم السفينة إذا كان فيها آبق لم تجر فاقترعوا فوقعت القرعة على يونس فقال أنا الآبق فقالوا نلقى فى الماء فاقترعوا ثالثاً فخرجت القراعة على يونس فزج نفسه فى الماء فذلك قوله تعالى (فساهم فكان من المدحضين) فلما وقع فى الماء وكل الله به حوتا فابتلعه وأوحى الله تعالى إلى الحوت إنى لم اجعله لك رزقاً بل جعلتك له حرزا ومسكنا فحنه ولا تكسر له عظما ولا تخدش له لحماً وابتلع الحوت حوت آخر فأهوى به إلى مسكنه فى البحر فالتقمه حوت آخر وانطلق به من ذلك المكان حتى مر به على الآيلة ثم مر به على دجلة ثم انطلق به إلى نينوى ويقال ان الله تعالى رقق له جلد الحوت حتى كان يرى جميع مافى البحر فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسا فقال فى نفسه ماهذا فأوحى الله تعالى اليه وهو فى بطن الحوت أن هذا تسبيح دواب البحر فسبح وهو فى بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا ربنا نسمع صوتا ضعيفا معروفا بأرض مجهولة قال ذلك عبده يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت فى البحر فقالوا العبد الصالح الذى كان يصعد لك منه فى كل يوم وليلة عمل صالح

بمقامك عندنا ولولا احتشامك لسرت اليك مسلما عليك قاضيا لحقك قال فلما مضى الخادم بالرسالة جاءت إلى المهدى وسلمت عليه وقالت ما على أمير المؤمنين من احتشام فانى صرت من جواريه فقال أمير المؤمنين لا والله بل أعز من ولدى قال فلم تزل المرأة عند الخيزران حتى ماتت رحمة الله تعالى عليها وعلى الخيزران وعلى أمير المؤمنين وجزاهم الله تعالى عن معروفهم ومكارم أخلاقهم خيراً (ولما حج أمير المؤمنين المنصور رحمة الله تعالى عليه) عرض عليه جوهر نفيس له قيمة عظيمة الثمن فعرفه وقال هذا كان لهشام بن عبد الملك ابن مروان ثم انتقل إلى ابنه محمد بن هشام ومابقى من الامويين غيره ولا بد لى منه ثم التفت إلى حاجبه الربيع وقال إذا كان الغد وصليت بالناس فى المسجد الحرام وجمع الناس كلهم فاغلق الابواب ووكل بها جماعة من الثقات واقتح بابا واحد وقف عليه ولا يخرج احد حتى تعرفه فاذا ظفرت بمحمد ابن هشام فأتنى به فلما كان الغد أغلق الربيع الابواب وفعل ما أمر به المنصور وكان محمد بن هشام فى المسجد فعرف إنه المطلوب وأيقن إنه مأخوذ مقتول فتحير وأرتاب واضطرب لبينما هو

قال نعم قال فشفعوا له عندذلك وهو قوله فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت قال ابن عباس ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت سبحانك إن كنت من الظالمين (وروى) سعيد بن المسيب عن سعد بن مالك قال سمعت رسول الله ﷺ يقول اسم الله الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى فقلت يارسول الله هى ليونس بن متى خاصة أم للجماعة المسلمين قال هى ليونس خاصة وللجماعة المسلمين عامة إذا دعوا بها ألم تسمع قوله تعالى (فنادى فى الظلمات) إلى قوله (وكذلك ننجى المؤمنين فلما دعا به يونس وشفعت له الملائكة أمر الله فنادى فى الظلمات إلى قوله وكذلك ننجى المؤمنين فلما دعا به يونس وشفعت له الملائكة أمر الله الحوت فقذفه إلى ساحل نينوى كما قال الله تعالى (فنبذناه بالعراء أى بوجه الأرض وهو سقيم أى عليل ضعيف كالفرخ الممعط (واختلفوا) فى مدة مكث يونس فى بطن الحوت فقال مقاتل ثلاثة أيام وقال عطاء سبعة أيام وقال الضحاك عشرين يوما وقال السدى والكلبى أربعين يوما فلما أخرجه الله من بطن الحوت أنبت له شجرة من يقطين وهو القرعة فجعل يستظل بها ووكل الله به وعلة تختلف اليه فيشرب منها لبنا فذلك قوله تعالى (وانبتنا عليه) أى عنده (شجرة من يقطين) قالوا فيبست الشجرة فبكى عليها فأوحى اليه أتبكى على شجرة يبست ولا تبكى على مائة الف أو يزيدون أردت أن أهلكهم ثم ذهب يونس فاذا هو بغلام يرعى غنما فقال من أين أنت ياغلام قال من قوم يونس فقال له إذا رجعت اليهم فقل لهم أنك لقيت يونس فقال الغلام إن كنت يونس فأنت تعلم إنه ان لم يكن لى بينة قتلت فمن يشهد لى فقال يونس تشهد لك هذه البقعة وهذه الشجرة وهذه الشاة وأشار إلى شاة من غنمه فقال له الغلام فرحم قال لهم يونس إذا جاءكم هذا الغلام فأشهدوا له قالوا نعم فرجع الغلام إلى قومه ثم قال للملك إنى لقيت يونس وأنه يقرأ عليكم السلام فأمر الملك بقتله وقال كذبت فقال إن لى بينة فارسلوا معى أحدا يشهد فارسلوا معه رجالا فاتى البقعة والشجرة والشاة وقال أنشدكم بالله هل أشهدكم يونس قالوا نعم فرجع القوم مذعورين وقالوا للملك شهدت له الشجرة والأرض والشاة فأخذ الملك بيد الغلام وأجلسه فى مجلسه وقال له انت أحق بهذا المكان منى قال فأقام لهم أمرهم ذلك الغلام أربعين سنة ثم أنهم خرجوا يلتمسون يونس فوجدوه ففرحوا به وآمنوا به فأقام لهم أمرهم (قال) فلما شهدت الشجرة والأرض والشاة للغلام وكانت الشاة التى مع الغلام قالت لهم أن أردتم يونس فاهبطوا إلى الوادى فهبطوا فاذا هم بيونس فانكبوا على رجليه يقبلونها وسألوه أن يدخل معهم المدينة فقال لا فبكوا وألحوا عليه فأجابهم للدخول فاتى له بعجلة من فضة وجلس عليها فتمثل له جبريل عليه السلام غاضبا على سابته ونادى هذا مجلس الجبارين فوثب يونس من العجلة وجعل يمشى حتى دخل معهم المدينة فمكث مع أهله وولده أربعين ليلة ثم خرج سائحا وخرج الملك معه وصير الغلام الراعى ملكا لتلك المدينة كما ذكرنا فلم يزالا سائحين يعبدان الله تعالى حتى ماتا عليهما السلام وكانت نبوة يونس فى زمان ملوك الطوائف والله أعلم

(باب فى قصة أصحاب أهل الكهف)

قال الله تعالى (أم حسبت أن اصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) اختلف العلماء فى الرقيم قال النعمان ابن بشير الأنصارى سمعت رسول الله ﷺ يذكر الرقيم قال أن ثلاثة نفر خرجوا يرتادون لأهلهم فبينما هم يمشون إذ أصابتهم السماء فأووا إلى الكهف فانحطت صخرة من الجبل عليهم فانطبقت على باب الكهف فاوصدت عليهم فقال قائل منهم كل منكم يذكر أحسن عمل عمله فلعل الله يرحمنا فقال رجل منهم قد عملت مرة حسنة كان لى أجراء يعملون عملا لى

على تلك الحالة إذ أقبل محمد ابن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم فلما رآه متحيرا وكان لا يعرفه تقدم اليه وقال يا هذا مابالك فقال لاشىء فقال قل ولك أمان الله على نفسك فقال انا محمد بن هشام بن عبد الملك فمن أنت قال محمد بن زيد ابن على بن الحسين فزاد خوفه وطار عقله وأيقن بالموت فقال لا تجزع فانك لست قاتل أبى ولا جدى وليس لى عليك ثأر وانا أجتهد فى خلاصك إن شاء الله تعالى ولكن أعذرنى فيما أنا صانع بك من مكروه وقبيح فطرح رداءه على وجهه وغطى رأسه وجذبه إلى قريب من الربيع فقال يا أبا الفضل إن هذا الخبيث جمال من أهل الكوفة أكراني جماله فلما دفعت اليه الأجرة هرب منى وكرى جماله لبعض أهل خرسان ولى عليه شهود وأريد منك أن توصله معى إلى القاضى وتمسك جماله عن الذهاب مع الخراسانين فوكل به الربيع رجلين وقال لا تفارقاه إلى القاضى ومحمد قابض على الرداء وقد استتر بهوجهه وخرجوا جميعا من المسجد فلما بعدوا من الربيع قال محمد ويلك وما ينفعك الفجور فقال يا أبى بنت رسول الله ﷺ قد رجعت إلى الحق واعترفت لك فقال محمد للرسولين انصرفا عنه فقد اعترف بالحق فتركه وانصرفا عنه فلما بعدا

فاستأجرت كل رجل منهم بأجرة معلومة فجاء رجل منهم ذات يوم وسط النهار فاستأجرته بشرط أصحابه فعمل فى بقية نهاره كعمل رجل منهم نهاره كله فرأيت على من الاكرام أن لاأنقصه شيئا مما استأجرته به أصحابه لما اجتهد فى عمله فقال رجل منهم أتعطى هذا مثل ما أعطيتنى ولم يعمل إلا نصف النهار فقلت له ياعبد الله لم ابخسك شيئا من شرطك إنما هو مالى أحكم فيه بما شئت قال فغضب وذهب وترك أجرته فوضعت حقه فى جانب من البيت ماشاء الله ثم مر بى بعد ذلك بقر فاشتريت به فنميته فبلغت ماشاء الله فمر بى بعد ذلك شيخ ضعيف لا أعرفه فقال لى أن لى عندك حقا فقلت له حتى أعرفه قال فذكره فقلت له إياك أبغى وهذا حقك وعرضتها عليه فقال ياعبد الله لاتسخر بى إن لم تتصدق على فاعطنى حقى فقلت والله ماأسخر ان هذا لحقك ومالى فيه شىء فدفعتها اليه اللهم إن كنت فعلت هذا لوجهك الكريم فافرج عنا فانصدع الجبل حتى أبصروا الضوء وقال الآخر قد عملت حسنة مرة كان لى فضل مال وأصاب الناس شدة فجاءتنى امرأة تطلب منى معروفا فقلت والله ماهو دون نفسك فأبت على وذهبت ثم أبها رجعت فذكرتنى بالله فأبيت عليها وقلت والله ماهو دون نفسك فابت وذهبت وذكرت ذلك لزوجها فقال لها روجها أعطيه نفسك وأغيثى عيالك فرجعت إلى تنشدنى بالله فابيت عليها وقلت والله ماهو دون نفسك فلما رأت ذلك أسلمت إلى نفسها فلما كشفتها وهممت بها ارتعدت من تحتى فقلت لها ماشأنك فقالت إنى أخاف الله رب العالمين فقلت لها خفتيه فى الشدة ولم أخفه فى الرخا فتركتها ماتحب بما كشفتها اللهم إن كنت فعلت هذا لوجهك الكريم فافرج عنا فانصدع الجبل حتى تعازفنا وقال الآخر قد عملت حسنة مرة كان لى أبوان كبيران وكان لى غنم فكنت اطعم أبواى وأسقيهما ثم أرجع إلى غنمى قال فاصابنى يوما غيث فحبسنى حتى أمسيت فأتيت اهلى وأخذت محلبى فحلبت غنمى وتركتها قائمة مكانها ومضيت إلى أبواى فوجدتهما قد ناما فشق على أن اوقظهما وشق على ان أترك غنمى فما برحت جالسا ومحلبى فى يدى حتى أيقظهما الصبح فسقيتهم اللهم إن كنت فعلت ذلك لوجهك الكريم فافرج عنا مانحن فيه قال النعمان لكانى أسمع من رسول الله ﷺ قال كأن الجبل طبق ففرج الله عنهم فخرجوا (وقال ابن عباس) الرقيم واد بين غطفان وايلة دون فلسطين وهو الوادى الذى فيه اصحاب الكهف قال كعب هى قريتهم وقال سعيد ابن جبير وغيره من أئمة الأخبار الرقيم لوح من حجارة وقيل من رصاص كتبوا فيه اسماء أهل الكهف وقصتهم ثم جعلوه فى صندوق ووضعوه على باب الكهف ثم ذكر الله خبر أصحاب الكهف فقال إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة قال أهل التفسير واصحاب التواريخ كان أمر اصحاب الكهف فى أيام ملوك الطوائف بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام (وأما قصتهم) فيقال لما ولى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخلافة أتاه قوم من احبار اليهود فقالوا له ياعمر انت ولى الأمر بعد محمد ﷺ وصاحبه وانا نريد ان نسألك عن خصال إن اخبرتنا بها علمنا أن الإسلام حق وان محمدا كان نبيا وإن لم تخبرنا به علمنا أن الإسلام باطل وان محمدا لم يكن نبيا فقال سلوا عما بدا لكم قالوا اخبرنا عن أقفال السموات ماهى واخبرنا عن مفاتيح السموات ماهى واخبرنا عن قبر سار بصاحبه ما هو وأخبرنا عمن انذر قومه لاهو من الجن ولا هو من الإنس وأخبرنا عن خمسة أشياء مشوا على وجه الأرض ولم يخلقوا فى الأرحام واخبرنا مايقول الدارج فى صياحه ومايقول الديك فى صراخه وما يقول للفرس فى صهيله وما يقول الضفدع فى نقيقه وما يقول الحمار فى نهيقه وما يقول القنبر فى صفيره قال فنكس عمر رأسه فى الأرض ثم قال لاهيب بعمر إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا اعلم وان يسأل عما لا يعلم فوثبت اليهود وقالوا نشهد

عنه قال محمد اذهب إلى منزلك

فقبل محمد بن هشام يده ورأسه وقال الله اعلم حيث يجعل رسالته ثم اخرج جوهرا قيمته كثيرة وقال لله تعالى يا ابن بنت رسول الله ﷺ سرنى بقبول هذا فقال اذهب بمتاعك فنحن أهل بيت لانقبل على اصطناع المعروف مكافاة رضى الله تعالى عنهم (وقيل للأحنف ابن قيس) ممن تعلمت الحلم قال من قيس بن عاصم رأيته يوما من الأيام قاعدا بفناء داره متقلدا بحمائل سيفه يحدث قومه فبينما هو كذلك إذ أتى برجلين احدهما مقتول والآخر مكتوف فقيل له هذا ابن اخيك قد قتل ابنك قال فوالله ما قطع كلامه ولا اغتاظ والتفت إلى ابن اخيه وقال له يا ابن اخى اثمت بربك ورميت نفسك بسهمك وقتلت ابن عمك ثم قال لإبنه الآخر يابنى قم فادفن أخاك وحل كتاف ابن عمك وسق إلى امك مائة ناقة دية ولدها فانها غريبة منا (وروى عنه ايضا) انه جلس فى داره يوما على المائدة ومعه ولد صغير فجاءت جارية بسفود عليه شواء حار فسقط السفود منها فوقع على الولد فمات من وقته فدهشت الجارية وتغير لونها فقال لا بأس عليك انت حرة لوجه الله تعالى

ان محمداً لم يكن نبياً وان الإسلام باطل فوثب سلطان الفارس وقال لليهود قفوا قليلا ثم توجه نحو علي بن أبي طالب كرم الله وجهه حتى دخل عليه فقال يا أبا الحسن أغث الإسلام فقال وماذاك فأخبره الخبر فأقبل يرفل في بردة رسول الله ﷺ فلما نظر اليه عمر وثب قائماً فاعتنقه وقال يا أبا الحسن أنت لكل معضلة وشدة تدعى فدعا على كرم الله وجهه اليهود فقال سلوا عما بدا لكم فإن النبي ﷺ علمني الف باب من العلم فتشعب لي من كل باب الف باب فسألوا عنها فقال علي كرم الله وجهه ان لي عليكم شريطة إذا أخبرتكم كما في توراتكم دخلتم في ديننا وآمنتم فقالوا نعم فقال سلوا عن خصلة خصلة قالوا أخبرنا عن اقفال السموات وما هي قال أقفال السموات الشرك بالله لأن العبد والأمة إذا كانوا مشركين لم يرفع لهما عمل قالوا فأخبرنا عن مفاتيح السموات ما هي قال الشهادة ان لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فجعل بعضهم ينظر إلى بعض ويقولون صدق الفتى قالوا فأخبرنا عن قبر سار بصاحبه فقال ذلك الحوت الذي التقم يونس بن متى فسار به في البحار السبع فقالوا اخبرنا عمن أنذر قومه لاهو من الجن ولاهو من الإنس قال هي نملة سليمان بن داود قالت يا أيها النمل أدخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون قالوا فأخبرنا عن خمسة مشوا على الأرض ولم يخلقوا في الأرحام قال ذلكم آدم وحواء وناقة صالح وكبش إبراهيم وعصى موسى قالوا أخبرنا ما يقول الدارج في صياحه قال يقول الرحمن على العرش استوى قالوا فأخبرنا ما يقول الديك في صراخه قال يقول اذكروا الله يا غافلين قالوا أخبرنا ما يقول الفرس في صهيله قال يقول إذا مشى المؤمنين إلى الكافرين إلى الجهاد اللهم انصر عبادك المؤمنين على الكافرين قالوا فأخبرنا ما يقول الحمار في نهيقه قال يقول لعن الله العشار وينهق في أعين الشياطين قالوا فأخبرنا ما يقول الضفدع نقيقه قال يقول سبحان ربي المعبود المسبح في لجج البحار قالوا فاخبرنا ما يقول القنبر في صفيره قال يقول اللهم العن مبغضي محمد وآل محمد وكان اليهود ثلاثة نفر قال اثنان منهم نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ووثب الحبر الثالث فقال يا علي لقد وقع في قلوب أصحابي ما وقع من الإيمان والتصديق وقد بقي خصلة واحدة اسألك عنها فقال سل عما بدا لك فقال أخبرني عن قوم في أول الزمان ماتوا ثلثمائة وتسع سنين ثم أحياهم الله فما كان من قصتهم قال علي رضي الله عنه يا يهودي هؤلاء أصحاب الكهف وقد انزل الله على نبينا قرآنا فيه قصتهم وإن شئت قرأت عليك قصتهم فقال اليهودي ما قد سمعنا قراءتك إن كنت عالماً فأخبرني بأسمائهم وأسماء آبائهم وأسماء مدينتهم واسم ملكهم واسم كلبهم واسم جبلهم واسم كهفهم وقصتهم من أولها إلى آخرها فاحتبى على بردة رسول الله ﷺ ثم قال يا أخا العرب حدثني حبيبي محمد ﷺ أنه كان بأرض رومية مدينة يقال لها أفسوس ويقال هي طرسوس وكان اسمها في الجاهلية أفسوس فلما جاء الإسلام سموها طرسوس قال وكان لهم ملك صالح فمات ملكهم وانتشر أمرهم فسمع به ملك من ملوك فارس يقال دقيانوس وكان جباراً كافراً فأقبل في عساكره حتى دخل أفسوس فاتخذها دار ملكه وبنى فيها قصراً فوثب اليهودي وقال إن كنت عالماً فصف لي ذلك القصر وحاله فقال يا أخا اليهود ابتنى فيها قصراً من الرخام طوله فرسخ وعرضه فرسخ وأتخذ فيه أربعة آلاف أسطوانة من الذهب والف قنديل من الذهب لها سلاسل من اللجين تسرج في كل ليلة بالأدهان الطيبة وأتخذ لشرقي المجلس مائة وثمانين كوة والغربية كذلك وكانت الشمس من حين تطلع إلى حين تغيب تدور في المجلس كيفما دارت واتخذ فيه سريراً من الذهب طوله ثمانين ذراعاً في عرض أربعين ذراعاً مرصعاً بالجواهر ونصب على يمين السرير ثمانين كرسياً من الذهب فاجلس عليها بطارقته وأتخذ أيضا ثمانين كرسياً من الذهب عن يساره فاجلس عليها هرافلته ثم جلس هو على السرير ووضع التاج على رأسه فوثب اليهودي وقال يا علي أن كنت عالماً فأخبرني مم كان تاجه قال يا أخا اليهود كان تاجه من الذهب السليك له تسعة أركان على كل ركن لؤلؤة تضيء كما يضيء

وهذا من مكارم الأخلاق رضي الله تعالى عنه (ولما حج معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنه) لم يترك شيئاً إلا قدم به إلى مكة والمدينة من دارهم ودنانير وثياب وطيب ودواب وغير ذلك فلما قدم المدينة قسم على أهلها أكثر من أهل مكة وبعث إلى رجل من الأنصار بألف درهم وعشرة أثواب وكان الرجل من أهل بدر فأتاه الرسول بذلك العطاء فغضب وقال أما وجد معاوية من يرسل اليه بمثل العطاء غيري أرده عليه فقال الرسول لا أقدر على ذلك فدعا الأنصاري ابنه وقال له يا بني اسألك بحقي عليك الا رددت هذا العطاء على معاوية وضربت بهذه الثياب وجهه فأخذها ابن الأنصار وأتى إلى معاوية فعرف معاوية الشر في وجهه فقال ما تريد فقال إن أبي يقرئك السلام ويقول لك امثلي ترسل اليه بمثل هذا العطاء فقال معاوية من الرسول إلى أبيك فقال فلان فقال قاتله الله إنما هذا العطاء لغير أبيك وعطاء أبيك دفعه إلى رجل غيره ثم قال يا غلام على بعشرة آلاف درهم وثلاثين ثوبا ووصيفة مسرعاً فحضر الجميع وقال يا بن أخي خذ الجميع وعد إلى أبيك وأعتذر لي من أبيك وعرفه خطأ الرسول فقال يا أمير المؤمنين أن الولد حقاً وله أمر

المصباح فى الليلة الظلماء واتخذ خمسين غلاماً من ابناء البطارقة فنطقهم بمناطق الديباج الأحمر وسرولهم بسراويل القز الأخضر وتوجهم ودملجهم وخلخلهم وأعطاهم عمد الذهب وأقامهم على رأسه وأصطنع ستة غلمان من أولاد العلماء وجعلهم وزرائه فما يقطع أمراً دونهم وأقام منهم ثلاثة عن يمينه وثلاثة عن شماله فوثب اليهودى وقال يا على أن كنت صادقاً فأخبرنى ما كانت اسماء الستة فقال على كرم الله وجهه حدثنى حبيبى محمد ﷺ أن الذين كانوا عن يمينه اسمائهم تمليخا رمكسلمينا ومحسلمينا وأما الذين كانوا عن يساره فرطليوس وكشطوس وسادنيوس وكان يستشيرهم فى جميع أموره وكان إذا جلس كل يوم فى صحن داره واجتمع الناس عنده دخل من باب الدار ثلاثة غلمة فى يد أحدهم جام من الذهب مملوء من المسك وفى يد الثانى جام من فضة مملوء من ماء الورد وعلى يد الثالث طائر فيصيح به فيطير الطائر حتى يقع فى جام ماء الورد فيمرغ فيه فينشف مافيه بريشه وجناحيه ثم يصيح به الثانى فيطير فيقع فى جام المسك فيتمرغ فيه فينشف مافيه وجناحيه فيصيح به الثالث فيطير فيقع على تاج الملك فينفض ريشه وجناحيه على رأس الملك بمافيه من المسك وماء الورد فمكث الملك فى ملكه ثلاثين سنة من غير أن يصيبه صداع ولا وجع ولا حمى ولا لعاب ولا بصاق ولا مخاط فلما رأى ذلك من نفسه عتا وطغى وتجبر واستعصى وأدعى الربوبية من دون الله تعالى ودعا اليه وجوه قومه فكل من أجابه أعطاه وحباه وكساه وخلع عليه ومن لم يجبه ويتابعه قتله فأجابوه بأجمعهم فأقاموا فى ملكه زمانا يعبدونه من دون الله تعالى فبينما هو ذات يوم جالس فى عيد له على سريره والتاج على رأسه إذ أتى بعض بطارقته فأخبره أن عساكر الفرس قد غشيته يريدون قتله فاغتم لذلك غماً شديداً حتى سقط التاج عن رأسه وسقط هو عن سريره فنظر أحد فتيته الثلاثة الذين كانوا عن يمينه إلى ذلك وكان عاقلا يقال مليخاً فتفكر وتذكر فى نفسه وقال لو كان دقيانوس هذا إلها كما يزعم لما حزن ولما كان ينام ولما كان يبول ويتغوط وليست هذه الافعال من صفات الإله وكانت الفتية الستة يكونون كل يوم عند واحد منهم وكان ذلك اليوم نوبة تمليخا فاجتمعوا عنده فأكلوا وشربوا ولم يأكل تمليخا ولم يشرب فقالوا يا تمليخا مالك لا تأكل ولا تشرب فقال يا إخوانى قد وقع فى قلبى شىء منعنى عن الطعام والشراب والمنام فقالوا وماهو يا تمليخا فقال أطلت فكرى فى هذه السماء فقلت من رفعها سقفاً محفوظاً بلا علاقة من فوقها ولا دعمة من تحتها وما أجرى فيها شمسها وقمرها ومن زينها بالنجوم ثم أطلت فكرى فى هذه الأرض من سطحها على ظهر اليم الزاخر ومن حبسها وربطها بالجبال الرواسى لئلا تميد ثم أطلت فكرى فى نفسى فقلت من أخرجنى جنينا من بطن أمى ومن غذانى وربانى إن لهذا صانعاً ومدبرا سوى دقيانوس الملك فانكبت الفتية على رجليه يقبلونهما وقالوا يا تمليخا لقد وقع فى قلوبنا ما وقع فى قلبك فاشعر علينا فقال يا إخوانى ما أجد لى ولكم حيلة إلا الهرب من هذا الجبار إلى ملك السموات والأرض فقال الرأى ما رأيت فوثب تمليخا فابتاع تمرا بثلاثة دراهم وصرها فى ردائه وركبوا خيولهم وخرجوا فلما ساروا قدر ثلاثة أميال من المدينة قال لهم تمليخا يا أخوتاه قد ذهب عنا ملك الدنيا وزال عنا أمره فانزلوا عن خيولكم وأمشوا على أرجلكم لعل الله يجعل من أمركم فرجا ومخرجا فنزلوا عن خيولهم ومشوا على أرجلهم سبع فراسخ حتى صارت أرجلهم تقطر دماً لانهم لم يعتادوا المشى على أقدامهم فاستقلهم رجل راع فقالوا أيها الراعى أعندك شربة ماء. أولبن فقال عندى ما تحبون ولكنى أرى وجوهكم وجوه الملوك وما أظنكم إلا هربا فأخبرونى بقصتكم فقالوا يا هذا أنا دخلنا فى دين لا يحل لنا الكذب أفينجينا الصدق قال نعم فاخبروه بقصتهم فانكب الراعى على أرجلهم يقبلها ويقول قد وقع فى قلبى ما وقع فى قلوبكم فقفوا إلى ههنا حتى أرد الاغنام إلى اربابها وأعود اليكم فوقفوا له فردها

مطاع وقد أمرنى أن افعل شيئا قال معاوية ما هو يا ابن أخى قال أنه دفع الثياب وقال يحق عليك إلا ضربت بها وجهه فقال معاوية يا ابن أخى أطع والدك وأرفق بعمك فتقدم الغلام ورمى بها وجهه برفق وتوجه الغلام إلى أبيه وأخبره بذلك وهو من حسن أخلاقهم (وقيل) نزل بعض اللصوص إلى دار خلف ابن أيوب وهو قائم يصلى بالليل فجمع اللص جميع مافى البيت من قماش وغيره وشده وحمله على رأسه وخلف ينظر اليه ويكلمه ثم خرج اللص من البيت إلى الحائط يريد النهوض فلم يقدر على ذلك فقال له خلف يا ابن أخى خذ المفتاح وافتح الباب واخرج فلعلك تحتاج إلى ذلك فقال إن مثلك والله لن يؤذى ثم ترك ما كان أخذه وتاب إلى الله تعالى (وحكى بعضهم قال) كان لعبد الله بن الزبير أرض مجاورة لأرض معاوية ابن أبى سفيان وكان له فى كل أرض عبيد لعمارتها فدخل عبيد معاوية فى أرض عبد الله بن الزبير وغصبوا منها قطعة فكتب عبد الله ابن الزبير إلى معاوية أما بعد يا معاوية فإن عبيدك قد غصبوا أرضى فأمرهم بأن ينكفوا عنها وإلا كان لى ولكم شأن فلما وقف معاوية على كتابه دفعه إلى ولده يزيد فلما قرأ قال ما ترى يا يزيد قال أرى

وأقبل يسعى فتبعه كلب فوثب اليهودى وقال ياعلى ان كنت عالماً فاخبرنى ما كان لون الكلب واسمه فقال يا أخا اليهود حدثنى حبيبى محمد ﷺ أن الكلب كان أبلق بسواد وكان إسمه قطمير (قال الاستاذ) اختلف العلماء فى لون كلب أصحاب الكهف فقال ابن عباس كان أحمر وقال مقاتل كان أصفر وقال محمد بن كعب كان من شدة حمرته وصفرته يضرب إلى الحمرة وقال الكلبى لونه كالثلج وقيل لون الهرة وقيل لون السماء واختلفوا فى اسمه أيضا فروى عن على كرم الله وجهه ان اسمه ريان وقال ابن عباس كان إسمه قطميراً وهى أحد الروايات عن على وقال شعيب الجبائى كان اسمه حمرا وقال الأوزاعى نتوى وقال مجاهد قنطوريا وقال عبد الله بن سلام بسيط وقال كعب كان اصهب واسمه تفنى وأخبرنى ابن فتحويه باسناده عن أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه عن اسم كلبهم كان قطموراً وقيل قطفير اخبرنى أبو على الزهرى باسناده عن ابن عباس فى قوله تعالى (ما يعلمهم إلا قليل) قال أنا من أولئك القليل هم مكلمينا وتمليخا ومرطليوس ونينوس وساونوس واونوس وكشطونس وهو الراعى والكلب اسمه قطمير كلب ابنر فوق القاطى ودون الكركى (رجعنا إلى الحديث) قال فلما نظر الفتية إلى الكلب قال بعضهم لبعض أنا نخاف ان يفضحنا هذا الكلب بنبحه فالحوا عليه طرداً بالحجارة فلما نظر اليهم الكلب وقد ألحوا عليه بالحجارة والطرد اقعى عليه رجليه وتمطى وقال بلسان طلق ذلق ياقوم لم تطردوننى وأنا اشهد ان لا إله إلا الله وحده لاشريك له دعونى أحرسكم من عدوكم وانقرب بذلك إلى الله سبحانه وتعالى فتركوه ومضوا فصعد بهم الراعى جبلا وانحط بهم على كهف فرئب اليهود وقال ياعلى ما اسم ذلك الجبل وما اسم الكهف قال أمير المؤمنين يا أخا اليهود اسم الجبل ناجلوس واسم الكهف الوصيديرم وقيل (رجعنا إلى الحديث) قال وإذا فضاء الكهف اشجار مثمرة وعين غزيرة فأكلوا من الثمار وشربوا من الماء وجنهم الليل فأووا إلى الكهف وربض الكلب على باب الكهف ومد يديه عليه وأمر الله ملك الموت بقبض أرواحهم ووكل الله تعالى بكل رجل منهم ملكين يقلبانه من ذات اليمين إلى ذات الشمال ومن ذات الشمال إلى ذات اليمين (قال ابن عباس) كانوا يقلبون فى السنة مرة لئلا تأكل الأرض لحومهم ويقال أن يوم عاشوراء كان يوم تقلبهم قال ابو هريرة كان لهم فى كل سنة تقليبتان (رجعنا إلى الحديث) قال وأوحى الله تعالى إلى الشمس فكانت تزاور عن كهفهم ذات اليمين إذا طلعت وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال فلما رجع الملك دقيانوس من عيده سأل عن الفتية فقال له أنهم اتخذا إلها غيرك وخرجوا هاربين منك فركب فى ثمانين الف فارس وجعلوا يقفون آثارهم حتى صعد الجبل وشارف الكهف فنظر اليهم مضطجعين فظن انهم نيام فقال لأصحابه لو أردت أن اعاقبهم بشىء ما عاقبتهم بأكثر مما عاقبوا به أنفسهم فأتونى بالبنائين فأتى بهم فردموا عليهم باب الكهف بالجبس والحجارة ثم قال لأصحابه قولوا لهم يقولوا لإلههم الذى فى السماء إن كانوا صادقين يخرجهم من هذا الموضع فمكثوا ثلثمائة وتسع سنين فنفخ الله فيهم الروح وهموا من رقدتهم لما بزغت الشمس فقال بعضهم لبعض لقد غفلنا هذه الليلة عن عبادة الله تعالى قوموا بنا إلى العين فاذا بالعين قد غارت والأشجار قد جفت فقال بعضهم لبعض أما من أمرنا هذا فى عجب مثل هذه العين قد غارت فى ليلة واحدة ومثل هذه الأشجار جفت فى ليلة واحدة فأتى الله عليهم الجوع فقالوا أيكم يذهب بورقكم هذه إلى المدينة فليأتنا بطعام منها ولينظر ان لا يكون من الطعام الذى يعجن بشحم الخنازير وذلك قوله تعالى (فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما) أى أحل وأجود وأطيب فقال لهم تمليخا يا إخوتى لا يأنكم أحد بالطعام غيرى ولكن أيها الراعى ادفع إلى ثيابك وخذ ثيابى فلبس ثياب الراعى ومر وكان يمر بمواضع لا يعرفهم وطريق ينكرها حتى أتى باب المدينة فاذا

أن تبعث له جيشا أوله عنده وآخره عندنا يأتيك برأسه فيريحك منه فقال معاوية عندى خير من ذلك يابنى قال ماهو يا أبت فقال على بدواة وقرطاس فكتب فيه قد وقفت على كتاب ابن حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم فساءنى والله ماساءه والدنيا وما فيها هينة فى حبك ورضاك وقد كتبت على نفسى مسطور أشهدت فيه الله وجماعة من المسلمين على أن الأرض والعبيد الذى فيها ملكك فضمها إلى أرضك والعبيد إلى عبيدك والسلام قال فلما قرأه عبد الله بن الزبير كتب اليه يقول قد وقفت على كتاب أمير المؤمنين لاعدمنى الله بقاءه ولا أعدمه هذا الرأى الذى أحله هذا المحل والسلام فلما وقف معاوية على الكتاب ناوله إلى ولده يزيد فلما قرأه تهلل وجهه فرحا فقال له معاوية يابنى إذا بليت بشىء من هذا الداء فداوه بمثل هذا الدواء وانا لقوم ترفى الحلم إلا خيراً رضى الله عنه (وحكى أن المهلب ابن أبى صفرة) مر بحى من أهل همدان فرآه شاب من أهل الحى فقال هذا المهلب قالوا نعم فقال والله ما يساوى خمسمائة درهم وكان المهلب رجلا أعور فسمعه المهلب فلما كان الليل أخذ المهلب فى كمه خمسمائة درهم وأتى إلى الحى فارتعب الشاب حين رآه فأتى اليه وقال

عليه علم أخضر مكتوب عليه لا إله إلا الله عيسى روح الله صلى الله على نبينا وعليه وسلم فطفق الفتى ينظر إليه ويمسح عينيه ويقول أراني نائماً فلما طال عليه ذلك دخل المدينة فرأى قواماً يقرؤن الإنجيل واستقبله أقواماً لا يعرفهم حتى انتهى إلى السوق فاذا هو بخباز فقال له يا خباز ما اسم مدينتكم هذه قال افسوس قال وما اسم ملككم قال عبد الرحمن قال تمليخا إن كنت صادقا فان أمري عجيب ادفع إلي بهذه الدراهم طعاماً وكانت دراهم ذلك الزمان الأول الإكبار فعجب الخباز من تلك الدراهم فوثب اليهودي وقال يا علي إن كنت عالماً فأخبرني كم كان وزن الدرهم منها فقال يا أخا اليهود أخبرني حبيبي محمد ﷺ أن وزن كل درهم منها عشرة دراهم وثلثا درهم فقال له الخباز يا هذا إنك قد أصبت كنزاً فأعطني بعضه وإلا ذهبت بك إلى الملك فقال تمليخا ما أصبت كنزاً ولكن هذا ثمن تمرة بعتها بثلاثة دراهم منذ ثلاثة أيام وقد خرجت من هذه المدينة وهم يعبدون دقيانوس الملك فغضب الخباز وقال الا ترضى إن أصبت كنزاً أن تعطيني بعضه حتى تذكر رجلا جباراً كان يدعى الربوبية قدمات منذ ثلثمائة سنة وتسخر بي ثم أمسكه واجتمع الناس ثم إنهم أتوا به إلى الملك وكان عاقلا فقال لهم ما قصة هذا الفتى قالوا أصاب كنزاً فقال له لا تخف فان نبينا عيسى عليه السلام أمرنا أن لا نأخذ من الكنوز إلا خمسها فادفع إلي خمس هذا الكنز وامض سالماً فقال أيها الملك تثبت في أمري ما أصبت كنزاً وإنما أنا من أهل هذه المدينة فقال له أنت من أهلها قال نعم قال أفتعرف فيها أحد قال نعم قال فسم لنا فسمى له نحواً من ألف رجل فلم يعرف منهم رجلا واحداً قالوا يا هذا ما نعرف هذه الأسماء وليست هي من أهل زماننا ولكن هل لك في هذه المدينة داراً فقال نعم أيها الملك فابعث معي أحداً فبعث معه الملك جماعة حتى أتى بهم داراً أرفع دار في المدينة وقال هذه داري ثم قرع الباب فخرج لهم شيخ كبير وقد استرخى حاجباه من الكبر على عينيه وهو فزع مرعوب مذعور فقال أيها الناس ما بالكم فقال له رسول الملك إن هذا الغلام يزعم أن هذه الدار داره فغضب الشيخ والتفت إلى تمليخا وتبينه وقال له ما إسمك قال تمليخا بن فلسين فقال له الشيخ أعد علي فأعاد عليه فانكب الشيخ على يديه ورجليه يقبلهما وقال هذا جدي ورب الكعبة وهو أحد الفتية الذين هربوا من دقيانوس الملك الجبار إلى جبال السموات والأرض ولقد كان عليه السلام أخبرنا بقصتهم وإنهم سيحيون فانهى ذلك إلى الملك فركب وأتى إليهم وحضرهم فلما رأى الملك تمليخا نزل عن فرسه وحمل تمليخا على عاتقه فجعل الناس يقبلون يديه ورجليه ويقولون له يا تمليخا ما فعل بأصحابك فأخبرهم أنهم في الكهف وكانت المدينة قد ولي بها رجلان ملك مسلم وملك نصراني فركبا في أصحابهما وأخذ تمليخا فلما صار وا قريباً من الكهف قال لهم تمليخا يا قوم إني أخاف أن إخوتي يحسبون بوقع حوافر الخيل والدواب وصلصلة اللجم والسلاح فيظنون أن دقيانوس قد غشيهم فيموتون جميعاً فقفوا قليلا حتى أدخل إليهم فأخبرهم فوقف الناس ودخل عليهم تمليخا فوثب إليه الفتية واعتنقوه وقالوا الحمد لله الذي نجاك من دقيانوس فقال دعوني منكم ومن دقيانوس كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم قال بل لبثتم ثلثمائة وتسع سنين وقد مات دقيانوس وانقرض قرن بعد قرن وآمن أهل المدينة بالله العظيم وقد جاؤكم فقالوا له يا تمليخا تريد أن تصيرنا فتنة للعالمين قال فماذا تريدون قالوا ارفع يديك ونرفع أيدينا فرفعوا أيديهم وقالوا اللهم بحق ما أريتنا من العجائب في أنفسنا إلا قبضت أرواحنا ولم يطع علينا أحد فأمر الله ملك الموت فقبض أرواحهم وطمس الله باب الكهف وأقبل الملكان يطوفان حول الكهف سبعة أيام فلا يجدان له باباً ولا منفذاً ولا ملكا فأيقنا حينئذ بلطيف صنع الله الكريم وأن أحوالهم كانت عبرة أراهم الله إياها فقال المسلم على ديني ماتوا أنا أبني على باب الكهف مسجدا وقال النصراني ماتوا على ديني فأنا أبني على باب الكهف ديرا فاقتتل الملكان فغلب المسلم النصراني فبنى على باب الكهف مسجدا فذلك قوله تعالى قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا وذلك يا يهودي ما كان من قصتهم ثم قال علي كرم الله وجهه لليهودي سألتك بالله

له افتح حجرك ففتح الشاب حجره فصب فيه الخمسمائة درهم وقال خذ قيمة عملك المهلب والله يا ابن اخي لو قومتني بخمسة آلاف دينار لا أتيتك بها فسمع شيخ من اهل الحي فقال والله ما اخطأ فيك من جعلك سيدا

(وقال) احمد بن ابي داود ما رأيت رجلا عرض على الموت ورأى النطع مفروشا والسيف مسلولا ولم يكترث لذلك ولا عدل عما أراد إلا تميم بن جميل وكان قد خرج على المعتصم ولقد رأيته وقد جيء به أسيرا مكتوفا وقد اجتمع الناس من الآفاق والنواحي ينظرون كيف يقتله المعتصم وكان المعتصم قد جلس له مجلسا منكرا وأمر الناس بالدخول ودخل تميم وحضر السياف وفرش النطع وكان تميم جميل الوجه تام الخلقة عذب المنطق فرآه المعتصم غير دهش ولا مكترث لما نزل فأحب المعتصم أن يستنطقه ليعلم أين عقله في ذلك الوقت فقال له المعتصم إن كان لك عذر يا تميم فأت به فقال أما أنت يا أمير المؤمنين فالحمد لله الذي جبر بك الدين ولم بك شعث المسلمين وأنار بك استار الحق واخمد بك شهاب الباطل وأن الذنوب يا امير المؤمنين لتخرس الألسن الفصيحة وتصدع الأفئدة الصحيحة ووالله لقد كبرت الذنوب وعظمت

الحريمة وانقطعت الحجة
وساء الظن ولم يبق إلا عفوك
وانتقامك وأنت إلى العفو
اقرب وهو بك أشبه واليق
والشد يقول :

أرى الموت بين السيف
والنطع كامناً
يلاحظني من حيث ما اتلفت
واكثر ظني إنك اليوم
قاتلي
وأي امرىء عما قضى الله
يفلت
ومن ذا الذي يأتي بعذر
وحجة
وسيف المنايا بين عينيه
يصلت
وما جزعي من أن اموت وإنني
لأعلم أن الموت شيء مؤقت
ولكن خلفي صبية قد
تركتهم
واكبادهم من حسرة تتفتت
كأني أراهم حين أنعى
إليهم وقد اخمشوا تلك
الوجوه صوتوا
فإن عشت عاشوا سالمين
بغبطة
أذود الردى عنهم وإن مت
موتوا

(قال) فبكى المعتصم حتى ابتلت لحيته وقال أن من البيان لسحرا ثم قال والله يا تميم لقد غلب السيف العفو ولقد وهبتك لله ولصبيتك وعفوت عن ذلتك ثم أمر بقناة فقعد له على موضعه الذي كان خرج عنه ووصله بشيء كثير

(وحكي عن بعضهم) قال قدم إلى معنه

يا يهودي أوافق هذا ما في توراتكم فقال اليهودي ما زدت حرفاً ولا نقصت حرفاً يا أبا الحسن لا تسمني يهودياً أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وإنك أعلم هذه الأمة (وقال عبيد بن عمير) كان اصحاب الكهف فتياناً مطوقين مسورين ذوي ذوائب وكان معهم كلب سيدهم فخرجوا في عيد لهم عظيم في زي موكب واخرجوا معهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله فقذف الله في قلوبهم الإيمان وكان احدهم وزير ملك فآمنوا واخفى كل واحد منهم الإيمان عن صاحبه فقالوا في أنفسهم من غير أن يظهر بعضهم لبعض نخرج من بين اظهر هؤلاء القوم لئلا يصيبنا عقاب بجرمهم فخرج شاب منهم حتى أتى ظل شجرة فجلس فيه ثم خرج آخر فرآه جالساً وحده فرجا أن يكون على مثل امره من غير أن يظهر ذلك فجلس إليه ثم خرج الآخرون فجاؤا فجلسوا إليهم واجتمعوا فقال بعضهم لبعض ما جمعكم وكل واحد يكتم عن صاحبه إيمانه مخافة على نفسه ثم قالوا لبعضهم ليخرج كل فتيين منكم فيخلوا ثم ليفش كل واحد منكم أمره إلى صاحبه فخرج فتيان منهم فتوافقا فتكلما فذكر كل واحد منهما امره لصاحبه فأقبلا وهما مستبشران إلى اصحابهما فقالا افدا نفقنا على أمر واحد وإذا هم جميعاً على الإيمان وإذا كهف في الجبل قريب منهم فقال بعضهم لبعض فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيء لكم من أمركم مرفقاً فدخلوا الكهف ومعهم كلب سيدهم فناموا ثلاثمائة سنة وتسع سنين قال وفقدوهم قومهم فطلبوهم فعمى الله عليهم آثارهم وكهفهم فلم يقدروا عليهم كتبوا أسمائهم وانسابهم وكتبوا في لوح فلان وفلان أبناء ملوكنا فقدناهم في يوم كذا في شهر كذا من سنة كذا في مملكة فلان بن فلان ووضعوا اللوح في خزانة الملك وقالوا ليكونن لهذا شأن ومات الملك وجاء قرن بعد قرن (واخبرنا) الحسن بن الحسين الثقفي باسناده عن جعفر الباقر قال كان اصحاب الكهف صيارفة . وقال وهب بن منبه قال جاء حواري من اصحاب عيسى عليه السلام إلى مدينة اصحاب الكهف فأراد أن يدخلها فقيل له أن على بابها صنماً لا يدخلها أحد إلا إلى سجدله فكره أن يدخلها فأتى على حمام قريب من تلك المدينة واجر نفسه من الحمامي وكان يعمل فيه فرأى صاحب الحمام في حمامه البركة ودر عليه الرزق فجعل يقوم عليه وتعلق به فتية من اهل المدينة فجعل يخبرهم خبر السماء والأرض وخبر الآخرة حتى آمنوا به وصدقوه وكانوا له على مثل حاله في حسن الهيئة وكان يشرط على صاحب الحمام أن الحمام لا يحول بيني وبينه احد فيصلي فكان على ذلك الحال حتى أتى ابن الملك الحمام بامرأة فدخل بها الحمام فعيره بها الحواري وقال له أنت ابن الملك وتدخل مع هذه فاستحى ابن الملك وذهب ثم رجع مرة أخرى فقال له مثل ذلك فسبه وانتهره ولم يلتفت إليه ثم إنهما دخلا معاً ماتا جميعاً في الحمام فأتى الملك وقيل له قتل صاحب الحمام إبنك فالتمسه فلم يقدر عليه فقال من كان بصحبته فسموا الفتية فالتمسوا فخرجوا من المدينة فمروا بصاحب لهم في زرع وهو على مثل إيمانهم فذكروا إنهم التمسوا فانطلق معهم ومعه كلبه حتى أواهم الليل إلى الكهف فدخلوا وقالوا نبيت ههنا الليلة ثم اصبح إن شاء الله تعالى فترون رأيكم فضرب الله على آذانهم فخرج الملك في اصحابه يطلبونهم حتى وجدوهم قد دخلوا الكهف وكان كلما أراد الرجل منهم أن يدخل الكهف أرعب فلم يطق أحد أن يدخله فقال قائل أليس لو كنت قدرت عليهم قتلتهم قال بلى قال فابن عليهم باب الكهف واتركهم فيه يموتوا عطشاً وجوعاً ففعل ذلك قال وهب فتركهم بعد ما سدوا عليهم باب الكهف ومضى زمان بعد زمان ثم أن راعياً أدركه المطر عند باب الكهف فقال لو فتحت باب هذا الكهف فأدخلت فيه غنمي من المطر فلم يزل يعالجه حتى فتح الباب ورد الله إليهم ارواحهم من الغد حين اصبحوا وقال محمد بن إسحق مرج أهل الإنجيل وعظمت فيها الخطايا وطغت فيهم الملوك حتى عبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت وفيهم بقايا على دين المسيح متمسكون بعبادة الله تعالى وتوحيده وكان ممن فعل ذلك من ملوكهم ملك من الروم يقال له دقيانوس كان عبد الأصنام وذبح للطواغيت وقتل من خالفه في ذلك ممن اقام على دين المسيح وكان ينزل قرى الروم فلا يترك في قرية نزلها أحداً يدين دين المسيح إلا قتله حتى نزل مدينة اصحاب الكهف وهي أفسوس فلما نزلها

ذلك على أهل الايمان فاستخفوا منه وهربوا فى كل ناحية وكان دقيانوس قد أمر حين دخلها أن يتبع
ل الايمان فجمعوا إليه واتخذ شرطا من كفار أهلها وجعلوا يتبعون أهل الإيمان فى اماكنهم
خرجونهم إلى دقيانوس فيقدمهم إلى الجامع الذى يذبح فيه للطواغيث فيخيرهم بين القتل وعبادة
ثان والذبح للطواغيث فمن القوم من يرغب فى الحياة ومنهم من يأبى ان يعبد غير الله سبحانه وتعالى
تل فلما رأى ذلك اهل الشدة فى الإيمان بالله جعلوا يسلمون انفسهم للعذاب والقتل ثم يقطعون ويربط
طع من اجسامهم على سور المدينة من نواحيها كلها وعلى كل باب من أبوابها حتى عظمت الفتنة على اهل
يمان فمنهم من أقر فترك ومنهم من صلب على دينه وقتل فلما رأى ذلك الفتية حزنوا حزنا شديدا فقاموا
لوا واشتغلوا بالتسبيح والتقديس والدعاء وكانوا من أشراف الروم وكانوا ثمانية نفر فبكوا
ضرعوا وجعلوا يقولون ربنا رب السموات والأرض لن ندعو امن دونه إلها لقد قلنا إذا شططا ربنا
شف عن عبادك المؤمنين الفتنة وارفع عنهم هذا البلاء وانعم على عبادك الذين آمنوا بك فبينما هم على
إذ أدركهم الشرط وكانوا قد دخلوا فى مصلى لهم فوجدوهم سجودا على وجوههم يبكون ويتضرعون
الله تعالى ويسألونه أن ينجيهم من دقيانوس وفتنته فلما رآهم أولئك الكفرة قالوا لهم ما خالفكم عن أمر
ك انطلقوا إليه ثم خرجوا من عندهم ورفعوا أمرهم إلى دقيانوس فقالوا نجمع الجميع وهؤلاء الفتية من
يتك يسخرون منك ويعصونك فلما سمع ذلك أتى بهم تفيض اعينهم من الدمع مغفرة وجوههم فى
اب فقال ما منعكم أن تشهدوا الذبح الآلهة التى نعبدها فى الأرض وأن تجعلوا أنفسكم كغيركم ثم إنهم
وا إما أن يذبحوا لآلهتهم كما ذبح غيرهم من الناس وإما أن يقتلهم الملك فقال مكسلمينا وكان اكبرهم
نا إلها ملا السموات والأرض عظمة لن ندعو امن دونه إلها أبدا ولن نقر بهذا الذى تدعون إليه أبدا
أن نعبد ربنا الذى له التحميد والتكبير والتسبيح والتقديس من أنفسنا خالصا أبدا إياه نعبد وإياه
ل النجاة والخير واما الطواغيث فلن نعبدها أبدا فاصنع بنا ما بدا لك ثم قال مكسلمينا لدقيانوس
ما قال له قالوا فلما قالوا له ذلك أمر بهم فنزع ملبوسا كان عليهم من ملبوس عظمائهم ثم قال لهم إنكم إذا
ما فعلتم فإنى سأؤخركم واتفرغ لكم فأجز لكم ما اوعدتكم من العقوبة وما ينبغى ان اعجل لكم ذلك
ارا كم شبابا حديثة اسنانكم فلا احب أن اهلككم حتى اجعل لكم اجلا فتراجعوا فيه عقولكم ثم أمر
ة كانت معهم من ذهب وفضة فنزعت عنهم ثم أمر بهم فأخرجوا من عنده وانطلق دقيانوس إلى
ة سوى مدينتهم التى هم بها قرية منهم لبعض امور ه فلما رأى الفتية أن دقيانوس قد خرج من مدينتهم
واقدومه وخافوا إذا قدم مدينتهم أن يذكرهم فاتمروا أن يأخذ كل رجل منهم نفقة من بيت أبيه
صدقوا منها ويتزودوا بما بقى ثم ينطلقوا إلى كهف قريب من المدينة فى جبل يقال له ناجلوس فيسكنون
يعبدون الله تعالى حتى إذا قدم دقيانوس أتوه فقاموا بين يديه فيصنع بهم ما يشاء فلما قال ذلك بعضهم
ن عمد كل منهم إلى بيت أبيه واخذ نفقته فتصدقوا منها وانطلقوا بما بقى معهم من نفقتهم واتبعهم
كان لا حدهم حتى اتوا ذلك الكهف فلبثوا فيه * وقال ابن عباس هربوا ليلا من دقيانوس وكانوا
ة فروا براع معه كلب على دينهم وقال كعب مروا بكلب فتبعهم فطردوه فنبح عليهم ففعلوا ذلك
را فقال لهم الكلب ما تريدون منى لا تخشوا جانبى فإنى احب احباب الله فناموا حتى احرسكم.
عنا إلى حديث ابن إسحق فلبثوا فى ذلك الكهف ليس لهم عمل إلا الصلاة والصيام والتسبيح وجعلوا
هم إلى فتى يقال له تمليخا فكان يبتاع لهم من المدينة طعاما سرا وكان من اجلدهم واجلهم فكان تمليخا
مع ذلك فإذا دخل المدينة يضع ثيابا كانت عليه حسانا ويأخذ ثيابا فيأت المساكين الذين يستطيعون
ثم يأخذ درهما فينطلق إلى المدينة فيشترى طعاما وشرابا ويستمع ويتجسس لهم الخبر هل يذكرونهم
منهم يرجع إلى أصحابه فلبثوا كذلك ما لبثوا ثم قدم دقيانوس المدينة فأمر العظماء فذبحوا
اغيث فجزع من ذلك اهل الإيمان وكان تمليخا بالمدينة يشترى طعاما فرجع إلى اصحابه يبكى ومعه

ابن زائدة أسارى فعرضهم
على السيف فقام إليه رجل
منهم وقال ايها الأمير نحن
أثراك ونحن والله جياع من
أثر الطريق فإن رأيت أن
تطعمنا فقى كل كبد حراء
اجر فأمر باطعامهم
فاحضرت الموائد وعليها
الطعام واجتمعوا واكلوا
ومعن ينظر إليهم فلما فرغوا
قام رجل آخر وقال ايها
الأمير كنا أسراك وقد صرنا
اضيافك فانظر ماذا يصنع
مثلك بأضيافه فخلى عن
سبيلهم وانعم عليهم عفا
الله تعالى عنه وعن جميع
المسلمين وعرض على الحجاج
أسرى فأمر بقتلهم فقتل منهم
جماعة ثم قال رجل منهم
وقد عرض على القتل
لا جزاك الله على السنة خيرا
يا حجاج وإن كنا قد أسأنا
فى الذنوب فوالله ما احسنت
فى العفو فإن الله تعالى يقول
فى كتابه العزيز فإذا لقيتم
الذين كفروا فضرب الرقاب
حتى إذا أثخنتموهم فشدوا
الوثاق فأما منا بعد واما فداء
فهذا قوله فى الكفار فكيف
فى المسلمين وقال الشاعر :

وما تقتل الأسرى ولكن نكفهم
إذا ثقل الأعناق حمل القلائد

فقال الحجاج تبا لهؤلاء
الجيف والله لو قالوا مثل
ما قال هذا الرجل ما قتلت
منهم احدا ولكن اطلقوا
سبيلهم *

(ولما) ولى الحجاج

طعام فاخبرهم أن دقيانوس دخل المدينة وإنهم قد ذكروا والتمسوا مع عظماء المدينة ل
للطواغيت فلما اخبرهم بذلك فزعوا ووقعوا سجدا يدعون الله تعالى ويتضرعون إليه ويتعوذ
من الفتنة ثم أن تمليخا قال لهم يا إخوتاه ارفعوا رؤسكم فاطعموا منه وتوكلوا على ربكم فرفعوا ر
واعينهم تفيض من الدمع حزنا على أنفسهم فطعموا منه وذلك وقت غروب الشمس ثم جلسوا يتحد
ويتدارسون ويذكر بعضهم بعضا فبينماهم كذلك إذ ضرب الله على آذانهم في الكهف وكلبهم
ذراعيه بالوسيط بباب الكهف فأصابه ما اصابهم فلما كان من الغد تفقدهم دقيانوس والتمس
يجدهم فقال لبعض قومه لقد ساءني شأن هؤلاء الفتية الذين ذهبوا لقد كانوا يحسبون أني غضبان
بجهلهم ما جهلوا من أمري فإني لا أغضب عليهم إن تابوا وعبدوا آلهتي فقال عظماء المدينة ما
بحقيق أن ترحم قوما مردة عصوك مقيمين على ظلمهم ومعصيتهم قد كنت أجلت لهم أجلا ولو
لرجعوا في ذلك الأجل ولكنهم لم يتوبوا فلما قالوا له ذلك غضب غضبا شديدا ثم أرسل إلى آ
فسالهم عنهم وقال اخبروني عن أبنائكم المردة الذين عصوني فقالوا له أما نحن فلم نعصك ولم تقتلنا
مردة وإنهم خالفونا وانطلقوا إلى جبلة يسمى ناجلوس فلما قالوا له ذلك خلى سبيلهم وجعل لا
ما يصنع بالفتية فألقى الله في نفسه أن يأمر بالكهف فيسد عليهم وأراد الله تعالى أن يكرمهم ويجعلهم
لأمة تستخلف بعدهم وأن يبين لهم أن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور فأمر دقيا
بالكهف أن يسد عليهم وقال دعوهم كما هم في الكهف يموتون جوعا وعطشا وليكن كهفهم
اختاروه قبرا لهم وهو يظن أنهم أيقاظ يعلمون ما يصنع وقد توفى الله أرواحهم وفاة النوم وكلبهم
ذراعيه بالوصيد بباب الكهف وقد غشيهم ما غشيهم يقلبون ذات اليمين وذات الشمال وقال ثم إن
مؤمنين وكانا في بيت الملك دقيانوس يكتمان إيمانهما إسم أحدهما تندروس والآخر روباس ائتم
يكتبا شأن الفتية وانسابهم واسمائهم وخبرهم في لوح من رصاص ويجعلاه في تابوت من نحاس و
في البنيان وقالا لعل الله أن يطلع على هؤلاء الفتية قوما مؤمنين قبل يوم القيامة فيعلم من فتح عليهم
حين يقرأ هذا اللوح ففعلا ذلك وبنيا عليه فبقي دقيانوس ما بقي ومات قومه ومات قرون بعده
وخلقت الملوك بعد الملوك ثم أن ملك أهل تلك البلاد رجل صالح يقال له تندوسيس فلما ملك بقي في
ثمانية وثمانين سنة فتحزب الناس في ملكه أحزابا منهم من يؤمن بالله العظيم ويعلم أن الساعة حق
من يكذب بها فكبر ذلك على الملك الصالح فشكا إلى الله وتضرع إليه وحزن حزنا شديدا لما رأى
الباطل يزيدون ويظهرون على أهل الحق وإنهم يقولون لا حياة إلا الحياة الدنيا وإنما تبعث الأ
ولا تبعث الأجساد فيأكلها التراب ونسوا ما في الكتاب فجعل الملك تندوسيس يرسل إلى ما كان
فيه خيرا وإنهم كانوا أئمة في الحق فجعلوا يكذبون بالساعة حتى كادوا أن يحولوا الناس عن الحق
الحواريين فلما رأى الملك الصالح ذلك دخل بيته فأغلقه عليه ولبس مسحا وجعل تحته رمادا
ليله ونهاره يتضرع إلى الله تعالى ويبكي مما يرى فيه الناس ويقول أي رب قد ترى اختلاف هؤلاء
لهم آية أن الرحمن الرحيم عز وجل الذي يكره اختلاف العباد أراد أن يظهر لهم الفتية أصحاب الك
ويبين للناس شأنهم فيجعلهم آية وحجة عليهم ويعلم أن الساعة آتية لا ريب فيها وأنه يستجيب
الصالح تندوسيس وأنه يتم نعمته عليه ولا ينزع منه ملكه ولا الإيمان الذي أعطاه وأن لا يعبد إ
ولا يشرك به شيئا وأن يجمع من كان تبدد من المؤمنين فألقى الله في نفس رجل من أهل ذلك البلد
به الكهف وكان إسم ذلك الرجل اولياس أن يهدم ذلك البنيان الذي على فم الكهف فيبني به حظ
لغنمه فاستأجر عاملين فجعلا ينزعان تلك الحجارة ويبنيان تلك الحظيرة حتى نزعا ما على فم الك
وفتحا عليه باب الكهف وحجبهم الله عن الناس فيزعمون أن أشجع من يريد أن ينظر إليهم فدخل
باب الكهف ثم يتقدم حتى يرى كلبهم نائما فلما نزعت الحجارة وفتح باب الكهف أذن الله تعالى ذو القـ

على بالمرأة الحرورية فلما حضرت قال لها أنت بالأمس في وقعة ابن الزبير كنت تحرضين الناس على قتل رجالي ونهب أموالي فقالت المرأة نعم قد كان ذلك فالتفت الحجاج إلى وزرائه وقال ما ترون فيها قالوا عجل بقتلها فضحكت المرأة فاغتاظ الحجاج وقال لها على من تضحكين قالت من وزرائك فإن وزراء فرعون كانوا خيرا منهم فنظر الحجاج إلى وزرائه فرآهم خجلوا فقال لها كيف ذلك فقالت لأنهم قالوا ارجئه واخاه حين استشارهم في قتل موسى وهؤلاء يستعجلونك في قتلي قال فضحك الحجاج وأمر لها بعطاء واطلقها ولم يشوش عليها .

(وحضر الهرمزان الفارسي) بين يدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه مأسورا فدعاه عمر إلى الإسلام فأبى فأمر بقتله فقال يا أمير المؤمنين قبل أن تقتلني اسقني شربة ماء ولا تقتلني ظمآن فأمر بقدح من ماء فلما صار القدح بين يدي الهرمزان قال أنا آمن حتى اشرب هذا القدح يا أمير المؤمنين قال نعم لك الأمان حتى تشرب هذا الماء فالقى الإناء من يده فاراقه على الأرض ثم قال الوفاء الوفاء يا أمير المؤمنين فقال عمر دعوه حتى ننظر في أمره فلما وضع السيف عنه

والعظ

فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فقال له عمر لقد اسلمت خير الإسلام فما أخرك قال خشيت أن يقال عني إني أسلمت خوفاً من السيف فقال عمر لقد استحق بها ما كان فيه الملك ثم أن عمر بعد ذلك كان يشاوره في إخراج الجيوش ويعمل برأيه رضي الله عنهم اجمعين

(وقيل) سرق شاب سرقة فأتى به إلى المأمون فأمر بقطع يده فربطت لتقطع فأنشد يقول :

يدي يا امير المؤمنين اعيذها
بعفوك من عار عليها يشينها
فلا خير في الدنيا ولا في نعيمها
إذا ما شمال فارقتها يمينها

قال وكانت ام الشاب واقفة على رأسه فانكبت عليه وبكت وقالت يا امير المؤمنين ولدي وواحدي ناشدتك الله إلا رحمت قلبي وأزلت روعتي بالعفو عمن استحق العقوبة فقال المأمون هذا حد من حدود الله تعالى فقالت يا امير المؤمنين اجعل عفوك عن ولدي ذنباً من الذنوب التي تستغفر الله منها قال فرق المأمون لها وعفا عن ولدها واطلق سبيله عفا الله عنه .

(وعن عبد الملك بن مروان) أنه أتى برجل من بني مخزوم وكان من اصحاب ابن الزبير فلما حضر بين يدي

والسلطان محي الموتى للفتية أن يجلسوا بين ظهراني الكهف فجلسوا فرحين مسفرة وجوههم نفسهم فسلم بعضهم على بعض حتى كأنما استيقظوا من ساعتهم التي كانوا يستيقظون منها إذا وا من ليلتهم التي يبيتون بها ثم إنهم قاموا إلى الصلاة فصلوا كالذي كانوا يفعلون لا يرون في هم ولا أبشارهم ولا ألوانهم شيئاً ينكرونه إنما هم كهيئتهم حين رقدوا يرون أن ملكهم دقيانوس هم فلما قضوا صلاتهم قالوا لتمليخا صاحب نفقاتهم بين لنا ما الذي قال الناس في شأننا عشية أمس ذا الجبار وهم يظنون انهم رقدوا كبعض ما كانوا يرقدون وقد خيل لهم انهم قد قاموا كأطول وا ينامون في الليلة التي اصبحوا بها حتى تساءلوا بينهم فقال بعضهم لبعض كم لبثتم قالوا لبثنا يوم ض يوم قالوا ربكم اعلم بما لبثتم وكل ذلك في انفسهم يسير فقال لهم تمليخا التمستم في المدينة لتذبحوا غيت أو تقتلوا قالوا فما شاء الله بعد ذلك فعل فقال مكسلمينا يا إخوتاه اعلموا أنكم ملاقوا الله كفروا بعد إيمانكم إذا دعاكم غداً ثم قالوا يا تمليخا انطلق إلى المدينة فتسمع ما يقال عنا بها اليوم ف ولا يشعرن بك أحد وابتع لنا طعاماً وائتنا به وزدنا على الطعام الذي جئتنا به أمس فإنه كان وقد اصبحنا جياعاً فافعل تمليخا كما كان يفعل ووضع ثيابه واخذ الثياب التي كان يتنكر فيها ثم ورقاً من نفقتهم التي كانت معهم التي ضربت بطابع دقيانوس وكانت كخفاف الربع فانطلق ا خارجاً فلما مر بباب الكهف رأى حجارة منزوعة عن باب الكهف فتعجب منها ثم مر حتى أتى المدينة مستخفياً بعيداً عن الطريق تخوفاً أن يراه أحداً من أهلها فيعرفه فيذهب به إلى دقيانوس ر ولا يشعر العبد الصالح أن دقيانوس واهله قد هلكوا قبل ذلك بثلثمائة سنة فلما رأى تمليخا باب ة رفع بصره فرأى فوق ظهر الباب علامة لأهل الإيمان فلما رآها عجب وجعل ينظر إليها مستخفياً يميناً وشمالاً ثم إنه ترك ذلك الباب وتحول إلى باب آخر من ابوابها فنظر فرأى مثل ذلك فجعل يتخيل لمدينة ليست بالتي كان يعرف ورأى ناساً كثيراً محدثين لم يكونوا قبل ذلك فجعل يمشي ويتعجب إليه أنه حيران ثم إنه رجع إلى الباب الذي أتى منه فجعل يتعجب بينه وبين نفسه ويقول ليت ي اما هذه عشية امس كان المسلمون يخفون هذه العلامة ويستخفون بها واما اليوم فإنها ظاهرة لم ثم يرى أنه لم ينم فأخذ كساءه وجعله على رأسه ثم دخل المدينة فجعل يمشي بين اظهر اهل سوقها سمع ناساً يحلفون باسم عيسى بن مريم فزاد فرقاً ورأى أنه حيران فقام مسنداً ظهره إلى جدران ة وهو يقول في نفسه والله ما أدري ما هذا أما عشية امس فليس على الأرض احد يذكر عيسى إلا أما الغداة فأسمع كل إنسان يذكر عيسى ولا يخاف ثم قال في نفسه لعل هذه ليست بالمدينة التي اعرفها سمع كلام اهلها ولا اعرف واحداً منهم والله ما اعلم مدينة بقرب مدينتنا فقام كالحيران لا يتوجه ثم إنه لقي فتى من اهل المدينة فقال له ما إسم هذه المدينة يا فتى فقال افسوس فقال في نفسه لعل بي مساً ر أذهب عقلي والله يحق لي أن أبادر بالخروج منها قبل أن يصيبني شر فاهلك هذا ما يحدث به تمليخا به حتى يبين لهم ما هم فيه ثم أفاق وقال لو عجلت الخروج من المدينة قبل أن يفطن بي لكان اكيس نا من الذين يبيعون الطعام ثم اخرج الورق التي كانت معه فاعطاها رجلا منهم وقال يا عبد الله له طعاماً فأخذها الرجل ونظر إلى ضرب الورق ونقشها فتعجب منها ثم طرحها إلى رجل صحابه فنظر إليها ثم جعلوا يتطارحونها بينهم من رجل إلى رجل فيتعجبون منها ثم جعلوا رون ويقولون بعضهم لبعض أن هذا الرجل قد اصاب كنزاً في الأرض منذ زمان طويل فلما يتشاورون من أجله فرق فرقاً شديداً فجعل يرتعد ويظن أنهم قد فطنوا به وعرفوه وإنهم إنما ون أن يذهبوا به إلى ملكهم دقيانوس فتحير في نفسه وليس يدري ما يقول لهم وما يرجع إليهم ق حتى ما يخرجهم بشيء فلما رأوه لا يتكلم أخذوا كساءه وطوقوه في عنقه ثم جعلوا يقودونه في المدينة مكبلا حتى سمع به من فيها وقيل اخذ رجل عنده كنز فاجتمع عليه اهل المدينة كبيرهم

وصغيرهم وجعلوا ينظرون إليه ويقولون والله ما هذا الفتى من أهل هذه المدينة وما رأيناه فيها قط ونعرفه فجعل تمليخا ما يدرى ما يقول لهم مع مايسمع منهم فلما اجتمع عليه أهل المدينة فرق ولم يتكلم ولو قال أنه من اهل تلك المدينة لم يصدق وكان مستيقنا أن أباه وإخوته فى المدينة وأن حسبه فى اهل المدينة من عظماء أهلها وإنهم سيأتون إذا سمعوا وقد استيقن أنه عشية أمس كان يعرف كثيرا من أهلها وإنه لا يعرف اليوم من اهلها أحدا فبينما هو قائم كالحيران ينتظر متى يأتيه بعض اهله فيخلصه من أيديهم فبينما هو كذلك إذ قد اختطفوه وانطلقوا به إلى رئيس المدينة ومدبريها وهما رجلان صالحان إسم أحدهما ارموس واسم الآخر اسطيوس فلما انطلقوا به ظن تمليخا إنهم انطلقوا به إلى دقيانوس الملك فجعل يلتفت يمينا وشمالا وجعل الناس يسخرون منه كما يسخرون من المجنون والحيران فجعل تمليخا يبكى ثم رفع رأسه إلى السماء وقال اللهم إله السموات والأرض افرغ على اليوم صبراً وأولج معى روحا منك تؤيدنى به عند هذا الجبار وجعل يبكى ويقول فى نفسه فرق بينى وبين إخوتى بأيتهم يعلمون ما لقيت فيأتون فنقوم جميعا لله بين يدى هذا الجبار فإنا قد توافقنا لنكونن معا لا نكفر بالله ولا نفترق فى موت ولا حياة أبدا ياليت شعرى ماهو فاعل بى هل هو قاتلى أم لا * هذا ماحدث به تمليخا اصحابه عن نفسه حين رجع إليهم فانتهى إلى الرجلين الصالحين ارموس واسطيوس فلما علم تمليخا إنه لم يذهب به إلى دقيانوس أفاق وسكن ما به فاخذ ارميوس واسطيوس الورق ونظر إليها وعجبا منها ثم قال أحدهما أين الكنز الذى وجدت يا فتى فقال ما وجدت كنزا وإنما هذه الورق ورق آبائى ونقش هذه المدينة وضربها ولكن والله ما أدرى ما شأنى وما أدرى ما اقول لكم فقال احدهما من أنت فقال له تمليخا قال فمن أبوك ومن يعرفك بها فأنبأهم باسم أبيه فلم يجدوا أحدا يعرفه فقال له أحدهما أنت رجل كذاب لاتنبئنا بالحق فلم يدر تمليخا ما يقول غير أنه نكس بصره إلى الأرض فقام احدهم ونظر إليه نظرا شديدا وقال له أتظن أنا نرسلك ونصدقك بأن مال هذا مال أبيك ولضرب هذا الورق ونقشها أكثر من ثلثمائة سنة وأنت غلام شاب تظن أن تأفكنا وتسخر بنا ونحن شمط كما ترى وحولك سراة هذه المدينة وولاة أمرها وخزائن هذه البلدة بأيدينا وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار ولأعذبنك عذابا شديدا ثم أوثقك حتى تعرفنى هذا الكنز الذى وجدت فلما قال له ذلك قال له تمليخا انبئونى عن شىء اسألكم عنه فإن فعلتم صدقتكم عندى فقالوا سل لا نكتمك شيئا قالوا ما فعل بالملك دقيانوس قالوا ليس نعرف اليوم على وجه الأرض ملكا يسمى دقيانوس ولم يكن إلا ملك قد هلك منذ دهر طويل وهلك بعده قرون كثيرة فقال له تمليخا فوالله ما أجد من الناس أحدا يصدقنى على ما أقول لقد كنا فتية وإن الملك دقيانوس كرهنا على عبادة الأصنام أو الذبح للطواغيت فهربنا منه عشية أمس فبتنا فلما انتبهنا خرجت لأشترى لأصحابى طعاما واتجسس الأخبار فإذا أنا كما ترون فانطلقوا معى إلى الكهف الذى فى جبل ناجلوس اريكم أصحابى فلما سمع ارموس ما يقول تمليخا قال يا قوم لعل هذه آية من آيات الله جعلها الله لكم عبرة على يد هذا الفتى فانطلقوا بنا معه يرينا أصحابه فانطلق معه ارموس واسطيوس وانطلق معهم أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم نحو اصحاب الكهف لينظروا إليهم وكان الفتية اصحاب الكهف ظنوا أن تمليخا قد احتبس عنهم لأنه لم يأتهم بطعامهم وشرابهم فى القدر الذى كان يأتى فيه فظنوا إنه قد أخذ وذهب به إلى دقيانوس فبينما هم يظنون ذلك ويتخوفون فسمعوا الأصوات وجلبة الخيل مصعدة عندهم فظنوا أنهم رسل الجبار وإنه بعث إليهم ليأتوا بهم فقاموا حين سمعوا ذلك إلى الفلاة وسلم بعضهم على بعض ثم قالوا انطلقوا بنا فأت أخانا تمليخا فإنه الآن بين يدى دقيانوس وينتظر متى نأتيه فبينما هم يقولون

عبد الملك قال أليس قد ردك الله إلى بئس المرد ورجع بك إلى سوء المرجع فقال له الرجل يا امير المؤمنين إن الله ردنى إلى بئس مرد ورجع بى إلى سوء مرجع فأنت اخبر بنفسك فقال عبد الملك اطلقوه وأمر له بجائزة وانعم عليه رضى الله عنه .

(وقيل) كان يزيد بن المهلب والياً على خراسان وكان حسن الوجه جميل الصورة فمكث مدة وانصرف عنها وتولى مكانه قتيبة بن مسلم فقال فيه بعض الشعراء كانت خرسان رضا إذ يريد بها وكل باب من الخيرات مفتوح فبدلت بعده قردا يطوف بها كأنما وجهه بالخل منضوح فبلغ ذلك قتيبة فطلبه فهرب الشاعر منه ومضى إلى أم قتيبة فأخذ منها كتاباً بالوصية وقدم إلى قتيبة فلما دخل عليه قال يا ولدى بأى وجه تلقانى قال بالوجه الذى ألقى به ربى فإن إحسانه لى أكثر من إحسانك لى ومخالفتى له أكثر من مخالفتى لك قال فضحك قتيبة وترك سبيله وعفا عنه .

(واشرف المأمون يوماً من قصره) فرأى رجلا قائماً ومعه لحمة يكتب بها على حائط القصر فقال لأحد غلمانه انزل إلى ذلك الرجل وامسك يده واقرأ ما كتبه فقرأه فإذا هو هذا الشعر :

يا قصر جمع فيك اللؤم والشؤم

ذلك وهم جلوس بين ظهرانى الكهف ولم يشعروا إلا وارموس واصحابه وقوف على باب الكهف وقد سبقهم تمليخا فدخل عليهم وهو يبكى بكوا معه ثم إنهم سألوه عن شأنه فأخبرهم بخبره وقص عليهم الحديث كله فعرفوا عند ذلك إنهم كانوا نياما بأمر الله ذلك الزمان كله وإنما أوقظوا ليكونوا آية للناس وتصديقا للبعث وليعلموا أن الساعة آتية لاريب فيها ثم دخل على أثر تمليخا ارموس فرأى تابوتا من نحاس مختوما بخاتم من فضة فقام بباب الكهف ثم دعا رجالا من عظماء أهل المدينة ففتح التابوت فوجدوا فيه لوحين من رصاص مكتوبا فيهما أن مكسلمينا وتمليخا ومرطونس وكشطوتس وداسيوس ونكريوس وبطيونس كانوا فتية هربوا من ملكهم دقيانوس الجبار مخافة أن يفتنهم فدخلوا الكهف فلما علم ملكهم أمر بالكهف فسد عليهم بالحجارة وإنا كتبنا شأنهم وخبرهم ليعلم من بعدهم إن عثروا عليهم فلما قرؤوا عجبوا وحمدوا الله تعالى الذى أراهم آية البعث فيهم ثم رفعوا أصواتهم بحمد الله وتسبيحه ثم دخلوا على الفتية فى الكهف فوجدوهم جلوسا مشرفة وجوههم لم تبل ثيابهم فخر ارموس واصحابه سجودا وحمدوا الله الذى أراهم آية من آياته ثم كلم بعضهم بعضا وانبأهم الفتية عن الذى لقوا من ملكهم دقيانوس ثم أن ارموس واصحابه بعثوا إلى ملكهم الصالح تندوسيس أن عجل لعلك تنظر آية من آيات الله تعالى قد أظهرها الله فى ملكك فاعجل إلى فتية بعثهم الله وقد كان توفاهم منذ أكثر من ثلثمائة سنة فلما أتى الخبر قام من السدة التى كان عليهم وقال أحمدك اللهم رب السموات والارض تطولت على ورحمتنى برحمتك فلم تطفىء النور الذى جعلته لآبائى وللعبد الصالح نسطيطوس الملك فلما نبأ به أهل المدينة ركبوا إليه وساروا معه حتى أتوا الكهف فلما رأى الفتية تندوسيس الملك ومن معه فرحوا به وخروا سجدا لله على وجوههم وقام تندوسيس قدامهم ثم اعتنقهم وبكى وهم جلوس بين يديه على الارض يسبحون الله ويحمدونه ثم أن الفتية قالت لتندوسيس نستودعك الله ونقرأ عليك السلام وحفظك الله وحفظ ملكك وأعاذك من شر الجن والإنس فبينما الملك نائم إذ رجعوا إلى مضاجعهم فناموا وتوفى الله أرواحهم وقام الملك إليهم فجعل ثيابهم عليهم وأمر بجعل لكل رجل منهم تابوت من ذهب فلما أمسوا أتوه فى المنام فقالوا إنا لم نخلق من ذهب ولا فضة ولكنا خلقنا من تراب وإلى التراب نصير فاتركنا كما كنا فى الكهف على التراب حتى يبعثنا الله منه فامر الملك حينئذ بتوابيت من ساج فجعلوا فيها وحجبهم الله حين خرجوا من عندهم بالرعب فلم يقدر أحد أن يدخل عليهم وأمر الملك فجعل على باب الكهف مسجدا يصلى فيه وجعل لهم عيدا عظيما وأمر أن يؤتى كل سنة وقيل إنهم لما أتوا باب الكهف قال تمليخا دعونى أدخل على اصحابى فأبشرهم فدخل وقبض الله روحه وأرواحهم عمى عليهم مكانهم فلم يهتدوا إليه كما ذكر على بن أبى طالب كرم الله وجهه فهذا خبر أصحاب الكهف ويروى أن النبى ﷺ سأل ربه أن يراهم فقال إنك لن تراهم فى دار الدنيا ولكن ابعث إليهم أربعة من خيار اصحابك ليبلغوهم رسالتك ويدعوهم إلى الإيمان بك فقال رسول الله ﷺ لجبريل كيف ابعثهم قال ابسط نساءك واجلس على طرف من أطرافه أبا بكر وعلى الثانى عمر وعلى الثالث على بن أبى طالب كرم الله وجهه وعلى الرابع أباذر ثم ادع الريح الرخاء المسخرة لسليمان بن داود فان الله أمرها ان تطيعك ففعل النبى عليه الصلاة والسلام ما أمره به فحملتهم الريح حتى انطلقت بهم إلى باب الكهف فلما دنوا من باب الكهف قلعوا منه حجرا فقام الكلب حين أبصر الضوء وهز وحمل عليهم فلما رآهم حرك رأسه ويصبض بذنبه وأومأ برأسه أن ادخلوا الكهف فدخلوا وقالوا السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فرد الله عليهم أرواحهم فقاموا

فقال المامون يا غلام اعطه ألف دينار ثم قال هى لك فى كل سنة ما دام قصرنا عامرا

متى يعشش فى اركانك اليوم
ويوم يعشش فيك البوم من نوحى
أكون أول من يرعاك مرغوم

فقال له أجب امير المؤمنين فقال له الرجل سألتك بالله يا غلام لا تذهب بى إليه فقال له الغلام رآك من القصر فأخذه وأوقفه بين يدى امير المؤمنين وقال وجدته كتب كذا وكذا فقال المأمون ويلك ما حملك على هذا فقال يا امير المؤمنين إنه لم يخف عنك ما حواه قصرك من خزائن الأموال والحلى والحلل والطعام والشراب والأسعة والفرش والجوارى والخدم فرت عليه وأنا فى غاية من الجوع والفاقة فوقفت مفكرا فى أمرى وقلت فى نفسى هذا القصر عامر عال وأنا جائع ولا فائدة لى فيه فلو كان خرابا ومررت به لم أعدم منه رخامة أو خشبة أو مسمارا أبيعه واقتوت بثمنه أو ما علم أمير المؤمنين ما قال الشاعر :

إذا لم يكن للمرء فى دولة امرىء
نصيب ولا حظ تمنى زوالها
وما ذاك من بغض لهـا غير أنه
يرجى سواها فهوى يهوى انتقالها

(وأنشد فى المعنى)

إذا كنت فى أمر فكن فيه محسنا
فما قليل أنت ماض وتاركه
فكم دحت الأيام أرباب دولة
وقد ملكوا أضعاف ما أنت مالكه

(وروى عن موسى ابن عمران صلوات الله عليه) إنه خرج يوما نحو الطور وإذا هو برجل واقف على الطريق فقال له إلى أين يا نبى الله قال إلى المناجاة فقال لى إليك حاجة قال فما هى قال قل له يكرمنى بقدر حبة من عجته فلما وقف موسى عليه السلام للمناجاة نسى الرسالة من حلاوة المناجاة فناداه ربه يا موسى نسيت حاجة عبدى قال يا رب أنت اعلم بما قال عبدك قال نعم ولكن الرسالة حقها أن تؤدى ومن لم يؤد الرسالة فقد خان وأنا لا احب الخائنين يا موسى قد وهبت له جميع ما أراد فرجع موسى فلم يجده فى مكانه فقال إلهى وسيدى أين ذهب الرجل صاحب الحاجة فقال يا موسى هرب منك قال لم قال من أحبنا لا يلتفت إلى غيرنا فان أردت أن تراه يا موسى فادخل هذه الغيضة قال فدخل ونظر فاذا أسد يأكله فقال إلهى ما هذا فقال هذا صنعتى بأحبابى فى دار الفناء انظر يا موسى إلى دار البقاء فنظر فاذا بقبة من ياقوتة حمراء مثل الدنيا ثلاث مرات فقال يا موسى هذه له وأنا له

بأجمعهم وقالوا وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته فقالوا إن نبى الله محمد بن عبد الله ﷺ يقرأ عليكم السلام فقالوا وعلى محمد رسول الله السلام ما دامت السموات والأرض وعليكم بما بلغتم ثم إنهم جلسوا بأجمعهم يتحدثون فآمنوا بمحمد ﷺ وقبلوا دين الإسلام وقالوا اقرؤا محمدا ﷺ منا السلام ثم إنهم أخذوا مضاجعهم وصاروا إلى رقدتهم إلى آخر الزمان عند خروج المهدى فيقال أن المهدى يسلم عليهم فيحييهم الله تعالى له ثم أنهم يرجعون إلى رقدتهم فلا يقومون إلى يوم القيامه ثم جلس كل منهم على مكانه وحملتهم الريح الرخاء فهبط جبريل عليه السلام فأخبر النبى ﷺ بما كان منهم فلما أتوا النبى ﷺ قال كيف وجدتموهم وما الذى أجابوكم فقالوا يارسول الله دخلنا عليهم وسلمنا عليهم فقاموا فردوا السلام بأجمعهم وبلغناهم رسالتك فأجابوا وآمنوا بك وشهدوا إنك رسول الله حقا وحمدوا الله على ما أكرمهم بخروجك وتوجيه رسلك إليهم وهم يقرؤن عليك السلام فقال عليه الصلاة والسلام اللهم لا تفرق بينى وبين اصهارى واحبائى واغفر لمن أحبنى واحب اهل بيتى واحب امتى واصحابى.

(مجلس فى ذكر جرجيس عليه السلام)

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الضبى باسناده عن وهب بن منبه اليمانى قال كان فى الموصل ملك يقال له زادانه وكان قد ملك الشام كلها ودان له أهلها وكان جبارا عاتيا وكان يعبد صنما يقال له افلون وكان جرجيس عبدا صالحا من اهل فلسطين قد أدرك بقايا من حوارى عيسى ابن مريم عليه السلام وكان تاجر كثير المال عظيم الصدقة وكان لا يأمن المشركين عليه مخافة أن يفتنوه عن دينه فخرج يوما يريد ملك الموصل ومعه مال يريد أن يهديه إليه لئلا يجعل لأحد من تلك الملوك سلطانا عليه دونه فجاءه وقد برز فى مجلس له بصنمه افلون فنصب والناس يعرضون عليه وهو يعذب من خالفه بأنواع العذاب وقد أوقد نارا عظيمة فمن لم يسجد لأفلون ألقى فى تلك النار فلما رأى جرجيس عليه السلام ما يصنع قطع منه وهاله واعظمه وحدث نفسه بجهاده وألقى الله فى نفسه بغضه ومجاهدته له فعمد إلى المال الذى أراد أن يهديه له فقسمه فى أهل ملته حتى لم يبق منه شىء وكره أن يجاهده بالمال وأحب أن يلى ذلك بنفسه فأقبل عليه وقال له اعلم إنك عبد مملوك لا تملك لنفسك شيئا ولا لغيرك وأن لك ربا هو الذى يملكك وغيرك وهو الذى خلقك ورزقك ويحييك ويميتك وبضرك وينفعك وإذا قال لشىء كن فيكون وإنك إنما عمدت إلى خلق من خلقه صنم لا يسمع ولا يبصر ولا ينطق ولا يغنى عنك شيئا من الله فزينته بالذهب والفضه وجعلته فتنة للناس ثم عبده من دون الله فكان من جواب الملك له أن سأله عن حاله وأمره ومن هو ومن أين هو فقال جرجيس أنا عبد الله وابن عبده وابن أمته أذل عباده وافقرهم إليه من التراب خلقت وإليه أصير فقال له الملك لو كان ربك الذى تزعم كما تقول لرؤى أثره عليك كما رؤى أثرى على من حولى ومن هو فى طاعتى فأجابه جرجيس بتحميد الله وتعظيم أمره ثم قال له اتعدل طاوقيا الأصم الأبكم الذى لا يغنى عنك شيئا برب العالمين الذى قامت السموات والأرض بأمره أم تعدل طاوقيا وما نال بولايتك فانه عظيم قومك بما نال إلياس من ولاية الله تعالى فان إلياس كان فى بدء أمره آدميا يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق فأكرمه الله تعالى حتى أنبت له الريش وكساه النور فصار إنسيا ملكيا سماويا أرضيا يطير مع الملائكة أم تعدل مخاطيس وما نال بولايتك فانه عظيم قومك بالمسيح بن مريم وما نال بولاية الله تعالى فان الله تعالى فضله على رجال العالمين وجعله وأمه آية للمعتبرين فقال الملك إنك لتحدثنا بشىء ليس لنا به علم فأتتنا بالرجلين اللذين ذكرتهما حتى أنظر إليهما فانى أنكر أن يكون هذا من أمر البشر فقال له جرجيس إنما جاءك الإنكار من قبل العزة بالله تعالى وأما الرجلان فلن تراهما ولن

(وقيل فى هذا المعنى شعر)

طال اشتياقى فهل لى فيكمو طمع
كيف اصطبارى والأحشاء تنقطع
كيف الفرار إلى من لا فرار له
من له القلب للأحباب منقطع
يبكى الديار بدمع هامل هطل
له من الجزع أحباب وما رجعوا

(وقال إبراهيم بن أدهم نفعنا الله به) نزلت مسجدا بالشام وكانت ليلة شاتية فقال لى القيم قم واخرج حتى اغلق الباب فقلت إنى غريب أنيت ههنا فقال الغرباء يسرقون القناديل والحصر وقد حلفت أن لا يبيت فيه أحد ولو كان إبراهيم بن أدهم فقلت أنا إبراهيم بن أدهم فقال كنى ما أنت فيه حتى تكذب ثم قال اخرج وجعل يجرنى من رجلى على وجهى حتى رمانى خارج المسجد بإزاء حمام فرأيت شابا حسن الوجه يوقد النار فى تنور ذلك الحمام فسلمت عليه فلم يرد على السلام حتى فرغ وقال ياهذا إنى أخير وخفت أن أرد بالسلام عليك أكون خائنا فى عملى فلت بكم تعمل كل يوم قال بدرهم ودانق اتقوت بالدانق وانفق الدرهم على أولاد

رياك إلا أن تعمل بعملها فتنزل منازلها فقال له الملك أما نحن فقد أعذرنا إليك وتبين لنا كذبك لأنك فخرت بأمور وعجزت عنهما ولما تأت بتصديقها ثم أن الملك خير جرجيس بين العذاب وبين السجود لاقلولا فقال له جرجيس أنا قول هو الذى رفع السماء ووضع الأرض فقد أصبت ونصحت لى وإلا فاخسأ أيها النجس الملعون فلما سمعها الملك غضب وشتمه وسب إلهه وأمر بخشبة فنصبت له وجعل عليها امشاط الحديد فخدش بها جسده حتى تقطع لحمه وجلده وعروقه ونضح عليه فى خلال ذلك بالخل والخردل فحفظه الله من ذلك الألم والهلاك فلما رأى الملك أن ذلك لم يقتله أمر بست مسامير من حديد فأحميت حتى جعلت ناراً فسمر بها رأسه حتى سال دماغه فحفظ من الألم والهلاك فلما رأى ذلك أنه لم يقتله أمر بحوض من نحاس فأوقد عليه حتى إذا جعله ناراً أمر به فأدخل فى جوفه واطبق عليه فلم يزل فيه حتى برد حره فلما رأى ذلك لم يقتله دعا به فقال له يا جرجيس أما تجد ألم هذا العذاب الذى تعذب به فقال أن ربى الذى أخبرتك به حمل العذاب عنى وصبرنى لأحتج عليك فلما قال له ذلك أيقن بالسر وخافه على نفسه وملكه واجمع رأيه على أن يجلده فى السجن فقال له الملأ من قومك إنك إن تركته طليقاً فى السجن يكلم الناس أوشك أن يميل بهم عليك ولكن مر له بعذاب فى السجن فيشغله عن كلام الناس فأمر به فبطح على وجهه ثم أوتده فى يديه ورجليه أربعة أوتاد من حديد فى كل ركن منها وتد وأمر باسطوانة من رخام فوضعت على ظهره ثم إنه حمل على ملك الاسطوانة ثمانية عشر رجلا فظل يومه ذلك موتداً تحت الحجر فلما أدركه الليل ارسل الله تعالى إليه ملكا وذلك أول ما أبدء الله تعالى بالملائكة وأول ما جاءه الوحى فقلع عنه الحجر ونزع الأوتاد من يديه ورجليه وأطعمه وسقاه وبشره بالنصر فلما اصبح اخرجه من السجن ثم قال الحق بعدوك فجاهده فى الحق جهاده فإن الله يقول لك اصبر وابشر فإنى قد ابتليتك بعدوى هما سبع سنين يعذبك ويقتلك فيهن اربع مرات وفى كل ذلك أرد إليك روحك فإذا كان فى القتلة الرابعة نقلت روحك واوفيتك اجرك فلم يشعروا إلا وقد وقف جرجيس على رؤسهم يدعوهم إلى الله تعالى فقال له الملك يا جرجيس من اخرجك من السجن فقال اخرجنى الذى سلطانه فوق سلطانك فلما قال له ذلك ملىء غيظاً ودعا بأصناف العذاب حتى لم يخل منها شيئاً فلما رآها جرجيس أوجس فى نفسه خيفة وجزعاً ثم أقبل على نفسه يعاتبها بأعلى صوته وهم يسمعون فلما فرغ من عتابه قال لهم الملك مدوه بين خشبتين فمدوه ثم وضعوا سيفاً على مفرق رأسه فنشروه حتى سقط من بين رجليه وصار جزأين ثم عمدوا إلى اجرانه فقطعوها قطعاً ودعوا له سبعة اسود ضارية كانت له فى جب وكانت صنفاً من اصناف عذابه فرموا بجسده إليها فلما هوى نحوها أمرها عز وجل فخضعت برؤسها واعناقها وقامت على براثنها تقيه الألم فظل يومه ذلك ميتاً وكانت أول موتة ماتها فلما أدركه الليل جمع الله جسده الذى قطعوه وضم بعضه إلى بعض حتى سواه ثم رد الله إليه روحه وأرسل الله له ملكا فأخرجه من قعر الجب فأطعمه وسقاه وبشره بالنصر فلما أصبحوا قال له الملك يا جرجيس قال لبيك قال له إن القدرة التى خلق الله بها آدم هى التى اخرجتك من قعر الجب اخرج فالحق بعدوك وجاهده فى الله حتى جهاده ومت موت الصابرين فلم يشعر الملك واصحابه بالآخرون إلا وقد اقبل جرجيس وهم عكوف على عيد لهم قد صنعوه فرحا بموت جرجيس فلما نظروا إلى جرجيس مقبلا قال الملك ما أشبه هذا الرجل بجرجيس فقالوا كأنه هو فقال الملك ليس إلا هو حقاً ألا ترون إلى سكون ريحه وقلة هيبته فقال بل هو أنا فلبئس القوم أنتم قتلتم ومثلتم فأحيانى الله تعالى بقدرته فهلموا إلى الرب العظيم الذى أراكم ما أراكم

فلما قال لهم ذلك أقبل بعضهم على بعض وقالوا ساحر سحر أعينكم فجمعوا له من كان ببلاد الملك من السحرة فلما جاء السحرة قال الملك لكبيرهم اعرض على من كبير سحرك ما يسر عيني فقال ادع لي بثبور من البقر فلما أتى به نفس في إحدى اذنيه فانشقت بإثنتين ثم نفخ في الاذن الأخرى فإذا هو ثوران ثم دعا ببذر فحرث وبذر ونبت الزرع وحصد ثم درس وذرى وطحن وعجن وخبز كل ذلك في ساعة واحدة وهم يرون فقال له الملك هل تقدر أن تمسخ لي جرجيس دابة فقال الساحر أي دابة تطلب أمسخه لك قال كلباً فقال الساحر ادع بقدح من ماء فلما أتى بالقدح نفث فيه الساحر ثم قال للملك اعزم عليه أن يشربه فشربه جرجيس حتى اتى على آخره فلما فرغ منه قال له الساحر ماذا تجد قال ما أجد إلا خيراً كنت قد عطشت فعطف الله لي بهذا الشراب وقواني به عليكم فلما قال ذلك أقبل الساحر على الملك وقال له اعلم أيها الملك إنك لو كنت تقايس رجلا مثلك إذا كنت غلبته ولكنك تقايس جبار السموات والأرض وهو الملك الذي لا يرام وقد كانت امرأة مسكينة من أهل الشام قد سمعت بجرجيس فأتته وقالت له يا جرجيس أنا امرأة مسكينة ولم يكن لي مال إلا ثوران كنت أحرث عليهما فماتا فجئتك لترحمني وتدعو الله أن يحيي لي ثوري فلما سمع كلامها ذرفت عيناه ثم دعا الله أن يحيي لها ثوريها ثم قال إنه اعطاها عصا وقال لها اذهبي إلى ثوريك فاقرعيهما بهذه العصا وقولي لهما احييا بإذن الله تعالى فقالت له يا جرجيس إن ثوري قد ماتا منذ سبعة أيام ومزقتهما السباع وبيني وبينهما ايام فقال لها لولم تجدي منهما إلا شيئاً يسيراً وقرعتيه بالعصا فإنهما يقومان بإذن الله تعالى فانطلقت المرأة بالعصا وقالت كما أمرها فقام الثوران بإذن الله تعالى وعملت عليهما حتى جاءهم الخبر بذلك فلما قال الساحر للملك ما قال قال رجل من اصحاب الملك وكان أعظمهم عند الملك إنكم قد ضيعتم أمر هذا الرجل على السحر وقد عذبتموه فلم يصل إليه عذابكم وقتلتموه فلم يمت فهل رأيتم ساحراً يدرأ عن نفسه الموت أو أحيا ميتاً قط فقالوا إن كلامك لكلام رجل قد صبأ إليه فلعله استهواك إليه فقال آمنت بالله وأشهد إني بريء مما تعبدون فقام إليه الملك واصحابه بالخناجر فقتلوه فلما رأى القوم ذلك اتبع جرجيس أربعة آلاف آمنوا فعمد إليهم الملك فلم يزل يعذبهم بألوان العذاب حتى أفناهم فلما فرغ منهم قال لجرجيس هلا دعوت ربك فأحيا لك أصحابك هؤلاء الذين قتلوا بجريرتك فقال له جرجيس ما خلى بيني وبينهم حتى حانت آجالهم فقال له رجل من عظمائهم يقال له مخليطس أنك زعمت يا جرجيس أن إلهك هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وإني سائلك عنه أمر إن فعلته آمنت بك وصدقتك وكفيتك نحن قوم حولنا أربعة عشر كرسياً وهذه مائدة بيننا عليها أقداح وصحاف من اشجار شتى فادع ربك ينشيء هذه الكراسي والأواني كما بدأها أول مرة تعود خضراء فيعرف كل عود منها أنبوبته وورقه وزهره فقال له جرجيس لقد سألت أمرا عزيزا علي وعليك وإنه على الله لهين فدعا الله عزوجل فما برحوا من مكانهم حتى اخضرت تلك الكراسي والأواني كلها وساخت عروقها وتلبست باللحم وتشعبت وأورقت وازهرت اثمرت فلما نظروا إلى ذلك انتدب لهم مخليطس الذي تمنى عليه ما تمنى فقال أنا أعذب لكم هذا الساحر عذاباً يبطل به كيده ثم إنه عمد إلى نحاس فصنع منه صورة ثور له جرف واسع ثم حشاه نفطاً ورصاصاً وكبريتاً وزرنيخا ثم أدخل جرجيس مع الحشو في جوفها ثم أوقد على هذه الصورة حتى التهب وذاب كل شيء فيها واختلط جرجيس في جوفها فلما مات جرجيس أرسل الله له ريحا عاصفا فملأت السماء سحابا اسود فيه رعد وبرق وصواعق وارسل الله إعصاراً ملأت بلادهم عجاجا وقتاما

حتى

أخرلي في الله مات وتركهم قلت له هل سألت الله في حاجة قط قال نعم منذ عشرين سنة وما قضيت قلت وما هي قال بلغني أن فتى تميز على الزاهدين وفاق على العابدين يقال له إبراهيم ابن أدهم فتمنيت على الله رؤيته وأموت قلت له ابشر يا اخي فقد قضيت حاجتك وما رضي لك بأن آتيك إلا سحباً على وجهي فوثب من مكانه وعانقني وسمعته يقول قضيت حاجتي فاقبضني فوقع ميتاً (شعر)

أبدى شواهده في قلب شاهده
وإني لشاهد فيما يحاكيه
الحمد لله لا بين ولا صلة
هذا بيان لمعنى من معانيه

(وقال عطاء السلمي رضي الله عنه) بعثنا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه في غزاة وكنا أربعة آلاف فحاصرنا قلعة على جبل لا تصل أسلحتنا إليه وفيها مجوس واميرهم امرأة حسناء قال فطلعت على السور فنظرت إلى عسكر الصحابة رضي الله تعالى عنهم فرأيت شاباً مليح من العرب وكان جميلا فارساً شجاعاً يضرب بالسيف ويطعن بالرمح فقالت ياه ياه فقالت لها جاريتها ما بالك قالت إن حصيناً قد فتح فقالت الجارية وكيف ذلك فقالت سترين بعد ساعة

حتى اسود ما بين السماء والأرض فمكثوا أياما متحيرين فى تلك الظلمة لا يفصلون بين الليل والنهار وارسل الله ميكائيل فاحتمل الصورة التى فيها جرجيس حتى إذا أقلها ضرب بها الأرض ففزع من روعها أهل الشام فخروا لوجوههم صاعقين وانكسرت الصورة فخرج منها جرجيس حيا فلما وقف يكلمهم انكشفت الظلمة وأسفر ما بين السماء والأرض ورجعت إليهم أنفسهم فقال له رجل يقال له طوقليا لا ندرى ياجرجيس إن كنت أنت تصنع هذه الأعاجيب أم ربك فإن كان ربك هو الذى يصنع فادعه يحيى لنا موتانا التى فى هذه القبور فإن فيها أمواتا منهم من نعرفه ومنهم من لا نعرفه فقال له جرجيس لقد علمت أن ما يصفح الله عنكم هذا الصفح ويكم هذه الأعاجيب إلا لتكون عليكم حجة فتستوجبوا بها غضبه ثم إنه أمر بالقبور فنبشت وهى عظام ورفات واقبل جرجيس على الدعاء فما برحوا من مكانهم حتى نظروا إلى سبعة عشر إنسانا تسعة رجال وخمس نسوة وثلاث صبية وإذا فيهم شيخ كبير فقال له جرجيس يا شيخ ما إسمك فقال يا جرجيس إسمى توبيل قال متى مت قال فى زمان كذا وكذا فحسبوا فإذا هو قد مات منذ اربعمائة عام فلما نظر الملك وأصحابه إلى ما فعل قالوا ما بقى من اصناف العذاب شىء إلا وقد عذبتموه به إلا الجوع والعطش فعذبوه بهما فعمدوا إلى بيت عجوز كبيرة فقيرة كان لها ابن أعمى أصم أبكم مقعد فحصروه فى بيتها وكانوا لا يوصلون له من عند أحد طعاما ولا شرابا فلما بلغ به الجوع قال للعجوز هل عندك من طعام أو شراب فقالت لا والذى يحلف به ما عهدنا الطعام منذ كذا وكذا وسأخرج التمس لك شيئا فقال لها جرجيس هل تعرفين الله تعالى قالت نعم فقال إياه تعبدين قالت لا فدعاها إلى الله تعالى فصدقته ثم إنها انطلقت تطلب له شيئا وكان فى بيتها دعامة من خشب يابسة تحمل خشب البيت فأقبل على الدعاء فاخضرت تلك الدعامة وأنبتت له كل فاكهة تؤكل أو تعرف حتى كان مما أنبتت اللوبيا والنياز وهو مثل البردى يكون بالشام وظهر للدعامة فرع من فوق البيت أظله من فوقه فأقبلت العجوز وهو فيما شاء يأكل رغدا فلما رأت الذى حدث فى بيتها من بعدها قالت آمنت بالذى أطعمك فى بيت الجوع فادع هذا الرب العظيم أن يشفى إبنى قال لها ادنيه منى فأدنته فبصق فى عينه فأبصر ونفث فى أذنه فسمع فقالت له اطلق لسانه ورجليه رحمك الله فقال لها أخريه فإن له يوما عظيما وكان الملك قد خرج يوما يسير فى مدينته إذ وقع بصره على الشجرة فقال إنى أرى شجرة بمكان ما كنت أعرفها به فقالوا له إن تلك الشجرة نبتت لذلك الساحر الذى أردت أن تعذبه بالجوع فهو فيما شاء يأكل وقد شبع منها واشبع العجوز الكبيرة الفقيرة وشفى لها إبنها فأمر الملك بالبيت فهدم وبالشجرة أن تقطع فلما هموا بقطعها أيبس الله تلك الشجرة وردها كما كانت أول مرة فقال له الملك يا جرجيس هل لك فيما هو خير لى ولك مما نحن فيه ولا أن يقول الناس أنك غلبتنى وقهرتنى لاتبعتك وآمنت بك ولكن اسجد لى ولو سجدة واحدة واذبح لى شاة واحدة ثم إنى افعل ما يسرك فقال له نعم مهما شئت فعلت فأدخلنى على صنمك ففرح الملك بقوله وقام إليه وقبل يديه ورجليه ورأسه وقال أعزم عليك أن لا تظل هذا اليوم ولا تبيت هذه الليلة إلا فى بيتى وعلى فراشى وفى كرامتى حتى تستريح ويذهب عنك وصب العذاب ويرى الناس كرامتك على فأخلى له بيته فظل فيه جرجيس حتى إذا أدركه الليل قام يصلى ويقرأ الزبور وكان أحسن الناس صوتا فلما سمعته امرأة الملك استجابت له فلم يشعر إلا وهى خلفه تبكى فدعاها جرجيس إلى الإيمان فآمنت به وأمرها فكتمت إيمانها فلما أصبح غدا به إلى بيت الأصنام ليسجد لها فلما سمعت العجوز بذلك خرجت تحمل إبنها على عاتقها توبخ جرجيس

ثم أرسلت إلى الشاب هل أجد إليك سبيلا قال نعم بشرط أن تسلمى الحصن الظاهر إلينا والباطن لله فقالت أما الظاهر فأعرفه وأما الباطن فما هو قال قلبك تسلمينه لله وتقرين بوحدانيته فأرسلت إليه تعالى بعسكرك فلما دخل الحصن وعرض عليها الإسلام قالت إنى امرأة كثيرة الحيلة هل فى عسكرك من هو أكبر منى حتى أسلم على يديه قال نعم فارتحلت مع العسكر ومعها أموال كثيرة حتى دخلت على عمر ابن الخطاب رضى الله عنه فقالت هل هنا أكبر منك حتى أسلم على يديه قال نعم محمد رسول الله ﷺ وهذا قبره قالت لا أسلم إلا على يديه فجلست عند قبره وقالت أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ثم قالت خرجت من دار الكفر غير إنى أخشى أن أقع بعد الإسلام فى المعصية فاسأل ربى الذى أرسلك أن لا اعصيه قال ثم وضعت خدها على حائط القبر وماتت من ساعتها قال عمر رضى الله عنه طوبى لمن مات وجوارحه مستريحة من المعاصى رضى الله عنهم ورضى عنا بهم

(وقال ذو النون المصرى رضى الله عنه) رأيت فى البادية ظلا يلوح مرة ويغيب أخرى

والناس مشتغلون عنها فلما دخل جرجيس بيت الأصنام ودخل الناس معه نظروا وإذا بالعجوز وإبنها على عاتقها اقرب الناس إليه مقاما فلما رآها جرجيس دعا ابن العجوز باسمه فنطق واجابه ولم يكن يتكلم قبل ذلك قط ثم اقتحم عن عاتق أمه يمشى على رجليه ولم يكن يط الأرض قبل ذلك بقدميه قط فلما وقف بين يدى جرجيس قال له اذهب فادع لى هذه الأصنام وهى يومئذ سبعون صنما على منابر من ذهب وهم يعبدونها ويعبدون معها الشمس والقمر فقال الغلام كيف أدعو الأصنام فقال قل لها أن جرجيس يسألك ويعزم عليك بالذى خلقك ألا ما أجبتيه فلما قال الغلام ذلك أقبلت تتدحرج إلى جرجيس فلما انتهت إليه ركض الأرض برجله فخسف بها وبمنابرها وخرج إبليس لعنه الله من جوف صنم منها هاربا فرقا من الخسف فلما مر بجرجيس أخذ بناصيته فخضع له وكلمه جرجيس فقال له جرجيس أخبرنى أيها الروح النجسة والخلق الملعون ما الذى يحملك أن تهلك نفسك وتهلك الناس معك وأنت تعلم أنك وجندك تسيرون إلى جهنم فقال له إبليس لعنه الله لو خيرت بين ما اشرقت عليه الشمس وبين ما اظلم عليه الليل وبين هلكة واحد من بنى آدم وضلالته لاخترت هلكته على ذلك كله وإنه ليقع لى من الشهوة واللذة فى ذلك مثل جميع ما يلتذ به جميع الخلق ألم تعلم ياجرجيس أن الله تعالى أسجد لأبيك آدم جميع الملائكة فسجدوا له كلهم وامتنعت من السجود وقلت أنا خير منه قال فلما قال هذا خلى سبيله جرجيس فما دخل إبليس من يومه إلى جوف صنم ولا يدخله بعدها فيما يذكرون أبدا فقال الملك يا جرجيس غررتنى وخدعتنى واهلكت آلهتى فقال جرجيس إنما فعلت ذلك لتعتبر ولتعلم أنها لو كانت آلهة لامتنعت منى فكيف تمتنك ويلك بآلهة لم تمنع نفسها منى وأنا مخلوق ضعيف لاأملك إلا ما ملكنى ربى فلما قال هذا جرجيس أقبلت امرأة الملك وكلمتهم وكشفت لهم عن إيمانها وعدت لهم أفعال جرجيس والعبر التى أراهم الله تعالى إياها وقالت لهم ما تنظرون من هذا الرجل إلا دعوة فيخسف بكم الأرض كما خسف بأصنامكم الله أيها القوم فى انفسكم فقال لها الملك ويحك يا اسكندرة ما اسرع ما اضلك هذا الساحر فى ليلة واحدة وأنا أقاسيه منذ سبع سنين فلم يظفر منى بشئ فقالت له أما رأيت الله كيف يظفره بك ويسلطه عليك فيكون له الفلاح والحجة عليك فى كل موطن فلما سمع كلامها أمر بها الملك عند ذلك فحملت على خشبة جرجيس التى كان علق عليها وجعلت عليها الأمشاط التى جعلت على جرجيس فلما آلمها قالت ادع ربك يا جرجيس فيخفف عنى فإنى قد آلمنى العذاب فقال لها انظرى فوقك فلما نظرت ضحكت فقال لها الملك ما الذى يضحكك قالت أرى ملكين فوق معهما تاج من حلى الجنة ينتظران به خروج روحى فلما خرجت روحها زيناها بذلك التاج ثم صعدا بها إلى الجنة فلما قبض الله روحها أقبل جرجيس على الدعاء وقال اللهم إنك أكرمتنى بهذا البلاء لتعطينى منازل الشهداء فهذا آخر أيامى الذى كنت وعدتنى فيه الراحة من بلاء الدنيا اللهم إنى أسألك أن لا تقبض روحى ولا أزول من مكانى حتى تنزل بهؤلاء المستكبرين من سطوتك ونقمتك مالا قبل لهم بها حتى تشفى به صدرى وتقر به عينى فانهم ظلمونى وعذبونى فيك اللهم اسألك أن لا يدعو بعدى داع فى بلاء كرب فيذكرنى وينشدك باسمى إلا فرجت عنه ورحمته وأجبته وشفعتنى فيه فلما فرغ من هذا الدعاء أمطر الله عليهم نارا فلما رأوا ذلك عمدوا إليه فضربوه بالسيوف غيظا من شدة الحريق ليعطيه الله بالقتلة الرابعة ماوعد ثم احترقت المدينة بجميع ما فيها فصارت رمادا فحملها الله من وجه الأرض وجعل عاليها سافلها فمكثت زمانا من الدهر يخرج من تحتها نار ودخان منتن لا يشمه أحد إلا سقم سقما شديدا وكان جميع من آمن بجرجيس وقاتل معه أربعة وثلاثون ألفا وامرأة الملك قال الأستاذ وكانت قصة جرجيس فى أيام ملوك الطوائف والله اعلم

والشخص مستور منى فقلت بالله عليك يا صاحب الظل إلا ما أظهرت نفسك لكى أراك قال فظهر فإذا هى امرأة فقالت ياذا النون ما أكثر فضولك ما تصنع بى فقلت إنى احب الصالحين فقالت لقد أحببت سواه فقلت إنى احبكم تقربا إلى الله تعالى فقالت وأى فرق بينك وبين عبدة الأصنام إذ قالت ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى قال فتعجبت من كلامها فبينا نحن فى الحديث إذ قالوا جاءت الخيل لتنهب القافلة فبكى الناس وهى تضحك فقلت لها الناس يبكون وانت تضحكين فقالت ما ضحكى إلا من مخافتهم من مخلوق قد وجب عليك أن تسأل الله لنا فقالت نعم ثم رفعت طرفها إلى السماء وقالت يارافع السماء بلا عماد يا من هو على فكرة العباد بحق ما تعلم من وادادى إلا كفيتهم مؤنة الأعادى قال فما تم كلامها حتى اذهب الله الأعداء وجاء الأمان وذهب الردى ثم غابت عنى فلم أرها رضى الله تعالى عنها

(وقيل) أنه كان فى بنى إسرائيل شاب مسرف على نفسه بالمعاصى فأخرجوه من بينهم لحضرته الوفاة وهو فى خربة على باب البلد فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام وعلى نبينا افضل الصلاة والسلام

(باب فى قصة شمعون النبى عليه السلام)

قال الله تعالى (إنا أنزلناه فى ليلة القدر إلى قوله تعالى خير من ألف شهر) (أخبرنا) ابو عمران العراقى باسناده عن ابن أبى نجيح أن النبى ﷺ ذكر رجلا من بنى إسرائيل لبس السلاح فى سبيل الله ألف شهر فتعجب المسلمون من ذلك فأنزل الله تعالى (إنا أنزلناه فى ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر (التى لبس الرجال فيها السلاح فى سبيل الله تعالى) (اخبرنا) عبد الله الثنى باسناده عن وهب بن منبه أن رجلا من أهل قرية من قرى الروم يقال له شمعون بن مسوح كان فيهم مسلما من أهل الإنجيل وكانت أمه قد جعلته نذيرا وكان قومه أهل أوثان يعبدونها من دون الله وكان منزله منها على خمسة أميال وكان يغزوهم وحده ويجاهدهم فى الله فيقتل منهم ويسبى ويصيب الأموال وكان إذا قاتلهم لقيهم بالجحفة لا يقاتلهم بغيرها وكان إذا قاتلهم وقاتلوه فتعب وعطش انفجر له من البحر ماء عذب فيشرب منه حتى يروى وكان لا يوثقه حديد ولا غيره فجاهدهم الله فى ألف شهر يصيب منهم حاجته ولا يقدرون منه على شىء فاحتالوا عليه وقالوا لا نأتيه إلا من قبل امرأته فجعلوا لها جعلا على ذلك فأجابتهم وقالت أنا أوثقه لكم فأعطوها حبلا وثيقا وقالوا لها إذا نام فأوثقى يديه إلى عنقه حتى تأتينا فنأخذه فلما نام أوثقت يديه إلى عنقه بهذا الحبل فلما انتبه من نومه جذبه بيديه فوقع من عنقه فقال لها لم فعلت ذلك فقالت له اجرب به قوتك ما رأيت مثلك قط فأرسلت إليهم وقالت لهم إنى قد ربطته بالحبل فلم يغن عنه شيئا فأرسلوا إليها بجامعة من حديد وقالوا لها إذا نام فاجعليها فى عنقه فلما نام جعلتها فى عنقه ثم أحكمتها فلما هب جذبها وقعت من عنقه ويده فقال لها لم فعلت هذا قالت أجرب به قوتك ما رأيت مثلك قط فهل فى الأرض شىء يغلبك قال لا شىء واحد قالت وما هو قال ما أنا مخبرك به فلم تزل تسأله عن ذلك وكان ذا شعر طويل كثير فقال لها ويحك أن أمى كانت اخبرتنى أن لا يغلبنى شىء أبدا ولا يغيظنى إلا شعرى فلما نام وثقت يده إلى عنقه بشعر رأسه فأوثقه ذلك فبعثت إلى القوم فجاءوا واخذوه فجدعوا أنفه وأذنيه وفقؤا عينيه ووقفوه للناس بين ظهرانى المدينة وكانت مدينة ذات أساطين وكان ملكهم أشرف عليها هو والناس لينظروا إلى شمعون وما يصنع به فدعا الله شمعون حين مثلوا به وأوقفوه على الناس أن يسلطه عليهم فأمر أن يأخذ بعمودين من عمد المدينة التى عليها الملك والناس من معه فيجذبهما جميعا فجذبهما فانهارت المدينة بمن فيها فهلكوا فيها هدما وهلكت أيضا امرأته معهم ورد الله تعالى عليه بصره وما اصابوا من جسده تماما وعاد كما كان وكانت قصة شمعون فى ايام ملوك الطوائف والله اعلم

(باب فى قصة أصحاب الأخدود)

قال الله تعالى (قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود) الآيات روى عطاء عن ابن عباس أنه كان بنجران ملك من ملوك حمير يقال له يوسف ذو نواس بن شرحبيل فى الفترة قبل مولد النبى ﷺ بسبعين سنة وكان له ساحر حاذق فلما كبر قال للملك إنى قد كبرت فابعث لى غلاما أعلمه السحر فبعث إليه غلاما يقال له عبد الله بن السامرى يعلمه السحر فكره الغلام ذلك ولم يجد بدا من طاعة الملك وطاعة أبيه فجعل يختلف إلى الساحر وكان فى طريقه راهب حسن القراءة حسن الصوت فقعد الغلام عنده وسمع كلامه فأعجبه وكان يبطئ عند الراهب ويأتى المعلم فيضربه ويقول له ما الذى حبسك وإذا انقلب إلى أبيه يجلس عند الراهب فيضربه أبوه ويقول ما أبطأك فشكا الغلام ذلك إلى الراهب فقال له الراهب إذا أتيت المعلم فقل له حبسنى أبى وإذا أتيت أباك فقل له حبسنى المعلم وكان فى تلك البلاد حية عظيمة قد قطعت الطريق على الناس فربما الغلام ورماها بحجر وقال اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتلها فلما رماها قتلها

يا موسى أن وليا من أوليائى قد حضره الموت فى مكان كذا فاحضره وغسله وقل لمن كان معك أن يصلى عليه فنادى موسى فى بنى إسرائيل فحضروه فلما نظروا إليه عرفوه وقالوا يا نبى الله هذا فلان الفاسق الذى أخرجناه فتعجب موسى من ذلك فأوحى الله تعالى إليه أنهم صدقوا لكنه لما حضرته الوفاة فى هذه الخربة نظر يمينا وشمالا فلم ير أحدا ورأى نفسه غريبة وحيدة ذليلة منكسرة فرفع بصره إلى. وقال إلهى وسيدى ومولاى عبد من هيبتك غريب فى بلادك فلو علمت أن عذابى يزيد فى ملكك لم اسألك المغفرة وليس لى رجاء إلا أنت وقد سمعت فيما أنزلت تقول إنى أنا الغفور الرحيم أكان يحسن أن أرده يا موسى وقد توسل بى وتضرع إلى وعزتى وجلالى لو سألنى فى المذنبين من اهل الأرض لوهبتهم له وأنا الغفور الرحيم.

(وروى) أنه كان فى بنى إسرائيل ملك جبار وكان يكره الفقراء والصدقة ونادى فى المدينة كل من تصدق بشىء قطعت يده وكان فى المدينة امرأة صالحة مات زوجها ومعها ولدان فكانت تغزل وتشترى كل يوم دقيقا وتعمل منه

ثلاثة أقراص لها ولولديها فبينما هي على تلك الحالة إذ مر سائل ببابها فاعطته قرصها صدقة وقالت له لا تأكل عند احد خوفا عليه من الملك فأخذه ومضى فلما كان في بعض الطريق اخرج القرص ليأكله فلقيه بعض اعوان الملك وقال له من أين أتاك هذا الرغيف فقال اعطتنيه امرأة فقبض عليه ورجع به إلى الملك واخبره بقصته فقال امضوا به إلى موضعها وائتوني بها والفقير يحسب أنه يريد أن يعطيها شيئا عوض صدقتها فأحضروها عند الملك فقال لها أما سمعت النداء ثم أمر بقطع يدها فقطعت وعلقت في عنقها فجاءت إلى منزلها واقامت تعبد الله وكانت صائمة ثمة إلى أن افطرت ونامت وهي شاكرة لله تعالى فلما اصبح الصبح مر فقير وقال يا من يتصدق بصدقة تنفعه فأعطته قرصا من اقراص أولادها فذهب وهو يقول جزى الله عني هذه المرأة خيرا كما إنها تصدقت على فسمعه أحد خدام الملك فقبض عليه وأتى به إلى الملك فأمر باحضارها فحضرت بين يديه فأمر بقطع يدها الأخرى فقطعت وباتت بمنزلها وإذا بسائل يقول من يتصدق على الجائع المسكين الذي طاف هذه المدينة فلم يعطه أحد

فاتى الراهب واخبره فقال له الراهب أنت قتلتها قال نعم قال إن لك لشأنا وقد بلغ من أمرك ما أرى وإنك ستبتلى فاذا ابتليت فلا تدل علي فكان الغلام يبرىء الأكمة والأبرص ويشفي المرضى وكان للملك ابن عم مكفوف البصر فسمع بالغلام وقتله الحية فجاء مع قائد وقال له أنت قتلت الحية قال لا قال فمن قتلها قال الله تعالى قال فمن الله قال رب السموات والأرض وما بينهما ورب الشمس والقمر والليل والنهار والدنيا والآخرة قال إن كنت صادقا فادع الله أن يرد علي بصري فقال له الغلام أرأيت إن رد الله عليك بصرك تؤمن بالله قال نعم قال اللهم إن كان صادقا فاردد عليه بصره فرجع منزله بلا قائد ثم دخل على الملك فلما رآه تعجب منه وقال له من فعل هذا بك فقال الله قال ومن الله قال رب السموات والأرض فقال له الملك اخبرني من علمك هذا فأبى فلم يزل يعذبه حتى دله على الغلام فجيء بالغلام فقال له الملك يا بني قد بلغ من سحرك هذا فقال له الغلام إني لا أشفي أحدا وإنما يشفي الله فلم يزل يعذبه حتى دله على الراهب فقيل له ارجع عن دينك فأبى فدعا بالمنشار ووضعه في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقتين ثم جيء بابن عم الملك فقيل له ارجع عن دينك فأبى فوضع المنشار فشقه مثل ذلك ثم التفت إلى الغلام وقال له ارجع عن دينك فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه وقال اذهبوا إلى جبل كذا وكذا وصعدوا به إلى ذروة الجبل فان رجع عن دينه وإلا فاطرحوه فذهبوا به الجبل فقال اللهم اكفنيهم بما شئت فرجف بهم الجبل فسقطوا وهلكوا ثم جاء الغلام يمشي إلى الملك فقال له الملك ما فعل اصحابك فقال كفانيهم الله فغاظ الملك ذلك فدفعه إلى نفر من اصحابه وقال لهم اذهبوا به في قرقور وهي السفينة واطرحوه في البحر ولجوا به فيه فان رجع عن دينه وإلا فاقذفوه في البحر وغرقوه فذهبوا به إلى البحر فقال الغلام اللهم اكفنيهم بما شئت فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك فقال الملك ما فعل اصحابك قال كفانيهم الله ثم أن الغلام قال للملك إنك لا تقدر على قتلي إلا أن تفعل ما آمرك به فقال وما هو قال تجتمع أهل مملكتك وأنت على سريرك فتصلبني على جذع وترميني بسهم وتقول بسم الله رب الغلام ففعل الملك ذلك ثم رماه وقال بسم الله فأصابه في صدغه فوضع يده عليه ومات فقال الناس لا إله إلا الله آمنا بدين عبد الله بن الساعري ولا دين إلا دينه فلما آمن الناس برب العالمين رب الغلام قيل للملك قد والله أنزل بك ما كنت تحذر فغضب الملك وأغلق أبواب المدينة فأخذ أفواه السكك واخذ اخدودا ملأه نارا ثم عرض الناس عليه رجلا رجلا فمن رجع عن الإسلام تركه ومن لم يرجع ألقاه في الأخدود فاحترق وكانت امرأة قد أسلمت فيمن أسلم ولها أولاد ثلاثة أحدهم رضيع فقال لها الملك أترجعين عن ديني وإلا ألقيتك أنت وأولادك في النار فأبت فأخذ ابنها الأكبر فألقي في النار ثم أخذ الأوسط وقال ارجعي عن ديني فأبت فألقي أيضا في النار ثم اخذ الرضيع وقال لها ارجعي فأبت فأمر بالقائه في النار فهمت بالرجوع فقال لها الصبي الصغير يا أماه لا ترجعي عن دين الإسلام فانك على حق ولا بأس عليك فألقي الصبي في النار وأمه على أثره وقد روى هذا بنحو ما ذكرنا مرفوعا عن رسول الله ﷺ .

(أخبرنا) ابو القاسم الحسن بن محمد بن الحسين بن جعفر المذكور باسناده عن صهيب عن رسول الله ﷺ بمثل معناه وقد تكلم ستة في المهد شاهد يوسف الصديق عليه السلام وابن ماشطة فرعون ويحيى بن زكريا وعيسى بن مريم وصاحب جريج الراهب وصاحب الأخدود .

(وقال سعيد بن المسيب) كنا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ ورد عليه خطاب أنهم وجدوا ذلك الغلام بنجران وهو واضع يده على صدغه وكلما مدت يده عادت إلى الصدغ فكتب إليه عمر واروه حيث وجدتموه وقال مقاتل كان أصحاب الأخاديد ثلاثة واحد بنجران اليمن

وآخر بالشام وآخر بفارس حرقوا بالنار أما الذى بالشام بانطياخوس الروى أحرق قوماً من المؤمنين وأما الذى بفارس فهو بختنصر (وكانت قصته) ما اخبرنا عبد الله بن حامد بإسناده عن ابن أروى قال لما عزم المسلمون اهل الاسفندهار وانصرفوا جاءهم نعى عمر فاجتمعوا أى شىء نجرى على المجوس من الأحكام فإنهم ليسوا بأهل كتاب وليسوا من مشركى العرب فقال على كرم الله وجهه بل هم أهل كتاب وكانوا متمسكين بكتابهم وكانت الخمرة قد أحلت لهم فتناً ولهم ملك من ملوكهم فغلبت على عقله فتناول أخته فوقع عليها فلما ذهب عنه السكر ندم وقال لها ويحك ما هذا الذى أتيت ومما المخرج منه فقالت المخرج منه أنك تخطب فى الناس فتقول أيها الناس إن الله قد أحل لكم نكاح الأخوات فاذا ذهب هذا فى الناس تناسوا حرمته عليهم فقام فيهم خطيباً فقال أيها الناس إن الله أحل لكم نكاح الأخوات فقال الناس بأجمعهم معاذالله أن نؤمن بهذا ما جاء بهذا النبى ولا أنزل علينا فى كتاب فرجع إلى أخته وقال ويحك إن الناس قد أبوا على فقالت أبسط فيهم السوط فأبوا أن يقروا فقال لها إن الناس قد أبوا قالت فجرد فيهم السيف فأبوا أن يقروا قالت فخذ لهم الأخدود ثم اعرضهم عليه فمن تابعك خل عنه ومن أبى فاقذفه فى النار فخد الأخدود واوقد فيه النيران وعرض اهل مملكته على ذلك فمن أبى قذفه فى النار ومن أجاب خلى سبيله فأنزل الله تعالى فيهم (قتل أصحاب الأخدود) إلى قوله تعالى عذاب الحريق وأما الذى فى اليمن فهو يوسف ذو نواس بن شرحبيل بن تبع بن يشرح الحميرى وقد ذكرنا قصته وذكر محمد بن إسحاق بن بشار عن وهب بن منبه أن رجلا كان بقى على دين عيسى فوقع إلى نجران فدعاهم فأجابوه فخيرهم ذو نواس بين النار واليهودية فأبوا عليه فأحرق منهم إثنا عشر ألفاً وقال مقاتل إنما قذف فى النار يومئذ سبعة وسبعين إنساناً وقال الكلبى كان اصحاب الأخدود سبعين ألفاً فلما قذفوا فى النار خرجت النار إلى اعلى شفير الأخدود فأحرقتهم وارتفعت النار فوقهم إثنا عشر ذراعاً ونجا ذو نواس فسلط الله عليهم أرياط الحبشى حتى غلب على اليمن فخرج هارباً فاقتحم البحر فأغرقه الله فيه وفيه يقول عمرو بن معد يكرب :

أتوعدنى كأنك ذو رعين ... بأنعم عيشة أو ذوو نواس
وقد ما كان قبلك فى نعيم ... وملك ثابت فى الناس راسى
فقدتم عهد من عهد عاد ... عظيم قاهر الجبروت قاسى
فامشى اهله بادوا وأمسى ... ينقل فى أناس من أناس

(باب فى قصة أصحاب الفيل وبيان ما فيها من الفضل)

والشرف لنبينا محمد ﷺ

قال الله تعالى (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) إلى آخر السورة قال محمد بن إسحق ابن بشار كان من حديث اصحاب الفيل ما ذكر بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس وعمر بقى من علماء اليمن وغيرهم أن ملكا من ملوك حمير يقال له زرعة ذو نواس كان قد تهود واجتمعت معه حمير على ذلك إلا ما كان من أهل نجران فإنهم كانوا على دين النصرانية على حكم الإنجيل ولهم رأس يقال له عبد الله بن الثامر فدعاهم إلى اليهودية فأبوا فخيرهم فاختاروا القتل فخذلهم الأخدود وصف القتلى فمنهم من قتل وصبر ومنهم من ألقى فى النار إلا رجلا من أهل سبأ يقال له دروس بن ثعلبان فذهب على فرس له يركض حتى أعجزهم

من أهلها لقمة واحدة وقال فلما سمعته أخرجت إليه قرصاً فأخذه ومضى فإذا برجل من أعوان الملك قد قبض عليه وأتى به إلى الملك فأخبر بالمرأة فقال هى لم تنته وأمر بقطع رجلها واقامت تلك الليلة وإذا بسائل يقول يا من يتصدق على الفقير المسكين الذى له مدة وهو مسافر وليس له قوت إلا نبات الأرض فرحفت واعطته قرصاً فرآه نديم الملك فاخبره بما كان من المرأة فأمر بقطع رجلها الأخرى فأقامت إلى أن دخلت إلى منزلها فلما جاء الفجر زحفت إلى البحر لتتوضا وكان قريباً من بابها فاستيقظ اولادها فلم يروها فصاروا يحبون حتى خرجوا من الدار وإذا بذئب واقف على الباب فخطف أحدهما فى فمه فلما راته أمه زحفت خلف الذئاب فلم تلقه فرجعت وهى صابرة حامدة شاكرة فرأت الولد الآخر صار يحبو إلى البحر حتى انقلب فيه ولم تدركه فقالت اللهم إنى استودعتكما يا من لا تخيب عنده الودائع يا أرحم الراحمين قال فما أتمت دعاءها حتى فتحت أبواب السماء وضجت الملائكة بالتسبيح والتقديس لله رب العالمين فأمر الجليل جبريل فنزل إليها وقال لها يا أمة الله أمرنى ربى أن أردد يديك وجليك وولديك

ببركة الصدقة ثم أخذ يديها ورجليها وألصقها بقدرة من يقول للشيء كن فيكون فقامت بإذن الله تعالى عليها ورد الله عليها ولديها من الذئب والبحر فبلغ ذلك الملك فأحضر المرأة بين يديه وتعجب في صنع الله تعالى فقالت له إن الذي تصدقت من أجله رد على يدي ورجلي واولادي فقام على قدميه وقال آمنت بالذي خلقك وسواك وصار يعبد الله تعالى حتى توفاه الله هو والمرأة في يوم واحد ووضعا في قبة الجنة وارتفعت بهما إلى السماء حتى خفيت عن الأبصار نفعنا الله بهما وببركاتهما في الدنيا والآخرة آمين.

(وقيل) كان ببغداد رجل يعرف بابن الرومي وكان له زوجة وأولاد فنزل بالناس مجاعة عظيمة فأقام الفتى وأولاده ثلاثة أيام ولم يعرفوا الطعام واشتد بهم الأمر فلما كان اليوم الرابع قالت زوجته وكانت بنت عمه يا ابن عمي انا وأنت نصبر على الجوع فكيف الحيلة في هؤلاء الأطفال قال لها هل تعرفين شغلا أفعله قالت نعم انزل على سوق البنايين فلو عملت بنصف ددم كان فيه قوت الأطفال فقال حباً وكرامة قال فأخذ فاساً وزنبيلا وخرج يطلب سوق البنايين فوجد في طريقه مسجداً

في الرمل فأتى قيصر فذكر له ما بلغ منهم واستنصره فقال له بعدت بلادك عنا ولكني أكتب لك إلى ملك الحبشة فإنه على ديننا فينصرك فكتب إلى النجاشي يأمره بنصره فلما قدم على النجاشي بعث معه رجلا من الحبشة يقال له أرياط فلما بعثه قال له إن دخلت اليمن فاقتل ثلث رجالها وخرب ثلث بلادها وابعث إلي بثلث سباياها فلما دخلها ناوشهم القتال فتفرقوا عن ذي نواس واقتحم به فرسه فاستعرض به البحر فهلكا جميعاً فكان آخر العهد به ودخلها أرياط فعمل بما أمره النجاشي فقال النجاشي قال ذو جد الحميري فيما أصاب أهل اليمن:

دعيني لا أبالك لم تطيقي ... لحاك الله قد أنزفت ريقي ... بذا عزف القيان إذا انتشينا
إذا نسقى من الخمر الرحيق ... ونشرب الخمر ليس على عار ... إذا لم يشكني فيها رفيقي
وأن الموت لا ينهاه ناه ... ولو يشرب الشفاه من النشوق ... ولا مترهب في اسطوان
يناطح جلده بيض الأموق ... وغمدان الذي نبئت عنه ... بنوه ممسكا في رأس نيق
لمتهمة واسفله حروث ... وجر الموجل الشق الزليق ... مصابيح السليط يلحن فيه
إذا يمسي كومضان البروق ... فأصبح بعد جدته رمادا ... وغير حسنه لهب الحريق
ونخلته التي غرست إليه ... يكاد البتر يهصر بالعذوق ... واسلم ذو نواس مستبينا
وعذر قومك ضنك المضيق

قال فأقام أرياط باليمن وكتب إليه النجاشي أن اثبت بجندك ومن معك فأقام حيناً ثم إن أبرهة بن الصباح ساخطه في أمر الحبشة حتى انتدبوا صدعين فكانت معه طائفة ومع أبرهة طائفة ثم تزاحفا فما دنا بعضهم من بعض أرسل أبرهة إلى أرياط أنك لا تصنع شيئاً فلا تلقى الحبشة بعضها على بعض ولكن اخرج إلي فأينا قتل صاحبه انضم إليه الجند فأرسل إليه إنك قد أنصفت ثم إنهما خرجا وكان أرياط جسيماً عظيماً وسيماً وكان أبرهة رجلا قصيراً حادراً لحيماً وكان ذا دين في النصرانية وكان خلف أبرهة وزير له يقال له عتوده فلما دنوا رفع أرياط الحربة فضرب بها رأس أبرهة فوقعت على جبينه فشرمت عينه وجبينه وأنفه وشفته فلذلك سمي أبرهة الأشرم فلما رأى عتودة ذلك حمل على أرياط فقتله فاجتمع الجيش على أبرهة فبلغ النجاشي ما صنع أبرهة فغضب عليه وحلف لا يدع أبرهة حتى يجز ناصيته ويطأ بلاده ثم أنه كتب إلى أبرهة إنك عدوت على أميري فقتلته بغير أمري وكان أبرهة رجلا ماردا فما بلغه قول النجاشي حلق رأسه وملأ جراباً من تراب أرضه وكتب إلى النجاشي أيها الملك إنما كان أرياط عبدك وأنا عبدك اختلفنا في أمرك وكنت اعلم بأرض الحبشة واسوس لها وكنت اردته أن يعتزل فأبى فقتلته وقد بلغني الذي حلف عليه الملك وقد حلقت راسي وبعثت به إليك وملأت جراباً من تراب ارضي وبعثته إليك ليطأه الملك فيبر قسمه فلما انتهى إليه ذلك رضي عنه وأقره على عمله وكتب إليه بأن اثبت بمن معك من الجند ثم ان ابرهة بنى كنيسة بصنعاء يقال لها القليس ثم إنه كتب إلى النجاشي:

(إني قد بنيت لك بصنعاء كنيسة لم يبن الملك مثلها قط ولست منتهياً حتى اصرف إليها حج العرب)

فسمع بذلك رجل من بني كنانة فخرج إلى القليس فدخلها ليلا فقذر فيها نهاراً ونابها وتغضباً للكعبة فبلغ ذلك ابرهة ويقال انه اتاها ناظراً إليها فدخلها فوجد القذرة فيها فقال من اجترأ على هذا فقيل فعل هذا رجل من العرب من أهل ذلك البيت الذي يحجونه سمع بالذي

قلت فصنع هذا فحلف ابرهة عند ذلك ليسيرن إلى الكعبة حتى يهدمها فخرج سائراً من الحبشة إلى مكة واخرج معه الفيل فبلغ ذلك العرب فأعظموه وفظعوا به ورأوا جهاده حقاً عليهم فخرج ملك من ملوك حمير يقال له ذو نفر بمن أطاعه من قومه فقاتله فهزمه وأخذ ذو نفر فأتى به ابرهة فقال له أيها الملك لا تقتلني فان استبقاءك لي خير من قتلي فاستحياه وأوثقه وكان ابرهة رجلا حليما ثم خرج سائرا حتى إذا دنا من ديار خثعم خرج اليه نفيل بن حبيب الخثعمي في قبيلتين وهما شهران وناهش ومن اجتمع إليه من قبائل اليمن فقاتلوه فهزمهم وأخذ نفيلا أسيرا فقال له ايها الملك إني دليل بأرض العرب فلا تقتلني وها أنا أنادي على قومي بالسمع والطاعة لك فاستبقاه وخرج معه يدله حتى إذا مر بالطائف فخرج إليه مسعود بن معتب الثقفي في رجال من ثقيف وقال أيها الملك إنما نحن عبيدك فليس لك عندنا خلاف وليس بيننا هذا الذي تريد يعني به اللات إنما تريد البيت الذي بمكة ونحن نبعث معك من يدلك عليه فبعثوا ابا رغال مولاهم فخرجوا حتى إذا كانوا بالمغمس مات أبو رغال فهو الذي ترجم قبره العرب وبعث ابرهة إلى المغمس رجلا من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود على مقدمة خيله فجمع إليه أموالا وأصاب لعبد المطلب جد رسول الله ﷺ مائتي بعير ثم ان ابرهة بعث حناطة الحميري إلى أهل مكة سفيرا فقال له سل عن شريفها ثم ابلغه إني لم آت لقتال إنما جئت لأهدم هذا البيت فانطلق حناطة حتى دخل مكة فلقي عبد المطلب بن هاشم فقال له إن الملك أرسلني إليك لأخبرك أنه لم يأت لقتال إلا أن تقاتلوه وإنما أتى لهدم هذا البيت ثم الإنصراف عنكم فقال عبد المطلب سنخلي بينه وبين ما جاء فان هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام فإن يمنعه فهو بيته وحرمه وإن يخل بينه وبين ذلك فهو كذلك فوالله مالنا به قوة قال فانطلق معي إلى الملك فعزم بعض بنيه حتى قدم المعسكر وكان ذو نفر صديقاً لعبد المطلب فأتاه فقال له ياذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا فقال ماغناء رجل أسير لا يأمن من ان يقتل بكرة أو عشية ولكني سأبعث لك إلى أنيس سائس الفيل فهو صديق لي فاسأله أن يصنع لك عند الملك ما استطاع إليه من الخير ويعظم منزلتك وحظك عنده قال فأرسل إلى أنيس فأتاه فقال له إن هذا سيد قريش صاحب عين مكة يعطي ويطعم الناس من السهل والجبل والوحش والطير في رؤوس الجبل وقد أصاب له الملك مائتي بعير فإن استطعت أن تنفعه عنده فانفعه فانه صديق لي وإني أحب ما يصل إليه من الخير ثم أن أنيسا دخل على ابرهة هو وعبد المطلب فقال له أيها الملك هذا سيد قريش وصاحب عير مكة الذي يطعم الناس في السهل والجبل والطير والوحش في رؤوس الجبال وقد جاءنا غير ناصب لك حربا ولا يخالف عليك يستأذن عليك وأنا أحب أن تأذن لي فيكلمك فأذن له وكان عبد المطلب رجلا جسيما وسيما فلما دخل عليه جلس بين يديه فأقامه وأجلسه معه على السرير ثم قال لترجمانه قل له ما حاجتك فقال له الترجمان ذلك فقال له عبد المطلب حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي فقال ابرهة لترجمانه قل له لقد كنت أعجبتني حين رأيتك ولقد زهدت فيك الآن فقال له ولم قال حيث جئت إلى بيت هو دينك ودين آبائك لأهدمه لم تكلمني فيه وتكلمني في مائتي بعير أصبتها فقال له عبد المطلب قل له أنا رب هذه الإبل ولهذا البيت رب سيمنعه منك قال ما كان ليمنعه مني فقال له أنت وشأنك ثم أمر له بإبله فردت عليه قال محمد بن إسحق وكان فيما يزعم بعض أهل العلم أن عبد المطلب قد ذهب إلى ابرهة بعمر بن معدي كرب ابن الديل بن بكر بن عبد مناف بن كنانة وهو يومئذ سيد بني كنانة وخويلد بن واثلة الهذلي

صلاة الفجر قال فاستقبل القبلة ولم يزل راكعاً وساجداً يومه كله فقرأ في ذلك اليوم في صلاته سورة الإخلاص أحد عشر الف مرة ثم صلى المغرب وهم بالخروج فقال في نفسه كيف أمضي إلى أهلي وهاذا أقول لهم إن قالوا ماذا عملت وعزتك وجلالك لا برحت حتى أصلي العشاء الأخيرة ولم يزل راكعا وساجدا حتى صلى العشاء الأخيرة ومضى إلى منزله فسمع ضحكا عظيما فظن في نفسه شرا وقال إنا لله وإنا إليه راجعون غمت عن المرأة ومعها الأطفال وهم في شدة عظيمة من الجوع فليت شعري ماجرى عليهم ثم بكى بكاء شديداً وقرع الباب فخرجت إليه زوجته وقالت له أهلا وسهلا وهي فرحة مسرورة ثم قالت ماكان يومك إلا مباركا أشبع الله بطنك كما أشبعت بطوننا فدخل المنزل فرأى فيه نوراً عظيما فالتفت فإذا بمائدتين عظيمتين على كل مائدة منديل حسن فقال ماهذان المائدتان قالت يابن عمي أنا جالسة في وقت الغروب وقد أجهدني الجوع والأطفال يتضرعون الموت وإذا بطارق يطرق الباب فنهضت إلى الباب ففتحته وإذا بغلام شاب وعليه حلتان خضراوتان

وهو يومئذ سيد بنى هزيل فعرضوا على ابرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولايهدم البيت فأبى أن يرجع قال فلما ردت الإبل على عبد المطلب رجع فأخبر قريشاً الخبر وامرهم أن يتفرقوا فى الشعاب ويتحرزوا فى رؤوس الجبال تخوفاً عليهم من معرة الجيش إذا دخل ففعلوا ذلك ثم أتى عبد المطلب إلى الكعبة فأخذ حلقة الباب وجعل يقول :

يارب لا أرجوا لهم سواكا ... يارب فامنع منهم حماكا
إن عدو البيت من عاداكا ... فامنعهم أن يخربوا قراكا

(وقال أيضاً)

لا هم أن المرء يمنع رحله ... فامنع رحالك وانصر على آل الصليب
وعابديه اليوم آلك لا يغلبن ... صليبهم ومحالهم أبدا محالك
جروا جموع بلادهم والفيل كى يسبوا ... عبادك عمدوا حماك بكيدهم
جهلا وما رقبوا جلالك إن كنت ... تاركهم وكعبتنا فأمر ما بدالك

ثم أن عبد المطلب ترك الحلقة وتوجه فى بعض الوجوه مع قومه وأصبح ابرهة بالمغمس وقد تهيأ لدخول مكة وعبىء جيشه وهيأ فيله وكان اسم الفيل محمودا وكان من قبل النجاشى بعثه إلى ابرهة وكان فيلا لم ير مثله فى الأرض عظما وقوة وجسما وقال الكلبى لم يكن عندهم إلا ذلك الفيل الواحد فلذلك قال الله تعالى (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) وقال الضحاك كانت الفيلة كثيرة ويقال كان معه إثنا عشر فيلا وإنما وجه على هذا التاويل لوفاق رؤس آلاف ويقال نسبهم إلى الفيل الأعظم فأقبل نفيل إلى الفيل الأعظم فاخذ بأذنه وقال ابرك محمودا أوارجع راشدا من حيث جئت فإنك فى بلد الله الحرام فبرك الفيل فبعثوه فابى أن يقوم فضربوه بالمعول فى رأسه فأبى فأدخلوا محاجنهم تحت مراقه ومرافقه ورفعوه ليقوم فابى فوجهوه راجعا إلى اليمن فقام يهرول ثم وجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك فصرفوه إلى الحرام فبرك وأبى أن يقوم ثم أن فيلا خرج من عندهم وصعد فى الجبل وأرسل الله تعالى طيرا من البحر كأمثال الخطاطيف مع كل طير منهم ثلاثة أحجار حجران فى رجليه وحجر فى منقاره أمثال الحمص والعدس فلما غشيت القوم ارسلتها عليهم فلم تصب تلك الحجارة أحدا إلا هلك وليس كل القوم أصابت فذلك قوله تعالى (طيرا أبابيل) أى متفرقة من ههنا وههنا قال ابن عباس كان لها خراطيم كخراطيم الطيور وأكف كأكف الكلاب وقال عكرمة كان لها رؤس كرؤس السباع ولم تر قبل ذلك ولا بعده وقال ربيع لها أنياب كأنياب السباع وقال سعيد بن جبير طير خضر لها مناقير صفر وقال أبو الجوزاء انشأها الله فى الهواء فى ذلك الوقت ترميهم بحجارة من سجيل أى سنك لما قال ابن مسعود صاحت الطيور ورمتهم بالحجارة وبعث الله ريحا فضربت الحجارة فزادتها قوة فما وقع منها حجر على جنب رجل إلا خرج من الجانب الآخر وإذا وقع على رأس رجل خرج من دبره فجعلهم كعصف مأكول أى كزرع قد اكل حبة وبقى تبنه فلما رأت الحبشة ذلك خرجوا هاربين يبتدون الطريق الذى جاؤا منه يسالون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق فقال نفيل بن حبيب حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمته :

أين المفر والإله طالب ... والأشرم المغلوب غير الغالب

(وقال أيضاً فى ذلك)

ألا حييت عنا ياردينا ... نعمناكم مع الأصباح عينا

ومعه إثنان ومعهما مائدتان فقال يا أيتها الشابة هذا منزل ابن الرومى قلت نعم قال هذه صرة فيها الف دينار ادفعيها لبعلك وقولى له مولاك يقرئك السلام ويقول لك زد فى العمل أزدك فى الأجرة وهذا عشاؤه قالت فأخذت ذلك منه وانصرف ثم دخلت وكشفت المائدتين فوجدت عليهما طعاما طيباً وخبزاً كثيرا ونعمة عظيمة ما رأيت مثلها قط فبالله يا ابن عمى عند من عملت اليوم قلت لها عند ملك كريم ما رأيت قط اسخى منه ولا أكرم منه عملت عنده شيئاً يسيرا فأعطانى هذا الخير الكثير فقالت يا ابن عمى قد أكلت أنا والأولاد فكل انت ونم فقال إنى على صلاة فإذا أديت صلاتى نمت ثم اقبل إلى المحراب ولم يزل راكعاً ساجدا حتى مضى من الليل أكثره فغلبه النوم فنام فرأى فى النوم كأنه واقف بين يدى الله تعالى وهو يقول يا ابن الرومى كيف رأيت معاملتنا قلت خير المعاملة قال يا ابن الرومى قد رفعت لك عشرة آلاف درجة وكتبت لك عشرة آلاف حسنة ومحوت عنك مائة الف سيئة فهل أنت عنى راض قلت نعم يارب فقال يا ابن الرومى اسألنى أعطك قلت يارب

دينه لو رأيت ولم تريه لدى جنب المحصب ما رأينا
إذا لعذرتني وحمدت أمري ولم تأس على ما فات بينا
حمدت الله إذ عاينت طيرا وخفت حجارة ترمى علينا
وكل القوم يسأل عن نفيل كأن على الحبشان دينا

وذكر زيادة عن عبد الله بن عمران طيرا الأبابيل كانت أقبلت من قبل البحر لرجال الهند ترميهم بحجارة أصغرها مثل رؤس الجبال واكبرها كالإبل البزل مارمت أصابت وما أصابت قتلت ونفيل ينظر إليهم بعض تلك الجبال وقد خرج بعضهم على بعض فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون على كل منهل وبعث الله تعالى على ابرهة داء فى جسده فجعل تتساقط أنامله كلما سقطت أنملة أتبعها أنملة وقيح ودم فانتهى إلى صنعاء وهو مثل فرخ الطائر فيما بقى من أصحابه فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه ثم هلك وزعم مقاتل بن سليمان أن السبب الذى جر حديث أصحاب الفيل هو أن فتة من قريش خرجوا تجارا إلى أرض النجاشى فصاروا حتى دنوا من ساحل البحر وفى سند حقف من أحقافها بيعة للنصارى تسميها قريش الهيكل ويسميها النجاشى وأهل أرضه المسرخسان فنزل القوم فى سندها فجمعوا احطبا وأججوا نارا واشتووا لحماً فلما ارتحلوا تركوا النار كما هى فى يوم صائف فعجت الرياح فاضطرم الهيكل نارا وانطلق الصريخ إلى النجاشى فأخبروه فأسف عند ذلك غضباً للبيعة فبعث ابرهة لهدم الكعبة وكان بمكة يومئذ أبو مسعود الثقفى وكان مكفوف البصر يصيف بالطائف ويشتو بمكة وكان رجلا نبيهاً نبيلا عاقلا وكان لعبد المطلب خليلا فقال عبد المطلب يا أبا مسعود هذا يوم لايستغنى فيه عن رأيك فما رأيك فقال أبو مسعود لعبد المطلب اعمد إلى مائة من الإبل فاجعلها هديا لله تعالى وقلدها نعلا واثبتها فى الحرم لعل بعض هؤلاء السودان يعقر منها فيغضب رب هذا البيت فيأخذهم ففعل ذلك عبد المطلب فعمد القوم إلى تلك الإبل فحملوا عليها وعقروا بعضها وجعل عبد المطلب يدعوا فقال ابو مسعود إن لهذا البيت رباً سيمنعه فقد نزل تبع ملك اليمن بصحراء هذا البيت وأراد هدمه فمنعه الله وابتلاه وأظلم عليه ثلاثة أيام فلما رأى ذلك نسع كساء القباطى البيض وعظمه ونحر له جزرا ثم قال أبو مسعود لعبد المطلب انظر إلى بحر اليمن هل ترى شيئاً فقال أرى طيراً ابيضاً نشأت من جانب البحر وحلقت على رؤسنا فقال له هل تعرفها فقال عبد المطلب والله ما أعرفها ما هى بنجدية ولا تهامية ولا عربية ولا شامية وإنها تطير بأرضنا غير مؤنسة قال ما قدرها قال أمثال اليعاسيب فى مناقيرها حصى كأنها حصى الحزف قد اقبلت كالليل المظلم يتبع بعضها بعضاً أمام كل فرقة طير يقودها احمر المنقار أسود الرأس طويل العنق لجاءت حتى إذا حاذت عسكر القوم ركدت فوق رؤسهم فلما توافت الرجال كلها بحيالهم أهالت الطير ما فى مناقيرها على من تحتها مكتوب على كل حجر إسم صاحبه ثم إنها رجعت من حيث جاءت فلما أصبح عبد المطلب وأبو مسعود انحطا من ذروة الجبل فشيا ربوة فلم يؤنس أحدا ثم إنهما مشيا فلم يسمعا حساً فقالا لبعضهما بات القوم سامدين فأصبحوا نياماً فلما دنوا من معسكر الفيل فإذا هم خامدون وكان الحجر ينزل على بيضة أحدهم فيفجرها ويقطع فى دماغه ويخرق الفيل والدابة ويغيب الحجر فى الأرض من شدة وقعه ثم أن عبد المطلب أخذ فأسا وحفر حتى أعمق فى الأرض فلأهامن الذهب الأحمر والجواهر الجيدة

أسألك أن تقبلنى على ما انا فيه وعليه من قبل أن تقبضنى إليك فقال الله تعالى إنى مقدر الآجال لا أزيد فيها ولا انقص وقد بقى من عمرك تسعة أيام قلت إلهى احفظنى حتى تتوفانى مسلما فقال حفظتك قلت وعزتك لأزيدن فى العمل فقال الله وعزتى وجلالى لا أعطينك براءة من النار ولأسكننك جوارى فى دار القرار قال فانتبهت من نومى فحدثت زوجتى بما رأيت فحزنت حزنا شديدا ثم إنى اشتريت لها ولاولادها منزلا ياوون فيه وخادم يخدمهم وودع إخوانه واهله يوم التاسع وصلى فيه ما شاء الله ثم جعل وجهه إلى الكعبة وقضى نحبه ولحق بربه رحمة الله تعالى عليه .

(وروى عن بعض الصالحين رضى الله تعالى عنه أن أسدا دخل فى قرية فى بنى إسرائيل فأخذ منها صبياً فألقاه على ظهره وأتى به إلى مكانه ليأكله فعلمت أمه بذلك فتبعته صائحة مستغيثة فبينما هى كذلك إذ ظهر فارس وعليه ثوب أبيض وعمامة بيضاء وبيده رمح فقال للأسد يا أبا الحرث ضع الولد وامض بسلام فلم سمع الأسد ذلك منه القى الولد عن ظهره ودخل مكانه ولم

ثم حفر لصاحبه حفرة فملأها ثم قال لأبى مسعود هات خاتمك واخيرك فاختر فإن شئت أخذت حفرتى وإن شئت أخذت حفرتك وإن شئت فهما لك معاً فقال له أبو مسعود اختر لى على نفسك فقال عبد المطلب إنى جعلت أجود المتاع فى حفرتى فهو لك ثم جلس كل واحد منهما على حفرته ونادى عبد المطلب فى الناس فرجعوا وأصابوا من فضلها حتى ضاقوا بذلك ذرعاً وساد عبد المطلب بذلك على قريش واعطته الرياسة فلم يزل أبو مسعود وعبد المطلب مُغنيين من ذلك المال إلى أن ماتا .

(وقال الواقدى) بأسانيده اغزى النجاشى أرياطا فى أربعة آلاف إلى اليمن فغلب عليها فأكره الملوك واستذل الفقراء فقام رجل من الحبشة يقال له ابرهة الأشرم أبو يكسوم فدعا إلى طاعته فأجابوه فقتل ارياط وغلب على اليمن فرأى الناس يتجهزون أيام الموسم للحج فسأل أين تذهب الناس فقيل يحجون بيت الله بمكة قال فما هو قالوا من حجر قال فما كسوته قالوا ما يأتى من ههنا من الوصائل فقال والمسيح لأبنين خيرا منه فبنى لهم بيتاً من الرخام الأبيض والأسود والأحمر والأصفر وحلاه بالذهب والفضة وحفه بالجواهر وجعل له أبواباً عليها صفائح الذهب ومسامير الذهب ورصعها بالجواهر وجعل فيها ياقوتة حمراء وجعل لها حجاباً وكان يوقد بالمندل ويلطخ جدرانه بالمسك حتى تغيب الجواهر وأمر الناس بحجه فحجه كثير من قبائل العرب سنين ومكث فيه رجال يتعبدون ويتنسكون فأسهل نفيل الخثعمى ليلة من الليالى حتى كان من لم ير أحد يتحرك لمجاء يعذره فلطخ بها قبلته والق فيه الجيف فأخبر أبرهة بذلك فغضب أبرهة غضباً شديداً وقال إنما فعلت العرب ذلك غيظاً لأجل بيتهم ثم أنه قال لأنقضنه حجراً حجراً ثم أنه كتب إلى النجاشى يخبره بذلك ويسأله أن يبعث إليه بفيله محمود وكان فيله لم ير مثله فى الأرض عظماً وجسماً وقوة فبعثه إليه فغزا البيت كما ذكرنا إلى أن قال أقبلت الطير من البحر أبابيل مع كل طير ثلاثة أحجار حجران فى رجليه وحجر فى منقاره فنذفت الحجارة عليهم لاتصيب شيئاً إلا هشمته وبعث الله سيلا أتى عليهم فذهب بهم إلى البحر فألقاهم فيه وولى أبرهة ومن معه هارباً فجعل أبرهة يسقط عضوا عضوا حتى مات وأما محمود فيل النجاشى فربض ولم يشجع على الحرم فنجا وأما الفيلة الأخرى فتشجعت فحصبت وهلكت وهو أول وقت رؤى فيه الجدرى والحصبة وقال أمية ابن أبى الصلت فى ذلك :

إن آيات ربنا بينات ما يمارى بهن إلا الكفور
حبس الفيل بالمغمس حتى ظل يحبو كأنه معقور
حوله من رجال كندة فتيان مصاليت فى الحروب صقور
غادروه وقد تولوا سراعاً كلهم عظم ساقه مكسور

وقال الكلبى لما أهلكهم الله بالحجارة لم يفلت منهم إلا أبرهة الأشرم بن يكسوم فصار وطائر يطير فوقه ولم يشعر به حتى دخل على النجاشى فأخبره بما أصابهم فما استتم كلامه حتى رماه الطائر فسقط ميتاً فأرى الله النجاشى كيف كان هلاك أصحابه (وقال الواقدى) كان أبرهة جد النجاشى الذى كان فى زمن النبى ﷺ وآمن به .

يتعرض له بسوء فقالت أمه للفارس من أنت الذى أحييت ولدى فقال الملك الموكل بالرحمة أرسلنى الله عز وجل إلى هذا الأسد لأخلص ولدك منه كما رحمت يوم كذا وكذا مسكيناً وتصدقت عليه بقرص من الخبز فلقمة بلقمة ففرحت المرأة بذلك وأخذت ولدها وانصرفت

(وروى أن النبى ﷺ قال إن الصدقة تدفع البلاء المبرم النازل من السماء

(وروت عائشة رضى الله عنها) عن رسول الله

(واختلفوا فى تاريخ عام الفيل) فقال مقاتل كان أمر الفيل قبل مولد النبى ﷺ بأربعين سنة وقال عبيد بن عمير والكلبى كان قبل مولده بثلاث وعشرين سنة وقال آخرون كانت قصة الفيل فى العام الذى ولد فيه رسول الله ﷺ وعلى أكثر العلماء وهو الصحيح يدل عليه ما اخبرنا ابو بكر الجوزقى قال حدثنا عبد العزيز بن أبى ثابت حدثنا الزبير بن موسى عن أبى الجوزاء قال سمعت عبد الملك بن مروان يقول لغياث بن أسيم الكنانى ياغياث أنت أكبر أم رسول الله ﷺ فقال أن رسول الله ﷺ أكبر منى وأنا أسن منه ولد رسول الله ﷺ عام الفيل ووقفت بى أمى على روث الفيل ويدل عليه أيضاً ماروى أن عائشه رضى الله عنها قالت رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان فلما كفى الله أمر أصحاب الفيل عظمت العرب قريشاً وقالوا هم أهل الله وأن الله قاتل عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم والله عز وجل أعلم وأحكم وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الحمد لله الذى قص علينا فى كتابه المبين من أخبار الأنبياء والمرسلين ما به عبرة لكل ذى قلب منيب ليستيقظ الغافلون ويعلم الجاهلون والصلاة والسلام على من أطلعه على ما كان وما يكون وآله ذوى العلوم اللدنية وأصحابه المستضيئين بأنوار معارفه الإلهية .

(وبعد) فقد تم بحمده تعالى طبع كتاب قصص الأنبياء الموسوم بالعرائس الحاوى من أخبار نفائس النفائس للعلامة الفاضل واللوذعى الكامل أبى إسحق أحمد بن محمد الثعلبى رحمه الله وأثابه رضاه آمين .

ﷺ أنه قال السخاء شجرة أصلها فى الجنة وأغصانها متدلية فى الدنيا فمن تعلق بغصن منها جره إلى الجنة وأن البخل شجرة أصلها فى النار وأغصانها متدلية فى الدنيا فمن تعلق بغصن منها جره إلى النار

(وقال) ﷺ البخيل بعيد من الله بعيد من الجنة قريب من النار والسخى قريب من الله قريب من الجنة بعيد من النار أجارنا الله منها ومن عذابها ومن كل عمل يقربنا إليها آمين .

صحيفة ﴿ فهرست كتاب قصص الأنبياء المسمى بعرائس المجالس ﴾

٢ باب فى ذكر بعض وجوه الحكمة الخ
٣ مجلس فى صفة خلق الأرض
٣ الباب الأول فى بدء الارض الخ
٤ « الثانى فى حدود الارض الخ
٥ « الثالث فى ذكر الايام الخ
٥ « الرابع فى ذكر اسمائها والقابها
٦ « الخامس فى ذكر ما زين الله به الخ
٦ « السادس فى عاقبتها ومآلها الخ
٧ « السابع فى وجوه الارض الخ
٧ مجلس فى ذكر خلق السموات الخ
٧ الباب الاول فى بدء خلق السموات
٧ « الثانى فى جواهرها واجناسها
٧ « الثالث فى هيئتها وحدودها
٨ « الرابع فى اسمائها وألقابها
٩ « الخامس فى ذكر الايام الخ
٩ « السادس فى ذكر ما زين الله به الخ
١١ « السابع فى ذكر مآلها وآخر حالها
١١ مجلس فى ذكر خلق الشمس والقمر الخ
١٥ مجلس فى فى قصة آدم عليه الصلاة والسلام
١٥ الباب الاول فى ذكر وجوه من الحكمة وخلق آدم عليه الصلاة والسلام
١٦ الباب الثانى فى خلق آدم الخ
١٧ « الثالث فى صفة نفخ الروح
١٨ « الرابع فى صفة خلق حواء للخ
١٨ « الخامس فى ذكر امتحان الله آدم
٢٠ فصل وابتليت حواء الخ
٢١ الباب السادس فى حال ادم الخ
٢٥ « السابع فى ذكر هبوط إبليس الخ
٢٥ « الثامن فى ذكر ماروى الخ
٢٦ « التاسع فى قصة قابيل وهابيل
٢٨ « العاشر فى ذكر وفاة آدم الخ
٢٩ باب فى الخصائص التى خص الله بها آدم
٢٩ مجلس فى ذكر النبى إدريس عليه السلام
٣٠ قصة هاروت وماروت
٣٢ مجلس فى قصة نوح عليه السلام
٣٦ ذكر خصائص نوح عليه السلام
٣٦ مجلس فى قصة هود عليه السلام
٣٩ « فى قصة صالح عليه السلام
٤٣ « فى قصة إبراهيم عليه السلام الخ
٤٣ الباب الاول فى مولد إبراهيم
٤٤ « الثانى فى خروج إبراهيم الخ
٤٧ « الثالث فى ذكر مولد إسماعيل وإسحق عليهما السلام
٤٩ « الرابع فى القول على بقية قصة زمزم
٥١ « الخامس فى صفة بناء الكعبة الخ
٥٤ « السادس فى ذكر أمر الله تعالى
٥٦ « فى هلاك النمروذ
٥٧ « السابع فى ذكر وفاة سارة وهاجر
٥٨ « الثامن فى ذكر وفاة إبراهيم الخ
٥٨ « التاسع فى خصائص إبراهيم
٥٩ مجلس فى ذكر بعض أخبار إسمعيل وإسحق إبنى إبراهيم عليهم السلام
٦١ مجلس فى قصة لوط عليه الصلاة والسلام
٦٣ « فى قصة يوسف بن يعقوب الخ
٦٣ « الباب الاول فى ذكر نسبه الخ
٦٤ « الثانى فى صفة يوسف الخ
٦٥ « القول فى القصة
٨٣ مجلس فى قصة موسى بن منشا الخ
٨٤ « ذكر بقية عاد الخ
٨٦ « قصة اصحاب الرس
٨٨ « قصة نبى الله ايوب وبلائه عليه السلام
٩٤ « فى قصة ذى الكفل عليه السلام
٩٥ « فى قصة شعيب النبى عليه السلام
٩٦ « فى ذكر صفى الله ونجيه موسى ابن عمران عليه السلام
٩٦ الباب الاول فى ذكر نسب موسى الخ
٩٦ « الثانى فى ذكر مولد موسى الخ
٩٨ « الثالث فى ذكر حلية موسى الخ
٩٨ « الرابع فى قصة قتله القبطى الخ

٩٩ الباب الخامس فى دخول موسى مدين وتزويج شعيب إبنته إياه
١٠٠ « السادس فى ذكر نعت عصا موسى وبدو أمرها
١٠١ « السابع فى صفة المآرب الخ
١٠٢ « الثامن فى ذكر خروج موسى عليه السلام من مدين الخ
١٠٤ « التاسع فى ذكر دخول موسى وهرون على فرعون
١٠٥ « العاشر فى قصة موسى وهرون مع فرعون والسحرة الخ
١٠٦ « الحادى عشر فى قصة حزقيل الخ
١٠٧ « الثانى عشر فى ذكر آسية الخ
١٠٧ « الثالث عشر فى بناء الصرح
١٠٨ « الرابع عشر فى ذكر الآيات الخ
١٠٩ باب فى صفة تنزيل هذه الآيات الخ
١٠٩ فصل فى بعض ماجرى من الاخبار فى الجراد
١٠٩ الباب الخامس عشر فى قصة إسراء موسى عليه السلام فى بنى إسرائيل الخ
١١٢ فصل قالوا لما سار موسى ببنى إسرائيل من مصر الخ
١١٤ الباب السادس عشر فى قصة ذهاب موسى إلى الجبل لميقات ربه الخ
١١٥ فصل فى نسخة العشر كلمات الخ
١١٧ باب فى ذكر قصة بنى إسرائيل الخ
١١٩ « فى قصة قارون حين عصى ربه —
١٢١ فى قصة موسى حين لقى الخضر الخ
١٢٥ فصل فى ذكر جمل من أخبار الخضر عليه السلام وأحواله
١٢٤ فصل فى بدو أمر الخضر عليه السلام
١٣٠ باب فى ذكر قصة عاميل
١٣٢ « فى ذكر بناء البيت المقدس والقربان والتابوت والسكينة وصفة النار التى كانت تأكل القربان وما أمر به موسى عليه السلام من ذلك
١٣٣ باب فى ذكر مسير بنى إسرائيل الخ
١٣٣ فصل فى فضل الشام واهله
١٣٣ ذكر قصة بلعام بن باعوراء
١٣٤ باب فى ذكر النقباء الذين اختارهم موسى
١٣٧ فصل فى ذكر جمل من أخبار عوج بن عنق وأحواله
١٣٧ باب فى ذكر النعمة التى انعم الله بها على بنى إسرائيل فى النبيه وخصهم بذلك ورفع عنهم الهلاك كرامة لنبيه وصفيه موسى عليه السلام
١٢٧ باب فتح اريحاء ونزول بنى إسرائيل الشام
١٣٨ قصة وفاة هرون عليه السلام
١٣٨ ذكر وفاة موسى عليه السلام
١٤٠ مجلس فى ذكر الانبياء والملوك الخ
١٤٠ ذكر خبر حزقيل عليه السلام
١٤١ باب فى قصة إلياس عليه السلام
١٤٥ قصة اليسع عليه السلام
١٤٦ مجلس فى قصة ذى الكفل عليه السلام
١٤٧ مجلس فى قصة عيلى وشمويل الخ
١٤٧ فصل فى سياق آية ألم تر إلى الملأ الآية
١٤٧ القول فى بدء أمر شمويل الخ
١٤٨ ذكر قصة الملك طالوت وإتيان التابوت وحرب جات وما يتعلق به
١٤٩ قصة التابوت وصفته وابتداء أمره
١٤٩ باب فى قصة شمويل الخ
١٥١ باب فى ذكر أمر داود عليه السلام الخ
١٥٢ ذكر بقية قصة طالوت وما كان منه إلى داود عليه السلام بعد قتل جلوت
١٥٤ مجلس فى خلافة داود عليه السلام الخ
١٥٤ باب فى ذكر نسبه عليه السلام
١٥٤ باب ذكر صفته وحليته
١٥٤ باب فى ذكر ماخص الله تعالى به نبيه داود عليه السلام من الفضل الخ
١٥٦ باب فى قصة داود عليه السلام الخ
١٥٩ باب فى ذكر خروج ابن داود على أبيه الخ
١٦٠ باب فى قصة اصحاب السبت

١٦١ باب فى قصة داود وسليمان عليهما السلام فى الحرث
١٦١ باب فى قصة استخلاف داود إبنه الخ
١٦٢ باب فى ذكر وفاة داود عليه السلام
١٦٢ مجلس فى قصة سليمان عليه السلام
١٦٣ باب فى صفة حليته عليه السلام
١٦٣ باب فيما خص الله نبيه سليمان عليه السلام حين ملكه من أنواع المناقب والمواهب وغير ذلك
١٦٩ حديث القبة
١٦٩ قصة مدينة سليمان عليه السلام التى كان يسافر بها فى الهواء
١٧٠ صفة كرسى سليمان عليه السلام
١٧٠ صفة بنيان بيت المقدس وبدء أمره
١٧٣ باب فى قصة بلقيس ملكة سبأ والهدهد وما يتصل به
١٧٤ صفة القصر الذى بنته بلقيس
١٧٨ باب فى ذكر غزوة سليمان الخ
١٨٠ باب فى ذكر وفاة سليمان عليه السلام
١٨٢ مجلس فى قصة بختنصر وحبر شعيا وأرميا ودانيال وعزير
١٨٢ قصة شعيا عليه السلام
١٨٤ قصة ارمياء عليه السلام
١٨٧ قصة دنيال عليه السلام
١٨٩ خبر وفاة دانيال عليه السلام
١٩١ باب فى ذكر الذى مر على قرية الخ
١٩٢ باب فى ذكر تمام قصة عزير
١٩٣ مجلس فى ذكر غزوة بختنصر الخ
١٩٣ مجلس فى ذكر لقمان الحكيم الخ
١٩٤ باب فى ذكر بعض بعض ماروى من حكم لقمان ومواعظه المذكورة فى القرآن
٢٠٠ مجلس فى ذكر قصة قصة ذى القرنين الخ
٢٠٠ باب فى نسبه ولقبه عليه السلام
٢٠٠ باب فى ذكر بدو أمره
٢٠١ باب فى الحوادث التى كانت فى أيام ذى القرنين بعد قتل دارا الخ
٢٠٣ باب باب فى صفة سد ذى القرنين الخ
٢٠٥ باب فى دخول ذى القرنين الظلمات الخ
٢٠٧ مجلس فى قصة زكريا وإبنه يحيى
٢٠٧ نسب زكريا عليه السلام
٢٠٧ باب فى ذكر مولد مريم عليها السلام الخ
٢٠٩ باب فى ذكر مولد يحيى بن زكريا الخ
٢١٠ باب فى صفته وحليته عليه السلام
٢١٠ فصل فى نبوته وسيرته وذكر زهده الخ
٢١٢ باب فى مقتل يحيى عليه السلام
٢١٣ ذكر مقتل زكريا عليه السلام
٢١٣ مجلس فى مولد عيسى عليه السلام
٢١٤ باب فى ذكر ميلاده عليه السلام
٢١٦ « فى رجوع مريم بابنها عيسى
٢١٦ « فى خروج مريم وعيسى
٢١٧ « فى صفة عيسى وحليته الخ
٢١٧ « فى ذكر الآيات والمعجزات الخ
٢١٩ « فى ذكر رجوع مريم وعيسى عليهما السلام إلى بلادهما الخ
٢٢٦ باب فى قصة الحواريين عليهم السلام
٢٣٠ ذكر خصائص عيسى عليه السلام
٢٣٢ ذكر حديث جامع فى هذا الباب
٢٣٣ نزول المائدة
٢٣٦ ذكر نزول عيسى من السماء الخ
٢٣٦ ذكر وفاة مريم إبنة عمران
٢٣٧ ذكر نزول عيسى من السماء الخ
٢٣٧ باب فى قصة الرسل الثلاثة الخ
٢٣٨ قصة يونس بن متى عليه السلام
٢٣٩ باب فى أصحاب الكهف
٢٤١ مجلس فى ذكر جرجيس عليه السلام
٢٤٦ باب فى قصة شمسون النبى عليه السلام
٢٤٧ باب فى قصة أصحاب الأخدود
٢٤٩ باب فى قصة اصحاب الفيل

تمت والحمد لله

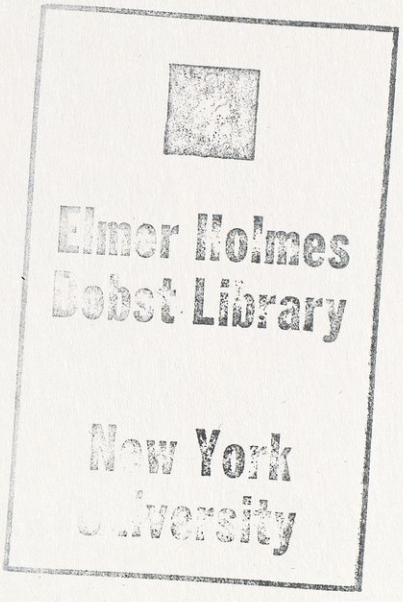
Elmer Holmes
Bobst Library
New York
University

NYU - BOBST
31142 01339 9699
BP166.4 .T5 1950z